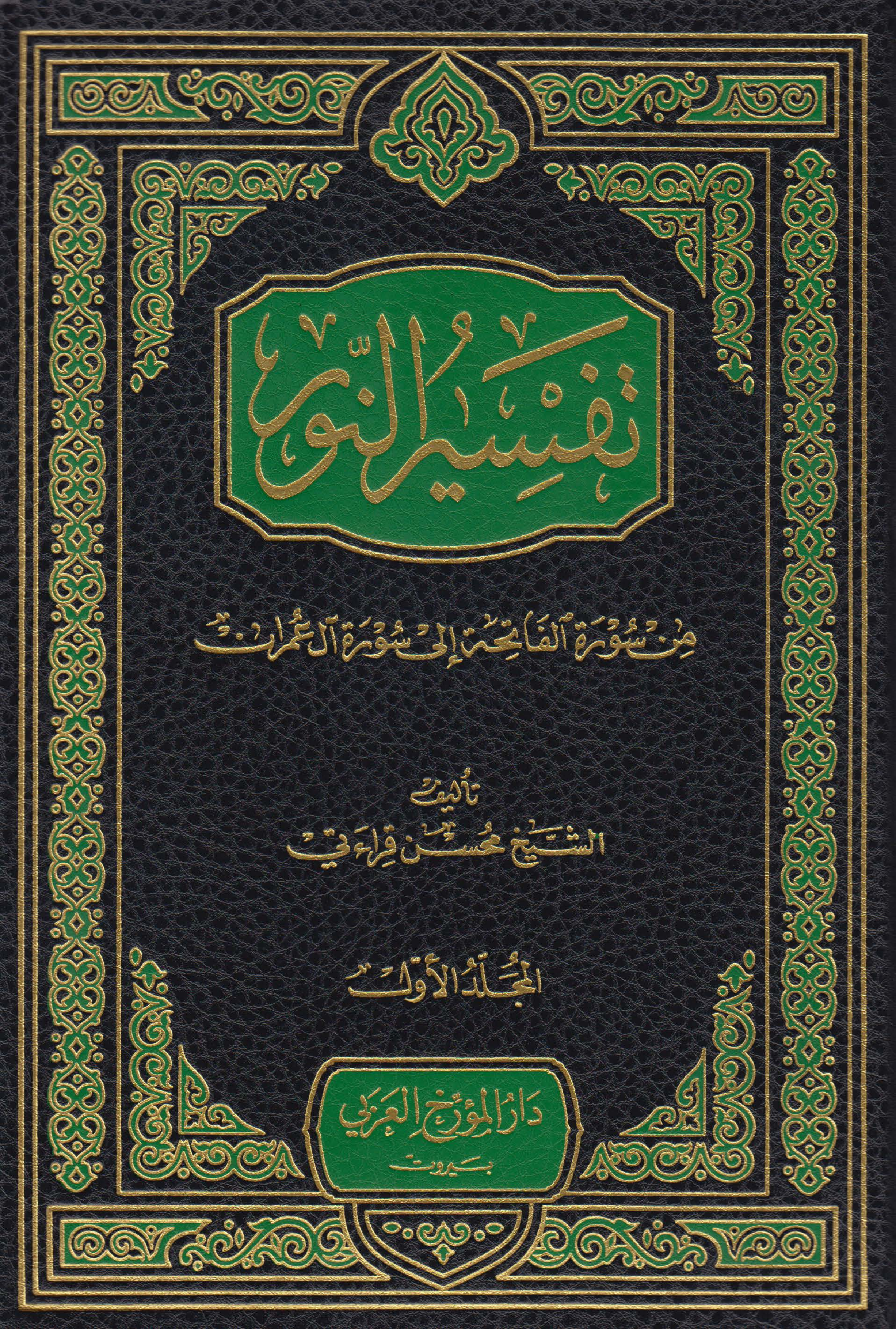


تفسير النور
من سورة الفاتحة إلى سورة آل عمران
تأليف
الشيخ محسن قراءتي
المجلد الأول
دار المؤرخ العربي
بيروت


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

تفسير النور



من سورة الفاتحة إلى سورة آل عمران

تأليف

الشيخ محسن قراءتي

ترجمة

حسين صافي

مراجعة الترجمة

محمد حسن زراقط

المجلد الأول

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان

الطّبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية





بيروت - حارة حريك - قرب جامع الحسنين - فوق صيدلية دياب - ط ٢
تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص.ب: ١٢٤ / ٢٤
البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com
www.al-mouarekh.com



مقدمة المؤلف

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمّد وأهل بيته المعصومين

كنت قد أنهيت دروس مرحلة السطح وجزءًا من مرحلة الخارج في الحوزة العلمية في قم، عندما خطرت لي فكرة الغوص في أعماق القرآن الزاخرة، للبحث عن جواهره المكنونة، فكنّا حلقة من الأصدقاء التأم شملنا، وتعاهدنا أن يطالع كلّ منّا أحد تفاسير القرآن فيتدارسه ويلخّصه، وقد بقينا على هذا الحال مع أجزاء من القرآن الكريم.

في تلك الأيّام، تناهى إلى علمي أنّ سماحة آية الله الشيخ مكارم الشيرازي (دام ظلّه)، انبرى مع ثلّة من العلماء الأفاضل لتدوين تفسير للقرآن، وكان سماحته قد اطّلع على كتاباتي في التفسير وسُرّ بها، فكان ذلك سببًا لكي أنضمّ إلى تلك الثلّة الطيبة في مسيرتها القرآنية.

واستمرّت تلك المسيرة خمسة عشر عامًا من العمل الدؤوب انتهت مع نشر المجلد السابع والعشرين من ذلك التفسير الذي أخذ اسم: «تفسير الأمثل»، وقد أعيد طبع التفسير حتى اليوم مرّات ومرّات، كما تُرجم بلغات عدّة. كان التفسير في منتصف الطريق تقريباً حينما لاح فجر الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني ﵀، فعزمت منذ الأيام الأولى من عمر الثورة وبتشجيع من المرحوم العلّامة الشهيد الشيخ مرتضى مطهري على بدء نشاطي في إذاعة الجمهورية الإسلامية في إيران وتلفزيونها ضمن برنامج بعنوان: «**دروس من القرآن**» تُبثُّ يوم

الخميس من كل أسبوع، وها هو البرنامج يطفئ هذه الأيّام شمعته الثالثة والثلاثين.

ومع اكتمال مسيرة «تفسير الأمثل» وانتهاء الدور المنوط بي، فكّرت في التحضير لدروس إذاعية في التفسير تناسب مستوى فهم العامة، فشرعت بتسجيل ملاحظاتي بالاستعانة ـ مضافاً إلى «تفسير الأمثل» ـ بعشرة تفاسير أخرى، وقد شكّلت مادّة البرنامج الإذاعي «**مرآة الوحي**» طيلة السنوات الماضية، وهو يقدّم أسبوعياً في الأيّام العادية، ويومياً في شهر رمضان المبارك.

لطالما عُرض عليّ تدوين هذه الدروس الإذاعية لتحتويها دفّتا كتاب، حتى لبّيت النداء وباشرت بتدوينها فاكتملت منها أجزاء، وقرأتها على بعض علماء الحوزة العلمية في قم، فزادني ذلك ثقة واطمئناناً بنهجي في التفسير وفهمي له.

مزايا هذا التفسير

١ ـ لقد تجرّد هذا التفسير من المصطلحات المتخصّصة الأدبية والفقهية والكلامية والفلسفية التي يتعسّر فهمها إلّا على النخبة، وتمّ الاكتفاء بالدروس القرآنية التي يمكن ترجمتها إلى لغات العالم الحيّة، لتكون في قالب العناوين العريضة (المانشيت) أو الرسائل والحكم القصيرة.

٢ ـ الاحتراز من التفسير بالرأي، والوقوف عند منطوق نصوص الآيات أو روايات أهل البيت عليهم السلام.

٣ ـ استلهام معظم التعاليم المستفادة من الآيات والتعاليم التي تدلّ عليها، من النصوص التفسيرية المعتبرة لدى الفريقين، أمّا القلّة الباقية فهي ملاحظات شخصية لي أو لزملائي الأعزاء.

ولأجل التعرّف على النهج المتّبع في تدوين هذا **التفسير**، نستعرض النقاط الآتية التي تبيّن مراحل العمل وهي يمكن أن تشكّل خارطة طريق بالنسبة للشباب طلبة العلوم الدينية في نشاطاتهم في مجال التفسير.

منهج العمل

في البداية، تمّ اختيار ١٢ تفسيراً مرموقاً لمفسّرين شيعة وسنّة، متقدّمين ومتأخرين، وعكف زملائي الأفاضل على مطالعتها بصورة دقيقة، وتقميش مضامينها وملاحظاتها التفسيرية، ثمّ تدوينها ووضعها بين يديّ.

بعد ذلك قمت بمطالعة تلك الملاحظات، واستكملتها ببحوثي ومتابعاتي في هذا المجال، ثمّ أضفت إليها ـ في ضوء التطلّعات الدينية للمجتمع ـ مجموعة من الرسائل القرآنية العامة التي تتناسب وآمال الجيل الجديد المتعطّش إلى الارتواء من نمير القرآن الصافي، وعرضناها في تفسيرنا هذا تحت عنواني الإشارات والتعاليم، بأسلوب مبسّط خالٍ من التعقيد.

منهج العرض

تُعرض موضوعات الآية ضمن ٤ مراحل هي:

١ ـ تنضيد نصّ الآية وتشكيلها، وهي مرسومة بخطّ عثمان طه، ومن ثمّ تدقيقها مرّات عدّة.

٢ ـ **الإشارات**، وقد احتوت على الأمور الآتية:

أ ـ تبيين جذر بعض المفردات واشتقاقاتها، بهدف توضيح معاني المفردات الصعبة في الآية.

ب ـ بيان سبب نزول الآية إذا كان له دور في فهم مضمون الآية.

ت ـ ذكر الآيات ذات الصلة بالآية المفسّرة، متى كان لذلك تأثير كبير على الفهم الموضوعي للقرآن.

ث ـ ذكر الروايات بعد الآية، وقد اكتفينا بذكر أمثلة قليلة منها؛ رغم وفرة ما هو موجود منها وكثرته.

ج ـ ذكر بعض الإيضاحات رغبةً في توضيح الآية.

ح ـ طرح بعض الأسئلة، والإجابة عنها.

٣ ـ **التعاليم**: وهي الهدف الرئيسي لكاتب السطور من هذا التفسير، ليؤكّد من خلالها أنّ القرآن وضع نهج حياةٍ أمام الإنسانية في كلّ الأعصار والأجيال. طبعاً مستند تصوّرات المؤلف كما ورد في ختام كل درس، يندرج ضمن أحد الأمور الآتية:

أ ـ مفردات كلمات كلّ آية.

ب ـ عبارة مؤلفة من عدّة كلمات.

ت ـ العلاقة بين صدر الآية وذيلها.

ث ـ علاقة الآية بالآيات السابقة.

٤ ـ أوردنا في الهوامش ـ باختصار ـ تخريج الآيات والروايات وكتب التفسير، كما استوعبت الهوامش بعض الإيضاحات المتعلقة بالآية، والتي لا تندرج ضمن الإشارات، ولا التعاليم. وبالنسبة لمصادر التفسير، أغفلنا في كثير من الأحيان ذكر المجلد والصفحة، في الحالات التي يكون الاقتباس مرتبطًا بالآية التي نحن بصدد تفسيرها.

وختاماً، لا يسعني إلّا أن أتوجّه بخالص شكري لجهود الباحثين السادة: جواد بهشتي، رحمت جعفري، حسن دهشيري، محمود متوسّل، لمتابعتهم وبحثهم في التفاسير.

أسأل الله أن يُلهمنا توفيق التدبّر والعمل بعلوم القرآن وترويجها ونشرها، وأن يمنّ علينا بإنجاز هذا العمل المقدس، وأن يجعل القرآن نبراساً لنا في الدنيا وفي ظلمة البرزخ ويوم الحشر.

وكلمتي إلى القرّاء الأعزاء ألّا يكتفوا من تعلّم القرآن بالتلاوة والتجويد والترتيل، وإنّما أدعوهم إلى أن يضعوا نصب أعينهم التدبّر في القرآن والعمل بأحكامه.

كما أرجو من السادة العلماء ورجال الدين الأفاضل في ميادين التدريس والدعوة أن يجعلوا من القرآن الكريم غايةً لهم وهدفًا، وأن يكون حاضرًا بين

ظهرانيهم، ويعقدوا حلقات تفسير القرآن في المراكز العلمية والثقافية والمساجد والمدارس في كل منطقة يحلّون فيها وفي أيّ مناسبة.

كما لا يفوتني بهذه المناسبة أن أشكر كل من ساهم بمعرفتي بالإسلام والقرآن وأهل البيت ﷺ، وأبتهل إلى الله المنّان أن يجزيهم خير الجزاء، لا سيّما أساتذتي ووالديّ.

والشكر موصول أيضاً لجميع الذين أعانوني على تأليف وتدوين وتصحيح وطبع ونشر هذا التفسير، وكل من وجّه نقدًا أو مقترحًا بنّاءً ومفيدًا ليخرج العمل في أبهى حلّة.

ولا أكتمكم القول، إنّي بذلت جهودًا كبيرة في تدوين هذا التفسير، لكنّي غير متيقّن من أنّ صفحة واحدة منه ستأخذ بيدي في يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون!

وعلى أيّ حال، ليس لنا رجاء إلّا أن يغمرنا الله بألطافه، وأن يحيل كتاباتنا أنوارًا وضياءً في ظلّ آيات القرآن، كما يحيل التراب في الروضة إلى زهوراً.

أللّهمَّ آمين

محسن قراءتي



مقدمة الترجمة

عن الكاتب والكتاب:

عرفتُ سماحة الشيخ محسن قراءتي منذ زمنٍ بعيد ربما يزيد على ثلاثين سنة، يوم اطّلعت على كتاب له ترجم إلى اللغة العربية هو كتاب «**دروس من القرآن**»، واكتشفت يومها من لغة الكتاب وطريقة المؤلف فيه اهتمامًا قرآنيًا ملحوظًا، ولم أكن أعرف أنّ هذا الرجل همّه الأوحد ومحور نشاطه هو القرآن الكريم. ثم دارت الأيام وتعرّفت إلى هذا الرجل القرآنيّ متحدّثًا عبر الإذاعة الإيرانية والتلفزيون، لأكتشف فيه صورة جديدة لم تكن قد انكشفت من كتابه، وهي صورة الداعية والمبلغ الذي ينطلق من القرآن الكريم لإيصال كل الرسائل الثقافية والاجتماعية التي يريد إيصالها. وبعد ذلك شاءت تقديرات الله سبحانه وتعالى أن أحظى بثقة سماحته لأكون مشرفًا على مشروع ترجمة كتاب «**تفسير النور**»، الذي هو كتاب مبنيٌّ على طريقة مختلفة عن المألوف في التفسير.

فالكتاب لا يدخل إلى التفسير على طريقة سائر الكتب التي تذكر الآية ثمّ تدخل في النقاشات العلمية واللغويّة المرتبطة بها، بل هو يعمل بطريقة مختلفة وجديدة. وحاصل هذه الطريقة الاكتفاء من الأبحاث اللغوية بالحدّ الأدنى بما يكفي لفهم الآية وتوضيح دلالة مفرداتها، وهذا ما يقدّمه الكتاب تحت عنوان: «إشارات». ثمّ بعد هذه الإشارات ذات الطابع اللغوي والعلمي، ينتقل المؤلف إلى ما أسميناه في الترجمة بـ: «التعاليم»، وترتكز فكرة التعاليم هذه إلى أنّ كل آية من آيات كتاب الله سبحانه وتعالى تحمل في طيّاتها رسائل نظرية أو عمليّة ينبغي على قارئ القرآن أن يقف عندها مليًّا كلّما مرّ على القرآن قراءة أو تدبّرًا.

عن طريقة العمل:

ولمّا كان الكتاب كبيرًا يصعب على شخص واحد تولّي ترجمة أجزائه العشرة جميعًا، فقد وُزِّعت المجلدات على عدد من المترجمين ذُكرت أسماء كلٍّ منهم في المجلد الذي ترجمه وذلك من باب حفظ الحقوق وتحميل المسؤوليات، ولذلك لن أشير في هذه المقدّمة إلى أسماء المترجمين. وقد أثار تعدد المترجمين مشكلة التفاوت في اللغة والأسلوب بين مترجم وآخر ما اقتضى إعادة النظر في الترجمة وضبط الصياغة بطريقة تقرّب بين الترجمات ولا تلغي جهود المترجمين ولا تمحو خصوصيّاتهم. وقد بذلنا جهدًا كبيرًا في ضبط النص كي يكون خاليًا من الأخطاء وخاصّة في كتابة الآيات، ولذلك استفدنا من الخط المصحفي في كل الكتاب، مع ما سبّب لنا ذلك من صعوبات ومزيدًا من المشاقّ وخاصة في تدوين موارد الاستشهاد من الآية، التي قد تكون كلمة متكرّرة في القرآن الكريم مرّات عدّة مع اختلاف موقعها من الإعراب، أو قد يتطابق إعرابها ولكن تختلف علامات الوقف أو المدّ المدوّنة فوقها أو تحتها، وقد بذلنا جهدًا كبيرًا كي يتطابق مورد الاستشهاد مع مفردات الآية التي هي مورد الشرح والمعالجة.

التحرير وضبط النص:

مرّ هذا العمل بعد الترجمة بمراحل من المراجعة والضبط إلكترونيًّا وورقيًّا، وقد تعاقبت على تحرير نصوص هذا الكتاب وبعض مجلّداته أيدي محرِّرَيْنِ أو أكثر أحيانًا؛ ولأجل هذا لم نستطع ذكر أسماء المحررين الذين أسهموا في إخراج هذا الكتاب إلى دائرة الضوء على المجلدات التي حرَّروها؛ ولذلك أجد لزامًا عليّ أن أذكر أسماءهم مرتَّبة بحسب حروف الهجاء حفظًا لحقوقهم واحترامًا لجهودهم، وهم:

١ ـ أمين يوسف

٢ ـ حسان الكموني

٣ ـ خضر حيدر

٤ ـ رائدة منعم

٥ ـ زكريا شاهين

٦ ـ فاطمة زراقط

٧ ـ فيصل أشمر

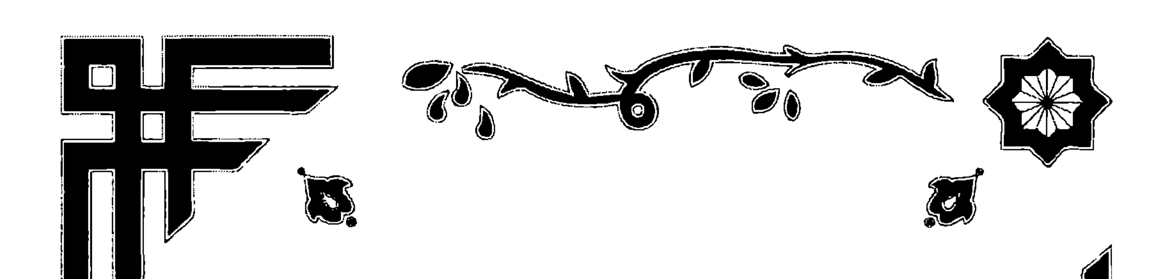
٨ ـ هدى زراقط

وفي الختام، لا أنسى الإشارة إلى سماحة الشيخ نجف علي ميرزائي الذي كان له دور في إنجاز هذا الكتاب. وأشكر فضيلة الشيخ محمود متوسل على حسن متابعته وإدارته الأمور. كما وأتقدم ببالغ الاعتذار إلى سماحة الشيخ محسن قراءتي الذي كان يتوقّع إنجاز العمل في فترة أقصر، ووعدته بذلك ولم أستطع الوفاء بهذا الوعد. ولا أنسى توجيه الشكر إلى مؤسسة دار المؤرخ العربي بشخص مديرها العام الأستاذ حامد الخفاف، ومدير دائرة النشر الأستاذ علي دهيني لإعادة قراءته العمل وتدقيقه مجدَّداً. وأخيرًا أشير إلى أنّ هذا الكتاب عملٌ مشترك وهو نتيجة جهود أشخاص متعددين، وقد حاولنا أن يكون خاليًا من الأخطاء والاشتباهات، ولكنّ العصمة محصورة بأهلها فالمرجوّ ممّن يطّلع على خطإٍ أن لا يغضّ الطرف ويتكرّم بالإشارة إليه لتصحيحه في طبعاتٍ لاحقة إن شاء الله.

محمد حسن زراقط

بيروت

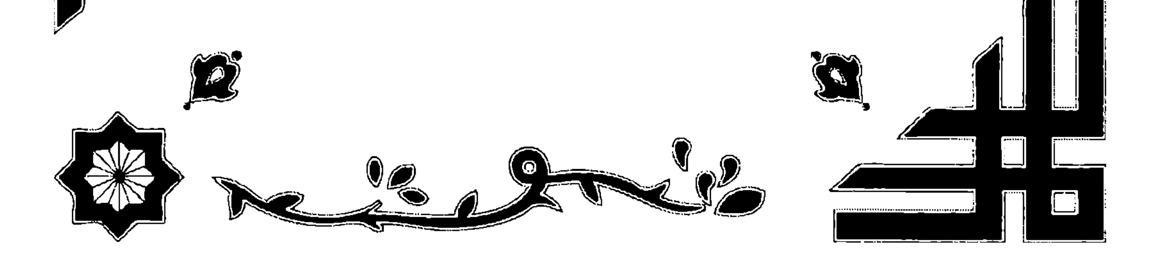
رمضان، ١٤٣٤



سُورَةُ الفَاتِحَةِ

السورة: ١ ـ الجزء: ١

عدد الآيات: ٧ آيات



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ
﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

ملامح السورة

سورة الحمد أو فاتحة الكتاب، تتألّف من سبع آيات[1] وهي السورة الوحيدة التي يجب على المسلم قراءتها عشر مرّات يوميّاً أثناء الصلوات الخمس، وتبطل صلاته في حال تركها عمداً. **«لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب»**[2].

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: **«يا جابر! ألا أُعَلّمُكَ أفضَلَ سُورَةٍ أنزَلَها اللهُ في كتابه؟ فقالَ لَهُ جابِر: بَلى بَأبي أنتَ وأمّي يا رَسُولَ الله! عَلّمنِيهَا. فَعَلّمَهُ «الحَمد» أمّ الكِتاب»**[3].

كما نُقل عن ابن عبّاس قوله: **«إنّ لِكُلّ شَيءٍ أساساً؛ وَأساسُ القُرآنِ فاتِحَة الكِتابِ»**[4].

---

(١) العدد (٧) هو عدد السموات، وعدد أيّام الأسبوع والطواف حول الكعبة المشرّفة، والسّعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات في أثناء مناسك الحجّ.

(٢) المستدرك، ج٤، ح٤٣٦٥.

(٣) البرهان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٩٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج ١، ص ١١٣.

وقد ورد في حديث نبوي شريف: **«لَو قُرِئَت الحَمدُ على ميّت سبعين مرّة ثمّ ردّت فيه الرّوح ما كان عجباً»**(١).

تكشف تسمية النبيّ الأكرم ﷺ(٢) لهذه السورة بـ **«فاتحة الكتاب»** عن موضوع مهمّ، وهو أنّ آيات القرآن جُمِعت على عهده ﷺ في مصحف تصدّرته هذه السورة كما أمر ﷺ بذلك.

ونقرأ في حديث الثقلين أنّ النبيّ الأكرم ﷺ يوصي بقوله: **«إنّي تاركٌ فيكم الثقلَين كتاب الله وعترتي»**(٣) يرشدنا هذا الحديث أيضاً إلى أنّ آيات الوحي الإلٰهيّ قد جُمِعت في عصر الرسول الكريم ﷺ وسمّيت بـ «كتاب الله»، واشتهرت بهذا الاسم بين المسلمين.

تتضمّن آيات سورة الفاتحة المباركة إشارات إلى الله تعالى وصفاته، وكذا إلى المعاد، ومعرفة سبيل الحقّ طلبه والإذعان لحاكمية الله تعالى ولربوبيّته. كما تتضمّن السورة الابتهال والدعاء لمواصلة طريق أولياء الله، والبراءة من الضالّين والمغضوب عليهم.

سورة الحمد ـ كسائر آيات القرآن ـ برءٌ وشفاءٌ لآلام الجسم وأمراض الروح(٤).



---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٥٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٠٠.

(٤) نقل العلّامة الأميني رحمه الله في تفسير فاتحة الكتاب روايات كثيرة في هذا المجال.

الدروس التربوية في السورة

قبل الشروع في تفسير سورة الحمد، نرسم أوّلاً ملامح أبرز الدروس التي تتضمّنها، ثمّ نتبع ذلك بتفسير آياتها في الصفحات الآتية.

١ ـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ إعلان من الإنسان بالاستغناء عن كلّ شيء إلّا الله عند الشروع في أيّ عمل.

٢ ـ ويستشعر مع ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بأنّه المربوب والمملوك، فيطرح عنه الأنانية والكِبر.

٣ ـ ثمّ يجعل من كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جسراً يصله بجميع أجزاء الوجود.

٤ ـ ليتفيّأ في ظلّ ألطاف ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

٥ ـ وينزع حجاب الغفلة عن مستقبله مع ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٦ ـ ويطرد الرياء والشهرة بترديده ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

٧ ـ ولا يخاف القوى الكبرى ما دام يلهج بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٨ ـ ثمّ يستيقن من ﴿أَنْعَمْتَ﴾ بأنّ الله هو مصدر النعم.

٩ ـ فيبتهل إليه بـ ﴿اهْدِنَا﴾ ليهديه سواء السبيل والطريق القويم.

١٠ ـ ويعلن تضامنه مع طلاب الحق عبر ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

١١ ـ وبقوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ يجهر ببراءته من الباطل وأهله.



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾

إشارات:

- اعتادت الأمم والشعوب على أن تبدأ كل عمل هام ذي قيمة باسم كبير من رجالها تكنّ له الحبّ والتبجيل؛ ليحظى ذلك العمل بالبركة وحسن الختام. طبعاً، كانت تعمل تلك الأمم بوحي من معتقداتها، صحيحة كانت أم فاسدة. فكانت تبدأ العمل باسم الأصنام والطواغيت تارةً، وباسم الله وعلى يد أوليائه، تارةً أخرى، كما حصل مع رسول الله ﷺ، عندما ضرب أوّل فأس في الأرض في معركة الخندق[(١)].

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، أو البسملة فاتحة كتاب الله. لم ترد ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ في مطلع القرآن وحده، بل هي فاتحة جميع الكتب السماوية، وعلى رأس الأعمال لجميع الأنبياء؛ لذلك حينما كانت سفينة نوح عليه السلام تمخر عباب الأمواج الهادرة، قال نوح لأتباعه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾[(٢)].

وكذلك النبيّ سليمان عليه السلام حين بعث برسالته إلى ملكة سبأ يدعوها للإيمان بدأها بعبارة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[(٣)].

- يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**إنّ العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فيقول بسم الله الرحمن الرحيم فإنّه يُبارك فيه**». كما قال عليه السلام لشخصٍ كان يكتب عبارة «**بِسْمِ اللهِ**»: «**جَوِّدها**»[(٤)].

- وردت تأكيدات كثيرة على ذكر عبارة «**بِسْمِ اللهِ**» لدى البدء بأيّ عمل؛ في الأكل والنوم والكتابة وركوب المركب والسفر... وكثير من الأعمال الأخرى، حتى إنّ الذبيحة يُحرم أكلها ما لم يذكر اسم الله عليها، وفي هذا دلالة على وجوب أن تكون بوصلة أعمال الإنسان ـ بما في ذلك طعامه ـ متّجهة نحو الله تعالى.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٨.
(٢) سورة هود: الآية ٤١.
(٣) سورة النمل: الآية ٣٠.
(٤) كنز العمّال، ح ٢٩٥٥٨.

ونقرأ في الحديث: «لا تنس «باسم الله» حتى في بيت شعر واحد». فضلاً عن روايات كثيرة في ثواب من يعلّم الطفل البسملة لأوّل مرّة[١].

سؤال: لماذا يوصى بالبسملة عند الشروع في الأعمال؟

جواب: إنّ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ هي عنوان المسلم وعلامته المميّزة، ولذا، يجب أن تتّسم أعماله كلّها بسمة إلٰهيّة، تماماً كما هو الحال مع المصنع الذي يضع علامته التجارية المميّزة على منتجاته، بصورة جزئية أو عامّة، كأن يضع، مثلاً، مصنع الأواني الخزفية علامته على جميع منتجاته من الأواني، كبيرة كانت أم صغيرة. أو الأعلام الرسمية التي نشاهدها ترفرف على أسطح البنايات والدوائر الرسمية والمدارس والقواعد العسكرية، وكذلك على صواري السفن التي تمخر عباب البحار والمحيطات، وأيضاً على طاولة الموظفين في الدوائر الحكومية.

سؤال: هل البسملة آية مستقلة؟

جواب: نُقل عن أهل بيت الرسول ﷺ وهم الذين سبقوا أئمة المذاهب الفقهية بقرنٍ من الزمان، وشربوا من كأس الشهادة في سبيل الله، وشهد لهم القرآن صراحةً بالعصمة والطهارة، نُقل عنهم أنّ آية ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ جزء من سورة الفاتحة وسور القرآن كلّها. وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره «**مفاتيح الغيب**» ستّة عشر دليلاً على كون البسملة جزءاً من السورة. وللآلوسي صاحب تفسير «**روح المعاني**» الرأي نفسه، وقبلهما ذكر ابن حنبل في مسنده أنّ البسملة جزء من السورة[٢]. هذا وقد حمل هؤلاء على الذين لم يعتبروا البسملة جزءاً من السور أو كانوا يسقطونها في الصلاة. جاء في مستدرك الحاكم:

«صلّى معاوية بالمدينة فقرأ بالبسملة في الفاتحة جهراً ولم يقرأ بها في السورة بعدها ولم يكبّر عند الإهواء، فناداه المهاجرون: يا معاوية أسرقت الصلاة أم نسيت[٣]»؟؟!

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٣.
(٢) مسند أحمد، ج ٣، ص ١٧٧ و ج ٤، ص٨٥.
(٣) المستدرك، ج ٣، ص ٢٣٣.

لقد واظب الأئمة المعصومون ﷺ على الجهر بالبسملة في الصلاة. وكان الإمام الباقر ﷺ يقول في الذين لا يقرأون البسملة في الصلاة، أو لا يعدّونها جزءاً من السورة: «**سرقوا أكرم آية**»(١).

وينقل البيهقي في سننه أحاديث تدل على أن البسملة جزء من السورة(٢).

في تفسيره سورة الحمد يقول الشيخ مرتضى مطهّري ﷺ إنّ ابن عباس، وعاصم، والكسائي، وابن عمر، وابن الزبير، وعطاء، وابن طاووس، والفخر الرازي، والسيوطي، هم ممّن يرى جزئية البسملة للسورة.

ينقل القرطبي في تفسيره عن الإمام الصادق ﷺ: «**البَسمَلَة تيجان السُّوَر.**»(٣). وحدها سورة البراءة التي لم يُبَسمل في أوّلها والسبب كما يقول الإمام علي ﷺ أنّ البسملة هي كلمة أمن ورحمة، وإعلان البراءة من الكفّار والمشركين لا ينسجم مع البدء بالحديث عن المحبة والرحمة(٤).

خصائص البسملة

١ ـ البسملة هي اللون والعلامة الإلٰهيّة وهي دالّة على الوجهة التوحيدية(٥).

٢ ـ البسملة هي رمز التوحيد، وفي المقابل، فإنّ ذكر أسماء الآخرين بدلاً عنها يعتبر رمزاً للكفر، والشرك هو أن يقرن اسم الله تعالى بأسماء الآخرين. فإذن، لا اسم إلى جانب اسم الله ولا بديل عنه(٦).

٣ ـ البسملة رمز البقاء والخلود، وكل شيء فانٍ ما لم يصطبغ بمسحة إلٰهيّة(٧).

٤ ـ البسملة تتضمّن سرّ الحبّ لله والتوكّل عليه، حبّ من هو رحمان ورحيم، ونستهلّ أعمالنا بالتوكّل عليه، فذكره مجلبة للرحمة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨٥، ص ٢٠.
(٢) سنن البيهقي، ج ٢، ص ٥٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج ١، ص ٩٢.
(٤) تفسير مجمع البيان والفخر الرازي.
(٥) يقول الإمام الرضا ﷺ: **بسم الله** علامة العبوديّة لله على نواصينا. تفسير نور الثقلين.
(٦) ليس فقط الذات الإلٰهيّة المقدّسة، بل حتى اسمه منزّه عن كلّ شرك؛ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، الشروع بالعمل باسم الله ومحمد ﷺ أيضاً محرّم. إثبات الهداة، ج ٧، ص ٤٨٢.
(٧) ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، سورة القصص: الآية ٨٨.

٥ ـ البسملة انعتاق من الزهو والكبر، وهي عبارة عن تقديم فروض الولاء والتذلّل والعجز بين يدي الله سبحانه.

٦ ـ البسملة هي الخطوة الأولى على مسير العبوديّة لله.

٧ ـ البسملة رمز فرار الشيطان، فأنّى للشيطان أن يؤثّر في من كان الله معه؟

٨ ـ بالبسملة تكتسِب الأعمالُ قدسيةً وحصانةً.

٩ ـ البسملة تعني ذكر الله، تعني: إلهي، أنا لم أنسكَ.

١٠ ـ البسملة تعبير عن دوافعنا، أي: إلهي أنت مقصدي، لا الناس، ولا الطواغيت، ولا التجليات، ولا الأهواء.

١١ ـ يقول الإمام الرضا عليه السلام: **«إنّ البسملة أقرب إلى الاسم الأعظم من سواد العين إلى بياضها»**[١].

التعاليم:

١ ـ افتتاح السورة بالبسملة يعني أنّ آياتها نازلة من لدن مبدأ الحقّ ومظهر الرحمة.

٢ ـ ذكر البسملة في بداية الكتاب السماوي، يعني أنّ طريق الهداية الوحيد يمرّ عبر الاستعانة بالله[٢].

٣ ـ كلام الله إلى الناس يبدأ بالبسملة، والناس يفتتحون دعاءهم لله بها.

٤ ـ رحمة الله أبدية كذاته المقدّسة، ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٥ ـ إظهار الرحمة الإلٰهيّة في وجوهٍ وصيغٍ عدّة، من باب المبالغة والتوكيد لهذه الرحمة (صيغة «الرحمن»، وصيغة «الرحيم») ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

---

(١) تفسير راهنما.

(٢) لعلّ معنى ما يقال: إنّ جميع القرآن تلخّص في سورة الحمد، وإنّ جميع سورة الحمد تلخّصت في البسملة، وجميع البسملة تلخّصت في حرف «الباء»، إنّ خلق الكون وهدايته رهنٌ بالاستعانة به والاستمداد منه، كما أنّ رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله شرعت أيضاً باسمه، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

٦ ـ لعلّ في ورود عبارة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في بداية الكتاب دلالة على أنّ القرآن مظهر الرحمة الإلٰهيّة، كما أنّ مبدأ الخلق والبعثة مظهران من مظاهر لطفه ورحمته ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

إشارات:

□ «الرَّبُّ» هو المالك المتصرّف ويُطلق في اللغة على السيّد وعلى المتصرّف للإصلاح والتربية، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى، فهو المالك الحقيقي للعالم، وهو المدبّر له ومُصلحه، إذن، الوجود يسير نحو الكمال، ضمن المسار الذي عيّنه الله تعالى له.

□ عدا سورة الفاتحة، ثمّة أربع سور أخرى تفتتح بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وهي الأنعام والكهف وسبأ وفاطر، ووحدها سورة الفاتحة من بين هذه السور، تستكمل الحمد بعبارة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

□ الحمد، مفهوم مركّب يشتمل المدح والشكر، فالمرء يحمد الجمال والكمال، ويشكر للآخرين نعمهم وخدمتهم وإحسانهم.

فالله سبحانه وتعالى أهلٌ للحمد لكماله وجماله، ويستحقّ الشكر على إحسانه ونعمائه.

□ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أفضل أنواع الحمد، فالإنسان كائناً من كان وأينما كان وبأيّ لسان يحمد الكمال والجمال، وهو بذلك إنّما يحمد منبع ذلك الكمال وأصله.

بيد أنّ حمد الله تعالى لا يتعارض مع شكر المخلوق، شرط أن يكون ذلك بأمر من الله وعلى نهجه وفي سبيله.

□ إنّ الله ربّ الخلائق كلّها ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[١]، وهو ربّ ما في السموات وربّ ما في الأرض وما بينهما ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾[٢] كما يقول

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٤.

الإمام علي عليه السلام: «**من الجمادات والحيوانات**»؛ ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[١].

- المراد بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إمّا بنو البشر فقط، كما في الآية ٧٠ من سورة الحجر، إذ قال قوم لوط عليه السلام لنبيّهم: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أو المراد بها جميع عوالم الوجود.

«**العالم**» هو كلّ موجود سوى الله عز وجل، والعالم جمعٌ لا واحد له من لفظه، و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تستعمل للتعبير عن أصناف المخلوقات. يستفاد من هذه الآية الشريفة أن عوالم الوجود إنّما لها ربّ واحد فقط، لذا، فإنّ الاعتقاد الذي كان يسود في الجاهلية أو عند بعض الأمم من أنّ لكلّ ظاهرة إلهاً خاصّاً بها، هو ربّها ومدبّر شؤونها، إنّما هو اعتقادٌ باطل.

التعاليم:

١ ـ الحمد والشكر كلّه لله تعالى، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾[٢].

٢ ـ إنّ الله تعالى واهب النعم عن اختيار، وغير مجبر على إصلاح الوجود، فالحمد هو للعمل الاختياري، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

٣ ـ كلّ الوجود جميل، وتدبيره حسن، ذلك أنّ الحمد للجمال والحسن، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

٤ ـ كأنّما يقال لِمَ الحمد لله؟، فيُجاب: لأنّه: «ربُّ العالمين»، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٥ ـ علاقة الله بمخلوقاته علاقة دائمة ووثيقة، ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (فالرسّام والبنّاء ينتهي دورهما عند عرضهما لفنونهما، بينما الربّ أو المربّي يقوم بالمتابعة اللحظية).

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) الألف واللام في «**الحمد**» هي لاستغراق الجنس، وتعني أنّ كلّ حمد وثناء يختصّ بالله سبحانه وحده دون سواه.

٦ ـ الوجود كلّه مربوب لله الواحد الأحد، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٧ ـ جميع الخلائق تحمل بذرة التهذيب والرشد، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٨ ـ يبعث الله الأنبياءَ ليهذّب الناس (التربية التشريعية) والجمادات والنباتات والحيوانات (التربية التكوينية)، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٩ ـ يبدأ المؤمنون دعاءهم إلى الله سبحانه وتعالى في بداية الكتاب (القرآن) بعبارة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وبها يختمون دعاءهم في الجنّة، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾

إشارات:

□ يقول القرآن الكريم: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٢]، وكذلك يقول: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٣]. ويصف النبيّ الأكرم ﷺ أنه ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

إنّ خلقه وربوبيّته يرتكزان على رحمته، وحتى العقوبة فهي نابعة من لطفه.

إنَّ غفرانه ذنوبَ عباده، وقبوله توبتهم، وستره إياهم، ومنحهم الفرصة ليكفّروا عن خطاياهم، كلّها من مظاهر رحمته ورأفته.

التعاليم:

١ ـ إنَّ التدبير والتربية الإلٰهيّة مقترنان بالحبّ والرّحمة. (ألحقت بكلمة «ربّ»، كلمة «الرّحمن»)، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٢ ـ كما أنّ التعليم بحاجة إلى الرّحمة والعطف، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾[٥]، فإنّ التربية والتزكية يجب أن تقوما على الرّحمة والعطف،

---

(١) سورة يونس: الآية ١٠.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٤.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.
(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.
(٥) سورة الرحمن: الآيتان ١ ـ ٢.

﴿وَرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

٣ ـ إنَّ رحمانية الله، دليل أو علّة وسبب لحمده سبحانه، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

إشارات:

- إنَّ مالكيّة الله حقيقيّة تشمل السيطرة والهيمنة، في حين أنّ الملكيّات الاعتبارية، خارجة عن سلطان المالك وليس له سيطرة حقيقيّة عليها، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.
- إنَّ الله تعالى هو المالك الحقيقي لكلّ شيء وفي أيّ وقت، إلّا أنّ مالكيّته هذه تتجلّى في يوم القيامة والمعاد في صورة أخرى:
  - ففي ذلك اليوم تتلاشى الوسائط وتنقطع الأسباب بالكفار، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[١].
  - وحينئذٍ لا تبقى لهم أنساب ولا أرحام، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[٢].
  - وسيعلم الكفّار يوم الحساب أن لا طائل من المال أو الثروة أو الأبناء، ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[٣].
  - ولا طائل كذلك من الأنساب والأرحام، ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾[٤].
  - يومئذٍ لن يؤذن للسان الكفّار بالاعتذار، ولن يُمنَح عقلهم فرصة التّدبير، لا ملجأ يومئذٍ إلّا لطف الله المالك لذلك اليوم.
- أمّا لفظ «**الدّين**» فقد ورد في معانٍ عدّة:

أ ـ مجموع الشرائع السماوية، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٦.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٨.
(٤) سورة الممتحنة: الآية ٣.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٩.

ب ـ العمل والطاعة، ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[(١)].

ج ـ الحساب والجزاء، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

□ حيثما ورد تعبير ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ في القرآن الكريم فالمقصود به هو يوم القيامة لأنّه يوم العقاب والثواب. ولهذا ورد في القرآن ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[(٢)].

وفي شرحه لذلك اليوم، يذكر القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾[(٣)].

□ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تعبير يحمل معنى الإنذار والتحذير، بيد أنّ مجيئه بعد عبارة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يستفاد منه التبشير والتنذير جنباً إلى جنب. كما يتّضح ذلك من آية شريفة أخرى ألا وهي: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[(٤)].

ويصف البارئ تعالى نفسه في آية أخرى وفي موضع آخر كما يلي: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾[(٥)].

□ لقد ذكرت مالكيّة الله تعالى في أوّل سور القرآن ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ثمّ يختتم الكتاب العزيز في آخر سورة منه بذكر ملكيّة الله ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾.

التعاليم:

١ ـ الله المتعال أهلٌ للعبادة من جهات عدّة، ويجب علينا حمده والثناء عليه.

فهو أهلٌ للعبادة لكمال ذاته وصفاته لأنّه «الله»،

ولإحسانه وتربيته لأنّه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾،

ولأنّه أملنا، وننتظر رحمته ورأفته فهو ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾،

ولأجل قدرته وعظمته وهيبته وكيف لا وهو ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣.
(٢) سورة الذاريات: الآية ١٢.
(٣) سورة الانفطار: الآيتان ١٨ ـ ١٩.
(٤) سورة الحجر: الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.
(٥) سورة غافر: الآية ٣.

٢ ـ القيامة قبس من ربوبيّته، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ... مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

٣ ـ القيامة هي أيضاً مظهر من مظاهر رحمة الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

إشارات:

- إنَّ خيار العقل لدى الإنسان، هو قبوله عبوديته لله، نحن بني البشر نعشق الكمال، ونحتاج إلى الرشد والتربية، والله تعالى جامع الكمالات كلّها وربّ جميع المخلوقات، فإذا كنّا بحاجة إلى المحبة والرأفة فهو الرّحمن الرّحيم، وإذا كنّا نتوجّس من المستقبل البعيد، فهو مالك ذلك اليوم البعيد، إذن، ما حاجتنا إلى الآخرين؟! العقل يقضي أن نخصّه وحده بالعبادة، ونستمدّ منه العون، لا أن يكون الإنسان عبداً لأهوائه وشهواته، ولا عبداً لثروة الآخرين وسطوتهم.

- في الصلاة، كأنّما لسان حال المصلّي يبتهل إلى الله بالنيابة عن جميع الموحّدين بقوله: **إلهي! لست أنا وحدي بل جميعنا عبادك، وجميعنا نطمع في لطفك وكرمك.**

- **إلهي!** ليس لي غيرك، ﴿إِيَّاكَ﴾، ولكنّك تملك الكثير مثلي، فكلّ الخلائق عبادك، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[1].

- لفظة ﴿نَعْبُدُ﴾ هي في صيغة الجمع، وتشير إلى ضرورة إقامة الصلاة جماعةً، وكذلك تبيّن أنّ المسلمين كلّهم أخوة وفي مسير واحد.

- إنّ مراحل المسيرة الروحية للإنسان عبارة عن: الثناء، فالارتباط، فالدعاء، لذا، فإنّ أوّل سورة الحمد ثناء، ووسطها ارتباط ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وختامها آيات في الدعاء.

---

(١) سورة مريم: الآية ٩٣.

□ إنَّ الابتهال إلى الحبيب الحقيقي أحلى من الشهد، لعلّ ذلك بسبب تكرّر كلمة ﴿إِيَّاكَ﴾.

التعاليم:

١ ـ بدايةً، علينا أن نحسن العبودية لله، ثمّ نطلب حاجتنا منه، ﴿نَعْبُدُ﴾، ﴿نَسْتَعِينُ﴾.

٢ ـ إنَّ الله وحده الجدير بالعبادة والخضوع، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

٣ ـ نحن الذين نعبد الله تعالى، لكنّا نحتاج إلى عونه حتى في عبادته، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

٤ ـ إنَّ عبارة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تستبطن مفهوم لا جبر ولا تفويض، فنحن نقول: ﴿نَعْبُدُ﴾ عن اختيار لا جبر، وحين نقول: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ فهو إقرار بالحاجة لله، وبأنّنا غير مفوّضين.

٥ ـ إنَّ معرفة الله وصفاته مقدّمة لتوحيده، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

٦ ـ من آداب الدعاء والعبادة ألّا يتحدّث الإنسان عن نفسه، وأن يستشعر أنّه في حضور الله وبين يديه، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

٧ ـ إنَّ الاهتمام والإيمان بالمعاد يعدّ أحد دوافع العبادة، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾

إشارات:

□ يطرح القرآن الكريم وجهين من الهداية:

أ) الهداية التكوينية، نظير هداية النحل وغريزته في امتصاص رحيق الأزهار، وفي صنع القرص الشمعي، أو هداية الطيور في هجرتها في رحلتي الصيف

---

(١) ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ سورة الأعراف: الآية ٤٣.

والشتاء، ويبيّن القرآن الكريم هذا النوع من الهداية في قوله تعالى ﴿رَبُّنَا الَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١].

ب) الهداية التشريعية، والمتمثّلة في إرسال الرسل والأنبياء والكتب السماوية لهداية البشر.

❑ ذكرت كلمة «الصراط»[٢] في القرآن الكريم ما يزيد عن أربعين مرّة. إنّ اختيار النهج الفكري دلالة على شخصيّة الإنسان ووعيه.

❑ ثمّة طرق عدّة غير إلٰهيّة أمام الإنسان عليه اختيار أحدها:

- طريق طلباته ورغباته.
- طريق توقّعات الناس وأهوائهم.
- طريق وساوس الشيطان.
- طريق الطواغيت.
- طريق الأجداد والماضين.
- طريق الله وأوليائه.

أمّا الإنسان المؤمن فيختار طريق الله وأوليائه، لما يتميّز به على الطرق الأُخرى، ومن جملة هذه المزايا:

أ) إنَّ الطريق الإلٰهيّ طريق راسخ وثابت، على العكس من طرق الطواغيت وأهواء الناس والأهواء الشخصيّة التي تتغيّر في كلّ يوم.

ب) إنَّ الصّراط المستقيم واحد، الطرق الأخرى المتعدّدة والمتفرّقة.

ج) إنَّ السير في هذا الطريق يوصل الإنسان إلى هدفه المنشود.

د) لا خسران أو فشل في هذا الطريق.

❑ فالصّراط المستقيم، هو طريق الله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

---

(١) سورة طه: الآية ٥٠.

(٢) «الصّراط» جسر في يوم القيامة على جهنّم، يعبر جميع الناس عليه.

(٣) سورة هود: الآية ٥٦.

- الصّراط المستقيم طريق الأنبياء، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾[١].
- الصّراط المستقيم، طريق العبودية لله، ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢].
- الصّراط المستقيم، طريق التوكل على الله، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].
- الصّراط المستقيم، طريق التوحيد والاستعانة بالله وحده[٤].
- الصّراط المستقيم، هو كتاب الله[٥].
- الصّراط المستقيم، طريق الفطرة السليمة[٦].

❑ ينبغي للإنسان أن يستعين بالله، في اختياره الصّراط المستقيم وفي الثبات عليه، مثل المصباح الكهربائي فإنّ إنارته تتطلّب تزويده في كلّ لحظة بطاقة كهربائية من المولّد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

❑ كلّ مسلم يدعو الله في كلّ صلاة أن يهديه الصّراط المستقيم، حتى رسول الله ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام يدعون الله أن يثبّت خطاهم على الصّراط ذاك.

❑ يجب على الإنسان أن يدعو الله ليهديه إلى الصّراط المستقيم في أيّ أمرٍ كان، سواء في اختيار العمل، أو الصديق، أو الفرع الدراسي أو الزوجة. . .، إذ، ربّما كانت معتقدات الإنسان سليمة لا غبار عليها، لكنّه عند التطبيق يتعرّض لمزالق أو منحدرات، أو العكس. إذن، فطلب الصّراط المستقيم من الله في كلّ لحظة أمرٌ ضروري.

❑ للصّراط مراتب ومراحل، لذلك حتى أولئك الذين يسيرون في طريق الحقّ، مثل أولياء الله، ينبغي لهم أن يدعوا الله أن يثبّتهم على طريق الحقّ، وأن

---

(١) سورة يس: الآيتان ٣ ـ ٤. (٢) سورة يس: الآية ٦١.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠١.
(٤) نظراً إلى أنّ الألف واللام في ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ تشير إلى طريق التوحيد نفسه في الآية السابقة.
(٥) طبقاً لرواية في تفسير مجمع البيان ج ١، ص ٥٨.
(٦) طبقاً لرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الصافي، ج ١، ص ٨٦.

يزيدهم من نور الهداية، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[١].

- الصّراط المستقيم هو الطريق الوسطى التي أوصى بها الإمام علي عليه السلام بقوله: «**اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادّة**»[٢].

- الصّراط المستقيم هو الاعتدال والوسطية والاحتراز من أيّ إفراط أو تفريط، إن في العقيدة أو في العمل. فهذا يخرج عن الجادة بتطرّفه عقائدياً، وذاك في العمل والأخلاق، وهذا ينسب جميع الأعمال إلى الله، لدرجة أنّه يسلب الإنسان كلّ دور واختيار في تقرير مصيره، وآخر يرى نفسه الفعّال لما يشاء، من دون أيّ رقابة أو حساب من الله، واحد يعتقد بأنّ رسل السماء كالناس العاديّين وأحياناً سحرة أو مجانين، والثاني يرفعهم إلى منزلة الله. هذا يرى أنّ زيارة الأئمّة المعصومين والشهداء بدعة، والآخر يُفرط في تقديس واحترام كلّ حجر وشجر، ويتّخذها قبلة يتوسّل بها، وهذا يرى أنّ الاقتصاد هو القاعدة والأساس، والثاني يزهد في شؤون الدنيا ويطوي عنها كشحاً، بعضهم يبدي غيرة مفرطة في حياته، والآخر يطلق العنان لزوجته لتسرح وتمرح في الأسواق والطرقات سافرة دونما رقيب أو حجاب يسترها، هذا يفرط في البخل، والثاني يبسط يده كلّ البسط فيسرف ويبذّر بلا حساب، هذا يعتزل الخلائق، وذاك يفرّط في الحقّ من أجل الخلق.... إلخ.

هذه السلوكيات والأعمال انحرافٌ عن صراط الهداية المستقيم. لقد جعل الله دينه القويم هو الصّراط المستقيم[٣]، إذ ورد عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام في الروايات: «**نحن الصراط المستقيم**»[٤]، بمعنى، أنّهم التجسيد العملي والموضوعي للصّراط المستقيم، والأسوة الكاملة للسّير في طريق رُسُل السّماء،

---

(١) قائل عبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝﴾... طوى مراحل من الهداية، لذلك، فإنّ طلبه هذا هو لمراحل هداية أرقى.

(٢) بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ٣.

(٣) ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ سورة الأنعام: الآية ١٦١.

(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٠.

لقد أوصى أولئك العظماء شيعتهم بالاعتدال والوسطية في جميع شؤون الحياة، في العمل، والترفيه، والدرس، والمأكل والإنفاق والانتقاد والغضب والصلح وحبّ الأبناء... إلخ[١]. والمثير للعجب أنّ إبليس يكمن لنا في هذا الصّراط المستقيم[٢].

- لقد وردت في القرآن والروايات أمثلة عدّة تحثّ على توخّي جانب الاعتدال، وتنهى عن الإفراط والتفريط، لنتأمّل هذه الأمثلة:

- ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[٣].
- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[٤].
- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٥].
- ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٦].
- كن برّاً بوالديك؛ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٧]، ولكن إذا أرادا حرفك عن سبيل الله، فلا تطعهما، ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾[٨].
- النبيّ يحمل رسالة عامة؛ ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[٩]، وفي ذات الوقت، يدعو أسرته، ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ﴾[١٠].
- لقد أمر الإسلام بالصلاة وهي المرقى الذي يصل العبد بالخالق؛ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وأوصى أيضاً بأداء الزكاة، وهي جسر بين العبد والناس، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[١١].
- لا نتأثّر بالمحبّة فنزيغ عن شهادة الحقّ؛ ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[١٢] ولا

---

(١) انظر: أصول الكافي، باب الاقتصاد في العبادات.
(٢) لقد أقسم الشيطان لله بقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، سورة الأعراف: الآية ١٦.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٣١.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٢٩.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٦٧.
(٦) سورة الإسراء: الآية ١١٠.
(٧) سورة البقرة: الآية ٨٣.
(٨) سورة لقمان: الآية ١٥.
(٩) سورة مريم: الآية ٥١.
(١٠) سورة مريم: الآية ٥٥.
(١١) سورة البقرة: الآية ٤٣.
(١٢) سورة النساء: الآية ١٣٥.

نَنقَدْ للعداوات فننحرف عن جادة العدل والصواب، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾[١].

• للمؤمن طرد؛ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وجذب ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٢].

• فهو يحتاج إلى الإيمان القلبي؛ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ ليعضده بالعمل الصالح ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[٣].

• يحتاج إلى الدموع والدعاء وطلب النصرة من الله؛ ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[٤]، ويحتاج إلى المصابرة والثبات في الشدائد، ﴿عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾[٥]. كان الإمام الحسين عليه السلام يذرف الدموع ويبتهل إلى الله في جوف الليل، وفي الوقت نفسه، كان يحدّ سيفه لمحاربة الأعداء.

• في يوم عرفه غداة عيد الأضحى يبتهل الحاج إلى الله تعالى، وفي صبيحة العيد يشهد ذبح الأضحية.

• يبيح الإسلام الملكيّة الخاصّة: «**الناس مسلطون على أموالهم**»[٦] لكنّه يمنع الإضرار بالآخرين، ويحدّ منه: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٧].

ليس الإسلام ديناً أحادياً ليهتمّ بجانب ويترك جوانب أخر، بل ديدنه الاعتدال في كل أمر، والحثّ على الوسطية والصّراط المستقيم.

التعاليم:

١ ـ كلّ الوجود يتحرّك في طريق مشيئة الله وإرادته. أللهمّ! اهدنا إلى ما تحبّ وترضى، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٢ ـ طلب الهداية إلى الصّراط المستقيم، أهمّ مطلب للموحّدين، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ...﴾ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

(١) سورة المائدة: الآية ٨.
(٢) سورة الفتح: الآية ٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٠.
(٥) سورة الأنفال: الآية ٦٥.
(٦) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٧٢.
(٧) الكافي، ج ٥، ص ٢٨.

٣ ـ من أجل السّير على الصّراط المستقيم، يجب أن ندعو بدعوة، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٤ ـ نبدأ بالحمد، ثمّ بالاستعانة فالدعاء، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ... ٱهْدِنَا﴾.

٥ ـ أفضل أنواع الاستعانة بالله، طلب الهداية إلى الصّراط المستقيم، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ... ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

إشارات:

□ تصف الآية الكريمة الصّراط المستقيم بأنّه صراط الذين أنعم الله عليهم وهم: الأنبياء، الصدّيقون، الشهداء والصالحون.[١]، لذا يجب علينا أن نتأمّل صراط هؤلاء العظام وأن نمنّي النفس بهذه الأمنية، ليكون ذلك بمثابة حرز لنا من خطر الانحراف والدخول في متاهات الضلال.

بعد هذه الأمنية، نطلب من الله ألّا يضعنا على طريق المغضوب عليهم والضالّين، وأن نتّعظ ونستلهم الدروس والعبر ممّا آل إليه مصير بني إسرائيل إذ كانوا، كما يروي القرآن، يرفلون في نعم الله، لكنّهم باؤوا بغضبٍ منه لجحودهم تلك النعم وإصرارهم على اللجاج والعناد.

□ يقسّم القرآن الناس إلى ثلاث فئات: فئة الذين أنعم الله عليهم بنعمة الهداية وثبتت أقدامهم، وفئة المغضوب عليهم، وفئة الضالّين.

□ المقصود بالنعمة في ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هي نعمة الهداية، ذلك لأنّ الآية السابقة تذكر هذا الموضوع، كما أنّ الكفّار والمنحرفين وغيرهم يمتلكون النعم المادّية أيضاً.

□ لذا، فالمهتدون هم دوماً في معرض الخطر والانحراف، وعليهم أن يدعوا الله ألّا ينتهي بهم مسيرهم إلى الغضب والضلال.

---

(١) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، سورة النساء: الآية ٦٩، وسورة مريم: الآية ٥٩.

المغضوبون في القرآن

يصف القرآن الكريم أفراداً مثل فرعون وقارون وأبي لهب، وأمماً مثل قوم عاد وثمود وبني إسرائيل بأنّهم المغضوب عليهم(١).

وقد وردت قصّة بني إسرائيل وحضارتهم بإسهاب في القرآن الكريم، إذ فضّلهم الله على الأمم الأخرى التي عاصرتهم؛ ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٢)، إلّا أنّهم بعد هذا الفضل والسموّ، تعرّضوا لغضب الله ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾(٣)، وهذا التحوّل في العاقبة، مردّه التغيّر في سلوكهم، إذ قام أحبارهم بتحريف شرائع السماء في التوراة، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾(٤)، واشتغل تجّارهم وأغنياؤهم بأكل الرّبا والحرام وأسرفوا في البذخ، ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا﴾(٥)، أمّا العامّة من بني إسرائيل فقد قعد بهم الخوف وطلب العافية عن القتال والجهاد ودخول الأرض المقدّسة، ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(٦). وبسبب نكوصهم وسلوكهم المنحرف هبط الله بهم من علياء العزّة والفضيلة إلى منحدر الرذيلة والانحطاط.

إنّنا نبتهل إلى الله في كلّ صلاة ألّا يجعل عاقبتنا كالمغضوب عليهم، أي لا من أولئك الذين يحرّفون آيات الله، ولا من أهل الربا أو الفرار من سوح

---

(١) لقد وردت خصال الضالّين والمغضوب عليهم في مواضع عدّة من القرآن الكريم مع ذكر أمثلة لهذين النموذجين، إذ نستعرض في ما يلي بعضاً من تلك الأمثلة:
* ﴿وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾، سورة النساء: الآية ١١٦، وسورة الفتح: الآية ٦.
* ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ﴾ الأنبياء: سورة البقرة: الآية ٦١.
* «أهل الكتاب الذين يتمردون على دعوة الحق»، سورة آل عمران: الآيات ١١٠ ـ ١١٢.
* ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، سورة الأنفال: الآية ١٦.
* ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾، سورة البقرة: الآية ١٠٨ وسورة النحل: الآية ١٠٦.
* «الذين يتولون أعداء الله ويلقون إليهم بالمودة»، سورة الممتحنة: الآية ١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٤٧.
(٣) سورة البقرة: الآية ٦١.
(٤) سورة النساء: الآية ٤٦.
(٥) سورة النساء: الآية ١٦١.
(٦) سورة المائدة: الآية ٢٤.

الجهاد في سبيل الحقّ. كما ندعوه ألّا يجعلنا من الضالّين، أولئك الذين جانبوا الحقّ وتركوه، ليلحقوا بالباطل، فغلوا في دينهم وأفرطوا في إيمانهم، أو اتّبعوا أهواءَهم أو أهواء الآخرين[١].

- في هذه السورة المباركة يفصح الإنسان عن مكنون حبّه وولائه للأنبياء والشهداء والصالحين ونهجهم، ويتبرّأ من المغضوب عليهم والضالّين عبر التاريخ، وينأى بنفسه عن دربهم، وهذا هو التجسيد العملي للتولّي والتبرّي.

الضالّون في القرآن

- وردت لفظة «الضلالة» ومشتقاتها في القرآن الكريم حوالى مئتي مرّة، فقد جاءت تارةً بمعنى الحيرة ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾[٢]، وتارةً أخرى بمعنى الضياع والتشتّت ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[٣]، إلّا أنّ المعنى الأكثر شيوعاً، والذي يأتي مقترناً بإضافات متعدّدة هو معنى «الضّلال» مثل: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾، و﴿ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

- لقد أطلق القرآن الكريم هذه الصفة على بعض الأفراد ومنهم: أولئك الذين بدّلوا إيمانهم كفراً[٤]، والمشركين[٥]، الكفّار[٦]، والعاصين[٧]، والمسلمين الذين يتّخذون الكفّار أولياء[٨]، والذين يصدّون الناس عن سبيل الله، والذين يسيئون إلى الله ورسوله، والذين يكتمون الحقّ، والذين يئسوا من رحمة الله.

- وقد أطلقت هذه اللفظة في القرآن الكريم على بعض الأفراد مثل: إبليس،

---

(١) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سورة المائدة: الآية ٧٧.

(٢) سورة الضحى: الآية ٧. (٣) سورة محمّد: الآية ١.

(٤) ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، سورة البقرة: الآية ١٠٨.

(٥) ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، سورة النساء: الآية ١١٦.

(٦) ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾ ...﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾، سورة النساء: الآية ١٣٦.

(٧) ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ﴾، سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٨) ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ...﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، سورة الممتحنة: الآية ١.

وفرعون، والسامريّ، وجليس السوء، والزعماء، والأجداد المنحرفين.

❑ الضالّون هم الذين يمهّدون أجواء الانحراف، فيوظّفها المضلّون لصالحهم، وأجواء الانحراف كما يرسمها القرآن الكريم هي: ١ ـ الأهواء(١)، ٢ ـ الأصنام(٢)، ٣ ـ المعاصي(٣)، ٤ ـ تولّي الباطل(٤)، ٥ ـ الجهل والغفلة(٥).

التعاليم:

١ ـ يحتاج الإنسان إلى قدوة تربوية، والأنبياء والشهداء والصدّيقون والصالحون هم قدوات رائعة للإنسانية، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ كلّ ما ينزل من الله على عبده فهو نعمة، أمّا الغضب فهو زرع أيدينا(٦) ﴿أَنْعَمْتَ... ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

٣ ـ البراءة من المغضوب عليهم والضالّين، تحصّن المجتمع الإسلامي إزاء الرضوخ لحكومة هؤلاء وتزيده صلابة، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾(٧).

---

(١) ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾، سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٢) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، سورة إبراهيم: الآية ٣٠.

(٣) ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، سورة البقرة: الآية ٢٦.

(٤) ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾، سورة الحج: الآية ٤.

(٥) ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، سورة البقرة: الآية ١٩٨.

(٦) بالنسبة للنعمة قال تعالى ﴿أَنْعَمْتَ﴾، لكنّه بالنسبة إلى الغضب لم يقل: «غضبت»..

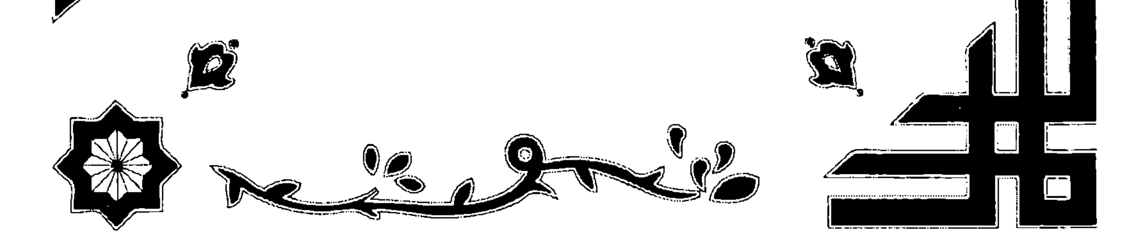
(٧) لقد أوصى القرآن الكريم بالقول: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، سورة الممتحنة: الآية ١٣.



سُورَةُ البَقَرَةِ

السورة: ٢ الجزء: ١ ـ ٣

عدد آياتها: ٢٨٦



ملامح سورة البقرة

سورة البقرة مدنيّة نزلت في أوقاتٍ شتّى تحتوي على مئتين وستّ وثمانين آية، وهي أطول سور القرآن.

سمّيت البقرة نسبةً إلى بقرة بني إسرائيل التي سيأتي شرحها في الآيات ٦٧ ـ ٧٣. وتتميّز السورة بشمولها موضوعات العقيدة والفقه والعبادة مثل التوحيد وسبر أسرار الكون والمعاد والبرزخ والنشور، بالإضافة إلى العديد من القوانين التشريعية العبادية والأخلاقيّة والشخصيّة والاجتماعية. كما تتناول قضايا الوحي وإعجاز الكتاب السماوي، فضلاً عن الشؤون الاجتماعيّة من قبيل العفو والإنفاق والإحسان والحرب وجهاد الأعداء والحدود والقصاص. كما تضمّ هذه السورة المباركة آية الكرسي وآية الدَّين ـ أطول آية في القرآن ـ، كما تستعرض تفاصيل تغيير اتجاه القبلة، وحجج بني إسرائيل وعنادهم، وخلق النبيّ آدم عليه السلام، وتمرّد إبليس على الله تعالى، بالإضافة إلى جوانب من سيرة بعض الأنبياء مثل آدم وإبراهيم وموسى عليهم السلام وقصّة هاروت وماروت وطالوت وجالوت.

ولقد أطلق على سورتي البقرة وآل عمران «الزهراوان» أي المنيرتان، وذلك لما تزخران به من أحكام فقهية واستعراض لأسماء الله الحسنى وصفاته النورانية.

وردت في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة منها: سُئل رسول الله ﷺ: **«أيّ سور القرآن أفضل؟ فقال ﷺ: البقرة، قيل: أيّ آي البقرة أفضل؟ قال ﷺ: آية الكرسي»**[١].

(١) تفسير نور الثقلين؛ تفسير مجمع البيان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ①﴾

إشارات:

❑ الحروف المقطعة هي فواتح لبعض السور تكون على شكل حروف هجائية مفردة أو شبه مفردة. وقد تعدّدت الآراء وتشعّبت الأقوال فيها، نذكر منها:

١ ـ هذه الحروف المقطعة إشارة إلى أنّ القرآن الكريم، وهو المعجزة الإلٰهيّة، مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلام البشر، ومع ذلك فإنّهم يعجزون عن مباراته وأن يصيغوا منها مثل هذا القرآن. وقد كُرّرت ليكون أبلغ في التحدّي والتبكيت.

٢ ـ هي أسماء للسور التي وقعت في أوائلها.

٣ ـ فيها إشارة إلى اسم الله الأعظم[١].

٤ ـ هي أقسام أقسم الله تعالى بها[٢].

٥ ـ يذهب بعض علماء التفسير إلى أنّ هذه الحروف إنّما هي أسرار بين الله ورسوله الكريم ﷺ[٣]، وطبقاً لبعض الروايات هي علم استأثر الله به لنفسه واختصّه لذاته[٤].

ولعلّ الرأي الأوّل هو الأكثر رجحاناً، وذلك لأنّه من بين مئة وأربع عشرة سورة هي مجموع سور القرآن هناك تسع وعشرون سورة افتتحت بالحروف المقطعة، في أربع وعشرين منها تنتصر للقرآن الكريم وتبيّن إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء، كما هو الحال مع ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ التي تتطرّق إلى عظمة القرآن وإعجازه.

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) بحار الأنوار، ج ٨٨، ص ٧.
(٣) المصدر نفسه، ج ٨٩، ص ٣٨٤.
(٤) تفسير مجمع البيان.

كما تستفتح سورة الشورى بالحروف المقطعة «حم عسق» ويأتي بعدها: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، أي أنّ الوحي أيضاً يتداول هذه الحروف التي في متناول جميع بني البشر، فجعل منها الله ﷻ كتاباً معجزاً أنزله على رسوله المصطفى ﷺ فهل بمقدور الإنسان أن يأتي بمثل هذا الكتاب؟!

نعم، لقد أنزل الله تعالى من هذه الأحرف الألفبائية كتاب معجزة، كما يخرج من تراب الأرض مئات الأنواع من الفاكهة والزهور والنباتات، ويخلق الإنسان من الطين. ولكن غاية ما وصل إليه الإنسان هو أن يصنع من التراب والطين الطابوق والحجر!

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾

إشارات:

- ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ تقرير لحقيقة واقعة وهي أنّ القرآن منزل من عند الله، فمضامينه لا تدع مجالاً للشك أو الارتياب فيه، وإن وقع ريب للكفار فهو لسوء ظنّهم وروح اللجاج التي تسكنهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾[١].
- لقد جاء القرآن لهداية الناس، ولئن تطرّق إلى مسائل خلق السماوات والأرض والنباتات والحيوانات... إلخ فما ذلك إلّا لأنّ لفت أنظار الناس لهذه المظاهر والآيات هو مدخل للتدبّر في علم الله وقدرته وحكمته[٢].
- إذن، القرآن هو وسيلة هداية لعموم الناس؛ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٣] كالشمس التي تشرق على كل ما فوق الأرض، ولكن وحده من سلمت فطرته الذي يستفيد من أنوار القرآن ويسلّم للحقّ أمره.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٥.

(٢) يضمّ القرآن الكريم إشارات إلى بعض الموضوعات في الطبيعة والكون والتاريخ والفلسفة والسياسة والصناعة، ولكن تبقى الهداية هي الغاية الرئيسة وراء نزوله.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

وهذا القرآن ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تنفذ أنواره إلى قلوبهم لأنّها شفافة كالزجاج، فيُحرم من هذه الأنوار الفاسقون[١] والظالمون[٢] والكافرون[٣] والذين قست قلوبهم[٤] والمسرفون والمكذّبون[٥] وذلك لأنّ قلوبهم صدئة شابتها الأدران، فلا تسمح لأشعة الشمس أن تنفذ إليها.

ربّما أثير هنا سؤال وهو: تتحدّث هذه الآية عن القرآن وما يحتويه بقولها ﴿لَا رَيْبَ﴾، بينما القرآن نفسه يطرح شكوك المنكرين للدعوة، فتارةً يقول: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[٦]، وفي موضع آخر يقول: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾[٧]، وأخرى يصرّح: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾[٨]، إذن، فكيف يقول ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ويعجب من قول المنكرين المشككين في محتوى القرآن وآياته؟

في الجواب عن ذلك نقول: ليس المقصود بعبارة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أن لا أحد شك أو يشك في آيات القرآن، بل المقصود هو حقّانية القرآن على قدر من الإتقان والإحكام بحيث لا يمكن أن ينفذ منها أيّ شك، وإذا ما شك أحد فذلك يعود إلى عماء قلبه وبصيرته. كما تصرّح بذلك الآية ٦٦ من سورة النمل: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[٩].

التعاليم:

١ ـ لا يجارى القرآن في عظمته ومنزلته الرفيعة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ في اللغة اسم إشارة للبعيد، فكيف يصح ذلك والحال أنّ القرآن الكريم في متناول أيدينا ما

(١) ﴿لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، سورة التوبة: الآية ٨٠.
(٢) ﴿لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، سورة المائدة: الآية ٥١.
(٣) ﴿لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، سورة المائدة: الآية ٦٧.
(٤) ﴿لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾، سورة الزمر: الآية ٣.
(٥) ﴿لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، سورة غافر: الآية ٢٨.
(٦) سورة هود: الآية ٦٢.
(٧) سورة ص: الآية ٨.
(٨) سورة سبأ: الآية ٢١.
(٩) نخبة التفاسير، نقلاً عن الشيخ آية الله جوادي آملي.

يقتضي أن يشار إليه بالقريب؟ السبب في ذلك يعود إلى بيان عظمة القرآن التي تسنّمت الذرى فلا مجال للوصول إليها.

٢ ـ ينبغي للهادي أن يتّسم نهجه في الدعوة ومضمونها بالحزم والثبات. وعبارة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ترمز إلى الإتقان والإحكام الذي يميّز القرآن.

٣ ـ قدرة القرآن على هداية المتّقين خير دليل على إتقانه وحقّانيّته، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٤ ـ المتّقون وحدهم الذين لهم حظّ من هداية القرآن، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. من جلا الصدأ عن قلبه، كان حظّه من الاستفادة والنور أكبر[١].

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

□ يقسّم القرآن الكريم الوجود إلى عالمين: عالم الغيب[٢]، وعالم الشهادة، والمتّقون يؤمنون بالوجود بعالَمَيْه، بينما لا يؤمن الآخرون إلّا بكلّ ما هو محسوس، لدرجة أنّهم يصرّون على رؤية الله عياناً، وهو ما يجعلهم ينكرون وجود الله لاستحالة رؤيته، كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[٣]، وهم أنفسهم الذين يقولون عن يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[٤].

هؤلاء لم يخرجوا من دائرة تفكير الحيوانات، فهم يحصرون طريق المعرفة بالمحسوسات، ويريدون أن يدركوا كلّ شيء بحواسهم.

□ أمّا المتّقون فهم المؤمنون بعالم الغيب، العالم الذي يعلو على العلم ويتجاوزه. هؤلاء يختزنون في أعماقهم مفاهيم الإيمان والحب والاهتمام والتبجيل والتقديس والارتباط، وهي مفاهيم لا يحتويها العلم.

---

(١) للهداية مراحل، تضيق خلالها وتتسع، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾.

(٢) أطلقت كلمة الغيب للتعبير عن الله تعالى والملائكة والمعاد والإمام المهدي عليه السلام.

(٣) سورة البقرة: الآية ٥٥.

(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

التعاليم:

١ ـ لا ينفصل الإيمان عن العمل، فإلى جانب الإيمان بالغيب، على المؤمن العمل بالمسؤوليات والتكاليف، فالمؤمنون ﴿يُؤْمِنُونَ... يُقِيمُونَ... يُنفِقُونَ﴾.

٢ ـ المبدأ الرئيس في الرؤية الكونية الإلٰهيّة هي أنّها لا تختزل الوجود في المحسوسات، ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٣ ـ أفضل الأعمال، بعد مبدأ الإيمان، إقامة الصلاة والإنفاق، ﴿يُؤْمِنُونَ... يُقِيمُونَ... يُنفِقُونَ﴾.

(في المجتمع الإلٰهيّ المثالي السائر نحو الله، تُعالج الاضطرابات والانحرافات النفسية والروحية بالصلاة، ويتمّ رفع المشاكل المعنوية بها، كما يتمّ ردم الهوّة الاقتصاديّة وما ينجم عنها من معضلات عبر الإنفاق).

٤ ـ يجب إقامة الصلاة إقامة دائمة، لا موقتة ولا مرحلية، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (يقيم: فعل مضارع يفيد الاستمرار والديمومة).

٥ ـ ينبغي بنا الاعتدال في الإنفاق[١] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

٦ ـ وأن يشمل الإنفاق على الآخرين كلّ ما وهبنا الله (فالعلم رزق، والجاه رزق، والثروة والفنّ... إلخ). ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢]، وقد ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: «**إنّ معناه وممّا علّمناهم يبثّون، وممّا علّمناهم من القرآن يتلون**»[٣].

٧ ـ الإنفاق يكون من خالص المال الحلال، فالله تعالى قدّر الرزق[٤] الحلال لكلّ مخلوق، ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

---

(١) «**ممّا**»، أصلها (من ما)، ومن معاني «**من**» التبعيض، أي، ينفقون بعض الذي رزقناهم ـ لا كلّه ـ.

(٢) في مثل هذه الحالات، يكون معنى «**ما**» أيّ شيء.

(٣) بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٧.

(٤) «**الرزق**» هو العطاء الجاري لإقامة الأود بمقدار الحاجة، وشرطا الجريان والحاجة في الرزق يميّزه عن مفاهيم من قبيل الإحسان، والإعطاء، والنصيب، والإنعام، والحظّ. التحقيق في كلمات القرآن، ج ٤، ص ١١٤.

٨ ـ لو آمنّا بأنّ كلّ ما لدينا هو من عند الله، فلن نغترّ بالإنفاق، وسننفق جزءاً منه على أفضل وجه، ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

- أداة المعرفة لدى الإنسان لا تختزل في الحسّ والعقل، بل يضاف إليها الوحي الذي يمثّل أحد طرق المعرفة التي يؤمن بها المتّقون. ليس بمقدور الإنسان انتهاج طريق الحقّ دون دليل مرشد، لأنّه سيكون عرضة للانزلاق في متاهات الحيرة والضلال. فلا بدّ له من أن يضع يده في يد الأنبياء ليهدوه إلى طريق السعادة الحقيقيّة، وذلك بالمنطق والحجّة والمعجزة ومن خلال سيرتهم ونهجم العملي.
- نستخلص من هذه الآية والآيتين اللتين سبقتاها أنّ الخشوع بين يدي الله تعالى (في الصلاة) وامتلاك روح الإيثار والإنفاق والتعاون والسعي من أجل حفظ حقوق الآخرين، والأمل بمستقبل مشرق واعد وبالثواب الإلهيّ العظيم.. هي كلّها من ثمار التقوى.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من الإيمان بجميع الأنبياء وكتب السماء، ذلك أنّهم جميعاً يسعون إلى الغاية نفسها، ﴿يُؤْمِنُونَ... وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٢ ـ لا تقوى حقيقيّة من دون **الإيقان** بالآخرة، ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

٣ ـ تبجيل القرآن مقدّم على الكتب الأخرى، ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٤ ـ نبي الإسلام ﷺ هو ختام الأنبياء. وليس **أدلّ** على ذلك من ذكر عبارة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ إذ لم يذكر بعدها عبارة «من بعدك»، وهي دليل على خاتمية نبوّة الرسول الأكرم ﷺ والقرآن الكريم.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

إشارات:

- إنَّ الفلاح والفوز هو ثواب المتّقين المؤمنين بالغيب، والمقيمين صلاتهم والمنفقين والموقنين باليوم الآخر. الفلاح هو ذروة السعادة، ذلك أنّ الله تعالى خلق الطبيعة للإنسان[١]، وخلق الإنسان للعبادة[٢]، وخلق العبادة لتكون جسراً إلى التقوى[٣]، والتقوى ممرّاً للوصول إلى الفلاح[٤].
- سمات المفلحين في القرآن عدّة نذكر منها:

أ) ينبرون لإصلاح المفاسد في المجتمع[٥].

ب) يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[٦].

ج) مضافاً إلى إيمانهم به، يدافعون عن رسول الله ﷺ[٧].

د) إنّهم من أهل الإيثار[٨].

هـ) تثقل موازين حسناتهم في يوم الآخرة[٩].

- طريق الفلاح وعر لا يصله إلّا من اجتهد وأخذ بلوازمه وأسبابه، يشير القرآن الكريم إلى بعض هذه الأسباب وهي:
  - التزكية ضرورية للفلاح، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[١٠].
  - الجهاد باب من أبواب الفلاح، ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١١].

---

(١) ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، سورة البقرة: الآية ٢٩.

(٢) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ...﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، سورة البقرة: الآية ٢١.

(٤) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، سورة المائدة: الآية ١٠٠.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٨) سورة الحشر: الآية ٩.

(٩) سورة الأعراف: الآية ٨.

(١٠) سورة الشمس: الآية ٩.

(١١) سورة المائدة: الآية ٣٥.

• ومن أدوات الفلاح أيضاً: الخشوع في الصلاة، الإعراض عن اللغو، أداء الزكاة، العفّة، الطهر، حفظ الأمانات، الوفاء بالعهود، والثبات في الصلاة.

التعاليم:

١ ـ لقد ضمن الله للمؤمن الحقيقي هداية خاصة، ﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

٢ ـ الإيمان والتقوى جناحا الإنسان إلى ذرى الفلاح، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ... يُؤْمِنُونَ... ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

❑ أصل «الكفر» في اللغة الستر والتغطية، ويقال للفلّاح والليل بالكافر، لأنّ الفلاح يغطّي الحبّ بالتراب، والليل يغطّي الفضاء بسواده. وكفران النعمة تعني عدم الاكتراث إليها، فالمنكر للدين كافر لأنّه يستر الحقائق وآيات الله ولا يأخذها بالاعتبار.

❑ لمّا ذكر القرآن أحوال المتّقين، أتى على ذكر أحوال الكافرين ومآلهم، معنوناً له بأنّ شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم لأنّهم غارقون في الضلال وكتمان الحقّ، وأنّ لسان حالهم في إزاء دعوة الأنبياء هو: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾[1].

فإذن، ما لم تتوفّر الظروف المناسبة، لن يكون لدعوة الأنبياء أيّ وقع أو تأثير.

(١) سورة الشعراء: الآية ١٣٦.

يقول الشاعر: لا خلاف على رهافة طبع المطر، لكنّه يُنبت في الروض أزهاراً وفي الأرض السبخة أشواكا[١].

التعاليم:

١ ـ اللجاج والعناد والتعصّب الأعمى، يحجّر عقل الإنسان فيكون هو والجماد سيّان، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

٢ ـ أسلوب الدعوة مع الكفّار هو الإنذار، فإذا لم ينفع الإنذار والتحذير مع الإنسان، فلن تفيده أيّ بشارات أو وعود، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾.

٣ ـ لا تتوقّع أن يؤمن بدعوتك كلّ الناس، ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[٢].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾

إشارات:

❑ حينما يختم الله على قلوب الكافرين، فهو إنّما يجازيهم على عنادهم وتعنّتهم، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[٣]، وأيضاً نقرأ في الآية ٢٣ من سورة الجاثية: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾.

فالختم الإلٰهيّ هو نتيجة الخيار الشرير للإنسان، وليس نتيجة لفعل قهري أو جبري مسلّط عليه من الله.

❑ إنّ مراد القرآن الكريم بالقلب هو الروح ومركز الشعور والإدراك، ويذكر القرآن

---

(١) الشعر بالفارسية:

باران كه در لطافت طبعش، خلاف نيست

در باغ لاله رويد ودر شوره زار، خس

(٢) يقول عزّ من قائل في سورة يوسف: الآية ١٠٣: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

(٣) سورة غافر: الآية ٣٥.

ثلاثة أنواع من القلوب هي:

١ ـ القلب السليم، ٢ ـ القلب المنيب، ٣ ـ القلب المريض.

علامات القلب السليم

أ) قلبٌ ليس فيه أحد إلّا الله. **«ليس فيه أحد سواه»**[١].

ب) قلبٌ يتبع داعي الحقّ، تائب من الذنوب، خاضع للحقّ[٢].

ج) قلبٌ نزعت عنه محبّة الدنيا[٣].

د) قلبٌ يطمئن لذكر الله[٤].

هـ) قلبٌ يخشع لله[٥].

بعبارة أخرى، إنّه قلب المؤمن الذي يطمئن بذكر الله، ويمتلئ خشية غضبه، ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٦]، كالطفل الذي يأنس بوالديه ويطمئن إلى حضنهما، ويخشاهما في آنٍ معاً.

علامات القلب المريض

أ) قلبٌ غافل عن ذكر الله، ولا تليق به القيادة، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾[٧].

ب) قلب يفتّش عن الفتن والأعذار، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[٨].

ج) قلبٌ قاسٍ، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[٩].

د) قلبٌ أحاط به الصدأ والدرن، ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[١٠].

هـ) قلب قد طبع الله عليه، ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[١١].

---

(١) نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٧.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢١٤.
(٣) تفسير الصافي.
(٤) انظر: سورة الفتح: الآية ٤.
(٥) انظر: سورة الحديد: الآية ١٦.
(٦) سورة الأنفال: الآية ٢.
(٧) سورة الكهف: الآية ٢٨.
(٨) سورة آل عمران: الآية ٧.
(٩) سورة المائدة: الآية ١٣.
(١٠) سورة المطفّفين: الآية ١٤.
(١١) سورة النساء: الآية ١٥٥.

علامات القلب المنيب

القلب المنيب، هو القلب الأوّاب المنيب إلى الله كلّما انتبه إلى انحرافه وخروجه عن الحقّ، فيتوب عمّا بدر منه، ومن أبرز علائمه التغيّر السريع في سلوك الإنسان وأقواله.

❑ لقد ذكر الله تعالى في محكم كتابه تسع علائم لقلوب الكافرين هي:

أ) إنكار الحقائق، ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾[1].

ب) التعصّب، ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾[2].

ج) الانحراف والضلال، ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[3].

د) القسوة، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[4].

هـ) الموت، ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾[5].

و) الرين والدرن، ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾[6].

ز) المرض، ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[7].

ح) الضّيق، ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾[8].

ط) الطبع والختم، ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[9].

إنّ قلب الإنسان متغيّر ومتقلّب ومتأثّر، وهو ما يفسّر دعاء المؤمنين على هذا النحو: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[10].

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**قال أكثروا أن تقولوا: ربنا لا تزغ قلوبنا... ولا تأمن أن يزيغ قلبك**»[11].

---

(١) سورة النحل: الآية ٢٢.
(٢) سورة الفتح: الآية ٢٦.
(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٧.
(٤) سورة الزمر: الآية ٢٢.
(٥) سورة الروم: الآية ٥٢.
(٦) سورة المطفّفين: الآية ١٤.
(٧) سورة البقرة: الآية ١٠.
(٨) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.
(٩) سورة النساء: الآية ١٥٥.
(١٠) سورة آل عمران: الآية ٨.
(١١) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ الحرمان من إدراك الحقيقة أعلى مراتب العقوبة الإلٰهيّة، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

٢ ـ الختم والطبع على القلوب والسمع إنّما هو نكال الكفر والإلحاد، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا... خَتَمَ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ الإصرار على الكفر، يسلب الإنسان أهمّ امتياز (وهو إدراك الحقائق والوقائع)، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا... خَتَمَ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ على قدر المعاصي تكون العقوبة الإلٰهيّة، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا... خَتَمَ ٱللَّهُ﴾.

نعم، إنّ جزاء من عرف الحقّ وكتمه، أن يختم الله على سمعه وروحه وعقله. الحقيقة، إنّ الإنسان هو من يفتح الباب أمام تعاسته وشقوته، وفي هذا يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم**»[١].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت الآيات الأربع في مطلع هذه السورة المباركة عن خصال المؤمنين والتعريف بهم، واستعرضت الآيتان اللّاحقتان خصال الكفّار، ثمّ أفردت السورة الآيات ٨ ـ ١٠ للمجموعة الثالثة، وهم المنافقون. فهؤلاء لا هم بمؤمنين كما المجموعة الأولى، ولا هم يمتلكون القدرة والجرأة اللازمتين لإشهار كفرهم. وقيل المنافق مشتقّ من نافق اليربوع إذا دخل في قاصعائه وخرج من نافقائه وبالعكس. وذلك أن اليربوع له جحر أربع: النافقاء والقاصعاء والراهطاء والداماء، فهو يرفق أقص النافقاء ويكتمها ويظهر غيرها.

---

(١) تفسير نور الثقلين، تفسير كنز الدقائق.

فإذا قصد من غيرها من الجحر ضرب النافقاء برأسه فانتفق منها أي خرج. وقيل: إنها نافذة بعضها إلى بعض، فمن أيها قصد خرج من الأخرى. والنفاق، هو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب[١]، وكذلك المنافق يدخل في الإيمان من جهة ويخرج من جهة أخرى.

□ على الرغم من أنّ المراد بالنفاق في هذه الآيات، إضمار الكفر في القلب وإظهار الإيمان، فإنّ روايات النفاق تتوسّع في معنى هذه الكلمة لتشمل كل من لا يتطابق عمله مع كلامه، فهو له حظّ من النفاق، إذ نقرأ في الحديث: **«ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف»**[٢].

فالنفاق، نوعٌ من الكذب العملي والاعتقادي، والرياء أيضاً من هذا النوع[٣].

التعاليم:

١ ـ الإيمان شأن قلبي، وتصريح الإنسان لا يُجزئ، ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ ـ ركنا الإيمان هما الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾.

٣ ـ الله عليمٌ بسريرة الإنسان، ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

إشارات:

□ قال أهل اللغة: **«الشعور»** من **«الشَّعر»** (في رأس الإنسان.. إلخ) لدقّته، ويقال لمن يمتلك حسّاً دقيقاً وفهماً عميقاً: إنّه من أهل الفهم والشعور. وهنا إشعار

---

(١) مفردات الراغب، مادة «نفق».

(٢) سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٠٥.

(٣) «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل».

للمنافق بأنّه خادع نفسه لأنّه يخادع من لا يُخدَع، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

- والمراد من خداع المنافقين ومكرهم مع الله هو التفافهم على أحكام الله ودينه، واستهزائهم به واتّخاذهم إيّاه لعباً وهزواً، أو المراد هو خداع النبيّ الأكرم ﷺ؛ لأنّ طاعة رسول الله وبيعته من طاعة الله وبيعته[١]، وأنّ خداع رسول الله هو خداع لله، وبديهي أنّ هذا اللون من الخداع والتحايل على الدين هو خداع للنفس، تماماً كما في حالة الطبيب عندما يوصي مريضه بتناول الدواء، ويتحايل المريض بدوره على طبيبه بقوله إنّه قد استعمل الدواء، فهو يظنّ أنّه خدع الطبيب وواقع الحال، أنّ نفسه يخدع.

- وتعامل الإسلام مع المنافق، يتطابق تماماً مع تعامل المنافق مع الإسلام، فهو يؤمن بالإسلام في الظاهر، والإسلام يعتبره مسلماً في الظاهر أيضاً. ويخلو قلب المنافق من ذرّة إيمان فهو كافر، كذلك الله تعالى سوف يحشره في يوم الحساب مع الكافرين.

- ونقل عن النبيّ الأكرم ﷺ في النفاق وأشكاله قوله: «**الرياء خداع لله**»[٢].

- ويعزو القرآن الكريم عواقب أعمال الإنسان خيرها وشرّها إلى الإنسان نفسه، إذ يقول الباريءُ ﷻ في الآية نفسها: إنّ خداع الدين إنّما هو خداع للنفس وليس لله ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾، ويقول أيضاً: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾[٣]، أو: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾[٤].

---

(١) ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾، سورة النساء: الآية ٨٠؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، سورة الفتح: الآية ١٠.

(٢) تفسير نور الثقلين.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧.

(٤) سورة فاطر: الآية ٤٣.

التعاليم:

١ ـ الخداع علامة النفاق، ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ الشغل الشاغل للمنافق هو تدبير المؤامرات، ﴿يُخَـٰدِعُونَ﴾. (قيل: أصل «الخداع» الإخفاء ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء، فيكون الخداع هو إبطان المنافق لشيء وإظهار خلافه من أجل الوقيعة)[1].

٣ ـ عاقبة الخداع تعود بالضرر على صاحبه، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٤ ـ المنافق، غافل لا يدري أنّه يتعامل مع الله الذي يعلم سرّه وما يخفي[2]، وأنّه سيكشف الحجاب عن أسراره في يوم القيامة[3] ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[4].

٥ ـ الخدعة والحيلة قلّة عقلٍ ورأي، ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ... وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. وقد ورد في الروايات عن العقل: «**إنّ العقل ما يُعبَد به الرحمن ويُكتَسب به الجنان**»[5].

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ المرض، العلّة في البدن ـ أحياناً ـ كما في الآية ١٨٥ من سورة البقرة ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ التي تتحدّث عن أحكام صوم المريض، وأحياناً أخرى يعرض المرض للروح كما في الآية الكريمة ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إذ تشير إلى النفاق. إذن الإشارة هنا إلى مرض الدين وليس مرض الأجساد.

□ إنّ مثل المنافق كمثل الجيفة النتنة في مستنقع، كلما زاد الماء في المستنقع، زاد فساد الجيفة وانتشرت رائحتها الكريهة. نعم، النفاق كالجيفة، إذا استقرّ

---

(١) تفسير راهنما.

(٢) ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾، سورة غافر: الآية ١٩.

(٣) ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، سورة طارق: الآية ٩.

(٤) يمكن تفسير عبارة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ على وجهين: الوجه الأول، أنّهم لا يفقهون بأنّ الله يعلم أسرارهم، والوجه الثاني، أنّهم يؤذون أنفسهم ولكن لا يشعرون بذلك.

(٥) المولى صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، ج ١، ص ٨٦.

في روح الإنسان وقلبه، فالمنافق بدلاً من الإيمان بكل آية أو حكم نازل من لدن الله تعالى، سيلجأ إلى الرياء والتظاهر، فيزيد من عفونة نفاقه، فهذه الروح السقيمة المريضة ستضفي طابع الرياء والنفاق على أعمالها كلّها، وما ذلك إلّا لأنّ مرض النفاق قد استفحل وانتشر في جسده ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

□ ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾، ربّما كانت هذه العبارة الأخيرة ذمًّا للمنافقين ودعاءً عليهم كما في ﴿قَـٰتَلَهُـمُ ٱللَّهُ﴾، وبذلك تعني، أما وقد استقرّ مرض النفاق في قلوبهم، فسوف يزيدهم الله من هذا المرض.

التعاليم:

١ ـ النفاق مرض نفسي والمنافق شخص مريض، فلا حيّ فيُرجى ولا ميّت فيُنعى، لا هو بمؤمن ولا بكافر، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

٢ ـ جوهر الإنسان هو قلبه وروحه، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

(كان حقيقاً أن يقول «فزادها الله مرضا» أي كان في قلوبهم مرض، فزاده الله. لكنّه قال: زاد مرضهم، إذن، يصبح القلب هنا بمنزلة الإنسان. وذلك لأنّه إذا انحرف الروح والقلب، ستظهر آثار هذا الانحراف في القول والعمل)[١].

٣ ـ النفاق ورم سرطاني خبيث[٢]، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

٤ ـ خيارات العزّة أو الانحدار بيد الإنسان، يختار منها ما يشاء، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

٥ ـ الكذب رأسمال المنافقين وديدنهم، ﴿كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾.

---

(١) تفسير راهنما.

(٢) يتحدّث القرآن الكريم في بعض آياته عن بعض الخصال والأوصاف الحميدة التي يمكن زيادتها مثل العلم، والهداية، والإيمان، كما في الآيات: ﴿زِدْنِى عِلْمًا﴾ سورة طه: الآية ١١٤، و﴿زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ سورة الأنفال: الآية ٢، و﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ سورة محمد ﷺ: الآية ١٧. وفي الوقت ذاته، هناك بعض الأمراض والصفات الذميمة القابلة للزيادة مثل الرجس، والنفور، والفزع، والخسران كما ورد في الآيات: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ سورة التوبة: الآية ١٢٥، و﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ سورة الفرقان: الآية ٦٠، و﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ سورة التوبة: الآية ٤٧، و﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ سورة =

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ المنافقون ليسوا أهلاً للوعظ والنصح، ولكن مع ذلك يجب سلوك طريق الموعظة والنهي عن المنكر معهم، ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾.

٢ ـ النفاق مجلبة للفساد، ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

٣ ـ يبرّر المنافق تناقضاته بأنّها مداراة وإصلاح، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

٤ ـ المنافق لا يرى غيره مصلحاً، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (ربّما وجدنا أحداً مصاباً بمرض نفسي عضال لكنّه يعتقد أنّه سليم).

٥ ـ المنافق من خلال مدحه نفسه بما ليس فيها، يحاول استغفال الآخرين وتحميقهم، وتبرير متناقضاته، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

❑ إذا ما تأمّلنا قليلاً آيات القرآن الكريم يتّضح لنا أنّ للنفاق عواقب وخيمة على روح المنافق ونفسه وسلوكه، تجعله مكروباً في الدنيا ويوم القيامة.

يستعرض القرآن الكريم أوصاف المنافقين بقوله:

- يتعرّض المنافق لحالة من فقدان الشعور والسّفه[١].
- لا يفقه ولا يدرك[٢].
- يبتلى بالحيرة والعَمْه[٣].

= الإسراء: الآية ٨٢. وفي ضوء الآيات المذكورة أعلاه، يتّضح لنا أنّ سنّة الله تعالى هي منح الخيار والحرّية لكلا الفريقين الخيّر والشرير .﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ﴾، سورة الإسراء: الآية ٢٠.

(١) ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ١٢؛ ﴿هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ سورة البقرة: الآية ١٣.

(٢) ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ سورة التوبة: الآية ٨٧؛ ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ١٣.

(٣) ﴿يَعْمَهُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ١٥؛ ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ١٧.

• يصاب بالهلع والاضطراب[١] والعذاب الأليم[٢] بسبب افتقاده الإيمان القلبي السليم.

التعاليم:

١ ـ يجدر بالمسلم أن يحذر ألاعيب وشعارات المنافقين البرّاقة، ﴿أَلَآ﴾.
٢ ـ يجب قمع غرور المنافق وأحلامه المريضة، ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.
٣ ـ الفساد هو الشغل الشاغل للمنافق، ﴿هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.
٤ ـ النباهة إذا لم توظّف في خدمة الحقّ تصبح ضعف رأي، ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إرشاد أولياء الله المنافقين ودعوتهم إيّاهم هواء في شبك، ﴿قِيلَ... أَنُؤْمِنُ﴾.
٢ ـ المنافق يمتلك روح الانتهازية والاستعلاء والاعتداد بالنفس، ﴿أَنُؤْمِنُ﴾.
٣ ـ احتقار المؤمنين، أحد أساليب المنافقين، ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.
(الإيمان بالله والتسليم لأمره في نظر المنافقين حمق).
٤ ـ على المسلم الحذر لئلا ينخدع بالمظاهر، ﴿أَلَآ﴾.
٥ ـ الإعراض عن الحقّ في منظور القرآن سَفَه، ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.
٦ ـ لا بدّ من تحطيم غرور المنافق وكبريائه، والتصدّي له، ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.
٧ ـ لا بدّ من تعرية الوجه المزيّف للمنافق أمام المجتمع المسلم، ﴿هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.
٨ ـ إن كنت تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم، ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾، سورة البقرة: الآية ١٩. (٢) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾، سورة البقرة: الآية ١٠.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

□ **«الشيطان»** من «شطن» إذا بَعُدَ عن الخير، وتُطلق على كلّ من يُلقي الانحراف، وسمّي الشيطان شيطاناً لبعده عن الحقّ وتمرّده[1].

التعاليم:

١ ـ المنافق شخص انتهازي متحيّن للفرص، ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

٢ ـ إشهار الإسلام حجّة، ولكن مع ذلك يجب الحذر من المندسّين، ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾.

٣ ـ المنافق يفتقد شجاعة الصدق، وهو يخشى المؤمنين، ﴿خَلَوْا﴾.

يجهر المنافقون بعلاقاتهم بالمؤمنين، لكنّ علاقاتهم بالكفّار أو بزعمائهم سرّية وفي دهاليز الخلوة.

٤ ـ أصدقاء المنافقين متشيطنون، ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾.

٥ ـ للكفّار والمنافقين علاقات تنظيمية، يستمدّ منها المنافقون نهجهم الفكري عن الكفّار، ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾.

٦ ـ المنافقون يسخرون من المؤمنين، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ **«يَعمَهون»** من **«العَمَه»** وهو التردّد في الأمر من التحيّر، وهو قريب من العمى الذي يقال في افتقاد البصر إلّا أنّ العَمَه يكون في البصيرة[2].

(١) مفردات الراغب، مادة «شطن». (٢) تفسير الكشاف.

□ عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآية: **«إنّ الله تعالى ليس أهل المكر والخديعة والاستهزاء، إلّا أنّه يجازيهم بمكرهم واستهزائهم»**[1].

كما أنّه يتركهم غارقين في طغيانهم وتمرّدهم، وأيّ عقوبة أشدّ من قسوة القلب ونفوذ الشيطان ووساوسه إلى نفس الإنسان وترغيبه في المعصية وتنفيره من العبادة، ومصاحبة جليس السوء والتواطؤ معهم، والاستغراق في ملذات الدنيا، والغفلة عن الحقّ وهو ما ابتلي به المنافقون.

□ للمنافق سلوك مزدوج، ولهذا، فإنّ التعامل معه يتمّ عبر نوعين من السلوك، ففي الدنيا يسري عليه حكم المسلم، وفي الآخرة يلقى جزاء الكافر.

التعاليم:

١ ـ العقاب الإلٰهيّ على قدر المعصية. لقد جاءت عبارة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، في قبال عبارة ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

٢ ـ المنافق خصيم الله لا المؤمنين، (فهو يهزأ بالمؤمنين، لكنّ الله يدافع عن المؤمنين ويردّ على استهزاء المنافقين)، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

٣ ـ يجوز الاستهزاء إذا كان للردّ والإسكات، مثلاً التكبّر في إزاء المتكبّر، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

٤ ـ إذا أمهل الله عباده ومدّ لهم فينبغي ألّا يدفع بهم ذلك إلى الاغترار، ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾.

٥ ـ أوّل الضلال، التمرّد والطغيان، ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ أساساً، لم يكن المنافقون على هدى حتى يضيعوا هداهم، إذن، ربّما كان

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣٠.

مقصود الآية هو أنّهم ضيعوا العوامل الفطرية وعناصر الهداية، ويرجّح هذا القول مفاد الآيات الكريمة:

﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[1]، أو ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[2]، أو ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾[3]، وتعني أنّهم بأعمالهم أضاعوا على أنفسهم فرصة الإيمان والفوز بالثواب والمغفرة.

ويقول الشاعر: كان مآل النور الذي أودعه الله فيه دخاناً، وعاقبة فطرة الحقّ أن أصبح نمروداً[4].

التعاليم:

١ ـ لا يعرف المنافق مصلحته في الربح والخسارة؛ لذلك تراه يشتري الضلالة بالهداية، ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾.

٢ ـ الإنسان مُخيّر لا مُسيّر، ودليل ذلك أنّ البيع والشراء يحتاج إلى الإرادة واتّخاذ القرار. ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ...﴾

٣ ـ الدنيا سوقٌ تجّارها الناس وبضائعها أعمالنا وخياراتنا، ﴿ٱشۡتَرَوُاْ... فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾.

٤ ـ عاقبة المؤمن الهداية؛ ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ ومصير المنافق الانحراف، ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾.

٥ ـ لن يحقّق المنافقون أهدافهم، ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ (ويستفاد هذا المعنى من الآيات اللّاحقة).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٨٦.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٥.
(٤) الشعر بالفارسية:
عاقبت نور إلهي دود شد   فطرت حق جوى او، نمرود شد

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ
ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

□ يلجأ القرآن الكريم هنا إلى أسلوب التمثيل وهو أسلوب ناجع وله أبلغ الأثر في إفهام الناس، حيث يتمّ بواسطته تجسيد القضايا العقليّة وجعلها محسوسة وبذلك يتمّ تقريبها إلى أذهان الناس، فتزيد من اطمئنانهم، وفي المقابل تخرس أصحاب اللجاج.

في الحقيقة، يزخر القرآن الكريم بأسلوب التمثيل هذا، حيث يشبّه، مثلاً، الحقّ بالماء، والباطل بزبد البحر[١]، أو يشبّه الحقّ بالشجرة الطيبة، والباطل بالشجرة الخبيثة[٢]. وفي موضع آخر يقوم بتشبيه أعمال الكفّار بالرماد الذي تذروه الرياح في الفضاء[٣]، أو تشبيه أعمال هؤلاء بالسراب[٤]، أو تشبيه الأصنام والطواغيت ببيت العنكبوت[٥]، أو العالم غير العامل بالحمار الذي يحمل الكتب[٦]، وفي آية أخرى يشبّه الغيبة بأكل ميتة الأخ[٧].

إذن، درج القرآن الكريم على استخدام أسلوب التشبيه، إذ تقوم الآية التي نحن بصددها بتجسيد مجموعة الحالات النفسية الخاصّة بالمنافق، فهو يشعل ناراً، إلّا أنّ الله تعالى يطفئها، ليتركه وسط الدخان والرماد والظلمة، حائراً لا يدري ما يفعل.

□ روي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في معنى قوله الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنّه متى علم أنّهم لا يرجعون عن الكفر والضلال، منعهم المعاونة واللّطف وخلّى بينهم وبين اختيارهم**»[٨].

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.
(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٦.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٨.
(٤) سورة النور: الآية ٣٩.
(٥) سورة العنكبوت: الآية ٤١.
(٦) سورة الجمعة: الآية ٥.
(٧) سورة الحجرات: الآية ١٢.
(٨) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ يستنير المنافق بالنار ذات الرماد والدخان والحريق، ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾.

٢ ـ نور الإسلام يشعّ على العالم برمّته، بيد أنّ النور الذي يتظاهر المنافق في ضوئه بالإسلام يضيء لمسافة قريبة وفترة قصيرة، ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾.

٣ ـ الإسلام نور والكفر عتمة، ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ﴾.

٤ ـ من لم يستضئ بالنور، قدره أن يتخبّط في ظلمات متعدّدة، ﴿بِنُورِهِمْ... فِى ظُلُمَـٰتٍ﴾ (لاحظ أنّ كلمة «النور» وردت في صيغة المفرد و«الظلمات» في صيغة الجمع).

٥ ـ إرادة الله تفشل مؤامرات المنافقين ودسائسهم كلّها، ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

٦ ـ الله خصيم المنافقين، ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

٧ ـ عاقبة المنافقين وخيمة ومصيرهم أسود، ﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ﴾.

٨ ـ المنافق يعيش في رعبٍ وذعرٍ دائمين، تغشاه الحيرة عندما تحين ساعة اتّخاذ القرارات الاستراتيجية، ﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

٩ ـ أحياناً، ينتاب الإنسان (المنافق) في البدء شعور بالإيمان الحقيقي، ولكن، مع مرور الوقت، ينحرف عن الطريق، فيصبح منافقاً. (تشير كلمة ﴿بِنُورِهِمْ﴾ في هذه الآية، وعبارة ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ في الآية التالية إلى أنّ المنافقين كان لهم نور، لكنّهم لم يثوبوا إليه).

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

□ جاء في القرآن الكريم في الثناء على بعض الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[1] ربّما كان القصد من هذه الآية

(١) سورة ص: الآية ٤٥.

الشريفة أنّ الذي يحطّم الأصنام هو الذي يملك يداً حقيقيّة، وأنّ الذي يرى الحقّ الإلٰهيّ هو الذي يملك عيناً حقيقيّة، لذلك ليس للمنافقين يدٌ حقيقيّة أو عينٌ حقيقيّة، وهم أشبه بذي العاهة الذي يقدّم لعاهته بنفسه، ففقدوا بذلك أدوات التمييز والمعرفة. من هنا، نجد القرآن يستخدم عبارات مثل: «**لا يشعرون، ما يشعرون، لا يعلمون، لا يبصرون، يعمهون، صمّ، بكم، عمي، لا يرجعون**».

- من المعلوم أنّ البصر غير البصيرة، وقد جاء وصف ذلك في القرآن الكريم في سورة الأعراف: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1]، أي ليس لهم عين البصيرة التي تسبر الحقّ.

- ومن البديهي أنّ عدم التوظيف الصحيح لإمكانات المعرفة وأدواتها، يعني السقوط وهدر الكرامة الإنسانية. نقرأ في الآية ١٧٩ من سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

- نعم، فجزاء من عميت بصيرته في هذه الدنيا عن آيات الحقّ وأصابه الصمم والبكم، أن يلقى المصير نفسه في الآخرة، صمّ بكم عمي، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[2].

التعاليم:

١ ـ النفاق، يسلب الإنسان قدرته على إدراك الحقائق والمعارف الإلٰهيّة، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

٢ ـ من لم يمتح من نعم الله السنيّة على طريق الحقّ، يكون كالفاقد لهذه النعم، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

٣ ـ احتجاب الحقّ عن بصيرة المنافق مردّه إلى سببين: الأول، أنّه يعيش في ظلام دامس ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾؛ والثاني، أنّه فقد البصيرة، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

٤ ـ المنافق يحمل تعصّباً وعناداً ولجاجاً، ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٨.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٧.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

□ يصوّر الله تعالى المنافق كمن انقطعت به السبل في بلقعٍ لا ملاذ يأويه، ولا ملجأ يكفيه، وقد حاصره المطر الغزير من كل ناحية، وخيّم عليه الظلام في ليل حالك، يسمع زئير الرعد في الفضاء المصحوب بومضات البرق الخاطف للأبصار الذي ينطلق من كل صوب، فيمتلئ وجوده خوفاً وهلعاً من الموت، في هذا الخضمّ الجارف لا يجد المنافق مأوى يحفظه من المطر الشديد ولا نوراً يبدّد حلكة الظلام، ويكاد صوت الرعد يمزّق أذنيه، وقد أمسكت بروحه مخالب الموت.

التعاليم:

١ ـ المنافق غارق في همومه ومشاكله، لا يجد مهرباً في هذه الدنيا من الوساوس والوحشة والفضيحة والذلّة، ﴿ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾.

٢ ـ يخشى المنافق الموت، ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾.

٣ ـ ليعلم المنافقون بأنّ الله محيط بهم، وهو قادر على فضح مؤامراتهم ومخطّطاتهم في أيّ لحظة شاء، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

□ المنافق لا قِبل له برؤية دلائل النور وإشراقة الآيات القرآنية فهو كالمسافر الذي يطوي القفار في جنح الظلام، وقد خطف البرق بصره فلا يقوى على السير بضع خطوات، وهذا هو مثله في المجتمع أيضاً، إذ تسنح له الفرصة أحياناً

فيخطو بضع خطوات، وإذا به يعود من حيث بدأ، بسبب بعض الحوادث والوقائع، لقد انطفأ مصباح الفطرة عند المنافق؛ لذلك ينتظر النور من قوّة خارجيّة علّه يستطيع مواصلة مسيره.

❑ عندما نقول إنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء، نقصد قدرته على الأفعال الممكنة. فعلى سبيل المثال عندما نقول إنّ زيداً عالم رياضيات، فلا نعني بذلك أنّ بإمكانه أن يجعل ٢ + ٢ تساوي ٥، فهذا الأمر محال، ولا يشير بأيّ حال إلى عجز ذلك الرياضي عن القيام بعملية الجمع تلك. ويجيب أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام من سأله: هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر أو تكبر البيضة؟ فأجابه في البداية جواباً جَدَليًّا قائلاً: «**نعم وقد جعلها في عينيك وهي أقل من البيضة، ثمّ قال له: إن الله تبارك وتعالى لا يُنسب إلى العجز، والذي سألتني لا يكون**»[1] تماماً كعالم الرياضيات، فهو لا يستطيع أن يحلّ مسألة رياضية مستحيلة.

سيماء المنافق في القرآن

❑ يظهر المنافق في العقيدة والعمل والمعاملة والقول وهي تصرّفات وسلوكيّات يستعرضها القرآن الكريم في هذه السورة وفي سور المنافقون والأحزاب والتوبة والنساء ومحمد ﷺ. ويمكن القول هنا إنّ المنافق يخلو باطنه من الإيمان، غير أنّه يعتبر نفسه مصلحاً وعاقلاً. يختلي بأقرانه، يصلّي كسلاً، وينفق كرهاً، يلمز المؤمنين ويعيب عليهم ويؤذي النبيّ الأكرم ﷺ، ينكص عن القتال، وهو عن الله غافل. لا تجده إلّا ثرثاراً ومرائياً، يبثّ الشائعات يتولّى الكفّار ويوادّهم. إن أعطي رضي، وإن حُرم سخط. لا يحفظ عهده مع الله، يغتمّ لخير المؤمنين، ويفرح لمصيبتهم. يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف. يوجز القرآن الكريم كل انحرافاتهم في العقيدة والعمل بالقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣٩.
(٢) سورة النساء: الآية ١٤٥.

التعاليم:

١ ـ المنافق حائر ومضطرب في مسيره، ﴿أَضَآءَ...مَّشَوۡاْ... أَظۡلَمَ... قَامُواْ﴾.

٢ ـ حركة المنافق على هدي نور الآخرين، ﴿أَضَآءَ لَهُم﴾.

٣ ـ المنافق معرّض في أيّ لحظة لغضب الله بسبب فعاله، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ﴾.

٤ ـ سنّة الله هي منح الحرّية للجميع، وإلّا لأذهب الله بسمع الكافرين وبصرهم، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

- في كتب التشريعات والقوانين، لا تخاطب المواد القانونية جهة بذاتها، إلّا أنّ القرآن الكريم هو الكتاب التشريعي الذي يخاطب روح الناس وضمائرهم وأحاسيسهم، إذ يستعرض تعاليمه بصيغة النداء أو الخطاب، أو قل ـ إن شئت ـ بصيغ متعدّدة، فأحياناً يخاطب عموم الناس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وفي كلامه إلى المهتدين يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.
- لا شك في أنّ الهدف من خلق الكون والإنسان هو بلوغ البشرية مرحلة الكمال والسموّ، أي، إنّ الهدف من خلق الوجود هو أن ينعم الإنسان[(١)] ويتكامل في ظلّ العبادة[(٢)] وآثارها، للوصول إلى التقوى[(٣)]، ومن ثمّ الفلاح التي هي غاية التقوى[(٤)] ولعلّ سائلاً يسأل: لماذا نعبد الله؟

في الإجابة نقول: لقد ورد جواب هذا السؤال في أماكن عدّة من القرآن كما يلي:

---

(١) ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ سورة الجاثية: الآية ١٣ ﴿خَلَقَكُمۡ﴾ سورة البقرة: الآية ٢٩.

(٢) ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) ﴿...ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ﴿...لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ٢١.

(٤) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ سورة البقرة: الآية ١٨٩.

- لأنّ الله خالقنا وربّنا، ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾[١].
- لأنّه يمنحنا الرزق والأمان، ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[٢].
- لأنّه لا معبود سواه، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾[٣].

□ عبادة الإنسان هي الغاية من وراء خلقه، وليست هي غاية الخالق؛ لأنّ الخالق غنيّ عن عبادتنا، ولو كفر جميع من في الأرض، فلن يضرّوا الله شيئاً، وهو غنيّ عنهم جميعاً: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ...﴾[٤]، كما لو أنّ الناس جميعاً بنوا بيوتهم باتجاه ضياء الشمس أو بعكسه، فلن يضرّوا الشمس في شيء.

□ على الرغم من أنّ عبادة الله واجبة علينا، لأنّه الخالق والرزاق والرب، إلّا أنّه يثيبنا على أداء هذه التكاليف. لعمري إنّه لمنتهى اللطف.

□ إنَّ جملة من أمور تدفع الإنسان باتجاه العبادة، نذكر منها:

١ ـ الالتفات إلى نعمه فهو خالقنا ورازقنا وربّنا.

٢ ـ الاعتراف بفقرنا وحاجتنا.

٣ ـ الالتفات إلى آثار العبادة وبركاتها.

٤ ـ الالتفات إلى الآثار السيئة لترك العبادة.

٥ ـ الالتفات إلى أنّ الوجود برمّته خاضع له ويسبّح بحمده، فلماذا نشذّ (نحن البشر) عن هذا الوجود.

٦ ـ الاعتراف بأنّ الحب والعبادة يسكنان روحنا، فمن أحقّ منه بهذا الحبّ؟!

---

(١) المشركون يؤمنون بالخالقيّة إلّا أنّهم ينكرون الربوبيّة، ولهذا أورد الله سبحانه وتعالى كلمتي ﴿رَبَّكُمُ﴾ و﴿خَلَقَكُمۡ﴾ للدلالة على أنّ خالقكم هو ربّكم نفسه.

(٢) سورة قريش: الآيتان ٣ ـ ٤.

(٣) سورة طه: الآية ١٤.

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٨.

ولئن سأل سائل إنّه قد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[(١)] فهل إذا بلغ الإنسان مرحلة اليقين فله حينئذٍ أن يترك صلاته؟!

للإجابة عن هذا السؤال نقول: لو قلنا: ضع السلّم لتصل يدك إلى أعالي غصن الشجرة، فلا يعني ذلك أنّه متى ما أدركت يدنا غصن الشجرة نستطيع أن نرفع السلّم؛ لأنّنا سنسقط على الأرض. فالتارك العبادة مثله كمثل الساقط من السماء؛ ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ناهيك عن أنّ الذين بلغوا مرحلة اليقين من أمثال رسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام لم يتركوا العبادة لحظة واحدة.

وعلى هذا، يكون مراد الآية، بيان آثار العبادة من دون تعيين حدودها.

- لقد جاءت الآيات والروايات على ذكر طرقٍ وشروط للعبادة سوف نبحثها في مظانّها، غير أنّنا سنكتفي هنا بذكر بعض المحاور لنوضّح من خلالها كيف تكون عليه العبادة، وذلك نظراً إلى أنّ الآية الكريمة هنا تعتبر أوّل حكم إلهي قرآني إلى الإنسان:

١ ـ عبادة مأمورة بالأوامر الإلٰهيّة وبعيدة عن الخرافات.

٢ ـ عبادة واعية لنعلم من نخاطب ومن هو معبودنا، ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[(٢)].

٣ ـ عبادة خالصة، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[(٣)].

٤ ـ عبادة خاشعة، ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[(٤)].

٥ ـ عبادة عاشقة، كما قال النبيّ الأكرم ﷺ: **«أفضل الناس من عشق العبادة»**[(٥)].

وموجز القول، للعبادة شروط ثلاثة هي:

أ) شرط الصحّة، مثل الطهارة والقبلة.

ب) شرط القبول، مثل التقوى.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٦٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

(٣) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٢.

(٥) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٥٣.

ج) شرط الكمال، وهو أن تكون عن وعي وخشوع، وفي السرّ، وملؤها العشق والحب للمعبود، هذه هي باختصار شروط الكمال[1].

التعاليم:

١ ـ دعوة الأنبياء دعوة عامّة تشمل النّاس قاطبة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢ ـ من الحِكم التي تنطوي عليها العبادة، أداء شكر النّعم لوليّ النّعم، ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾.

٣ ـ أولى النّعم، نعمة الخلق، وأوّل الأوامر، السجود للخالق، ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾.

٤ ـ فليحذر الإنسان لئلا تحرفه عبادة الأصنام أو انحراف الأجداد عن عبادة الله فهؤلاء أنفسهم مخلوقات الله، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

٥ ـ ما لم تُفضِ العبادة إلى التقوى فليست بعبادة، ﴿ٱعۡبُدُواْ... لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

٦ ـ لا ينبغي أن نغترّ بعبادتنا، فليس كلّ عبادة تفضي إلى التقوى، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ يشير الله تعالى في هذه الآية إلى نعم عدّة، كلّ منها نبع يفيض بنعم أُخَر، على سبيل المثال، جَعْلُ الأرض فراشاً يشير إشارة إلى نعمٍ نابعة من هذه النعمة، من قبيل، صلابة صخور الجبال، ولين تراب السهول، والمسافة التي تفصل الأرض عن الشمس، ودرجة الحرارة والجو، ووجود الأنهار والوديان والجبال والنبات والحركات المختلفة، وهي عوامل تهيّئ بمجموعها الظروف

(١) لمزيد من التفصيل انظر: للمؤلف، «قبس من أسرار الصلاة وتفسيرها».

المناسبة لتكون الأرض كالفراش أي مقرّرة وموطأة، ولا سيّما إذا علمنا أنّ القرآن الكريم استخدم تعابير عدّة للإشارة إلى الأرض مثل «المهد»[(١)]، و«الذلول»[(٢)]، و«كفات»[(٣)].

□ لقد وردت كلمة «السماء» مرّةً في مقابل «الأرض» وهي تشير إلى العلوّ عموماً، والمرّة الثانية جاءت بمعنى الجوّ أو السحاب الذي يهطل منه المطر.

التعاليم:

١ ـ التذكير بنِعَم الله من أفضل سبل الدعوة إلى العبادة، ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ... ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾.

٢ ـ من أفضل طرق معرفة الله الاستفادة من النِّعَم المتاحة، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾.

٣ ـ تسود منظومة الخلق النظم التامّ، نظم بين الأرض والسماء والمطر والنبات والفاكهة والإنسان، (وهو ما يُعرف ببرهان النظام) ﴿جَعَلَ... وَأَنزَلَ... فَأَخْرَجَ﴾.

٤ ـ كلّ مخلوق خُلِقَ لهدف معيّن، ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾؛ فالمطر خلق لإخراج الثمر، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾، ليكون الثمر رزقاً للإنسان، ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

٥ ـ ما الأرض والمطر إلّا وسيلتان، فنموّ النبات وإخراج الثمر هو بأمر الله، ﴿فَأَخْرَجَ﴾.

٦ ـ النظم والنسق اللذان يحكمان عالم الخلق علامة على التوحيد، إذن، يجب أن نكون نحن أيضاً على دين التوحيد، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

٧ ـ يضرب التوحيد بجذوره في فطرة الناس وضمائرهم، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٨ ـ خلق الأرض والسموات والمطر والفاكهة ورزق الإنسان كلّها قبسات من ربوبيّة الله، ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ... ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ...﴾.

---

(١) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، سورة طه: الآية ٥٣.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، سورة الملك: الآية ١٥.

(٣) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾، سورة المرسلات: الآية ٢٥.

٩ ـ لكلّ إنسان الحقّ في استغلال الأرض واستثمارها. (لاحظ تكرار كلمة ﴿لَكُم﴾).

١٠ ـ دليل وجوب عبادة الناس لله هو ألطافه في تسخير الأرض والسماء والمطر والنبات لهم، ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ... الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾.

١١ ـ لقد حكم الله الأسباب الطبيعية، ﴿جَعَلَ... وَأَنزَلَ... فَأَخْرَجَ﴾.

١٢ ـ فكرة الشرك بالله مردّها إلى الجهل، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾

إشارات:

- تتحدّث الآية عن معجزة القرآن الخالدة. إنّ دعوة الأنبياء واحدة وهي هداية البشر نحو الله تعالى من خلال الموعظة والجدال الحسن، وجميعهم يحمل مدّعى واحداً وهو أنّهم مرسلون من الله لهداية الناس جميعاً، وليحملوا إليهم المعاجز، إذن، فالمعجزة هي من أجل إثبات مدّعى النبيّ لا دعوته[1].

لقد تحدّى الله في كتابه الكريم مراراً المنكرين الدعوة بالقول: إنّكم إذا كنتم تنكرون نزول هذا الكتاب من عند الله، وتقولون إنّه من صنع البشر حسب زعمكم، فأتوا بكتاب مثله (القرآن) لتسكتوا صوت الإسلام بدلاً من هذه الحروب والنزاعات التي لا طائل منها.

- أراد الله تعالى أن يقدّم دليلاً حيّاً على حقّانيّة النبيّ الكريم وكتابه المنزل، فقام تارةً بإثارة المنكرين وتحفيزهم، وتارةً أخرى بتخفيض سقف التحدّي ليبرهن لهم عجزهم، فنحن نقرأ عبارات الإثارة والتحفيز في مواضع كثيرة من القرآن

(١) بطبيعة الحال، إنّ المعجزة لا تعني تجاهل قوانين نظام العلّة والمعلول، بل للمعجزة علّة أيضاً، ولكن هذه العلّة إمّا أن تكون الإرادة الإلٰهيّة، أو عوامل شاء الله تعالى أن يخفيها عن أفهام الناس.

الكريم مثل: ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ﴾[1] وفي موضع آخر: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[2]، وكذلك ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[3]، وفي تأكيده على هذا التحدّي، يدعوهم إلى توظيف جميع إمكاناتهم وقدراتهم والاستعانة بنظرائهم في الفكر من المنكرين الكتاب والإتيان بمثل هذا الكتاب أو أجزاء منه.

- السورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر من أسأرت أي أفضلت، حذفت الهمزة، وقيل: السورة اسم للمنزلة الرفيعة ومنه سور البناء لارتفاعه سمّيت سورة لأن القارئ ينال بقراءتها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكماله سور القرآن، وقد تمّ تقسيم القرآن إلى سور على عهد رسول الله ﷺ وبأمر من الله تعالى، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾.
- إنّ أسلوب القرآن الكريم في التكريم والثناء على الأنبياء وهو أن يذكر اسم النبيّ المعني بالتكريم بعد كلمة «عبدنا» أو قبل كلمة «عبد» على سبيل المثال ﴿عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾... «**كل من عبادنا**»، لكنّه يستثني النبيّ الكريم ﷺ من هذه القاعدة فيأتي بكلمة «عبد» وحدها دون ذكر اسمه الشريف، ربّما كان ذلك للإشارة إلى العبد المطلق، أي محمّد ﷺ.

التعاليم:

١ ـ ينبغي اجتثاث الشك من عقل الإنسان وفؤاده لا سيّما في القضايا العقدية، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾.

٢ ـ العبودية لله هي شرط تلقّي الوحي، ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

٣ ـ القرآن الكريم هو كتاب احتجاج، وبه يزول كلّ شك أو وسوسة، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾.

٤ ـ ينبغي لكلّ نبي أن يأتي بمعجزة، والقرآن الكريم معجزة النبيّ الأكرم ﷺ، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

---

(١) سورة القصص: الآية ٤٩.
(٢) سورة هود: الآية ١٣.
(٣) سورة يونس: الآية ٣٨.

٥ ـ الدين الخالد، تلزمه معجزة خالدة ليمحّص الإنسان ـ في كلّ زمان ومكان ـ نفسه به كلّما انتابه شك أو وقع في ترديد، ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

٦ ـ إنّ يقيننا بحقّانيّة القرآن عظيمة لدرجة نقبل معها من المنكرين الإتيان ولو بسورة واحدة بدلاً من القرآن كلّه، ﴿بِسُورَةٍ﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ
ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ يقول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[١]، لعلّ المراد من الحصب (الحجر) في هذه الآية الكريمة الأصنام التي كانت تُعبد وليس أيّ حجر[٢]، ليعلم أولئك ويوقنوا أنّ هذه الأصنام لا تنفعهم ولن تنفعهم، وهذه الأحجار ستصير في يوم القيامة كسكين القاتل الملطّخة بالدماء دليل إدانتهم وتشهد على جرمهم وجريرتهم في ذلك اليوم.

وهنا، ألا يحقّ أن نتساءل: الكلام، ألفاظ اخترعها الإنسان، فكيف يعجز هذا الإنسان عن أن يأتي بمثل ألفاظ القرآن؟

الجواب عن ذلك هو: نعم، إنّ حروف الألفباء من اختراع البشر، إلّا أنّ تركيبها والتوليف بينها لصنع المفاهيم والمعاني الراقية ينمّ عن علم وفن. فالقرآن الكريم يزخر بالعلوم والحِكم اللامتناهية لله تعالى، في حين أنّ أيّ كتاب صدر عن أيّ إنسان، ينطوي على علوم البشر المحدودة، لذلك، ليس بمقدور الإنسان أبداً أن يأتي بمثل القرآن.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

(٢) على مرّ التاريخ، ومن بين كلّ هذه الأحجار والأخشاب الموجودة على الأرض، لم يُعبد الحجر الأسود البتّة، ولم يعتبر يوماً كصنم، لذا لن يكون حصباً في جهنّم. نعم، إنّه كان يد الله في الأرض، وموضع الأسرار والشاهد على إقرار الفطرة البشرية.

التعاليم:

١ ـ اليقين بحقّانية الطريق والهدف، هو أحد أصول القيادة، ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾

٢ ـ والآن، ما دمتم تشعرون بالعجز والضعف، فسلّموا للحقّ، ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟﴾

٣ ـ إنَّ الإنسان الجامد الكافر، هو كالحجارة، ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾

٤ ـ إنَّ الخبائث الباطنية للعاصي سوف تتجسّم في يوم القيامة، وتشتعل ضراماً، ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾

٥ ـ إنَّ كفر وعناد الإنسان يهبطان به من منزلة خلافة الله إلى حطب جهنّم، ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾

٦ ـ إنَّ الإيمان بالقرآن والتصديق بالنبي الكريم ﷺ هو طريق الخلاص من نار جهنّم، «﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ... أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ قال البعض: قد يكون المقصود بـ «المتشابه» هو أن يظنّ أهل الجنّة للوهلة الأولى عندما يؤتى إليهم بفاكهة الجنّة أنّها شبيهة بالفاكهة الدنيوية، فيقولون: هذا ممّا تناولنا منه في الدنيا؛ ولكنّهم بعد أن يتناولوا منه يجدونه مختلفاً في طعمه ولذّته.

أو، ربّما يكون المراد هو أنّهم يُرزقون فواكه متساوية في الطعم والنضارة والعطر الزكي، وليس كما كانت في الدنيا فواكه ذات درجات مختلفة الجودة.

□ عادةً ما يقترن الإيمان في آيات القرآن الكريم بالعمل الصالح، ولكن مع تقديم الإيمان على العمل الصالح.

نعم، فلو أضيئت غرفة من الداخل، فإنّ نورها سيشعّ إلى الخارج عبر النوافذ، كذلك الحال مع الإيمان، فإذا أضاء باطن الإنسان، وأصبح قلبه نورانيّاً، فسوف يشعّ بضيائه على أعمال الإنسان وينيرها. إنّ بركات الإيمان والعمل الصالح عظيمة ووفيرة، وقد ورد ذكرها في آيات كثيرة في القرآن[١].

□ **إنّ زوجات الجنّة على نوعين:**

أ) الحور العين، وهنّ الباكرات كاللآلئ، ويُخلَقنَ في العالم الآخر، ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾.

ب) الزوجات المؤمنات في الدنيا اللائي يُخلقنَ لأزواجهنّ في الدار الآخرة في سيماء جميلة، ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾[٢].

سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، قال: «**الأزواج المطهرة اللّاتي لا يحضن ولا يحدثن**»[٣].

التعاليم:

١ ـ البشارة جنباً إلى جنب الإنذار والتحذير (الآية السابقة) وهذه من أصول التربية، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ... وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾.

٢ ـ لا بدّ من أن يقترن الإيمان القلبي بالعمل الصالح، ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٣ ـ القيام بأيّ عمل صالح ولائق هو أمر مفيد وفاعل، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (كلمة «الصالحات» جاءت في صيغة الجمع وكذلك معرّفة بـ (أل التعريف) لتعني جميع الأعمال الصالحة).

٤ ـ الأعمال اللائقة والصالحة تكتسب أهميّتها وقيمتها حينما تكون نابعة من

---

(١) يستعرض القرآن الكريم ١٥ بركة للإيمان المقترن بالعمل الصالح، يمكن الاطلاع عليها من خلال مراجعة المعجم المفهرس.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٣.

(٣) تفسير راهنما، تفسير الدرّ المنثور.

الإيمان، لا من الأهواء الشخصيّة والتأثيرات الاجتماعية، ﴿ءَامَنُواْ﴾ أوّلاً ثمّ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٥ ـ الحرمان الذي يكابده المؤمن في هذه الدنيا بسبب مراعاته الحلالَ والحرام، سيعوّض عنه في الآخرة، ﴿رُزِقُواْ﴾.

٦ ـ في الدنيا، نقلق لزوال النعم، أمّا في الآخرة فلا وجود لهذا القلق؛ لأنّه لا زوال لنعم الآخرة، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٧ ـ أحياناً، عندما تكون النعم معروفة لنا سابقاً، تزداد لذّة الفلاح والاستمتاع[١] ﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ﴾.

٨ ـ أزواج الجنّة أيضاً مطهّرات، ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

- **«البعوض»** صغير البقّ، مشتقّ من «بعض» أي الجزء لصغر حجمه[٢].
- ورد في الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾[٣]، بطبيعة الحال، يجب عدم التقليل من شأن هذه الأمثال؛ لأنّ العلماء قد خبروا حقيقتها وباطنها: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[٤]. والشيء المؤكد هو أنّ للأمثلة دوراً عظيماً في التذكير والتفهيم والتعليم والشرح ورفع الستار عن الحقائق، وهذا الأسلوب شائع جداً في

---

(١) مثلاً ننصت بشوق وشغف إلى حديث شخص نعرفه في الإذاعة أو التلفزيون، أو نستمتع بالنظر إلى صور لأماكن زرناها سابقاً.

(٢) مفردات الراغب، مادة «بعض».

(٣) سورة الروم: الآية ٥٨.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

الكتب السماوية القديمة مثل التوراة والإنجيل، وكذلك في أحاديث النبيّ الأكرم ﷺ وأقوال أهل بيته ﷺ. ففي التوراة ورد جزء تحت عنوان «أمثال سليمان».

❑ بعض المنكرين الذين عجزوا عن الاستجابة المنطقية لدعوة القرآن إلى الإتيان بمثله، اتّخذوا هذا الموضوع، أقصد أمثلة القرآن، ذريعة للاستهزاء واعترضوا بالقول: إنّ الله أرفع شأناً من أن يضرب الأمثال بحشرات مثل الذباب والعنكبوت[1]، إذ إنّ ذلك يتنافى مع عظمة الله ومنزلته، وبذلك راحوا يشككون في الآيات القرآنية[2]، ولهذا السبب أراد الله تعالى أن يردّ على تخرّصاتهم بإنزال هذه الآيات على رسوله الكريم.

يبرز هنا سؤال هو: هل يُضلّ الله فريقاً من خلال الأمثال التي يطرحها القرآن الكريم؟

الإجابة هي: إنّ الله تعالى لا يُضلّ أحداً من عباده، بل إنّ من يتصدّى لحقائق القرآن ويكذّب بها، فقد أضلّ نفسه بنفسه، ولهذا السبب ربّما يقال إنّ القرآن قد أضلّه، وهو ما نفهمه من ختام الآية الكريمة ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أفهل يُعقل أن يُضلّ الله الناس بعد أن أمرهم بالإيمان!؟ وبعد كلّ ما أنزل من الأنبياء والكتب السماوية على عباده. كيف يُضلّ الله الناس وقد وبّخ إبليس بسبب إضلاله إيّاهم!؟

---

(١) في سورة العنكبوت الآية ٤١، تمّ تشبيه القوى غير الإلٰهيّة ببيت العنكبوت، وفي سورة الحجّ الآية ٧٣ قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾.

(٢) أساساً، لِمَ ينبغي أن يخجل الله من ضرب مثال البعوضة؟ أفهل خلق البعوضة يستلزم الحياء والخجل، لكي يكون الإتيان بمثل البعوضة عيباً أو يقتضي الحياء؟ فصغر حجم البعوضة يجب ألّا يكون عذراً، لأنّ هذه البعوضة التي يستصغر شأنها تمتلك في حجمها الصغير جميع الأعضاء التي يمتلكها الفيل، وتزيد عليه بأنّها تمتلك مجسّين. وتستطيع هذه الحشرة الصغيرة بخرطومها الأجوف والذي هو بمثابة أدقّ وأرفع محقنة أن تؤذي أكبر حيوان. عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: ما في الفيل شيء إلا في البعوضة مثله وفُضِلَ البعوض على الفيل بالجناحين). «**تفسير مجمع البيان**».

□ تنسب هذه الآية مسألة الهداية والضلال ـ بصورة عامة ـ إلى الله تعالى، غير أنّنا نقرأ في آيات أخرى صورة مغايرة لهذه المسألة كما في الآية الكريمة ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[1] و﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ﴾[2]، و﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[3]. الذين اختاروا المضيّ في طريق الانحراف والضلال بمحض إرادتهم، سيتركهم الله ويكلهم إلى أنفسهم، وهذا المعنى هو المقصود من إضلال الله إيّاهم. كما أنّ القرآن الكريم استخدم عبارة ﴿لَا يَهْدِى﴾ في حقّ الكافرين والظالمين والفاسقين والمسرفين.

يقول الشاعر الإيرانيّ سعدي الشيرازي موضّحاً هذا المعنى:

الطريق والبئر أمامك، والبصر قوي والشمس ساطعة ليبصر المرء أمامه.

فكم من مشعل يحمل لكنّه يسير في طريق الضلال، دعه يسقط ليرى جزاء ما اقترفته يداه[4].

التعاليم:

١ ـ الخجل والحياء مطلوب عندما يكون الفعل مذموماً شرعاً وعقلاً وعرفاً، أمّا إذا كان القصد تبيين الحقائق فيصبح الخجل هنا مذموماً، ﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾.

٢ ـ من الممكن عرض الحقائق الراقية والمهمّة بأسلوب مبسّط وبلغة التمثيل، ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾.

٣ ـ يؤمن المؤمن بكلام الله ويعلم أنّه الحقّ فيمتثل له، ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

٤ ـ أمثلة القرآن وسيلة للتربية والإرشاد، ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٥ ـ أمثلة القرآن هي الحقّ ووسيلة لعرض الحقائق، ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢٧.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٦.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٤) الأبيات بالفارسية:

راه است وچاه وديد بينا وآفتاب تا آدمى نگاه كند، پيش پاى خويش
چندين چراغ دارد وبى راهه مي رود بگذار تا بيفتد وبيند سزاى خويش

٦ ـ طالب الحقّ يصنع من بصيص النور طريقاً للنجاة، بينما المعاند المتعنّت يُشكل على كل ضوء، ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾.

٧ ـ الكفر والعناد، هما سببا اختلاق الأعذار الواهية التعنّت، ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾.

٨ ـ الفسق، مدعاة للضلال، وحجاب دون معرفة الحقائق، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

٩ ـ أمثلة القرآن وسيلة للهداية أو الضلال، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ﴾.

١٠ ـ الناقض للعهد فاسق، والله يُضلّ الفاسقين، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ العهود والمواثيق التي تتحدّث عنها الآية الكريمة هنا كثيرة وعديدة، من جملتها: العهد الذي أخذه الله من الأنبياء ليبلّغوا آيات الله إلى الناس[١]، والعهد الذي أخذه الله من أهل الكتاب بألّا يكتموا الحقائق، وأن يعملوا ببشارات التوراة والإنجيل حول النبيّ الأكرم ﷺ[٢]، أمّا العهد الذي أخذه الله تعالى من الناس كافة فهو العمل بالأوامر الإلٰهيّة وعدم اتّباع طريق الشيطان[٣].

□ الوفاء بالعهود أمر واجب في الإسلام، حتى مع الكفّار، ويوصف الناقض العهد بأنّ دينه غير مكتمل، وإن كان من المصلّين، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: **«لا دين لمن لا عهد له»**[٤].

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ سورة الأحزاب: الآية ٧.
(٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ سورة آل عمران: الآية ١٨٧.
(٣) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٧٢.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٩٨.

- في هذه الآية المباركة يأمر الله تعالى أن يصل المسلم عدداً من الفئات: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، وقد استعرضت الأحاديث والروايات هذه الفئات كما يلي: القادة الإلٰهيّون، العلماء، الأرحام، المؤمنون، الجيران والأساتذة. أمّا من قطع صلته بهذه الفئات، فسوف يكون هو الخاسر، ذلك لأنّه سدّ على نفسه طريق النماء والكمال الذي يمكن أن يحصل عليه نتيجة إقامة العلاقات والارتباطات مع هذه الفئات.
- الوفاء بالعهد، فضيلة أثنى الله تعالى على نفسه بها حين قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1] والوفاء بالعهد، حتى مع المشركين، واجب وهو ما تؤكده الآية الكريمة ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾[2].

وفي المقابل، يلعن الله تعالى الذين ينقضون العهد من بعد ميثاقه وذلك في الآية ٢٥ من سورة الرعد.

- العهد عهدان، عهد يبرمه الناس بينهم، ويجب عليهم الوفاء به، وعهد يأخذه الله من النبيّ أو الإمام لقيادة الأمة، وهذا العهد هو مقام إلهي. ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].
- من العهود الإلٰهيّة التي جرى التأكيد عليها في هذه الآية، تلك التي أودعها الله تعالى في فطرة كل إنسان. وتوضّح خطبة الإمام علي عليه السلام الحكمة من إرسال الأنبياء هذا المفهوم وهو التأكيد على عهد الفطرة «**فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته**»[4].

ويثير موضوع العهد، سؤالاً هو: ما هو عهد الله؟

الجواب: يُستفاد من عبارة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنّ القيادة الإلٰهيّة هي عهد الله، وكذلك يُستفاد من الروايات أنّ الصلاة هي عهد الله، فأيّ عهد يبرمه الإنسان مع الله، هو عهد إلهي، وكذلك الحال مع القوانين العقليّة والفكرية والأحكام فهي أمثلة وعناوين للعهد الإلٰهيّ.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.
(٢) سورة التوبة: الآية ٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١.

ممّا تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ العلامة المجلسي (قدس سره) ذيّل الآية الكريمة ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ بمئة وعشرة أحاديث تتناول كلّها أهميّة صلة الرحم، ثم شرح تلك الأحاديث[1]. وننقل هنا لقارئنا العزيز بعضاً ممّا جاء في تلك الشروح من ملاحظات قيّمة ومثيرة:

- صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما توصل به الرحم كفّ الأذى.
- صلة الأرحام منسأة في الأجل، مثراة في المال.
- صلة الأرحام، سعة في الرزق.
- ما من خطوة أحبّ إلى الله ﷻ من خطوتين: خطوة يسدّ بها المؤمن صفا في الله وخطوة إلى ذي رحم قاطع الخبر.
- صلة الرحم ترفع صاحبها إلى علوّ المنزلة في الجنّة.
- صلوا أرحامكم وإن قطعوكم...
- صل رحمك وإن لم يكن من الأخيار.
- صلوا أرحامكم ولو بالسلام.
- إنّ صلة الرحم والبرّ ليهوّنان الحساب في يوم القيامة.
- إن الله خلق الجنّة فطيّبها وطيب ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة ألفي عام، فلا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم.
- صلة الرحم تزكي الأعمال وتنمّي الأموال.
- الصدقة بعشرة، والقرض بثماني عشرة وصلة الإخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربع وعشرين.
- سر سنة صل رحمك...

□ وقد بلغت صلة الرحم مبلغاً عظيماً إذ روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **«أوصاني أبي فقال: لا تصحبنّ خمسة ولا تحادثهم ولا ترافقهم في**

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٨٧.

طريق.... لا تصحبن قاطع راحم، فإني وجدته ملعونا في كتاب الله تعالى، في ثلاثة مواضع»[١].

التعاليم:

١ ـ شيمة المنافق نقض العهد والنكول، ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ... ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾ (لاحظ أنّ الفعل جاء في صيغة المضارع «ينقضون» للدلالة على الديمومة والاستمرار).

٢ ـ لا تركنوا إلى عهد الفاسقين، فمن نقض عهد الله، فلا يؤمَن على عهد الناس، ﴿يَنقُضُونَ﴾، ﴿يَقْطَعُونَ﴾.

٣ ـ الإنسان مسؤول أمام الله، لأنّه قطع بعقله وفطرته عهداً مع الله بأن يعمل وفقاً لأحكام دينه، ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ يعارض الإسلام أيّ عزلٍ أو قطيعة، ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

٥ ـ الناقض للعهد لا يضرّ الله بل يضرُّ نفسه، ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ أفضل سبيل إلى التوحيد ومعرفة الله هو أن يتدبّر المرء في خلق نفسه وخلق الكون. لقد أراد النبيّ إبراهيم عليه السلام في محاججته لقومه أن يبرهن على وجود الله الخالق، فقال لهم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[٢] إنّ التدبّر في مسألة الحياة والموت تلفت نظر الإنسان إلى حقيقة أنّه لو كانت الحياة بيد الإنسان، لظلّ خالداً لا يموت. وهو يسأل نفسه دائماً: لماذا لم يكن موجوداً من قبل، ثمّ وُهب الحياة، ثمّ يُسلَبها؟! كما أنّ الله تعالى يذكر ابن آدم بالقول: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) تفسير راهنما، وتفسير نور الثقلين.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

□ لا شك في أنَّ الحياة سرّ مكنون، إلّا أنّ آثارها مشهودة في كل زاوية من وجود الإنسان. وخالق هذه الحياة أيضاً سرّ لا يُدرك، إلّا أنّ آياته وآثاره مشهودة في أنحاء الوجود كلّها.

التعاليم:

١ ـ إيقاظ العقل والفطرة هو إحدى طرق الدعوة والإرشاد، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ...﴾.

٢ ـ التدبّر في أحوال الموت والحياة، هو الدليل الساطع على وجود الله تعالى، ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾، معرفة النفس مقدّمة لمعرفة الله.

٣ ـ الهدف من الحياة والموت ـ بحسب الرؤية الإلٰهيّة ـ هو التكامل والعودة إلى مبدأ الكمال، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «سماء» في اللغة العربيّة تقال للعلوّ أو الجهة العليا، وقد يكون هذا العلوّ لبضعة أمتار عن سطح الأرض مثل أغصان الشجرة المرتفعة كما في قوله تعالى: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1]، أو لارتفاع السحاب الذي تنزل منه قطرات المطر ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[2]، وأحياناً يعبّر بها عن الغلاف الجوّي المحيط بالأرض ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[3].

التعاليم:

١ ـ عجيب أن يكفر العبد بالله الرحمن القادر وقاضي الحاجات، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ... هُوَ ٱلَّذِى...﴾.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٤.
(٢) سورة ق: الآية ٩.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٢.

٢ ـ لقد خلق الله الكون من أجل البشر، ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

٣ ـ نظام الطبيعة غائي وهادف، وفي خلق الكون تكمن حكمة التدبير والتصوير، ﴿خَلَقَ لَكُم﴾.

٤ ـ لم يخلق أيّ مخلوق في هذا العالم عبثاً، وإن جهلنا أو لم نحسن الاستفادة منه، ﴿خَلَقَ لَكُم﴾.

٥ ـ الأصل في ما خلق الله من أشياء ومنافع، هو الحِلّ والإباحة، ما لم يثبت عكس ذلك بدليل صريح، ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

٦ ـ خُلقت الدنيا للإنسان، ولم يُخلق الإنسان للدنيا، ﴿خَلَقَ لَكُم﴾.

٧ ـ باستطاعة الإنسان أن يصل إلى مرتبة علمية تتيح له الانتفاع من جميع المواهب الطبيعية وتوظيفها لصالحه، ﴿لَكُم﴾.

٨ ـ الانتفاع من نعم الأرض متاحة للجميع، ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

٩ ـ السموات المتعدّدة للكون ذات استواء واعتدال ولا يشوبها أيّ اعوجاج أو انحراف، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

١٠ ـ خلق السموات والأرض تمّ بموجب العلم الإلٰهيّ، ﴿خَلَقَ لَكُم... عَلِيمٌ﴾.

١١ ـ خلقُ الأرض والسموات السبع لدليلٌ على قدرة الله تعالى على بعث الأموات (الوارد في الآية السابقة)، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ... هُوَ ٱلَّذِى﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت الآية السابقة أنّ الله تعالى خلق جميع النعم والمواهب لخدمة الإنسان، وفي هذه الآية والآيات التي تليها تقرير لمسألة خلافة الإنسان على الأرض التي أثارت تحفظ الملائكة من أن يعيث البشر فساداً في الأرض، إذ يردّ الله تعالى على سؤال الملائكة حول سبب خلقه للإنسان، ثمّ سجودهم لأوّل إنسان خلقه الله.

- قيل إنّ الملائكة كانوا عالمين ـ على ما يبدو ـ إمّا عن طريق إخبار الله إياهم، أو كانت لهم تجربة سابقة مع مخلوقات ـ في هذا العالم أو العوالم الأخرى ـ سبقت خلق النبيّ آدم عليه السلام، أو لصواب استنتاجهم، أقول، كانوا عالمين أنّ الإنسان مخلوق طيني مادّي، وأنّ هذا الأمر سيشكل مصدراً للتنافس الطبيعي، ومن ثمّ سيقترن بفساد الإنسان وسفك الدماء.

- وعلى الرغم من أنّ الإنسان يحمل استعداداً كامناً ـ بالقوة ـ لخلافة الله، لكن ليس البشر كلّهم خلفاء الله، فالخواص منهم فقط، بحسب تعبير الروايات، يحملون هذا الاستعداد، ذلك لأنّ بعضهم تنحدر به تصرّفاته ـ أحياناً ـ إلى مرتبة الحضيض فيصبح معها أحطّ شأناً من الحيوان، إذ يصفهم القرآن الكريم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾[1].

- إنّ مقرّ هذا الخليفة هو الأرض، إلّا أنّ له شأناً أعلى وأجلّ ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[2].

- تعلّمنا الآية الكريمة أدب السؤال، وأن نسمح للآخرين بطرح أسئلتهم، فالله تعالى أذِن للملائكة بسؤاله، إذ لم يكن لهم أن يتحدّثوا من دون إذنه، كما أنّ الملائكة تعلم أنّ وراء كلّ خلق هدفاً وغاية سامية.

وبدوره، **يثير سؤال الملائكة فينا سؤالاً آخر وهو**: ما الحكمة وراء طرح الله تعالى موضوع خلق الإنسان على الملائكة؟

وجواب ذلك هو: إنّ الإنسان مخلوق مادّي وخاص، خُلق في أحسن قوام وصورة ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[3]، ونُفخ فيه من روح الله، وقد أثنى الله تعالى على نفسه بعد خلقه بقوله ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾[4].

ولنا أن نسأل ثانيةً هنا: ما حاجة الله إلى الخليفة وهو الحاضر الذي لا يغيب والناظر والقيّوم؟

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
(٢) سورة النجم: الآية ٩.
(٣) سورة التين: الآية ٤.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

جوابنا عن ذلك هو: أوّلاً، إنّ خلافة الإنسان ليست من منطلق حاجة الله وعجزه، بل إنّ هذه المنزلة هي كرامةٌ وفضيلةٌ للمنزلة الإنسانية، ثانياً، إنّ نظام الخلق قوامه الوسائط، ونعني بذلك أنّه على الرغم من قدرة الله تعالى على فعل أيّ شيء مباشرة من دون واسطة، إلّا أنّه أجرى للأمور وسائط تتكفّل بإنجازها، نستعرض هنا أمثلة لها ونشرحها كالآتي:

- نعلم أنّ المدبّر الأصلي هو الله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى... يُدَبِّرُ﴾(١)، غير أنّه فوّض الملائكة تدبير الكون، ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾(٢).
- الشفاء بيد الله ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٣) لكنّه، مثلاً، جعل الشفاء في العسل، ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾(٤).
- لقد اختصّ الله علم الغيب لنفسه ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾(٥) لكنّه، مع ذلك، اطلع خاصّته من عباده الصالحين على بعضه، ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(٦).

إذن، باستطاعة الإنسان أن يكون خليفة الله، فتكون طاعته حينئذٍ من طاعة الله تعالى، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٧) وبيعته بمثابة مبايعة لله، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٨) ومحبّته محبّة لله. **«من أحبّكم فقد احب الله»**(٩).

□ الحكم على الخلائق يستلزم أن نضع جميع خيراتها وشرورها إلى جانب بعضها، وأن نتجنّب التسرّع في الحكم، وهو ما فعلته الملائكة حين رأت أنّ تسبيحها وتحميدها أكثر من تسبيح وتحميد بني البشر، وكذلك فعل إبليس حين استولى عليه الكبر ورأى نفسه أشرف منزلةً من الإنسان يوم قال: أنا من نار وآدم من تراب، فتمرّد وعصى، فيما نظر الله إلى المشهد من جميع جوانبه فحكم بفضل الإنسان حين قال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) سورة يونس: الآية ٣.
(٢) سورة النازعات: الآية ٥.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٠.
(٤) سورة النحل: الآية ٦٩.
(٥) سورة يونس: الآية ٢٠.
(٦) سورة الجنّ: الآية ٢٧.
(٧) سورة النساء: الآية ٨٠.
(٨) سورة الفتح: الآية ١٠.
(٩) الزيارة الجامعة الكبيرة.

التعاليم:

١ ـ لعلّنا نستشفّ من الآيتين الكريميتين (٢٩ ـ ٣٠) أنّ الله، بادئ ذي بدء، هيّأ للإنسان أسباب الحياة، ثمّ خلقه، ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا... وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ويعضد هذا الرأي قول الإمام علي عليه السلام: «**فلمّا مهد أرضه وأنفذ أمره اختار آدم...**»[1].

٢ ـ خَلْقُ الملائكة سبق خلق آدم (أبو البشر)، ذلك أنّ الله تعالى طرح مسألة خلق الإنسان على الملائكة، ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

٣ ـ تعيين الخليفة والحاكم الإلٰهيّ بيد الله وحده، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

٤ ـ الإنسان هو خليفة الله الدائم على الأرض، ﴿جَاعِلٌ﴾ (كلمة ﴿جَاعِلٌ﴾ اسم فاعل وترمز إلى الاستمرارية).

٥ ـ باستطاعة الإنسان أن يكون أشرف المخلوقات وأن يحظى بمقام الخلافة الإلٰهيّة، ﴿جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ بيد أنّ الظالمين، بالطبع، بعيدون عن هذا المقام: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

٦ ـ قد علمت الملائكة أنّ الإنسان جُبل على الفساد وسفك الدماء، ﴿يُفْسِدُ... وَيَسْفِكُ﴾، (صيغة المضارع تشير إلى الاستمرار).

٧ ـ لا بدّ للحاكم والخليفة الإلٰهيّ من أن يتّصف بالعدل، لا بالفساد والفسق. فلا ينبغي للخليفة أن «**يفسد في الأرض**».

٨ ـ لا مانع من أن يعرض المرء قدراته إن لم يكن ذلك عن حسد، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

٩ ـ ليست العبادة والتسبيح في أجواء خالية من الوساوس والمؤثّرات المعيارَ الوحيد للجدارة والأهليّة، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾.

١٠ ـ لا ينبغي أن يكون انحراف أو فساد فئة سدّاً مانعاً بوجه تطوّر الآخرين.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

فالله كان يعلم بإمكان فساد فئة من البشر، إلّا أنّه لم يحرم الجميع نعمة الخلق.

١١ ـ الطاعة والتسليم لا يتنافيان مع الاستفسار لرفع الغموض والشك، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾.

١٢ ـ لم ينفِ الله تعالى مسألة فساد الإنسان وسفكه للدماء، إلّا أنّه احتجّ على الملائكة بالمصلحة وبأهليّة الإنسان وأفضليّته، ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٣ ـ لا يتوقّع المرء أن يسلّم الناس جميعاً بكلامه أو بعمله دون معارضة أو نقد، فحتى الملائكة استفسرت ـ بلا اعتراض ـ من الله، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾.

١٤ ـ لقد أوتيت الملائكة علماً محدوداً، ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

□ علّم الله تعالى آدم أسماء[١] وأسرار العالم، بما في ذلك أسماء أوليائه[٢] والجماد، وقد سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**ماذا علّمه الله تعالى؟ قال الأرضين والجبال والشعاب والأودية ثمّ نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط ممّا علّمه**»[٣].

التعاليم:

١ ـ الله هو المعلّم الحقيقي، أمّا القلم والبيان والأستاذ والكتاب فهي وسائل التعليم وأدواته، ﴿وَعَلَّمَ﴾.

(١) «الاسم» في عرفنا يعني العنوان الظاهر المجرّد، لكنّه في المفهوم القرآني يقترن بالمحتوى. ومن هذا فإنّ الآية ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تعني أنّ الله له الصفات العليا.

(٢) تفسير الثقلين، ج ١، ص ٥٤؛ الصدوق، إكمال الدين، ج ١، ص ١٤.

(٣) تفسير مجمع البيان.

٢ ـ فضل الإنسان على الملائكة مردّه إلى العلم، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ...﴾.

٣ ـ يمتلك الإنسان الموهبة والجدارة على تعلّم جميع العلوم، ﴿كُلَّهَا﴾.

٤ ـ الملائكة تفخر بعبادتها، وآدم يفخر بعلمه، غير أنّ علاقة موقع الخلافة بالعلم أوثق منها بالعبادة، ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ... وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾.

٥ ـ أفضل وسيلة لإفهام الآخرين وتنويرهم هو إجراء الاختبارات للكشف عن القدرات والفوارق، ﴿وَعَلَّمَ... ثُمَّ عَرَضَهُمْ... فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾.

٦ ـ اعتقد الملائكة أنّهم الأجدر لتبوّء مقام خلافة الله، ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

□ اعتبر كل من إبليس والملائكة ـ بنحوٍ ما ـ أنّه أفضل من آدم؛ فإبليس بسبب طبيعته الناريّة حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[2]، والملائكة لجهة عبادتها وتسبيحها ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، مع الفارق أنّ إبليس تمرّد وعصى أمر الله بالسجود لآدم، فيما اعتذرت الملائكة عن استفسارها وأقرّت بجهلها بعدما أدركت الحقيقة، ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

التعاليم:

١ ـ الاعتذار عن السؤال من دون علم، قيمة وخصلة حميدة، ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾.

٢ ـ يجب التحكم في السعي لطلب العلا ونظرة التفوّق والاستعلاء. فالذين قالوا: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ﴾ عادوا فأقرّوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

---

(١) روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي لو أنّكم صادقون في مدّعاكم بأنّكم الأجدر؛ تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢.

٣ ـ فلنعترف بجهلنا، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، لقد كشفت الملائكة عن أعلى مراتب الأدب حين استخدمت كلمات مثل: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، ﴿عَلَّمْتَنَآ﴾، ﴿أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وكلّها تنمّ عن أدب جمّ.

٤ ـ علم الملائكة محدود، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

٥ ـ علم الله تعالى، علمٌ ذاتيّ؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾، وعلم الآخرين مكتسب، ﴿عَلَّمْتَنَآ﴾.

٦ ـ لا يظنّن المرء أنّ شؤون العالم وليدة الصدفة، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يجب إتاحة الفرصة للمواهب والطاقات الخلّاقة للتعبير عن نفسها، ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾.

٢ ـ لقد تفوّق آدم على الملائكة في الامتحان العلمي الذي وضعه الله، ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾.

٣ ـ لقد قالت الملائكة شيئاً وأسرّت في نفسها أشياء، ﴿كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

□ إبليس، بحسب ما ورد في القرآن، من طائفة الجنّ وإن كان في صفوف الملائكة، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[1].

□ السجود لآدم هو، في الحقيقة، عبوديّة لله تعالى[2] لأنّه كان بأمر الله، ذلك أنّ

(١) سورة الكهف: الآية ٥٠.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام.

العبادة الحقيقيّة هي العمل الذي يرتضيه الله وليس الذي ترتضيه أهواؤنا ورغباتنا. لقد كان إبليس مستعدّاً للسجود قروناً مديدة، ولكن ليس لآدم.

- والسجود لم يكن لآدم وحده، بل لمن في صلبه من الأجيال القادمة أيضاً، وربّما توضّح الآية المباركة هذا المعنى: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾(١)، ويضفي الإمام زين العابدين مزيدا من التوضيح فيقول: **ذلك لما كان في صلبه من أنوار نبيّنا ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام**(٢).
- سجود الملائكة كان مؤقّتاً عابراً، في حين أنّ نزولها على المؤمنين واستغفارها لهم هو دائم لا انقطاع له، وهو ما تصرّح به الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾(٣).
- لم يكن السجود لجسم آدم، بل للروح الإلٰهيّة التي تسكنه، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾(٤).
- لقد أمر الله ملائكته بالسجود للإنسان، فمن المعيب والجحود أن لا يسجد هذا الإنسان لربه.

التعاليم:

١ ـ الملائكة كالبشر، يؤمرون ويُنهون، ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

٢ ـ الأهليّة والجدارة أهمّ من ماضي الفرد، فالملائكة ـ بتاريخها العبادي المشرّف ـ سجدت للإنسان حديث الخلق وذلك لأهليّته وجدارته، ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

٣ ـ التمرّد على تطبيق الأمر شيءٌ خطير، لكنّ الأخطر منه هو عدم الإيمان بهذا الأمر، ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١١.

(٢) تفسير الصافي، ج ١ ص ١١٥.

(٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، سورة فصّلت: الآية ٣٠. وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، سورة غافر: الآية ٧.

(٤) سورة الحجر: الآية ٢٩.

٤ ـ غرور إبليس وجرأته على الله، هي التي جرّت عليه كلّ التعاسة والشقاء، ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

□ «**الشجر**» في معجم المفردات القرآنية هو من النبات، وما له ساق، ويقال أيضاً للسنبلة وشبهها، إذ ورد في القرآن الكريم ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾[1]، وعلى هذا فلا عجب إذا قرأنا في الروايات والتفاسير أنّ الشجرة المقصودة في الآية هي الحنطة.

□ «**الجنّة**» تطلق أيضاً على رياض الدنيا، والدليل على ذلك ما ورد في الآية ١٧ من سورة القلم ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾. ويُستفاد من باقي آيات القرآن الكريم أنّ الجنّة التي اختار النبيّ آدم عليه السلام أن يسكن فيها ليست هي الجنّة الموعودة ولنا على ذلك أدلّة عدّة منها:

١ ـ الجنّة الموعودة هي للثواب، والنبي آدم لم يفعل شيئاً بعد ليستحقّ عليه الثواب، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

٢ ـ من يدخل الجنّة، فلن يخرج منها أبداً، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[3].

٣ ـ لا وجود للأمر والنهيّ والمنع والتكليف في تلك الجنّة الموعودة، بينما نجد أنّ آدم نُهي عن الأكل من تلك الشجرة. مضافاً إلى أنّ روايات أهل البيت عليهم السلام تؤكد على أنّ جنّة آدم لم تكن الجنّة التي وعد الله عباده المؤمنين بها.

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٤٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.
(٣) سورة الحجر: الآية ٤٨.

□ لم يكن نهي النبيّ آدم عليه السلام نهياً تكليفياً يعاقب على ارتكابه، بل نهياً إرشادياً.

التعاليم:

١ ـ من أصول التربية الصحيحة، إذا أردنا أن ننهى أحداً عن أمر ما، وضعنا أمامه، أوّلاً، السبل المشروعة، ومن ثمّ نحدّد الموضوع المنهي عنه. لقد قال تعالى أوّلاً: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ثمّ قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾.

٢ ـ الاقتراب من المعصية، والوقوع في حبائلها، سيّان، ﴿وَلَا تَقْرَبَا... فَتَكُونَا﴾.

٣ ـ التمرّد على أوامر الله وإرشاداته ظلمٌ للنفس، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ وهو ما يبرز جليّاً في استغفار آدم وزوجه عن ذنبهما وطلبهما التوبة حين قالا: ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾، المراد بالظلم هنا، بطبيعة الحال، هو ترك الأولى وذلك لجهة عصمة الأنبياء.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

□ يستفاد من الآية السابقة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أنّ الهدف الرئيس من خلق آدم عليه السلام هو أن يحيا على الأرض، غير أنّ هذه الحياة تحتاج إلى تأهيل وتحضير وأن يعلم آدم أشياء منها:

١ ـ أنّه لا يتمتّع بالحريّة المطلقة، ففي حياته أوامر ونواهٍ وتكاليف.

٢ ـ إنّ إبليس عدوّه، وقد أقسم على أن يضلّ بني آدم بالأماني الكاذبة.

٣ ـ طاعة الشيطان هي سبيل الانحدار والسقوط.

٤ ـ التوبة سبيل العودة والإصلاح.

□ عن الإمام الرضا عليه السلام: «... **ولم يكن آدم وحواء شاهدين قبل ذلك من يحلف**

بالله كاذباً، فدلّاهما بغرور فأكلا منها ثقةً بيمينه بالله وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار وإنّما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة»[١].

□ يلجأ الشيطان إلى جميع الحيل النفسية والدعائية من أجل إغواء الإنسان، ومن ذلك:

أ) أقسم لآدم وحواء، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾[٢].

ب) تقمّص دور الخيّر حين قال لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٣].

ج) وعدهما بالخلود في حال أكلا من الشجرة، وأنّهما سيظفران بحياة أبدية ومُلك دائم، ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٤].

د) لقد كذب وافترى على الذات الإلٰهيّة المقدّسة، ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[٥].

التعاليم:

١ ـ لقد وسوس الشيطان لآدم وحواء، إذن، خطر الشيطان قائم حتى بالنسبة إلى النخبة، ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾.

٢ ـ الشيطان هو العدوّ الأزليّ لبني البشر، فقد وسوس لأبينا وأمّنا منذ اليوم الأوّل، ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾.

٣ ـ ابن آدم خطّاء ـ في ذاته ـ ومعرّض للوساوس، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٤ ـ ثمن نفس الإنسان هو الجنّة وذلك لجدارتها وأهليّتها، لكنّ المعاصي تهوي بها إلى الحضيض، ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٢١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٢١.
(٤) سورة طه: الآية ١٢٠.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠.

٥ ـ لنأخذ العبر من معصية الله والعواقب الوخيمة لوساوس إبليس، فالانزلاق في حبائل الشيطان يعني طرد الإنسان من المنازل الإلٰهيّة الرفيعة وحرمانه منها، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا﴾.

٦ ـ الحياة الدّنيا إلى زوال، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- انتبه آدم إلى زلّته وفعلته بعد أن تذوّق من الشجرة المحرّمة، وحُرم من جميع النعم والمواهب التي كان ينعم بها. وبعد أن أظهر الندم والحسرة، تلقّى من ربّه كلمات لتكون وسيلته إلى التوبة[1].
- وبحسب ما ورد في روايات الفريقين، فإنّ الكلمات التي جعلها الله وسيلة لآدم لكي يتوسّل بها ويتوب عن زلّته هي أسماء أكرم خلق الله وهم الرسول الأكرم ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. فقد ورد في تفسير الدرّ المنثور نقلاً عن ابن عباس بأنّه لمّا أذنب آدم بالذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحق محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين[2].

وقيل أيضاً إنّ المراد بالكلمات هي الآية الكريمة المذكورة في سورة الأعراف:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3].

ويظهر ذلك أنّ أوّل توبة على وجه الأرض، إنّما قُبلت نتيجة التوسّل بمحمد وآل محمد.

---

(١) التوبة، تعني الأوب والعودة، فإذا نسبت إلى الله تعالى فيكون معناها عودته سبحانه إلى اللطف والرحمة التي كانت مسلوبة عن العبد المذنب التائب؛ ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾، وإذا نسبت التوبة إلى العبد المذنب فتعني عودته إلى الله تعالى والإقلاع عن الذنب، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

(٢) تفسير الدرّ المنثور.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

التعاليم:

١ ـ لمّا كان توفيق التوبة من عند الله، إذن، يجب أن نتوسّل إلى الله ليعلّمنا أسلوب التوبة وطريقها، ﴿مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾.

٢ ـ قبول التوبة طريقها، من لوازم ربوبيّة الله، ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾.

٣ ـ الله تعالى هو وحده مصدر كلّ هذا اللطف وهو مصدر قبول التوبة، ﴿هُوَ﴾.

٤ ـ يقبل الله التوبة، شرط أن تكون حقيقيّة ونابعة من الأعماق، ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾.

٥ ـ حتى وإن نقضنا التوبة، فإنّ الله يقبل من عبده أن يعاود التوبة، ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٦ ـ توبة الله مقرونة بالرحمة لا باللوم والتوبيخ، ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

□ لقد قبل الله من آدم وزوجه حوّاء اعترافهما بذنبهما وتوبتهما، إلّا أنّهما لم يرجعا ثانية إلى الجنّة بعد التوبة؛ لأنّ للمعصية آثارها الوضعيّة وهي لا تتغيّر بالعفو الإلٰهيّ.

أمر الهبوط لآدم جاء في آية سابقة مقترناً بنحوٍ من الغضب، إلّا أنّه ذُكر في هذه المرّة بشكل عاديّ لكونه جاء بعد توبة آدم، وبديهي أنّ هذا الأمر يزرع الأمل في النفس بأن لا قنوط أو حزن مع الهداية الإلٰهيّة.

التعاليم:

١ ـ أحياناً تنسحب التأثيرات السلبية أو الإيجابية لحركة معيّنة على كلّ العصور والأجيال، ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾.

٢ ـ لا يُنبذ الإنسان من غلطة واحدة أو زلّة بسيطة، لأنّه قابل للإرشاد والهداية، ﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾.

٣ ـ من أجل هداية البشرية، لا بدّ من نزول الأنبياء، ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾.

٤ ـ الهداية الحقيقيّة مصدرها الله تعالى فحسب، ﴿مِّنِّي هُدًى﴾.

٥ ـ حصول الأمن والاستقرار الحقيقيين رهنٌ باتّباع الدين وأوامر الله تعالى، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

- «**إسرائيل**» هو أحد أسماء النبيّ يعقوب عليه السلام، وهو مركّب من جزأين «إسر» التي تعني العبد، و«إيل» بمعنى الله، فيكون معنى الكلمة في اللغة العبرانية عبد الله.
- إنّ حوادث تاريخ بني إسرائيل من قبيل الأسر على يد الفراعنة ثمّ تحرّرهم على يد النبيّ موسى عليه السلام ولجاجهم وعنادهم ومن ثمّ ارتدادهم، هذه الحوادث كلّها ترسم ملامح تاريخ خاص لأولئك القوم، وهذا التاريخ مليء بالعبر والدروس وهو ما يجدر بالمسلمين أن يتعلّموا منه ويقرأوا المعاني الكامنة في ثنايا سطوره، وإذا لم يتّعظوا ويعوا من هذه الدروس كلّها فإنّهم سيواجهون مصيراً شبيهاً بمصير بني إسرائيل.
- المواثيق الإلٰهيّة تشمل أحكام الكتب السماوية والعهود الفطرية التي أخذها الله من جميع عباده. يسمّي القرآن الكريم موضوع الإمامة بالعهد: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. إذن، فالوفاء بالعهد يعني الوفاء للإمام والقائد الإلٰهيّ وطاعته. كما نقرأ في الروايات «**الصلاة عهد الله**»[2].

التعاليم:

١ ـ ذكر نعم الله تعالى، مدعاة لمحبّته وطاعته، ﴿ٱذْكُرُواْ... وَأَوْفُواْ﴾.

حينما تدعو الله اذكر ألطافه لتمهّد للقبول والاستجابة، ﴿ٱذْكُرُواْ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤. (٢) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١١٠.

٢ ـ ذكر النعم والتذكير بها أمرٌ واجب، ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾.

٣ ـ النعم الموهوبة لأجدادنا هي نعمٌ لنا، فالله تعالى يذكر يهود العصر بالنعم التي أنعمها على أجدادهم في سالف الزمان، ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾.

٤ ـ الوفاء بالعهود الإلٰهيّة واجب، ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾.

٥ ـ التمتّع بألطاف الله رهنٌ بالحركة في طريق التكاليف الإلٰهيّة، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ﴾، نعم، إذا أخلصنا الطاعة لله، فلن يبخل علينا باستجابة أدعيتنا، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ...﴾.

٦ ـ عند القيام بالتكاليف الإلٰهيّة لا نجامل أحداً ولا نخشى أيّ قوّة. لا نكترث للدعاية المسمومة للأعداء ولا للتهديدات أو المؤامرات، رضا الله وعدم غضبه أهمّ من ذلك كلّه، ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾

إشارات:

□ الخطاب في هذه الآية موجّه إلى أحبار اليهود ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾[1] أنتم يا أحبار اليهود، في ما مضى كنتم الدعاة والمبشرين بظهور الإسلام، فلا تكونوا اليوم أئمّة الكفر وطلائعه، حتى لا يتّبعكم بنو إسرائيل ويعرضوا عن الدخول في الإسلام، يا أحبار اليهود لا تبيعوا آيات الله بثمنٍ بخس من أجل نيل الجاه والرياسة في هذه الدنيا، الأولى بكم أن تخشوا الله وتتّقوه.

التعاليم:

١ ـ لنسلّم بالعقائد الصحيحة للآخرين، حتى يستجيبوا في المقابل لدعوتنا وكلامنا، ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾.

(١) المراد بالمكتوب هو التشابه الكليّ والعام بين القرآن الكريم والتوراة الأصلية، وليس التطابق التامّ في الأحكام.

٢ ـ وجود تحريف في التوراة والإنجيل لا يحول دون القبول بما هو حق فيهما، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾.

٣ ـ ضلال العلماء يجرّ وراءه ضلال العوام، ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ﴾.

٤ ـ صمت العلماء وكتمانهم للحقائق سببه علائق دنيوية ومادّية، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٥ ـ الحصول على جميع منافع الدنيا لا تساوي لحظة انحراف عن الحقّ لأنّ متاع الدنيا قليل، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٦ ـ ليكن هاجسنا الخشية من غضب الله، لا الخشية من ضياع الثروة والجاه، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

- اللبس هو الستر. وأصل اللبس: ستر الشيء، ويقال ذلك في المعاني، يقال: لبست عليه أمره[1]، وهي تعني الشك والتّردد.
- ميزة الإنسان معرفته، والذين يلبسون الحقّ بالباطل من خلال إثارة الشكوك والوساوس والخدع الشيطانية، ليسلبوا الناس المعرفة الصحيحة والحقّة، فإنّهم، في الحقيقة، يسلبون الميزة الرئيسة التي تميّز الإنسان عن سائر المخلوقات، ولا يخفى ما في هذا من ظلمٌ عظيم.
- يقول الإمام علي عليه السلام: «**إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَو أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ؛ وَلكِن يُؤْخَذُ مِنْ هذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو الذين سبقت لهم من الله الحسنى**»[2].

---

(١) مفردات الراغب: مادة «لبس».

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٥٠.

التعاليم:

١ ـ لا تخلط الحقّ بالباطل فتمسخه، ولا تعرض الباطل في لباس الحقّ، ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ.... وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾.

٢ ـ ضمير الإنسان وفطرته، خير شاهدين على لبس الحقّ، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ تتبع الدعوة إلى الإيمان، الدعوة إلى العمل الصالح، ﴿ءَامِنُوا... أَقِيمُوا﴾.

٢ ـ الصلاة والزكاة، كانتا مقرّرتان في الشريعة اليهودية أيضاً، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾.

٣ ـ الثالوث المقدّس للعلاقة مع الله هو: الصلاة، ومساعدة خلق الله عن طريق الزكاة، والتواصل مع الآخرين، ﴿وَأَقِيمُوا... وَءَاتُوا... وَارْكَعُوا﴾.

٤ ـ ربّما كان أصل الصلاة أن تؤدّى جماعةً، فأساس الدين هو في حضوره في المجتمع واجتناب العزلة والانزواء، ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾.

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

- قبل بعثة النبيّ الأكرم ﷺ كان أحبار اليهود يبشّرون الناس بنبيّ منتظر، ويدعونهم إلى الإيمان به، إلّا أنّهم بعد البعثة لم يتحوّلوا إلى الإيمان به، وكان البعض منهم يوصي أقرباءه ممّن آمن بالثبات على إيمانهم بينما يُعرضون هم عنها[1].
- من المعلوم أنّ نهج الداعية يقوم على دعوة الناس بلسانه وعمله كما ورد في

(١) «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل»، ج ١، ص ٢١٤.

الروايات أن العالم الذي يدعو الآخرين إلى الجنّة لكنّه من أهل النار، سيتجرّع أشدّ وأعظم الحسرات[١].

□ إنّ حقّ التلاوة هو العمل، فالإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **«كونوا دُعاةَ النّاسِ بِأعمَالِكُم وَلاتكونُوا دُعَاةً بِألسِنَتِكُم»**[٢].

كما روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: **«أيُّهَا النّاسُ اِنّي وَاللّهِ ما أحُثُّكُم عَلى طاعَةٍ إلّا وَأسْبِقُكُم الَيْهَا، وَلا أنهاكُم عَنْ مَعْصِيَةٍ اِلّا وَأتَناهى قبلَكُمْ عَنها»**[٣].

وعنه عليه السلام أيضاً: **«مَنْ نَصَّبَ نَفْسَهُ لِلنّاسِ إماما فَلْيَبْدَأ بِتَعْليمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْليمِ غَيْرِهِ»**[٤].

أمّا الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام فيقول: **«طُوبى لِلعُلَماءِ بِالفِعلِ وويلٌ لِلعُلَماءِ بِالقَولِ»**[٥].

العالِم بلا عمل في الأمثلة

أ) في القرآن: شبّه القرآن الكريم العالم بلا عمل بالحمار الذي يحمل أسفاراً ولا يستفيد منها شيئاً إذ لا يدري ما يحمل[٦].

ب) في الأحاديث والروايات:

- عند رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مَثَلُ العالِمِ الذي يُعلّمُ النّاسَ الخَيرَ ويَنسَى نَفسَهُ، كَمَثَلِ السِّراجِ يُضِيءُ للنّاسِ ويحرقُ نفسه»**[٧].
- رسول الله صلى الله عليه وآله: **«الدّاعي بِلا عَمَل كالرّامِي بِلا وَتَر»**[٨].
- النبيّ عيسى عليه السلام: **«العالم بلا عمل كالسّراج على سطح منزل غُرَفه مظلمة»**[٩].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٧.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٧.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٥.
(٤) المصدر نفسه، الحكمة ٧٣.
(٥) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٩٩.
(٦) سورة الجمعة: الآية ٥.
(٧) كنز العمال، ح ٢٩١٠٩.
(٨) بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٠٠.
(٩) المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٠٩.

- الإمام علي عليه السلام: **«العالِم بِلا عَمَل كالشَّجَرة بِلا ثَمَرٍ وكالكنز الذي لَم يُنفق»**[١].
- الإمام الصادق عليه السلام: **«موعظة العالم بلا عمل كالمطر على الحجر لا تنفذ إلى القلوب»**[٢].

ج) العالم بلا عمل في أقوال العلماء:

كالجائع الذي ينام على كنز.

كالعطشان وأمامه الماء.

كالطبيب الذي يشكو آلامه.

كالمريض الذي يضع وصفة الطبيب أمامه باستمرار لكنّه لا يعمل بها.

كالمنافق الذي لا يتطابق كلامه مع عمله.

جسم بلا روح.

التعاليم:

١ ـ الآمر بالمعروف عليه أن يبدأ بنفسه أولاً، ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٢ ـ لا عذر لنا إذا كنّا نتعمّد تهيئة أسباب النسيان، فعذر النسيان مقبول عندما يكون الإنسان غير عامد، ﴿وَتَنسَوْنَ﴾، ﴿تَتْلُونَ﴾.

٣ ـ لا تكفي تلاوة الكتب السماوية بل المطلوب هو التعقّل، ﴿تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٤ ـ التناسي دليل عدم تعقّل، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

☐ ربّما تندرج هذه الآية ضمن الخطابات القرآنية الموجّهة إلى اليهود، إلّا أنّها في

(١) غرر الحكم.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٩.

الحقيقة، خطاب عام موجّه إلى جميع الناس. ورد في الروايات أنّ الإمام علي عليه السلام كان كلّما عرض له خطب مهم، وقف للصلاة وتلا هذه الآية.

- ونُقل عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: **«اَلصَّبرُ ثَلاثَةٌ: صَبرٌ عِندَ المُصيبَةِ، وَصَبرٌ عَلَى الطّاعَةِ وَصَبرٌ عَنِ المَعصيَةِ»**[1]. لذلك، ما ورد في الروايات عن أنّ المراد بالصبر الذي تتحدّث عنه الآية هو الصوم، يشير إلى أحد أمثلة الصبر.
- الصلاة هي قرّة عين رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنين[2]، فيما يعتبرها الذين لا يخشعون في صلاتهم عبئاً ثقيلاً. الخشوع يتعلّق بالقلب والروح، والخضوع بأعضاء الجسم.
- الصلاة الخاشعة تذكر الإنسان بقدرة الله الواسعة التي لا انتهاء لها، وبأنّ كلّ ما سواه حقير، كائناً من كان. فتزيد محبّته عز وجل في القلوب، وتنمّي روح التوكل عليه، لينعتق الإنسان من أغلال العلائق المادّيّة. وإنّ جميع هذه الآثار تصلّب عزيمة الإنسان بوجه المشاكل.
- الصبر والاستقامة مفتاح جميع العبادات. فالملائكة تلقي السلام على أهل الجنّة، ليس من أجل عبادتهم وصلاتهم وحجّهم وزكاتهم، بل كرامةً لصبرهم وثباتهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[3]، ولولا الثبات لما كان للصلاة والجهاد والحج والزكاة وجود، حتى شرف الهداية والزعامة الإلٰهيّة، فالسبيل إلى بلوغه هو الصّبر؛ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾[4].

لمحة

كان قيس بن عمرو بن مالك المعروف بالنجاشي شاعر الإمام علي عليه السلام بصفين، خرج في أول يوم من رمضان فشرب الخمر في الكوفة فأُتي به علياً عليه السلام، فلما أصبح أقامه في سراويل فضربه ثمانين ثم زاده عشرين سوطاً، فقال: يا أمير المؤمنين أما الحدّ فقد عرفته فما هذه العلاوة التي لا نعرف؟ قال:

---

(١) الكافي، ج ٢، ص ٩١.
(٢) بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ١٦.
(٣) سورة الرعد: الآية ٢٤.
(٤) سورة السجدة: الآية ٢٤.

لجرأتك على ربك وإفطارك في شهر رمضان، فغضب ولحق بمعاوية وهجا علياً.

ولما حدّ الإمامُ عليٌّ عليه السلام النجاشيَّ غضب لذلك من كان مع علي من اليمانيين وكان أخصّهم به طارق بن عبد الله بن كعب بن أسامة النهدي فدخل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «يا أمير المؤمنين ما كنّا نرى أن أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل، ومعادن الفضل سيّان في الجزاء، حتى رأيت ما كان من صنيعك بأخي الحارث، فأوغرت صدورنا، وشتّت أمورنا، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار، فقال علي عليه السلام: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾. فخرج طارق من عند علي والتحق بمعاوية»[1].

من هنا نقول، ربّما اعتقد البعض أنّ هذه الآية نزلت في شأن الصلاة، إلّا أنّه يمكن الاستعانة بآيات القرآن في الحالات المشابهة.

التعاليم:

١ ـ الصبر والصلاة سدّان منيعان في وجه المشاكل، ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٢ ـ على قدر خشوعنا وخضوعنا بين يدي الله تعالى، نحظى بألطاف إمداداته، وبالتالي ننتصر على جميع المشاكل، ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٣ ـ الاستعانة بالله تعالى في الآية الكريمة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا تتعارض مع الاستعانة بما يصدر عن أوامره، ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

٤ ـ استثقال العبادة والصلاة، ينمّ أحياناً عن كبر وغرور أمام الله، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ «اللقاء» في القرآن الكريم يعني الحضور وليس الرؤية، ويُستدلّ على ذلك أنّه عندما يزور شخص أعمى أحداً يقال له التقى به على الرغم من أنّه لم يره. وفي هذا

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٢٧٣.

السّياق يوضّح صاحب مجمع البيان الكلمة بالقول: المراد بلقاء الله هو التحسّس بآثار قدرته في الثواب والعقاب. ولعلّ المراد بلقاء الله هو الحالة العرفانية التي يصيبها الخاشع في صلاته، لأنّ الصلاة تعني الحضور بين يديّ الله تعالى.

□ «**الظنّ**» موضع نقد وذمّ حينما يكون في إزاء العلم، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾[1]، أمّا إذا كان المقصود به اليقين فهو، في هذه الحالة، يعدّ قيمة، حتى وإن لم يكن يقيناً قويّاً. وقد نسب الله تعالى المقاتلين الشجعان والمخلصين إلى الظنّ واصفاً إيّاهم بأصحاب الظنّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ الخاشع في صلاته يشعر أنّه في حضور الله، ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ إسرائيل هو النبيّ يعقوب ﷺ، وتخاطب هذه الآية أبناءه وذرّيّته، وتذكرهم بنعم الله ومواهبه ليزدادوا معرفةً بالله ولإذكاء روح الشكر والأمل فيهم إزاء نعم الله وعطاياه السنيّة. والجدير بالذكر أنّ تفضيل بني إسرائيل الذي تذكره الآية المباركة هو بالنسبة لبني عصرهم وليس تفضيلاً مطلقاً يشمل جميع العصور، بدليل شهادة آية كريمة أخرى تخاطب المسلمين بالقول ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[3]. وربّما كان المقصود بالتفضيل هو النصر الذي حقّقه النبيّ موسى وبنو إسرائيل على آل فرعون، وليس التفضيل الأخلاقي أو العقائدي[4]، ذلك أنّ القرآن الكريم وفي آيات عدّة حمل على بني إسرائيل عنادهم ولجاجهم وعدم إيمانهم.

---

(١) سورة النجم: الآية ٢٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١١٠.
(٤) سورة الجاثية: الآية ١٦.

التعاليم:

١ ـ النعم والفضائل بيد الله تعالى، ﴿نِعْمَتِيَ... أَنْعَمْتُ... فَضَّلْتُكُمْ﴾.

٢ ـ الانعتاق من سيطرة الطاغوت من أكبر نعم الله تعالى، ﴿نِعْمَتِيَ... فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ
وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- في هذه الآية الكريمة إشارة إلى بعض معتقدات اليهود وأوهامهم، التي كانوا بموجبها يتصوّرون أنّ أجدادهم سوف يشفعون لهم في يوم القيامة، كما توهّم عبّاد الأصنام أنّ أصنامهم شفعاء لهم. اعتقد بعض هؤلاء أنّه يكفي تقديم القرابين للتكفير عن سيئاتهم ومعاصيهم، وإذا لم يكن لديهم ما يكفي من المال لذلك، فبإمكانهم ذبح زوج من الطيور فتُغسل جميع ذنوبهم، والبعض الآخر كان يدفن مع الميّت الحلي الذهبية لتكون بمثابة غرامة وكفّارة عن ذنوبه، متناسين أنّ حال يوم القيامة يختلف عمّا هو عليه في الحياة الدنيا حيث يقوم المذنب بتقديم الرشا واستخدام الوساطات ويستعين بنفوذ بعض القوى للخروج من المشاكل والأزمات.

- إذن، الحال يختلف كليّاً في يوم القيامة، حيث تنقطع كلّ السبل والأسباب بالكفّار ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[(١)] وتذهب الأنساب ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[(٢)]، وتنقطع كلّ الألسن التي تحاول الاعتذار والتبرير ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[(٣)]، ولا خير ولا نفع في مالٍ ولا بنون ﴿لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[(٤)]، كما لن تفيد

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٦.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.
(٣) سورة المرسلات: الآية ٣٦.
(٤) سورة الشعراء: الآية ٨٨.

الأرحام في شيء في ذلك اليوم ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾[1]، وسوف تذهب القوى والسلطات أدراج الرياح؛ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[2]، وكلّ شفاعة مرفوضة إلّا بإذن الله؛ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[3]، كما لن تُقبل أيّ فدية أو عدل، ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾[4].

بحث في الشفاعة

- كلمة «الشفاعة» من «الشفع» : ضمّ الشيء إلى مثله، والانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى[5]. بمعنى أنّ الفرد الذي يحمل جرعة من الإيمان والتقوى والعمل، لكنّه في موقف يوم القيامة يواجه ضيقاً وحرجاً فيشمله لطف الله وكرمه من خلال رفقته وانضمامه لأولياء الله ولطفهم، وبذلك ينجو من غضب الله وسخطه. طبقاً لهذا التوضيح فإنّ الشفاعة لا تشمل إلّا المجدّين الذين أعياهم المسيرفي منتصف الطريق فاحتاجوا إلى قوة تأخذ بيدهم وتنهض بهم.

- لقد ورد في القرآن الكريم في ثلاثين موضعاً تقريباً موضوع الشفاعة، لذلك يمكن تقسيم آيات الشفاعة إلى المجموعات الآتية:

١ ـ آيات ترفض الشفاعة مطلقاً كقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[6].

٢ ـ آيات تحصر الشفاعة في الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[7].

٣ ـ آيات ترهن شفاعة الآخرين بإذن الله تعالى كما في الآية الكريمة: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[8].

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٣.
(٢) سورة الحاقة: الآية ٢٩.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.
(٤) سورة الحديد: الآية ١٥.
(٥) مفردات الراغب، مادة «شفع».
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٤.
(٧) سورة السجدة: الآية ٤.
(٨) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

٤ ـ آيات تستعرض شروطاً خاصة للمستشفع، من قبيل:

أ) أن تكون الشفاعة لمن حاز على رضا الله تعالى، كقوله تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾(١).

ب) وبذلك ليس للظالمين شفيع ولا نصير: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾(٢).

ج) أن تدعو الملائكة للمؤمنين وتستغفر لهم كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٣).

في ضوء ما استعرضنا من آيات أعلاه، يتّضح أنّ الشفاعة لا تخلو من قيود أو شروط، وهي في الأحوال كلّها تكون بإذن الله، وينبغي للمستشفع أن يحوز شروطاً خاصّة؛ إذ لن يُشفع لمن سُلبها وإن كانت زوجة نبي، كما هو الحال مع امرأتي نوح ولوط عليهما السلام اللتين فسقتا فحُرمتا الشفاعة ولم تغنِ عنهما قرابتهما شيئاً، ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾(٤).

إذن، الشفاعة أمر بنّاء تربط الإنسان بأولياء الله، وتكون دعامة له تحول دون يأسه وقنوطه من رحمة الله تعالى. بيد أنّه إذا صارت الشفاعة ذريعة لتجرؤ العبد على ارتكاب المعاصي، كما هو الحال مع المسيحيين القائلين إنّ المسيح عليه السلام افتدى البشر ليخلّصهم من ذنوبهم، ففي هذه الحالة لن تُقبل هذه الشفاعة أبداً.

ربّما طرح أحدهم سؤالاً قائلاً: هل شفاعة أولياء الله هي بمثابة الوقوف بوجه إرادة الله ومشيئته؟ أي، هل يمكن لشفاعة النبيّ مثلاً أن تمنع من قضى الله تعالى أن يُعذّبه؟

الجواب عن ذلك هو: إنّ عذاب المجرمين وإذن الشفاعة لأولياء الله رهن

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.
(٢) سورة غافر: الآية ١٨.
(٣) سورة غافر: الآية ٧.
(٤) سورة التحريم: الآية ١٠.

بإرادته تعالى ومشيئته، لذلك، فإنّ شفاعة هؤلاء الأولياء لا تضادُّ إرادة الله.

سؤال آخر هو: هل شفاعة أولياء الله تعني أنّ لطفهم ورأفتهم أكبر من لطف الله تعالى ورحمته؟ لأنّنا نجد أنّ الله يريد تعذيبهم، فيما يريد الأولياء الشفاعة لهم؟

الجواب هو: إنّ رأفة أولياء الله والإذن لهم بالشفاعة، كليهما لطف يمنّ الله تعالى عليهم به، فهو الذي يأذن ـ برحمته ورأفته ـ للأولياء بالشفاعة.

سؤال آخر: هل تغيّر الشفاعة إرادة الله تعالى؟

الجواب: إرادة الله ليست واحدة في الظروف المختلفة، فإرادته تعذيب المجرم تتغيّر عندما يتوب إلى الله، فيرفع غضبه عنه، إذ، من البديهي، أنّ ظروف الإنسان العاصي تختلف عن ظروف التائب من الذنب. والإنسان يحظى بشفاعة الأولياء بسبب محبّته وطاعته إياهم في الحياة الدنيا، فيما يُحرم منها من تمرّد على طاعتهم وناصبهم العداء وضمر لهم الضغينة.

□ والحقيقة، إنّ الصفح عن الذنوب في الدنيا يعود إلى ثلاثة أسباب هي:

١ ـ التوبة والعودة عن الذنب، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

٢ ـ ترك الكبائر، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[2].

٣ ـ القيام بالأعمال الصالحة والحسنات، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾[3].

غير أنّ سبيل التوبة في الآخرة يمرّ عبر الشفاعة والرحمة الإلٰهيّة الخاصة فحسب.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٣١.

(٣) سورة هود: الآية ١١٤.

التعاليم:

١ ـ خشية حضور المحكمة الإلٰهيّة دون محامٍ أو شفيع، تهيّئ لترسيخ تقوى الله في الإنسان، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾.

٢ ـ يجب الوقوف بحزم بوجه الخرافات والمعتقدات الباطلة، ﴿وَلَا يُقْبَلُ... وَلَا يُؤْخَذُ﴾.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

□ «فرعون»، لقب من ملك مصر كافراً من العماليق، كما يسمّى من ملك بلاد فارس «كسرى»، ومن ملك بلاد الترك «خاقان». ويقال: إنّ اسم فرعون الذي كان في زمن النبيّ موسى عليه السلام هو رمسيس الأول، ويقال: إنّ مومياءه محفوظة في متحف القاهرة، ولعلّ ذلك ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[1].

□ كلمة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ مشتقّة من «سوم» وأصلها: الذهاب في ابتغاء الشيء، أي الدوام والاستمرار، وقوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني أنّهم كانوا يولونكم العذاب ويلزمونكم إيّاه، وأنّ بني إسرائيل كانوا دائماً تحت عذاب الفراعنة وقهرهم، ومن ألوان العذاب الذي ذاقه بنو إسرائيل على يد الفراعنة ذبح الأبناء الذكور واستحياء النساء، أو هي رؤيا عرضت لفرعون في منامه قالوا له في تفسيرها: إنّك ستُقتل على يد رجل من بني إسرائيل، أو أنّ ذلك العذاب كان للتصدّي لخطر تنامي قوّة بني إسرائيل واشتداد قوّتهم، وبالتالي أنّهم شكلوا خطراً على سلطة فرعون.

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٢.

التعاليم:

١ ـ التحرّر من براثن الطواغيت والظالمين من أكبر النّعم، يدلّ على ذلك تكرّر ذكرها في القرآن الكريم من بين جميع النّعم التي أنعم بها عليهم، ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾.

٢ ـ استعراض آلام الماضي ومآسيه، يزيد من حلاوة حرّية الحاضر أضعافاً مضاعفة، ﴿يَسُومُونَكُمْ... يُذَبِّحُونَ... وَيَسْتَحْيُونَ﴾.

٣ ـ الطواغيت لا حول لهم ولا قوّة من دون أنصارهم المقرّبين، ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

٤ ـ المآسي والحريّة، وسيلتان للابتلاء والتربية، ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٥ ـ تدمير القوة الدفاعية (الذكور)، وزيادة عدد النساء، أسلوب فرعوني، ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

٦ ـ يتوسّل الطغاة بأيّ وسيلة تعذيب للإبقاء على حكومتهم وهيمنتهم، ﴿يَسُومُونَكُمْ... يُذَبِّحُونَ﴾.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

□ لقد وردت حادثة اجتياز بني إسرائيل نهرَ النيل في عدد من سور القرآن[١]. فبعد أن أمر الله نبيّه موسى عليه السلام أن يضرب النهر (أو اليمّ) بعصاه انشقّ إلى طرق متعدّدة وعبر منها بنو إسرائيل، لقد حدثت في هذا العبور ثلاث معجزات إلٰهيّة متتالية هي:

أ) انشقاق البحر، ب) نجاة بني إسرائيل، ج) غرق آل فرعون.

التعاليم:

١ ـ دور الأسباب رهنٌ بالإرادة الحكيمة لله تعالى. كانت لموسى عصاً إذا ضربها

(١) سورة طه: الآية ٧٧؛ سورة الشعراء: الآية ٦٣؛ سورة الدخان: الآية ٢٤.

على الحجر تفجّرت منه عيون الماء؛ ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ وإذا ضربها على البحر انفلق إلى طرق متعدّدة، ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾.

٢ ـ ينبلج ظلام الليل عن صبح مشرق ليفلق هامة الظلام. بعد مسيرة طويلة من العذاب والبلاء وصل بنو إسرائيل أخيراً إلى شاطئ الأمان والرفاه، ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾.

٣ ـ مشاهدة قصاص الظالمين، بلسم لجروح المظلومين، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

□ ورد ذكر النبيّ موسى عليه السلام ١٣٦ مرّة في أربع وثلاثين سورة في القرآن الكريم. أمّا قصّة ميقاته عليه السلام فقد وردت في سورتي الأعراف وطه[1]. وكان جبل الطّور هو مكان الميعاد، وكانت فترته قد تحدّدت، بادئ الأمر، بثلاثين ليلة، ثمّ أضيفت إليها عشر ليال أخرى، ليكتمل نزول التوراة على موسى. في هذه الفترة، نسي بنو إسرائيل عهدهم مع موسى وتنكروا لكلّ النعم والألطاف التي أنعم الله بها عليهم، وذلك على الرغم من أنّ النبيّ موسى خلّف أخاه هارون في قومه أثناء فترة غيابه، وطفقوا يعبدون العجل، وهو تمثال من ذهب صنعه لهم السامريّ الذي كان نحّاتاً ماهراً، حدث هذا كلّه في فترة ذهاب موسى إلى ميقاته مع الله.

□ يُستفاد من الآيات القرآنية أنّ ميقات موسى مع الله كانت له غايات ثلاث هي: نزول التوراة على موسى عليه السلام، خلافة النبيّ هارون لموسى، وامتحان بني إسرائيل.

□ الحقيقة، إنّ سقوط بني إسرائيل في حضيض الشرك كان وراءه عوامل هي:

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٢؛ وسورة طه: الآية ٨٦.

أ) غياب قائد مثل موسى.
ب) وجود منحرف فنّان مثل السامريّ.
ج) استعمال الحلي الذهبية التي تنطوي على سحرٍ وفتنة.
د) الضجيج الدعائي والإعلامي، ذلك أنّ عجل السامريّ كان يحدث أصواتاً غريبة.
هـ) سذاجة القوم وضعف إيمانهم وتصديقهم كلّ شيء.
و) وجود خلفية تاريخية لعبادة البقر.

التعاليم:

١ ـ اعتزال الأئمة الإلٰهيّين المجتمع لفترة محدّدة من أجل عبادة الله أمر حسن ومحمود[١]، ﴿وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

٢ ـ اعتزال الناس أربعين يوماً لغرض العبادة تترك آثاراً خاصّة على الإنسان، ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

٣ ـ يؤدّي العدد «أربعون» دوراً في تلقّي الوحي والإلهام الروحاني، ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

٤ ـ الشرك ظلمٌ للإنسانية؛ لأنّ الإنسان ينزع يده من يد الله ويضعها في يد الظالمين، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

❑ التوبة من الشرك هي بالإيمان وإعلان الشهادتين، ذلك أنّ بعثة الأنبياء قوامها تطهير بني البشر من الشرك والكفر. لذا، فإنّ الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[٢]، تتحدّث عن أولئك الذين يموتون على الشرك والكفر ولا يعودون إلى الإيمان في حياتهم.

---

(١) تفسير راهنما.
(٢) سورة النساء: الآيات ٤٨ و١١٦.

التعاليم:

١ ـ طريق التوبة مفتوح حتى لمن أشرك وعبد العجل، ﴿... ثُمَّ عَفَوْنَا﴾.

٢ ـ الصفح الإلٰهيّ يمهّد الأرضية للشكر والحمد، ﴿عَفَوْنَا... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

□ «**الفرقان**» وسيلة تمييز الحقّ عن الباطل، ووصِف به كلام الله تعالى؛ لفرقه بين الحق والباطل في الاعتقاد، والصدق والكذب في المقال، والصالح والطالح في الأعمال[1]. وربّما كان المقصود بالفرقان المعجزات التسع أو الحقائق الأخرى غير التوراة التي أعطيت للنبي موسى ﷺ، وذلك لورودها بعد كلمة الكتاب.

التعاليم:

١ ـ الكتاب السماوي، دليل الحقّ، الذي يفرّق الحقّ عن الباطل، ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾.

٢ ـ لقد أتمّ الله الحجّة على الناس، ولكنّ الأهواء تحيد بالناس عن طريق الحقّ، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

إشارات:

□ ليس المقصود بأمر القرآن بـ «قتل النفس» في عبارة: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾

---

(١) مفردات الراغب، مادة «فرق».

الانتحار، بل أن يقتل التائبون بعضهم بعضاً. وشبيه ذلك في القرآن كثير مثل الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[(١)] أو ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[(٢)].

□ إنّ القبول بهذا النمط الشديد من التوبة لهو فضيلة بالنسبة إلى اليهود، فالله تعالى في توبيخه المنافقين يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[(٣)].

التعاليم:

١ ـ سُوسُوا الناس بالمحبّة والحسنى حتى ينصاعوا لحدود الله، ﴿يَٰقَوْمِ... فَٱقْتُلُوٓاْ﴾.

٢ ـ الشرك ظلمٌ للنفس، ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

٣ ـ كلّما زادت البراهين والمعجزات والأدلة، عظمت التكاليف والمسؤوليات، وصار التمرّد عليها أخطر. فعقوبة عبادة العجل بعد مشاهدة كلّ تلك المعجزات ليست سوى الإعدام، ﴿فَتُوبُوٓاْ... فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٤ ـ حكم المرتدّ الموت، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٥ ـ الموت في رحاب الرحمة الإلٰهيّة، خير من الحياة في أتون اللعنة الإلٰهيّة، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٦ ـ تطبيق الحدود الإلٰهيّة هو لصالح الإنسان حتى لو كان الثمن حياته، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ...... ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٧ ـ قوام الأوامر الإلٰهيّة، الإحسان إلى الإنسان، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٨ ـ حتى يكون الناس على استعداد لتحمّل العقوبات الشديدة يجب أن يُرصد لها منافع وبركات وفيرة، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ... ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ... فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١١.

(٢) سورة النور: الآية ٦١.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٦.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ انقسم أتباع النبيّ موسى عليه السلام فريقين:

أ) الصفوة التي رافقت موسى عليه السلام في مناجاته وسمعت كلام الله تعالى في جبل الطور، لكنّ ذلك لم يزدها إلّا لجاجاً إذ قالت: من أين لنا أن نصدّق أنّ ما سمعنا كان صوت الله؟ أرنا الله جهرةً.

ب) فريق ثانٍ بقي مع هارون، وانتهى بهم المطاف إلى عبادة العجل في غياب موسى. الآية ١٥٤ من سورة الأعراف تصف حال الفريق الذي طلب أن يرى الله جهرةً بالقول: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾. ربّما الصاعقة المذكورة في هذه الآية كانت مصاحبة لزلزال شديد ومروّع، فقضي على هؤلاء القوم، ذلك لأنّ الآية التي تليها تقول: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

□ تشدّ هذه الآية من أزر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حتى لا يملّ المطالبات التعجيزية لقومه، فقد طلب قوم موسى من نبيّهم ما هو أشدّ وأخطر.

التعاليم:

١ ـ لنأخذ العبر والدروس من عاقبة الماضين الذين أصرّوا على اللجاج والجرأة على الله والوقاحة والمطالبات التعجيزية، ﴿لَن نُّؤْمِنَ... فَأَخَذَتْكُمُ﴾.

٢ ـ ثمّة من يرعوي بأسلوب المنطق والاستدلال والموعظة، وهناك من لا يفهم إلّا منطق الشدّة والغلبة، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ﴾.

٣ ـ إن كانت رؤية الله متعذّرة، فآثاره وآياته واضحة للعيان، فلمَ لا تؤمنون بمشاهدتها، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

إشارات:

□ اضطرب النبيّ موسى عليه السلام واغتمّ بشدّة لمقتل كبار بني إسرائيل على أثر

الصاعقة، فتضرّع إلى الله أن يعيدهم إلى الحياة، فاستجاب الله لدعوته وبعثهم من بعد موتهم، حيث سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله في الآية ١٥٥ من سورة الأعراف.

التعاليم:

١ ـ ليس من المحال حدوث الرجعة والمعاد، فقد أعيد بعض الموتى في هذه الدنيا إلى الحياة، ﴿بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

٢ ـ روحيّة الشكر والحمد وراء ظهور الشدائد وانفراجها، ﴿بَعَثْنَٰكُم... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

- بعد نجاة بني إسرائيل من طغيان آل فرعون، أمرهم الله تعالى بالتوجّه إلى أرض فلسطين، لكنّهم عصوا الأمر بحجّة أنّ فيها قوماً جبّارين، وقالوا لموسى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1].

فغضب الله عليهم وكتب عليهم التيه أربعين عاماً في صحراء سيناء. ولكنّ الله تعالى شملهم مرّة أخرى برحمته فظلّلهم بغمامٍ، كما أنزل عليهم نوعين من الطعام الطبيعي الهانئ هما المنّ والسلوى.

- **«المَنّ»**، شيء أنزله الله عليهم فيه حلاوة يسقط من الشجر، وقيل: هو الصمغ، وفسّره البعض بالعسل، والكمأة. **«السَّلوى»** قيل: هو السماني، كحباري طائر يذبحونه فيأكلونه.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٢.

التعاليم:

١ ـ تسخير السّحاب والرياح والأمطار هو بأمر الله تعالى، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾.

٢ ـ رازقيّة الله غير مقيّدة بشروط أو ظروف خاصّة، فهو يرسل الرزق في الصحراء التي لا زرع فيها ولا ماء، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾.

٣ ـ لقد قدّر الله تعالى للإنسان رزقاً حلالاً طيّباً، ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

٤ ـ التمرّد على أوامر الله ظلمٌ للنفس، ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

المقصود بـ «القرية» في هذه الآية ـ وكما ورد في سورة المائدة[1] ـ مدينة القدس أو بيت المقدس. تشير الآية إلى أنّه بعد أربعين عاماً من التيه في الصحراء، أمر الله تعالى بني إسرائيل أن يذهبوا إلى بيت المقدس ليدخلوا المعبد، ويقولوا عند دخولهم المسجد كلمة «**حِطّة**» التي تعني حطّ الأوزار والذنوب وطلب العفو وإعلان التوبة. ورد في تفسير أطيب البيان أنّ المقصود بالباب في هذه الآية ليس باب القرية أو المدينة بل باب المسجد الذي دخلوه، وهو الذي يُعرف اليوم بـ «**باب الحطّة**»، أمّا «**سُجّداً**» فالمقصود بها سجدة الشكر بعد ورودهم المسجد.

التعاليم:

١ ـ الدخول في البقاع المقدّسة يتطلّب منّا احتراماً خاصّاً، ﴿ادْخُلُوا... سُجَّدًا﴾.

(١) سورة المائدة: الآية ٢١.

٢ ـ العفو والصّفح من الله سبحانه، ولكن علينا أوّلاً طلب المغفرة، ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾.

٣ ـ لا بدّ لنا أن نتعلّم أدب الدعاء والتوبة من الله سبحانه، ﴿وَادْخُلُواْ... سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾.

٤ ـ العمل بأوامر الله سبحانه، يمهّد لحصول المغفرة، ﴿ادْخُلُواْ... وَقُولُواْ... نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾.

٥ ـ في الاستغفار مغفرة للمذنب، وعلوّ منزلة للمحسن، ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾

إشارات:

- ورد ما يشبه مفاد هذه الآية في الآيتين ١٦١ و١٦٢ من سورة الأعراف، و«الرجز» هو العذاب ووباء الطاعون والاضطراب.
- نزول الرحمة سنّةٌ إلهيّة، وقد تجسّدت في نزول أفضل الطعام «المنّ والسلوى» على بني إسرائيل، لكنّ الله أعقبه بالعذاب بعد انحرافهم.

التعاليم:

١ ـ الظلم والمعصية، من أسباب تحريف القانون وتبديله، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾

٢ ـ الإنسان مخيّر ليعمل بحسب رأيه، مادام لم يُلزم بالتعبّد بأسلوب محدّد، ولكن بعد أن يؤمَر بالتعبّد بأسلوب محدّد، فلا عذر له في تغييره، ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾

٣ ـ الويل والعذاب جزاء من يحرّف الشرائع الإلٰهيّة، ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾

٤ ـ ليس كلّ الثواب والعذاب حصرٌ على الحياة الآخرة، بل إنّ بعض العقوبات تنزل في هذه الدنيا أيضاً، ﴿فَأَنزَلْنَا... رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

٥ ـ إذا ما اعتاد الإنسان الانحراف، نزل العذاب الإلٰهيّ، ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿۞وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

□ ربّما استبطن العدد «١٢» أسراراً، فهو يشير إلى عدد شهور السنّة، وعدد نقباء بني إسرائيل، وعدد حواريّ عيسى عليه السلام وعدد الأئمة المعصومين عليهم السلام.

□ في الآية الكريمة اقترنت كلمة «**مفسدين**»، بكلمة «**لا تعثوا**»، وهي من «**العثو**» بمعنى شدّة الفساد واتّساعه، وربّما كان في مجيء الكلمتين إلى جنب بعضهما دلالة على النهي عن التعمّد وروح الإفساد، ذلك أنّ الزلّة الخالية من قصد الفتنة، مغفورة.

التعاليم:

١ ـ تأمين الاحتياجات المادّية للناس لا يغيب عن ذهن الأنبياء، ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾.

٢ ـ كلّ شيء حتى ماء الشرب يجب أن نطلبه من الله، ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ﴾.

٣ ـ قوانين الطبيعة محكومة بإرادة الله سبحانه، ﴿اضْرِب... فَانفَجَرَتْ﴾.

الله مسبّب الأسباب ومزيلها في آنٍ معاً، فبضربة عصا بيد إنسان، يجفّف المياه تارةً، ويجريها تارةً أخرى

٤ ـ دعاء الأنبياء مستجاب، ﴿...اسْتَسْقَىٰ... فَانفَجَرَتْ﴾.

٥ ـ جريان الماء من الحجر بضربة عصا معجزة، وانفجار اثنتي عشرة عين لاثني عشر سبط أو قبيلة معجزة ثانية، ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ﴾.

٦ ـ التوزيع العادل والمنظّم والمدروس، مدعاة للأمن والاستقرار ويحول دون بروز الاختلافات، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

٧ ـ ينبغي ألّا يكون التمتّع بنعم الله، عامل فساد، ﴿كُلُوا... وَلَا تَعْثَوْا﴾.

٨ ـ حدّثوا الناس عن ألطاف الله ونعمه حتى يرتدعوا عن الفساد، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا... وَلَا تَعْثَوْا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

□ بدل أن يشكر بنو إسرائيل ربّهم على ما منّ عليهم من نعمٍ «المنّ والسلوى»، ضجروا ممّا صاروا فيه من النعمة وسوّل لهم تعجرفهم المطالبة بأطعمة متنوّعة بدل الطعام الواحد، وأن يأكلوا من خيرات الأرض حيث ذكروا من جملة ما طلبوا من هذه الخيرات: الخضروات، القثّاء (الخيار)، والبصل، الثوم. وما كان لموسى إلّا أن أبدى أسفه على هذه الطلبات، وذلك لأنّهم يريدون استبدال النعم الطيّبة بالنّعم العادية أي الأدنى بالأفضل، فقال لهم: إذا كان لكم أن تصيبوا ما ترجون، فيجب عليكم دخول المدينة ومحاربة أعدائكم، فمن جهة أنتم لا تقوون على القتال والجهاد، ومن جهة أخرى تطالبون بمزايا العيش المديني كاملةً. إنّ عاقبة قومٍ بهذه المواصفات والخصوصيّات، إنّما هي الوقوع تحت نير الذلّ والمسكنة، وأن يُنزل الله عليهم غضبه وسخطه. والحقيقة، إنّ الطمع والرغبة في التنويع كانا دائماً فخّاً منصوباً للإنسان استغلّه

المستعمرون ليسوقوا الشعوب إلى حياة الاستهلاك من ملبس ومأكل ومسكن ومركب. . . إلخ، فيحقّقوا غايتهم في استعبادها.

التعاليم:

١ ـ شهوة البطن، سبب سقوط الإنسان في الحضيض، ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ... ٱهْبِطُوا﴾.

٢ ـ حياة البذخ والرفاهيّة، مقدمة للذلّة والخنوع، ﴿لَن نَّصْبِرَ... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾.

٣ ـ الوقاحة وسوء الأدب علامة على روح التمرّد والعصيان. كان بإمكان هؤلاء القوم بدلاً من قولهم ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾، أن يقولوا: إنّ الطعام الواحد صار يُثقل علينا. أو بدلاً من ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أن يقولوا: «**فادع لنا ربنا**».

٤ ـ بنو إسرائيل، قوم يتّصفون بالعنجهية والطمع، ﴿فَٱدْعُ لَنَا... يُخْرِجْ لَنَا﴾.

٥ ـ الآمال الصغيرة والحقيرة دليل على شدّة التبعيّة ودناءة الطبع، «**البقل، والقثاء، والفوم، والعدس، والبصل**».

٦ ـ الرضا بما قسم الله تعالى والصبر عليه، فيه خير الإنسان ومصلحته الحقيقيّة، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ...﴾.

٧ ـ التمتّع بحياة المدن وجميع إمكاناتها، ليس دليل تطوّر وكمال، بل أحياناً يكون علامة سقوط واندحار، ﴿ٱهْبِطُوا مِصْرًا﴾.

٨ ـ الأعمال الخطرة منشؤها أفكار منحرفة وخطرة، ﴿يَكْفُرُونَ... وَيَقْتُلُونَ﴾.

٩ ـ تاريخ الأنبياء كتب بقلم الشهادة في سبيل الله، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

١٠ ـ استمرار التعدّي والمعصية، يوجب الكفر، والكفر أداة كلّ جريمة، ﴿يَكْفُرُونَ﴾، ﴿عَصَوا﴾.

١١ ـ الذلّة والشقاء ليسا حكراً على عرق أو طائفة معيّنة، بل يرتبطان بمواصفات الإنسان وعقائده وأعماله، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

إشارات:

- ورد في تفسير الأمثل نقلاً عن تفسير جامع البيان قوله: إنّ سلمان الفارسي أتى النبيّ الكريم ﷺ: . . . فبينا هو يحدّثه، إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم فقال: كانوا يصومون ويصلّون ويؤمنون بك، ويشهدون أنّك ستبعث نبيّاً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له النبيّ ﷺ: يا سلمان هم من أهل النار، فاشتدّ ذلك على سلمان، فأنزل الله سبحانه هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ولكن، بطبيعة الحال، لا يمكن أن تكون هذه الآية حجة ودليلاً على بقاء الإنسان على اليهودية أو المسيحية، وذلك أوّلاً: لقد دعا القرآن أهل الكتاب إلى الإسلام، وثانياً: لقد هدّد (القرآن) إذا آمنوا مختارين بدينٍ غير الإسلام فلن يُقبل منهم[١].

- المقصود بـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ هم اليهود، وقيل: سمّوا بذلك إمّا لتوبتهم عن عبادة العجل، إذ قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[٢]، أو نسبةً إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام.
- أمّا «النصارى» فهم المسيحيون، الذين قالوا في جواب قول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾، ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[٣]، أو لعلّ تسميتهم بهذا الاسم؛ لأنّهم كانوا ينزلون في قرية «الناصرة» مسقط رأس النبيّ عيسى عليه السلام.
- **«الصابئون»** هم أتباع النبيّ يحيى بن زكريا عليهما السلام، ويعتقدون بتأثير النجوم وأنّها فعالة ولها قدرة التدبير. ورد اسم هذه الطائفة إلى جانب أسماء اليهود

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) سورة الصف: الآية ١٤.

والنصارى والمجوس والمشركين في سور البقرة والمائدة والحجّ[1]، ويدلّ هذا على أنّ هذه الطائفة خارج الفئات الأربع المذكورة، وقد شملتها، مثل سائر أهل الكتاب، دعوة الإسلام. ويشكّل أتباعها فئة صغيرة، وربّما يعود ذلك إلى المعتقدات الخاصّة الموجودة في شريعتهم، أضف إلى ذلك أنّهم غير متحمّسين للدعوة إلى دينهم. يعيش أتباع هذه الطائفة بصورة منعزلة على ضفاف الأنهار والبحار التي أتاحت لهم أداء فرائض شريعتهم التي تقضي بالغُسل عدّة مرات في الصيف والشتاء في عرض المياه الجارية.

كما يقطن حوالى خمسة آلاف منهم على ضفاف نهر كارون في إقليم خوزستان الإيرانيّ وكذلك في سائر مدن الإقليم، كما يتواجد ثمانية آلاف منهم في مدن العراق المطلة على ضفاف نهر دجلة مضافاً إلى مدن أخرى في هذا البلد.

التعاليم:

١ ـ الأديان السماوية تجمعها أصول مشتركة هي التوحيد، المعاد، والعمل الصالح، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٢ ـ المعاد أهمّ أصل عقائدي بعد التوحيد، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٣ ـ إذا لم يطّلع أتباع الأديان الأخرى على الإسلام، سواء كان ذلك قبل الإسلام أم بعده، وكانوا مؤمنين معتقدين بدينهم السماوي، ويعملون الصالحات ولم يكن لهم دور في غفلتهم عن الإسلام، في هذه الحالة يُعتبرون من الناجين، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ... وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٤ ـ ينعم الإنسان بالأمن والطمأنينة في ظلّ الإيمان بالله والأمل بالمعاد والعمل الصالح، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٥ ـ السعادة والكرامة معقودة بناصية الإيمان والعمل الصالح لا بعناوين المسلم أو اليهودي أو المسيحي أو الصابئي، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ... وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦٢؛ سورة المائدة: الآية ٦٩؛ سورة الحج: الآية ١٧.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

إشارات:

□ ذكر القرآن الكريم حادثة رفع جبل الطور فوق بني إسرائيل مرات عدّة في السور الكريمة: البقرة[١] والنساء[٢] والأعراف[٣]. ولعلّ المقصود بالميثاق في الآية هو نفسه المذكور في سورتي البقرة[٤] والمائدة[٥].

التعاليم:

١ ـ يعدّ أخذ المواثيق أحد المحفّزات على الأعمال، ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾.

٢ ـ لقد أتمّ الله سبحانه الحجّة على الناس عبر إرسال الرُّسُل وإلقاء المعجزات، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

٣ ـ التهديد والوعيد أسلوب تربوي لردع المغرورين والمعاندين، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

٤ ـ يجب صون مكتسبات الثورة (الخلاص من تسلّط فرعون والتحرّر من الأسر... إلخ) بكلّ حزم واقتدار، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

٥ ـ العمل بآيات الله وأحكامه يجب أن يتمّ بجديّة ورغبة وإصرار، وألّا يشوبه هزل أو اعتياد أو شكّ أو مجاملات، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾.

٦ ـ معارف الدين تبقى حيّة في عقول الناس من خلال التدريس والدعوة، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾.

٧ ـ ذكر آيات الله والتدبّر فيها مقدّمة التقوى، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٩٣.
(٢) سورة النساء: الآية ١٥٤.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧١.
(٤) سورة البقرة: الآيات ٤٠ و ٨٢.
(٥) سورة المائدة: الآية ١٢.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٦٤﴾

التعاليم:

١ ـ الإنسان الغافل يسهو عن أخطر التحدّيات، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ﴾.

٢ ـ الله سبحانه يتعامل بالفضل والرحمة حتى مع المذنبين، فلا مجال لليأس، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

٣ ـ النجاة من الخسران يتحقّق في كنف رحمة الله وفضله، ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾

إشارات:

❑ من أحكام التوراة أنّها فرضت على بني إسرائيل أن يسبتوا أي يعطّلوا في أيّام السبت، غير أنّ طمع هؤلاء القوم وجشعهم ألجأهم إلى حيلةٍ ـ سنذكر تفصيلها في صفحات قادمة ـ للالتفاف على هذا الأمر الإلٰهيّ والعمل في يوم العطلة. فكانت نتيجة فعلتهم أن مسخ الله المحتالين منهم قردةً ليكونوا عبرةً للآخرين. ذُكرت هذه القصّة، بالإضافة إلى هذه الآية، في سورة الأعراف[1] أيضاً. والحقيقة إنّ مسخ الخِلقة من العقوبات الإلٰهيّة وهي تجسيد لغضب الله وقهره. حادثة أخرى شبيهة بهذه وهي، حينما كفر جماعة من النصارى بعدما نزلت عليهم مائدة من السماء فمسخهم الله قردةً وخنازير، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[2].

❑ كلمة «السَّبت» تعني الانقطاع والانصراف عن العمل. وقد وردت في آية أخرى تتناول أهميّة النوم: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[3]، ومن هنا سمّيت عطلة اليهود بـ «يوم السبت».

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٦٣ ـ ١٦٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٠.

(٣) سورة النبأ: الآية ٩.

☐ «**خاسئين**» مشتقّة من الفعل «**خسأ**» ومعناه «طرد». استعملت هذه الكلمة ابتداءً بمعنى طرد الكلب، ثمّ توسّعت لتكتسب مفهوماً عاماً. نلاحظ أنّ القرآن الكريم قال: «خاسئين» وهي صفة تستخدم للجمع المذكر السالم بدلاً من «**قردة خاسئة**»، ولعلّ السبب في ذلك هو أنّ أجسامهم قد مُسخت بينما ظلّت أرواحهم وعقولهم إنسانية، وواضح ما في هذا من إيغالٍ في العذاب. هذا على الرغم من أنّ البعض، مثل المراغي في تفسيره، يقول: **إنّه مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كقوله:** ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ أو «**كالأنعام**»، بمعنى، أنّ المسخ، بحسب المراغي، هو مسخٌ معنويّ وليس حقيقياً أو ظاهرياً. إلّا أنّ تفسير أطيب البيان ينقل عن النبيّ الأكرم ﷺ حديثاً يقول فيه:

«إنّ الله تبارك وتعالى مسخ سبعمائة أمّة عصوا الأوصياء بعد الرسل، والمسوخ ثلاثة عشر»[1].

☐ ناهيك عمّا ورد في الروايات من أنّ دائرة المسخ في يوم القيامة ستكون أوسع في ضوء المواصفات الروحية للإنسان، حيث تذكر أنّ الناس سيُحشرون على عشرة أصناف كما ورد في الحديث التالي:

عن البراء بن عازب قال كان معاذ بن جبل جالسا قريبا من رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب الأنصاري فقال معاذ يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، فقال ﷺ: **«يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر، ثم أرسل عينيه ثم قال يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا قد ميزهم الله من المسلمين وبدل صورهم، بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت ثم يسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعابا يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتنا من**

(١) بحار الأنوار، ج١٤، ص٧٨٧.

الجيف، وبعضهم يلبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم؛ فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت، وأما المنكسون على رءوسهم فأكلة الربا، والعمي الجائرون في الحكم، والصم والبكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون بألسنتهم فالعلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين هم أشد نتنا من الجيف فالذين يتمتّعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله في أموالهم، والذين يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء»[١].

التعاليم:

١ ـ لنتّعظ من عبر التاريخ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾.

٢ ـ من يعمل على نسخ أحكام الله، فقد مسخ نفسه. فتبديل وتحريف صورة الدين مدعاة لتبديل صورة الإنسانية، ﴿اعْتَدَوْا... كُونُوا قِرَدَةً﴾.

٣ ـ مسخ مخلوق إلى مخلوق آخر أمر ممكن في عالم الواقع والطبيعة، ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾.

٤ ـ الحيوان ليس ببعيد عن رحمة الله، ولكن مسخ الإنسان حيواناً علامة على غضب الله وسخطه، ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

□ **«نكال»** هو العذاب الذي يبقى أثره ظاهراً ليتّعظ الآخرون ويأخذوا العبرة.

وفي هذا المعنى يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: **لما معها ينظر إليها من أهل القرى ولما خلفها، قال: ونحن و لنا فيها موعظة**[٢].

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين؛ تفسير الصافي؛ ذيل الآية ١٨ من سورة النبأ.

(٢) تفسير العياشي؛ ج ١، ص ٤٦.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للهزائم والانتصارات من أن تشكّل عبرة للآتين، ﴿نَكَٰلًا... وَمَا خَلْفَهَا﴾.

٢ ـ شرط الاتّعاظ وأخذ العبرة توافر الإنسان على روح التقوى، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

□ سمّيت هذه السورة البقرة نسبةً إلى هذه القصّة. ولقد ورد الأمر الإلٰهيّ بذبح البقرة في التوراة[1] كحكم أو قانون تشريعي قضائي، والقصة باختصار هي: عُثر على شخص مقتول في بني إسرائيل بينما ظلّ قاتله مجهولاً فنشب نزاع بين القوم، حيث كانت القبائل تتبادل الاتّهامات بينها وتبرّئ نفسها من الجريمة، حتى انتهى بها المطاف إلى النبيّ موسى عليه السلام ليحكم بينهم فقال لهم: إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة وتضربوا بقطعة منها على جسد المقتول ليُبعث حيّاً فيشير إلى قاتله، فغضب القوم من موسى وقالوا له: أتسخر منّا؟ فقال موسى عليه السلام: السخرية من عمل الجاهلين، وأعوذ بالله أن أكون جاهلاً، الجهل في عُرف القرآن والروايات يعني الحُمق، ولذا تستعمل كلمة «الجهل» بإزاء «العقل» وليس العلم، ولمّا كان الاستهزاء والسخرية من الآخرين علامة على الحمق والجهل، لذلك نجد النبيّ موسى استعاذ بالله منه.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن نتنكّر لأوامر الله حين تتعارض مع ميولنا وطبائعنا ويتعسّر علينا فهمها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ... أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾.

---

(١) التوراة، سفر التثنية، الإصحاح ٢١.

٢ ـ نقل موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل أمر الله بذبح البقرة علّهم يلتزمون أصول الأدب ويسلّمون بالأمر، لكنّهم لم ينفكّوا عن لجاجهم وعنادهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾.

٣ ـ الله قادر على إحياء الميّت، إن شاء، من خلال ضرب ميّتين ببعضهما، ﴿تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾.

٤ ـ ذبح البقرة يعني تحطيماً لقداستها، كما حطّم إبراهيم عليه السلام قداسة الأصنام، وتحطّمت قداسة العجل الذهبي للسامريّ في النار، ﴿تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾.

٥ ـ إيمان الناس بأنبيائهم يتبيّن من خلال مستوى استجابتهم لأوامرهم، ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾.

٦ ـ الاستعاذة بالله واللّجوء إليه إحدى طرق التحصين والوقاية، فعصمة الأنبياء مرهونة بالاستعاذة وما شابه، ﴿أَعُوذُ...﴾.

٧ ـ السخرية والاستهزاء من عمل الجهّال الحمقى، ﴿أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

٨ ـ الجهل والحمق خطر يستعيذ منه أولياء الله بالله، ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

٩ ـ لقد برهن الله سبحانه في حادثة واحدة على وحدانيّته وقدرته، وعلى النبوّة ومعجزة موسى والمعاد وبعث الموتى.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ(١) وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ(٢) بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

إشارات:

□ عندما شعر بنو إسرائيل بجدّيّة الموقف شرعوا بالتعنّت وخلق الحجج والأعذار، ويرى بعض المفسّرين أنّ هذه الحجج كانت تُطرح على الناس من

(١) (فارض): كَبيرة في السنّ. (٢) (عوان): وسطٌ بين الفارض والبكر.

قبل القاتل الحقيقي لئلا يُفتضح أمره[١]. وعلى أيّ حال، يتبيّن لنا من أسلوب طرح هذه الحجج والأسئلة أنّ القوم مجبولون على العناد واللجاج كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة وتميط اللثام عن مكنونات معدنهم.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من توخّي الأدب عند طرح السؤال، لاحظ أنّ كلمة «لنا» في الآية الكريمة تكرّرت مرّتين، وفي استخدامهم كلمة «ربّك» بدلاً من «ربّنا» دلالة واضحة على روح التكبّر والغرور التي ركبتهم، ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا﴾.

٢ ـ لا تتأخّر في امتثال أوامر الله، ودع عنك الوساوس والترديد، ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفْرَآءُ فَاقِعٞ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾

إشارات:

□ لقد صدر أمر الذبح مرّتين، إلّا أنّه يبدو أنّ بعضهم كانوا قد تعرّفوا القاتل ولم يشاؤوا كشف هويّته، وهو ما يتّضح جليّاً عبر لجاجهم وعنادهم واختلاقهم الأعذار وطرحهم السؤال تلو السؤال، حتى أنهوها بالسؤال عن لون البقرة، فأجابهم الله تعالى بالقول: إنّها شديدة الصفرة وخالصة، لون يسرّ من نظر إليها، بمعنى، أنّها بقرةٌ تتمتّع بمواصفات ظاهرية راقية، وبالقوّة والسلامة وبجمال خاص.

من يدري، ربّما لو كان عندهم ميزان لسألوا موسى عن وزنها؟

□ لقد نُهينا عن طرح الأسئلة العقيمة التي لا طائل من ورائها، فقد ورد هذا النهي في سورة المائدة المباركة:

﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٢].

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي.

(٢) سورة المائدة: الآية ١٠١.

وروي عن النبي ﷺ أنّه: «لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ قال رجل: يا رسول الله أفي كل عام فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثا، فقال النبيّ ﷺ: «**ما يؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»[١].

كما يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «**وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَاناً فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا**»[٢] لذا، لا ينبغي طرح الأسئلة بقصد اللجاج والعناد.

التعاليم:

١ ـ اللون الأصفر هو اللون المفضّل والمستحبّ في الدين الإسلامي كما ورد في الروايات، ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾.

٢ ـ للألوان تأثير على نفسيّة الإنسان، ﴿لَّوْنُهَا... تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠﴾

إشارات:

- يعدّ الاعتدال والوسطية في كل عمل قيمة. أحياناً، يحصل للمرء يقين من مشاهدة أبسط العلائم، إلّا أنّ هناك من يشكّك حتى في القول الصريح: ﴿أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾. لذا، لا ينبغي التشكيك في القول الصريح.
- عن النبيّ الكريم ﷺ أنّه قال: «**أنّهم أُمِروا بأدنى بقرةٍ ولكنّهم لمّا شدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم**»[٣].

---

(١) «**الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**»، ج ٥، ص ٩٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٨، ص ١٠٢.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٨٩.

التعاليم:

١ ـ إنَّ التركيز على صغائر الأمور، يحجب عنّا رؤية القضايا الرئيسة، ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾.

٢ ـ يشتبه الحقّ على الإنسان حينما تسيطر عليه روح العناد واللجاج، ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾.

٣ ـ أحياناً لا يكون السؤال من منطلق التحقّق وزيادة المعرفة والعلم، بل بسبب روح اللجاج والتنصّل من الموضوع، ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾.

٤ ـ القادة الربّانيّون يتّسمون برحابة الصدر، ولا يسمحون لأنفسهم بالجرأة والصلف. (ففي استعمال كلمة «ربّك» بدل «ربّنا» نوع من الصلف والجرأة على الله، وقد تكرّر استعمالها مرّات عدّة، لكنّ النبيّ موسى تحمّلها بحلم وسعة صدر).

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ
لَّا شِيَةَ[1] فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

إشارات:

- «**ذَلول**» الحيوان المروّض، و«**تُثير**» من «**إثارة**» وتعني الحرث، «**مُسلَّمة**» هي السليمة من كلّ عيب وعاهة. «**شِية**» مشتقة من «**وشى**» وهو الخال أو الوشم، و«**لاشية**» بمعنى خالية من أيّ خال أو وشم أو لون آخر.

- لقد تجاوز اليهود حدود الأدب واللياقة في تصرّفاتهم مع نبيّهم، فقد كانوا يفتّشون عن مخرج أو مهرب، لكنّهم عندما جوبهوا بالحقّ وألزموا تنفيذ الأمر الإلٰهيّ، قالوا لموسى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾، وكأنّه قبل ذلك جاءهم بالباطل.

---

(١) (لا شِية فيها): لا لونَ فيها من غيرها.

التعاليم:

١ ـ لنحرص على عدم تعريض العناصر والموارد الإنتاجية الاقتصاديّة الفعّالة للتخريب والدمار في أثناء تنفيذ المشاريع، ﴿لَّا ذَلُولٌ... وَلَا تَسْقِى﴾.

٢ ـ من المناسب أن تكون الأشياء المعدّة للاستهلاك في سبيل الله سليمة، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، أثناء مناسك الحج أيضاً على الحاج أن يقدّم أضحية سليمة في عيد الأضحى.

٣ ـ الغرور والهوى يؤدّيان بالإنسان إلى اعتبار كلّ ما وافق هواه حقّاً، ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ[1] فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

إشارات:

□ جاء تفصيل قصّة القتل والأمر الإلٰهيّ بذبح البقرة في الآيات السابقة، لكنّ ذلك كان خلاصة ما وقع ليكون إنذاراً لهؤلاء القوم بأنّ الله كشف ما كانوا يُخفون من خلال أمره بالذبح وضرب قسم من البقرة بجسد القتيل ثمّ بعثه من موته ليشهد على قاتله، وكلّ ذلك لرفع الستار عن جانب من أعمالهم الشريرة.

يقول رسول الله ﷺ: **«لو أن رجلا عمل في صخرة صماء لا باب فيها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائنا ما كان»**[2].

□ وجاء في الروايات: أنّ بقرة واحدة فقط كانت بتلك المواصفات الخاصّة التي ذكرت (صفراء، لا هرمة ولا صغيرة) موجودة في القرية، وكانت ملكاً لشاب بارّ بوالده، وقد أتيحت لهذا الشاب هذه الصفقة المربحة لكنّه تنازل عنها لأنّ مفتاح حظيرة البقرة كان تحت وسادة والده فلم يشأ إزعاجه أو إيقاظه من النوم، فأراد الله أن يثيبه على برّه بوالده وإيثاره ففرض على بني إسرائيل جزاءً

---

(١) ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾: فاختلفتم وتدافعتم في القتل. (٢) تفسير الدرّ المنثور.

على لجاجهم وتعنّتهم أن يشتروا بقرة الشاب بسعر مرتفع جداً، وإلى هذه القصة يشير النبيّ موسى عليه السلام بقوله: «**انظروا إلى البّر ما يبلغ بأهله**»[١].

التعاليم:

١ ـ من رضي بذنوب الآخرين شاركهم إثمها، فقد نسب الله صفة القتل إلى يهود عصر النبيّ ﷺ لأنّهم ارتضوا، كما قيل، القتل الذي وقع في زمن النبيّ موسى، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾.

٢ ـ يحاول الإنسان، أحياناً، دفع التهمة عن نفسه بالمكر من خلال إلصاقها بالآخرين. متناسياً أنّ الله قادر على الكشف عن ملابسات الجريمة وفضح المجرم الحقيقي، إذا شاء، من خلال ضرب الميّت بميّت آخر، ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لنسعَ إلى كسب ثقة الناس وطمأنتهم، فالنبي موسى لم يقدم على ضرب قسم من البقرة بالقتيل، بل طلب من الناس أن يفعلوا ذلك بأنفسهم، ﴿اضْرِبُوهُ﴾.

٢ ـ الآية شاهد حيّ على قدرة الله على إحياء الموتى في هذه الدنيا للرجعة وفي الآخرة للثواب، ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾.

٣ ـ الغاية من مشاهدة آيات القدرة الإلٰهيّة هي تفكر الإنسان بصورة دائمة وليس التعجّب للحظات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٤ ـ ما لم ينقِّ الإنسان روحه وعقله من كل شائبة، فلن تثير فيه مشاهدة الآيات الإلٰهيّة التعقّل والتدبّر، (اقترنت كلمة التعقّل بالفعل الناقص «لعّل»)، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت الآيات السابقة عن الألطاف الإلٰهيّة في حقّ بني إسرائيل مثل: الخلاص من ظلم فرعون، وانفلاق البحر، وقبول توبتهم بسبب عبادتهم العجل، ونزول أفضل الطعام عليهم، وتسخير الغمام ليظلّهم، ونعمة قيادة المعصوم، وأخيراً حادثة قتل النفس وكيفية الكشف عن القاتل بأسلوب إعجازي. وفي هذه الآية يشبّه الله تعالى قلوب بني إسرائيل بالحجارة في قسوتها.

□ ولا بأس هنا من استعراض بعض صفات الحجر:

أ) يتفتّت فتخرج منه الأنهار ليرتوي منها الإنسان، ﴿يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

ب) لا ينفجر لكنّه، على الأقل، ينقع ويُنقع ما حوله، ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾.

ج) يسقط ويسجد من خشية الله، ﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ قسوة القلب، مرض روحي عضال ينشأ بفعل دوام لجاج الإنسان وعناده، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ مشاهدة آيات الله وألطافه لا تزيد أهل اللجاج إلّا قسوة في القلب بدلاً من قوة في الإيمان[1] ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

٣ ـ حذار أن نجلب العار لأجيالنا بسوء فعالنا، الأجداد قست قلوبهم فيخاطب الله ذرّيّتهم قائلاً: ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾.

---

(١) كما أنّ القرآن الكريم هو للمؤمنين شفاء ورحمة فهو للظالمين خسارة. سورة الإسراء: الآية ٨٢.

٤ ـ العلم وحدَه ليس نوراً، فكلّ هذه المعاجز لم تغيّر من قسوة قلوبهم، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾.

٥ ـ للقسوة مستويات عدة، ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

٦ ـ بأبسط الأمثال يمكن توضيح أعمق المعارف، ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾

٧ ـ يجب أن يكون النقد منطقياً واستدلالياً، فالقرآن يذكر أنَّ قسوة بعض القلوب أشدّ من الحجارة والدليل على ذلك إنّ بعض الحجارة يخرج منها الماء، ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ...﴾.

٨ ـ للجماد مقدار معيّن من الشعور، ذلك أنّها تخاف وتخشى، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(١).

٩ ـ علاج القسوة الاهتمام بعلم الله، ﴿كَالْحِجَارَةِ... وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾.

١٠ ـ قسوة القلب تؤثّر على السلوك، ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم... عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

١١ ـ الله محيط بجميع أعمالنا، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا بأس من أن يأمل المرء بأن يؤمن الناس، ولكن ليس كلّ الناس يحظون

---

(١) نظراً إلى أنّ الخشية ناجمة عن العلم وليس شيء آخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. سورة فاطر: الآية ٢٨، ويقول الشاعر الفارسي الكبير جلال الدين الرومي:

جمله ي ذرات پيدا ونهان — با تو مي گويند، روزان وشبان

ما سميعيم وبصيريم وهُشيم — با شما نا محرمان، ما خامشيم

نطق آب ونطق خاك — ونطق گلهست محسوس حواس اهل دل

أي أنَّ: لسان حال كلّ الذرات ما ظهر منها وما استتر يقول لك صباحاً ومساء إنّنا نسمع ونبصر ونعقل، لكنّا صامتون معكم أيّها الغرباء، فكلام الماء والتراب والزهر مسموع ومحسوس لحواس أهل العرفان فقط.

بهذا الشرف، أنت أيضاً عليك أن لا تتوقّع ذلك، ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا﴾.

٢ ـ لا أمل في إصلاح المجتمع ما دام فيه علماء معاندون وخطرون، ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ...﴾.

٣ ـ لنتوخّ العدل والدقّة في نقدنا، لم يكن جميع اليهود أهل التحريف، ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ... يُحَرِّفُونَهُ﴾.

٤ ـ معرفة الحقّ غير القبول به، فهناك من يعرف الحقّ لكنّه غير مستعدّ للاعتراف به، ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

٥ ـ التحريف الأخطر هو الذي يكون عن علم ودراية، ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

٦ ـ التهديد يأتي من الجاهل المتعمّد لا الجاهل الغافل، ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

٧ ـ التحريف ذنب العلماء وحدهم، ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)﴾

إشارات:

- روي عن الإمام أبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام أنّه قال: «**كان قومٌ من اليهود ليسوا من المعاندين المتوطئين، إذ لقوا المسلمين حدّثوهم بما في التوراة من صفة محمدّ ﷺ، فنهاهم كبراؤهم عن ذلك، وقالوا: لا تُخبروهم بما في التوراة من صفة محمّد فيحاجّوكم به عند ربّكم فنزلت هذه الآية**»[1].

التعاليم:

١ ـ يجب على الإنسان اتّباع الحقيقة متى ما أدركها، وألّا يدير ظهره لها بسبب

(١) تفسير مجمع البيان.

تهديد هذا أو نفوذ ذاك، ﴿قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا...﴾، ولولا كتمان علماء ذلك العصر للحقيقة ما كان اليوم لهذه الأمم من اليهود والمسيحيين وجود.

٢ ـ يعتقد المنحرفون بأنّ النفاق وكتمان الحقيقة من أجل الاحتفاظ بالمنصب والتعصّب الأعمى، عمل عقلائي ودليل حكمة، بينما هو خلاف العقل، ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الإيمان بحضور الله وبعلمه يصون الإنسان من الزلات، ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ...﴾

٢ ـ السرّ والعلن عند الله سيّان، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت الآية الكريمة السابقة فريقاً من أهل الكتاب وهم العلماء الذين اطّلعوا على أوصاف النبيّ الكريم ﷺ وعلائمه من التوراة، لكنّهم كانوا يكتمون الحقائق، أمّا هذه الآية فتستعرض صفات العامة من أهل الكتاب الذين لم يطلعوا على الكتب السماوية ولم يعلموا شيئاً عنها، فكانت هذه الفئة تعيش على الأوهام والأماني، معتقدةً أنّ اليهود هم الجنس الأرقى وهم أبناء الله وخاصّته، وأنّ جهنّم محرّمةٌ عليهم، وإذا كان لهم أن يُعاقبوا فسيكون ذلك في هذه الدنيا ولأيام قليلة ومعدودة ليس إلّا[1].

(١) في سورة النساء الآيتان، ٨٠ و١٢٠؛ وسورة البقرة: الآية ١٠٩؛ وسورة المائدة: الآية ٢١؛ وهذه أمثلة كلّها واضحة وبارزة على هذه الأماني.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمرء من أن يتعرّف إلى طبيعة مجتمعه ويطّلع على الأفكار والمعتقدات السائدة بين أهل زمانه، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾.

٢ ـ في حضور الكتاب والمعلّم تصبح الأميّة نقصاً، وينبغي على كلّ امرئ أن يسعى للحصول على كتاب الحقّ لكيلا يُنتقد، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٣ ـ في ظلّ الأميّة والجهل تفرّخ الأوهام والآمال الكاذبة، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ... أَمَانِيَّ﴾.

٤ ـ الآمال والطموحات يجب أن تُبنى على أرضية العلم لا على الظنون والأوهام، ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

٥ ـ اتّباع الظن والأوهام في المعتقدات محظور، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

□ هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي وردت كلمة «الويل» فيها ثلاث مرّات، وهي تحكي عن خطر العالِم عندما يتعلّق بحبائل الدنيا.

التعاليم:

١ ـ ابتداع الأديان مثّل تياراً خطيراً على مرّ التاريخ، ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾.

٢ ـ البدع، ابتداع الأديان، التجارة بالأديان، واستحمار الناس هي من جملة الأخطار التي تهدّد المجتمع بواسطة العلماء المفسدين، ﴿يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ حذارِ من الأقلام والكتب والمقالات المسمومة والمضلّة والمبتدعة، وحذار

من الوثوق بأيّ عالِم، ﴿يَكْتُبُونَ... يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ الناس نزّاعون بالفطرة إلى الأديان، لذا يحاول الكثير من الأفّاكين استغلال خطاب الدين للاحتيال على الناس، ﴿يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ طلب الدنيا أحد البواعث على الابتداع والافتراء، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٦ ـ أقذر الأثمان ثمن التجارة بالدين، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

٧ ـ إنَّ الذين يخونون معتقدات الناس ينتظرهم عذاب شديد. تأمّل تكرّر كلمة «ويل» ثلاث مرات في آية واحدة.

٨ ـ أيّ انحراف حصل على مرّ التاريخ نتيجة لبدعة، فوزرها على مبتدعها. فكلمة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ تشير إلى الاستمرار.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

إشارات:

□ من الانحرافات العقائدية لليهود قولهم: حتى لو كنّا مذنبين، فعذابنا سيكون أخفّ من الآخرين، ولن يستمرّ إلّا لأيّامٍ معدودات! نحن أشرف من الآخرين. هنا، في هذه الآية الشريفة يفنّد الله سبحانه مزاعم هؤلاء القوم.

التعاليم:

١ ـ الشعور بالتفوّق والاستعلاء إحدى خصال اليهود، ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا﴾.

٢ ـ لا تسكتوا إزاء الأفكار والأقوال المنحرفة، ﴿قَالُوا۟... قُلْ﴾.

٣ ـ الشعور بالفوقية والعنصرية، والطموح بلا عمل، كلّها أمور ممنوعة، ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ... أَمْ تَقُولُونَ﴾.

٤ ـ الجميع متساوون أمام القانون، فالله لم يعط عهداً أو ميثاقاً بنجاة أيّ قوم أو طائفة خاصة، ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾.

٥ ـ الجهل بمعارف الدين هو سبب إلصاق الخرافات بالدين، ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

إشارات:

□ بخلاف ما كان يتوهّم بنو إسرائيل من أنّ عذاب الله لهم يختلف عن عذابه غيرهم، تؤكّد هذه الآية أنّ الجميع متساوون أمام الشريعة، وإذا أحاطت الذنوب بالإنسان وحالت بينه وبين فرصة التوبة والعودة عن الذنوب، فسيخلد في جهنّم.

التعاليم:

١ ـ لنقطع الشكّ باليقين ونواجه الأوهام والظنون بالصراحة والحزم، ﴿بَلَىٰ مَن﴾.

٢ ـ ليس الثواب والعقاب بالأمانيّ والآمال بل بالعمل، ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ﴾.

٣ ـ يعاقب المرء على الذنوب التي ارتكبها عن عمد ووعي واختيار لا عن جهل أو جبر، ﴿كَسَبَ﴾.

٤ ـ المذنب يرتكب الذنب أملاً في الكسب والمنفعة والربح، ﴿كَسَبَ سَيِّئَةً﴾.

٥ ـ لكل ذنب تبعات وعواقب يمكن أن تطوّق الإنسان، ﴿وَأَحَٰطَتْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ مع كل تهديد يلزم ذكر البشارة، الآية السابقة تحدّثت عن عقوبة المسيء، وهنا حديث عن ثواب المحسن، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟... أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾.

٢ ـ لا ينفكّ الإيمان عن العمل، ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟﴾.

٣ ـ طريق الجنّة هو الإيمان المقترن بالعمل لا المقترن بالأوهام والآمال، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟... أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾.

٤ ـ لا يكفي الإنسان عمله الصالح من دون أن يتخلّق بأخلاق المحسنين وروحية القيام بالصالحات، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فكلمة «**الصالحات**» جاءت في صيغة الجمع ومعرّفة بأل التعريف لذا فهي تشمل جميع الأعمال الصالحة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

□ الإحسان هي الكلمة الأكثر شموليّة في باب الخير. ففي حال فقر الوالدين يأخذ الإحسان مفهوماً مادّياً، وعند غناهم يكتسب مفهوماً معنوياً. وبالنسبة إلى اليتيم فهو يشمل معاني التأديب وصيانة حقوقه، وغمره بالحب والعطف وتعليمه كذلك.

ذكرنا سابقاً أنّ أصول جميع الأديان السماوية واحدة، فجميع هذه المواثيق موجودة في الإسلام أيضاً.

التعاليم:

١ ـ يأخذ الله ميثاق الناس بواسطة العقل والفطرة والوحي، ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَ﴾.

٢ ـ التوحيد أهمّ أصل في أديان الأنبياء، ثمّ يليه العمل الصالح، ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٣ ـ لقد اقترن التوحيد ببرّ الوالدين والإحسان إليهم، ﴿لَا تَعْبُدُونَ... وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

٤ ـ لا يجوز التمييز بين الوالدين والميل نحو أحدهما، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٥ ـ الأقربون المحتاجون أوّلاً ثمّ الآخرون، ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾، وطبعاً ثمّة أولويات أيضاً بين الأقربين أنفسهم، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1].

٦ ـ لا بدّ للإحسان من أن يكون في إطار الأدب لا المنّة، إذ وردت مع كلمة الإحسان عبارة ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

٧ ـ إن كنت لا تستطيع أن تسع كلّ الناس بإحسانك، فيمكنك ـ على الأقل ـ أن تسعهم بالقول الجميل. ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

٨ ـ المعاملة الطيبة والقول الحسن ضروري ليس مع المسلمين فحسب بل مع الناس جميعاً. ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

٩ ـ عدا الزكاة، الإحسان إلى المساكين والأيتام أيضاً أمرٌ واجب، فالآية الكريمة تذكر الزكاة ثمّ الإحسان إلى المساكين، ﴿إِحْسَانًا... وَٱلْمَسَٰكِينِ... وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

١٠ ـ الصلاة والعلاقة مع الله ليست بمعزل عن الزكاة والعلاقة مع الفقراء، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

١١ ـ الأديان الأخرى أيضاً كانت تأمر بالصلاة والزكاة، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

١٢ ـ الإيمان بالتوحيد، الإحسان إلى الوالدين والأيتام والمساكين، إلى جانب إيتاء الزكاة والمعاملة الطيبة مع الناس، وإقامة الصلاة.. هذه كلّها دلائل على شموليّة الدين الإسلامي وجامعيّته.

١٣ ـ موضوع أداء الحقوق له مراتب ودرجات، يقع في صدرها حقّ الله، ثمّ حقوق الوالدين، ثمّ الأقربين، فاليتامى الذين يفتقدون الحنان، وأخيراً المساكين المحتاجين إلى المساعدة الماديّة.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

١٤ ـ جميع الأحكام العقدية والأخلاقيّة والفقهية هي ميثاق الله وعهده إلى الإنسان. بعد كلمة «الميثاق» تذكر الآية عقيدة التوحيد والإحسان إلى الوالدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

- لعلّ المقصود من ميثاق بني إسرائيل في حفظ دم الناس ما ورد في الآية ٣٢ من سورة المائدة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.
- حقّ الحياة هو أوّل حقّ للإنسان، وهو ما يفسّر قول القرآن الكريم إنّ قتل النفس البريئة يعتبر من الكبائر من خلال تأكيد الآية ٣٢ من سورة المائدة على أنّ قتل نفس بريئة واحدة بمثابة قتلٍ للناس جميعاً، وفي هذا السياق يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**من قتل مؤمناً متعمداً أثبت الله على قاتله جميع الذنوب، وبرئ المقتول منها**»[١].

وعن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «**والذي بعثني بالحق لو أن أهل السماء والأرض شركوا في دم امرئ مسلم ورضوا به لأكبهم الله على مناخرهم في النار**»[٢].

- لقد دأب الطغاة على تشييد القلاع والصروح والقصور وذلك من أجل ترسيخ حكمهم وفي المقابل تشريد الناس وانتهاك حرماتهم وكراماتهم من خلال تعريضهم لأبشع الآلام والمصاعب. بينما تؤكّد أحكام الشريعة أنّه حتى الدائن ليس له حقّ إجبار المدين على بيع منزله لتسديد دينه، وإذا اضطرّ شخص إلى اتّخاذ المسجد مبيتاً له، فلا يحقّ لأحد الصلاة فيه، ومن يسبق الآخرين في

---

(١) ميزان الحكمة؛ وثواب الأعمال، ص ٣٢٨.

(٢) ميزان الحكمة؛ ووسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٨.

اتّخاذ مكانٍ ما لأغراض العمل أو العبادة أو الزراعة فله حقّ الأولوية على غيره، وليس لأحد منافسته على هذا الحقّ.

□ إنّ التقريع الموجّه لليهود في عصر الرسول الأكرم ﷺ من خلال الآية الشريفة ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ﴾ هو لجهة ما فعله أسلافهم. نعم، كلّ من رضي بأفعال أشخاصٍ أو أقوامٍ من فترات تاريخية سابقة، يعتبر شريكهم في تلك الأفعال.

التعاليم:

١ ـ للاستيثاق من أداء الأعمال المهمّة، لا تكفي التوصية والأمر، بل يجب أخذ المواثيق والعهود، ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾.

٢ ـ سلامة النفس والوطن هي وصيّة الله والأديان السماوية، ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ﴾.

٣ ـ حبّ الوطن حقّ فطري وطبيعي، وسلب هذا الحقّ ظلمٌ واضح، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾.

٤ ـ المجتمع جسم واحد، وأفراده أعضاؤه، ﴿دِمَآءَكُمْ... أَنفُسَكُمْ﴾[1].

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

إشارات:

□ يوبّخ الله تعالى في هذه الآية بني إسرائيل بالقول: إنّكم على الرغم من

---

(١) يستفاد من كلمتي «دماءكم» و«أنفسكم» أنّ القتل أو النفي هو في الواقع قتل النفس ونفيها، يقول الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي:

بني آدم اعضاي يك پيكرند   كه در آفرينش ز يك گوهرند،

أي أنَّ: بنو البشر هم أعضاء جسد واحد، وقد خلقوا من أصل واحد.

المواثيق والعهود التي قطعتموها على أنفسكم، كنتم تقتلون بعضكم بعضاً، وتخرجون بني جلدتكم من دياركم، كان عليكم أن تؤسّسوا لمجتمع موحّد على أسس العلاقات الأسرية السليمة، ومساعدة المحرومين والتواصل معهم، لكنّكم بدلاً من ذلك تعاضدتم على ارتكاب الآثام والمعاصي والاعتداء على حقوق الآخرين، ونشر الفوضى والتفرقة وسفك الدماء في المجتمع، وبفضل مؤازرتكم وتشجعيكم تجرّأ الحكّام الطغاة على ارتكاب القتل والنفي، والعجيب أنّكم في حروبكم كنتم تفتدون الأسرى عملاً بحكم التوراة، لكنّكم كنتم تتجاهلون حكمها (التوراة) في تحريم سفك الدماء والنفي. كنتم مستعدّين لقتل بعضكم بعضاً، ولكن غير مستعدّين لأسر بعضكم بعضاً! فإذا كان الأسر إهانة ومذلّة، فالقتل أسوأ وأشدّ، وإذا كان افتداء الأسرى لتحريرهم هو حكم التوراة، فالنهي عن القتل والنفي هو أيضاً حكم الله!

نعم، إنّكم غير مطيعين لأوامر الله، بل تقبلون بحكم الله حين يتطابق مع أهوائكم ورغباتكم، وتتنكّرون له عندما يتقاطع معها.

- والحقيقة أنّ هذه الآية تحمل تحذيراً من خطر الانتقائية والالتقاط في السلوك، وتبيّن أنّ ثمّة أفراداً يقبلون ببعض أحكام الدين ويتركون البعض الآخر. إنّ على المسلم الذي يطبّق الأحكام الشخصيّة في الإسلام ويقف متفرجاً إزاء القضايا الاجتماعيّة أن ينتظر الذلّة والهوان في الحياة الدنيا والعذاب الأليم في يوم القيامة. فكثير من المسلمين يلتزمون بأحكام الصلاة والصوم، ولكن حين يتعلّق الأمر بشروط وواجبات الحاكم والحكومة ينفضون أيديهم من المسؤولية.

التعاليم:

١ ـ يعبّر القرآن الكريم عن قتل الآخرين بقتل النفس، ليبيّن أنّ من يقتل الآخر إنّما يقتل نفسه، لأنّ أفراد المجتمع كـ «**الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»، ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾.

٢ ـ التعاون على الإثم والعدوان حرام[1]، ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

٣ ـ العمل علامة الإيمان، وإذا لم يعمل أحد بتعاليم الدين، يكون كمن لا إيمان له، فالقرآن الكريم وبدلاً من أن يوجّه النقد على العمل ببعض الأحكام وترك البعض الآخر، يورد: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

٤ ـ علامة الإيمان الحقيقي، العمل بالتعاليم المخالفة للأهواء الشخصيّة للإنسان، وإلّا فإنّ العمل بالتعاليم المطابقة للأهواء ليس فيه دلالة على المستوى الحقيقي للإيمان، ﴿تَقْتُلُونَ... تُفَٰدُوهُمْ﴾، (عندما يتعلّق الأمر بقتل بعضكم بعضاً، لا شأن لكم بالتوراة، ولكن في موضوع تحرير الأسرى تصبحون من أهل الإيمان وتضحى التوراة مرجعكم)!

٥ ـ الكفر ببعض الآيات هو، في الحقيقة، كفرٌ بجميع الأحكام. ولهذا، فإنّ جزاء من لا يعمل بقسم من الآيات الذلّ والهوان في الدنيا وعذاب أليم في يوم القيامة، ﴿خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا... يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

إشارات:

❑ تشرح هذه الآية الكريمة جذور نقض العهد وقتل النفس وعدم تطبيق بعض آيات الله كما يأتي:

إنّ سعيهم يتركّز على الحياة الدنيوية، وبالتالي فهم يلتزمون فقط بالقوانين التي تؤمّن لهم مصالحهم الدنيوية، وينصرفون عن كلّ ما يمسّ بهذه المصالح.

---

(١) جاء في الأحاديث: **«من ولي جائراً على جور كان قرين هامان في جهنم، إذا كان يوم القيامة نادى مناد، أين أعوان الظلمة ومن لاق لهم دواةً، أو ربط لهم كيساً، أو مدّ لهم مُدّة قلم، فاحشروهم معهم»**. وقد نهى الإمام الكاظم عليه السلام أحد أصحابه وهو صفوان بن مهران: عن إكراء جماله لهارون الرشيد كي لا يحبَّ بقاءه إلى أن يعود من سفره ويدفع الأجرة. تفسير أطيب البيان.

لذلك فإنّ العذاب الإلٰهيّ لن يُخفّف عن هذه الفئة اللاهثة وراء ملذاتها المتعلقة بحبائل الدنيا، على العكس ممّا تظنّ وتدّعي بأنّها لن تُعذّب أو أنّ عذابها لن يدوم سوى أيّام قلائل، هيهات، ليس الأمر كذلك، فهذه الفئة، مثل سائر المجرمين، مسؤولة عن أفعالها.

التعاليم:

١ ـ الإنسان حرّ ويملك حقّ الاختيار. والدليل على ذلك جميع الآيات التي تذكر أنَّ الإنسان اشترى الدنيا بالآخرة، وهذا يعني أنّه غير مكره بل يملك إرادته وخياره، ومن خلال التفكير والمقارنة يختار ما يشاء، ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾.

٢ ـ الجميع متساوون أمام القانون، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾، أمّا ما يطرحه بنو إسرائيل بأنّهم العرق الأرقى وأنّهم أبناء الله وأحباؤه إنّما هو وهم وسراب لا أكثر. إنّ غضب الله لا يستثني أيّ قوم أو إنسان يسير في طريق اللجاج والكفر.

٣ ـ التعلّق بحبائل الدنيا هو أحد البواعث على القتل، ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ... ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾

إشارات:

□ في هذه الآية حديث عن تداوم واستمرار ألطاف الله تعالى إزاء الناس، وذلك عبر إرساله الرسل بعد موسى عليه السلام مثل داود وسليمان ويوشع وزكريا ويحيى عليهم السلام، ثمّ بعث الله بعد هؤلاء النبيّ عيسى عليه السلام بآيات بيّنات واضحات وأيّده بروح القدس[١]، ولكن مع ذلك ظلّ بنو إسرائيل على كفرهم وعنادهم

(١) من الآية ١٠٢ من سورة النحل يتبيّن أنّ روح القدس هو جبرائيل عليه السلام.

وتطاولهم، فاستمرّوا في تكذيب الأنبياء وقتلهم بدلاً من اختيار طريق الهداية الإلٰهيّة.

- في الحقيقة، إنّ سرد تاريخ الأنبياء فيه نوع من العزاء والتعاطف مع النبيّ الكريم ﷺ والمؤمنين في صدر الإسلام ليخفّف عنهم العذاب والآلام.

التعاليم:

١ ـ التربية والتعليم لا تحتمل التعطيل، ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ إنّ إرسال الرسل تترى علامة على تواصل مسير الهداية عبر التاريخ.

٢ ـ الملائكة يمدّون أولياء الله بالتأييد والنصرة، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

٣ ـ ينبغي على الأنبياء الذهاب إلى الناس، ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾.

٤ ـ لا تستقيم الهداية مع الأهواء والشهوات، ﴿لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾.

٥ ـ المستكبر هو من لا يسلّم قياده للحقّ، ﴿لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾.

٦ ـ اتّباع الهوى يقود الإنسان إلى حدّ قتل الأنبياء، ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

٧ ـ كان الأنبياء يتحمّلون الصعاب لدرجة التضحية بالنفس في سبيل تحقيق أهدافهم، ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

إشارات:

- يبدو أنّ هذا القول الساخر كان شعاراً لجميع المشركين والعاصين في مقابل الأنبياء. فقد كان شعار قوم النبيّ شعيب حين أجابوه قائلين: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾[1] أو أولئك القوم الذين تصدّوا لآيات القرآن بالقول: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآية ٩١. (٢) سورة فصّلت: الآية ٥.

التعاليم:

١ ـ الإنسان هو الذي يمهّد لبؤسه وشقائه، فعندما تحل لعنة الله وغضبه بفئة فذلك بسبب كفرها ولجاجها، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

□ تسلّط الآية الكريمة الضوء على جانب آخر من لجاجة اليهود واتّباعهم أهواءهم، إذ إنّهم كانوا ينتظرون ظهور نبي جديد بحسب بشارات التوراة، وكانوا يبشّرون بعضهم بعضاً بالنصر والفلاح، وكان من جملة أسباب إقامتهم في المدينة المنورة، كما قال الإمام الصادق عليه السلام هو علمهم أنّ هذه المدينة هي مُهاجَرَ (مكان هجرة) محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، إلّا أنّهم كفروا بالنبي الجديد على الرغم من أنّ بشارات توراتهم كانت تنطبق عليه[١].

التعاليم:

١ ـ الأديان الإلٰهيّة يصدّق بعضها بعضاً، ولا تقف في مواجهة بعضها، ﴿مُصَدِّقٌ﴾.

٢ ـ ينبغي أن لا ننخدع بأيّ استقبال أو تأييد، فعلى الرغم من أنّ اليهود سكنوا لسنوات طوال في المدينة في انتظار ظهور النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله إلّا أنّهم كفروا به عمليّاً[٢] ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ... كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

٣ ـ لا يكفي أن نعرف الحقّ، فكم من الذين عرفوا الحقّ، حاد بهم عنادهم نحو الكفر، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) لا تغترّ بحبّك وانتظارك، إذ لربّما تغيّر هوى الإنسان عند العمل، فاليوم قد يقرأ شخص ما دعاء الندبة، لكنّه غداً يصبح والعياذ بالله....

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

إشارات:

□ تعرّفنا الآية الكريمة على سبب كفر اليهود بدعوة النبيّ الكريم ﷺ، نعم، إنّه الحسد، فقد كانوا ينتظرون نزول وحي النبوة على شخص من بني إسرائيل. لكنّ حسدهم وكفرهم هو الثمن المشؤوم لبيعهم أنفسهم.

التعاليم:

١ ـ نوايا الناس هي المعيار الذي يحدّد قيمة دينهم، ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا... بَغْيًا﴾.

٢ ـ الحسد هو عامل الكفر، لقد تمنّى بنو إسرائيل أن يكون النبيّ الموعود منهم، وعندما خاب أملهم، اشتعلوا بنار حسدهم وكفروا، ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ﴾.

٣ ـ النبوة فضل من الله ولطف، ﴿مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾.

٤ ـ سخط الإنسان لا تأثير له على ألطاف الله وحكمته، فهو أعلم بمن يستحق شرف حمل الرسالة، ﴿مَن يَشَاءُ﴾.

٥ ـ أسوأ الصفقات عندما يبيع الإنسان نفسه لقاء غضب الله، ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا... بِغَضَبٍ... عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ النبيّ الكريم ﷺ أُمِرَ بدعوة الأمم جميعاً إلى الإسلام، ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾.

٢ ـ من عوامل كفر الكفار مشاعرهم العنصرية وتعصّبهم القومي، ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

٣ ـ حقّانية الدين هي معيار الإيمان وليس العرق أو القوم، ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

٤ ـ القرآن كلّه حقّ، ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ... وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

٥ ـ لقد نسب الله إلى اليهود في عصر النبيّ قتل الأنبياء، لأنّهم كانوا قد ارتضوا سلوك أجدادهم وأسلافهم، ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ﴾.

٦ ـ حبل الكذب قصير، ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ... إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

(إذا كنتم آمنتم بأنبياء بني إسرائيل، إذن، لماذا قتلتم الأنبياء من أمثال يحيى وزكريا وهم من بني إسرائيل)؟!

﴿۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

إشارات:

□ يستعرض القرآن الكريم دليلاً آخرعلى كذب دعوى بني إسرائيل في عدم إيمانهم بالنبي الأكرم ﷺ لكونه عربيّ وليس من بني إسرائيل وهو أنّ النبيّ موسى عليه السلام كان من بني إسرائيل وأبرز أنبيائهم، وقد جاءهم بالآيات والمعجزات غير أنّهم كفروا به واتّخذوا العجل إلهاً بمجرّد ذهابه لبضعة ليالٍ إلى الميقات في جبل الطور وذلك لتلقّي التوراة والمناجاة، لذلك فقد ظلموا أنفسهم بأن جعلوا جهود موسى عليه السلام تذهب أدراج الرياح.

التعاليم:

١ ـ استعراض السوابق والخلفيّة التاريخية يساعد على إصدار الحكم الصحيح، ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾.

٢ ـ في العودة إلى الشرك والجاهلية ظلمٌ للنفس وللأجيال القادمة، ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

إشارات:

❑ وأخيراً قال اليهود كلمتهم وهي: لن نؤمن بالنبي إذا لم يكن من بني إسرائيل، كما لن نؤمن بكتابٍ غير كتابنا (التوراة).

وهنا يستعرض القرآن الكريم أمثلة من كذب بني إسرائيل، المثال الأول ورد في الآية السابقة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾، والمثال الثاني هو الآية الكريمة التي نحن بصددها. والحال، أنّكم إذا لا تؤمنون بالقرآن الكريم بحجّة أنّ النبيّ الكريم ﷺ ليس من بني إسرائيل والقرآن لم ينزل على بني إسرائيل، فلماذا فعلتم مع موسى وتوراته ما فعلتم؟!

ويشرح القرآن الكريم سرّ عدم إيمانهم كما يلي: إنّهم بسبب كفرهم أشرِبَت قلوبهم بحبّ العجل فعميت ولم يبق فيها مكان للتبصّر والإيمان. إذا كان بنو إسرائيل صادقين حقّاً في دعواهم بأنّهم يؤمنون بكل ما ينزل عليهم، فما هو قولهم عن هذه الجرائم التي امتلأ بها تاريخهم الأسود؟ فهل عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض المواثيق والعهود من الإيمان؟!

التعاليم:

١ ـ أخذ المواثيق هو أحد العوامل المحفّزة على العمل، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾.

٢ ـ لا بدّ من صيانة منجزات الثورة الإلٰهيّة حتى لو كان ذلك بالتهديد، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ﴾.

٣ ـ تطبيق الأحكام والأوامر الإلٰهيّة بحاجة إلى السلطة والجديّة والحب والإصرار، ولا ينفع الهزل أو التشريفات والمجاملات. لا يستقيم التديّن مع الضعف والتساهل والاستخفاف، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾.

٤ ـ الحب المفرط والجامح خطر، لأنّ قلب الإنسان إذا تعلّق من فرط الحبّ بشيء ما، فلن يسلّم بالحقائق[1] ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾.

٥ ـ السلوك مرآة صافية تكشف عن أفكار الإنسان ومعتقداته، ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

كان لبني إسرائيل مزاعم باطلة وأوهام كبيرة نذكر من جملتها:

- ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[2].
- ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾[3].
- ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[4].

ويأتي دور الآية الكريمة التي نحن بصددها لتفنّد جميع هذه الأوهام والظنون الفكرية فتؤكّد أنّه، إذا كان ما تدّعون حقيقة، وأنّكم تؤمنون بما تقولون، إذن ينبغي لكم أن لا تخافوا من الموت ولا تفرّوا منه، بل تتمنّونه لتعجّلوا بذهابكم إلى الجنّة.

□ إنّ أولياء الله لا يهابون الموت، لا بل يحدوهم شوق كبير للقاء الموت، ولنا في أقوال الإمام علي عليه السلام خير شاهد، إذ يصف استئناسه بالموت بقوله: **«والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه»**[5].

(١) قيل **«حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِم»** من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص ٣٨٠.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٨.
(٣) سورة البقرة: ١١١.
(٤) سورة البقرة: ٨٠.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ٥.

إذن، علينا أن نحيا حياة نكون معها مستعدّين للقاء الموت في أيّ لحظة[١].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من مواجهة الأوهام والظنون بالصراحة والحقيقة، ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ جدل الحصرية والعنصرية مستمرّ حتى يوم القيامة! ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً...﴾.

٣ ـ الضمير هو خير حَكَم، ﴿إِن كَانَتْ... فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾.

٤ ـ الاستعداد للموت علامة على صدق الإيمان وحقيقته، ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

□ الحقّ أقول، إنّ عدم التهيّب من الموت دليل راسخ على الصدق واليقين. فإذا حضر الموت، فلا مجال حينئذٍ للهزل والمجاملات والأوهام، ويبقى الإنسان وحده مع ما قدّم من أعمال. في لحظة الموت يستيقن الإنسان أنّ متاع الدنيا قليل، وأنّ الآخرة هي الأرجى والأبقى. في لحظة الموت ينكشف للإنسان أنّ الدنيا برعم لم ولن تتفتّح لأحد، وإنّ أصدقاء الدنيا كالذباب الذي يحوم حول قطعة السكر. إذا بلغ الإنسان مرتبة اليقين، يشعر أكثر بقرب الوصول واللقاء الإلٰهيّ كلّما اقترب منه الموت. وما أروع العبارة التي أطلقها الإمام علي عليه السلام حين هوت ضربة الشقيّ على رأسه وصاح: «**فُزتُ وربِّ الكعبة**»[٢].

---

(١) الموت أشبه بالسفر، فالسائق يخشى السفر إمّا لأنّه لا يعرف الطريق جيّداً، أو لأنّه ليس عنده الوقود الكافي للرحلة، أو إنّه ارتكب مخالفة، أو يحمل بضاعة مهرّبة، أو ليس لديه في الجهة التي يقصدها مأوى يأويه. في حين أنّ المؤمن الحقيقي يعرف الطريق جيّداً (إليه المصير)، ولديه الوقود الكافي للرحلة كلّها، (عمل صالحاً)، ورجع عن ذنوبه بالتوبة، ولا يحمل معه بضاعة مهرّبة أي لم يرتكب معصية، وأنّه يعلم مقصده جيّداً (جنّة المأوى)، ولهذه الأسباب كلّها فهو لا يخاف.

(٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٤٨.

وهذا الحسين عليه السلام حينما أحسّ بدنو لحظة الشهادة على رمضاء كربلاء كان وجهه يُشرق وملامحه تتألّق أكثر فأكثر، وأمّا أصحابه فلم يكونوا أقل استبشاراً واستقبالاً للموت، فحين سُئلوا في الليلة الأخيرة قبل استشهادهم كيف يرون الموت، أجابوا بكلمات تنمّ عن صدق اليقين وعمق الإيمان بحقّانيّة الطريق الذي سلكوه، إذ كانوا يقولون إنّ الموت أحلى من الشهد، وحتى إنّهم كانوا يتمازحون فيما بينهم ولمّا تبقَ سوى سويعات قليلة على استشهادهم.

التعاليم:

١ ـ خشية الإنسان الموتَ، هي، في الحقيقة، خشية محكمة الأعمال ونزول العقاب، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

٢ ـ الأدعياء المزيّفون والطامعون الجشعون كلّهم ظالمون، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

٣ ـ أنتم تعلمون ما فعلتم، والله، أيضاً، لا يخفى عليه شيء، فلم إذن كلّ هذه الدعاوى والمزاعم؟! ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا خير في طول العمر من دون التقرّب إلى الله والبركة والنجاة من النار[1] ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

---

(١) ينقل الفخر الرازي في تفسيره دعاء للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول فيه: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي. كما يسأل الإمام زين العابدين عليه السلام الله تعالى في دعاء مكارم الأخلاق قائلاً: **«إلهي عمّرني ما كان عمري بذلةً في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني...»**.

٢ ـ اليهود هم أحرص الناس على الحياة وأطلبهم للدنيا، ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾.

٣ ـ يحرص اليهود على الحياة على أيّ نحو وإن كانت مذلّة، ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ (كلمة ﴿حَيَوٰةٍ﴾ نكرة وهي تعني أيّ حياة).

٤ ـ ذاكرة الكذّاب ضعيفة، فاليهود، من جهة، يعتبرون الجنّة حكراً عليهم ﴿لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾، ومن جهة أخرى يريدون حياة أبدية في هذه الدنيا، ﴿يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١].

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

□ ورد في شأن نزول هذه الآية ما يلي:

قال ابن عباس: إن حبرًا من أحبار اليهود من فدك يقال له عبد الله بن صوريا حاجّ النبيّ ﷺ فسأله عن أشياء فلما اتجهت الحجّة عليه قال: أيّ ملك يأتي من السماء؟ قال: جبريل، ولم يبعث الله نبياً إلا وهو وليُّه فقال: ذاك عدوّنا من الملائكة، ولو كان ميكائيل مكانه لآمنا بك، إن جبريل نزل بالعذاب والقتال والشدة، فإنه عادانا مرارًا كثيرة!

التعاليم:

١ ـ نطاق أوهام الإنسان ولجاجته يتّسع ليشمل حتى عالم الملائكة[٢] ﴿عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾.

---

(١) تفسير راهنماه

(٢) اللجاجة تدفع بالإنسان لأن يتّهم حتى الملائكة التي عصمها الله من كلّ ذنب، وقال في شأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، (سورة التحريم: الآية ٦). فهؤلاء برّروا عداوتهم لجبرائيل بأنّه كان يأتيهم بالتعاليم الثقيلة، وبيّنوا حبّهم لميكائيل لأنّه ينزل بالأحكام السهلة السمحة. إنّ حالة هؤلاء تماماً كحالة الطفل المشاكس الذي يعتبر معلم الرياضيات شريراً لكنّه يكنّ حبّاً لمعلّم الرياضة، على الرغم من أنّ الاثنين يؤدّيان دورهما في التربية والتعليم.

٢ ـ لا بدّ من الدفاع عن الأطهار الذين يتعرّضون للكذب والافتراء، ﴿نَزَّلَهُۥ... بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

يوبّخ الله تعالى بني إسرائيل على أوهامهم، وفي الوقت ذاته، يثني على جبرائيل بقوله إنّما يعمل بإذني، وبالنسبة إلى الرسالة فهو الأمين والوسيط الرابط بيني وبين النبي.

٣ ـ لقد جاء جبرائيل بكتاب فيه تصديق لتوراتكم، فلماذا تكنّون له العداء؟! ﴿نَزَّلَهُۥ... مُصَدِّقًا﴾.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من الإيمان وتولّي جميع المقدّسات، ﴿لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٢ ـ العداء للأنبياء والأولياء كفر وعداء لله تعالى، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣ ـ الملائكة ليست في منزلة واحدة، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ... وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ (فمن بين جميع الملائكة ذكرت الآية الكريمة اسم جبرائيل وميكائيل فقط).

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ من المعلوم أنّ ارتكاب الإنسان للمعاصي واتّباعه أهواءه ونزواته يخرجه عن دائرة الحقّ ويحيد به نحو الكفر، إذ ورد في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

□ فهذا ابن صوريا الذي وردت قصّته في الآيتين السابقتين، بعد أن أجابه النبيّ

(١) سورة الروم: الآية ١٠.

الكريم ﷺ عن أسئلته، لم يجد عذراً يحتجّ به سوى القول: لن نؤمن لك لأنّ منزل الوحي عليك هو جبرائيل وليس ميكائيل. ولمّا كان جواب أسئلته قد ورد في الآية السابقة فلم يجد ما يضلّ به عوام قومه من اليهود سوى القول إنّ النبيّ لم يأتنا بدليل واضح ومقنع.

والحقيقة أنّ هذه الآية تريد تسلية النبيّ الأكرم ﷺ والتخفيف عنه لئلّا يكون قد تأذّى من تعنّت علماء بني إسرائيل مثل ابن صوريا، وليعلم الناس أنّ بني إسرائيل إنّما يلقون حججاً وأعذاراً واهية، وإلّا، فإنّ الله قد بعث بآيات ودلائل واضحات ومحكمات لكيلا يشكّ أحد في نبوّة محمد ﷺ، وما يكفر بها إلّا الفاسق الذي أخرجته أهواءه وذنوبه من دائرة الحقّ.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من التصدّي للتشكيك الظالم بلسان محكم وقوي، فأحبار اليهود كانوا يشكّكون بغير وجه حقّ في دعوة النبيّ الأكرم ﷺ قائلين إنّ دعوته تنقصها البيّنة الواضحة، فعزّز الله تعالى موقف نبيّه بقوله، ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾.

٢ ـ الفسق والمعصية تربة خصبة لنموّ الكفر، ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

إشارات:

□ ذكرنا في ما مضى أنّ اليهود قبل بعثة النبيّ الكريم ﷺ كانوا يبشّرون الناس بظهور نبيٍّ، وكانوا يستعرضون علائمه وصفاته. وبهذه العلائم كان أحبار

(١) هذه الآية الكريمة تسلية للرسول الكريم ﷺ بأنّ هذه الفئة لها تاريخ طويل في نقض العهود واللجاج، لذا لا عجب من سلوكهم هذا.

اليهود يعرفون محمّداً ﷺ حقّ المعرفة، تماماً كما يعرفون أبناءهم، لكنّهم بعد البعثة تصدّوا للرسالة بإنكارهم تلك العلائم وكتمانها.

التعاليم:

١ ـ يجب مراعاة الإنصاف والعدل عند التصدّي للمناوئين، إذ تذكر الآية السابقة أكثرهم لا يؤمنون حتى لا تغمط حقّ الأقلية المؤمنة، وهذه الآية تحمل على فريق منهم كيلا تضع الجميع في سلّة واحدة، ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْۚ﴾.

٢ ـ العلم من دون عمل هو الجهل عينه. فالآية الكريمة تخاطب العلماء الذين لا يعملون بعلمهم ويكتمون الحقائق بالقول: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾

إشارات:

- يستفاد من الروايات المنقولة أنّ النبيّ سليمان عليه السلام أمر بجمع قراطيس السحرة وكتاباتهم والاحتفاظ بها لكي يحول دون استخدامها في الإضلال أو أغراض أخرى. إلّا أنّ فريقاً عمد إلى إخراج تلك القراطيس والكتابات واشتغل على تعليم الناس السحر ونشره بينهم[١]، وقد وصل بهم الأمر إلى إشاعة أنّ النبيّ سليمان لم يكن نبيّاً أصلاً، بل كان يمارس المعجزات والأمور الخارقة عن طريق السحر. وأدّى ذلك إلى أن ينخرط فريق من بني إسرائيل في أعمال

(١) يطلق السحر على المهارة وخفّة اليد التي تحيد بمسار الأمور إلى وجهة منحرفة، وأحياناً يعني الخدعة وتلبيس الباطل ثوب الحق.

السحر بدلاً من اتّباع التوراة، وشاع هذا الأمر وانتشر لدرجة أنّ اليهود في عصر النبيّ الأكرم ﷺ كانوا يعتبرون النبيّ سليمان ساحراً ماهراً وليس نبيّاً!

تعرّفنا الآية الكريمة معصية ترك التوراة واتّباع الشياطين الذين دأبوا على تعليم السحر، إذ إنّ بني إسرائيل في عصر النبيّ سليمان عليه السلام راحوا، بدلاً من تعلّم التوراة، يتعلّمون ما كانت الشياطين تلقيه عليهم. ومن أجل تبرير عملهم نسبوا السحر إلى النبيّ سليمان، الذي كان مؤمناً بالله يأتي بالمعجزات، وكانت الشياطين تعمل بخلافه، إذ كانوا يعلّمون الناس السحر.

مضافاً إلى ما تقدّم، تعلّم اليهود السحر من طريق آخر، حيث أرسل الله تعالى إلى مدينة بابل[1] ملكين بصورة بشر هما «هاروت» و«ماروت»، ليعلّم الناس طرق إبطال السحر، ولكن كان عليهم أوّلاً أن يعلّما الناس أصول السحر، إذ من المعلوم أنّ الإنسان لا يمكنه أن يبطل أثر شيء ما لم يعلم طريقة تركيبه أو صنعه، لذلك كان الملكان يعلّمان السحر ثم كيفية إبطاله، وكانا يشترطان على الناس أن لا يستغلا السحر لأغراض خبيثة، حيث كانا يقولان لمن يأتي للتعلّم: إنّ هذا العمل هو مدعاة للفتنة والامتحان فلا تستخدمه في طريق الانحراف والشبهة. لكنّ اليهود استغلّوا هذه الطريقة وكانوا يستخدمون السحر في قضايا الشرّ والانحراف وكانوا يوظّفون هذا الأسلوب لتحقيق أغراضهم الدنيئة، وأحياناً للتفريق بين الزوج وزوجته.

- وهنا يذكّر القرآن بملاحظة تقتضي منّا وقفة تأمّل إذ يورد: إنّ الساحر بامتلاكه علم السحر لا يخرج من دائرة القدرة الإلٰهيّة، وهو من دون المشيئة الإلٰهيّة لا يستطيع فعل أيّ شيء، أو أن يمسّ أحداً بسوء، ولكن لمّا وضع الله لكلّ شيء تأثيراً خاصاً به، فإنّ السحر أيضاً له آثاره السيّئة ومنها تأثيره على العلاقات الزوجية والأسرية.

---

(١) مدينة جنوب بغداد بحوالي ٩٠ كم.

التعاليم:

١ ـ حتى في دولة الحق والحاكم الإلٰهيّ هناك فريق منحرف، إذ لا يمكن إصلاح جميع الناس، ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

٢ ـ لم تكفّ الشياطين عن وساوسها وإلقاءاتها السيئة حتى في أثناء حكم النبيّ سليمان، ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

٣ ـ لا تعارض بين الحكم والنبوة، فبعض الأنبياء كانوا حكاماً، ﴿مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

٤ ـ لقد صوّر السحرة سليمان بأنّه ساحر لتبرير عملهم وإضفاء صبغة مقدّسة عليه، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾.

٥ ـ يدافع الله عن رسله في مقابل تهم وافتراءات الآخرين، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾

٦ ـ السحر كفر: تعليماً وتعلّماً وممارسة[1] ﴿كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

٧ ـ لا بدّ للصالحين من اليقظة والوعي لمحاربة العلوم الضارّة والعقائد المنحرفة، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾.

٨ ـ في عمليّة التعليم، على المعلّم أن ينبّه إلى التطبيقات السلبية للعلوم، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ... حَتَّىٰ يَقُولَا... فَلَا تَكْفُرْ﴾.

٩ ـ أمام الإنسان سبيلان: سبيل الوساوس الشيطانية؟، ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾؛ وسبيل الإلهامات الإلٰهيّة، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾.

١٠ ـ بإمكان الملائكة أيضاً أن تعلّم البشر، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ... حَتَّىٰ يَقُولَا﴾.

١١ ـ يكون العلم، أحياناً، وسيلة للابتلاء والاختبار، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾.

١٢ ـ التفريق بين الزوجين عمل شيطاني يصل إلى درجة الكفر، ﴿فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ...﴾.

---

(١) ورد في الروايات أنّ ساحر المسلمين كافر وجزاؤه القتل.

١٣ ـ ليس العلم والتعلّم مفيدان دائماً، فأحياناً يكونان ضارّين، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

١٤ ـ السحر حقيقة واقعة وله تأثير على حياة الإنسان، ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ...﴾.

١٥ ـ الساحر يقوم ببعض الأعمال إلّا أنّ التأثير والتأثّر يتمّ بمشيئة الله وإرادته، ويمكن النجاة من المؤامرات عن طريق الاستعاذة بالله والتوكّل عليه والدعاء والصدقات، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ﴾.

١٦ ـ ربّما حقّق الساحر مبتغاه من المال والشهرة، إلّا أنّه سيأتي خالي الوفاض في يوم القيامة، ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

١٧ ـ من يسعى إلى التفرقة والسحر، تجرّد عن إنسانيّته، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

بحث

□ لا يقتصر معنى كلمة «**التقوى**» على تجنّب الشرور فقط، بل تأتي بمعنى التحرّز والتحفّظ في الخيرات أيضاً. فمثلاً، عبارة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ تعني التحفّظ وصون النفس من النار. وعبارة ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تشير إلى الاحتراز في ما يتعلّق بالأوامر والنواهي الإلٰهيّة. وفي آية أخرى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... وَٱلْأَرْحَامَ﴾ جاءت بمعنى حافظوا على ذوي القربى والأرحام.

التعاليم:

١ ـ الإيمان وحده لا يكفي ما لم يقترن بالتقوى والحذر، ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾.

٢ ـ الثواب الإلٰهيّ حتمي. لاحظ لام التوكيد في ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾.

٣ ـ الثواب الإلٰهيّ أفضل من كلّ شيء. لاحظ أنّه لم تأت أيّ كلمة بعد ﴿خَيْرٌ﴾ وهذا يدلّ على الخير المطلق لا النسبي.

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤﴾

إشارات:

□ تذكر الآية الكريمة بعض المسلمين الذين كانوا يطلبون من النبيّ الكريم ﷺ أن يراعي حالهم ويتمهّل في حديثه ويتأنّى في بيان الأحكام الإلٰهيّة حتى يستوعبوا جيّداً ما يقول وكانوا يطلبون منه ذلك مستخدمين كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ أي راع حالنا ووضعنا وأمهلنا، ولكن هذه الكلمة كانت عند اليهود تعني نوعاً من السباب والشتم(١)، مشتقّة من الرعونة أي اجعلنا رعناء، لذلك ومن أجل ألّا يسيء العدو استخدامها نزلت الآية الكريمة لتأمر المسلمين أن يستبدلوا كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ بكلمة ﴿ٱنظُرْنَا﴾.

□ الحقيقة أنّ هذه أوّل آية منذ بداية القرآن تبدأ بخطاب ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وقد استمرّ هذا الخطاب في نحو ثمانين موضعاً في القرآن الكريم.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ لنا من الانتباه إلى تأثير الكلام وانعكاساته، ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا...﴾. ربّما تحدّث المرء بحسن نيّة بيد أنّه يجب عليه أن يأخذ بالاعتبار انعكاسات كلامه وتأثيراته.

٢ ـ لا نَنْسَ أنّ العدو يرصد جميع تحرّكاتنا وكلماتنا، وهو يتحيّن الفرص لتسديد ضرباته، ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا...﴾.

٣ ـ يهتمّ الإسلام باختيار الكلمات المناسبة، والتعابير الموزونة وطريقة طرح الموضوع وعرضه، ﴿وَقُولُوا ٱنظُرْنَا﴾.

٤ ـ لا بدّ لنا من مراعاة آداب الكلام مع الشخصيات المهمّة والمعلمين، ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا...﴾.

---

(١) «راعنا» مشتقّة من مادّة «رعى» وهي الإمهال، لكنّ اليهود كانوا يعنون بـ«راعنا» الكلمة المشتقة من «رعونة» أي الحمق.

٥ ـ إذا كنّا نوصي الآخرين بمراعاة أصول الأدب، فعلينا أن نبدأ بأنفسنا أوّلاً ونلتزم بأدب الكلام في مخاطبتنا للناس. فخطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هو خطاب محترم.

٦ ـ عند النهي عن شيء فمن الأفضل تقديم البديل المناسب له، ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا﴾.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

إشارات:

□ تتحدّث هذه الآية عن الحقد والعداء الذي يضمره المشركون والكفار من أهل الكتاب تجاه المؤمنين. فهؤلاء لم يطيقوا أن يروا المسلمين وقد منّ الله عليهم إذ بعث إليهم نبياً عظيماً وكتاباً من السماء، ويسعون إلى نشر نداء التوحيد في أرجاء المعمورة، وأن يحاربوا مظاهر التمييز العنصري والقومي كافّة، وكذلك محاربة خرافات المشركين جميعاً وانحرافات أهل الكتاب والتصدّي لضلالات سادتهم وكبرائهم.

يؤكد الله سبحانه في هذه الآية أنّه يختصّ بلطفه ورحمته من يشاء، ولا أهميّة لأهواء ورغبات هذا أو ذاك، ودّوا ذلك أم لم يودّوا.

التعاليم:

١ ـ يجب أن نحيط بالنوايا القلبية للعدو وما يبيّته لنا، وألّا نتولّاه أبداً[١] ﴿مَّا يَوَدُّ...﴾.

---

(١) لم يكن لهؤلاء أيّ رغبة في أن يصيب المسلمين أدنى خير، وفي المقابل كانوا يفرحون بعودة المسلمين القهقرى إلى الكفر، وكانوا يشجّعون على الاستسلام والسكوت واتّباع اللين مع الكفّار، وأن يقعوا في المصائب والمكاره. للمثال نشير إلى الآيات الشريفة التالية: =

٢ ـ من مستلزمات الربوبيّة نشر الخير وإشاعته، ﴿خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ ـ فلنتوكّل على الله ولا نخشَ حقد العدو وحسده، ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ﴾.

٤ ـ لا تأثير لحسد الحاسدين على إرادة الله ولطفه. ﴿مَن يَشَآءُ﴾

٥ ـ إنّ الله تعالى يشمل بفضله ورحمته وهدايته جميع الأقوام والأمم ولم يقصرها على بني إسرائيل أو أي أمّة أخرى، ﴿مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

إشارات:

- كلمة «ننسها» مشتقة من المصدر «إنساء» بمعنى التأخير أو الحذف من الأذهان. والمراد أن نؤخّر نزول الوحي لأجل.
- والآية بمثابة ردّ على الدعاية المسمومة لليهود، فقد كانوا يسألون مشككين في السبب وراء نسخ الأحكام في الشريعة الإسلامية؟ والسبب وراء تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؟ فإذا كان الحكم الأول صحيحاً فلِمَ هذا التغيير؟ وإذا كان الحكم الثاني صحيحاً فكلّ أعمالكم السابقة ـ إذن ـ باطلة. ويردّ القرآن الكريم على هذه المزاعم والشكوك بالقول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾.

هؤلاء غافلون عن الأهداف والآثار التربوية والاجتماعيّة والسياسيّة للأحكام، فكما أنّ الطبيب يأمر مريضه بتناول الدواء في وقت معيّن، ولكن عندما يتحسّن حاله قليلاً، يأمر بتغيير ذلك الدواء أو العلاج، كذلك الحال مع المعلّم

= * ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ سورة النساء: الآية ٨٩.
* ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ سورة القلم: الآية ٩.
* ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ سورة آل عمران: الآية ١١٨.
* ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ سورة آل عمران: الآية ٦٩.

الذي يعمل على تغيير المنهج التعليمي للتلميذ بعد أن يلحظ تقدّماً في دروسه. ويتّضح هذا الأمر أكثر بالنسبة إلى الشريعة، فالله تعالى يغيّر البرامج التكاملية للبشرية التي تضمن سعادة الإنسان بما يتناسب والأزمنة والظروف المختلفة.

❑ وذكرت الروايات أنّ أحد أمثلة الآية الكريمة هي استمرار مسيرة الإمامة في المجتمع وخلافة الإمام للذي قبله، كما توضّحه الرواية: «**موت إمام وقيام إمام آخر مقامه**»[١].

التعاليم:

١ ـ بالإضافة إلى الاحتياجات الثابتة والفطرية، يتعرّض الإنسان، أحياناً، لظروف اجتماعيّة واقتصادية وسياسيّة وعسكرية خاصة، تجعل الاستعانة بقوانين ومقرّرات متغيّرة إلى جانب القوانين والأحكام الثابتة الموجودة، أمراً لازماً، ويتمّ إبلاغ تلك المقرّرات الناسَ عن طريق النسخ أو صدور حكم من النبيّ وخلفائه، ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾.

٢ ـ تغيير الأحكام أو نسخها، ليس دليلاً على فشل الحكم السابق، بل علامة على الاهتمام بالمستحدثات من المسائل، وعلى التغيير الحكيم. كما في تغيير الكتاب والمعلّم، ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ... نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ...﴾.

٣ ـ ربّما تغيّر ظاهر التعاليم وتعدّد الأنبياء، إلّا أنّ لطف الله سبحانه ثابت دائماً ولا يتغيّر، ﴿مِثْلِهَآ﴾.

٤ ـ تشريع الأحكام أوتغييرها أو تأخيرها كلّه بيد الله، ﴿نَنسَخْ... نُنسِهَا﴾.

٥ ـ يجب إحلال الأفضل محلّ السابق أو مثله، لا الأسوأ منه، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾.

٦ ـ لا طريق مسدود في الإسلام أبداً، بعض القوانين قابلة للتغيير، ﴿نَنسَخْ... نُنسِهَا﴾.

---

(١) نخبة التفاسير.

٧ ـ نسخ القانون وتغييره يحتاج، علاوة على ظروف متعدّدة وظهور مصالح جديدة، إلى سلطة، ﴿نَنسَخْ... إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

□ هؤلاء الذين يعترضون على نسخ بعض الأحكام والتعاليم وتغييرها، إنّما هم غافلون عن الحاكمية المطلقة لله تعالى. هذه الحاكمية دائمة وذاتيّة وكليّة، بينما حاكمية غير الله محدودة وزائلة وتعاقدية وغير ذاتية. بنو إسرائيل كانوا يحملون هكذا تصوّراً عن الحاكمية الإلٰهيّة، وكانوا يعتقدون بأنّ يد الله موثقة إزاء إعمال الحاكمية وتنفيذها، إذ كانوا يقولون: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[(١)]، في حين أنّ يديه مفتوحتان بالعطاء في الخلق ووضع القوانين ونسخها وتغييرها[(٢)]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

التعاليم:

١ ـ حقّ الحاكمية الأبدية والمطلقة على السماوات والأرض هي لله تعالى، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٢) الله تعالى قادر، إذا شاء، على إحداث تغيير في الخلق، مثلاً أن يجعل الماء مرّاً؛ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، سورة الواقعة: الآية ٧٠؛ أو يجعل الأشجار حطاماً؛ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، سورة الواقعة: الآية ٦٥. وفوق هذا كلّه، أن يبيد جميع البشر ويخلق أناساً غيرهم؛ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، سورة إبراهيم: الآية ١٩. كما قال لطائفة من بني إسرائيل: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، سورة البقرة: الآية ٦٥. لقد شهد بنو إسرائيل مرّات عديدة خلال تاريخهم هذا النمط من التغيير والمسخ، لقد شهدوا بأمّ أعينهم انشقاق البحر وعبورهم عليه، وتحوّل عصا موسى إلى ثعبان ضخم، وانبجاس الصخور وخروج ينابيع الماء من تحتها، وغير ذلك من الآيات العجيبة، فكيف لهم أن ينكروا حدوث تغييرات جزئية في الأحكام والتعاليم؟

٢ ـ نسخ القوانين بيد الله وحده الذي يملك مقاليد السماوات والأرض، لذا لا يشوب هذا النسخ أيّ هوى أو خوف، ﴿مَا نَنسَخْ... لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾.

٣ ـ لا تجعلوا إرضاء المعاندين والمتعنّتين هدفاً لكم، فليس لكم من معين أو مدبّر غير الله، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

إشارات:

- يُستشفّ من الآية الكريمة وأسباب نزولها أنّه جاء بعض الأشخاص إلى النبيّ الكريم ﷺ يسألونه عن أشياء سخيفة وغير منطقية، مثلاً، سأله أحدهم: أن ائتِ لنا بكتاب من الله مرسل إلينا نقرأه لكي نؤمن بك! وسأله آخر يقول: أجرِ لنا الأنهار حتى نتّبعك. وسأله فريق ثالث كما فعل بنو إسرائيل مع موسى: أرنا الله جهرة حتى نؤمن لك!
- نعم، إنّ الإتيان بمعجزة لإلقاء الحجّة أمر ضروري للتأكد من صدق دعوة النبي، غير أنّه ليس من المعقول الإتيان بالمعجزات وفق ميول وأهواء كل من هبّ ودب. فالمهندس أو الرسّام يقدّم بعض النماذج لأعماله وذلك لإثبات خبرته ومهارته، بيد أنّه من غير المعقول أن يبني بيتاً أو يرسم لوحة لكل من يطلب منه ذلك!
- لا شك في أنّ الغاية من سرد تاريخ الأنبياء السابقين والمصاعب التي عرضت لهم هي تطييب خاطر النبيّ الكريم ﷺ وتخفيف عبء الرسالة عنه، ولتبيّن له أنّ الأنبياء الذين سبقوه أيضاً كانوا يُواجَهون بالأسئلة الفجّة والمطالب الكثيرة غير المعقولة لأقوامهم.

التعاليم:

١ ـ احترزوا من طرح الأسئلة والمطالب غير المعقولة التي تكون، أحياناً، مقدّمة

للكفر، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا... وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ﴾.

٢ ـ إنّ الأخطار نفسها التي واجهت أتباع الأديان الأخرى، تتهدّد المسلمين أيضاً، ﴿تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾.

٣ ـ لنتّعظ ممّا آل إليه مصير الآخرين، ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

إشارات:

- «**العفو**» هو التجافي عن الذنب و«**الصَّفح**» الإعراض عن الذنب لا عن جفاء، بل عن عفو وسماح.
- ورد في الآية الكريمة أنَّ العدو الذي يتمنّى ردّتكم عن الدين والرجوع إلى الكفر مرّة أخرى، لا يتورّع عمليّاً عن أيّ وسيلة للتآمر عليكم والإطاحة بكم. وأساليبهم في ذلك هي طرح الأسئلة السخيفة وإلقاء الشكوك والوساوس، وإثارة الشبهات، وغير ذلك من المؤامرات التي ينبغي أن تنتبهوا لها.

التعاليم:

١ ـ حذار ثمّ حذار من ما يضمر الأعداء ومن خططهم، ﴿وَدَّ... يَرُدُّونَكُم﴾.

٢ ـ يجب أن نتحلّى بالعدل والإنصاف حتى مع الأعداء، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾؛ (ورد في الآية الكريمة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾، ولم يرد جميعهم).

٣ ـ خطر شعلة الحسد هو أنّها وهّاجة لا تنطفئ حتى بعد العلم والمعرفة، ﴿حَسَدًا... مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

٤ ـ إيمانكم بالإسلام ألبسكم لباس العزّة والعظمة، وهو ما يغيظ أعداءكم ويثير ضغينتهم وحسدهم، ويتمنّون لو تبقون على جاهليّتكم وشرككم وتشتّتكم في

عهد الجاهلية، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ... لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾.

٥ ـ لا ينبغي استخدام العنف فوراً مع المعارضين، أحياناً يستلزم الأمر المداراة والتسامح معهم حتى مع العلم بضغينتهم وحسدهم، ﴿فَاعْفُوا﴾.

٦ ـ حكم العفو عن العدو قائم بصورة موقّتة ما دام لا يفتّ في عضد المسلمين ولا يجرّئ الأعداء، ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى...﴾.

٧ ـ العفو ليس دليلاً على الضعف. فالله قادر على كلّ شيء، وباستطاعته أن يُظهركم اليوم أيضاً على أعدائكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ... قَدِيرٌ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

إشارات:

□ بعد إطلاق أوّل خطاب للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الآية ١٠٤، تحمل هذه الآية الحكم الثالث إلى المسلمين. كان الحكم الأول هو العفو والإعراض عن الضغينة والحسد تجاه أهل الكتاب حتى ينزل الله تعالى أمره، ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾.

أمّا الحكم الثاني فهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فلمّا كان المسلمون في مرمى سهام الحقد والحسد للأعداء، وقد أُمروا بالعفو والصّفح، فلذا، ينبغي عليهم ترسيخ روابطهم مع الله تعالى من خلال إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة عبر التواصل مع المحرومين في المجتمع.

التعاليم:

١ ـ يقرن القرآن الكريم، إقامة الصّلاة بإيتاء الزكاة، وربّما كانت هذه إشارة إلى أنّ ذكر الله يجب أن يصحبه اهتمام بخلقه والتواصل معهم، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

٢ ـ لا يهمّ حجم عمل الخير، فكلٌّ يعمل بحسب طاقته، ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾.

٣ ـ أعمال الخير زاد يوم القيامة، ﴿تَجِدُوهُ﴾.

٤ ـ الإيمان بوجود رقابة إلٰهيّة وبالثواب في يوم القيامة، هو الحافز الأقوى للعمل الصالح، ﴿تُقَدِّمُوا... تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾

التعاليم:

١ ـ الغرور والتكبّر الدينيّ هو الذي جعل اليهود والنصارى ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم أرقى الأجناس البشرية وإنّ الجنّة حكرٌ عليهم، ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾.

٢ ـ الشعور بالتفوّق والاستعلاء ادعاء فارغ ووهم أجوف، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

٣ ـ الادّعاء الذي يفتقر دليل مرفوض، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

٤ ـ كل عقيدة تحتاج إلى برهان، ﴿وَقَالُوا... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فالقرآن يعرض مطالبه مدعمة بالبراهين، ويطالب المعارضين أن يطرحوا أدلتهم وبراهينهم.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)﴾

إشارات:

- تذكر الآية سبب دخول الجنّة وهو التسليم لأوامر الله والعمل الصالح، أي أنّ دخول الجنّة لا يكون بالادّعاءات والشعارات الجوفاء، بل يلزمه الإيمان والعمل الصالح.

التعاليم:

١ ـ دخول الجنّة ليس بالأماني والأوهام، بل بالتسليم لله والإيمان القلبي والعمل الصالح، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٢ ـ لا بدّ للإنسان أن يتّخذ من العمل الصالح سيرة ونهجاً، وألّا يكون ذلك مرحلياً وموقّتاً، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

٣ ـ الإثابة من لوازم الربوبيّة، ﴿أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾.

٤ ـ من يُسلم وجهه لله سوف ينال أجره كاملاً؛ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ويحصّن نفسه من أيّ خوف أو فزع، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ مرّة أخرى ترسم الآية ملامح التعصّب عند أهل الكتاب حيث تسعى كل فرقة إلى تكفير أختها. فاليهود كانوا يعتبرون النصارى على باطل وأنّهم لا مكانة لهم عند الله، وفي المقابل كان النصارى يدّعون أنّ اليهود ليسوا على شيء. والحقيقة أنّ هذا النمط من الادّعاءات والسلوك مردّه إلى روح التعصّب التي يحملها هؤلاء، والنظرة الانحصارية الضيّقة التي ينطلقون منها، ولو أنّهم رجعوا إلى الكتاب السماوي الذي يؤمنون به، لانتهوا عن هذه التصرّفات والادّعاءات. ثمّ يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، والمراد بهذا القول إنّ الكفار والمشركين يزعمون مثل هذه المزاعم الفارغة، أي إنّ أصحاب العقائد الباطلة يكفّر بعضهم بعضاً، لكنّ هذه النزاعات والصراعات ستنكشف حقيقتها في يوم القيامة، وسوف يفصل الله فيها ليظهر الحقّ للجميع.

التعاليم:

١ ـ التعصّب الأعمى والانحصارية الضيّقة ممنوعة. استصغار شأن الآخرين وتجاهلهم يعني الاستبداد والأنانية[1] ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ... لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

٢ ـ مع وجود التعصّب والأنانية يتعطّل دور العلم في الهداية. كان أهل الكتاب يتلون ما جاء في كتبهم إلّا أنّ روح الأنانية والانحصارية عطّلت فائدة هذه التلاوة، ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٣ ـ في المناخ الملتبس بالتعصّب، يتساوى تفكير العالم والجاهل. فالمشركون الجهّال كانوا يردّدون حجج الذين يتلون التوراة والإنجيل نفسها، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

إشارات:

□ يتوضّح من أسباب نزول هذه الآيات ومفاد بعض الروايات المتوفّرة أنّ هذه الآية نزلت في أولئك الذين انبروا إلى تهديم المساجد وتخريبها. فالتاريخ يزخر بحوادث تهديم المساجد على يد الطغاة والعتاة المنحرفين أو منع بنائها وتألّقها. من هذه الحوادث نذكر تهديم بيت المقدس على يد النصارى بقيادة «فطلوس» الرومي وحرق التوراة. كما أنّ سبب نزول الآية يشمل قريشاً حين حالت دون دخول الرسول الكريم ﷺ إلى المسجد الحرام.

واليوم أيضاً نجد أنّ التاريخ يعيد نفسه، حيث نشهد تهديم المساجد المجاورة لقبور أئمّة البقيع والتي ترقى إلى عصر صدر الإسلام، وذلك بحجّة

---

(١) كلّ فريق يفخر بما لديه، وهذا الفخر الأجوف هو السبب وراء الكثير من الفتن، وقد جاء في سورة ﴿المؤمنون﴾ الآية ٥٣ تعبير آخر هو ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

محاربة مظاهر الشرك والبدع، وفي مكان أبعد من منطقتنا شهدنا تهديم مسجد بابري في الهند الذي كان شاهداً على تاريخ حضارة المسلمين في شبه القارة الهندية. تحمل جميع هذه الحوادث دلالات من روح الكفر التي تسكن جنبات الطغاة والجهلة الذين يخشون أن يعلو صوت الحقّ بذكر الله في مراكز التوحيد.

- وهذه الآية الكريمة تحمل تحذيراً إلى الوالدين وكلّ الذين يمنعون أبناءهم من الحضور في المساجد.
- نستنتج ممّا قيل أنّه إذا كان تهديم المساجد وخرابها ظلم، فلا شك في أنّ إعمارها هو أنفع الأعمال[1].

التعاليم:

١ ـ الظلم الثقافي، أحياناً، يكون أفدح الظلم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ (وكلمة ﴿أَظْلَمُ﴾ في القرآن يُراد بها الافتراء على الله وتعطيل بيوت الله، وكلاهما يحمل بعداً ثقافياً).

٢ ـ خراب المسجد ليس بالمعاول والفؤوس فقط، بل يشمل أيّ خطّة تحول دون ازدهار المسجد وتطويره، ﴿مَنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ المساجد المرضيّة هي تلك التي يذكر فيها اسم الله تعالى وتُتلى فيها أحكام الله وما يُرضي الله من الموضوعات المفيدة، ﴿يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

٤ ـ لا يخشى العدوّ بناء المسجد وعمارته، بل خشيته كلّ خشيته من ذكر الله ويقظة المسلمين، ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

٥ ـ المساجد قلاع النضال، الأمر الذي يفسّر سعي العدوّ في خرابها، ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾.

٦ ـ لا بدّ من أن يكون المسجد ذا نشاط وحيوية ومعنى، وكأنّه غرفة القيادة العسكرية، فكما يمتلئ الجواسيس فزعاً واضطراباً عند الاقتراب من المراكز

(١) تفسير الفخر الرازي.

العسكرية، يجب أن نجعل قلوب الأعداء تفزع وتضطرب عند الاقتراب من المسجد أو عند دخوله، ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾.

٧ ـ الذين يتصدّون للمقدّسات الدينيّة ينتظرهم الغضب الإلٰهيّ في القيامة، والذلّة والمسكنة في الحياة الدنيا، ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ... لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾.

(إذا كان السعي في خراب المكان الذي يذكر فيه اسم الله يجلب الذلّة في الدنيا والعذاب في الآخرة، فبالتأكيد أنّ جزاء أولئك الذين يسعون إلى تلطيخ سمعة الذين يذكرون الله في المجتمع عن طريق بثّ الإشاعات والافتراءات والإساءات ضدّهم، الذلّة والهوان في هذه الدنيا).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

إشارات:

- بعدما تغيّرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة، طفق اليهود بالتشكيك في الأمر والسؤال عن سبب هذا التغيير. لقد ردّ الله تعالى في الآية السابقة (١٠٦) بصورة مجملة وسريعة على هذا التشكيك والاعتراض، غير أنّه سبحانه أراد التأكيد مجّدداً في هذه الآية على أنّ مشارق الأرض ومغاربها لله وحده، لذلك فأينما ولّى العبد وجهه، سيكون وجه الله في تلك الناحية. وأساساً، إنّ تعيين الكعبة كقبلة للمسلمين هو من أجل إظهار وحدة صفوف المسلمين، ناهيك عن أنّه يثير في النفس ذكريات النبيّ إبراهيم عليه السلام في التضحية والإيثار ومحاربة الشرك، وهي لهذا السبب تحظى بالقدسية والاحترام.
- لقد ورد في فتاوى الفقهاء أنّه لا يشترط استقبال الإنسان القبلة في الصلاة المندوبة، إذ يستطيع أن يؤدّيها وهو ماشٍ أو على راحلته، وقد أشارت بعض الروايات إلى هذا الموضوع في ذيل هذه الآية[١].

---

(١) يقول الإمام الباقر عليه السلام: «**أنزل الله هذه الآية في التطوّع خاصّة**»، تفسير البرهان، تفسير راهنما.

□ ولا بدّ لنا هنا من التنويه إلى أنّ الاتّجاه نحو القبلة شرقاً أو غرباً هو في الأساس موضوع تربوي وسياسي، وإنّ الغاية والهدف المقصود هو ذكر الله تعالى، والارتباط به، فالقرآن الكريم يثني على فريق بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾(١).

وفي موضع آخر، يردّ على التخرّصات والضجّة المفتعلة حول موضوع تغيير القبلة بالقول: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾(٢).

□ ونلاحظ أنّ القرآن الكريم يتحدّث في الآية السابقة عن أكبر الظلم ويعني به تخريب المساجد أو المنع منها، ثمّ يورد في موضع آخر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾(٣)، لكنّه يعود فيبشّر المؤمنين بألّا ييأسوا أو يشعروا بالضياع والخيبة، فالعالم كلّه هو محلّ عبادة، وكل زوايا الوجود قبلة.

التعاليم:

١ ـ كلّ عمل بأمر الله ويحمل صبغة إلٰهيّة فهو لوجه الله، وهو عبادة، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ الله حاضر في كلّ مكان، ورقيب على كلّ شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

إشارات:

□ في الآية الكريمة إخبارٌ عن قول أهل الكتاب والمشركين، بنحوٍ ما، بعقيدة اتّخاذ الله ولداً له. فاليهود زعموا أنّ عزيراً ابن الله، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾(٤)، والنّصارى ادّعوا أنّ المسيح عيسى ابن الله، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩١.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.
(٣) سورة الحج: الآية ٤٠.
(٤) سورة التوبة: الآية ٣٠.

﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[1]؛ فيما قال المشركون إنّ الملائكة بنات الله، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾[2]. ومن هنا، فإنّ الآية جاءت كردّ على هذه الأوهام والمزاعم الباطلة، وفي مقام التبرئة والتنزيه للذات الإلهيّة المقدّسة من هكذا أقوال.

□ لذلك، يجب أن لا نقيس الله بنا نحن البشر، ذلك أنّ الإنسان إذا كان بحاجة إلى الولد فهو للأسباب التالية:

١ ـ إنّه ذو عمر محدود، ويرغب في بقاء ذكره من بعده من خلال الاستيلاد والتناسل.

٢ ـ قوّته محدودة، لذلك، فهو يحتاج إلى من يقوم بأعماله.

٣ ـ بحاجة إلى الحب والحنان، ويتيسّر ذلك من خلال وجود أنيس.

إلّا أنّ الله سبحانه منزّه عن هذه النقائص والاحتياجات، فكلّ من في السموات والأرض يخضع لجبروته.

التعاليم:

١ ـ يخضع لله ما في السموات والأرض، إذن، فأيّ نقص يعانيه حتى يلجأ إلى سدّه من خلال اتّخاذ ولد؟! ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٢ ـ الخشوع والتسليم لمن يملك الوجود كلّه، وليس للأصنام والطواغيت الذين يعجزون حتى عن خلق ذبابة، وليس لهم القدرة على النفع أو الضرر، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

إشارات:

□ إنّ الله ليس مالك جميع الخلائق فحسب، بل خالقها ومبدعها على غير حدّ أو

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٠.
(٢) سورة النحل: الآية ٥٧.

مثال، إذن، فما حاجته إلى الولد؟! وإذا أراد الله إيجاد شيء من الأشياء فإنّه يقول له: كن، أي يمضيه، فيوجد الشيء بلا تأخير، أو كما يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له كن فيكون بلا لفظ ولا نطق ولا همّة ولا تفكّر**»[١].

❑ تعرّفنا في هذه الآيات إلى جوانب من قدرة الله تعالى وهي:

- ﴿لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.
- ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.
- ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.
- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.
- ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

❑ إذا كان الله سبحانه يخلق الشيء بلحظة واحدة أن يقول له كن فيكون، فإنّه يستطيع من مقام القدرة والقهّارية أن يمحو كل شيء بلحظة واحدة أيضاً، وتشهد على ذلك الآية ١٩ من سورة إبراهيم المباركة إذ تذكر: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

لا شك في أنّ الإيمان بقدرة الله في امتلاكه وجود وعدم كلّ شيء، تمنح الإنسان قدرة خارقة، وتنتشله من مستنقع اليأس والانكسار.

التعاليم:

١ ـ خلق الله سبحانه، إبداع وإنشاء، ﴿بَدِيعُ﴾.

٢ ـ الله تعالى قادر على أن يخلق الوجود كلّه في لحظة واحدة؛ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وإن كانت حكمته تقتضي أن تكون هناك سلسلة من العلل والأسباب، وأن يتمّ الخلق بالتدريج.

(١) الكافي، ج ١، ص ١٠٩.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

إشارات:

□ مرّة أخرى يطرح فريق جاهل من الكفّار والمعاندين حججاً ومطالب أخرى على النبيّ الكريم ﷺ بقولهم ما الذي يمنع من أن يكلّمنا الله مباشرة؟ لماذا لا ينزّل علينا آية؟!

أراد القرآن الكريم هنا أن يخفّف من وقع الآثار السيئة المحتملة لهذه الأراجيف والأباطيل التي يطرحها الكفّار على المسلمين، وإبداء التسلية والتعاطف مع الرسول الأكرم ﷺ فأظهر (القرآن) أنّ هذه الأباطيل عادية وليست بجديدة، وهي شبيهة بتلك التي طرحها أسلافهم الكفّار على أنبياء عصرهم.

ثمّ يقول: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

□ إنّ المطالب ذات السقف العالي إمّا أن تكون ناشئة، عادةً، من روح الاستعلاء والتفوّق، أو بسبب الجهل وغياب الوعي، ذلك أنّ الجاهل لا يعلم أنّ نزول ملائكة الوحي على كلّ قلب أمر مستحيل، وأنّ الحكيم لا يصبّ الشراب الدّهاق الرائق في كلّ إناء. ورد في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[١].

التعاليم:

١ ـ الأساس هو الجهد والجدارة، لا الطلب والتمنّي. فهناك من يعرب عن أمانيّ بعيدة بدلاً من أن يبذل الجهد ويثبت جدارته، ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ سنّة الله تقتضي إلقاء الحجّة وعرض البرهان، لا الاستجابة للأماني والأهواء النفسانية لكلّ فرد، ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ﴾.

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾

إشارات:

- تخاطب الآية الكريمة الرسول الكريم ﷺ وتحثّه على عدم الإصغاء لأمانيّ الكفّار: فهؤلاء يتمنّون لو تُنزّل عليهم صحف عدّة من الآيات ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾[1]، والحال أنّنا أرسلناك بمنطق الحقّ إلى النّاس لتهديهم إلى طريق سعادتهم من خلال البشارات والنُّذُر. فإذا أبدى فريقٌ تعنّتاً وصلفاً في قبول الحقّ الذي جئتهم به، وطلبوا نزول الوحي عليهم، حينذاك لست مسؤولاً عن ورودهم النار، ولست مسؤولاً عن مصيرهم سواء فازوا أو خابوا.
- ما عليك إلّا البشارات والنُّذُر فقط، وفي هذين دليل على الخيار والإرادة الإنسانية.

لقد ذكر القرآن الكريم مراراً أنّ الله تعالى أرسل الرسل بالحجج ومنطق الحقّ المقترن بالتبشير والتنذير، ومن ثمّ للناس أن يقرّروا مختارين إمّا سلوك طريق الحقّ، أو البقاء على لجاجهم وعنادهم.

التعاليم:

١ ـ هجمة العدو لإضعاف المعنويات تقابلها من الله تعالى جرعة من تشديد العزائم وتثبيت القلوب، ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾. (استكمالاً للآية السابقة في استعراض حجج الكفار، تشدّ هذه الآية من عزيمة النبيّ الكريم ﷺ وتثبّت قلبه ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾).

٢ ـ البشارة والإنذار يجب أن يكونا متعادلين ككفتي الميزان، وإلّا فالنتيجة ستكون غروراً أو يأساً، ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾.

(١) سورة المدّثر: الآية ٥٢.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

إشارات:

- بعد قضية تغيير القبلة من بيت المقدس نحو الكعبة المشرّفة، ازداد حنق اليهود وحقدهم على المسلمين، وربّما لم يرق هذا التغيير حتى لبعض المسلمين إذ كانوا يأملون أن تبقى على وجهته الأولى حتى يعيشوا مع اليهود في ألفة وصفاء، متناسين أنّه حتى مع بقاء القبلة على وجهتها الأولى فلن يستقطب ذلك رضا أهل الكتاب، لأنّ مبلغ رضا هؤلاء ليس ما يوردونه من تعنّتات بل أن يدخل المسلمون في دينهم وليس قبلتهم فقط.
- والحقيقة أنّ خطاب الآية ليس موجّهاً بالتحديد إلى النبيّ الكريم ﷺ بل هو تعريض لأمّته عبر التاريخ وتحذير لهم أن يواقعوا شيئاً من ذلك، فاليهود والنصارى لن ترضى عنهم إلّا أن يدخلوا في مداخلهم، وأن يتخلّوا عن أصولهم وقيمهم الإلٰهيّة، لذا، على المسلمين أن يظهروا لهؤلاء الحزم ويرفضوا دعواتهم، وأن يعلموا أنّ طريق السعادة إنّما هو طريق الوحي لا اتّباع أهواء هذه الفئة أو تلك.

التعاليم:

١ ـ لن يقنع العدوّ بالقليل، فهو لن يرضى إلّا بالسقوط التامّ للمسلمين ومحو دينهم والقضاء على أهدافهم، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ...﴾.

٢ ـ إذا أظهر الكفّار الرضا عن دين المسلمين فلا بدّ لهؤلاء من أن يشكوا في تديّنهم، فالتديّن المداهن للكفر هو عين الكفر، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ... حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

٣ ـ جميع الطرق معوجّة عدا صراط الوحي والهداية الإلٰهيّة المستقيم، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٤ ـ مسؤولية العالم أخطر من مسؤولية الجاهل، ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٥ ـ لا بأس بالعلاقة مع أهل الكتاب شرط ألّا تكون على حساب المبادئ. نعم لاسترضاء الآخرين واستمالتهم، ولَا للتخلّي عن المبادئ، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم...﴾.

٦ ـ اتّباع أهواء الناس ورغائبهم يؤدّي إلى حبس الألطاف الإلٰهيّة. وعلينا أن نختار بين لطف الله وأهواء الناس، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

إشارات:

- مرّ علينا في الآية السابقة تقريع ونقد لليهود والنصارى على عنادهم وتمرّدهم، فيما تثني الآية هنا على فريق آخر من هؤلاء وتكرّم شأنهم وذلك لأنّهم قرأوه حقّ قراءته، فوجدوا فيه بشارات ظهور النبيّ الكريم ﷺ وبعثته وآمنوا به.
- ورد في تفسير أطيب البيان: أنّ المراد من «الكتاب» في هذه الآية هو القرآن والخطاب موجّه إلى المسلمين الذين يتلونه حقّ تلاوته، والذين آمنوا بالنبي الكريم ﷺ، وهو ما ذهب إليه أيضاً صاحب تفسير الميزان الذي أورد رواية في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**يرتّلون آياته، ويتفهمون معانيه، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده ويخشون عذابه، ويتمثّلون قصصه، ويعتبرون أمثاله، ويأتون أوامره، ويجتنبون نواهيه، وما هو والله بحفظ آياته وسرد حروفه وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنّما هو تدبّر آياته**».

وورد الروايات أيضاً أنّ من يتلو القرآن حقّ تلاوته هم الأئمة المعصومون(١).

---

(١) الكافي، ج ١، ص ٢١٥.

التعاليم:

١ ـ حقّ التلاوة، ليس في حسن القراءة وجمال الصوت والأداء والتقيّد بقواعد التجويد فحسب، بل الإيمان بالكتاب والعمل به، ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٢ ـ الخاسر الحقيقي هو من ضلّ عن الدين القويم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

إشارات:

- مفاهيم هاتين الآيتين تشبهان الآيتين ٤٧ و٤٨ من هذه السورة، وقد فصّلنا الحديث فيهما لذا نكتفي بما قيل هناك.

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

إشارات:

- لقد حاز النبيّ إبراهيم عليه السلام منزلة خاصة بين الأنبياء، فقد ورد ذكر هذا النبيّ العظيم ٦٩ مرّة وفي ٢٥ سورة في القرآن، وهو كنبيّنا الكريم صلى الله عليه وآله، لُقّب بالأسوة والقدوة للبشرية جمعاء. وقد أدرج ذلك النبيّ الجليل في زمرة الأخيار والصالحين والقانتين والصدّيقين والصابرين والموفين بالعهد.

ولا عجب من أن يستخدم الله تعالى عبارات خاصة لبيان عظمة مكانة هذا النبيّ الكريم وسموّ منزلته، لا بل إنّ من جملة أسرار الحجّ تخليد ذكرى تضحياته وتفانيه وصبره على الامتحانات الإلٰهيّة المتتالية. لقد حارب هذا النبيّ الكريم

الضلال والشرك في ميادين شتّى مثل طرحه البراهين والاستدلالات في مناظراته مع عبّاد النجوم والقمر، ومحاربته وتحدّيه عبدةَ الأصنام، واحتجاجه على النمرود، وغير ذلك من الامتحانات العسيرة التي جعلت منه إنساناً قدوة وأسوة وجعلته نموذجاً للإنسان الكامل تمهيداً لارتقائه سدّة الإمامة بجدارة واستحقاق.

□ ولعلّه من المهمّ أن نذكر بأنّ القرآن الكريم استعرض في ٢٠ موضعاً مسألة الامتحان الإلٰهيّ، بما يؤكد أنّها من السنن الإلٰهيّة.

ليس الهدف من الامتحان أن يعلم الله تعالى، فهو عالم قبلاً وبعداً، لكنّه للكشف عن المواهب والقابليات المكنونة في الإنسان وعن سعيه وعمله. فإذا لم يعمل الإنسان لم يستحقّ الثواب.

أدوات الامتحان: حوادث الحياة حلوها ومرّها، كلّها أدوات الامتحان الإلٰهيّ، فأحياناً يمحّص الإنسان بالشدائد والبلايا، وأحياناً بالرفاهية والترف والعيش الرغيد، والامتحان هو الشيء الذي لا محيص عنه سواء للأنبياء أم عامّة الناس، فالجميع يُبتلىٰ به. والشيء الواضح هنا هو أنّ هذه الامتحانات والبلاءات هي من أجل تمحيص الناس وإعدادهم وصقل معادن نفوسهم.

□ لقد اجتاز النبيّ إبراهيم عليه السلام جميع الامتحانات الإلٰهيّة، ونجح فيها جميعاً، وأدّى ما عليه خير أداء، فوصل في المرحلة الأولى إلى مرتبة: عبد الله، ثمّ ارتقى إلى مقام نبي الله، بعدها: رسول الله، فخليل الله، ليختمها بمقام الإمامة والقيادة[١].

□ من مراجعتنا آيات القرآن الكريم نفهم أنّ المراد بـ **«الكلمات»** في هذه الآية هي الاختبارات الشاقة التي دخلها النبيّ إبراهيم عليه السلام، فخرج من جميعها منتصراً مرفوع الرأس. لم يشغله عن القيام بمسؤولياته عمٌّ أو زوجة أو ولد. كان عمّه آزر يكفله، لكنّ ذلك لم يمنعه من التصدّي له ولمجتمعه بسبب عبادتهم الأصنام، فكان بحقّ المحطّم التاريخي للأصنام.

---

(١) الكافي، ج ١، ص ١٥٧.

ولمّا بعثه الله تعالى بالرسالة، أسكن زوجته وولده في وادٍ غير ذي زرع بمكة مفوّضاً أمرهما إلى الله وتاركاً عواطفه وعلائقه هناك، ليهاجر هو إلى بلاد أخرى بأمر الله لدعوة الناس إلى دينه.

وعندما تلقّى الأمر بذبح ولده إسماعيل، آثر رضا الله على عاطفته وهواه، وهمّ بذبح ابنه حيث رفع يده بالسكين على رقبة ولده، فسمع في هذه الأثناء نداء السماء يقول له إنّه لم يكن المراد ذبح إسماعيل، بل امتحان إبراهيم.

- لقد دعا النبيّ إبراهيم عليه السلام أن تستمر الإمامة في ذرّيّته من بعده، فجاءه الجواب أنّ الإمامة عهد إلهي لا يناله إلّا من توافرت له أسباب اللياقة والجدارة، وهكذا الأمر بالنسبة إلى ذرّيتك فمن حاز على الجدارة فسوف ينالها، ومن أجدر من النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله سليل جدّه إبراهيم عليه السلام، في أن يمتطي هذا المركب العالي، بينما حُرم هذا المقام من ارتكب أدنى ذنبٍ أو ظلم.

- وإبراهيم عليه السلام هو النبيّ الوحيد الذي يشكل المرجع المشترك للمشركين واليهود والنصارى، حيث يدّعي كلّ منهم السير على نهجه وشريعته.

إنَّ الآية الكريمة، وفي معرض إشادتها وثنائها على النبيّ إبراهيم عليه السلام، تطرح وبشكل غير مباشر رسالة عامة إلى الجميع بأنّه إذا كان حقّاً ما تقولون من إيمانكم بإبراهيم وتمسّككم بنهجه، فأقلعوا عن الشرك، كما فعل، وسلّموا بالتعاليم والأوامر الإلٰهيّة بشكل كامل.

- ولا بدّ لنا هنا من الإشارة إلى أنّ هذه الآية تعدّ أصلاً من الأصول الفكرية والعقدية للشيعة، فهم يثبتون بها فكرة عصمة الإمام، وأنّ من صدقت عليه كلمة الظلم في لحظة من حياته، يُحرم مقام الإمامة(١).

(١) جاء في تفسير المنار، ج ١، ص ٤٥٧: أنّ أبا حنيفة وبالاستناد إلى هذه الآية الكريمة كان معارضاً لدولة بني العباس (وكان معاصراً للمنصور)، ما جعله يرفض تكليف الخليفة إياه بتولّي القضاء، ثمّ يتابع صاحب المنار قائلاً: كان أئمة المذاهب الأربعة معارضين حكومات عصرهم، لأنّهم كانوا يعتبرونهم ظالمين. لكنّا بالطبع نجد في المصادر التاريخية ما يتعارض مع ما ذهب إليه صاحب المنار.

□ وقد وصفت هذه الآية مقام الإمامة بالعهد ﴿عَهْدِى﴾، إذن فالآية ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1]، تعني إذا أخلصتم وأوفيتم للإمام الذي جعلته عليكم وأطعتموه، فأنا أيضاً سأوفي بعهدي وبما وعدتكم به من النصرة.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء أيضاً معرّضون للامتحان الإلٰهيّ، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾.

٢ ـ إناطة المسؤوليات بالأشخاص تحتاج تمحيصاً واختباراً وامتحاناً، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ... بِكَلِمَٰتٍ﴾.

٣ ـ منشأ الإمامة ليست الوراثة، بل هي جدارة واستحقاق ينالهما المرء من خلال اجتيازه الاختبارات الإلٰهيّة، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

٤ ـ يجب إناطة المناصب والمسؤوليات بالأشخاص تدريجياً، وبعد النجاح في كل مرحلة، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ...﴾.

٥ ـ الإمامة تنصيب وليست انتخاباً، فلا بدّ للإمام من أن ينصّب من قبل الله تعالى، ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ﴾.

٦ ـ الإمامة عهد بين الله والناس، ﴿عَهْدِى﴾.

٧ ـ من أهمّ شروط القيادة العدل وحسن السيرة، فمن كانت سيرته ملطّخة بالشرك والظلم فليس جديراً بالإمامة[2]، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

إشارات:

□ بعد الإشارة إلى المنزلة الرفيعة للنبي إبراهيم عليه السلام في الآية السابقة، تشير هذه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٢) جاء في تفسير أطيب البيان نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي ما يلي: عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال في حديث قدسي: «**من سجد لصنم دوني لا أجعله إماماً...؛ وأنا وعلي بن أبي طالب لم يسجد أحدنا لصنم قطّ**».

الآية إلى التذكار الذي خلّفه هذا النبي، أعني، الكعبة المشرّفة إذ ورد في الآية: ﴿جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً﴾. و«المثابة» من «الثوب» أي رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها، ومنها سمّيت الكعبة وذلك لأنّها ملجأً ومحلّ عودة جميع الناس.

- مقام إبراهيم مكان معروف يبعد حوالي ١٣ متراً عن الكعبة المشرّفة، على الحاج بعد انتهائه من الطواف حول الكعبة أن يصلّي عنده ركعتين، ويوجد في هذا المقام حجر أسود اللون وقف عليه النبيّ إبراهيم عندما رفع جدران الكعبة، والحجر المذكور محفوظ في وعاء خاص.
- «**العهد**» هنا هو الأمر أو المسؤولية الإلٰهيّة، ﴿وَعَهِدْنَآ﴾ تعني أمرنا.
- الله تعالى ليس بجسم حتى يحتاج بيتاً يأويه، لذلك فإنّ كلمة ﴿بَيْتِيَ﴾ في هذه الآية المقصود منها إضفاء الكرامة والمنزلة على مكان أو زمان خاصّ من خلال نسبتها إلى الله، كما يقال عن شهر رمضان المبارك، مثلاً: «**شهر الله**». ويكفي الكعبة عظمة وشرفاً أن يقول الله تعالى فيها: ﴿بَيْتِيَ﴾، وأحياناً يقول تعالى: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾.

التعاليم:

١ ـ النبيّ إبراهيم عليه السلام شخصيّة عالمية. الآية السابقة وصفته بأنّه إمام الناس قاطبة، وتصف هذه الآية الكعبة بأنّها محلّ عودة الناس جميعاً، ﴿جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾.

٢ ـ إنَّ المجتمع بحاجة إلى إمام وأمان، ورد في الآية السابقة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

وهذه الآية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

٣ ـ حريّ بجميع الرؤوس أن تسجد لله في مقام من سلّم نفسه وزوجته وولده في سبيل الله[1]، ﴿مُصَلًّى﴾.

(١) إنّه مضمون حديث ورد في تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٢٢.

٤ ـ لمّا كان البيت لله؛ ﴿بَيۡتِيَ﴾ فيجب أن يكون سادنه أيضاً من أولياء الله، ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾.

٥ ـ يكفي حجّاج بيت الله كرامة وفخراً أنّ إبراهيم وإسماعيل هما من تولّى تطهير البيت العتيق لهم، ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ...﴾.

٦ ـ العبادة والطهارة متواشجتان، ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ... وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٧ ـ العبادة والصلاة هما من الأهميّة بحيث أُمر إبراهيم وإسماعيل بتطهير مكان أداء الطقوس العبادية، ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ... وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

٨ ـ لا بدّ لمساجد المسلمين أن تكون نظيفة ومشوّقة، ﴿طَهِّرَا... وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾

إشارات:

□ مرّ علينا في آية سابقة أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام طلب لذرّيته مقام الإمامة، لكنّ الله تعالى أجابه بأنّه عهد ومقام لا يناله الظالمون. في هذه الآية يطلب النبيّ إبراهيم عليه السلام رزق الدنيا ومواهبها للمؤمنين من دون الكفار، بيد أنّ الله لا يستجيب لهذا التحديد في الطلب، إذ لا يمنع عن الكفّار رزقه ونعمه المادّيّة، وهذا معناه أن لا أهميّة للرزق المادّي، فهو يصيب المؤمن والكافر على حدّ سواء، إلّا أنّ الأمر المهمّ جداً هو المكانة المعنوية والاجتماعيّة والقيادة، فهذه لا تناط بأيٍّ كان.

التعاليم:

١ ـ لا يقتصر اهتمام الأنبياء على الإرشاد والهداية فحسب، بل يشمل الاحتياجات المادّية للناس أيضاً مثل أمنهم ومعيشتهم، وهم في ذلك يبذلون جهدهم ويدعون الله من أجل تحقيقها، ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾.

٢ ـ التمتّع بالنعم يكون هنيئاً عندما تتوافر عناصر الأمن والاستقرار، بعيداً عن القلق والاضطراب، ﴿ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ﴾.

٣ ـ لا ننس الآخرين في دعائنا. تأمّل الآية الكريمة، فبدلاً من أن تقول «وارزقنا» قالت: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ﴾.

٤ ـ قضت السنّة الإلٰهيّة أن يشمل الله سبحانه برزقه الناس جميعاً المسلم منهم وغير المسلم، ولم تتغيّر هذه السنّة حتى مع دعاء إبراهيم عليه السلام، ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾.

٥ ـ التمتيع في الدنيا لا يعني بالضرورة الرضا الإلهي، ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾.

٦ ـ في مساعدتنا بني جنسنا، لنغضّ الطرف عن دينهم، ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾.

٧ ـ النعم المادّية مهما عظمت فهي تافهة بالقياس إلى نِعَم الآخرة، ﴿قَلِيلًا﴾.

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾

إشارات:

□ يُستفاد من آيات وروايات كثيرة أنّ بناء الكعبة المشرّفة كان قائماً منذ النبيّ آدم عليه السلام وقام النبيّ إبراهيم عليه السلام بإعادة بنائه. إذ تورد الآية الكريمة على لسان النبيّ إبراهيم عن قصّة إسكانه زوجتَه وولده في وادي مكة: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[1]، إذن، كانت هناك بقايا للكعبة حتى في فترة رضاعة إسماعيل. وفي هذا تشير سورة آل عمران[2] إلى أنّ الكعبة كانت أوّل بيت للناس، وكذلك تذكر عبارة الآية محلّ البحث قصّة رفع قواعد البيت على يد إبراهيم عليه السلام، كلّ ذلك يدلّ على أنّ الكعبة كانت موجودة قبل ذلك، وجاء إبراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام ليعيدا بناءها. وفي خطبة القاصعة[3] للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام المذكورة في كتاب نهج البلاغة يقول فيها: **«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ (صلوات الله عليه) إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا**

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٦.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

الْعَالَم بِأَحْجَارٍ لا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً»[1].

□ لم يكن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ينجزان العمل نفسه، وَرُوِيَ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام **أَنَّ إِسْمَاعِيلَ أَوَّلُ مَنْ شُقَّ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّة ـ فَكَانَ أَبُوهُ يَقُولُ لَهُ وَهُمَا يَبْنِيَانِ الْبَيْتَ يَا إِسْمَاعِيلُ هابي ابن أَيْ أَعْطِنِي حَجَراً فَيَقُولُ لَهُ إِسْمَاعِيلُ: يَا أَبَتِ هَاكَ حَجَراً فَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي وَ إِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ**[2]، وربّما بسبب هذا الاختلاف، لم يأت اسم إسماعيل مباشرةً بعد اسم إبراهيم، ﴿يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾.

التعاليم:

١ ـ لنتذكر دائماً المؤسّسين للمشاريع الخيرية، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾، «إِذْ» للإشارة إلى الماضي.

٢ ـ أعمال البناء تصبح عبادة عندما توظّف في مسير تحقيق الأهداف الإلٰهيّة، لذلك يدعو إبراهيم وإسماعيل الله أن يتقبّل منهما، ﴿يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾

٣ ـ ليس المهمّ العمل، بل قبوله، فحتى تشييد الكعبة إذا لم يكن موضع قبول الله، فلا قيمة له، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾.

٤ ـ يجب أن نستصغر أعمالنا في مقابل عظمة الله، فالنبي إبراهيم عليه السلام لم يذكر جهوده في العمل والبناء بل قال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾

٥ ـ ورد في الآيات: إنّ من شروط إجابة الدعاء وآدابه التحميد على الله. لقد قرن إبراهيم عليه السلام دعاءه بالتحميد على الله، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

إشارات:

□ لقد أظهر النبيّ إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام أعلى درجات التسليم والخضوع

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٨٧.

لله تعالى في امتثالهما أمر الذبح، إلّا أنّهما مع ذلك، يطلبان من الله تعالى ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾، وكأنّهما يريدان الاستزادة من التسليم لله أو تواصل روح التسليم والإنابة فيهما. من أسلم وجهه لله وحده، لن يسلّم لعمّه عابد الأصنام، ولن يركع أمام الأصنام، ولن يتّبع الطغاة.

التعاليم:

١ ـ يجب ألّا نكتفي بالمحاسن الآنية، بل ينبغي علينا أن ندعو الله أن يكمّلها ويديمها علينا، ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾.

٢ ـ الاهتمام بالأولاد والذرّية، رؤية تنطوي على بعد النظر والحكمة وترضي الله، وتنمّ عن سعة الأفق وعن حبّ ووله داخلي، وقد وردت كثيراً في أدعية النبيّ إبراهيم ﷺ، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾.

٣ ـ يجب تعلّم أصول العبودية من الله تعالى، فبدون ذلك سوف يسقط الإنسان في مستنقع الخرافات والضلالات، ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٤ ـ لا أثر لبيان الأحكام ما لم تخشع الروح لله. في هذه الآية، يدعو إبراهيم ﷺ ربّه أولاً أن يلهمه روح التسليم، وأن يعلّمه أصول العبادة والعبودية، ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ... وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٥ ـ الحاجة إلى التوبة وعودة ألطاف الله ذو قيمة في كل حال ومقام[1] ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآ﴾.

٦ ـ من آداب الدعاء، التحميد لله، وهو ما نلحظه في هذه الآية، ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾

إشارات:

□ دعاء آخر تتضمّنه هذه الآية الكريمة على لسان النبيّ إبراهيم ﷺ، يجسّد عظمة

(١) نقرأ في الحديث الشريف، أنّ الرسول الكريم ﷺ كان يستغفر كلّ يوم سبعين مرّة، على الرغم من أنّه كان معصوماً من كلّ ذنب. (انظر: مكارم الأخلاق، ص ٣١٥).

روحه، ويرسم صورة تدلّ على معاني الحب والإخلاص القلبي عنده. فإبراهيم عليه السلام يدعو هنا لذرّيّته من بعده على الرغم من أنّه حيّ وكونه من الأنبياء العظام، وقد نقل عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «**أنا دعوة أبي إبراهيم إذ قال: رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ**»[1].

□ نلاحظ أنّ التعليم قُدّم على التزكية في دعاء النبيّ إبراهيم عليه السلام، إلّا أنّ الله سبحانه في إجابته الدعاءَ قدّم التزكية على التعليم، ليلفت انتباه إبراهيم إلى أنّ التزكية أهمّ وأرقى، ويأتي بعدها التعليم. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ الحاجة إلى قائد إلهي هي من أهمّ الاحتياجات بالنسبة إلى المجتمع الإنساني، ويدلّ ورود هذا الدعاء على لسان إبراهيم قبل قرون عدّة على مدى أهميّة الموضوع وخطورته والحاجة الماسّة إليه، ﴿يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ... وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾، إذ إنّ رفع قواعد البيت دون قائد إلهي ومعصوم، لا ينتج عنه سوى معبد للأصنام.

٢ ـ الهدف من بعثة الأنبياء هو تعليم الناس وتزكيتهم طبقاً للكتاب السماوي، ﴿يَتْلُواْ... وَيُعَلِّمُهُمُ... وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

٣ ـ يكون العلم مثمراً حين يقترن بالبصيرة والحكمة، وبالتزكية والتقوى، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

إشارات:

□ سلّطت الآيات السابقة الضوء على زوايا من أهداف النبيّ إبراهيم عليه السلام

---

(١) تفسير العيّاشي؛ تفسير الميزان. (٢) سورة الجمعة: الآية ٢.

وشخصيته. تطرح هذه الآية سؤالاً بالنظر إلى إشراق صورة إبراهيم وطهارتها، وهو: هل يعرض عن إبراهيم وأهدافه إلّا الجاهل والسفيه؟! إنّ دين إبراهيم من المكانة والمنزلة الرفيعة بحيث كان النبيّ الكريم ﷺ يفخر باتّباعه ملّة إبراهيم. فهو الذي بهت الكافر من قوّة حجّته، ومضاء منطقه: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[1]، أمّا شجاعته فتشهد لها جرأته على تحطيم الأصنام بمفرده: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾[2]. سمّاه الله تعالى في قرآنه الكريم الحليمَ، فقد كان قدوة في الصبر والتوكل على الله، لدرجة أنّ إيمانه لم يهتزّ وعزيمته لم تنهَرْ عندما همّ أعداؤه برميه في أتون النار، أمّا في السخاء فقد قدّم لضيوفه عجلاً حنيذاً، وكان كلّ ما يملك، إكراماً للضيوف. وبتركه زوجته وطفله الرضيع في صحراء قاحلة (مكة) لا زرع فيها ولا ماء، ضرب أروع مثل في التسليم لإرادة الله وقضائه. وحين أصبح ولده شاباً يافعاً تعرّض لامتحان آخر في التسليم لقضاء الله والامتثال لأمره وذلك بأنّه همّ بذبح ولده عندما وضع السكين على عنقه. نعم، إنّ الإنسان بإعراضه عن الأديان السماوية إنّما يخدع نفسه، ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

- لقد دعا إبراهيم عليه السلام ربّه بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]، وقد استجاب الله تعالى دعاءه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

- وبعد كلّ الذي ذكر، فإنّ من يُعرض عن نهج إبراهيم الذي دعا الله أن يمنح ذرّيته ملاذاً آمناً وإماماً معصوماً ورزقاً وفيراً وتوفيق الإسلام والتسليم، وقبول التوبة والسعادة، أقول من يُعرض عن كلّ هذا فهو حقّاً السفيه الجاهل!!

- والسفيه في لغة القرآن هو من يُعرض عن الحقائق ويكفر بالنعم، كبني إسرائيل الذين وُصموا بالسفه بعد أن احتجّوا بحجج واهية حول تغيير القبلة، إذ ورد في القرآن: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، كما ورد عن الإمام عليه السلام في تفسيره الآية الكريمة ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، قوله: «**الشارب للخمر سفيه**»، فهو بدلاً من أن يشرب الشراب الحلال والمفيد، يتجرّع الشراب الضارّ والمحرّم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥٨.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٣.

نعم، السفيه من حاد عن جادة الحقّ وضلّ، والعاقل من أصاب في اختيار القائد والدين. سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام قَالَ: **قُلْتُ لَهُ مَا الْعَقْلُ؟ قَالَ: مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَانُ، قَالَ قُلْتُ: فَالَّذِي كَانَ فِي مُعَاوِيَةَ؟ فَقَالَ: تِلْكَ النَّكْرَاءُ تِلْكَ الشَّيْطَنَةُ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْعَقْلِ وَلَيْسَتْ بِالْعَقْلِ**[1].

التعاليم:

١ ـ السفيه من ترك المنطق والدين والإمام وطريق الحق، وسعى وراء أهوائه أو أهواء الآخرين، ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

٢ ـ الإعراض عن منهج الدين والعقل دليل حُمق، ﴿وَمَن يَرْغَبُ... سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا تُمنح المقامات والألطاف الإلٰهيّة عبثاً من دون سبب، فالله اصطفى إبراهيم بسبب امتلاكه روح التسليم والعبودية لله، ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾.

٢ ـ سبب تسليم الإنسان لله لأنّه ربّ العالمين، ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لنحافظ على أبنائنا وأجيالنا وعلى سلامة معتقداتهم، وأن لا نكتفي في إرشاداتنا لهم بالجوانب المادّية، ﴿وَوَصَّىٰ... فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٢ ـ طريق الحق، هو طريق الإسلام والتسليم لله تعالى. وهو الطريق الذي أوصى به الأنبياء، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾.

٣ ـ لقد اختار الله لنا الله من بين جميع الطرق طريق الدين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾.

---

(١) الكافي، ج ١، ص ١١.

٤ ـ المهمّ هو حسن العاقبة وميتة الإسلام[1]، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٥ ـ ليس بأيدينا زمان الموت ومكانه، لكن بإمكاننا أن نهيّئ لأنفسنا شروط حسن العاقبة من خلال العقيدة والعمل الصالحَيْن، والدعاء وتجنّب المعاصي والفاسِدين، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

إشارات:

□ اعتقد فريق من اليهود أو زعموا أنّ النبيّ يعقوب حين حضرته الوفاة أوصى بنيه بالتمسّك باليهوديّة بكلّ تحريفاتها السائدة في خلال عصر البعثة المباركة، وفي معرض ردّه هذا الزعم والاعتقاد سألهم الله سبحانه هل حضرتم وفاة يعقوب لكي تقولوا مثل هذا القول؟ بل إنّ يعقوب طلب من أبنائه التسليم لله وحده، وقد عاهده أبناؤه على عبادة الله الواحد الأحد، والتسليم لأمره.

□ يستخدم القرآن الكريم كلمة «أب» للتعبير عن الجدّ والعم، فقد قال: ﴿ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾، فإبراهيم هو جدّ أبناء يعقوب وإسماعيل عمّهم.

التعاليم:

١ ـ يجب أن يكون الكلام عن علم ووعي، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾.

٢ ـ كتب الموت على الجميع، بمن فيهم الأنبياء، ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾.

٣ ـ لحظة الاحتضار، أكثر اللحظات حساسية في حياة الإنسان، والدين والعقيدة أكثر الموضوعات أهميّة، والذرّيّة أقرب مخاطب بالنسبة إلى الإنسان، ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

---

(١) كثيرون كانوا أهل إيمان لكنّهم ارتدوا في آخر حياتهم وأصبحوا كفّاراً. ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾، سورة النساء: الآية ١٣٧.

٤ ـ للنصيحة في لحظات الاحتضار تأثير عميق، ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ﴾.
٥ ـ يجب على الآباء أن يهتمّوا بمستقبل أبنائهم المعنوي، فخطر المروق عن الدين يتهدّد حتى أبناء الأنبياء، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾.
٦ ـ وصية جميع الأنبياء هي التسليم لله وحده، ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.
٧ ـ يجب أن نسلّم لأمر الله وحده، ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

إشارات:

- يدور البحث في هذه الآية حول أوهام بني إسرائيل وأخطائهم، ومن جملتها أنّهم كانوا يتباهون كثيراً بمفاخر آبائهم وأسلافهم، لذا، كانوا يعتقدون حتى لو أنّهم أخطأوا فسيرة أسلافهم الصالحة سوف تشفع لهم في غفران ذنوبهم، لذا فهم ناجون بوسيلة أولئك الأجداد، من هنا، تحمل هذه الآية بشدّة على اعتقادهم هذا وتحذّرهم من أنّهم مسؤولون عن أعمالهم، كما أنّ أسلافهم مسؤولون عن أعمالهم.
- وللإمام علي عليه السلام قول بليغ ورد في كتاب غرر الحكم وهو: «**الشَّرَفُ بِالْهِمَمِ الْعَالِيَةِ لَا بِالرِّمَمِ الْبَالِيَةِ**»[1]. ونحن نقرأ في التاريخ سيرة أولئك الذين غيّروا مجرى حياتهم عبر عملهم وجهودهم، فامرأة فرعون أصبحت من أهل الجنّة، ولكن امرأة لوط تدخل النار بسبب عملها الموبق. وليست هذه سوى أمثلة على عدالة نظام الحقّ الإلٰهيّ.
- عن رسول اللّهِ ﷺ أنه قال لِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: «**ائْتُونِي بِأَعْمَالِكُمْ لَا بِأَنْسَابِكُمْ وَ أَحْسَابِكُمْ**»[2].

التعاليم:

١ ـ مستقبل أيّ شخص وأيّ مجتمع مرهون بعمله، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) تصنيف غرر الحكم، ص ٤٤٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٤٢.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «**يهود**» مشتقّة من «**هود**» وهو الرجوع إلى الله والإنابة إليه. وروى صاحب مجمع البحرين ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام وفيه إشارة إلى الآية ١٥٦ من سورة الأعراف ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[(١)]، وكلمة النّصارى من قول النبيّ عيسى عليه السلام «**مَنْ أَنْصَاري إِلَى اللهِ**». و«**حنيف**» من مادّة «**حنف**» أي مال عن الأديان الباطلة إلى الدين الحقّ، والحنف في اللغة: هو ميل القدمين كلّ واحدة إلى أختها. وعكس ذلك «**جَنَف**» التي تعني مال عن الطريق المستقيم نحو الانحراف والاعوجاج.

□ مرّ بنا في الآية ١١٣ من هذه السورة الادّعاءات الفارغة التي أطلقها بعض أهل الكتاب إزاء بعضهم، فاليهود كانت تقول للنصارى: لستم على شيء وكذلك النّصارى كانت تجحد بشريعة اليهود وتقول: إنّها عقيدة فارغة، فكان كلّ فريق يحتكر الحقّ لنفسه ويعتقد أنّه وحده على طريق الهداية والفلاح. إلّا أنّ الحقيقة هي أنّ كلا الفريقين قد سقطوا في مستنقع الشك والترديد، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، وأنّ طريق الحقّ هو طريق إبراهيم عليه السلام الذي لم ينتبْهُ الشك ولو للحظة واحدة.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الحنيفية هي الإسلام**»[(٢)].

التعاليم:

١ ـ لنبتعد عن الانحصارية المنحرفة. فكل من اليهود والنصارى يدّعي من دون

---

(١) يقول الراغب في مفرداته: كان اسم مدح ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح.

(٢) تفسير البرهان.

برهان احتكاره الحقّ وأنّ الهداية مقصورة على اتّباع دينه، ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾.

٢ ـ ليس المهمّ الشهرة والمنصب، بل الإيمان والعمل. فاليهودية والنصرانية ما هي إلّا ألقاب وعناوين، أمّا الشيء المهمّ فهو التوحيد، ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾.

٣ ـ يجب الردّ على الدعاية السيّئة للآخرين، ﴿قَالُوا۟... قُلْ﴾.

٤ ـ لم يكن النبيّ إبراهيم ﷺ من المشركين أبداً، بينما ابتُلي اليهود والنصارى بشيء من الشرك، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

إشارات:

- تأمر الآية الكريمة المسلمين أن يقولوا لمنكري الدعوة: إنّنا قد آمنّا بالله وبجميع أنبيائه الذين أرسلهم بالحقّ، لذا لن ننقاد للأنانيّة أو التعصّبات العنصرية فنؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض. بل إنّنا نؤمن بجميع الأنبياء المرسلين، سواء أولئك الذين سبقوا النبيّ إبراهيم ﷺ مثل آدم وشيث ونوح وهود وصالح، أو الذين جاؤوا بعده مثل سليمان ويحيى وزكريا، كما أنّنا وبحكم العقل نؤمنبكلّ نبي جاء بمعجزة أو بيّنة واضحة خاصّة به.

- «**الأسباط**» جمع «**سبط**» وتعني الحفيد، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، والأسباط هم اثنا عشر من اثني عشر ابناً من أبناء النبيّ يعقوب ﷺ، وفيهم الأنبياء.

- عبارة ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ تعني نؤمن بكل ما نزل على هذين النبيّين، لا بما عندكم من شرائع، ولهذا لم تقل الآية: «وما أوتيتم»، لذا فإنّنا نعارض قولكم ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ وقولكم إنّ سبيل النجاة هو في أن نكون

يهوداً أو نصارى، لأنّ ما عندكم من شرائع مشوبٌ بالانحرافات والخرافات التي أدخلتموها على دين الله، لكنّا نؤمن بالتوراة والإنجيل اللذين نزلا من عند الله لأنّهما يزخران ببشارات ظهور النبيّ الأكرم ﷺ.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ لنا من الإيمان بجميع الأنبياء المرسلين والكتب السماوية، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ...﴾. فالكفر ببعض الأنبياء هو كفرٌ بجميعهم. المسلم الحقيقي هو الذي يؤمن بجميع رسل السماء.

٢ ـ إنّنا نؤمن بما أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، وليس بما يعرض اليوم باسم التوراة والإنجيل، ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

٣ ـ لا بدّ من التسليم العملي إلى جانب الإيمان القلبي، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ... وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

إشارات:

- تؤكد الآية أنّ أهل الكتاب يهوداً ونصارى، إذا تركوا عنادهم وانغماسهم في ذاتيتهم وتمسّكهم بالقضايا العنصرية والقبلية، وتركوا التعصّب الأعمى جانباً، وآمنوا كما آمن المسلمون بجميع الأنبياء والكتب السماوية، فإنّهم بالتأكيد مهتدون. أمّا إذا واصلوا نهجهم السابق واعتبروا أنّهم وحدهم أصحاب الحقّ، والبقيّة في ضلال، فإنّهم بذلك يحاربون الحقّ وينفصلون عنه. كما تطمئن الآية الكريمة المسلمين بأنّهم على الحقّ، وتقول لهم: اطمئنوا للنهج الذي تسيرون عليه، ولا ترعبكم إساءات هؤلاء ولا المؤامرات التي يحيكونها، لأنّ الله سيدفع عنكم شرّهم وأذاهم، ويدافع عنكم ويكفيكم، فهو السميع العليم.

التعاليم:

١ ـ المسلمون هم القدوات للمهتدين الحقيقيين، ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم﴾ لأنّهم يؤمنون بجميع الأنبياء وكتب السماء.

٢ ـ يعلن الله تعالى دعمه المسلمين وكفايته لهم، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ عدم إيمان اليهود أو النصارى، هو بسبب العناد واللجاج والتمرّد لا بدافع المنطق والاستدلال، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾[1].

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

إشارات:

❑ لا بدّ للإنسان من أن يختار في حياته صبغةً (أي ديناً)، وأفضل الصبغات هي الصبغة الإلٰهيّة. ومعلومٌ، أنّنا إذا لم نطرح عنّا صبغات العرق والقبيلة والأهواء، فلن نصطبغ بصبغة الوحدة والأخوة والتسليم لأمر الله تعالى، فكلّ الصبغات تبهت وتضمحلّ بمرور الزمان، إلّا صبغة الله، فهي تبقى برّاقة وشفافة إلى الأبد. ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[2]، وأيّ صبغة أفضل من صبغة الله المتجسّدة في عبادتنا وعبوديّتنا له. وقد ذكر المفسّرون أنّ اليهود كانوا يصبغون أولادهم بماء خاص، فيصطبغ بصبغة دينهم.

❑ إنّ أفضل الصبغات تلك التي تتّصف بالدوام والصفاء، وتجذب نحوها أنظار أولياء الله، إنّها صبغة متجانسة مع صبغة الفطرة والمنطق، صبغة يشتريها الله ويدفع ثمنها الجنّة. كلّ الصبغات، إن عاجلاً أو آجلاً، آيلة إلى الحك والزوال، القبيلة، العرق، النسب، إلّا صبغة الله أي صبغة الإيمان والإخلاص، فهي الصبغة الأبدية التي تبقى على مدى الدهور.

❑ جاء في الحديث أنّ رجلاً نقب في جدار منزله، فسأله الإمام الصادق عليه السلام عن

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الشقاق هو الكفر. تفسير مجمع البيان؛ تفسير راهنما.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٨.

سبب ذلك؟ فأخبره أنّه فعل ذلك ليُخرِج الدخان من المنزل، فسأله الإمام لمَ لا يكون ذلك من أجل معرفة أوقات الصلاة، أو من أجل دخول النور إلى المنزل[١]. نعم، يمكن أن نضفي على كلّ عمل صبغة إلٰهيّة.

- طريق الله واحد، ولكن إذا لم تكن الصبغة إلٰهيّة، فإنّ الإنسان سيحتار ويضطرب في خضمّ الصبغات المتعدّدة، أمّا الانصهار في الجماعة التي ابتلي أكثر أفرادها بالانحراف فهو عامل افتضاح وذلّة في يوم القيامة.

التعاليم:

١ ـ صبغة الله هي الإيمان به وبأنبيائه وكتبه السماوية. جاء في الآيات السابقة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾، وفي هذه الآية: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾.

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾

إشارات:

- تطلق هذه الآية صرخة تحذيرية بوجه أهل الكتاب حتى يكفّوا عن مزاعمهم الواهية، إذ كانوا يقولون: نحن المقرّبون إلى الله أو نحن أبناء الله أو أحباؤه أو خاصّته. وكان بنو إسرائيل يعتقدون بأنّ الأنبياء يجب أن يكونوا من بني جلدتهم، وكانوا يرون أنّ دينهم أقدم الأديان، وأنّ كتابهم (التوراة) أعرق الكتب السماوية، إذن فهم، بحسب ظنّهم، الأعلون وأنّ الألطاف الإلٰهيّة تختصّ بهم وحدهم، ولذلك كانوا يحاجّون المسلمين من منطلق هذه الأوهام والمزاعم.

التعاليم:

١ ـ زمام البشرية جمعاء بيد الله. لطفه شمل الجميع، وله إذا شاء، أن يخصّ به أيّ قوم أو عرق، ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾

(١) آية الله جوادي آملي، التفسير الموضوعي، ج ٥، ص ١٣٢.

٢ ـ العبادة الخالصة وتنزيه الله من أيّ شريك معيار القرب منه، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

إشارات:

□ تحمل هذه الآية على أهل الكتاب بسبب مباهاتهم بيهوديّتهم ونصرانيّتهم لدرجة أنّهم مستعدّون لتوجيه أعظم الافتراءات إلى أطهر أولياء الله؟! ومن هذه الافتراءات أنّهم يقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء من ذرّيّة يعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى في حين أنّهم سبقوا نزول التوراة والإنجيل. أليس بظلمٍ كبير أنّكم تعلمون الحقائق التاريخية علم اليقين وتكتمونها عن عامّة الناس، وتوهمونهم أنّ جميع الأنبياء كانوا من اليهود أو النصارى؟ ولكن اعلموا أنّ الله لا يخفى عليه ما تعملون.

التعاليم:

١ ـ حين ينتهج المرء طريق التعصّب يصل به الأمر إلى مرحلة يحرّف معها أو يتنكر للحقائق التاريخية الواضحة، ﴿أَمْ تَقُولُونَ...﴾.

٢ ـ أفدح الظلم هو الظلم المعرفي وكتمان الحقائق، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ﴾.

٣ ـ إحاطة الله بالكتمان والظلم هو بمثابة إنذار لنا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ اجترار مفاخر الآباء والأجداد لا يفيد في بلوغ السعادة، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾.

إنّ الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

٢ ـ كلّ أمّة مسؤولة عن أعمالها، ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الجزء الثاني

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

إشارات:

- لقد صلّى الرسول الكريم ﷺ والمسلمين طيلة ثلاثة عشر عاماً التي تلت بعثته في مكة صوب القبلة الأولى في بيت المقدس، لكن بعد هجرته إلى المدينة ببضعة أشهر أخذ اليهود يحاجّون المسلمين ويفخرون عليهم بأنّهم يتبعون دينهم وأنّهم غير مستقلين مستدلّين بأن صلاة المسلمين صوب قبلتهم في بيت المقدس. كان الرسول الكريم ﷺ يتألّم لهذه الأقوال والإساءات، فأصبح يدعو ويقلّب وجهه في السماء انتظاراً للوحي، واستمرّ على هذا الحال حتى نزل الوحي يأمره بتغيير القبلة، وكان الرسول الكريم ﷺ يصلّي صلاة الظهر صوب بيت المقدّس، وما أن أتمّ ركعتين حتى نزل الأمر الإلٰهيّ حين كان الرسول الكريم ﷺ والمسلمون يؤدّون الصلاة فأخذ جبرائيل بعضد الرسول الكريم ﷺ وأدار وجهه صوب الكعبة. فكان أن صلّى صلاة واحدة صوب قبلتين، ولا يزال هذا المسجد الذي صلّى فيه النبيّ الكريم ﷺ صلاته تلك قائماً إلى يومنا هذا في المدينة المنوّرة، ويعرف بمسجد القبلتين[١]. بعد هذا التغيير، غضب اليهود وبدأوا كعادتهم في توجيه الاعتراضات، فإلى الأمس القريب كانوا يقولون إنّ المسلمين غير مستقلّين، وأنّهم يتبعون ديننا، واليوم أصبحوا يسألون عن السبب الذي جعل المسلمين يعرضون عن قبلة الأنبياء السابقين؟ فجاء الرد الإلٰهيّ على لسان الرسول الأكرم ﷺ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وأنّ الله تعالى لا يحدّه مكان خاص.

نعم، إنّ تغيير القبلة دليل على الحكمة الإلٰهيّة، لا ضعفه أو جهله (والعياذ بالله)، كما أنّ تغيير فصول السنة في نظام التكوين هو دليل تدبير لا ضعف أو ندم.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٣٦.

□ إنّ الله تعالى حاضر ولا يحدّه مكان، وله الشرق والغرب على السواء، إلّا أنّ التوجّه نحو الكعبة هو رمز لتوجّه القلب إلى الله. وكثيرون هم الذين يستقبلون الكعبة في صلاتهم، بيد أنّ قبلتهم في مكان آخر.

التعاليم:

١ ـ السفيه هو من يختلق الأعذار في كل يوم ليفرّ من صوت الحقّ[1]، ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

٢ ـ من يعتقد أنّ يد الله مكبّلة عن وضع الأحكام أو تغييرها، فهو سفيه وخفيف العقل. فالاعتراض على الله الحكيم العليم دليل على السفه، ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

٣ ـ ينبغي للمسلمين أن يتهيّأوا للمؤامرات والإشاعات وأقاويل العناد واللجاج ويردّوا عليها، ليحولوا دون انتشارها، وليئدوا الفتنة في مهدها، ﴿سَيَقُولُ... قُل﴾.

٤ ـ لا إشكال في طرح الأسئلة، إنّما الإشكال على نفسيّة السائل التي تنمّ عن نوايا الاعتراض والتشكيك، ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾.

٥ ـ قدسية الأماكن والأزمنة وفضيلتها مرتبطة بعناية الله لا بشيء آخر، ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

٦ ـ تغيير القبلة كان أحد بشائر ظهور النبيّ الكريم ﷺ في الكتب السماوية، لذلك كانت هذه الحادثة سبباً لهداية البعض، ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

إشارات:

□ كان النصارى ـ حيث يعيش معظمهم في الغرب ـ أثناء العبادة يولّون وجوههم

---

(١) وقد وصفت الروايات من يبيع آخرته بدنياه بالمجنون، وأتباع القائد الفاسد بالفقراء، ومن يضيع دينه بالمسلوب.

صوب قبلتهم في الشرق حيث مسقط رأس النبيّ عيسى عليه السلام في بيت المقدس، أمّا اليهود ـ الذين يعيشون في الشرق ـ فكانوا يتّجهون نحو بيت المقدس في الغرب. أمّا الكعبة فهي تتوسّط هذين الاثنين، وهذا ما يُفهم من إشارة القرآن الكريم هنا إلى هذا الموضوع بالقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. وللمفسّرين آراء أخرى ذكرت في ذيل هذه الآية، إذ قال بعضهم في تفسير ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ إنّها الأمة المعتدلة في العقيدة البعيدة عن الغلوّ والتقصير، التي لا تنحو منحى الجبر ولا التفويض، غير قائلة بأصالة الفرد، ولا بأصالة المجتمع.

مع ذلك، فإنّه من خلال عرض بعض الإشارات، سوف يتوضّح لنا أنّ مراد الآية الكريمة من الأمّة الوسط هم أفراد خواص، وهذه الإشارات هي:

١ ـ يقول القرآن الكريم عن الأمة الوسط إنّها الشاهدة على الأعمال، لذا، فهي شاهدة على أعمال الناس في يوم القيامة.

٢ ـ الشهادة على الأعمال تحتاج إلى العلم والمعرفة والعدل.

٣ ـ ليس جميع أفراد الأمّة حائزين على شرط العدالة والمعرفة.

لما تقدّم نقول، جاء في الروايات أنّ المراد بالأمة الوسط هم الأئمة المعصومون عليهم السلام، وذلك لأنّهم، أوّلاً محيطون بجميع الأعمال، وهو ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

والمؤمنون الذين يرون أعمال الناس ويحيطون بها علماً هم، طبقاً لمضمون الروايات، الأئمة المعصومون. ثانياً، يتوافرون على شرط العدالة، وقد شهد الله تعالى لهم بالعصمة والعدالة في قرآنه الكريم بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢].

ولذا يروى عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه كان يسأل هل يعقل أن تشهد أمّة على أعمال الخلائق يوم القيامة، وبعض أفرادها ليسوا أهلاً للشهادة في نزاع على حفنة من التمر في الدنيا[٣]. على أيّ حال، فإنّ مقام الشهادة على أعمال الناس

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٣٥.

في يوم القيامة وبين يدي الله تعالى مقام رفيع لا يبلغه إلّا بعض أفراد الأمّة ممّن خصّه الله بالفضل والسموّ، ومَنْ غيرُ الأئمّة المعصومين عليهم السلام أحقّ بهذا الفضل والتشريف، وذلك بشهادة الروايات.

يبقى سؤال يحتاج إلى توضيح وهو: إذا كان الأمر كما نقول، فلماذا قال الله تعالى في الآية الكريمة «أمة» ولم يذكر أسماء بعض الأفراد؟

في الجواب نقول: لقد سبق للقرآن أن وصف شخصاً واحداً بوصف «الأمة» كما في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[١].

الحكمة من تغيير القبلة

- طُرحت آراء عدّة حول الحكمة من مسألة تغيير القبلة؛ فالبعض قال إنّ اختيار بيت المقدس كقبلة للمسلمين في المرحلة الأولى كان الهدف منه كسب تعاطف اليهود للدخول في الدين الجديد، ولمّا قويت شوكة المسلمين وصار يُحسب لهم ألف حساب، انتفت الحاجة لمثل هذا الأمر. فيما ذهب آخرون إلى القول: إنّ الانشداد إلى الوطن الأم أي مكّه هو العامل الرئيس وراء تغيير القبلة، لكنّنا نقول: إنّ هذه الآراء إن هي إلّا أوهام لا صلة لها بالحقيقة، لأنّ ما يقوله القرآن الكريم في هذا الشأن يتعارض مع هذه الآراء، من خلال تأكيده أنّ تغيير القبلة كان امتحاناً إلهياً لتمييز المؤمنين الحقيقيين بالنبي الكريم صلى الله عليه وآله عن غيرهم، ذلك أنّ مذبذبي الإيمان شرعوا بالتشويش على أسباب تغيير القبلة بمجرّد نزول الأمر الإلٰهيّ بذلك، وأخذوا يشكّكون ويطرحون الأسئلة التي لا طائل منها، مثل: إلى أين ستؤول عباداتهم وأعمالهم قبل التغيير؟ إذا كانت القبلة الأولى صحيحة فلماذا الأمر بتغييرها؟ إذا كان الأمر الجديد هو الصحيح فماذا بشأن الأمر القديم؟ والكثير غيرها. بيد أنّ هذه الأسئلة كلّها لا تؤثّر في إرادة الله فقد بشّر المؤمنين بأنّه لا يضيع أعمالهم في الماضي لأنّها كانت امتثالاً لأوامره.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٠.

□ ونلاحظ في الآية التي نحن بصددها أنّها استخدمت كلمة الإيمان بدلاً من الصلاة والتي تشير إلى أهميّة الصلاة ومنزلتها المعادلة للإيمان كلّه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾.

التعاليم:

١ ـ أولياء الله شهداء على أعمالنا، ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ﴾.

نعم، إنّ بعض الأفراد تتيح لهم مكانتهم السامية الشهادة على أعمال الناس والاطلاع على بواطنهم على مرّ التاريخ.

٢ ـ في يوم القيامة هناك سلسلة تراتبية. فمحكمة يوم القيامة عبارة عن تشكيلات منظّمة، حيث يدلي الأئمة أوّلاً بشهاداتهم على أعمال الناس ثم يشهد النبيّ الكريم ﷺ على الأئمة، ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾.

٣ ـ الامتحان الإلٰهيّ سنّة مؤكّدة، فالله تعالى يبتلي الناس أحياناً من خلال تغيير الأوامر، ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ...﴾.

٤ ـ اتّباع تعاليم الدين مدعاة للسموّ والكمال، أمّا التمرّد عليها ـ بنحوٍ ما ـ حركة رجعية، ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾.

٥ ـ حذار من تعوّد أشياء غير الالتزام بأوامر الله، أشياء من قبيل الوجهة واللون والزمان والمكان والأساليب الخاصّة، لكيلا نحاول الفرار أو تبرير الأوامر حينما تتعارض مع توقّعاتنا أو عاداتنا أو طبائعنا، ﴿لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾.

٦ ـ إنّ مقام التسليم مسؤولية ينوء بحملها الأشخاص العاديّون: ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ولا يبلغ هذه المنزلة الرفيعة إلّا من حظي بالهداية الإلٰهيّة الخاصة، ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾.

٧ ـ الإسلام يجبّ ما قبله، فالقوانين والتعاليم ليس لها أثر رجعي. إذا صدر اليوم أمر بتغيير القبلة، فالصلوات قبل ذلك تكون صحيحة، ولكن ابتداءً من

اليوم يجب أن نتّجه في صلاتنا إلى القبلة الجديدة، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾.

٨ ـ جميع التغييرات والتحوّلات التكوينية والتشريعية تنشأ من رحمة الله تعالى ورأفته، ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾

إشارات:

- نستشفّ من هذه الآية الكريمة أنّ رسول الله ﷺ كان يترقّب بشوق نزول الوحي عليه ليعلمه بتغيير جهة القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة، وهو وعد إلهي لنبيّه، غير أنّ الرسول الكريم لم يكن يقول شيئاً لحظة الدعاء بل كان ينظر إلى السماء حتى نزلت الآية التي تأمره وجميع المسلمين بأن يصلّوا باتّجاه المسجد الحرام والكعبة المشرّفة. وبالنسبة إلى أهل الكتاب واليهود فقد كانوا مطّلعين على حقانيّة هذا التغيير حيث قرأوا في كتبهم من قبل أنّ نبي الإسلام يصلّي باتجاه قبلتين، لكنّهم كتموا هذه الحقيقة، بل لعبوا دوراً تحريضياً من خلال بثّ الشبهات وإثارة الأسئلة حول هذا التغيير، حتى صدر بشأنهم تهديد صارم من الله تعالى، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾[1].
- عدّة دلائل تفسّر رضا النبيّ الكريم ﷺ وسرورة بتغيير القبلة إلى الكعبة المشرّفة من بينها:

أ) الكعبة كانت قبلة النبيّ إبراهيم عليه السلام.

ب) لقد استراح النبيّ من حملات التجريح والسخرية والإساءة التي كان اليهود يشنّونها ضدّه.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

ج) برهن التغيير على استقلال المسلمين.

د) عاد الاهتمام من جديد إلى مركز التوحيد الأوّل أي الكعبة.

□ إنّ حادثة تغيير القبلة كانت من الأهميّة بحيث تكرّر أمر الآية مرّتين بضرورة التوجّه إلى الكعبة، في المرّة الأولى مخاطبةً الرسول الأكرم ﷺ بلفظ ﴿وَجْهَكَ﴾، وفي الثانية: موجّهة خطابها إلى المسملين بكلمة ﴿وُجُوهَكُمْ﴾.

التعاليم:

١ ـ السماء مصدر نزول الوحي ومرمق الأنبياء، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

٢ ـ الله عليم بحوائج الناس، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ﴾.

٣ ـ تشريع الأحكام وتغييرها بيد الله تعالى، ولا يشرّع الرسول الكريم ﷺ حكماً من عنده، ﴿فَوَلُّوا...﴾.

٤ ـ انظر إلى الأدب الجمّ الذي يتحلّى به الرسول الأعظم ﷺ، فهو لم يدعُ بلسانه بتغيير القبلة، بل طرح ما في نفسه من خلال نظراته إلى السماء، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾.

٥ ـ الله تعالى يريد رضا نبيّه الكريم، ورضا الله من رضا الرسول ﷺ، ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ﴾.

٦ ـ القرآن الكريم يهدّد ويتوعّد العلماء الذين يعلمون الحقيقة لكنّهم يمارون ويجادلون، ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ... وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

٧ ـ يجب أن لا نشدّد تعاليم الدين على الناس. كلمة «شطر» تعني السمت أو الجانب، بمعنى يكفي أن تولّوا وجوهكم نحو سمت المسجد الحرام ولا يلزم محاذاة الكعبة المشرّفة لأنّ ذلك متعذّر أو متعسّر للبعيد، ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

إشارات:

□ مرّة أخرى يذكر القرآن الكريم عناد ولجاج أهل الكتاب، ويقسم[1] بأنّه مهما قُدّمت لهم من آيات وبراهين، فلن ينصاعوا للإسلام ولن يتوجّهوا إلى قبلته، ذلك أنّهم أدركوا الحقيقة، وأعرضوا عنها عن سابق إصرار وقصد.

□ إنّ التهديدات والتحذيرات التي يوجّهها القرآن الكريم إلى النبيّ الكريم ﷺ، تهدف إلى منع ظهور أو تنامي الغلوّ والدخول في متاهات تأليه أولياء الله. كما غالى أتباع الأديان الأخرى فاعتبروا النبيّ عيسى عليه السلام ابن الله، وقال آخرون: إنّ الملائكة بنات الله.

التعاليم:

١ ـ اللجاج والعصبيّة حجاب دون الفكر والاستدلال والوصول إلى الحقّ. لم يكتفِ هؤلاء بتعصبّهم ضدّ الإسلام بل أظهروا العناد واللجاج حتى في ما بينهم، ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ... وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

٢ ـ يجب عدم الاستسلام في مقابل الضجّة والغوغائية التي يثيرها الأعداء، بل يلزم الحزم ليأس الأعداء، ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ﴾.

٣ ـ لليهود قبلتهم وللنصارى قبلتهم، ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

٤ ـ انحراف العلماء جدّ خطير، ﴿... مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

٥ ـ لا ينفع العلم وحده لهداية الإنسان، بل تلزمه روحيّة التسليم للحقّ، فاليهود كانوا أصحاب كتاب، لكنّ تعصّبهم كان حجاباً حال دون استفادتهم من علم الكتاب، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

---

(١) اللام في «لئن» هي جواب القسم.

٦ ـ ليس للنبي أن يغيّر الأحكام الإلٰهيّة إرضاءً لأهواء الناس، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٧ ـ شريعة الإسلام تنهل من نمير العلم الحقيقي، ﴿جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٨ ـ القوانين الجديرة بالاتّباع هي الخالصة من الأهواء النفسانية والقائمة على أسس العلم، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾

٩ ـ القانون يسري على الجميع، حتى النبيّ إذا اتّبع ـ فرضاً ـ أهواءه سيتعرّض للحساب، ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾.

١٠ ـ اتّباع أهواء الناس مع وجود الشرائع الإلٰهيّة، ظلمٌ، ﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

إشارات:

- دأب القرآن الكريم على التذكير مراراً بأنّ أهل الكتاب كانوا ينتظرون ظهور نبي جديد طبقاً لبشارات التوراة والإنجيل، وكانوا يستعرضون مواصفات هذا النبيّ ويعرفونها كأنّهم يستعرضون مواصفات أبنائهم، ولكن مع ذلك، كان فريق منهم يخفون الحقّ ويكتمونه. يذكر القرآن في موضع آخر أنّهم لم يكونوا يخبرون عن مواصفات النبيّ فحسب، بل عن مواصفات أتباعه أيضاً، فقد ورد في القرآن الكريم نقلاً عن كتبهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾(١).
- معرفة أهل الكتاب الدقيقة بالنبي يشبّهها القرآن الكريم بمعرفة الأب ابنَه، وهي بالطبع أوثق المعارف وذلك:

ـ لأنّه يعرفه منذ ولادته بل وقبل ذلك.

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

- معرفة شيء يحمل معه آمال وتوقّعات.
- معرفة لا يرقى إليها الشك.

□ كتمان العلم ذنب عظيم، يقول القرآن عن الذين يكتمون الحقّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[1] نعم، إنّ كتمان الحقّ مثل كتمان معرفة الابن، ويا له من غدر عظيم أن ينكر الوالد معرفة ابنه ليقضي وطراً من الدنيا!

التعاليم:

١ ـ لا خير في معرفة تفتقد روحَ طلب الحقّ. فاليهود كانوا يعرفون الرسول الكريم ﷺ حقّ المعرفة، إلّا أنّهم تنكّروا له، ﴿يَعۡرِفُونَ... لَيَكۡتُمُونَ﴾.

٢ ـ لا بدّ من مراعاة الحقّ والإنصاف حتى مع الأعداء. فالقرآن الكريم لم يعمّم مسألة كتمان الحقّ على جميع أهل الكتاب، ﴿فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ﴾.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾

التعاليم:

١ ـ الحقّ ما صدر عن منبع العلم الإلٰهيّ اللامتناهي، ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢ ـ لا مجال للمراء بشأن الأوامر والتعاليم الإلٰهيّة النازلة بطريق الوحي أو الروايات المتواترة، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

٣ ـ يجب أن يتّصف القائد بالحزم واليقين، لا سيّما عند تغييره للقوانين أو السنن، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾

إشارات:

□ لكلمة «وجهة» معنيان هما: القبلة والطريق. فإذا حملنا الكلمة على المعنى

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

الأول، على غرار ما فعل معظم المفسّرين، فيكون تفسيرها كما تقدّم، أمّا إذا حملناها على المعنى الثاني وهو الطريق، فسيكون تفسيرها أنّ لكلّ إنسان أو جماعة طريق كتب عليه أن يسلكه لا محالة، وهو المعنى نفسه الذي ورد في الآية ٨٤ من سورة الإسراء: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾.

- وقد قال بعض المفسّرين بأنّ المراد من ﴿هُوَ﴾ في ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ الله سبحانه، وفي هذه الحال يصبح معنى الآية: لكلٍّ قبلة الله مولّيها إيّاه.

- إنّ المبادرة إلى الخيرات، تزيد من قيمتها وثوابها، فقد درج القرآن الكريم على استعمال كلمات من قبيل ﴿وَسَارِعُوٓا﴾، ﴿سَابِقُوٓا﴾، ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ للإشارة إلى المسارعة في أعمال الخير. وفي ثنائه على الأنبياء يذكر القرآن الكريم: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[1].

- ورد في ذيل هذه الآية: أنّ المقصود هم أصحاب المهدي عليه السلام إذ يجتمعون حوله من كلّ حدب وصوب حين ظهوره[2].

التعاليم:

١ ـ لكلّ ملّة قبلة، وهذه المسألة لا تخصّ المسلمين وحدهم، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾.

٢ ـ فلندع جانباً الموضوعات التي لا طائل منها، ونوجّه اهتمامنا نحو أعمال الخير، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

٣ ـ ليكن تنافسنا في أعمال الخير بدلاً من التنافس والتسابق في القضايا المادّية، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

٤ ـ في يوم القيامة سوف يحشر الله الجميع في مكان واحد، وهذا بلا شك دليل على قدرة الله وعظمته، ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٠.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٣٩.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)﴾

إشارات:

□ في الآيات السابقة، كان التوجّه صوب المسجد الحرام مرتبطاً بالمدينة المنورة حيث كان المسلمون يقطنون فيها، فيما تقول هذه الآية إنّه في الترحال أيضاً يجب أن تولّي وجهك صوب المسجد الحرام.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾

إشارات:

□ ورود موضوع تغيير القبلة في آيات عدّة، دليل على أهميّته. فضلاً عن أنّه في كلّ مرّة يذكر، إلى جانب موضوع تغيير القبلة، أحكاماً أخرى جديدة. في هذه الآية مثلاً، بعد أن يأمر الله تعالى أن يولّي النبيّ والمسلمين وجوههم صوب المسجد الحرام، يقول: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وذلك لعلم أهل الكتاب بأنّ من بشارات النبيّ الكريم ﷺ المذكورة عندهم أنّه يصلّي إلى القبلتين، ولو لم يتحقّق هذا الأمر، لكانت حجّتهم أنّ النبيّ المبعوث لا يمتلك المواصفات المذكورة في الكتب السماوية السابقة، أو أنّهم كانوا يوجّهون سهام ألسنتهم إلى المسلمين ويحقّرونهم متذرّعين بأنّهم يتبعون ملّتهم وأن ليس لهم قبلة مستقلّة بهم. لم يكن هذا النقد، بطبيعة الحال، موجّهاً من قبل اليهود فقط، بل كان للمشركين نصيب فيه أيضاً حيث كانوا يقولون إنّ النبيّ الكريم ﷺ يتبع ملّة إبراهيم عليه السلام، فكيف يترك البيت الذي بناه إبراهيم ولا يتوجّه إليه؟ ناهيك عن أنّ المنافقين أيضاً لم يهدأ لهم بال منذ نزل أمر تغيير القبلة، فكانوا يثيرون الشبهات والطعون بقولهم: إنّ النبيّ الكريم ﷺ له في كلّ يوم رأي. على أيّ حال، إنّ الله تعالى، من خلال تأكيده في القرآن الكريم

موضوع التغيير وتكراره إيّاه، أراد أن يهيّئ المسلمين نفسيّاً ويثبّت أقدامهم ويبعث العزم واليقين في نفوسهم، مذكراً إيّاهم بأنّ من يسعى وراء الحجّة والمنطق لن يتعرّض لكم بالأذى والنقد، أمّا الظالمون الذين يكتمون الحقيقة فإنّهم لن يكفّوا عن اللجاج والبحث عن الأعذار الواهية، لذا، لا تلقوا إليهم بالاً، ولا تخشوهم واخشوا الله وحده.

- القبلة هي رمز التوحيد، وهي علامة المسلمين المميّزة، وصف الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة الكعبة بأنّها علم الإسلام وعلامته المميّزة[١]. فعبدة الأصنام أو النجوم يتوجّهون إلى الأصنام أو النجوم للابتهال، فيما وضع الإسلام الكعبة المشرّفة لتكون محطّاً لأنظار أتباعه، وأنّ التوجّه صوب القبلة بمثابة التوجّه إلى الله. نقرأ في الروايات أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كان عادةً ما يجلس ووجهه صوب القبلة، وقد أوصى بأن يستقبل المسلم القبلة في نومه وجلوسه، مبيّناً أنّ ذلك يعتبر عبادة. للقبلة منزلة واحترام خاصّ، واستقبال القبلة، في بعض الأعمال، يعتبر واجباً، مثلاً، يجب استقبال القبلة في الصلوات اليومية الواجبة، وكذلك عند ذبح الحيوان، ودفن الميت، ويحرم استقبال القبلة أو إدبارها في بيت الخلاء. إضافة إلى كلّ ما ذكر، فإنّ القبلة تعدّ رمزاً لوحدة المسلمين، فإنّك إذا حلّقت فوق الكرة الأرضية لوجدت المسلمين يتّجهون صوب القبلة خمس مرّات في اليوم يجمعهم نظام وترتيب خاصّ. لطالما كانت الكعبة المشرّفة مركزاً وقاعدة لانطلاق الحركات والثورات الإلٰهيّة منذ النبيّ إبراهيم عليه السلام مروراً بالنبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسبطه الحبيب الإمام الحسين عليه السلام وصولاً إلى الإمام المهدي عجل الله فرجه حينما يظهر ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كلّ هذه النهضات الإلٰهيّة انطلقت مسيرتها من جوار الكعبة. ويكفي الكعبة عظمة وشرفاً تسمية المسلمين بأهل القبلة.

- يقول الله تعالى في حادثة تغيير القبلة: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾، أي، تحقيق استقلالكم وتوجّهكم صوب الكعبة هما الأرضيّة لإتمام النعمة في المستقبل، ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي﴾.

---

(١) انظر: نهج البلاغة، الخطبة ١.

وقعت هذه الحادثة في المدينة المنوّرة في السنة الثانية للهجرة. وتكرّرت العبارة في السنة الثامنة للهجرة بمناسبة فتح مكة حيث قال الله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾[١]، بمعنى، أنّ هذا الفتح هو ليتمّ الله نعمته عليكم، ونلاحظ في كلتا الآيتين ورود عبارة «**إتمام النعمة**» في صيغة المستقبل، بينما جاءت في الآية الثالثة من سورة المائدة بصيغة الماضي، والتي نزلت بمناسبة عودة النبيّ من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، أي بعد الإعلان في منطقة غدير خم عن الخليفة المعصوم للنبي، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾.

ولنا أن نتوقّف قليلاً هنا لنتأمّل أنّ الله سبحانه وصف توجّه الناس صوب القبلة بالخطوة الأولى نحو إتمام النعمة، وتمثّلت الخطوة الثانية في فتح مكة، لتتمّ النعمة في الخطوة الأخيرة وهي الإعلان عن القائد والخليفة.

وما يجدر ذكره هو أنّه خلال حادثة تغيير القبلة وتنصيب الخليفة القائد، تطلق الآية تحذيراً قائلةً ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾، وذلك لأنّ احتمالات المقاومة والرفض والمواجهة والتعنّت وبثّ الشائعات من قبل المناوئين كانت واردة.

نقل عن النبيّ الأكرم ﷺ أنّه قال: «**يا علي مثلك في الأمّة كمثل الكعبة نصبها الله للنّاس علماً**»[٢].

كما ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**ونحن كعبة الله ونحن قبلة الله**»[٣].

التعاليم:

١ ـ على المسلمين أن يمتنعوا عن القيام بأيّ عمل يوفّر الحجج والأعذار للأعداء، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

٢ ـ رفض هيمنة الآخرين وتحقيق الاستقلال يمثّل قيمة، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

(١) سورة الفتح: الآية ٢.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٨٣.
(٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢١١ و٣٠٣.

٣ ـ تغيير القبلة أخرَسَ الحجج الواهية لأهل الكتاب والمشركين والمنافقين وتعنّتهم، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

٤ ـ أعداء الخارج ليسوا الخطر الأكبر، بل الخطر كلّ الخطر في عدم التقوى، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

٥ ـ تحديد قبلة خاصة للمسلمين كان مقدّمة لإتمام نعمة الله عليهم، ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾.

٦ ـ تحديد القبلة والصلاة صوب المسجد الحرام، مقدمة لهداية المؤمنين، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٧ ـ للهداية مراحل، فالآية الكريمة تخاطب المسلمين المهتدين، إذن، المقصود الوصول إلى مراحل أعلى من ذلك، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

إشارات:

□ **«التلاوة»** مشتقّة من مادة «تلو» أي إتيان الشيء متوالياً، وتقال أيضاً للإتيان بالعبارات المتوالية وبنظام صحيح بما تحوي نوعاً من القداسة. و**«التزكية»** من الزيادة والنماء والطهر. وتعليم الكتاب، أي تعليم الآيات والأحكام الإلٰهيّة، أمّا تعليم الحكمة فهو التفكر والتأمّل الصحيح.

□ جاءت بعثة النبيّ الأكرم ﷺ كاستجابة لدعاء النبيّ إبراهيم عليه السلام لربّه حين قال: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ...﴾[1]، وكان النبيّ الكريم ﷺ يقول أيضاً: **«يَا عَلِيُّ أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيم»**[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٦٩.

التعاليم:

١ ـ القائد الفذّ هو الذي يعتبر نفسه من الشعب وفي أوساط الشعب ويتحدّث بلسان الشعب، ﴿أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾.

٢ ـ التزكية مقدّمة على التعليم، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ﴾.

٣ ـ تعليم الدين هو المحور الأصلي، ومن ثمّ تليه التعاليم الأخرى. فقد ذكرت الآية أوّلاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ثمّ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ يحتاج الإنسان إلى الوحي لمعرفة الكثير من الحقائق. بدلاً من القول ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ ليبيّن أنّه لولا الأنبياء لما اطلع الإنسان على مسائل مثل مصيره ومصير العالم.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾

إشارات:

□ يقول الله تعالى في بعض الآيات: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾[1] فيما يقول في هذه الآية: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾. ويعود ذلك إلى مراتب المعرفة والعلم لدى الناس. صحيح أنّ ذكر الله مقدّمة للشكر، لذلك، هي مقدّمة على الشكر، إلّا أنّ روعة هذه الآية في كونها تجسّد منتهى اللطف والتكريم الإلهيّ للعبد، ذلك أنّه سبحانه يقرن ذاته المقدّسة المتّصفة بالعلم والغنى والبقاء والعزّة بالإنسان، هذا العبد الذي يتّصف بالجهل والفقر والفناء والحقارة، فأيّ تكريم للإنسان أرفع من هذا الذي تحمله عبارة: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، بل أيّ قيمة لذكرنا؟ أوليس ذكرنا له إنّما هو لطف يمنّ به علينا؟

□ من المعلوم أنّ ذكر الله ليس باللسان وحده، بل يجب التوجّه إليه بالقلب

(١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

والروح. فالذكر الحقيقي هو أثناء المعصية وتركها. وربّما تكون الصلاة أفضل أنواع الذكر، إذ قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1].

□ على الرغم من أنّ الشكر هو من أمثلة ذكر الله، فإنَّ ورود اسمه مستقلاً إلى جانب الذكر يحمل دلالة على أهميّة الشكر باعتباره المثال الأبرز للذكر.

□ إنّ الله يعقد صفقات مع عبده، ولا يترك أيّ عمل للإنسان من دون أجر: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾[2]، ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾[3].

□ روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه اعتبر في تفسير هذه الآية، أنّ أحد أمثلة ذكر الله تسبيحات السيدة الزهراء عليها السلام، والمؤلّفة من ٣٤ مرّة **الله أكبر**، و٣٣ مرّة **الحمد لله** و٣٣ مرّة **سبحان الله**[4].

□ أما وقد تحدّثنا عن الذكر، فمن الضروري أن نستعرض حجب الذكر وموانعه وهي:

أ) الشيطان، ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾[5].

ب) التكاثر والتنافس، ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[6].

ج) الآمال والأحلام، ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾[7].

أمّا بركات ذكر الله تعالى فهي:

- ذكر نعم الله، سرّ معرفته وشكره سبحانه.
- ذكر قدرته الأزلية، سرّ التوكل عليه.
- ذكر علمه، سرّ حيائنا وتقوانا.
- ذكر ألطافه، سرّ محبتنا له.
- ذكر عدله، سرّ خشيتنا منه.
- ذكر مدده، سرّ أملنا ورجائنا.

---

(١) سورة طه: الآية ١٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ٤٠.
(٣) سورة المجادلة: الآية ١١.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٤٠.
(٥) سورة المجادلة: الآية ١٩.
(٦) سورة التكاثر: الآية ١.
(٧) سورة الحجر: الآية ٣.

التعاليم:

١ ـ الله يكرم شخصيّة الإنسان ويرفع منزلته عالياً بقوله عزّ من قائل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

٢ ـ ذكر الله ونعمه، مقدّمة للشكر والثناء، كما أنّ الغفلة عن ذكره توجب الكفران، ﴿فَاذْكُرُونِي... وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

إشارات:

- ورد ما يشبه هذه الآية في هذه السورة نفسها[1]، حين خاطب الله تعالى بني إسرائيل قائلاً: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، وهنا أيضاً يخاطب الله المسلمين بأن يصبروا على حوادث الحياة ومصاعبها ويستعينوا عليها بالصبر والصلاة، نعم، بالنسبة إلى الآلام المتشابهة نحتاج إلى دواء واحد. أساساً، إنّ الإنسان ذا القدرات المحدودة، إذا لم يكن مرتبطاً بالقدرة الإلٰهيّة اللامتناهية، فإنّه سرعان ما يفنى ويتلاشى في النوائب والمصائب المفجعة. إنّ الإنسان المرتبط بالله تعالى، لا ينهار ولا ينهزم في الحوادث والملمّات، بل تصغر في عينه المصائب. إنّ المصلّي الذي يستحضر معاني الخشوع في صلاته، ينطلق في رحلة العروج إلى الله. وكلما كان عروجه الروحاني أعظم وأعلى، هانت في عينه مشاكل الدنيا ومسرّاتها.
- إذا كان الإنسان في يسرٍ فعليه أن يعمل بالآية السابقة: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾، ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾، وإذا كان في عسر فينبغي له أن يستحضر هذه الآية الكريمة: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾.
- يبشّر الله تعالى الصابرين بالقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ولم يقل مع المصلّين، ذلك أنّ الصلاة تحتاج إلى الصبر والثبات[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٢) تفسير روح المعاني.

□ وقد ورد في الروايات أنّ علياً: «**كان إذا أهاله أمر فزعٌ قام إلى الصلاة**[١] ثمّ تلا هذه الآية، ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ...﴾». وكذلك كانت سيرة الفيلسوف المسلم ابن سينا.

□ فالصبر مصدر كلّ الفضائل.

- الصبر في القتال دليل على الشجاعة.
- الصبر عن المعصية، وسيلة للتقوى.
- الصبر عن الدنيا، علامة على الزهد.
- الصبر عن الشهوات، سبب العفّة.
- الصبر في العبادة، مدعاة للطاعة، والصبر في الشبهات، مدعاة للورع[٢].

التعاليم:

١ ـ إذا اقترن الإيمان بالعمل والتوكل والصبر والعبادة، اكتسب قوة وفاعلية أكبر[٣]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ...﴾

٢ ـ الصلاة سلاح وليست عبئاً، ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٣ ـ الصبر والصلاة رافدان من روافد التأييد الإلهيّ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

٤ ـ صحيح أنَّ الله مع كلّ إنسان أينما كان؛ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٤]، غير أنّ معيّته للصابرين تحمل معاني خاصّة هي اللطف والمحبة ونصرة الله للصابرين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

إشارات:

□ روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنّها نزلت في قتلى معركة بدر،

---

(١) تفسير الصافي.
(٢) تفسير أطيب البيان.
(٣) تفسير راهنما.
(٤) سورة الحديد: الآية ٤.

وعددهم أربعة عشر شهيداً، ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وبعد انتهاء الغزوة، قال بعض المسلمين عن هؤلاء الشهداء إنّهم «أموات» فنهت الآية عن ذلك[1].

ليست أسماء الشهداء أو أعمالهم فقط خالدة، بل إنّهم يعيشون حياة حقيقيّة في عالم البرزخ، حياة تزخر بالرزق والحبور والبشائر، حياة في جوار رحمة ربّهم حيث لا وجود للخوف أو الحزن. وسترد أوصاف هذه الحياة في الآيات ١٦٨ حتى الآية ١٧٠ من سورة آل عمران إن شاء الله.

- إنّ الشهادة في سبيل الله تشمل الموت في ساحة المعركة، أو الاغتيال أو موت المؤمن دون عرضه وماله، في كلّ مكان وزمان.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من تكميل النظرة المادّية المحدودة أو تعديلها عبر الإيمان بالله وأوامره، ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾.

٢ ـ الواجبات الشاقة، بحاجة إلى خلفية عقائدية والتعويض عن الأضرار. من يعلم أنّه سيكون حيّاً، سوف يُقبل على الشهادة، ﴿وَلَا تَقُولُواْ... أَمْوَاتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾

٣ ـ قيمة الشهادة في كونها في سبيل الله تعالى، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الدين، من القيم السامية عند الله، ﴿يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ الروح خالدة بعد الموت، على الرغم من فناء الجسم وتلاشيه، ﴿أَحْيَآءٌ﴾.

٦ ـ الكثير من التفسيرات مصدرها عدم الإحاطة بالحقائق، ﴿لَا تَقُولُواْ... لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾

إشارات:

- الابتلاء سنّة الله تعالى في الخلق، حيث يخضع الجميع من دون استثناء للابتلاء، ولكن لا يتساوى الجميع في التعرّض للبلاء نفسه. إنّ العالم مختبر كبير، والبشر بما فيهم الأنبياء هم موضوع الاختبار. لا بدّ لنا من أن نعلم نقطة مهمّة وهي أنّ هدف الابتلاء الإلٰهيّ ليس الاستيضاح أو رفع الغموض والجهل، بل إنّه للتربية والإصلاح وتنمية المواهب الإنسانيّة وإعدادها. وتشمل أدوات الابتلاء الحوادث المريرة والسارّة بما في ذلك الخوف والفزع والجوع والخسارة في الأموال والأرواح، ونقص من الخيرات. فالخوف من الأعداء، والحصار الاقتصادي، والحرب والجهاد وإرسال فلذات الأكباد إلى جبهات القتال، كلّ هذه أمثلة للبلاء الإلٰهيّ.
- ومن أجل اجتياز امتحان الخوف من الأعداء بنجاح نحتاج إلى ذكر الله تعالى والتوكل عليه، ولأجل رفع النقائص والاحتياجات، يلزم أن نتحلّى بالصبر والثبات، وهو ما أشارت إليه الآيتان السابقتان، ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.
- كما ذكرنا، ليس من الضروري أن يخضع جميع الناس للبلاء نفسه، بل ربّما:
  أ) يخضع كلّ واحد لبلاء معيّن.
  ب) قد يخرج المرء من بلاء معيّن مرفوع الرأس، بينما يفشل في بلاء آخر.
  ج) أو قد يشترك الأفراد في بلاء معيّن.
- أحياناً، يكون النقص في المال والخيرات أو التعرّض للخوف والفزع وسائر المشكلات الأخرى من باب البلاء الإلٰهيّ، وأحياناً أخرى، يكون ذلك جزاءً على ما ارتكبه الإنسان من معاصٍ. إذ قد يجنح الإنسان في بعض الأوقات إلى ارتكاب المعاصي، فيبتليه الله ببعض البلايا من باب العقوبة والجزاء. يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الصّدد:

«إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيّئة بنقص الّثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويتذكّر متذكّر»[(١)].

طبعاً حتى هذا العقاب يندرج تحت عنوان البلاء، كما يندرج وفور نعم الله على عبده بسبب إيمانه تحت هذا العنوان أيضاً، بمعنى أنّ الابتلاء يكون بالخير كما بالشر؛ ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا... لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[(٢)].

❑ لقد أنعم الله تعالى على الصابرين بنعمٍ عدّة نذكر من جملتها:

١ ـ المحبة، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(٣)].

٢ ـ النصرة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(٤)].

٣ ـ الجنّة، ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[(٥)].

٤ ـ ثواب بغير حساب، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(٦)].

٥ ـ البشارة، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

❑ يستطيع المرء أن يتجاوز البلاء الإلهي عن طريق:

أ) الصبر والمقاومة.

ب) اليقين بأنّ الحوادث والبلايا زائلة وعابرة.

ج) العودة إلى تاريخ الماضين لاستخلاص الدروس منه في كيفية تغلّبهم على المصاعب واجتيازها.

د) أن يعلم المرء أنّ جميع البلايا والشدائد التي نعانيها هي بعين الله، أي إنّ لكلّ شيء حساباً.

ومن المناسب أن نذكر هنا بمصيبة الإمام أبي عبد الله عليه السلام في ولده الرضيع الذي فاضت روحه الطاهرة بسهام الأعداء وهو بين يدي أبيه، فتجرّع تلك الغصّة وفوّض أمره إلى الله وقال عبارته الرائعة: **«هَوَّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين اللّه»**[(٧)].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٣.
(٢) سورة الجنّ: الآية ١٦.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٣.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٧٥.
(٦) سورة الزمر: الآية ١٠.
(٧) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٤٦.

التعاليم:

١ ـ البلاء أو الامتحان سنّة كونية حتميّة، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾.

٢ ـ المصائب تصقل روح المقاومة والثبات لدى الإنسان. فكثير من الخصال مثل الصبر، الرضا، التسليم، القناعة، والزهد، والتقوى والورع، والحلم والإيثار، وغيرها تنجلي في مضائق الحياة، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٣ ـ لم تذكر الآية الكريمة طبيعة البشارة، لذلك، فهي تشمل جميع أنواع البشارات الإلٰهيّة، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

إشارات:

□ في المصائب، يلجأ الصابرون إلى كنف الله وحصنه بدلاً من اليأس والتوسّل بالآخرين، لأنّهم يؤمنون بأنّ الدنيا مدرسة، وهي دار ابتلاء واختبار تصقل أرواحهم وتنمّيها. فهي ليست دار قرار، ولا مقرّاً للنوم أو المعاشرة، كما أنّ الشدائد والمصائب ليست بالضرورة علائم على غضب الله وجفائه. هذه الشدائد صفيح ساخن تحت أرجلنا يجعلنا نحثّ الخطى نحو الكمال، لذلك ثمّة حلاوة حتى في مرارتها. إنّ تفجير طاقات الإنسان ومواهبه يعقبه الفوز بالثواب الإلٰهيّ.

□ إنّ المصائب النازلة من عند الله، هي بمثابة تصرّف المالك والربّ الحقيقي في المملوك. لو علم الإنسان أنّ الله حكيم رحيم، وأنّه (الإنسان) عبدٌ لم يكن قبل ذلك شيئاً مذكوراً؛ ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[1]، وحتى بعد مراحل أيضاً لم يكن شيئاً؛ ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[2]، حينها سيوقن أنّ على العبد أن يكون في كنف الله وقبضة يمينه. لو قال العبد في نفسه: إنّ الله ساقني من الجماد إلى النبات، ومن النبات إلى الحيوان، ومن مرتبة الحيوانيّة إلى الإنسانية، وإنّ الله قد هيّأ هذه الحوادث والمصائب كلّها من أجل الارتقاء بي نحو مراقي الكمال، تماماً

(١) سورة مريم: الآية ٦٧. (٢) سورة الإنسان: الآية ١.

كما يحصل مع حبّة القمح حين نصيّرها دقيقاً بعد طحنها، ثمّ عجيناً ثمّ تنضج في نار الفرن لنصل بها إلى أعلى مراحل الكمال.

□ إنّ عبارة الاسترجاع هي شعار الصابرين ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾. ورد في الحديث الشريف عن النبيّ الأكرم ﷺ قوله: «**من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه**»[١]، وقد ذكروا للاسترجاع عند المصيبة بركات كثيرة منها:

أ) تمنع الإنسان من الكفر والشكوى.

ب) تكون للإنسان عزاءً وتلقيناً.

ج) تمنع وساوس الشيطان.

د) تنجلي بها عقائد الحقّ.

تكون للآخرين درساً وأسوة.

الناس في المصائب والبلايا فئات هي:

أ) فئة تصرخ وتجزع ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾[٢].

ب) فئة تصبر وتثبت. ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ج) وفئة، علاوة على الصبر، تحمد الله وتشكره. «**اللّهم لك الحَمد حَمد الشّاكرين لَك على مُصابهم**»[٣].

تشير كل من هذه التصرّفات إلى معرفة الشخص بالحكمة من نزول المصائب والبلايا. فكما أنّ الطفل يلتذع لسانه عند أكله البصل، في حين يظهر الشاب تحمّلاً وصبراً، فيما يتلهّف الرجل الكبير إلى شراء البصل وأكله.

التعاليم:

١ ـ جذور الصبر في الإيمان بالله تعالى والمعاد والأمل بالثواب، ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ... ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ... قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ١، ص ٣٧٧.

(٢) سورة المعارج: الآية ٢٠.

(٣) الفقرة الأخيرة من زيارة عاشوراء.

﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

إشارات:

□ كلمة «**الصلاة**» مشتقّة من «صلو»، وسميّت كذلك لما تعود على صاحبها من البركة والرحمة الإلٰهيّة. وتسمّى البركة صلاة في اللغة. وقيل: لأنها تفضي إلى المغفرة التي هي مقصودة بالصلاة، وهي على العكس من كلمة «صلى» التي تعني الدخول في الغضب كما في الآية الكريمة: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾[(١)].

□ إنّ الله سبحانه يصلّي ويسلّم على المؤمنين الذين يجعلون من الصبر والثبات جُنّة لهم أمام البلايا والمحن؛ ﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، ويأمر تعالى شأنه رسوله الكريم ﷺ أن يصلّي على المؤمنين الأغنياء الذين يؤدّون الزكاة، ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾[(٢)].

التعاليم:

١ ـ إنّ الله تعالى يغدق على الصابرين من رحمته الخاصة، ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ﴾.

٢ ـ ثواب الله للصابرين يعلّمنا ضرورة أن يحظى المضحّون والصابرون والمجاهدون في المجتمع بالكرامة والاحترام الخاصّين، ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ...﴾.

٣ ـ الثواب من شؤون الربوبيّة ومستلزمات التربية، ﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

٤ ـ هداية الصابرين أمر مسلّم وقطعي. يذكر القرآن أنّ هداية الكثير من البشر لا تعدو كونها حلماً؛ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، لكنّ هداية الصابرين أمر محقّق، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

٥ ـ للهداية مراحل، فعلى الرغم من أنّ المسترجعين ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ هم

---

(١) سورة الغاشية: الآية ٤. (٢) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

مؤمنون ومهتدون، فإنّ المرحلة الأسمى هي ما بعد الصبر والتمتّع بالصلوات والرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

إشارات:

- «**الشعائر**» جمع «**شعيرة**» وهي العلامة: العلائم التي توضع لأعمال خاصّة، والمراد بها أعلام مناسكه وهي مواضع العبادة التي أشعرها الله إعلاماً للناس من الموقف والسعي والنحر[١].

- الصفا والمروة اسمان لجبلين صغيرين يقعان بالقرب من المسجد الحرام، وتفصل بينهما مسافة حوالى ٤٢٨ متراً تقريباً، والمسعى اليوم هو عبارة عن شارع مسقّف، وعلى الحاج أن يسعى في هذه المسافة سبع مرات جيئة وذهاباً. هذا العمل يعيد إلى الأذهان ما قامت به السيدة هاجر زوجة النبيّ إبراهيم عليه السلام التي كانت تبحث عن جرعة ماء لطفلها الرضيع إسماعيل، فجالت بين الجبلين سبع مرات وقد ضجّت قلقاً واضطراباً في تلك الصحراء القاحلة وهي وحيدة حيث لا أنيس ولا معين. يقول الإمام الصادق عليه السلام في فضل المسعى: «**ما من بقعة أحبُّ إلى الله من المسعى لأنّه يذلُّ فيها كُلُّ جبَّار**»، وعنه أنّه قال: «**جعل السعي بين الصَّفا والمروة مذلَّة للجبَّارين**». وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما يدلّ على أنّه ليس في الأرض مكان أفضل من الصفا والمروة، فإنّ الله يذلّ بينهما الجبّارين، وفيهما ذكرى من دعوة النبيّ صلى الله عليه وآله المشركين إلى التوحيد ورفع الأصنام من ذلك المكان[٢].

- في العصر الجاهلي، كان المشركون يضعون على جبل الصفا صنماً اسمه «أساف» وعلى جبل المروة صنماً آخر يسمّى «نائلة»، وكانوا يمسحون بأيديهما

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٤٥.

على الصنمين حين السعي للتبرّك. من هنا كان المسلمون يكرهون السعي بين الصفا والمروة، حيث اعتقدوا بأنّه لا ينبغي السعي؛ نظراً لوجود الأصنام على الجبلين في العصر الجاهلي، فنزلت الآية أعلاه لتؤكد أنّ الصفا والمروة من شعائر الله. وإذا كانت قد تلوّثت في ما مضى بأدران الجاهلية، فهذا لا يبرّر إعراض المسلمين عن السعي بينهما[١].

❑ ترد كلمتا الحجّ والعمرة أحياناً إلى جانب بعضهما، مثل الأذان والإقامة، وأحياناً تذكر أعمال العمرة منفردة ومستقلة.

❑ أثناء مناسك الحجّ تجب على الحاجّ خمسة أعمال هي:

١ ـ الإحرام.

٢ ـ الطواف.

٣ ـ صلاة الطواف.

٤ ـ السعي بين الصفا والمروة.

٥ ـ حلق الشعر أو تقليم الأظافر.

ويضاف إلى هذه الأعمال بالنسبة إلى العمرة المفردة طواف النساء وصلاة طواف النساء.

وبالإضافة إلى ما ذكر، فإنّ للحج أعمالاً أخرى أشير إليها في مظانّها. وعلى أيّ حال فإنّ السعي بين الصفا والمروة ذكر في العمرة، مثلما ذكر في الحجّ.

❑ إنّ الحضور في الصفا والمروة هو استحضار لروح التاريخ، ليحلّ التصديق مكان التصوّر، وتحلّ المعاينة محل الخبر.

الصفا والمروة مدرسة التوحيد، تكشف لنا مظاهر إرادة الله تعالى في جمع هذه الحشود البشرية بكلّ اختلافاتها وتمايزاتها في لباس واحد ووجهة واحدة.

---

(١) تفسير التبيان، ج ١، ص ٤٤.

إنّها مدرسة النبوة، التي تشرح كيف امتثل إبراهيم، ذلك الرسول الإلٰهيّ، لإرادة الله وترك زوجته وولده الرضيع في وادٍ غير ذي زرع.

كما أنّها مدرسة للإنسان، لتعلّمه مناسك يؤدّيها للحظات، ليبقى أثرها على مدى الدهر.

في السعي بين الصفا والمروة دليل على أنّ البشرية إذا تحرّك أفرادها سوية سوف يستشعرون روح الله في المجتمع.

السعي يعلّم الإنسان أن يطرح رداء التكبّر والتبختر جانباً، وأن يواكب الآخرين في مسيرهم.

السعي يعلّمنا أن للمرأة والطفل حصّة في إحياء اسم الله.

- ❑ تناولت الآيات السابقة موضوع البلاء الإلٰهيّ، وتطرح هذه الآية نموذجاً من ابتلاء هاجر والطفل الرضيع ووالده وسائر المسلمين. إنّ صدى العمل الإلٰهيّ والإخلاص يذهب بعيداً إلى المدى الذي يُسمع الأنبياء والأولياء أنّ عليهم تقليد السيدة هاجر زوجة النبيّ إبراهيم عليه السلام في اضطرابها وهرولتها في السعي سبعة أشواط بين الصفا والمروة. ولنا أن نتأمّل عبارة الشكر الإلٰهيّ على ما عانته السيدة هاجر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

- ❑ وعلى الرغم من وجوب السعي، فالله تعالى يقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ﴾، وهذا اللون من الخطاب هو بسبب القلق من الوضع الذي كان سائداً في السابق حيث كان المكان مقرّاً للأصنام وممرّاً للمشركين.

- ❑ الطواف يقال للحركة التي يعود فيها الإنسان إلى حيث ابتدأ، طولية كانت أم دائرية، لذلك فهي لا تخصّ الحركة الدائرية فقط، وبناء على هذا فإنّ الكلمة تستعمل للحركة الدائرية حول الكعبة؛ ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾[1]، وكذلك لنسعي بين الصفا والمروة والتي هي حركة طولية.

---

(١) سورة الحج: الآية ٢٩.

التعاليم:

١ ـ عناية الله ببعض البقاع أو المواقيت أو الأشخاص يجعل منها شعائر إلٰهيّة، ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ قيمة العمل في النيّة التي تقف وراءه. المشركون أيضاً كانوا يسعون ولكن كان سعيهم من أجل التمسّح بالأصنام، لكنّ الإسلام يقول: اسعوا من أجل نيل رضا الله[1]، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾.

٣ ـ إذا تلوّثت مراكز الحق بخرافات البعض فلا ينبغي ترك تلك الأماكن بسبب ذلك، بل علينا التواجد في تلك الأماكن وتطهيرها ممّا علق بها من أدران، وقطع يد الفئة الضالّة عنه، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾.

٤ ـ العبادة يجب أن تكون عن حب وتطوّع، ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾.

٥ ـ الله يشكر لعباده عباداتهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ تأمّل هذه العبارة، فهي تنطوي على لطف إلهي بالعباد ما بعده لطف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

إشارات:

- صحيح أنّ الآية الكريمة تخاطب علماء اليهود والنصارى الذين كتموا حقائق كتبهم السماوية (التوراة والإنجيل) عن الناس، إلّا أنّ كلمة ﴿يَكْتُمُونَ﴾ جاءت في صيغة المضارع لبيان استمرار اللعن، لذلك فهي تبيّن حكماً يشمل جميع الكاتمين للحقّ عبر التاريخ. كما أنّ لعنة الله مستمرّة إلى أبد الآبدين.
- يتّخذ كتمان الحقّ صوراً وأشكالاً مختلفة، تارةً بالصمت، وتارةً أخرى بعدم

---

(١) للكثير من الطقوس ظواهر متشابهة، غير أنّها تستبطن مقاصد شتى، كإسراع يوسف وزليخا نحو الأبواب الموصدة، فيوسف كان يسرع لئلا يقع في وحل الإثم، وزليخا كانت تسعى إلى هذا الوحل، ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾.

إظهار الحقّ، وثالثة باتّباع أسلوب التبرير والمماحكة وإلهاء الناس بأمور جانبية، لصرف أنظارهم عن القضايا الجوهرية. إلّا أنّ الكتمان في بعض الحالات يكون واجباً أو مستحبّاً كما في حالات كتم أسرار المؤمنين أو التستّر على عيوب إخوة الإيمان.

- إنّ معصية الكتمان تصدر، على الأغلب، من جانب العلماء، فقد ورد في الآية ١٨٧ من سورة آل عمران أنّ الله أخذ عهداً على أهل الكتاب أن يظهروا الحقائق للناس ولا يكتموها، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾. وورد في الروايات: «**مَنْ كَتَمَ عِلْماً جاءَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مُلْجَماً بِلِجامٍ مِنَ النّارِ**»[1].

التعاليم:

١ ـ أسوأ الظلم هو الظلم الثقافيّ الذي يستتبع لعنة الخالق والخلائق، ﴿يَكْتُمُونَ... يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

٢ ـ كتمان الحقّ ممنوع، سواء أكان كتمان المعجزات ودلائل الحقانيّة؛ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أم كتمان التوجيهات والإرشادات[2]، ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾.

٣ ـ كتمان الحقّ، من أكبر المعاصي. فهو يحول دون هداية الناس ويبقي الأجيال على ضلالهم، ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ كتمان الحقّ، ظلم لدين الله ومصادرة لحقّ الناس في الهداية. لذا، يلعن الله والناس كاتمي الحقّ، ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

٥ ـ لعن الناس أمر مؤثّر، ولا بدّ من توظيف سخط الناس في مسألة النهي عن المنكر، ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٧٠.

(٢) تفسير الميزان.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

إشارات:

□ مثل جميع المعاصي، إنّ طريق التوبة مفتوح أمام من يرتكب معصية الكتمان، ولكن على أن تكون التوبة حقيقيّة مقترنة بالندم القلبي وإصلاح السيرة وتشخيص حالات الكتمان. فتوبة التارك للصلاة أن يقضي ما فاته من الصلوات، وتوبة من أكل أموال الناس بالباطل أن يعيد الأموال إلى أصحابها. والشيء نفسه بالنسبة لمن كتم الحقائق، فإنّه في الواقع، ارتكب خيانة بحقّ العلم والفكر والأجيال، وفي حالة واحدة فقط يمكن إصلاح ما فات وهي عرض الحقائق وتبيينها.

□ يخاطب الله تعالى الشيطان الرجيم بالقول: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾[1]، وفي الآية التالية يقول: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ...﴾، لذا فإنّ كاتمي الحقائق والشيطان في خانة واحدة.

التعاليم:

١ ـ لقد ترك الله باب التوبة للمسيئين مفتوحاً في الظروف كلّها، ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ... إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

٢ ـ كتمان الحقائق الدينيّة فساد، ذلك لأنّ التائب أُمر بالإصلاح والتعويض عمّا فات، ﴿تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾.

٣ ـ التوبة تتناسب مع طبيعة المعصية، وتوبة الكتمان هي تبيين الحقائق، ﴿تَابُوا۟... وَبَيَّنُوا۟﴾.

٤ ـ في مقام التهديد والتقريع، شملت لعنة الله كاتمي الحقّ، وفي مقام الرحمة والرأفة استخدم سبحانه وتعالى كلمات ﴿أَنَا﴾ و﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ليقول لهم إنّي أعود إليكم برحمتي الخاصّة، ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ... وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

(١) سورة ص: الآية ٧٨.

٥ ـ تهديد المسيء وتبشير المحسن ركنان أساسيّان في تربية الفرد والمجتمع، ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ... وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

٦ ـ عودة الله إلى التائبين بلطفه ورحمته، أمر دائم ومؤكّد وتكون هذه العودة مقترنة بالمحبة، ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت الآية السابقة أنّ كاتمي الحقّ إذا رجعوا عن غيّهم وتابوا وبيّنوا الحقائق، فإنّ الله سيشملهم بلطفه ورحمته، وتستكمل الآية الحاليّة الموضوع فتتحدّث عن جزاء الكفّار الذين لا يثوبون إلى رشدهم ولا يرجعون إلى الله ويواصلون طريق الكفر إلى آخر لحظة من حياتهم، هؤلاء أيضاً، مثل كاتمي الحقّ، يستحقّون لعنة الله وملائكته والناس جميعاً.

والسؤال المطروح هنا هو: ذكرت الآية أنّ الكفّار مشمولون بلعنة الناس أجمعين، ولكن من المعلوم أنّ بعض هؤلاء الناس هم من الكفّار أو أولياء الكفّار، فكيف نفسّر هنا عبارة الناس أجمعين؟

الجواب هو: أنّ موضوع اللعنة مطروح في الدنيا والآخرة، وأنّ الذين كانوا في الدنيا كفّاراً أو أولياء للكفّار، فسوف تشملهم اللعنة في الآخرة، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[(١)].

من أمنيات أولياء الله وأدعيتهم أن يتوفّاهم الله وهم مسلمون، فهذا النبيّ يوسف عليه السلام يدعو الله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾[(٢)]، والنبي إبراهيم والنبي يعقوب يوصيان أبناءهما قائلين: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٣)].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٨.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

التعاليم:

١ ـ إصرار الإنسان على الكفر إلى آخر لحظة من حياته، هو فراق أبدي عن الرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ... عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾.

٢ ـ المهمّ هو حسن العاقبة للإنسان، وأن يموت على الإيمان أو الكفر، ﴿مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾

إشارات:

□ إنّ النظام الذي يحكم عناصر الطبيعة وأجزاء الكون والقوانين التي تسيّرها، كلّها دلائل وآيات على حاكميّة الذات الإلٰهيّة المقدّسة وقدرتها وإرادتها ووحدانيّتها.

إنّ طبيعة خلق السموات وتمدّدها الدائم[١] ـ بحيث إنّ الإنسان وبعد كلّ ما حقّقه من تطوّر علمي لم يستطع الوصول إلّا إلى جزء يسير فقط من السماء الأولى ـ واستحكامها[٢] بطبقاتها السبع[٣]، والنظم[٤] والانسجام الذي يحكمها، والتنسيق وتناسب الارتباط الذي يشدّ أجزاءها، ورفعها من دون عمدٍ[٥] أو أركان، وإمساكها من الوقوع[٦]، وحركة الكواكب والنجوم الثابتة والسيّارة في مداراتها المحدّدة لها، والمسافة الدقيقة التي تفصلها عن بعضها، هذه كلّها آيات ودلائل على عظمة قدرة الخالق الواحد الحكيم.

---

(١) ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، سورة الذاريات: الآية ٤٧. (٢) ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾، سورة النبأ: الآية ١٢.

(٣) ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، سورة الملك: الآية ٣.

(٤) ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، سورة فصّلت: الآية ١٢.

(٥) ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، سورة الرعد: الآية ٢. (٦) ﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾، سورة الأنبياء: الآية ٣٢.

□ **«الرياح»** جمع **«ريح»** وهي الهواء المتحرك المسخّر في الطبقات المحيطة بالأرض وأصلها روح والجمع أرواح ورياح، وهي مؤنثة وقد تُذكّر. وقد وردت في القرآن مفردة ومجموعة على رياح وأكثر ما تستعمل فيه مفردة، **فهي** للعذاب والغضب الإلٰهيّ مثل: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾[1]، بخلاف كلمة **«رياح»** فكل موضع ذكرت بلفظ الجمع في القرآن فهي للدلالة على الرحمة والمطر واللطف الإلٰهيّ. وقد ورد في الحديث الشريف: «أنّ النبيّ ﷺ إذا عصفت الريح قال: **«اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»**[2].

التعاليم:

١ ـ الكشف عن أسرار الطبيعة إحدى سبل معرفة الله، وهي معرفة لقدرته وحكمته ووحدانيّته، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ... فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... لَآيَاتٍ﴾.

٢ ـ ليس لله ندّ ولا نظير، وهو ليس مركباً من أجزاء وعناصر، ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

٣ ـ خلق الله الطبيعة وما صنعته يد الإنسان أيضاً، ﴿خَلْقِ السَّمَاوَاتِ... وَالْأَرْضِ... وَالْفُلْكِ﴾.

٤ ـ كل مخلوق في عالم الوجود آية من آيات كتاب الله في الطبيعة، ﴿لَآيَاتٍ﴾.

٥ ـ وحدهم العقلاء الذين يستلهمون درس التوحيد من خلال التدبّر في الطبيعة، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ... لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

إشارات:

□ روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنّه قال في تفسير هذه الآية: **«هم والله أولياء**

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٦.
(٢) تفسير مجمع البيان، تفسير صفوة التفاسير.

فلان وفلان اتخذوهم أئمة دون الإمام الذي جعله الله للناس إماما»[1] وإذا أردنا أن ننظر من زاوية قواعد اللغة العربية، فإنّ الضمير «هم» في «يحبّونهم» يستعمل للإنسان لا للأشياء.

□ إنّ جذور المحبّة تعود إلى خصلة حبّ الكمال والجمال، فالمؤمن يرى في الله تعالى مصدر الكمالات والجمال، لذلك فهو يشغف به حبّاً. إنّ عشق المؤمن ومحبّته يقوم على أساس جدارة الحبيب واستحقاقه لأنّه وحده اللائق لهذا الحبّ، ولا يذوي بريق هذا الحبّ ولا تنطفئ شعلته في قلبه. فيما يكون حبّ المشرك وشغفه قصر من رمال، قائماً على الجهل والتقليد والأهواء الفارغة.

التعاليم:

١ ـ لا يجوز عبادة ومحبّة غير الله كأنداد له، ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ﴾.

٢ ـ يجب أن تُلجم العواطف بعقال العقائد، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

٣ ـ بعض الناس لا يدرك خواء أفكاره والسبيل الذي سلك ما لم تنزح عن نظره الأستار ويشاهد القيامة بأمّ عينيه، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ﴾.

٤ ـ القوّة مؤثّرة في جذب الآخرين، ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلا تنجذبوا لغير الله.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

إشارات:

□ لننظر من هو قائدنا ومقتدانا، وإلى من نهدي حبّنا وشغفنا؟ لنعلم أنّ الطغاة وكل من سوى الله يريدوننا لأنفسهم، ليجعلوا من قدرتنا وحبّنا سلّماً لتحقيق آمالهم وأهوائهم الدنيوية، ليتخلّوا عنّا في يوم القيامة وينفروا ويعلنوا براءتهم منّا.

(١) الكافي، ج ١، ص ٣٧٤.

التعاليم:

١ ـ كلّ حبّ أو ميل يفتقر إلى العقلانية والفطرة، مصيره، عاجلاً أم آجلاً، إلى الزوال أو العداوة، ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ... تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾.

٢ ـ الحبّ يفضي إلى الاتباع، ﴿يُحِبُّونَهُمْ... ٱتُّبِعُوا۟﴾.

٣ ـ شرط العقل التبصّر بالمستقبل. لنهدي محبّتنا وولاءنا إلى من يملك السطوة لحمايتنا في يوم الخطر، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾.

٤ ـ معيار الأصالة في علاقات المحبّة هو توجّس العذاب في الأيّام الخطيرة، ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

إشارات:

- طبقاً لما ورد في الروايات، فإنّ يوم القيامة يضمّ مواقف عدّة، منها أنّ الكافرين يطبقون أفواههم، ولا حيلة لهم سوى أن يرمقوا بعضهم بعضاً بنظرات ملؤها الحسرات والندم ويذرفون الدمع. وفي موقف ثانٍ، يستنجدون ببعضهم البعض، وفي موقف ثالث يشكون ويلعن بعضهم بعضاً. تبيّن الآية الكريمة أنّ أهل الكفر يندمون على ما قدّموا من دعم وحبّ لأربابهم وزعمائهم، ولات ساعة مندم، والحسرات تملأ قلوبهم، ولسان حالهم يقول: لو أنّ لنا رجعة إلى الدنيا، لا نتبع هؤلاء أبداً، لو أنّ لنا رجعة، سنتبرّأ من هؤلاء الذين وصلت بهم الوقاحة والغدر أن يتبرّأوا منّا في هذا اليوم العصيب. نعم، في ذلك اليوم يغرق الكافرون في حسراتهم، ولكن، سبق السيف العذل.
- في آيات عدّة، تكرّرت كلمة «خلود» للتعبير عن العذاب، فالبعض يفسّر الكلمة بأنّها تعني الأمد الطويل، إلّا أنّنا نستفيد من عبارة الآية ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أنّ «الخلود» يشير هنا إلى مفهوم الأبدية لا الأمد الطويل.

□ وفي الروايات أيضاً أمثلة كثيرة على حسرة المجرمين في يوم القيامة، من بينها:

في الكافي عن أحمد بن أبي عبد الله عن عثمان بن عيسى عمّن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ قال: **«هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بخلا، ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله أو معصية الله فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرة وقد كان المال له وإن كان عمل به في معصية الله قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله»**[1].

مثال آخر على أهل الحسرة في يوم القيامة، أولئك الذين واظبوا على العبادات في الحياة الدنيا لكنّهم في الوقت نفسه تنكروا لولاية علي بن أبي طالب عليه السلام وإمامته[2].

□ الإنسان ذو إرادة واختيار، ولولا ذلك لما كان بمقدوره أن يندم ويتحسّر ويتّخذ قرارات وينقض أخرى. فالشعور بالندم والحسرة دليل على أنّه كان بإمكانه أن يفعل بخلاف ما فعل. أمّا اتّخاذ قرارات جديدة فهي تدلّل على أنّه باستطاعة الإنسان أن يختار ما يراه مناسباً وصالحاً له بملء إرادته واختياره.

التعاليم:

١ ـ فلنتخلَّ عن الطغاة، قبل أن يتخلّوا هم عنّا في يوم القيامة، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾.

٢ ـ في يوم القيامة تكون عين الإنسان للحقّ بصيرة فيرى ما اقترفت يداه، ويشتاط ألماً وحسرات، ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ﴾.

٣ ـ هناك أمل بالعودة، ولكن لات حين مناص، ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ... وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٥١.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ١٨٤.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾

إشارات:

- تكرّرت دعوة الإسلام للناس للاستفادة من النعم الطيّبة الحلال، وفي الوقت ذاته ينهى عن الرهبنة والزهد المفرط. لذلك، فهو ينسب الأطعمة الخبيثة إلى الشيطان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ... رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾(١)، وكذلك يرى في الزهد المفرط عن الأكل خطوة من خطوات الشيطان؛ ﴿كُلُواْ... وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾، وقد ورد في بعض المنقولات التاريخية، أنّ بعض طوائف العرب حرّموا على أنفسهم بعض النباتات والحيوانات دونما سبب، وكانوا في بعض الأحيان ينسبون هذا التحريم إلى الله تعالى. فنزلت الآية الكريمة لتقطع الشك باليقين وترفع اللبس عن الموضوع.
- يهتمّ الإسلام اهتماماً تامّاً بالحياة المادّية للإنسان، وفي صدر هذه الاهتمامات تأتي الاحتياجات الغذائية، حيث وردت في هذا الموضوع عشرات الآيات ومئات الأحاديث. والحقيقة أنّ إحدى وظائف الأنبياء أن يبيّنوا للناس الأطعمة والأشربة الحلال والحرام.
- وجرت العادة أن يقرن القرآن الكريم إذن استهلاك الأطعمة والأشربة بشرط، فعلى سبيل المثال يقول عزّ من قائل: ﴿كُلُواْ... حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾، كما يقول: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ... وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٢).

وجاء في آية أخرى قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾(٣) وفي موضع آخر: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ﴾(٤).

ورد في تفسير البرهان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ شخصاً يدعى طارق عزم

(١) سورة المائدة، ٩٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦٠.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٣١.
(٤) سورة الحج: الآية ٢٨.

على أن يعتزل زوجته وأن يترهَّب، فقال له الإمام عليه السلام: «إنّ هذا من خطوات الشيطان».

التعاليم:

١ ـ شرطان في استهلاك الأطعمة والأشربة: الحلال والطيّب، ﴿. . .كُلُوا حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

٢ ـ يتعارض الإسلام مع بعض الزهد، ﴿كُلُوا﴾.

٣ ـ تناول المحرّمات والخبائث اتّباعٌ لخطوات الشيطان، ﴿كُلُوا... حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

٤ ـ تمهّد الاحتياجات الطبيعية للإنسان، في بعض الأحيان، الطريق إلى الانحراف وتغرير الشيطان. لذا، في سعينا إلى تأمين احتياجاتنا، لا بدّ لنا من الانتباه إلى المزالق، ﴿كُلُوا. . وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ﴾.

٥ ـ غواية الشيطان للإنسان تكون خطوة خطوة. لذا يجب أن ننتبه منذ الخطوة الأولى، ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

٦ ـ طرق الشيطان في حرف الناس وغواياتهم كثيرة ومتنوّعة، ﴿خُطُوَاتِ﴾.

٧ ـ دفع الناس إلى تناول المحرّمات ومنعهم عن الطيّبات، مظهر من العداوة البارزة للشيطان، ﴿كُلُوا. . حَلَالًا طَيِّبًا. . . إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

إشارات:

□ ورد في تفسير البرهان[١] أنّ الشيطان يطوي مراحل عند وسوسته للإنسان: حيث يبدأ بدعوته إلى الكفر، فإذا لم ينجح، فيتوسّل بالبدعة، فإذا لم ينجح، فالكبائر ثمّ الصغائر، ثمّ بعد ذلك يلجأ إلى المباحات بدلاً من العبادات، وإذا لم ينجح، فإلى العبادات الدنيا، ليمنع الإنسان من الارتقاء إلى المراتب العليا.

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٣٧١.

□ المراد بأمر الشيطان هنا هو وساوسه وإغواءاته، لا أن يسلب الإنسان إرادته واختياره فيجبره على ارتكاب المعاصي.

□ تأثير أمر الشيطان يعكس ضعفنا، فكلّما كان الإنسان ضعيفاً، تقبّل وساوس الشيطان كعبد مطيعٍ لأوامر سيّده؛ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾[1]، فيما يبقى أولياء الله بعيدين عن دائرة نفوذ الشيطان ووساوسه، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ دليل عداوة الشيطان، إغواؤه إيانا ودفعنا نحو الفحشاء والافتراء على الله، ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ... إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾.

٢ ـ يصدر الشيطان أمر المعصية، ومن ثمّ يبيّن الطريق إليها. الأمر بالسوء والفحشاء هو نفسه الأمر بالمعصية، والافتراء على الله هو الأمر بتبرير المعصية، ﴿يَأْمُرُكُم... وَأَن تَقُولُوا۟﴾.

٣ ـ لا يجوز إبداء الرأي حول أحكام الدين والإفتاء بدون علم، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ لا يجوز أن ننسب إلى الله شيئاً من منطلق الشك والترديد، فما بالك في الحالات التي نعلم بأنّ الكلام ليس من عند الله. لذلك، يجب توخّي الدقّة والحذر في تفسير القرآن وبيان الأحكام، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

إشارات:

□ حذّرت الآية السابقة من أن نتّبع خطوات الشيطان وأوامره، والآن تستعرض

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٠. (٢) سورة الحجر: الآية ٤٢.

هذه الآية مثالاً من طرق الشيطان، وهو الانقياد الأعمى للآباء والأجداد.

- لا بأس من الانقياد والطاعة العقلانية، إلّا أنّ الشيء الذي ينتقده القرآن هو تقليد الذين لا يعقلون ولا يهتدون بهدي الأنبياء.

- الهداية الإلٰهيّة موجودة في كل عصر وزمان، ويستفاد من قول القرآن الكريم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ... وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أنّ الهداية الإلٰهيّة موجودة في كل زمان، لكن الإنسان كان يُعرض عنها.

يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «**بلى لا تخلو الأرض من قائم للّه ظاهراً أو خائفاً**»[1].

التعاليم:

١ ـ لا يجوز أن يرتدّ الإنسان على عقبه القهقرى. فاتّباع السنّة وسيرة الأسلاف من دون استدلال وتعقّل مرفوض، ﴿أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

٢ ـ التعصّب العنصري والقبلي من عوامل عدم الانصياع للحقّ، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ... ءَابَآءَنَآ﴾.

٣ ـ سنن الأجداد وآدابهم تترك تأثيرها على الأجيال القادمة، ﴿مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

٤ ـ يمكن الاهتداء إلى طريق الحقّ بالعقل والوحي، ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٥ ـ نقل الخبرات والعلوم فضيلة، ولكن نقل الخرافات من الأجيال الماضية إلى الأجيال القادمة رذيلة، ﴿ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٦ ـ يقودنا العقل إلى اتّباع الوحي، ﴿... اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ... أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، ١٤٧.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

إشارات:

□ **«الدعاء»** هو التنادي من مسافة قريبة وقد يكون بعلامة من غير صوت ولا كلام بل بإشارة تنبئ عن معنى، بينما **«النداء»** هو للبعيد ولا يكون إلّا برفع الصوت وامتداده[1].

□ وفي هذه الآية تشبيهان: تشبيه داعي الحقّ بالراعي. والثاني تشبيه الكفّار بالبهائم التي لا تفهم من نعيقه شيئاً. والمعنى: يا أيّها النبي! مثلك في دعوة هؤلاء القوم الكافرين إلى الحقّ وتحطيم حواجز التقليد الأعمى لأسلافهم كمثل الذي ينعق بالغنم والبهائم لإنقاذهم من الخطر، فهؤلاء يسمعون نداءك ولكن لا يفهمون معناه؛ لأنّهم عميت بصيرتهم، فهم صمّ بكم عمي.

التعاليم:

١ ـ قيمة البصر والسمع واللسان في أنّها مقدّمات التعقّل، وإلّا فالبهائم أيضاً تملك السمع والبصر، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

٢ ـ طريق المعرفة هو السؤال والإنصات والمشاهدة المقترنة بالتفكر والتدبّر، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٣ ـ الشخص اللا مبالي إزاء دعوة الحقّ يحمل خمس صفات حقيرة هي:

أنّه كالبهائم، وأعمى، وأبكم، وأصمّ، ولا عقل له، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ... فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) فرائد اللغة في الفروق، مادة «دعاء ونداء».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

إشارات:

❑ في حديث قدسي شريف نقل عن رسول الله ﷺ أنّ الله تعالى قال:

«إنّي والإنس والجنّ في نبأ عجيب، أخلقهم ويعبدون غيري، وأرزقهم ويشكرون سواي، خيري إليهم نازل، وشرّهم إليّ صاعد، أتحبّب إليهم بالنعم، وأنا الغنيّ عنهم، ويتبغّضون إليّ بالمعاصي وهم المحتاجون إليّ»[١].

❑ دأب القرآن الكريم على انتهاج أسلوب طرح البديل عند نزول آيات تنهى الإنسان عن شيء معيّن، حيث يبيّن السبل المباحة ثمّ يستعرض بعدها الحالات المنهي عنها. تذكر هذه الآيات الموارد المباحة ثم تعقبها بالأطعمة المحرّمة.

❑ إنّ للشكر مراحل، فهو تارةً باللسان، وتارةً أخرى بالعمل. أمّا الشكر الحقيقي فهو أن يستفاد من النعم في مصارفها الحلال التي شرّعها الله.

❑ الهدف الرئيس من خلق النعم الطبيعية هو أن يستفيد منها المؤمنون ويتمتّعوا بها، في الآيات الثلاث السابقة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، وهنا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ربّما انطوى هذا الاختلاف في التعبير على سرّ، وهو أنّ النعم والطيّبات خُلقت في الأصل للمؤمنين، ومن فيض بركاتهم ينعم سائر الناس بهذه الطيّبات. كالماء الذي يستعمله البستاني لسقي أشجار الفاكهة والزهور، إلّا أنّه يحدث أن تستفيد من هذا الماء أيضاً الأعشاب والنباتات الطفيلية.

❑ من البديهي أن نقول إنّ التوقّعات تختلف من إنسان إلى آخر. فمثلاً لا يُنتظر من الإنسان العادي بعد أن أشبع بطنه إلّا أن ينقاد وراء المعاصي ووساوس الشيطان والفساد؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا... وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[٢]،

---

(١) تفسير الصافي. (٢) سورة البقرة: الآية ١٦٨.

ولكنّ الحال يختلف مع أهل الإيمان، فالمتوقّع من المؤمن بعد الشبع أن يسعى وراء العمل الصالح وشكر الواهب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ... وَٱشْكُرُواْ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ... وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[1].

التعاليم:

١ ـ تهذيب النفس والزهد والورع، كلّها خصال لا تتعارض مع التمتّع بالطيّبات، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾.

٢ ـ المادّيات في الدين الإسلامي جسر إلى المعنويات، ﴿كُلُواْ... وَٱشْكُرُواْ... تَعْبُدُونَ﴾.

٣ ـ يهتمّ الإسلام بالصحّة الغذائية، ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

٤ ـ لا ينبغي أن نطالب الناس بشيء قبل أن نؤمّن لهم حياتهم ونغمرهم بالحب، ﴿كُلُواْ... وَٱشْكُرُواْ﴾.

٥ ـ الشكر دليل عبادة الله والتوحيد الخالص. فإذا اعتقد الإنسان بأنّ الرزق هو ثمرة أفكاره الاقتصاديّة، وسعيه وتدبيره ورأسماله واعتباراته، فلن يجعل لله حصّة في نعمه حتى يشكره عليها، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٦ ـ الشكر نموذج ساطع للعبادة، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ... تَعْبُدُونَ﴾.

٧ ـ شكر الله فريضة، ﴿كُلُواْ... وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾.

٨ ـ العابد لله لا يحرّم ما أحلّ الله، ﴿كُلُواْ... إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

إشارات:

□ تواصلاً مع الآية الكريمة السابقة في موضوع تحريم ما حلّل الله تعالى تحصر

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

هذه الآية التحريم في عدد محدود من الأطعمة إذ ورد فيها: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

□ ويعلّل الإمام الصادق عليه السلام هذا التحريم بالقول: «... **أمّا الميتة فإنّه لم ينل منها أحدٌ إلّا ضعُفَ بدنه، وذهبت قوّته، وانقطع نسله، ولا يموت آكلة الميتة إلّا فجأة**».

وقال عليه السلام في أكل الدم: «**أمّا الدم فإنّه يورث القسوة في القلب وقلّة الرأفة والرحمة حتى لا يؤمن أن يقتل ولده ووالديه ولا يؤمن على حميمه ولا يؤمن على من يصحبه**»[1].

□ وقد استثنت الآية الكريمة من يضطرّ إلى تناول هذه الأطعمة المحرّمة حفاظاً على حياته من التلف، ولكن شرط أن يكون ذلك بمقدار رفع الحاجة أي أن يكون المضطرّ ﴿غَيْرَ بَاغٍ... وَلَا عَادٍ﴾ والباغي هو الطالب، أي طالب اللّذة، والعادي هو المتجاوز حدّ الضرورة اللازمة لنجاته من الموت، ولا يريد منها اللذّة. وما هذا الإذن إلّا تأكيد على الرحمة واللطف الإلٰهيّين.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل شيئاً من ذلك حتى يموت فهو كافر**»[2].

□ لمّا كانت الأطعمة المحرّمة المذكورة في الآية لم تتجاوز أربعة أطعمة لذا، فإنّ الحصر بكلمة «إنّما» هو «حصر إضافي» وليس حصراً عقلياً، أي هو حصر يستهدف نفي موارد التحريم في العصر الجاهلي.

□ وبالنسبة إلى قاعدة الاضطرار، فهي لا تقتصر على الأطعمة فقط، بل تشكل مخرجاً شرعياً لرفع الحرج في كلّ حالة اضطرارية. وقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن الرجل أو المرأة يذهب بصرهما فيأتيهما الأطباء فيقولون: نداويكما شهراً أو أربعين ليلة، مستلقيان كذلك تصليان، فرخص في ذلك وقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[3].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣١٠.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٣٠.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٤٥.

□ تنبني أحكام الإسلام على المصالح، وهو ما نلمسه في الآية السابقة التي أحلّت الأطعمة لأنّها طيّبة، وهنا تحرّم تناول ما ليس طيّباً.

□ لا تنحصر أسباب التحريم الإلٰهيّ في المسائل الطبية والصحيّة، مثل تحريم أكل الميتة والدم، بل أحياناً تستند الحرمة إلى الأسباب العقدية والفكرية والتربوية، مثل تحريم الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها، وذلك بهدف محاربة الشرك، كما يحصل مثلاً في امتناعنا عن تناول طعام شخص معيّن ليس بسبب عدم مراعاته الشروط الصحيّة، بل من منطلق الإعراض عنه أو الاعتراض عليه والبراءة منه.

التعاليم:

١ ـ يولي الدين الإسلامي اهتماماً كاملاً بمسألة الطعام، وقد حذّر مراراً من الأطعمة الضارّة والمحرّمة، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ...﴾[1].

٢ ـ زمام التحريم بيد الله وحده ولا أحد غيره له هذا الحقّ، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾.

٣ ـ لا بدّ من التوجّه إلى الله وذكر اسمه على الذبائح. لئلا يخرج أيّ من أعمالنا عن دائرة التوحيد، ولنتصدّ لمظاهر الشرك وعبادة الأصنام، ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ تغيير الحكم جائز عندما يكون الاضطرار مفروضاً، لا عندما يضع الإنسان نفسه في دائرة الاضطرار. فكلمة ﴿ٱضْطُرَّ﴾ جاءت في صيغة المبني للمجهول لا للمعلوم، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾.

٥ ـ الإسلام دين جامع وشامل ليس فيه طرق مسدودة. فكل تكليف يمكن رفعه حين الاضطرار، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ . . . فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

٦ ـ لا بدّ للمشرّع من أن يأخذ الظروف الاستثنائية بالاعتبار حين يسنّ القوانين، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ... فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

(١) ذكر تحريم لحم الخنزير والميتة والدم أربع مرات في القرآن الكريم، في هذه الآية وفي سورة المائدة: الآية ٣؛ وسورة الأنعام: الآية ١٤٥؛ وسورة النحل: الآية ١١٥.

٧ ـ ينبغي عدم إساءة استغلال الظروف الاستثنائية، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾

إشارات:

□ تصرّح الآية بأنّ أحبار اليهود والنصارى كانوا قبيل بعثة النبيّ الكريم ﷺ يبشّرون الناس بظهوره المرتقب، ويتلون عليهم أوصافه المذكورة في التوراة والإنجيل، ولكن بعد أن بُعث النبيّ بالرسالة وجدوا أنّ الإيمان بالدين الجديد يعني التخلّي عن المزايا التي يتمتّعون بها كلّها من رئاسة وثروة... إلخ، فخافوا على مصالحهم وآثروا كتمان الحقيقة طمعاً في الاحتفاظ بالمزايا التي يتمتّعون بها، وليأكلوا الهدايا والعطايا في بطونهم، غافلين عن أنّ هذا ليس سوى ثمن بخس يقبضونه إزاء الخطيئة الكبرى التي يرتكبونها، وفي الحقيقة، إنّهم لا يأكلون في جوفهم إلّا النار. وقد جاء في موضع آخر من القرآن الكريم تشبيه أكل مال اليتيم بأكل النار أيضاً[1].

في يوم القيامة لن يكلّم الله الذين يكتمون الحقّ، بينما سوف يكلّم المؤمنون ربّهم في ذلك اليوم. طبعاً سيكون هذا التكليم عن طريق إحداث أمواج صوتية في الفضاء، أو أنّه تعالى سيكلّم الخواص من عباده بلسان القلب عن طريق الإلهام، وسوف يحظى كل مؤمن بهذا الشرف العظيم بأن يكون كليم الله في ذلك اليوم.

□ ذكرت الآية السابقة المحرّمات من الأطعمة مثل لحم الخنزير والميتة، ثمّ أعقبتها بكلام عن المغفرة. ورد في هذه الآية حرمة كتمان الحقّ والآثام المتعلقة بالقضايا الفكرية والثقافية، مع تصعيد في النبرة وتشديد في لحن

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠.

الكلام، وغياب كلمات المغفرة والرأفة، هذا فضلاً عن أنّ لهجة هذا التشديد والتهديد تتصاعد وتيرتها كلما انتقلنا إلى الآيات اللّاحقة.

□ لم يقتصر كتمان الحقيقة على رسالة النبيّ الأكرم ﷺ، بل يشمل أيضاً الذين كتموا الحقّ بشأن الخلفاء الحقيقيين للنبي، فهؤلاء أيضاً مشمولون بالعقوبة على ما قاموا به من محو لآثار حادثة غدير خم من كتب التاريخ والتفسير، وانحرفوا بمسار الآيات في اتجاه غير اتّجاهها الحقيقي، وأضلّوا الناس عندما وضعوا الآخرين في موضع الإمام المعصوم.

التعاليم:

١ ـ التعلّق بحبائل الدنيا، هو الخطر الأكبر الذي يتهدّد العلماء، ﴿يَكْتُمُونَ... وَيَشْتَرُونَ﴾.

٢ ـ بيع الدين خسارة أيّاً كان الثمن، ذلك أنّ الحقائق والمعارف التي تحتويها الكتب السماوية أثمن من أيّ مصلحة، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٣ ـ سوف تتجسّم الأطعمة المحرّمة في صورة نيران في يوم القيامة، ﴿مَا يَأْكُلُونَ... إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

٤ ـ للأشياء جوهر باطني وملكوتي تتجسّم في يوم القيامة على صورة ذلك الجوهر، ﴿فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾.

٥ ـ لا بدّ من أن تتناسب العقوبة مع الجريمة، فأولئك الذين سدّوا طريق كلام الله على الناس، سيُحرمون في يوم القيامة من لذّة الاستماع إلى كلام الله تعالى، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ عذاب يوم القيامة مادّي ومعنوي، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾

إشارات:

□ وردت في معصية كتمان الحقيقة ثمانية تهديدات متتالية؛ خمسة في الآية

السابقة، وتهديدان في هذه الآية، وواحد سيأتي في الآية اللّاحقة. لم يأت هذا العدد المتوالي من التهديدات بشأن أيّ معصية أخرى في القرآن الكريم.

- كثيرةٌ هي الدوافع وراء كتمان الحقيقة، نذكر من جملتها الغرور، والتعصبّ الدينيّ الأعمى، والمحافظة على الجاه والموقع، وضعف النفس، والجبن، وضيق الأفق، وتشجيع الغرباء، والتشبّث بالرئاسة والثروة.
- أمّا التوبة من هذه المعصية فلا يقتصر على الاستغفار والتضرّع والبكاء، بل يضاف إليها تبيين الحقائق. طبعاً، في بعض الحالات يكون الكتمان ضرورة، مثلاً، عندما يتهدّد أرواح الآخرين خطر محدق، أو درءً لمفسدة أو خطر، مثل تستّر الإنسان على ذنوبه أو ذنوب الناس.

التعاليم:

١ ـ كتمان الحقائق هو من المعاصي الخاصّة بالعلماء، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾.

٢ ـ ثواب تبيين الكتب السماوية الفوز بالهداية والمغفرة الإلٰهيّة، وعاقبة كتمانها الضلالة والعذاب، ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾.

٣ ـ التجارة بالدين وكتمان الحقيقة تستتبعها أقسى العقوبات. عبارة ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ وردت في القرآن الكريم في هذه الزمرة فقط.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾

إشارات:

- لقد مرّ علينا في الآيات السابقة التهديد والوعيد بنزول العذاب الإلٰهيّ على كاتمي الحقّ، ثمّ تبيّن هذه الآية هنا السبب من ذلك كلّه، وهو أنّ الله تعالى بعث الكتب السماوية واضحة من دون أيّ لبس أو غموض، ومدعمة بالأدلة والبراهين، ولم يدع أيّ مجالٍ لأيّ شبهة أو إبهام، ولكن مع ذلك نجد فئة من الناس تلجأ إلى التحريف طمعاً في الحفاظ على مصالحها الشخصيّة، وتنشر بذور الاختلاف في فهم الكتب السماوية وإدراكها لتصطاد في الماء العكر.

يصف الله تعالى هذه الفئة بأنّهم: ﴿لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

□ والحقيقة، أنّ إحدى طرق كتمان الحقيقة هي بثّ بذور الفرقة والاختلاف. جميع التهديدات التي وردت في الآيات الثلاث السابقة كانت موجّهة إلى كاتمي الحقائق. هنا، وبدلاً من أن تصفهم الآية بأنّهم: ﴿لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أوردت: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، وفي هذه دلالة على أنّ كاتمي الحقّ هم أنفسهم الناشرون لبذور الاختلاف؛ لأنّه في الأجواء الملبّدة والمسمومة فقط يمكن تضليل الناس وإخفاء الحقائق عنهم.

التعاليم:

١ ـ العلماء هم مصدر الاختلافات الدينيّة والطائفية لا الكتب السماوية، ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ... ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

٢ ـ كتمان الحقائق يؤدّي إلى الشقاق والفرقة والتشتّت، ﴿شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «البِرّ» في الأصل هي التوسّع، ثمّ أطلق على الإحسان، و«البَرّ» بفتح الباء هو شديد الإحسان لبيان أعلى درجات التأكيد، فـ «بَرّ» أبلغ من بار، كما أنّ عدلاً أبلغ من عادل.

□ **«البأساء»** من **«البؤس»** أي الشدّة والفقر اللذان يسلّطان على الإنسان من الخارج.

«**الضرّاء**»، المرض والزمانة التي تعتصر وجود الإنسان من الداخل. و«**حين البأس**» المراد وقت الحرب والجهاد.

- بعد حادثة تغيير القبلة التي مرّت علينا في الآية ١٤٤ من هذه السورة، أصبحت حديث الساعة في أوساط المعترضين من اليهود والنصارى، إذ تخاطبهم الآية الكريمة بالقول: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

- هذه الآية هي الأكثر شموليّة في القرآن الكريم، لما تحتويه من أصول مهمّة عقدية وعمليّة وأخلاقية. ذكر العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» حديثاً للرسول الأكرم ﷺ يقول فيه إنّ من عمل بهذه الآية اكتمل إيمانه.

تحصي الآية الكريمة ١٥ خصلة حميدة في الأركان الثلاثة، هي: الإيمان والعمل والأخلاق.

ففي الركن الأول تشير إلى الإيمان بالله والملائكة والأنبياء والقيامة وكتب السماء.

وفي الركن الثاني، تتطرّق إلى القضايا العبادية مثل الصلاة، والاقتصادية مثل الزكاة، والاجتماعيّة مثل تحرير الإماء والعبيد، والعسكرية مثل الصبر على القتال والجهاد في الجبهات، والنفسية مثل الصبر على المعضلات والشدائد.

وفي الركن الأخير وهو الأخلاق، تشير إلى أهميّة الوفاء بالعهد، وترك الافتتان بالأمور المادّية، والعمل من أجل مساعدة الفقراء.

- إنّ الإيمان بالله هو العامل الذي يدفع بالإنسان للإصغاء لصوت الحقّ والانصياع له وعدم الخضوع للطغاة. أمّا الإيمان بيوم القيامة فهو يوسّع أفق الإنسان ويرفع من همّته. والإيمان بوجود الملائكة دليل على اليقين بعالم ما وراء الطبيعة. والإيمان بالأنبياء إيمان بالوحي ومسيرة الهداية عبر التاريخ، ودليل على أنّ الإنسان لم يكن مطلق العنان في هذا العالم بل ملجمٌ بشرائع وقوانين.

إنّ الإنفاق دليل على تفشّي روح التعاون والمحبة بين بني البشر،

والصلاة صلة مباشرة بالله تعالى، والزكاة برنامج وتخطيط لحلّ مشاكل المحرومين، والوفاء بالعهد مدعاة لتوثيق الروابط والصلات، والصبر تمحيص للإنسان[١].

□ لعبارة **«آتى المال على حبّه»** ثلاثة أوجه هي:

أ) دفع المال للآخرين على الرغم من حبّ الإنسان لذلك المال وتعلّقه به.

ب)أو دفع المال من منطلق حبّ الله.

ج) وأخيراً، دفع المال بدافع حبّ الفقير.

□ قيل في الصبر إنّه مصدر جميع الكمالات، ويذكر القرآن أنَّ الصبر هو الطريق إلى الجنّة؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[٢].

كما أنّ الملائكة في تحيّتها لأهل الجنّة تقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[٣].

فإنّ القرآن يذكر عن القادة الإلٰهيّين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾[٤].

□ وقد ورد ما يشبه هذه الآية في الروايات وذلك لتبيين المعارف الدينية، فلنقرأ معاً هذه المجموعة من الروايات:

- **«ليس العاقل من يعرف الخير من الشرّ، ولكن العاقل من يعرف خير الشّرين»**[٥].
- **«ليس العلم بكثرة التعلّم إنّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد»**[٦].
- **«ليس البرّ في حُسن الزّي ولكن في السكينة والوقار»**[٧].
- **«ليس السخي. . . الذي ينفق ماله في غير حقّه؛ ولكنه الّذي يؤدّي إلى الله ما فرض عليه»**[٨].

---

(١) تفسير المراغي، ذيل الآية.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٥.
(٣) سورة الرعد: الآية ٢٤.
(٤) سورة السجدة: الآية ٢٤.
(٥) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٦.
(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٥.
(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٦.
(٨) المصدر نفسه، ج ٧١، ص ٣٥٢.

- **«ليس العبادة كثرة الصيام والصلاة وإنّما العبادة كثرة التفكّر في أمر الله»**[(١)].
- **«أشدّ من يُتم اليتيم يتيمٌ انقطع عن إمامه»**[(٢)].

□ إنّ من كمال تقوى المرء أن يؤدّي الإنفاق الواجب والمستحبّ، فكلاهما ضروري. إذ نجد بعض الناس يكثر من المستحبّات في الإنفاق إلى المحرومين ويتهاون في الحقوق الواجبة، والبعض الآخر يكتفي بأداء الخمس والزكاة، ويمسك يده عن الإنفاق المستحبّ للفقراء والمحرومين. فيما تبيّن هذه الآية أنّ المؤمن الحقيقي هو من أنفق في المجالين معاً، الحقوق الواجبة والمندوبة.

وهو ما ورد أيضاً في الروايات، كما في هذا الحديث الشريف المرويّ عن رسول الله ﷺ: **«إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة»**[(٣)]. و**«ما آمن بالله وبيوم القيامة من بات شبعاناً وجاره جائع»**[(٤)].

التعاليم:

١ ـ لا يشغلْنا ظاهر الدين عن جوهره، فنخفق في تحقيق أهدافنا الحقيقيّة، ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ... وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾.

٢ ـ إحدى وظائف الأنبياء والكتب السماوية تغيير ثقافة الناس وعاداتهم، ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ... وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾.

٣ ـ الإيمان مقدّمٌ على العمل، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ... وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾.

٤ ـ لا بدّ من الإيمان بالله ويوم القيامة إلى جانب الإيمان بجميع الأنبياء والملائكة، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ... وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾.

٥ ـ الشيء المهمّ هو التواصل مع الله إلى جانب التواصل مع الناس والتكافل الاجتماعي في الحوادث والشدائد، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ... وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.

---

(١) المصدر نفسه، ج ٧١، ص ٣٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ج ١٠٨، ص ١٧١.
(٣) تفسير القرطبي.
(٤) الكافي، ج ٢، ص ٦٦٥.

٦ ـ الأعمال الصالحة تتبلور بفضل الإيمان بالله تعالى، ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ... وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾.

٧ ـ هدف الإسلام من الإنفاق ليس إشباع الجائع فحسب، بل أن يتنازل الغني عن حبّه المال، ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.

٨ ـ ينفق المحسن ماله وثروته في سبيل الله عن رغبة وشوق، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.

٩ ـ ذوو القربى من الفقراء أحقّ بالإنفاق من غيرهم، ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ...﴾.

١٠ ـ لا تردّوا السائل، سواء كان فقيراً أو مسكيناً أو ابن السبيل أو ذي القربى. فكلمة «السائلين» جاءت في الآية بصورة مستقلة، ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ... وَٱلسَّآئِلِينَ﴾.

١١ ـ لا يكتمل الإيمان والصلاة والزكاة من دون المشاركة في الجهاد، ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ﴾.

١٢ ـ المنتحلون كثر، لكنّ المؤمنين الحقيقيين الذين يمتثلون لجوهر الدين قلّة، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ﴾.

١٣ ـ العمل بالوظائف الدينيّة والالتزامات الاجتماعية دليل الصدق الإيمان، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ﴾.

١٤ ـ الورع من صدّق عمله معتقداته، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ... أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

إشارات:

□ «القصاص» مأخوذ من «قصّ» بمعنى قصّ الأثر وهو اتّباعه، ومنه اشتقّت «القصّة»؛ لأنّها تتبع الآثار والأخبار. ومنه القصاص؛ لأنّه يتلو أصل الجناية فيتبعه حتى إنزال العقوبة بالقاتل.

□ لا يخلو أيّ مجتمع من وقوع جرائم القتل بين الحين والآخر، والدين الإسلامي بوصفه شريعة جامعة وشاملة، يجب أن يمتلك رؤية واضحة وبرنامجاً عادلاً ومنطقياً لمثل هذه الحوادث، ليمنع تكرّرها وانتشارها، ولكي يتصدّى لحوادث الانتقام والإسراف في أخذ الثأر التي كانت سائدة بين القبائل العربيّة في العصر الجاهلي، حتى لا يتشجّع القتلة العتاة، وفي الوقت ذاته، لا يضيع دم المقتول ظلماً.

فالتقاليد الجاهلية قبل الإسلام كانت تبيح سفك دماء قبيلة بأكملها في إزاء قتل فرد واحد؛ إذ يذكر التاريخ نشوب الكثير من الحروب الطويلة بسبب ذلك. وبذلك استطاع الإسلام من خلال التدبير الذي طرحته هذه الآية أن يصون دماء الناس، ويستجلب رضا الطرفين وبالتالي مراعاة الحدود ويحول دون الإسراف.

نعم، القصاص حكم إلهي وشرعي، لكنّه ليس حكماً إلزامياً غير قابل للعفو أو الصفح، بل إنّه حقّ لأولياء الدم، إن شاؤوا فلهم العفو عن القاتل، وأخذ الدية أو بتركها.

والسؤال المطروح هنا هو: لماذا يطرح حكم القصاص مسألة جنس القاتل؟ أي أنّ الرجل لا يُقتل بالمرأة، بمعنى أنّ قاتل المرأة لا يُقتصّ منه؟

والجواب هو: أنّ القتل سواء أكان للرجل أم للمرأة هو واحد من وجهة نظر العدالة الإلٰهيّة والإنسانيّة والعقوبة الأخروية، غير أنّ الفرق هو في العقوبة الدنيوية، وما ذلك إلّا لأنّ الرجل، في الأعمّ الأغلب، يتحمّل مسؤوليات إعالة الأسرة، والاقتصاص منه سيوقع أسرة المقتصّ منه، في حرج اقتصادي وضيق مالي.

نعم، قد تكون المرأة معيلة لأسرتها إلّا أنه لا يعتدّ بذلك لأنّه من الحالات الاستثنائية، والتشريعات والأحكام لا تقوم على أساس تلك الحالات، بل على الحالة العامة السائدة. طبعاً، بالإمكان إجراء حكم قصاص الرجل (قاتل المرأة) إذا دفع أولياء المقتولة نصف ديته.

التعاليم:

١ ـ يراعي حكم القصاص مبدأ المساواة والعدل، ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ...﴾.

٢ ـ لا بدّ من الحزم والرأفة، جنباً إلى جنب، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾، وكأنّ أولياء المقتول إخوة القاتل، وهذا الأخير لم يخرج من دائرة الإسلام والأخوة.

٣ ـ امتزجت التشريعات الإسلاميّة بالأخلاق الإسلاميّة في هذه الآية، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ... فَمَنْ عُفِيَ﴾.

٤ ـ الإسلام ليس مع وجوب القصاص كما عند اليهود، ولا مع وجوب العفو كما يقول النصارى، بل يقدّم حلولاً متعدّدة تتراوح بين القصاص والدية والعفو، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ... فَمَنْ عُفِيَ﴾.

٥ ـ جواز العفو عن القاتل وتخفيض حكم القصاص إلى الدية، ربّما جاء لتربيتنا، ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٦ ـ تجاوز الحدود الإلٰهيّة وسوء استغلالها حرام، ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ... فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧ ـ إذا تساهلتم في القوانين فالتزموا بما تعهّدتم به، ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ ... فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

إشارات:

□ تردّ الآية الكريمة على بعض المزاعم والشبهات المثارة حول حكم القصاص، وبالأخصّ، من قبل بعض من يسمّون أنفسهم المتنوّرين. فهي تبيّن أنّ القصاص ليس انتقاماً وثأراً شخصياً، بل سبيلاً إلى حفظ الأمن الاجتماعي. فالمجتمع الذي لا يقتصّ من القتلة، سوف يغيب عن ربوعه الشعور بالأمن والعدالة، وسيصبح جسداً ميتاً لا روح فيه، تماماً كما هو الحال مع قوانين

الطب والزراعة والرعي التي تستلزم القضاء على الميكروبات والجراثيم، وذلك من أجل ضمان حياة الإنسان والحيوان والنبات وسلامتهم.

فلو نظرنا إلى كلّ قاتل على أنّه مريض نفسي، وبالتالي قرّرنا العفو عنه، فكيف سنضمن عدم تكرّر هذا الأمر واستغلاله كذريعة في الجرائم الأخرى، فنحن نعلم أنّه ليس جميع المجرمين يرتكبون جرائمهم وهم في وضع نفسي وفكري طبيعي، ولكن، أفهل ينبغي على هذا الأساس إطلاق سراح جميع المجرمين ليتحوّل المجتمع السليم إلى غابة يرتكب فيها الإنسان ما يحلو له من الجرائم بحجّة أنّه يعاني اضطرابات نفسية وروحية. لا يظنّن المرء أنّ عالم اليوم أصبح زاخراً بالعواطف الجيّاشة والمحبّة الإنسانية، وأنّ حكم القصاص حكم عنيف ليس بمقدوره مواكبة ثقافة حقوق الإنسان المعاصرة. لقد أجاز الإسلام حكم القصاص وسمح إلى جانب ذلك لأولياء الدم بالعفو وأخذ الدية ليتمّ العمل بما تقتضيه المصلحة.

ولم تعد التفسيرات من قبيل الأفضل أن يُزجّ بالمجرمين والقتلة في السجون بمعسكرات العمل الإجباري لتحقيق التقدّم الاقتصادي بدلاً من قتلهم، أقول: لم تعد هذه التفسيرات مقبولة اليوم، ذلك أنّ هذه البرامج لا تشكل ضمانة للأمن العام. فالأمر المهمّ هو صيانة المنزلة الإنسانيّة وتحقيق المجتمع العادل، لا عالم مليء بالأخطار ولكن مع إنتاج أكبر، وعلى يد المجرمين والقتلة!

- لمّا كان حكم القصاص يشكل ضمانة لتحقيق العدل والأمن ويعتبر رمز حياة المجتمع، فإنّ الآية الكريمة تختتم بعبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، بمعنى أنّ تنفيذ حكم القصاص يكفل تطبيق القانون ويؤدّي إلى الحيلولة دون مزيد من سفك الدماء والجرائم في المجتمع.
- الجدير بالذّكر أنّ الحياة على أوجه هي:

١ ـ الحياة العادية: مثل إحياء الأرض في فصل الربيع وبعد نزول المطر، ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾[1].

(١) سورة الروم: الآية ٥٠.

٢ ـ الحياة المعنوية: مثل دعوة النبيّ الكريم ﷺ التي كانت سبباً لإحياء الناس، ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

٣ ـ حياة البرزخ التي يحياها الشهداء، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾[2].

٤ ـ الحياة الأخروية التي يحياها الجميع، ﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[3].

٥ ـ الحياة الاجتماعيّة في ظلّ استتباب الأمن والعدالة. كما في الآية الكريمة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ تطبيق أسس العدل، ضمان لاستمرار حياة المجتمع، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.

٢ ـ لا بدّ من الموازنة بين الرأفة والقوة، فالله، وهو الرحمن الرحيم، يعتبر القصاص سرّ الحياة، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.

٣ ـ إزالة عنصر الخطر مبدأ عقلاني، ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

٤ ـ لا داعي للاستعجال بالحكم، إذ ربّما لا نستسيغ القصاص من أول وهلة، ولكن إذا حكمنا عقولنا سنجده سبباً للحياة، ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

٥ ـ فلسفة تشريع أحكام الدين هي التقوى واجتناب المعاصي. سواء الأحكام العبادية أو القضائية[4]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٦ ـ القصاص، عامل ردع للقاتل لئلّا يعود إلى القتل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤. (٢) سورة البقرة: الآية ١٥٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨.

(٤) وفي توضيح الحكمة من تشريع الصوم يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، سورة البقرة: الآية ١٨٣.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

إشارات:

- توحي الوصيّة للبعض بأنّها تعني التعجيل بالأجل، بيد أنّها في الحقيقة تنطوي على بعد نظر وسعة أفق وتحسّب للاحتمالات بالنسبة إلى الموصي، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾، فذلك لأنّ الاحتضار هو آخر فرصة للوصيّة، إذ لا مانع من أن يكتب الإنسان وصيّته قبل ذلك أي أثناء سنيّ حياته وقبل دنوّ أجله.

- ويبدو أنّه وقع بحث لدى المفسّرين في مسألة وجوب الوصيّة، فقال البعض بوجوبها، إلّا أنّه يستفاد من عبارة ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أنّها عمل مستحبّ، إذ لو كانت واجبة لقال سبحانه: «حقاً على المؤمنين».

- نقطة أخرى جديرة بالانتباه وهي أنّ الآية الكريمة استخدمت كلمة «خير» بدلاً من «المال» ربّما لأنّ الإسلام يعتبر الثروة المشروعة خيراً وبركة، ويحذّر من المال الحرام، أو من الوله الشديد بالمال، أو ترجيحه على الفضائل الأخلاقيّة والمتطلبات الاجتماعيّة أو اتّباع طرق استغلالية مع الناس في استحصاله.

- واشتراط الوصيّة بـ «المعروف» فيه دلالة على أنّها ينبغي أن تكون موافقة للعقل من النواحي قاطبة، بعيداً عن دوافع الحقد والانتقام أو المحبّة المفرطة غير المبرّرة، ذلك أنّ الإرث يقسّم بنسب معيّنة وعلى عدد محدود من الأقارب، لذلك قد يكون بين الأقارب من لا سهم له من الإرث أو كان سهمه قليلاً، من هذا المنطلق، فإنّ الإسلام يوصي في هذه الحالة بزيادة سهمه في الوصيّة، ويحذّر الذين لا يراعون أصول العدالة أو يقترفون ظلماً في كتابة الوصيّة، من أنّهم يرتكبون إثماً كبيرا[١].

---

(١) سفينة البحار، «وصى».

والعدالة في الوصيّة على درجة كبيرة من الأهميّة في الإسلام تبيّنها هذه الرواية:

«إنّ رجلاً من الأنصار توفّي وله صبية صغار وله ستّة من الرقيق فأعتقهم عند موته وليس له مال غيرهم فلمّا علم النبيّ الكريم ﷺ سأل قومه ما صنعتم بصاحبكم قالوا دفنّاه قال: أما إنّي لو علمته ما تركتكم تدفنونه مع أهل الإسلام ترك ولده صغاراً يتكفّفون الناس»(١).

- الوصيّة مسألة حسّاسة ودقيقة للغاية، لأنّها إذا كتبت، لا سمح الله، في لحظة غفلة، وتسبّبت في إشعال فتنة بين الورثة ومشاكل بينهم، فإنّ ذلك كفيل بأن يمحو أعمال الخير كلّها. وقد روي عن النبيّ الأكرم ﷺ أنّه قال: **«إنّ الرجل ليعمل ـ أو المرأة ـ بطاعة الله تعالى ستين سنة ثمّ يحضرهما الموت فيُضارّان في الوصية فتجب لهما النار»**(٢).
- الوصيّة دليل على أنّ ملكيّة الإنسان مستمرّة في بعض أمواله حتى بعد موته.
- أجاز الإسلام للمسلم أن يتصرّف في ثلث أمواله بعد الوفاة، واشترط إذن الورثة في ما يزيد عن الثلث، ومن الأفضل لنا أن نطالع وصايا أولياء الله والشهداء والعلماء لنتعلّم أصول تدوين الوصيّة.
- رُوى عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن: **«من ضمن وصية الميت ثمّ عجز عنها من غير عذر، لا يُقبَل منه صرف ولا عدل، ولعنَه كلّ ملكٍ بين السماء والأرض، ويصبح ويمسي في سخط الله، وكلّما قال: «يا ربِّ»، نزلت عليه اللعنة، وكتب الله ثواب حسناته كلّه لذلك الميت، فإن مات على حاله دخل النار»**(٣).

الوصية: آثارها وبركاتها

١ ـ الوصيّة دليل على دقّة الموصي وأنّه يحتاط للاحتمالات.

٢ ـ الوصيّة دليل على احترام حقوق الآخرين.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) نهج الفصاحة، العبارة ٦٠٦.

(٣) تفسير أطيب البيان.

٣ ـ الوصيّة هي التوجيه للقيام بالأعمال الخيرية التي انشغل عنها الإنسان، وكذلك استمرار للعمل الصالح حتى بعد الموت.

٤ ـ الوصيّة طريق لسدّ الثغرات الاقتصاديّة وتوزيع الثروة.

وفي أهميّة الوصيّة قال الرسول الأكرم ﷺ: «**من مات على وصيّة حسنة مات شهيداً**»[1].

□ إذن، الوصيّة للوالدين ولذي القربى مدعاة لتجديد أواصر المحبة وصلات القربى، وهي بعد، نوع من التقدير والاحترام. ومن هنا، نجد أنّ الوصيّة للوالدين جاءت في مطلع الآية الكريمة، لتنتظم الوصيّة بشكل ينتفع منها الوالدان، مضافاً إلى ما هو مقرّر لهما من سهم في الإرث، وهذا بحدّ ذاته من أمثلة الإحسان.

أقسام الوصيّة:

١ ـ **الوصيّة الواجبة**: مثل الوصيّة لأداء حقوق الله وحقوق الناس، وقضاء ما فات الموصي من صلوات وعبادات أخرى، وأداء الحقوق الواجبة مثل الخمس والزكاة وقضاء الديون المستحقّة للناس.

٢ ـ **الوصيّة المستحبّة**: كما في حالة الوصيّة لتنفيذ المشاريع الخيرية.

٣ ـ **الوصيّة المباحة**: كأن يوصي الإنسان أبناءه بعمل معيّن أو حرفة أو لباس أو طعام.

٤ ـ **الوصيّة المكروهة**: كالوصيّة ببناء القبور.

٥ ـ **الوصيّة المحرّمة**: كالوصيّة باستحداث مراكز الفساد، ونشر كتب الضلال.

التعاليم:

١ ـ صحيح أنّ الموت يغيّب الإنسان عن هذه الدنيا، لكنّ ملفّه يبقى مفتوحاً ببعض الأعمال مثل الوصيّة، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ. . . ٱلْوَصِيَّةُ﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٣٥٢.

٢ ـ المال والثروة خيرٌ إذا ما أحسن الإنسان مصارفهما، ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾.

٣ ـ علاوة على الإرث، يجب أن يشمل الإنسان بوصيّته والديه والأقربين، ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

٤ ـ لا بدّ للوصيّة من أن تأخذ بالاعتبار السنن الحسنة في المجتمع، ﴿ٱلْوَصِيَّةُ... بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٥ ـ ترك الوصيّة، نوع من عدم التقوى إزاء الآخرين، ﴿ٱلْوَصِيَّةُ... حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

إشارات:

- نجد في هذه الآية أيضاً تحذيراً لكل الذين يتلاعبون بمفاد الوصيّة، لذا فإنّ من يعمل على تحويرها أو تعديلها بعدما علم بموضوع الوصيّة ومصارفها، فإنّ إثم التحوير أو التعديل على من يرتكب هذا العمل المشين، مع احتفاظ الموصي، بالطبع، بأجره. على سبيل المثال، إذا أوصى الإنسان بمساعدة مئة فقير، لكنّ أمواله أعطيت لآخرين من دون علمهم بمفاد الوصيّة، وقاموا بصرف تلك الأموال، فإنّ الموصي في هذه الحالة لن يُحرم أجره وثوابه على نيّته في مساعدة مئة فقير، كما أنّ الوارثين لأموال الموصي من دون علم بمفاد وصيّته أيضاً لا إثم عليهم، بل الإثم كلّ الإثم على الذين حرّفوا الوصيّة عن علم وقصد، وعليه أن يعلم بأنّ الله سميع عليم بما جنت يداه، وسيعاقب على هذه الخيانة في الدنيا والآخرة.

- وقد ورد أنّ أحدهم سأل أبا عبد الله عليه السلام عن رجل أوصى بماله في سبيل الله؟ فقال: **«أعطه لمن أوصى به له وإن كان يهودياً أو نصرانياً، إنّ الله تعالى يقول:** ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾»[1].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٥٩.

التعاليم:

١ ـ تغيير الوصيّة لصالح الآخرين حرام، ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ... فَإِنَّمَآ إِثْمُهُ﴾.

٢ ـ حقّ الملكيّة بعد الموت محترم، ولا يحقّ لأحد تغيير الوصيّة، ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُ﴾.

٣ ـ يكون الإثم أخطر عندما يكون مغرضاً وعن علم وقصد، ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾.

٤ ـ الإيمان بأنّنا بين يدي الله أفضل حافز على التقوى واجتناب تغيير الوصيّة، ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ... أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

إشارات:

- يقول صاحب تفسير مجمع البيان عن كلمة «جنف» هو الانحراف الذي يصيب الموصي في وصيّته عن سهو، و«الإثم» هو الانحراف عن قصد وعمد.
- نعم، لقد حرّم الإسلام تغيير الوصيّة، ولكن حين تكون مدعاة لإثارة الفتنة أو فيها ما يخالف موازين الشرع عند ذاك يصبح التغيير مجازاً. كما أنّ الموصي إذا أوصى بأكثر من الثلث في أمواله، ففي هذه الحالة أيضاً يمكن للورثة أن يتوقّفوا على الثلث حين تنفيذ الوصيّة، حالة أخرى يجوز فيها تغيير الوصية وهي إذا أوصى الإنسان بالمعصية، أو إذا وجد الورثة أنّ تطبيقها سيجرّ إلى فتنة وفساد، على أن يكون تغييرها تحت إشراف الحاكم الإسلامي. من هنا، فإنّه لا يوجد أيّ طريق مسدودة في الإسلام، وبما أنّ الهدف من جميع الأعمال هو الوصول إلى التقوى، فإنّه يمكن إصلاح جميع الاعوجاجات باعتماد التقوى كأساس ونهج.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ لنا من مراعاة مبدأ الأولوية، فالعمل بالوصيّة مهم، إلّا إنّ الأهمّ منه

هو منع وقوع الفتنة والعمل على إصلاح أمور المسلمين، ﴿فَمَنْ خَافَ... فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

٢ ـ يجب أن يقوم التغيير على مبدأ الإصلاح ورفع الفتنة، ﴿فَمَنْ خَافَ... فَأَصْلَحَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾

إشارات:

- التاء في «تقوى» مقلوب من الواو، فيكون أصلها «وقى» وهو: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات[1]. المعاصي في معظمها مصدرها الغضب والشهوة، والصوم يطفئ حدّة هاتين الغريزتين وجموحهما، وبالتالي، يقلّل من الفساد في جهة ليزيد التقوى في الجهة الأخرى[2].

- يعتقد أغلب المفسّرين والباحثين في العلوم القرآنية أنّ الآيات التي تبدأ بنداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ نزلت في المدينة، أي أنّها جزء من الآيات المدنيّة. نزل حكم الصوم كما هو الحال مع أحكام الجهاد والزكاة، في السنة الثانية للهجرة.

آثار الصوم وبركاته

- تذكر الآية الكريمة في كلمة موجزة أنّ أهمّ أثر للصوم هو تقوى الله وخشيته في السرّ والعلن. فالصوم هو العبادة الوحيدة المستترة، فأداء الإنسان الصلاة والحجّ والجهاد والزكاة والخمس ظاهر للعيان وأمام أعين الناس، فيما يبقى

---

(١) مفردات الراغب، مادة «وقى».

(٢) الكافي، ج ٢، ص ١٨.

الصوم عملاً كامناً في إرادة الإنسان يعمل على تقويتها وتعزيزها. فمن يربّي نفسه على الكفّ عن تناول الطعام والشراب وممارسة الغريزة الجنسيّة مع زوجته طيلة شهر واحد، بإمكانه كذلك أن يكفّ نفسه عن أعراض الناس وأموالهم. وفائدة أخرى للصوم وهي أنّه يعمل على ترسيخ العاطفة في روح الإنسان، فمن يذق طعم الجوع شهراً كاملاً، يتعرّف إلى آلام الجائعين ويعش عذاباتهم.

روي عن الرسول الأعظم ﷺ قوله: **«الصوم نصف الصبر»**[١].

والصوم المتعارف لدى عامّة الناس هو الامتناع عن الأكل والشرب والجماع، غير أنّ في الصوم آثاراً وبركات أخرى غير الكفّ عن المفطرات ينبغي للصائم مراعاتها هي، اجتناب المعاصي، خاصّة الخواص فهدفهم من الصوم، علاوة على الكفّ عن المفطرات واجتناب المعاصي، تفريغ القلب من كلّ شيء سوى الله تعالى[٢]. الصوم يحلّق بالإنسان إلى مرتبة الملائكة، هذه المخلوقات البعيدة عن الطعام والشراب والشهوات[٣].

□ ورد عن النبيّ الكريم ﷺ قوله: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له»**[٤].

كما ورد في حديث قدسي شريف: **«الصوم لي وأنَا أجزي به»**[٥].

إنّ أهميّة الصوم من السموّ والمكانة الرفيعة بحيث إنّ ثمّة روايات ذكرت لبعض العبادات ثواباً كثواب الصوم[٦]. لقد عرفت الأمم السالفة فريضة الصوم، إلّا أنّ الله تعالى كان قد خصّ الأنبياء وحدهم بصوم شهر رمضان، حتى جاءت أمّة الإسلام ففرض عليها صوم هذا الشهر الفضيل ليصبح واجباً عينيّاً[٧].

يقول الرسول المصطفى ﷺ: **«لكلّ شيءٍ زكاة، وزكاة البدن الصّيام»**[٨].

---

(١) تفسير المنار.
(٢) تفسير روح البيان.
(٣) صاحب الجواهر، نقلاً عن آية الله جوادي آملي.
(٤) تفسير المراغي.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) الكافي، ج ٢، ص ١٠٠.
(٧) تفسير نور الثقلين.
(٨) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٣٨٠.

التعاليم:

١ ـ النداء الرقيق، خطوة مؤثّرة في إيصال الرسالة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

نقل تفسير مجمع البيان حديثاً شريفاً يقول: «**لذّة ما في النداء ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إزالة تعب العبادة والعناء**». فإذا أراد الوالدان أن يصغي ابنهما لحديثهما فليحسنوا خطابه.

٢ ـ من أساليب الدعوة تقديم الأحكام الشاقة في قالب سهل. ورد في الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، والعمل بالأحكام التي نزلت على الأمم جميعاً يكون أهون من تلك التي تخصّ أمّة بعينها، ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

٣ ـ شرح القرآن الكريم الحكمة من تشريع بعض الأحكام كالصوم مثلاً، ذلك أنّ معرفة الفائدة من العمل يبعث النشاط في الإنسان للقيام به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

إشارات:

- أحد معاني وزن «إفعال» في اللغة العربيّة هو السلب، فمثلاً كلمة «العُجمة» هي: خلاف الإبانة، والإعجام: الإبهام، وعندما تدخل الكلمة في باب الإفعال تصبح «إعجاماً» بمعنى السلب أي الإفصاح أو ذهاب العُجمة. الشيء نفسه ينطبق على كلمة ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾، والتي تعني: يشقّ عليهم.
- إنّ طاعة الله والتسليم لقضائه يعدّ فضيلة، فإذا أمر سبحانه بالصوم، فيجب الامتثال لأمره، وإذا أمر بالإفطار فعلينا السمع والطاعة.

يقول صاحب تفسير مجمع البيان: إنّ أحد أصحاب النبيّ بقي على صيامه

مع وجود المشقة، ومع رؤيته للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو يفطر ويشرب، فقال النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمّا أخبِر عنه وعن أمثاله: **«أولئك العصاة»**. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه لا يصلّى على جنازة من يصوم في السفر.

كما ورد في تفسير القرطبي عن ابن عباس أنّه قال: **«خرج رسول اللّه ﷺ من المدينة إلى مكة فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بماء فرفعه إلى يديه ليريه الناس فأفطر حتى قدم مكة وذلك في رمضان»**. وعلى أيّ حال، فإنّ صوم المسافر أو المريض لا يجزى، وينبغي له أن يقضيه[1].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في تفسير الآية: **«المرأة تخاف على ولدها»**[2].

التعاليم:

١ ـ وضع الإسلام لكلّ فرد وفي كلّ ظرف التشريع المناسب له. الآية الكريمة توضّح حكم المسافر والمريض والطاعن في السنّ، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

٢ ـ لا ينبغي للظروف أن تمحو الحكمة الرئيسة من الحكم وآثاره وفوائده. فإذا شُقّ على الإنسان الصوم في ظروف المرض أو السفر، فعليه أن يقضيه في أيّام أخرى لكيلا يُحرم فوائد الصوم، ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

٣ ـ نيّة السفر وحدها لا تحول دون الصوم بل المباشرة به، ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

٤ ـ ليس لقضاء الصوم وقت معيّن، ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

٥ ـ الاستطاعة هي شرط التكليف، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾.

٦ ـ ورد موضوع إطعام الفقراء في نصوص الأحكام، ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.

٧ ـ العبادات المقترنة بالرغبة والشوق هي التي تقرّب العبد إلى الله تعالى، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٦٤.
(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ١٨٢.

٨ ـ في الأحكام الإلٰهيّة يكون الحدّ الأدنى واجباً على الجميع، ثمّ تترك الخيار للإنسان لأكثر من ذلك. فالآية الكريمة أوجبت الإطعام لجائع واحد، واعتبرته مستحبّاً لأكثر من ذلك، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾.

٩ ـ الامتثال لأحكام الله فيه بركات للإنسان نفسه لا لله، ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

إشارات:

- «**رمضان**» من «**الرمض**»، أي: شدة وقع الشمس، وقيل: الحرق دون نار أو دخان، وإنّما سمّي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة، من الإرماض وهو الإحراق، ومنه رمضت قدمه من الرمضاء أي احترقت.
- شهر رمضان هو شهر نزول القرآن الكريم، وهو الشهر الوحيد المذكور في كتاب الله، ويحتوي على ليالي القدر.

روى صاحب تفسير البرهان حديثاً عن النبي ﷺ يدلّ: «أنّ كلّ الكتب السماوية: التوراة والإنجيل والزبور والصحف والقرآن نزلت في هذا الشهر، شهر رمضان أفضل شهور الله.

وكان ﷺ في آخر جمعة من شهر شعبان يلقي خطبة طويلة يستعرض فيها عظمة الشهر الفضيل، وقد وردت تلك الخطبة في بعض كتب التفسير والحديث[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٣٥٦.

وللإمام السجاد عليه السلام مناجاة مؤثّرة في وداع شهر رمضان المبارك ذكرت في الصحيفة السجادية.

- الإسلام دين بني على السماحة واليُسر، وعدم تكليف الإنسان ما لا يطيق، فبإمكان المريض أو المسافر أن يقضي ما فاته من صيام شهر رمضان في أيام صحّته أو عودته من السفر، وأن يتيمّم إذا تعذّر عليه الوضوء، وأن يصلّي جلوساً إذا شقّ عليه الوقوف. كلّ هذه تندرج ضمن قاعدة فقهية مشهورة هي **«قاعدة لا حرج»**.

رمضان: شهر ضيافة الله

- في شهر رمضان يحلّ كلّ إنسان مؤمن ضيفاً على مائدة الله ببطاقة دعوة كتب عليها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، ولهذه الضيافة مزايا كثيرة نذكر منها:

١ ـ المضيف هو الله تعالى، وقد وجّه دعوة شخصيّة لضيوفه.

٢ ـ تزخر مائدة المضيف بأنواع الخيرات: ليالي القدر، نزول القرآن الكريم، نزول الملائكة، إجابة الأدعية، ورهافة الروح، والأمان من النار.

٣ ـ تاريخ الدعوة هو شهر رمضان، وهو شهرٌ أوّله رحمة، وأوسطه مغفرة وآخره الإجابة والعتق من النار (كما ذكرت الروايات).

٤ ـ تفاصيل الدعوة هي أنّه يتمّ تأمين زاد الضيوف لعام كامل في ليلة القدر، وتزدان الأرض بأنوار الملائكة الهابطة إلى الأرض في تلك الليلة المباركة.

٥ ـ طعام هذا الشهر هو طعام الروح، لا طعام الجسم، لتغذية التكامل المعنوي، وآيات الذكر الحكيم هي من ألطاف طعام هذه الضيافة، إذ إنّ تلاوة آية واحدة فيه تعادل تلاوة تمام القرآن في باقي الشهور.

إنّها ضيافة من نمط خاص لا تشبهها أيّ ضيافة دنيوية. فالله العالم الغني الخالق الباقي العزيز الجليل يستضيف الإنسان الجاهل الفقير الفاني المخلوق

الذليل، ويخاطبه بالقول: **«أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب»**[١].

آداب الضيافة

□ وردت رواية مطوّلة في كتاب وسائل الشيعة في أخلاق الصائم تقول: **«فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا، ولا تغتابوا، ولا تباشروا، ولا تخالفوا، ولا تغاضبوا، ولا تسابوا، ولا تشاتموا، ولا تنابزوا، ولا تجادلوا...، ولا تظلموا ولا تسافهوا...، ولا تغفلوا عن ذكر الله وعن الصلاة، والزموا الصمت والسكوت والحلم والصبر والصدق، ومجانبة أهل الشرّ، واجتنبوا قول الزور والكذب، والخصومة، والنميمة...، وكونوا مشرفين على الآخرة...»**[٢].

إنّ شرط حضور المؤمن في هذه الدعوة الربّانية لا يقتصر على تكلّف مشقّة الجوع والعطش، فقد جاء في الحديث الشريف ما معناه أنّ من يُعرض عن طاعة أئمة السماء أو يسيء معاملة زوجته في الشؤون الأسرية والشخصيّة، أو يمتنع عن أداء حقوق الزوجية المشروعة ويعقّ والديه، فإنّ صومه باطل لأنّه لم يلتزم بشروط هذه الضيافة.

لطالما ذكرت الفوائد الطبية والمنافع العامة للصوم حيث يتمّ من خلال الإمساك والجوع التخلّص من الفضلات والمواد الزائدة المتراكمة في الجسم. ومن البركات الأخرى التي ينعم بها المؤمن في هذا الشهر المبارك فهي الاستيقاظ في الأسحار ورهافة الروح وإجابة الدعاء، والبائس هو من حُرم هذه الخيرات والبركات كلّها.

التعاليم:

١ ـ فضل شهر رمضان هو لنزول القرآن فيه. وفضل الإنسان أيضاً هو بمقدار ما

---

(١) خطبة النبي الكريم ﷺ في الجمعة الأخيرة من شهر شعبان.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٧، ص ١١٩.

استضاءت روحه من نور آيات القرآن، ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

٢ ـ وجوب الصوم يكون بعد ثبوت دخول شهر رمضان المبارك، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

٣ ـ قضاء الصوم واجب على المريض والمسافر، ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

٤ ـ لا يجب قضاء الصوم في زمان خاصّ، ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

٥ ـ أساس أحكام الله تعالى السماحة وعدم تكليف الإنسان ما لا يطيق، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾.

٦ ـ العسر والحرج يرفعان الواجبات عن كاهل الإنسان، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

٧ ـ قضاء الصوم يكون بمقدار الأيام التي فاتت، ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

٨ ـ الله يمنّ على عباده بتوفيق الهداية وأداء العبادات. التكبير دليل على تعظيم الله وترك الاهتمام بالنفس والآخرين، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

٩ ـ الصوم سبيل هداية الإنسان وشكر النعم، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

إشارات:

- سأل رجل رسول الله ﷺ عن الله سبحانه أهو قريب ليناجيه بصوت خفيّ أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت الآية الكريمة أعلاه.
- اللّافت للنظر في هذه الآية أنّ الله تعالى ذكر ذاته المقدّسة سبع مرّات للإشارة إلى لطفه بالدّاعي. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾.

هذه العلاقة المفعمة بالحبّ قائمة في حال أراد الإنسان أن يناجي ربّه.

□ الدعاء هو، في الحقيقة، التماهي مع خلائق الكون في تسبيح الله، إذ طبقاً لآيات القرآن الكريم فإنّ الوجود برمّته يسبّح بحمده ويقنت له؛ ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[١]، وجميع الخلائق تقف عاجزة ومتضرّعة في ساحة قدسه؛ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢]، لذا، فلندعُ الله ألّا يجعلنا الطائر الذي يغرّد خارج سربه.

□ يطرح القرآن الكريم وصايا وإرشادات تخصّ مسألة الدعاء من جملتها:

١ ـ لا بدّ للدعاء من أن يكون خالصاً، ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣].

٢ ـ أن يكون مقروناً بخشية الله والأمل برحمته، ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٤].

٣ ـ أن يأخذ قالب التضرّع والتوسّل وأن يكون في الخفاء، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٥].

٤ ـ أن يكون نداء الدّاعي خافتاً، ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[٦].

يستعرض كتاب أصول الكافي في مجلّده الثاني عشرات الأحاديث التي تتناول أهميّة الدعاء وآدابه ودوره، وكذلك في التوجّه والإصرار وذكر الحاجات أثناء الدعاء والأدعية الجماعية والإيمان بالإجابة.

هنا نسأل: لماذا لا يُستجاب لأدعيتنا في بعض الأحيان؟

الجواب هو: إنّ عدم استجابة أدعيتنا يعود إلى شركنا أو جهلنا. يقول صاحب تفسير الميزان: إنّ الله تعالى يقول: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وإذا لم يُستجب لنا، فقد يكون السبب أنّنا لم ندعُ ما فيه الخير والصلاح لنا، بل كان شرّاً ووبالاً علينا، أو إذا كان خيراً، فإنّنا لم نخلص النيّة في طلبه، بل كان دعاؤنا مشوباً بالاستمداد من الآخرين، أو أنّ الإجابة لم تكن في صالحنا، وبدلاً من ذلك، طبقاً لما جاء في الروايات، يرفع الله عنّا بلايا وشروراً، أو أنّه يجعلها ذخراً لنا ولذرّيتنا أو ليثيبنا عليه في الآخرة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٦.
(٢) سورة الرحمن: الآية ٢٩.
(٣) سورة غافر: الآية ١٤.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٦.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٥.
(٦) سورة مريم: الآية ٣.

جاء في كتاب «أصول الكافي» أنّ الله تعالى لا يستجيب لمن كان طعامه حراماً، أو لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، أو من سأل الله وهو ساهٍ.

- الدعاء لا يعني الانصراف عن الفعالية والنشاط، بل إنّه يجسّد حالة التوكل على الله المقرونة بالعمل والنشاط. وما يؤكد هذا المنحى الحديث الشريف الذي يقول إنّه لا يُستجاب لمن لا كسب له.
- ولعلّ انتظام آية الدعاء في وسط آيات الصوم سببه الترابط الوثيق بين الموضوعين أي بين شهر الله وبين الدعاء.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: نعلم أنّ فعال الله تعالى كلّها لا تخرج عن سياق القوانين والسنن الثابتة، إذن، أيّ دور للدعاء هنا؟

الجواب: من المعلوم أنّ حكم الصلاة والصوم بالنسبة إلى المسافر غير حكمهما في وطنه، وكذلك الحال بالنسبة إلى الدّعاء، فهل يستوي الإنسان الداعي مع الإنسان الغافل عن ذكر الله، لذا، فإنّ سنّة الله تقتضي أن يشمل بلطفه الأوّل لا الثاني.

نعم، الدعاء ومناجاة الله تعالى، تزيد من حظّ الإنسان في استنزال ألطاف الله واستدرار جميل عطفه. تماماً كما تفعل زيارة أولياء الله والتوسّل بهم فعلها في تغيير أوضاع الإنسان، فالطفل حين يصحبه والده إلى أحد مجالس الضيافة، يستدرّ محبّة وعطفاً أكبر ممّا لو ذهب وحده إلى ذلك المجلس.

من هنا، فإنّ الدعاء والزيارة والتوسّل تتسبّب في تغيير الأوضاع والظروف، لا في نسخ السنن الإلٰهيّة الثابتة.

التعاليم:

١ ـ الدعاء مفيد في أيّ زمان ومكان. فالله ﷻ يقول: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، أمّا ما يقال عن أوقات معيّنة أو أماكن مقدّسة للدعاء فذلك لزيادة الفضيلة.

٢ ـ الله قريب من عبده، فماذا عن العبد؟ أحياناً إذا تعرّضنا لغضبه، فذلك بسبب المعاصي التي تبعدنا عن الله، ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

٣ ـ إجابة الله الدعاءَ دائمة، لا موسمية. وليس أدلّ على ذلك من كلمة ﴿أُجِيبُ﴾ التي تعني الدوام.

٤ ـ صحيح أنّ الله تعالى عليم بكلّ شيء، إلّا أنّ وظيفة العبد الدعاء، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾.

٥ ـ إجابة الدعاء مشروطة بالإيمان، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾.

٦ ـ الدعاء وسيلة الرشد والهداية، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

إشارات:

□ في بداية ظهور الإسلام كان النكاح في شهر رمضان حراماً بالليل والنهار، كما أنّ الأكل كان محرّماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم، وكان الإفطار مباحاً في ساعة معيّنة فقط من الليل، وكان قوم من المسلمين ينكحون بالليل سرّاً على الرغم من تحريم ذلك، وكان البعض الآخر يحمل نفسه على الامتناع عن الأكل والشرب بعد النوم وكان يشقّ عليه ذلك، وكان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يدعى مطعم بن جبير شيخاً ضعيفاً وكان صائماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلمّا انتبه قال لأهله: قد حُرّم عليّ الأكل في هذه الليلة. فلما أصبح حضر حفر الخندق في أطراف المدينة فأغمي عليه فرآه رسول الله ﷺ فرقّ له ونزلت هذه الآية حيث أحلّ الله النكاح بالليل في شهر رمضان والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ﴾.

❑ الاعتكاف هو الانقطاع عن الدنيا واللّجوء إلى الله تعالى. كان النبيّ الأكرم ﷺ وعلى الرغم من المشاكل والمسؤوليات الكثيرة الملقاة على عاتقه كان أحياناً يعتكف في المسجد بضعة أيّام، فيجلي بذلك روحه من الهموم ويمنحها صفاءً وطمأنينة. ولمّا كان النكاح في المسجد في غير حال الاعتكاف أيضاً حراماً، فإنّه يبدو أنّ المراد بكلمة ﴿عَٰكِفُونَ﴾ هو اللبث في المسجد لا الاعتكاف بمعنى العبادة المعروفة.

❑ في تشبيه الزوج باللباس ملاحظات ظريفة ولطيفة كثيرة نذكر منها:

- كما أن اللباس يجب أن يكون مناسباً للإنسان في تصميمه ولونه وجنسه، فإنّ الزوجين أيضاً يجب أن يكونا كفوين لبعضهما ومنسجمين في الأفكار والثقافة والشخصيّة.
- اللباس زينة واستقرار للإنسان، والزوجة والأولاد أيضاً زينة واستقرار للأسرة.
- اللباس يستر عيوب جسم الإنسان، وكذلك الزوجان يستر كلّ منهما عيوب الآخر، ويحفظ كل منهما الآخر من الانحراف.
- اللباس يقي الإنسان من الحرّ والبرد، وكذا الزوجة فهي تمنح الأسرة دفءاً وحناناً وتطرد عنها الجمود والبرود العاطفي.
- ترك اللباس أو التعرّي مدعاة للافتضاح، وترك الزواج يفتح الطريق أمام انحراف الإنسان وافتضاحه.
- في البرد نستعمل اللباس السميك وفي الحرّ اللباس الخفيف، والحال نفسه مع الزوجين فينبغي على كلّ منهما تنظيم أخلاقه وسلوكه مع المتطلبات العاطفية والروحية لزوجه؛ إذا كان الزوج عصبي المزاج، على الزوجة أن تغمره بلطفها لتهدّئ من غضبه، وإذا كانت الزوجة تعاني التعب والإجهاد، فمن واجب الزوج أن يراعي وضعها ويخفّف عنها.
- ينبغي للإنسان أن يحفظ لباسه من التلوّث والأدران، وعلى الزوجين أن يحفظ كلّ منهما الآخر من التلوّث والانزلاق في وحل المعاصي.

التعاليم:

١ ـ السماحة واليُسر في الأحكام من مزايا الدين الإسلامي، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾.

٢ ـ مراعاة الأدب الرفيع في الخطاب، من مزايا القرآن الكريم. ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ يعني الكلام في مسائل الزوجية، وقد جاء في الآية كناية عن الجماع.

٣ ـ حيثما أراد الإنسان أن يغلق باباً يجب أن يفتح باباً آخر مشروعاً، فالله تعالى حرّم النكاح في نهار شهر رمضان، وأحلّه في الليل[1]، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾.

٤ ـ العبادة في النهار واللذّة المشروعة في الليل دليل على جامعية الدين، ففي آية واحدة وردت معاً أحكام الصوم ومسائل الزوجية، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾.

٥ ـ يولي الإسلام الاحتياجات الطبيعية للإنسان عناية تامّة، ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾.

٦ ـ الحاجة متبادلة بين الزوجين، وكلّ منهما يحتاج إلى الآخر لسدّ احتياجاته الطبيعية، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾.

٧ ـ الله سبحانه عليم بتفاصيل حياة الإنسان، ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ﴾.

٨ ـ الإنسان خطّاء، وهو مقهور غريزته الجنسية، ﴿كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

٩ ـ ترك أوامر الله خيانة وظلم للنفس، ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

١٠ ـ في مسائل النكاح والإنجاب لا تشترطوا على الله أن يكون الطفل ذكراً أو أنثى، ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾.

١١ ـ حتى النكاح يجب أن يكون ذا هدف، ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾.

١٢ ـ معايير الأحكام الإسلاميّة هي نفسها المعايير العامة والطبيعية البسيطة.

---

(١) روي أنّه يكره الجماع في غرّة كلّ شهر إلّا شهر رمضان فإنّه مستحبّ، وربّما لهذا السبب يجب أوّلاً تأمين حاجات الناس ثمّ تكليفهم بالواجبات.

فانبلاج بياض الفجر أو ظلمة الليل ظاهر واضح للجميع أينما كانوا، ﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.

١٣ ـ لا ينبغي أن ننسى دور المواقيت في العبادات، ﴿أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾.

١٤ ـ الاعتكاف هو التزام المسجد، مع الصوم، ﴿عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾.

١٥ ـ لا بدّ من اجتناب المعاصي. ورد في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، فالاقتراب من المعصية كالوقوع فيها، والرسول الأكرم ﷺ يقول: «**إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَحِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ**»[1].

١٦ ـ التقوى هي جوهر الأحكام الإلٰهيّة. فالغاية من الصوم التقوى، والغاية من النكاح التقوى[2] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٧ ـ العمل بأحكام الله، مدعاة للرشد والتقوى، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

إشارات:

□ «**تدلوا**» الدلو بمعنى الإرسال في البئر، وفي الآية جاءت بمعنى إرشاء القاضي. والرشوة في الحكم معروفة، وهي تقديم المال أو السلعة إلى القاضي للتأثير في حكمه.

□ «أموال الناس» هي الأموال العامة والخاصة في آنٍ معاً. وعلاوة على ذلك فإنّ الرشوة لقاء استيفاء الحقوق غير المالية للناس أيضاً حرام.

الرشوة

□ الرشوة، من الكبائر وتترتّب عليها أوبئة ومفاسد اجتماعيّة جمّة، منها:

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٦٧.

(٢) بدأت هذه السورة بعبارة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، تشير الكثير من آياتها إلى أنّ التقوى هي غاية الأحكام الإلٰهيّة.

ضياع العدالة، وتفشّي اليأس في أوساط المستضعفين، وتطاول الأقوياء وصلفهم، فساد ذمم الحكام أو القضاة، وتفسّخ الثقة العامة. وفي ضوء هذه الآثار والنتائج المهلكة للرشوة، فقد ورد في الروايات نهيٌ وإدانة شديدان لهذا العمل؛

- فها هو الرسول الأكرم ﷺ يخاطب الإمام علي عليه السلام بالقول: **«يا عليّ! من السُّحت ثمن الميتة والكلب والخمر ومهر الزانية والرشوة في الحكم»**[1].
- ويقول الإمام علي عليه السلام في تفسيره للآية الكريمة: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾[2] **«هو الرجل يقضي لأخيه الحاجة ثم يقبل هديته»**[3].
- وكان الإمام الصادق عليه السلام ينزل الرشوة منزلة الكفر إذ قال: **«وأمّا الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم»**.
- والرسول الأكرم ﷺ قال: **«لعن الله الراشي والمرتشي والماشي بينهما»**، كما قال ﷺ: **«لا يشمّ صاحب الرشوة ريح الجنّة»**[4].
- ونقرأ في حديث آخر: **«أيّما والٍ احتجب من حوائج الناس احتجب الله عنه يوم القيامة وعن حوائجه، وإن أخذ هدية كان غلولاً، وإن أخذ الرشوة فهو مشرك»**.[5].
- ويروى عن الإمام عليّ عليه السلام أنّ المرتشي محروم من حقّ الولاية[6]، وقال في هذا الصّدد أيضاً: **«ما من قوم يظهر فيهم الرشا إلّا أخِذوا بالرعب»**[7].

❑ وجدير بالذكر أنّه قد يحلو للبعض تغطية الرشوة بقناع من الأسماء المختلفة مثل الهدية والتحف وبدل الأتعاب وقرّة العين. . . إلخ.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٥٤.
(٢) سورة المائدة: الآية ٤٢.
(٣) بحار الأنوار، ج ١٠٤، ص ٢٧٣.
(٤) المصدر نفسه، ج ١٠٤، ص ٢٧٤.
(٥) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٦٣.
(٦) نهج البلاغة، الخطبة ١٣١ (...ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع).
(٧) نهج الفصاحة، ح ٢٦٩٣.

يروي لنا التاريخ أنّ الأشعث بن قيس أرسل حلوى إلى بيت الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام كهدية أملاً في أن يستعطف الإمام في قضيّة رفعها إليه، فقال له الإمام: «**والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته**»[١].

□ وفي السيرة أنّ واحداً ممّن ولّاهم الرسول الأكرم ﷺ قَبِل رشوة قدّمت إليه بشكل هدية، فقال الرسول: كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟ قال: كانت هدية يا رسول الله قال: «**أرأيت لو قعد أحدكم في داره ولم نولّه عملاً أكان الناس يهدونه شيئاً؟!**»[٢].

التعاليم:

١ ـ ينبغي أن تكون الملكية من طريق مشروع مثل الحيازة، التجارة، الزراعة، الصناعة، الإرث، الهدية وما شابه، بيد أنّ التصرّف بالباطل والرشوة لا يولّد ملكية، ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

٢ ـ المجتمع كالجسد الواحد، ﴿بَيْنَكُم﴾، ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾.

٣ ـ الرشوة حرام، وليس للإنسان أن يستولي على أموال الناس بالرشى، ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾.

٤ ـ الإسلام سلّط الناس على أموالهم، ﴿أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾.

٥ ـ الهفوات الخطيرة هي التي تكون عن قصد وعلم، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

إشارات:

□ «**مواقيت**» جمع «**ميقات**» الوقت المضروب للشيء، والوعد الذي جعل له وقت.

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.
(٢) نهج الفصاحة، ح ٥٣٩.

□ سبب نزول الآية هو سؤال قوم من المسلمين النبيّ الكريم ﷺ عن الهلال وما سبب محاقه وكماله ومخالفته حالَ الشمس؟ حول الأهلّة، تشير الآية الكريمة إلى بعض المطالب نبحثها في ما يأتي:

إحدى مزايا الدين الإسلامي هي أنّه يقيم أحكامه عادةً على المقاييس الطبيعية والعامة والمتاحة للجميع، فمثلاً، من أجل تعيين مقدار الماء الكر، استخدم الشبر، أو من أجل تحديد مواقيت الصلاة استعان بالفجر والغروب، وزوال الشمس... إلى غير ذلك من مصالح العباد. كما اعتمد الاستهلال لتحديد مواقيت بداية حلول شهر رمضان وانتهائه أو أيّام الحج. كما أنّ الأوضاع المختلفة للقمر هي بحدّ ذاتها تشكل تقويماً عاماً متاحاً للجميع. ومن الطبيعي أنّ نظام الحياة الاجتماعيّة بحاجة إلى التقويم أي إلى وسيلة لتحديد التاريخ الدقيق، ولا شك في أنّ أفضل وسيلة عامة لهذا التقويم هي المتاحة لجميع الناس متعلّمهم وأمّيهم وفي جميع بقاع الأرض ليمكنهم من خلال نظرة واحدة تحديد أيام الشهر بدقّة، أوّله ووسطه وآخره، بل كلّ يوم من أيامه. ثمّ ورد في الآية الكريمة: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، ليس الخير والبرّ في أن تدخّلوا البيوت من الكوّة أو الثقب وأنتم في لباس الإحرام، فهذه كلّها خرافات وعادات بالية.

□ لكلّ شيء أصوله وطرقه الطبيعية التي ينبغي سلوكها، وأنّ لكل عمل زماناً مناسباً وأسلوباً مناسباً وقائداً مناسباً، فكما أنّ الله تعالى وضع الأهلّة لتحديد التقويم والمواقيت، فإنّ القائد أيضاً يجب أن يُعيّن من قبل الله. ممّا قرّرنا نستنتج أنّ معنى الآية هو: استعينوا بالأهلّة لتحديد التقويم والأوقات، وارجعوا إلى تعاليم السماء والأئمة لتنظيم أموركم لئلا تضلّوا. للسعادة طريق يجب أن نسلكه حتى نصل إلى الهدف المطلوب، واتّقوا الله عند اختيار المواقيت والنهج والقائد لعلّكم تفلحون.

عن أبي جعفر الصادق عليه السلام، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ

﴿أَبْوَابِهَا﴾ قال: «يعني أن يأتي الأمر من وجهه، أي الأمور كان»[١].

وروي عن الأئمة المعصومين عليهم السلام قولهم: نحن آل محمد أبواب الله.

وقال النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»[٢].

□ لو تأمّلنا الآية الكريمة لوجدنا أنّ عبارة ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وردت بين كلمتي ﴿تَقْوَىٰ﴾، ربّما كان المراد من ذلك أنّ معرفة الطرق وسبل التعاطي مع الأمور يحتاج إلى تقوى استثنائية، وأنّ أولئك الذين تنقصهم التقوى قد ضلّوا الطريق.

□ أو أن يكون المعنى: إنّ الذين يسألونك عن الأهلّة، أجبهم على قدر عقولهم، وهو أنّ هذه الأهلة طريق إلى تحديد التاريخ وتنظيم الشؤون الدينية. ولكن إذا أردتم معرفة أوضاع القمر وكيفية تقلّبه بين المحاق والبدر والهلال فينبغي عليكم أن تمهّدوا لذلك من خلال المطالعة والدرس والبحث.

وقد أفصح القرآن الكريم عن هذا الأمر من خلال قوله إنّ البرّ والخير ليس في السير في المتاهات، بل لكلّ عمل طريقة وأصول، فطريقة معرفة الأنواء الجويّة هو دراسة هذا العلم وسبر أعماقه.

التعاليم:

١ ـ حركة الكواكب والقمر يحكمها نظام ومواقيت دقيقة يمكن أن تترك تأثيرها على برنامج عبادات الناس ونظام حياتهم[٣] ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾.

٢ ـ إذا كان للجماد والكواكب السماوية نظام، ولها مدارات ثابتة تتحرك خلالها لتنتظم شؤون البشر على وقعها، فهل من العدل أن نفتقد نحن البشر للنظام والحساب، ونكون منفلتين، ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾.

٣ ـ قدّموا أجوبة مفهومة للسائل تكون موضع حاجته، ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ١٩٠. (٢) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٠٩.

(٣) يقول الإمام الصادق عليه السلام في جواب من سأله عن الأهلة: هي أهلّة الشهور، فإذا رأيت الهلال فصم، وإذا رأيته فأفطر. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٧٦.

٤ ـ الإسلام يتصدّى للعادات والتقاليد الجاهلية والخرافات البالية، ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

٥ ـ لا يؤخذ البرّ والخير من الخرافات والعادات البالية للأسلاف، بل من تعاليم الوحي والأئمة المعصومين ﷺ. الأساليب المنطقية كذلك، ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ... وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾.

٦ ـ كلّما أغلقنا طريقاً، يجب أن نفتح طريقاً آخر صحيحاً، ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ... وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾.

٧ ـ قيمة المفاهيم الدينيّة في أن تتجلّى في الإنسان. إذ ورد في الآية الكريمة: ﴿ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، ولم تقل «البرّ هو التقوى»، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

٨ ـ الطرق المعوجّة ليست من التقوى في شيء، والانحراف هو أن نترك سيرة العقلاء وأولياء الله ونسمّي ذلك «تقوى» و«تهذيباً للنفس»، ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٩ ـ اللّجوء إلى الأساليب الباطلة وغير المنطقية في إنجاز الأعمال أمر خلاف التقوى، ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٠ ـ المحافظة على المواقيت ومراعاة النظام في الأعمال والعبادات من أمثلة التقوى والفلاح، ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١١ ـ الفلاح غاية الكمال. الكثير من التعاليم هي من أجل الوصول إلى التقوى، بيد أنّ هذه الآية اعتبرت التقوى مقدّمة للفلاح، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

إشارات:

□ تقرّر الآية الكريمة ضرورة الدفاع والتصدّي لاعتداءات الآخرين، لكنّها تذكر

المسلمين في الوقت نفسه بضرورة الالتزام بالحدود الإلٰهيّة وعدم تعدّيها حتى في ميدان المعركة، وألّا يتعرّضوا لمريض أو امرأة أو طفل أو شيخ ممّن لم يرفعوا السلاح بوجه المسلمين، وألّا يشهروا السلاح إلّا بعد دعوة المشركين للإسلام، وألّا يكونوا البادئين بالحرب، وأن يتمسّكوا بما تمليه عليهم الشرائع والعواطف الإنسانيّة حتى في خضمّ المعركة.

▫ لا شك في أنّ بعض الصفات والخصال تفقد بريقها في بعض الظروف؛ فمثلاً، الرحمة صفة ذات قيمة سامية، إلّا أنها تفقد معناها عندما يتعلّق الأمر بالنمر لأنّ ذلك يعدّ ظلماً بحقّ الخراف.

أو أنّ العلم فضيلة سامية، لكنّه أحياناً يكون عدم العلم فضيلة، فمثلاً، في ليلة مبيت الإمام علي عليه السلام في فراش النبيّ الكريم ﷺ عندما عزم على الهجرة إلى المدينة، فإنّ فضيلة هذه التضحية هي في أن لا يعلم الإمام علي عليه السلام مصيره وفيما إذا كان سيقتل أم لا، لأنّه إذا كان يعلم أنّه لن يمسّه أذى، لكان حتى الأفراد العاديّون مستعدّين ليفعلوا ما فعله في تلك الليلة.

وهكذا، فإنّ الخصال الإنسانيّة كالسخاء والشجاعة تتراوح قيمتها فيخفت بريقها حيناً ويتألّق حيناً آخر أو قد ينعدم هذا البريق تماماً، ولكن صفة واحدة فقط لا يعتريها التغيير ألا وهي العدالة، فهي قيمة ثابتة على مرّ الزمن، في كلّ زمان ومكان، ومع جميع الأفراد، العدوّ والصديق.

▫ التصدّي للعدو يتمّ على مرحلتين هما:

١ ـ الإعراض وغضّ النظر، ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾[١]، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾[٢].

٢ ـ الشدّة والحرب، ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[٣]، ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[٤].

▫ إنّ الحروب التي يخوضها المسلمون هدفها الدفاع عن أنفسهم والذود عن دين

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٨.
(٢) سورة النساء: الآية ٦٣.
(٣) سورة التوبة: الآية ٧٣.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

الله تعالى، فيما يهدف الأعداء من حروبهم إلى إطفاء نور الله؛ ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾[(١)]، وكسر شوكة المسلمين وإذلالهم، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[(٢)].

التعاليم:

١ ـ الدفاع والردّ بالمثل هي من جملة الحقوق الإنسانية. فمن يتعرّض لنا بالقتال، علينا أن نردّ بالمثل، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟... ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾.

٢ ـ هدف الحروب الإسلاميّة ليس الاستيلاء على الأراضي والمياه أو استعمار البلدان أو الانتقام، بل الهدف منها الدفاع عن الحقّ عبر استئصال العناصر الفاسدة وتحرير الأفكار وإنقاذ البشر من الخرافات والأوهام، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ يجب مراعاة أصول العدالة والحقّ حتى في أثناء اشتعال الحروب، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟... وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾، لقد تكرّرت كثيراً عبارة ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ في القرآن الكريم إذ يوصي الله تعالى المسلمين من خلالها بألّا يتجاوزوا حدوده في أيّ تشريع.

٤ ـ الظلم والوقوف بوجه دين الله يقطع حبل المودّة الإلٰهيّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

٥ ـ ليس الحضور في الجبهات وحده يقرّب الإنسان من الله، بل إنّ القرب الإلٰهيّ هو في مراعاة أصول العدل والحقوق حتى في ظلّ قعقعة السلاح، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

٦ ـ الهدف من حمل السلاح يجب أن يكون في سبيل الله، لا من أجل الأهواء أو التعصّبات أو الغنائم أو الرياء أو السمعة، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ يجب أن لا ننسى الله ولا نسرف حتى في الدفاع عن حقوقنا الطبيعية. فعلى

(١) سورة الصف: الآية ٨. (٢) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

الرغم من أنّ المشركين هم الذين بدأوا القتال وعليكم الدفاع عن أنفسكم، إلّا أنّ الدفاع يجب أن لا يخرج عن سبيل الله، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩١)﴾

إشارات:

□ تتضمّن الآية الكريمة حكماً بقتل المشركين وإخراجهم من مكة المكرمة، ثمّ تذكر سبب هذا الحكم بقولها: إنّ المشركين ولسنوات طويلة سلّطوا أذاهم وشرّدوكم من دياركم، وكانت فتنتهم أشدّ من القتل وأقسى، لذلك ينبغي عليكم ألّا تتهاونوا في التصدّي لهم وقتالهم.

□ **سؤال:** لماذا الفتنة أشدّ من القتل؟

الجواب: في القتل يرحل الإنسان عن الدنيا وينتقل إلى الآخرة، بينما في الفتنة يبقى الإنسان معلّقاً بين الدنيا والآخرة، فلا هو ينتقل إلى الآخرة، ولا هو يقضي وطره من الدنيا.

التعاليم:

١ ـ الردّ بالمثل وقتال العدوّ ضروريّ في بعض الحالات، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾.

٢ ـ الدفاع العادل لا يقتصر على الجبهة والحرب، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

٣ ـ حقّ الوطن حقّ إنسانيّ معترف به من قبل جميع الأديان، ﴿أَخْرَجُوكُمْ﴾.

٤ ـ المثير للفتن، كالمحارب، يستحقّ أشدّ العقاب، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ... وَأَخْرِجُوهُم... وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

٥ ـ الحرم والمسجد الحرام من الحُرمات، وأكثر حُرمة منهما دم المسلم؛ وهنا تطرح الآية مسألة الأولويّات والمهمّ والأهمّ، ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾.

٦ ـ كما أنّه لا يجوز البدء بالقتال، كذلك بالنسبة إلى الحُرمات يجب ألّا نكون السبّاقين إلى انتهاكها، ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾

إشارات:

- لم تصرّح الآية عن ماذا يجب أن ينتهي المشركون حتى يُغفر لهم، وثمة احتمالان مطروحان هما:

أ) أن ينتهوا عن إشعال الحروب والفتن، وذلك بقرينة الآيات السابقة التي ذكرت عن الحرب والقتال.

ب) أن ينتهوا عن الكفر. وذلك من أجل أن ينالوا مغفرة الله التي خصّ المؤمنين بها دون غيرهم.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ للمسلمين من قبول دعوة الأعداء لوقف إطلاق نار حقيقي، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾.

٢ ـ لقد ترك الإسلام باب الأوب والتوبة مفتوحاً حتى للكفّار، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ...﴾.

٣ ـ إذا كفّ الكفّار عن إشعال الفتن والحروب وآمنوا، فلا توبّخوهم على ما فعلوا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٤ ـ ينبغي للإنسان أن يخلق ظروف استنزال الرحمة الإلٰهيّة، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

إشارات:

- ذكرنا أنّ هدف الإسلام من الحرب ليس السيطرة على البلدان ولا الحصول

على الغنائم ولا الانتقام، وإنّما الغاية من وراء إعلان الحرب والجهاد في الإسلام هي طيّ بساط الشرك والكفر. والفتنة هنا بمعنى الشرك، والكفر، والابتلاء والعذاب. وتقول الآية الكريمة: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

□ وتعبير «عدوان» هو بسبب أعمالهم وسلوكهم، وإلّا فإنّ الإسلام لا يحثّ على العدوان، كأن نقول مثلاً: جواب الإساءة هو الإساءة. فعلى الرغم من أنّ جواب الإساءة بالإساءة يعتبر عدلاً إلّا أنّنا وبسبب جوهر عمله، نسمّيه إساءة.

التعاليم:

١ ـ الهدف من الحرب والقتال في الإسلام اجتثاث جذور الشرك والفتنة، وإقامة دين الله وشريعته، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾.

٢ ـ التطهير قبل البناء. اجتثاث الفتنة أوّلاً ثمّ بعد ذلك إقامة دين الله، الكفر بالطاغوت أوّلاً، والإيمان بالله ثانياً، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾.

٣ ـ طريق العودة والتوبة غير مغلق بوجه أحد وفي أيّ ظرف كان. فحتى العدو اللدود إذا غيّر مسيره فإنّ الله يصفح عنه، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ...﴾.

٤ ـ طرحت الآية السابقة عفو الله عن معاصي الكفّار؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وتوصي هذه الآية الناس بأن ينتهوا عن العدوان إذا انتهى الأعداء، ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ﴾.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

إشارات:

□ كان العرب قبل الإسلام يكنّون احتراماً خاصّاً للأشهر الحُرُم الأربعة من السنّة، حيث يحظر فيها الحرب، ثلاثة من تلك الأشهر متتالية هي ذو القعدة، ذو الحجّة ومحرّم، وواحد منفصل وهو شهر رجب.

وقيل: إنّ أحد أسباب تسمية شهر ذي القعدة هو وجوب القعود عن الحرب فيه.

وبعد مجيء الإسلام أمضى هذه السُّنّة وأبقى عليها، فأعلن تلك الشهور الأربعة أشهراً حُرُماً، إلّا أنّ العدو كان دائماً بالمرصاد، يتحيّن الفرص ليوجّه ضربته، وذلك لاعتقاده بأنّ المسلمين ملتزمون بعدم القتال في هذا الشهر. ورد في الآية الكريمة: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾، ذلك أنّ حرمة دم المسلم وصيانة النظام الإسلامي أعظم من حرمة هذه الأشهر، ومن ينتهك الحُرُمات فقد حقّ عليه القصاص. ثمّ تطرح الآية قانوناً عاماً فتذكر: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

□ يقول صاحب تفسير مجمع البيان في تفسير هذه الآية: يمكن أن نستدلّ بهذه الآية في موضوع الغصب أيضاً بمعنى أن يُستردّ المال المغصوب من الغاصب.

التعاليم:

١ ـ الأوقات لا تشبه بعضها، فلا بدّ من حفظ حرمة بعض الشهور، ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾.

٢ ـ الإسلام لا يعرف طريقاً مسدوداً. فصيانة الإسلام ودم المسلم فوق حفظ حرمة الأماكن والأوقات، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾.

٣ ـ الإسلام ليس دين عدوان، لكنّه في المقابل لا يقبل بعدوان الآخرين، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾.

٤ ـ يجب مراعاة العدالة حتى في التصدّي للأعداء، ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾.

٥ ـ يجب أن لا تؤدي آلية التشريع إلى يأس المسلمين من جهة، وتطاول الكفّار وجرأتهم من جهة ثانية، وهذه هي فلسفة الردّ بالمثل، ﴿فَٱعْتَدُوا۟... بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ﴾.

٦ ـ إنَّ مراعاة التقوى في أثناء الحرب من الأصول التربوية في الإسلام، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

٧ ـ إذا لم يتعدّ المسلم حدود العدالة في الحرب، فإنّه سيحظى بالمدد الغيبي. ولا يظنّن أنّ التزامه مبادئ العدل والتقوى سيؤخّر عنه النصر، ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ... وَٱتَّقُواْ... وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

إشارات:

- خمس آيات متتالية حضّت المؤمنين على الدفاع عن الدين والتصدّي للكفّار، ثم تنهي هذه الآية حديث القتال لتنتقل إلى موضوع الإنفاق والإحسان.

يستفاد من الآية أنّ الانتحار والإضرار بالنفس محرّم قطعاً. بيد أنّ طلب الشهادة في الحالات التي يتهدّد فيها بيضة الإسلام خطر جسيم، فلا يدخل ضمن هذا الحكم، أي إلقاء النفس في التهلكة.

- توصي الآية المسلمين بالإنفاق، وفي الوقت ذاته تحذّرهم من أيّ إفراط أو تفريط؛ لأنّه لو بخل الأغنياء وأمسكوا أموالهم ولم يفكروا في الفقراء، فستتعمّق الهوّة الطبقيّة يوماً بعد آخر، حتى تصبح كالقنبلة الموقوتة تنفجر في ساعة الصفر لتحرق المجتمع وتبيده. وفي المقابل، إذا لم تتمّ مراعاة الاعتدال في الإنفاق، وأنفق الإنسان كلّ ما يملك من ثروة على الآخرين، فإنّه يكون قد ألقى بنفسه وأسرته إلى التهلكة. في آيات أخرى يوصي الله تعالى المسلمين بالاعتدال في الإنفاق إذ يقول لنبيه الكريم ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[1].

نقلت عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام رواية في ذيل هذه الآية الكريمة يقول فيها: **«لو أنّ رجلاً أنفق ما في يديه في سبيل الله ما كان أحسن ولا وُفّق له**

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

أليس الله يقول ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المقتصدين»[١].

□ كلّ إنسان يرغب في أن يكون محبوباً، وقد وظّف القرآن الكريم هذه الفطرة الإنسانيّة فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الاقتصاد أساس كلّ حركة، ﴿أَنفِقُوا...﴾، ولا يمكن الجهاد من دون دعم مالي والتضحية ببعض الإمكانات. ففي الملمّات وأثناء هجمة الأعداء إذا لم ينفق الناس أموالهم في سبيل الدفاع عن الحقّ، فإنّ الهزيمة ستكون حليفهم لا محالة.

٢ ـ حصّنوا أنفسكم وأموالكم بالإنفاق، ﴿وَأَنفِقُوا... وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

٣ ـ الجبهة والحرب والمساعدات المالية في الإسلام يجب أن تصطبغ بصبغة إلٰهيّة، وأن تكون من أجل نيل رضا الله، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٤ ـ حبّ الله، يدفع الإنسان إلى الإحسان، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

إشارات:

□ تطرح الآية الكريمة جوانب عامة من أحكام الحجّ والعمرة، ومن أراد المزيد فليراجع الروايات وفتاوى العلماء.

(١) بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ١٦٨.

كان النبيّ إبراهيم عليه السلام أوّل من وضع مناسك «الحج» ثمّ شاعت بين العرب منذ ذلك الحين، وقد أمضى الله تعالى هذه المناسك وجعلها من أركان شريعة الإسلام، وستظلّ كذلك إلى يوم الدين.

«العمرة» هي الزيارة، وعلى المرء أن يُحرم إذا أراد دخول مكة، وزيارة الكعبة والطواف بها. الحج والعمرة هما عملان متشابهان كالأذان والإقامة مع نزر يسير من الاختلاف.

«الهدي»، من الهدية، وهي في الواقع أضحية الحج.

- لقد ذكرت الآية عمرة التمتّع إلى جانب حجّ التمتّع؛ ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾، وقد منعها أحد الخلفاء اجتهاداً منه، وعملاً برأيه، فكان اجتهاداً في مقابل نصّ إلهي صريح.
- إنّ أحكام المسائل الاضطرارية تقتصر على زمن الضرورة. لذا، وبخلاف الحالات العادية التي يحرم فيها الصوم أثناء السفر، فإنّ الصوم في هذه الرحلة يصبح واجباً في حال عدم ذبح الأضحية، على أن يكون ذلك في ثلاثة أيّام السابع والثامن والتاسع من الشهر، وذلك لأنّ اليوم العاشر يصادف عيد الأضحى ومعلوم أنّ الصوم فيه حرام.
- ورد عن الأئمة المعصومين عليهم السلام في تفسير عبارة «أتمّوا الحجّ» قولهم: **«إتمامهما أن لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج»**[1] وأن يحظى المرء بلقاء إمام زمانه[2].

التعاليم:

١ ـ يجب إتمام المناسك الدينيّة بحذافيرها. بعد شروع أعمال الحج، لا يمكن تركها ناقصة، ﴿وَأَتِمُّوا۟﴾.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٨١؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ١٩٣.
(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٣.

٢ ـ يجب قصد القربة والعبادة في مناسك الحجّ. فلا يصحّ الحجّ بقصد السياحة مثلاً، ﴿وَأَتِمُّوا... لِلَّهِ﴾

٣ ـ لم تنزل أحكام الإسلام لتشقّ على الناس. فإتمام الحجّ والعمرة على من هو مريض في باطنه أوخائف في ظاهره ليس واجباً، ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

٤ ـ للمكان نصيب في العبادات، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

٥ ـ يكون المرض، في بعض الحالات، عامل تخفيف الأحكام لا تعطيلها؛ لذا، فإنّ الحاج المعذور في الحج يجب أن يعوّض عن مناسكه بالصوم أو الصدقة أو الأضحية، ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ... فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

٦ ـ معيار وجوب الأضحية في الحج هو تيسّرها أو توفّرها، ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ...﴾.

٧ ـ العمرة وحجّ التمتّع هي وظيفة الحجيج ممّن لا يقطنون مكة، بينما تكون وظيفة أهل مكة نوع آخر من الحجّ، ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ... ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

٨ ـ خشية العذاب الإلٰهيّ، تمهيد للتقوى، ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٩ ـ التقوى هي الغاية من تطبيق الأحكام الإلٰهيّة، ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ... وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

١٠ ـ مناسك الحج قبل الإسلام كانت في صورة مختلفة. لذلك يؤكد القرآن الكريم على مراعاة التغييرات الحاصلة، ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

١١ ـ العذاب الشديد بانتظار من يغيّر أحكام الحج، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

إشارات:

- «الرفث» هو التعريض للنساء بالجماع، أو ما قيل عند النساء. وقال قوم: الرفث الإفحاش بذكر النساء، سواء كان ذلك بحضرتهنّ أم لا. وقيل: الرفث كلمة جامعة لما يريده الرجل من أهله. وقال بعض أهل اللغة: الرفث اللغو من الكلام، و«الفسوق» هو الكذب والفحش والجدال هو قول «لا والله» و«بلى والله».
- الأشهر التي تذكرها الآية الكريمة هي أشهر الحجّ والعمرة معاً. فوقت عمرة التمتّع هو الأشهر الثلاثة؛ شوال ذو القعدة وذو الحجّة، فيما وقت الحجّ هو ذو الحجّة.

التعاليم:

١ ـ يلعب الزمان دوراً مهمّاً في العبادات الإسلاميّة، ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾.

٢ ـ ينبغي عدم تلويث أجواء الحج ومكة وتعكير صفوهما بارتكاب المعاصي والآثام، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

٣ ـ الإيمان واليقين بعلم الله يبعث النشاط والأمل في الإنسان للقيام بوظائفه، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ يحتاج الإنسان في سفره زاداً، وأفضل الزاد لرحلة الحجّ هو التقوى، ﴿خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

٥ ـ التقوى دليل التعقّل، ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

إشارات:

- عرفات اسم لأرض تبعد عن مكة حوالى ٢٠ كيلومتراً، يجب على حجّاج بيت الله الحرام الوقوف عليها من ظهر يوم التاسع من ذي الحجّة حتى غروب ذلك اليوم، وإذا انصرف الحاجّ عن المكان قبل الغروب فعليه أن ينحر بعيراً تكفيراً عمّا بدر منه.

أصل كلمة «عرفات» من «معرفة» أي مكان التعارف، حيث يقال: إنّ آدم وحواء عليهما السلام تعارفا في هذا المكان واعترفا بذنبهما.

وروي عن الإمامين الصادق والباقر عليهما السلام أنّ جبرائيل عمد بالنبي إبراهيم عليه السلام إلى عرفات فقال له: **«هذه عرفات فاعرف بها مناسكك واعترف بذنبك»**[1].

وجاء في الحديث: **«وَاللَّهِ إِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْأَمْرِ يَحْضُرُ الْمَوْسِمَ كُلَّ سَنَةٍ فَيَرَى النَّاسَ وَيَعْرِفُهُمْ وَيَرَوْنَهُ وَلَا يَعْرِفُونَهُ»**[2].

تحتفظ أرض عرفات بذكريات كثيرة من لوعات ودموع أولياء الله تعالى. فإنّنا نقرأ في الروايات: **في غروب يوم عرفة، يغفر الله ذنوب حجاج بيت الله.** هذا وقد رويت أدعية خاصّة بيوم عرفة عن الإمام الحسين والإمام السجّاد عليهما السلام[3].

- من علائم جامعيّة الدين الإسلامي وشموليّته أنّه إلى جانب الأعمال العبادية للحجّ، سمح للحاجّ بممارسة الحياة المادّيّة العاديّة من خلال قيامه بالنشاطات الاقتصاديّة، كما هو الحال في سورة الجمعة التي تأمر بإقامة صلاة الجمعة ثم

---

(١) الكافي، ج ٤، ص ٢٠٧.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٣٥.

(٣) لمزيد من التفصيل، انظر: كتاب الحج للمؤلّف.

تعقبها بالقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[1].

إذن، فالحجّ هو عبادة مثلما هو اقتصاد.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ولينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد ولينتفع بذلك المكاري والجمّال... ولو كان كلّ قوم إنّما يتكلّمون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد وسقطت الجلب والأرباح...»**[2].

التعاليم:

١ ـ محاربة التحجّر والخرافة هي من ضمن برامج القرآن الكريم. فبعضهم يعتقد أنّ الدين قضيّة ذات بعد واحد، وأنّ فريضة الحجّ لا تعدو كونها محض عبادة، والإسلام في هذه الآية يفنّد هذه الفكرة، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾.

٢ ـ الكسب الحلال فضلٌ من الله، لم تقل الآية «كسب» بل قالت «فضل» لتشير إلى أنّ الكسب الحلال بمثابة فضل من الله، ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٣ ـ نعم، على العبد أن يسعى في رزقه؛ ﴿تَبْتَغُواْ﴾، لكن مع ذلك فالرزق هو من فضل الله، ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ ـ الرزق من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٥ ـ يد الله مبسوطة في الرزق، فكلمة «فضل» جاءت في صيغة التنكير، ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٦ ـ ممارسة العبادات يجب أن تكون طبقاً للتعاليم، ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾.

٧ ـ الرغبة في التوفيق الإلٰهيّ، من جهة، ووجود الخطايا والمعاصي من جهة أخرى، تزيد في الإنسان الحبّ والتوجّه نحو ألطاف الله تعالى، ﴿هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

---

(١) سورة الجمعة، ١٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٩.

٨ ـ لا تنس ماضيك، فهو سبب هدايتك، ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

إشارات:

□ تتضمّن الآية الأمر إلى الناس بأن يفيضوا جميعاً، وفي الوقت نفسه تذكر أهل مكة بألّا يجمح خيالهم بعيداً ويعتقدوا بأنّ طقوسهم العبادية تختلف عن الآخرين لكونهم من أهل الحرم أو من قريش وما إلى ذلك، لذا تحثّهم على التخلّي عن هذه النظرة الاستعلائية وأن يفيضوا من حيث أفاض الناس.

أساساً، إنّ من أهمّ الآثار والحِكم التي تنطوي عليها مناسك الحج التخلّي عن الامتيازات الفارغة، فالإنسان يتخلّى عن الحذاء والقبعة واللباس والزوجة والمسكن وعن كلّ شيء في حياته المادّية، ويصبح كقطرة في بحر الحجيج الهادر.

□ ذكرت كلمة «الإفاضة» في هذه الآية مرّتين وفي الآية السابقة مرة واحدة، وهي تعني الاندفاع والحركة الجماعية. التكرار والتأكيد على هذه الكلمة يشير إلى أنّ ممارسة العبادات تكتسب قيمة أكبر عندما تكون في إطار جماعي.

□ إنّ الاستغفار وذكر الله هما من أفضل أعمال عرفات والمشعر. صحيح أنّ الأصل هو في الوقوف على هذه الأماكن المقدّسة، وأنّه لا توجد أيّ طقوس واجبة، إلّا أنّ القرآن الكريم يحثّنا في هذه الآيات على المواظبة على ذكر الله وتذكر المعاصي والذنوب وطلب المغفرة من الله على كلّ ما فات.

وأنّى للمرء أن يقف متفرّجاً في البقعة التي ذرف أولياء الله عليها الدموع.

التعاليم:

١ ـ الانحصارية تحت أيّ مسمّى محظورة، ﴿أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾.

٢ ـ الحركة الجماعية لها قيمة، ﴿أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾.

٣ ـ يجب أن لا نيأس أبداً، فمهما كان الماضي ملوّثاً بالمعاصي، فإنّ الاستغفار هو الدواء الناجع؛ لأنّ الله غفور رحيم، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

إشارات:

- اجتمع قوم من أهل مكة بعد انتهاء موسم الحجّ يذكرون مفاخرهم ويستحضرون أمجاد آبائهم وأجدادهم، فنزلت هذه الآية الكريمة لتؤكد أنّ على المسلمين أن يذكروا[1] الله تعالى ونعمه السابغة وأن يحملوا الأمر على محمل الجدّ.
- ذكر أيّ شخص أو أيّ شيء دليل على سيطرته على فكر الإنسان، فالذي يذكر أسلافه ويفخر بأمجادهم، فإنّه بلا شك قد رضي بأفكارهم وثقافتهم، ويمكن لهذا الذكر والتفاخر أن يؤدّي إلى إشاعة الثقافة الجاهلية في المجتمع. لهذا السبب قال النبيّ موسى لقومه: سأحرق العجل الذهبي الذي صنعه السامريّ وأنثر رماده في البحر، ذلك أنّ مشاهدة ذلك العجل تحيي في نفس الإنسان ثقافة الشرك وفكره.

التعاليم:

١ ـ إضفاء هدف ومعنى على أوقات الفراغ هي من وظائف المعلّم، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم... فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ ذكر الله يجب أن يكون كثيراً كمّياً ونوعياً ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي مفعما بالحب والإخلاص، ﴿أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

٣ ـ لنبتعد عن السطحية. ثمّة جماعة دعاؤها الوحيد في كلّ زمان ومكان أن

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٢٩؛ نور الثقلين ج١، ص ١٩٨.

تحظى بحياة الرفاهية المادّية الزائلة، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

إشارات:

- إحدى الطرق لمعرفة الناس، هي التعرّف إلى آمالهم وأدعيتهم. ذكرت الآية السابقة دعاء المجموعة الأولى إلى الله بأن يغدق عليها من نعم الدنيا، ولا يهمّها إن كانت هذه النعم خيراً أم شرّاً، فيما تدعو المجموعة الثانية الله أن يؤتيها «حسنة» في كلا الدارين الدنيا والآخرة.

المجموعة الأولى تجد مطلوبها وغايتها في الدنيا حصراً، بينما ترى المجموعة الثانية أنّ الدنيا لها قيمتها عندما تكون «حسنة» وتفضي إلى الآخرة وتكتمل بها.

لقد ذكرت الروايات أمثلة ومصاديق كثيرة على الحسنات في الدنيا والآخرة[١]، بيد أنّ الحسنة لا تقتصر على بضعة أمثلة.

- يقول الإمام الصادق عليه السلام في معرض تفسيره لهذه الآية الكريمة: **«إنها السعة في الرزق والمعاش وحسن الخلق في الدنيا ورضوان الله والجنة في الآخرة»**[٢].
- حبّذا لو نذكر الأهداف العامة في أدعيتنا، ونترك تحديد المصاديق لله سبحانه، بأن ندعو الله أن ينعم علينا بالحسنة والسعادة، من دون أن نعلم أين يكمن صلاحنا وتكاملنا؟ لذلك فلندع ذلك لمشيئة الله تقرّره وتحدّد مصاديقه، فنحن بعلمنا المحدود وجهلنا بالمستقبل وكذلك بتركيبة العوامل الروحية والنفسية في داخلنا، غير قادرين على تشخيص المصاديق والتفاصيل.

من هذا الباب يوصي أهل الخبرة بألّا يطلب الإنسان من الله الوسيلة بل

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٩٩. (٢) الكافي، ج ٥، ص ٧١.

الهدف، إذ لربّما يحقّق الله هدفنا عبر وسيلة أخرى لا تخطر على بالنا. مثلاً، ندعو الله أن يوفّقنا لأداء فريضة الحجّ، ولكن لا نطلب من الله أن يرزقنا مالاً لنذهب إلى الحجّ. فأحياناً يقرّر الله تعالى أسباباً لم تكن في الحسبان.

التعاليم:

١ ـ الدنيا والآخرة تكمّل إحداهما الأخرى، إذ لا تعارض بينهما، شرط أن يسعى الإنسان وراء الحسنة، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾.

٢ ـ ليس كلّ رفاهية مذمومة، بل الحياة الطيبة مطلوبة أيضاً، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

٣ ـ لجهنّم حساب آخر. فعلى الرغم من طلبهم الحسنة في الآخرة من الله، إلّا أنّهم يدعون بصورة منفصلة أن يقيهم عذاب النار[1]، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

إشارات:

□ **«النصيب»** هو السهم، وكأنّه نُصبت للإنسان سهام[2].

□ يقول الإمام علي عليه السلام في تفسير هذه الآية: **«معناه أنّه يحاسب الخلق دفعةً، كما يرزقهم دفعةً»**[3].

---

(١) نقرأ في الأدعية إصراراً عجيباً على تكرار عبارة الخلاص من النار، فمثلاً في دعاء المجير نقرأ سبعين مرّة عبارة: **«أجرنا من النار يا ربّ»**، أو في دعاء الجوشن الكبير الذي يضمّ مئة فقرة وفي نهاية كل فقرة ندعو: **«خلّصنا من النار يا ربّ»**.

(٢) يفيد الإنسان في يوم القيامة من بعض أعماله لا كلّها، ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾، فما أكثر الأعمال التي يقوم بها الإنسان لكنّه لا يُثاب عليها في يوم القيامة لأنّها لم تكن بقصد القرب من الله تعالى.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٣١.

التعاليم:

١ ـ من جدّ وجد، فلا نصيب للإنسان من دون سعي واجتهاد، ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾.

٢ ـ سرعة الحساب ميزة، ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿۞ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد حديث في تفسير نور الثقلين يوصي بتلاوة التكبيرات التالية بعد خمس عشرة صلاة في هذه الأيام (ابتداءً من صلاة الظهر من يوم العيد حتى صلاة الصبح من اليوم الثالث عشر) وهي:

«اللّه أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله واللّه أكبر، وللّه الحمد، الله أكبر على ما هَدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام».

□ تذكر الآية أنّه من تعجّل في الخروج من منى فيخرج في اليوم الثاني عشر بعد الظهر ويصل إلى مكة فلا حرج عليه، كما أنّ من يمكث في منى ليلة الثالث عشر أيضاً لا حرج عليه.

التعاليم:

١ ـ ساعة الدعاء ذات أثر كبير، ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾.

٢ ـ لا يضيّق الله بلطفه على عباده، ﴿فَمَن تَعَجَّلَ... وَمَن تَأَخَّرَ﴾.

٣ ـ جوهر العمل هو التقوى، ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ وبحسب الروايات فإنّ المقصود بـ «التقوى» اجتناب المحرّمات في حال الإحرام.

٤ ـ التعجيل بالخروج من منى في يوم الثاني عشر من ذي الحجّة أو التأخير إلى نهار يوم الثالث عشر يجب أن يكون مقروناً بالتقوى، ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾.

إذا كانت العجلة لإبراز المهارة أو لهدف فاسد أو المكوث مدّة أطول في تلك البقعة لغرض الشهرة، فإنّ كلّ ذلك يبطل العمل.

٥ ـ لا يكفي العمل المقدّس والبقعة المقدّسة بل يجب أن يكون الإنسان أيضاً مقدّساً وورعاً. إنّ ذكر كلمة «التقوى» مرّتين إلى جنب بعضهما بالنسبة إلى حجّاج بيت الله في منى، يمكن أن يكون دليلاً على حضور الشيطان في كلّ مكان.

٦ ـ الإيمان بالمعاد أقوى عامل للتقوى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ... أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

إشارات:

□ **«اللُّدّ»** الخصومة الشديدة و**«الألَدّ»** تقال لذي العداوة الشديدة.

«الخصام» جمع **«خصم»** أو أنّه مصدر بمعنى: الخصومة.

□ المنافقون، ومن خلال ألاعيب المقارنة والأرقام والفطنة والتجربة والنبوءات التي توحي بالعلم، والاستدلال بالقضايا الاجتماعيّة أو من خلال بثّ الشائعات والتهديد والتطميع والدعاية المسمومة، لا يملكون سوى المناورة في هذه الحياة المادّية فقط، لذلك تراهم مذبذبين في ميدان القيم المعنوية والتوسّل بالمدد الغيبي والإرادة الإلٰهيّة، وفي الآخرة لسانهم معقود ولن يؤذن لهم حتى بالاعتذار.

التعاليم:

١ ـ لا تنخدع بكلام المنافقين المعسول الرائق، ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾.

٢ ـ لا تثق بأيّ قسم، ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾.

٣ ـ اليمين الكاذبة إحدى سبل المنافقين في النفوذ، ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾. يستغلّ الأعداء المقدّسات لمحاربة المقدّسات، والدين للنيل من الدين. واليمين الكاذبة بالله لخيانة رسول الله ﷺ.

٤ ـ يتمركز كلام المنافقين على الموضوعات الدنيوية، ليستقطبوا اهتمام الآخرين، ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٥ ـ الله تعالى يُطلع نبيّه الكريم على باطن الآخرين وغيبهم، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾.

٦ ـ يحاول الكذّاب من خلال القسم ومعسول الكلام أن يُظهر نفسه كإنسان مخلص وحريص، ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

إشارات:

- تحتمل كلمة «التولّي» معنيين: الأوّل، السلطة والحكم؛ والثاني هو الإعراض والإدبار وإذا أخذنا بالمعنى الثاني فستكون الآية: كلّما أدبر وذهب عنك سعى بحيلته وإرادته الدوائر على الإسلام وإيقاع الفتنة بأهله.
- في الآية الكريمة السابقة كان الحديث عن كلام المنافق المعسول والجميل، وهنا تتناول الآية صنيعه المشين والمفاسد التي تشوب تصرّفاته.
- يصف القرآن الكريم الصالحين بـ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾[1].

أي إذا أقام الصالحون الدولة حافظوا على ارتباطهم بالله تعالى وبالمحرومين في المجتمع، أمّا إذا ولي غير الصالحين الحكم وأخذوا بولاية الناس، فإنّ إعصار أهوائهم الباطنية وجهلهم وضغوطهم الخارجيّة ستطيح بكل ما يملكه المجتمع. والتاريخ، بحسب وصف تفسير الميزان، يزخر بالمنافقين من المسلمين الذين تسلّطوا على رقاب الناس باسم الإسلام وتظاهروا بالإيمان، وأبادوا الحرث والنسل.

---

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

- أولئك الذين تلاعبوا بالقوانين وفتحوا الأبواب للغزو الثقافيّ والدعاية المضادّة وانتشار المواد المخدّرة، وكانوا سبباً في تدمير الاقتصاد والجيل الصاعد، فكانوا مصداقاً بارزاً لوصف القرآن الكريم «مفسد في الأرض».
- إهلاك الحرث بمعنى تدمير الزراعة، وإهلاك النسل، أي حرف أجيال المستقبل عن جادّة الحقّ.

احتمل بعض المفسّرين مثل المراغي والفخر الرازي أن يكون المراد بـ «الحرث» هنا النساء، بقرينة الآية الكريمة ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[1]، والمراد بـ «النسل» هم الأولاد، ليكون المعنى أنّ الطغاة يدمّرون نظام الأسرة وتربية الأبناء.

التعاليم:

١ ـ إذا تولّى غير الصالحين زمام الأمور، فسوف يفسدون كلّ شيء، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ﴾.

٢ ـ يتمثّل الخطر الأكبر في تدمير اقتصاد الأمّة وثقافتها، ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا ينصت المستكبرون لنصائح الآخرين، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾.

يروي لنا التاريخ أنّ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ارتقى المنبر في المدينة وقال: «والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه»[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٣.

(٢) تفسير أحسن الحديث، ج ١، ص ٣٧٦.

٢ ـ على الحاكم أن يأخذ بالنصيحة، ﴿إِذَا قِيلَ . . . أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ﴾.

٣ ـ المعصية مدعاة للعجب والغرور والكبر، ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾.

٤ ـ التهديد بجهنّم تحطيم للغرور، ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

إشارات:

□ أورد ابن أبي الحديد وهو من علماء المعتزلة في القرن السابع في شرح نهج البلاغة أنّ المفسّرين أجمعوا على أنّ هذه الآية نزلت في شأن علي بن أبي طالب عليه السلام في ليلة مبيته في فراش الرسول الكريم صلى الله عليه وآله إذ يقول:

«إنّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلّا مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة»[1].

□ في تلك الليلة، أجمع مشركو مكة على قتل النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله فاختاروا من كلّ قبيلة رجلاً لهذه المهمّة، ليجهزوا عليه بضربة واحدة فيتفرّق دمه بين القبائل فلا يقدر بنو هاشم على المطالبة بالثأر، وبذلك يتخلّصون من النبيّ ودعوته. فلمّا علم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بما يبيّتون، أوصى عليّاً بالمبيت في فراشه فنزلت هذه الآية الكريمة في شأنه[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٢٦٢.

(٢) يعترف كثير من علماء أهل السنّة بهذه المنقبة للإمام علي عليه السلام حيث يستعرض العلّامة الأميني أسماء هؤلاء في موسوعة الغدير (ج ٢، ص ٤٨)، ومن جملة هؤلاء العلماء الإمام أحمد بن حنبل الذي ذكر هذه المنقبة العلوية في مسنده (ج ١، ص ٣٤٨)، يقول صاحب تفسير أطيب البيان: جاء في كتاب غاية المرام، عشرون حديثاً، تسعة منها لعلماء أهل السنّة وأحد عشر حديثاً لعلماء الشيعة، مضافاً إلى هذه الآية كلّها تذكر هذه التضحية العظيمة للإمام علي عليه السلام ومبيته في فراش النبي الأعظم صلى الله عليه وآله. كما ذكرت هذه الحادثة في تاريخ الطبري (ج ٢، ص ٣٧٣) وهو من مصادر القرن الثالث الهجري، علاوة على تاريخ اليعقوبي (ج ٢، ص ٣٩) الذي جاء على تفصيلات الحادثة، وقد ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج ٤، ص ٧٣): أنّ معاوية أعطى أربعة آلاف درهم لكي تذكر هذه الآية في شأن ابن ملجم. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ٤٩.

□ في تلك الليلة العظيمة التي قرّر علي عليه السلام أن ينام في فراش النبي، أوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل أنّي آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة؟! فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمد صلى الله عليه وآله، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، انزلا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه.

□ من أجل إحياء معروف أو إماتة منكرٍ يتطلّب الأمر، أحياناً، الجود بالنفس.

وفي المجمع عن أمير المؤمنين: «**إنّ المراد بالآية الرجل يقتل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»[1].

التعاليم:

١ ـ المنافق يسحر الناس بكلامه الجميل، لكنّ المؤمن يسحر الدنيا بعمله، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِى نَفۡسَهُ﴾.

٢ ـ لنكرم ذكرى المضحّين، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِى﴾.

٣ ـ اقتداء أولياء الله فضيلة، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِى﴾.

٤ ـ الربح الأكبر هو أن يبيع الإنسان أغلى ما يملك أي النفس إلى خالقه. وأعظم من ذلك، لا يبيعها طمعاً في الجنّة أو خوفاً من النار، بل في سبيل نيل رضا الله تعالى، ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ استقبال الخطر والاستعداد للتضحية في سبيل الله، كالوقوع فيه. إذا تأمّلنا سبب نزول الآية، سنجد أنّها تثني على من نذر نفسه للخطر، على الرغم من عدم وقوع أيّ مكروه له، ﴿مَن يَشۡرِى نَفۡسَهُ...﴾.

٦ ـ رحمة الله هي أفضل الثواب. الله يثيب على كلّ عمل، لكنّه في هذه الآية يقول: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

---

(١) تفسير الصافي، ج ١، ص ٢٤١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾﴾

إشارات:

□ يحثّ القرآن الكريم على إقامة العلاقات السلميّة مع الفئات التالية:

١ ـ مع المشركين المسالمين، ﴿لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾[1].

٢ ـ مع أهل الكتاب، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[2].

٣ ـ مع سائر المسلمين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾.

□ مرّ علينا في الآيات السابقة[3] موضوع ملتقى الحجّ العبادي السياسي: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾، على هذا الأساس، فإنّه من الممكن تشكيل مجتمع خالٍ من الفسوق والجدال، وما أجمل أن نكون هكذا دائماً، وأن نبتعد عن خطوات الشيطان التي تنشر بذور الفُرقة.

□ ورد في روايات عدّة أنّ المراد بالدخول في السلم هو الانضواء تحت لواء الإمام المعصوم[4]، من جملتها الرواية التالية: «**يقول الله ﷻ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ وَلَايَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي**».

ولا يخفى على أحد أنّ الدخول في الحصن هو بمثابة الدخول في السلم والسكينة والأمان، وأيّ سكينة أعظم من أن يغمر المرء شعورٌ بأنّ إمامه مؤيّد من السماء ومعصوم وعالم وحريص وسبّاق إلى جميع الفضائل والكمالات.

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٨.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٤.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٧.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٠٥.

التعاليم:

١ ـ الدخول في أجواء السلم والسلام والتسليم متعذّر ما لم يكن في ظلّ الإيمان، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢ ـ لنضع الأهواء جانباً، ونسلّم أمرنا لشريعة الله، ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾.

٣ ـ نشر السلام وظيفة المسلمين جميعاً، ﴿كَآفَّةً﴾.

٤ ـ وساوس الشيطان لا تُجبر الإنسان على ارتكاب المعاصي، فالإنسان يمتلك القوة على مقاومة الشيطان، ولذلك جاء النهي عن طاعته، ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟﴾.

٥ ـ الشيطان يجرّ الإنسان تدريجياً نحو الانحراف، ﴿خُطُوَٰتِ﴾.

٦ ـ طرق الشيطان في إغواء الإنسان وحرفه كثيرة، ﴿خُطُوَٰتِ﴾.

٧ ـ الشيطان عدوّ السلام والوحدة، والأصوات الداعية إلى الفُرقة هي أبواق الشيطان، ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾.

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لقد أتمّ الله تعالى الحجّة على الإنسان، ﴿جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾.

٢ ـ ليترقّب الذين يرتكبون المعاصي عن قصد وإرادة، نزولَ العذاب بهم، ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ... عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٣ ـ لن يؤثّر تمرّد العبد وعصيانه على عزّة الله، ﴿عَزِيزٌ﴾.

٤ ـ العقوبة الإلٰهيّة أساسها الحكمة الإلٰهيّة، ﴿حَكِيمٌ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

إشارات:

□ دعوة الأنبياء للناس تكون عن طريق طرح الاستدلالات والمعجزات، ولكن مع

ذلك، يطرح بعض المتعنّتين أحياناً مطالبات وأعذاراً إضافية. معلوم أنّ قدرة الله تعالى تحيط بكلّ شيء، بيد أنّه يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومثال ذلك ما حصل مع مائدة السماء التي طالب بها أصحاب عيسى عليه السلام أو قوم صالح عليه السلام الذين طلبوا منه أن ينزل عليهم ناقة من السماء، ونحن نلاحظ أنّه كلما حصلت معجزة بطلب من الناس، فليس أمامهم إلّا خيار الإيمان والتسليم وإلّا فالعذاب الشديد بانتظارهم. طبعاً هذا في الحالات التي لا يكون فيها الطلب محالاً، مثل رؤية الله تعالى، وإلّا فالطلب هنا يكون غير ممكن وبالتالي يُرفض من الأساس. ذلك أنّ نظام الخلق والتربية الإلٰهيّة لا يقوم على مطالباتكم المستحيلة، فقد تطلبون أن يتجسّد الله والملائكة ويأتي إليكم في وسط الغمام أو السحب ليريكم الآيات والدلائل ويتحدّث إليكم مباشرة من دون حجاب، ولكن طلبكم هذا محال.

التعاليم:

١ ـ في ظلّ الدلائل والبيّنات الموجودة في دعوة النبي، لا يجوز طرح الطلبات المستحيلة، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾.

٢ ـ طلب رؤية الله والملائكة، وسيلة للفرار من الإذعان للحقّ، ﴿يَنظُرُونَ... يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٣ ـ مآل كلّ شيء إلى الله. لماذا تريدون رؤيته، ألا ترون آياته؟ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ... وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

إشارات:

- بحسب الروايات المنقولة، يعتبر تاريخ بني إسرائيل الأقرب إلى تاريخ المسلمين على صعيد الحوادث المختلفة، فقد وهبهم الله تعالى نبيّاً مثل موسى عليه السلام وأنزل عليهم معجزاته وألطافه، وأنقذهم من نير فرعون وأسره، كما

أرسل إليهم شرائع من السماء لإدارة شؤون حياتهم، ومن الناحية الماديّة، فقد أغدق عليهم نعماً وفيرة وحياة رغيدة؛ لكنّهم كفروا بها جميعاً ووصل بهم الحال أنّهم اتّبعوا السامري بدلاً من النبيّ هارون، وعبدوا العجل بدلاً من عبادتهم الله الواحد الأحد، لقد بلغوا منزلة قال عنها الله تعالى: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١]، لكنّهم لم يستفيدوا من كلّ هذه النعم، فوصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾[٢].

- سنّة الله الثابتة هي أنّه إذا بدّل قوم أو أمة، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، نعمة الله كفراً أي استخدموا المواهب الإلٰهيّة في طريق منحرف، فإنّ غضب الله تعالى سيحيق بهم. ولا تقتصر مسألة تبديل النعم والمصير المؤلم على بني إسرائيل وحدهم، فنحن نشهد اليوم في عالمنا المتطوّر أنّ التكنولوجيا والصناعات صارت توظّف لإشعال الأرض ضراماً وفساداً بدلاً من أن تكون في المجالات المفيدة للبشرية.

التعاليم:

١ ـ من الضروري مراجعة عبر التاريخ ودروسه، ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

٢ ـ النعم تحمّل الإنسان أعباء المسؤولية، والتفريط بها يوجب العقوبة، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ.... شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

إشارات:

- تحذير آخر للكفّار الذين تملّكتهم الدنيا بألّايغترّوا بزخارفها ويغتبطوا بمباهجها فتجعلهم يسخرون من المؤمنين، وتذكرهم بيوم القيامة الذي ستتغيّر فيه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦١.

الأوضاع رأساً على عقب. وفي الوقت نفسه، فإنّ الآية بمثابة تسلية لخواطر المؤمنين وتطييبٍ لقلوبهم إذ تشحنهم بالأمل بالمستقبل لئلّا تفتّ من عضدهم سخرية الكفّار واستهزاؤهم فيهنوا ويضعفوا.

التعاليم:

١ ـ الكفر يزيّن الدنيا للإنسان، ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

تتزيّن الدنيا في أعين الذين لا يؤمنون بألطاف يوم القيامة ونعمها اللامحدودة، أمّا المؤمن فيرى الفرق بين الدنيا والآخرة ولسان حاله يقول: أين الثرى من الثريا.

٢ ـ التعلّق بالدنيا تجعل الإنسان عرضة للسخرية والاحتقار، ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا... وَيَسْخَرُونَ﴾.

٣ ـ الاستهزاء بالفقراء هو الأسلوب الذي اعتاده طلاب الدنيا، ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾[(١)].

٤ ـ العلوّ في يوم القيامة للمؤمنين الذين لم ينقطع حبل تقواهم بلذاعة ألسنة الكفار، ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ﴾.

٥ ـ الرزق بغير حساب ليس لأنّ الله لا يعرف إحصاءه أو لا يوزّعه بحكمة بل هو دليل على لطفه تعالى، ﴿يَرْزُقُ... بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

إشارات:

❑ يُستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ النّاس في بداية الحياة البشرية كانوا يعيشون على البساطة، ولكن مع تناسلهم وازديادهم وانتشارهم وتعدّد طبائعهم نشأت

(١) في صيغة الفعل المضارع إشارة للاستمرار والدوام.

بينهم الاختلافات والصراعات. وورد في بعض الروايات الواردة حول الآية الكريمة ما يشير إلى القرون قبل نوح عليه السلام حيث كان الناس في عيشة بسيطة ومحدودة ومنقطعين عن كلّ شيء[1]. بعد ذلك ظهرت مرحلة التناقضات والصراعات على تسخير الموارد الطبيعية، فكان كلّ إنسان يحاول استعباد أخيه الإنسان، ومصادرة منافعه، ثمّ ظهرت الحياة الاجتماعيّة ونشأت المجتمعات والطبقات. إنّ أساس الحياة الاجتماعيّة هو وجود شريعة محكمة وعادلة تستطيع استيعاب النزاعات وتقديم الحلول الناجعة لها، ولهذا السبب بعث الله تعالى الرسل لحلّ الاختلافات وفضّ النزاعات، وأنزل معهم الكتب السماوية، فتصدّى فريق من هؤلاء لنُذُر الأنبياء وبشاراتهم من منطلق العناد واللجاج، وكانوا هم السبب في ظهور نزاعات وصراعات أخرى. فهدى الله بلطفه من كان مستعداً للهداية، وترك الذين كفروا بسبب الحسد أو الظلم ليروا عذابهم بأنفسهم.

ورد في تفسير «جوامع الجامع» في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أنّهم كانوا «**على دين واحد**» أي كانوا مفطورين على الإيمان بالله.

☐ يحمل القرآن الكريم على المراء الذي يمنع الإنسان من القبول بحكم الأنبياء وشرائع الله تعالى، وإلّا فإنّه لا ضير من الاختلاف الذي يؤول إلى التسليم بمبادئ العدل، فهو كالميزان الذي تتحرّك كفّتاه باتجاه معاكس للوصول إلى نقطة التوازن والعدل، ﴿فَهَدَى . . . ٱللَّهُ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ ليس في وسع القوانين الوضعيّة والحضارات الإنسانيّة حلّ الاختلافات؛ لأنّ كل فئة أو فرد يسعى إلى تحقيق أغراضه الشخصيّة. لذلك فالحلّ يأتي عن طريق اتّباع الشرائع السماوية وحكم الأنبياء. هذه الشرائع المنزّهة عن التحريف والخطأ، وهذه الأحكام المعصومة عن الأهواء والأغراض النفسانية، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ... مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٠٩.

٢ ـ الحلّ الأمثل للاختلافات هو ترسيخ الإيمان بالمعاد. فالأنبياء كانوا يلجأون إلى التبشير للوقاية من الاختلافات، ويستعينون بالنُّذُر لمعالجتها، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ... لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٣ ـ الخطوط العامة للأنبياء واحدة، ﴿النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

٤ ـ حكم الأنبياء هو في إطار الشرائع السماوية، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ﴾.

٥ ـ من مهام الأنبياء إيجاد الوحدة والنهي عن الفرقة، ﴿لِيَحْكُمَ... فِيمَا اخْتَلَفُوا...﴾.

٦ ـ حكم الأنبياء واحد. فالآية تقول: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ لا: «ليحكموا».

٧ ـ أسوأ الاختلاف ما كان عن علم ووعي، وقام على الحسد أو الظلم، ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ... مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

٨ ـ الاختلاف موجود حتى بين المؤمنين، لكنّه يغالج في ظلّ الولاية الإلٰهيّة، ﴿فَهَدَى اللَّهُ... لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

٩ ـ الإيمان يمهّد للتمتّع بالهداية الإلٰهيّة الخاصّة، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

١٠ ـ هداية كلّ فرد منوطة بإرادة الله، بيد أنّ إرادة الله مرتبطة بخيار الإنسان، ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

١١ ـ الصراط المستقيم، حسم للاختلافات، ﴿اخْتَلَفُوا... يَهْدِي... صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾

إشارات:

- **«البأساء»** الشدّة والمكروه الذي يسلّط على الإنسان مثل الحرب والسرقة. و**«الضرّاء»** كلّ ضرر يصيب باطن الإنسان مثل المرض والجراح.
- ورد في الآية الكريمة تذكير بما عاناه المؤمنون الأسلاف من صعاب وشدائد، وهي كذلك تحذير وتطييب لخواطر المسلمين. فالحوادث المريرة عبارة عن

امتحان إلهي، والبلايا التي تصيب المال والأنفس كلّها من أجل تمحيص الإنسان وتكامله وإعداده.

- في رواية وردت عن النبيّ الكريم ﷺ يقول فيها: «**إنّ الجنّة حُفّت بالمكاره وإن النار حُفّت بالتهوات**»[١]، وقد ورد عنه ﷺ ما معناه: أنّ للمؤمنين من أهل البلاء، ثواباً يتمنّى المنعّمون عندما يرونه لو أنّه أصابهم أضعاف بلائهم[٢].

نعم، إنّ الصعاب والشدائد عوامل تربية وتكامل وقرب بالنسبة إلى الإنسان وهي السبيل إلى الجنّة.

- ينبغي أن لا يكون التأخير في إجابة الدعاء سبباً لتشكيك المؤمنين وتردّدهم، فالله تعالى قد بشّر مراراً في القرآن الكريم، ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾[٣] و﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[٤].

وعلى أيّ حال، فإنّ الله سبحانه وعد عباده المؤمنين بالنصر، ومن الممكن أن تعمل بعض الأسباب على تأخير وقوع هذا النصر، ولكن ينبغي ألّا يثير هذا الشكوك في النفوس.

التعاليم:

١ ـ الأمل بدخول الجنّة من دون تحمّل الصعاب أمل ليس في محلّه، فإيمان الإنسان وحده لا يكفي، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ...﴾.

٢ ـ لا تغيير في سنن الله تعالى، فلا بدّ لجميع الأقوام والأمم من أن تدخل دائرة البلاء والتمحيص، ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾.

٣ ـ النظر إلى مشاكل الغير يعلّم الصبر. فلنستلهم العبرة والقدوة من التاريخ، ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾.

٤ ـ لنستعدّ، فالامتحانات الإلٰهيّة من الصعوبة بحيث تزلزل، أحياناً، حتى بعض الأنبياء، ﴿يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣١٩.
(٢) تفسير منهج الصادقين، ج ١، ص ٥٥٢.
(٣) سورة الصافات: الآية ١٧٢.
(٤) سورة المجادلة: الآية ٢١.

٥ ـ في الشدائد، لم يكن الأنبياء بمعزل عن قومهم، ﴿يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾.

٦ ـ أحد شروط إجابة الدعاء الاضطرار وقطع الأمل عمّن سوى الله، ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ... إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

٧ ـ التذكير بنصر الله تسكين للنفس في جميع الشدائد، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

٨ ـ الثبات هو السبيل إلى إحراز النصر الإلٰهيّ، ﴿مَّسَّتۡهُمُ... إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُوا مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾

إشارات:

❑ ذكرت الآية كلمة «خير» مرّتين: المرّة الأولى في إنفاق الخير ﴿أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، والثانية في فعل الخير ﴿تَفۡعَلُوا مِنۡ خَيۡرٖ﴾، بغية لفت الانتباه إلى أنّ الإنفاق يشمل المال والعمل، لذلك بإمكان الذين لا مال لهم أن ينفقوا الخير من خلال عملهم.

❑ جاء في الحديث الشريف: **«لاصدقة وذو رحم محتاج»**[1].

يجب مراعاة الأولويات في الإنفاق علاوة على الاطلاع التامّ والمسائل العاطفية.

❑ والإنفاق على خمسة وجوه[2]:

١ ـ الإنفاق الواجب؛ مثل الزكاة، الخمس، الكفارات، الفدية ومن وجبت نفقته على الرجل.

٢ ـ الإنفاق المستحبّ؛ مثل مساعدة الفقراء واليتامى وتقديم الهدايا للأصدقاء.

٣ ـ الإنفاق الحرام؛ مثل الإنفاق من المال المغصوب أو في المعاصي.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٥٩.

(٢) تفسير مواهب الرحمن، ج ٣، ص ٢٦٤.

٤ ـ الإنفاق المكروه؛ مثل إنفاق الإنسان على الآخرين مع وجود مستحقّين من ذوي قرباه، وفي هذا ثواب أقل.

٥ ـ الإنفاق المباح؛ كأن ينفق الإنسان على الآخرين ليوسّع عليهم حياتهم. ذلك أنّ الإنفاق لرفع الفقر يندرج ضمن الإنفاق الواجب أو المستحبّ.

التعاليم:

١ ـ يجب أن نتعلّم من الشريعة الإسلاميّة مسائل الإنفاق: أنواعه ومصارفه ووجوهه، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾.

يسأل الإمام زين العابدين عليه السلام ربّه في دعاء مكارم الأخلاق أن يهديه سبل الإنفاق، «**وَأَصِبْ بِي سَبِيلَ الْهِدَايَةِ لِلْبِرِّ فِيمَا أُنْفِقُ مِنْهُ**»[1].

٢ ـ طرح الناس للأسئلة مدعاة لنزول الجواب من لدن الله تعالى، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ... قُلْ﴾.

٣ ـ الإنفاق يشمل الأعمال الصغيرة والكبيرة معاً، ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾.

٤ ـ ثروات الدنيا عندما تكون في يد المؤمن تصبح مصدر خير وبركة، ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾.

٥ ـ يجب أن يكون الإنفاق من الأشياء الجيّدة والمرغوبة، ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾.

٦ ـ لا يقتصر الإنفاق على المال المالية، بل يشمل كل ما هو خير وفيه فائدة، ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾.

٧ ـ الوالدان والأقربون هم أفضل وجوه الإنفاق، ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ...﴾.

٨ ـ الإنفاق على ذوي القربى، يعمل على توطيد عرى القرابة الأسرية، والإنفاق على الآخرين يسدّ العوز المالي والعاطفي للمحتاجين ويحدّ من التفاوت الطبقي، ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

٩ ـ الحكيم هو الذي يضمّن جوابه أشياءً غفل السائل عن ذكرها في سؤاله. فالسؤال في الآية جاء عن جنس الإنفاق، بينما بيّن الله تعالى وجوه الإنفاق، ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ... فَلِلْوَٰلِدَيْنِ...﴾.

---

(١) الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٠.

١٠ ـ يهتمّ الإسلام اهتماماً خاصّاً بالطبقات المحرومة، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

١١ ـ لا يضيع العمل الصالح أبداً، في السرّ كان أم في العلن، قليلاً أم كثيراً، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

١٢ ـ إيماننا بأنّ الله محيط بأعمالنا أفضل حافز لنا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

إشارات:

□ «الكرُه» بضمّ الكاف هي المشقّة التي تنال الإنسان من ذاته وما يعافه بسبب الخوف من القتال مثلاً. و«الكره» بفتح الكاف هي المشقة التي تنال الإنسان من الخارج في ما يحمل عليه بإكراه، مثل الحكم المفروض الذي نزلت به الآية ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[(١)].

□ تناولت الآية السابقة مسألة الإنفاق بالأموال، ويتعلّق موضوع هذه الآية بالتضحية بالنفس في سبيل الله.

□ كره الحرب إمّا بسبب حُبّ الدّعة وطلب العافية لدى الإنسان أو بسبب شعور الرأفة بالآخرين أو لجهة عدم توازن القوى وتفوّق العدو. إذ يذكر القرآن الكريم بأنّكم لا تفقهون بركات والجهاد ونتائجه، وتنظرون فقط إلى خسائرها المادّية الظاهرة، في حين أنّ الله يعلم أسرار والأعمال آثارها من جميع الزوايا في حاضرها ومستقبلها. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا... وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

□ على الرغم من ألوان المشقّات والمصائب التي تقترن بها الحرب، إلّا أنّها مع ذلك تنطوي على آثار إيجابية وفوائد جمّة؛ نذكر منها:

---

(١) سورة فصّلت: الآية ١١.

أ) رفع القدرة القتالية لدى الإنسان.

ب) ردع العدوّ وصدّه.

ج) خلق روح الالتزام والتضحية لدى أفراد المجتمع.

د) جعل قدرة الإسلام وعزّة المسلمين حديث الدنيا.

هـ) استنزال الإمدادات الغيبية.

و) خلق روح الاستمداد من الله لدى الإنسان.

ز) الحصول على الأجر والثواب الإلٰهيّ.

ح) خلق روح الإبداع والابتكار لدى الإنسان.

الجهاد في الأديان الأخرى

□ على العكس من الدعاية الإعلامية التي تملأ الدنيا في الدفاع عن السلام ومحاربة العنف، فإنّ مسألة الجهاد في سبيل الدين وردت في جميع الأديان السماوية، وهي، بالتالي، تعتبر ضرورة حتميّة.

ففي التوراة نقرأ:

فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحدّ السيف وتحرمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف[(١)].

ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنّك تحرمهم لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم[(٢)].

إذا خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلاً ومراكب، قوماً أكثر منك فلا تخف منهم[(٣)].

فقال لهم: هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه[(٤)].

(١) التوراة، سفر التثنية، الإصحاح ١٣، العبارة ١٥.
(٢) المصدر نفسه، الإصحاح ٧، العبارة ٣.
(٣) المصدر نفسه، الإصحاح ٢٠، العبارة، ١.
(٤) التوراة، سفر الخروج، العبارة ٢٦.

فأرسلهم موسى ألفاً من كل سبط إلى الحرب[١].

كما جاء في إنجيل متّى ما يلي:

لا تظنوا أنّي جئت لألقي سلاماً على الأرض ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً[٢].

من وجد حياته يضيعها ومن أضاع حياته من أجلي يجدها[٣].

وفي إنجيل لوقا نقرأ:

أمّا أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي[٤].

فقال لهم: لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفاً[٥].

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ القرآن الكريم ذكر تشريع الحرب والجهاد في الأديان السابقة في سور آل عمران[٦] والمائدة[٧] والبقرة[٨].

التعاليم:

١ ـ معيار الخير والشرّ ليس الراحة والشدّة، أو الرغبات الشخصيّة، بل المصالح الحقيقيّة هي المعيار، لذا ينبغي ألّا نعتمد على أحكامنا وتصوّراتنا المسبقة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾.

٢ ـ الكره والحب الشخصي لا يدلّان على الخير والشرّ الحقيقيين، ﴿تَكۡرَهُواْ... وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ... تُحِبُّواْ... وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ﴾.

٣ ـ القتال والجهاد في سبيل الدين مجلبة للخير، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ... وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾.

---

(١) المصدر نفسه، سفر الأعداد، الإصحاح ٣١، العبارة ٣٤.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح ١٠، العبارة ٣٤.

(٣) المصدر نفسه، الإصحاح ١٠، العبارة ٣٩.

(٤) إنجيل لوقا، الإصحاح ١٩، العبارة ٢٨.

(٥) المصدر نفسه، الإصحاح ٢٢، العبارة ٣٦.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٧.

(٧) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

٤ ـ لنسلّم بالأوامر الإلٰهيّة حتى وإن لم نفقه أسبابها، لأنّها تنطلق من علم مطلق بعاقبة الأمور، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

إشارات:

❑ المراد من «الفتنة» في الآية الكريمة هو الشرك والامتحان والبلوى. ورد في التفاسير الشيعية والسنّية ما يلي:

❑ بعث رسول الله ﷺ سريّة من المسلمين مؤلّفة من ثمانية رجال وأمّر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي وهو ابن عمّة الرسول ﷺ وذلك قبل معركة بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم النبيّ المدينة، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة ـ وهي أرض بين مكة والطائف ـ فوجدوا بها عمرو بن الحضرميّ في قافلة تجارة لقريش في آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنّه من جمادى وهو رجب ـ من الأشهر الحرم[1] ـ فاختلف المسلمون أيقتلون الحضرميّ ويغنمون ماله، لعدم علمهم بحلول الشهر الحرام، أم يتركونه احتراماً لحرمة شهر رجب، وانتهى بهم الأمر أن شدّوا على الحضرميّ فقتلوه وغنموا ماله، فبلغ ذلك كفّار قريش فطفقوا يعيّرون المسلمين ويقولون إنّ محمداً أحلّ سفك الدماء في الأشهر الحرم، فنزلت الآية الأولى.

---

(١) من السنن الإبراهيمية التي راجت في بلاد العرب قبل الإسلام احترام الأشهر الحُرُم الأربعة وهي: رجب، وذي القعدة، ذي الحجة، ومحرّم، حيث كانت العرب تمتنع عن أيّ قتال أو نزاع فيها. ولمّا جاء الإسلام أمضى هذه السنّة، وأبقى على حرمة القتال في هذه الأشهر الحُرُم.

وقد ردّ القرآن الكريم على الحملة التشهيرية للأعداء، بأنّ المسلمين شنّوا القتال ضدّ المشركين خطأً في الشهر الحرام، لكنّكم ارتكبتم عن عمد وإصرار من المعاصي ما هو أشدّ إيلاماً وجرماً من القتال في الشهر الحرام. لذلك فإنّكم بما لكم من تاريخ حافل بالجرائم والفظائع وارتكاب الكبائر، لا يحقّ لكم أن تجعلوا من هذا القتال ذريعة تتذرّعون بها.

- حبط أعمال المرتدّ في الدنيا هو في حرمانه من منافع والإسلام وبركاته، لأنّ جزاءه في الدنيا هو تفريقه عن زوجته المسلمة، وحرمانه من الإرث، وقطع علاقته بالمسلمين، وخروجه من حمى الإسلام ويكون القتل مصيدة في نهاية المطاف.

أمّا حبط أعماله في الآخرة فهو في محو جميع أعماله الصالحة، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من أن نردّ على الشبهات الردّ المناسب، ﴿يَسْأَلُونَكَ... قُلْ﴾.

٢ ـ للمسجد الحرام وأهله احترام خاصّ، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ... وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ﴾.

٣ ـ تعيين ثقل المعاصي بيد الله وحده، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ... وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ﴾.

٤ ـ سلب الأمن أعظم من القتل، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

٥ ـ ينبغي لنا أن نكشف آمال العدوّ وأهدافه ومخطّطاته، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾.

٦ ـ حملة الأعداء لا تبرّر كفركم وارتدادكم، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ... وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ...﴾.

٧ ـ ما زال الأعداء يتربّصون بكم الدوائر، لتكفروا وترتدّوا عن دينكم ولن يرضوا بأقلّ من هذا. فهم لا يسعون لتحقيق نصر مؤقّت، بل مرادهم محو ثقافتكم ودينكم، ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾.

٨ ـ حسن العاقبة هي معيار الفضل والقيمة. فكم من مسلم مات على الكفر، ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

٩ ـ قيمة الإيمان والعقيدة من الأهميّة بحيث لو ذهب الإيمان حبطت جميع الأعمال الصالحة، ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ... حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

إشارات:

- موضوع هذه الآية استمرار لموضوع الآية التي سبقتها، وقد جاء في سبب نزولها ما يلي:

لا يحزن المؤمنون الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ولا تثريب عليهم بسبب قتالهم في الشهر الحرام فقد اختلط عليهم الأمر ولم يميّزوا بين هلال شهر رجب وجمادى الآخرة فالله يعفو عن ذنبهم؛ لأنّهم لم يكونوا يقصدون ارتكاب الحرام.

- والحقيقة أنّ الأمل بلا عمل، لا يعدو كونه سراباً. فنحن نقرأ في آخر آية من سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. نعم، «**الرجاء**»، هو ذلك الأمل الذي هيّأ للإنسان مقدمات الوصول إليه.

- ومن أجل أن يأمل الإنسان في الألطاف الإلٰهيّة، أتاح له الإسلام ظروفاً وأسباباً لتحقيق آماله منها:

١ ـ اليأس والقنوط من الكبائر[1].

٢ ـ في حديث قدسي شريف يقول الله تعالى: «**أنا عند حسن ظنّ عبدي بي، ما دام العبد عند حسن ظنّي به**»[2].

---

(١) سورة الزمر: الآية ٥٣.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٧٢.

٣ ـ الأنبياء والملائكة يدعون للمؤمنين ويستغفرون لهم[١].

٤ ـ مضاعفة الثواب الإلٰهيّ[٢].

٥ ـ فتح باب التوبة[٣].

٦ ـ مصائب المؤمن كفّارة لذنوبه[٤].

٧ ـ يقبل الله تعالى يقبل التوبة من عبده ويبدّل سيئاته حسنات[٥].

التعاليم:

١ ـ الإيمان أعلى مرتبة من العمل، ﴿ءَامَنُوا... هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا﴾.

٢ ـ الأمل بلطف الله رهن بالإيمان والهجرة والجهاد، ﴿ءَامَنُوا... هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا... أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ﴾.

٣ ـ الله تعالى يعفو عن الزلّات الصغيرة ما دام أساس الأفكار والأعمال سليماً، ﴿ءَامَنُوا... هَاجَرُوا... يَرْجُونَ﴾.

٤ ـ يجب أن يعقد الإنسان أمله بلطف الله لا بأعماله الصالحة، فهو لا يأمن من خطر سوء العاقبة وحبط الأعمال وعدم قبول طاعاته حتى آخر لحظة من عمره، ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأنّ العبد يرجو رحمة ربّه، ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦ ـ فضل الهجرة والجهاد يمكن في أن يكونا في سبيل الله ونيل رضاه، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ المؤمنون والمهاجرون المخلصون أيضاً يرجون رحمة الله ومغفرته، ﴿ءَامَنُوا... هَاجَرُوا... يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) سورة غافر: الآية ٧؛ سورة إبراهيم: الآية ٤١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

(٣) سورة النساء: الآية ١٨.

(٤) بحار الأنوار، ج ٨١، ص ١٧٦.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

٨ ـ ينبغي العفو عن زلّات المهاجرين والمجاهدين في سبيل الله، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾

إشارات:

□ ورد في مفردات الراغب أنّ «الإثم والآثام» اسم للأفعال المبطئة عن الثواب.

□ السؤال الأوّل للناس كان عن حكم الخمر والميسر.

و«الخمر» في اللغة كما ورد في الراغب بمعنى الغطاء والستر ومنه خمار المرأة، وكلّ شيء غطّى شيئاً فقد خمره، ولمّا كان الخمرة تخمر العقل وتستره وتفقد صاحبه قدرة التمييز بين الحسن والقبيح فقد سمّيت بذلك.

أمّا «الميسر» فمأخوذ من كلمة «اليُسر»، وإنّما سمّي بذلك لأنّ المقامر يستهدف الحصول على مال صاحبه بسهولة ويُسر.

وتردّ الآية الكريمة على السؤال بالقول: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾. وربّما جنى بعضهم أموالاً طائلة عن طريق زرع الكروم أو بيع الخمر، أو عن طريق إنشاء دور للقمار.

ولقد ورد الكثير في المصادر العلمية والتربوية عن الأضرار السيئة للخمر والقمار. ونذكر للقارئ الكريم بعضاً من هذه الأضرار نقلاً عن تفسير الأمثل:

١ ـ الخمر تقصّر عمر الإنسان.

٢ ـ تترك آثاراً سلبية على الأطفال، ولا سيّما إذا كان الأب ثملاً حين انعقاد النطفة.

٣ ـ كما لها دور كبير في انتشار الفساد الأخلاقي، وارتفاع معدّلات الجريمة

مثل: السرقة، حوادث الاعتداء بالضرب، الجرائم الجنسية، وزيادة مخاطر حوادث السّير. نقل عن أحد العلماء قوله: لو أنّ الحكومة ضمنت لي غلق حانات الخمور لضمنت لها غلق نصف المستشفيات ودور المجانين.

وليس الحال بأفضل في ما يتعلّق بالقمار، فهو يشكل السبب الرّئيس الذي يكمن وراء حالات الاضطراب النفسي، والأمراض العصبية والسكتة الدماغية والقلبية، وازدياد نبض القلب، وفقدان الشهية، وشحوب لون الوجه.

هذا وقد وجد المحلّلون أنّ ثلاثين في المئة من حجم الجرائم المرتكبة تتعلّق بالقمار. ناهيك عن الأضرار والخسائر التي يتسبّب بها القمار في قطاع الاقتصاد والتي تحول دون الانتعاش الاقتصادي وتقضي على النشاطات المفيدة. ويشار إلى أنّ بعض البلدان غير الإسلاميّة اتّخذت في خلال سنوات معيّنة بعض الخطوات لمنع صالات القمار من مزاولة نشاطاتها، من هذه البلدان، على سبيل المثال: بريطانيا في عام ١٨٥٣، والاتحاد السوفياتي السابق في عام ١٨٥٤، ألمانيا في عام ١٨٧٣.

□ السؤال الثاني الذي طرحه الناس على النبيّ الكريم ﷺ يدور حول موضوع الإنفاق وحجم ما ينفقون؟

فجاء جواب الآية الكريمة: «العفو»! وهو في اللغة، علاوة على المغفرة والصفح، يعني الحدّ الوسط بين شيئين، وما سهل وتيسّر وفضل، كما يعني أفضل جزء في الثروة وكلّ هذه المعاني تنسجم ومفهوم الآية الكريمة، وربّما كان مراد الآية من العفو هذه المعاني جميعاً. فيكون المعنى: إذا أردتم الإنفاق، فعليكم التزام الاعتدال، ولا تنفقوا أموالكم كلّها فتكونوا عالة، كما أنّ الإنفاق يجب أن يكون من أفضل المال؛ إذ يذكر القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

□ جاء في التفاسير أنّ تحريم الشراب نزل بصورة تدريجية ولم يكن دفعة واحدة،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٢.

ذلك أنّ العرب كانوا مدمنين على الخمر، لذا فالآيات كانت تعدّهم رويداً رويداً لقبول التحريم. ففي البداية نزلت الآية: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[1] بمعنى أنّ الشراب ليس بالرزق الحسن. ثمّ نزلت الآية: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾. بعد ذلك تقول الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[2]. وفي نهاية المطاف، أرتج باب الخمر وأعلنت الآية الكريمة التحريم التامّ والدائم والعلني؛ ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ... رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ الخمر والقمار، عاملا فساد الجسم والروح، ومدعاة للغفلة. ولذلك وردا إلى جنب بعضهما في القرآن الكريم، ﴿ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾.

٢ ـ يجب الدفاع عن العقيدة والأمن. فبتحريم الخمر يُحفظ صيانة العقل والفكر، وبتحريم القمار يصان الاستقرار والسلامة النفسية والاقتصادية، ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ... وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾.

٣ ـ يجب مراعاة مبادئ العدالة في التعامل. فلا بدّ من الأخذ بالاعتبار محاسن الآخرين ومساوئهم سواء بسواء. فالآية الكريمة لم تغضض الطرف عن منافع الشراب والقمار لتبقي على قدرة العقل والفكر في الإنسان وقّادة، ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾.

٤ ـ ربّما انطوت بعض المحرّمات على منافع أيضاً، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

٥ ـ عند تشريع القوانين يجب أخذ الأولويّات بعين الاعتبار أي الأهمّ فالمهم، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾.

٦ ـ تشرّع الأحكام الإلٰهيّة على أساس المصالح والمفاسد، ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾.

٧ ـ التعرّف إلى فلسفة الأحكام خطوة باتجاه القبول بها، ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾.

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٧.
(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.
(٣) سورة المائدة: الآية ٩٠.

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾﴾

إشارات:

- عبارة ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾، إمّا أن تكون تكملة للآية السابقة حول الإنفاق، فيكون المعنى أنّ إنفاقكم هو من أجل بلوغ الراحة والطمأنينة في الدنيا والآخرة، فلا تنفقوا جميع أموالكم في الدنيا فتشقّوا على أنفسكم وتكونوا عالة، ولا تمسكوا وتبخلوا فتُحرَموا ثواب الآخرة. أو أنّ العبارة إشارة إلى كلمة ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ التي وردت في نهاية الآية السابقة، أي، على الإنسان أن يتفكر في مسائل الدنيا والآخرة، ويزرع في هذه الدنيا لآخرته، وأن يتفكر في المبدأ والمعاد وأسرار الوجود والكائنات ونواميس الكون، وأن يتعامل مع القضايا من منطلق العقل والفكر، وإن كان اعتناق الدين غير مشروط بمعرفة الأسرار جميعاً[(١)].
- نقلت التفاسير أنّه لمّا أنزل الله تعالى الآية العاشرة من سورة النساء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ اضطرب أولئك الذين كانوا يحتفظون باليتامى في بيوتهم، فتخلّى الناس عن اليتامى وعمد بعضهم إلى إخراجهم من بيته، وأولئك الذين احتفظوا بهم في بيوتهم عزلوا طعامهم عن طعام اليتيم، فشقّ ذلك على اليتيم وعلى من يرعاهم، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ ليسألوه عمّا ينبغي عليهم فعله مع اليتامى، فنزلت الآية الشريفة.

التعاليم:

١ ـ ينبغي ألّا تكون نظرتنا إلى الدنيا والآخرة نظرة سطحية، بل يجب أن نتدبّر فيهما، ﴿تَتَفَكَّرُونَ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾.

---

(١) تفسير الميزان، ذيل الآية.

٢ ـ لا صلاح في التخلّي عن اليتامى، بل الصلاح هو في معاشرتهم بنوايا حسنة ومن منطلق الأخوة، ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

٣ ـ أيّ إصلاح لأوضاع اليتامى يعدّ فضيلة. فقد وردت كلمة «**إصلاح**» بصورة مطلقة لتشمل أيّ نوع من الإصلاحات بما في ذلك الإصلاحات المالية والعمليّة والتربوية والدينيّة، ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

٤ ـ اليتامى ليسوا عبيدنا ولا أبناءنا، بل إخوة صغار لنا وجزء منّا، ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾.

٥ ـ لا إفراط ولا تفريط، فلا نأكل أموال اليتامى باسم الإصلاح، ولا نتخلّى عنهم باسم خشية الفساد، فالله يعلم المصلح من المفسد، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

٦ ـ إذا أيقنّا بأنّ الله عليم بما في قلوبنا لن نرتكب الفساد والمعصية، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾.

٧ ـ لا يجيز الإسلام تكليف الإنسان فوق طاقته، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾.

٨ ـ من الحكمة ألّا يشقّ الإنسان على نفسه في تطبيق التعاليم والأحكام، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾

إشارات:

□ الزواج بالنساء غير المؤمنات قد تنتج عنه نتائج سلبية تنعكس على تربية الأبناء والأجيال القادمة، وربّما أصبح هؤلاء عملاء أو جواسيس للأجانب. الآية الكريمة وإن كانت تتحدّث عن موضوع الزواج بالمشركات، إلّا أنّ المفهوم العام لها يمنع أيّ معاشرة تعرّض إيمان الإنسان للخطر.

التعاليم:

١ ـ لا يحقّ للمسلمين أن يتزوّجوا بالكفّار، ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾.

٢ ـ عند اختيار الزوجة تكون الأولوية للإيمان، فالزواج بالكافرة حرام، ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ﴾.

٣ ـ ينبغي للإنسان ألّا ينخدع عند اختيار الزوج بالجمال أو الثروة أو المقام، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ... وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

٤ ـ المنزلة والمال والجمال لا يحلّون محلّ الإيمان، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

٥ ـ ينبغي أن نُعلي من شأن المستضعفين والمحرومين من خلال الزواج بهم، ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ... وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ﴾.

٦ ـ يجب أن نسوق الغرائز الطبيعية في طريق الدين، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ... حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾.

٧ ـ الإيمان منشأ للفضل، حتى وإن كان صاحبه عبداً أو أمة، والشرك رمز السقوط وإن كان للحرّ، ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾.

٨ ـ للوالد حقّ الولاية على زواج ابنته. فالآية الكريمة تدعو الوالد ألّا ينكح ابنته للمشركين، ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟﴾.

٩ ـ الإيمان أوّلاً ثمّ الزواج. فلا تراهنوا على الإيمان بعد الزواج، ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ...﴾.

١٠ ـ فلنتصدّ لنفوذ عملاء المشركين في أوساط المسلمين، ونتنبه إلى الأخطار العديدة التي تنطوي عليها مثل هذه الزيجات، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

١١ ـ الزوجة المشركة تمهّد الطريق إلى جهنّم، ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

١٢ ـ العمل بالأحكام الإلٰهيّة طريق الوصول إلى الجنّة، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾.

١٣ ـ المغفرة في ظلّ التوفيق والإذن الإلٰهيّ. بخلاف الديانة المسيحية التي يعتقد أتباعها بأنّ المغفرة بيد رجال الدين المسيحيين، ﴿وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾.

١٤ ـ الإنسان يعلم الحقائق بالفطرة. بيان الأحكام هو للذكرى فقط، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

إشارات:

□ موقف الديانتين اليهودية والمسيحية من المرأة في أيّام الحيض متباين، فاليهود يتشدّدون جداً، والنصارى يتساهلون كثيراً.

جاء في كتاب التوراة:

١٥ : ١٩ ـ وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها وكل من مسها يكون نجساً إلى المساء.

١٥ : ٢٠ ـ وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً وكل ما تجلس عليه يكون نجساً.

١٥ : ٢١ ـ وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء.

١٥ : ٢٢ ـ وكل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء.

١٥ : ٢٣ ـ وإن كان على الفراش أو على المتاع الذي هي جالسة عليه عندما يمسه يكون نجساً إلى المساء.

١٥ : ٢٤ ـ وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام وكل فراش يضطجع عليه يكون نجساً.

١٥ : ٢٥ ـ وإذا كانت امرأة يسيل سيل دمها أياماً كثيرة في غير وقت طمثها أو إذا سال بعد طمثها فتكون كل أيام سيلان نجاستها كما في أيام طمثها أنها نجسة[١].

أمّا النصارى فقد وقفوا موقفاً مناقضاً تماماً لحكم التوراة، فهم يحلّون حتى الجماع في أيّام حيض المرأة.

---

(١) التوراة، سفر اللاويين.

فيما يسلك الإسلام مسلك الوسطية والاعتدال في حكمه، فمنع الجماع في أيّام الحيض، إلّا أنّه أباح معاشرتهنّ والجلوس معهنّ من دون أيّ حرج.

□ يتميّز الدين الإسلامي بأنّه دين شامل وجامع، وهو يحمل إجابة لكل أسئلة الحياة الإنسانية. تكرّرت عبارة «يسألونك» مراراً في الآيات السابقة، حيث تنقل أسئلة المسلمين من الرسول الكريم ﷺ، ثمّ تجيبهم عليها. فتارةً يسألون عن موضوع الحرب، وتارة أخرى عن الخمر والميسر وثالثة عن النفقة. وهذه الآية استمرار لهذا النهج في طرح الأسئلة، فجاء السؤال عن قضايا تخصّ شؤون المرأة. هذه كلّها دلائل على جامعيّة هذا الدين، فهو له أحكام خاصّة حتى في موضوع الجماع والمسائل الجنسية: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا يعني أنّ أحكام الله تشمل جميع المسائل التفصيلية والكلية والمادّيّة والمعنوية.

□ أثناء الدورة الشهرية تكون المرأة غير مستعدّة نفسيّاً للجماع، إنّ ما تعانيه في خلال ذلك من العصبية الزائدة وصعوبة التركيز والإنهاك وتراجع المزاج والاكتئاب كلّ هذه العوامل تجعلها تفقد النشاط للمقاربة الجنسية. كما أنّه في الفترة التي يخرج فيها الدم من رحم المرأة، تكون غير قادرة على استقبال النطفة، وطبقاً لآراء الأطباء فإنّه من الممكن أن تدخل مواد الحيض المليئة بالميكروبات في العضو الذكري، فتصيبه بالعقم الدائم.

وجاء في الروايات: **«...وكره للرجل أن يغشى امرأته وهي حائض، فإن غشيها فخرج الولد مجذوماً أو أبرص فلا يلومنّ إلّا نفسه»**[١].

التعاليم:

١ ـ الأنبياء هم مصدر الإجابة عن أسئلة الناس، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾.

٢ ـ لا حياء في السؤال، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾.

٣ ـ تبيين أسباب الأحكام يساعد في قبولها. تشرح الآية الكريمة دليل حرمة الجماع ثمّ تأمر بعدمه، ﴿هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٥٦٨؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ١٧٨.

٤ ـ الأحكام الإلٰهيّة تكون على أساس رعاية المصالح ودفع المفاسد، ﴿هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾.

٥ ـ الدورة الشهرية، فترة صعبة بالنسبة إلى المرأة، ﴿هُوَ أَذًى﴾.

٦ ـ مقاربة الزوجة لها قواعد وضوابط، ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾.

٧ ـ لا بدّ للزوج من مراعاة زوجته، فلا يستغلّ فترة عسرتها لقضاء وطره من الالتذاذ، ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾.

٨ ـ يجب أن تكون المقاربة الجنسيّة في إطار مراعاة الشروط الصحيّة، ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾.

٩ ـ يجب مراعاة الأحكام الإلٰهيّة عند الجماع مع الزوجة، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

١٠ ـ التوبة والعودة عن المعصية هو طريق محبة الله، ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.

١١ ـ لا بدّ من إظهار الحبّ والرغبة للنادمين والتائبين، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)﴾

إشارات:

□ شبّهت الآية الكريمة النساء بالمزرعة، حيث تحتضن بذور الرجل لإعدادها طيلة تسعة أشهر هي فترة الحمل، لتهدي ثمرتها بعد ذلك إلى بستان الإنسانية. فكما أنّ الإنسان يهلك من دون مزرعة وحرث، فإنّ المجتمع الإنسانيّ أيضاً يهلك من دون المرأة.

المرأة ليست وسيلة لإطفاء الشهوة الجنسيّة فقط، بل هي سرّ بقاء الجنس البشري واستمراره، لذلك يجب الأخذ بالاعتبار الهدف الأصلي من العمليّة الجنسيّة ألا وهو إنجاب أبناء صالحين ليكونوا ذخراً لأخراهم، فحتى في هذه اللحظات والأوضاع، لا بد من أن يسعى الإنسان إلى تحقيق هدف مقدّس.

تحذّر عبارة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الإنسان من تحقيق اللّذة الجنسيّة من طرق غير مشروعة، وتقول إنّ عليه اتّباع النهج الذي يجعله مرفوع الرأس في يوم القيامة، لتصبح ثمرة العمليّة الجنسيّة أبناء صالحين يكونون مصاديق بارزة للعمل الصالح والخيرات في اليوم الآخر.

التعاليم:

١ ـ الزوجة الصالحة كالمزرعة الصالحة، وسلامة البذور شرط الإنتاج الأفضل، ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾.

٢ ـ البذرة والأرض كلاهما يلعب دوراً مهمّاً في الإنتاج. لكلّ من المرأة والرجل دور الرئيس في الحفاظ على الأجيال القادمة، ﴿حَرْثٌ لَكُمْ﴾.

٣ ـ إلى جانب المنع الموسمي هناك إباحة طويلة الأمد، فقد قال تعالى في الآية الكريمة السابقة: ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾، وفي هذه الآية يقول: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾.

٤ ـ في المقاربة الجنسيّة يجب على الرجل أن يسعى إلى المرأة، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾.

٥ ـ الغرائز أيضاً يجب أن تصطبغ بصبغة إلٰهيّة. فإذا كان الهدف من المقاربة الجنسيّة إنجاب أبناء صالحين ليكونوا ذخراً في يوم القيامة، فقد اصطبغت العمليّة بصبغة إلٰهيّة، ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾.

جاء في صحيح البخاري: إنّ أولياء الله يرجون عند الجماع أن يرزقهم الله أبناءً مجاهدين.

٦ ـ إذا قمنا بإنجاب أبناء صالحين، فنحن الذين سنقطف ثمار ذلك، ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾.

٧ ـ المرأة ليست سلعة، ولا مصدر الظلمات، إنّها مصدر العمران وعامل النماء في التاريخ ومبعث الهدايا الأخروية، ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ... وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾.

٨ ـ علينا التزام التقوى في المسائل الجنسية، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ... وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٩ ـ يجب لجم الأهواء النفسانية بلجام التقوى، ﴿أَنَّى شِئْتُمْ... وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

١٠ ـ الإيمان بالآخرة أفضل وسيلة للوصول إلى التقوى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾

إشارات:

□ ورد في تفاسير عدّة مثل مجمع البيان وروح البيان في سبب نزول هذه الآية ما يأتي: أنّه قد حدث خلاف بين صهر أحد الصحابة وابنته، وهذا الصحابي هو عبد الله بن رواحة إذ أقسم أن لا يتدخّل في الإصلاح بين الزوجين، فنزلت الآية تنهى عن هذا اللون من القسم وتلغي آثاره.

□ «**الأيمان**» جمع «**يمين**» وهو القسم، وكلمة «**عُرضة**» بضمّ العين من عرض الشيء على الملأ.

□ تحظر الآية الكريمة أن يجعل الإنسان من القسم وسيلة للتبرير والفرار من المسؤولية، فيلجأ إلى ذكر الاسم الإلٰهيّ المقدّس بمناسبة ومن دونها، ففي ذلك، بلا شك، نوع من الجرأة على الله وإساءة للأدب بين يديه تعالى.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**لا تحلفوا باللّه صادقين ولا كاذبين**»[1].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من المحافظة على حرمة اسم الله والمقدّسات، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾.

٢ ـ لا ينبغي للقسم أن يحول دون المكارم وأعمال الخير والإصلاح بين الناس، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

إشارات:

□ لا قيمة شرعيّة للأيمان اللاغية التي تجري على لسان الإنسان عن غفلة منه أو في

(١) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٧.

حالة الغضب دونما قصد أو إرادة ممّا لا ينعقد عليه القلب، فيتفوّه بها متعجّلاً غير واعٍ ولا قاصد، وتسبق الكلمات تفكيره، بل إنّ المؤاخذة تكون على القسم الذي يصدر عن سابق قصد وفي الحالة العادية والطبيعية للقيام بعمل مفيد. فهذا النوع من الأقسام ملزم شرعاً، ويحرم الحنث به، وكفّارته إطعام عشرة فقراء أو كسوتهم، أو تحرير رقبة وإذا لم يتيسّر أيّ من ذلك فصيام ثلاثة أيّام[١].

التعاليم:

١ ـ مسؤولية الإنسان رهن بإرادته واختياره. فالله يغفر زلّات الإنسان التي تصدر عنه في الظروف الاستثنائية، ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾.

٢ ـ القصد والنيّة، معيار الثواب والعقاب، ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

٣ ـ الصّفح عن الهفوات غير المتعمّدة للإنسان أحد مظاهر الحِلم والمغفرة الإلٰهيّة، ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ... غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾

إشارات:

❑ **«الإيلاء»** القَسَم على ترك الوطء، وهو تقليد جاهلي كان شائعاً عند العرب، وذلك للتضييق على الزوجة، وكان يشدّد عليها بهذه الطريقة نفسيّاً وجنسيّاً، فلا يبقي عليها ويكون لها زوجاً صالحاً ولا هو يسرّحها بالطلاق لتتزوّج من رجل غيره، فأمهلت الآية الكريمة الرجل أربعة أشهر ليقرّر مصير زوجته، فإمّا أن يعود عن قسمه ويعيش معها، أو ينهي العلاقة رسمياً بالطلاق ويخلّي سبيلها. والحقيقة أنّ الغاية من إمهال الرجل أربعة أشهر ليست هي احترام قسمه غير المعتبر، بل لأنّه لا يحقّ للرجل هجر الوطء في الظروف العادية لأكثر من أربعة أشهر.

(١) سورة المائدة: الآية ٨٩.

التعاليم:

١ ـ الإسلام حامي المظلومين. تعرّضت المرأة على مرّ التاريخ للظلم والاضطهاد وإهدار حقوقها، وقد انبرى القرآن الكريم مرّات عدّة إلى الدفاع عنها، ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾.

٢ ـ محاربة العادات والخرافات الجاهلية من أهم واجبات الأنبياء، ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾.

٣ ـ يتعلّل الإنسان أحياناً بأقدس الأسماء لتبرير أشنع الأفعال، ﴿يُؤْلُونَ﴾.

٤ ـ الاهتمام بالحقوق والمتطلبات النفسية والغريزية للمرأة مبدأ مهم، ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾.

٥ ـ يحتاج الإنسان إلى منحه فرصة للعودة واتّخاذ القرار الحكيم، ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾.

٦ ـ يجب تشجيع الناس على مواصلة حياتهم الزوجية بدلاً من دعوتهم للطلاق. على الزوجين أن يعلما أنّ رجوعهما إلى كنف الحياة الزوجية يستنزل عليهما المغفرة والرحمة الإلهيّة، ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

إشارات:

□ تفيد هذه الآية القصيرة أنّه لا مانع إذا قرّر الرجل الطلاق، لكنّها تستبطن في الوقت نفسه تحذيراً وتهديداً له بأنّه إذا أقدم على الطلاق فلن يكون هناك بعد ذلك حديث عن المغفرة والرحمة الإلهيّة، وإنّ الله يسمع لقولهما ومطّلع على دوافع الطلاق إن كانت عن شهوة وهوى فاستغلّ تشريع الطلاق، أم أنّ وضع الأسرة، في الحقيقة، اقتضى أن ينفصل الزوجان عن بعضهما؟

التعاليم:

١ ـ لقد شرّع الإسلام الطلاق على الرغم من كلّ المرارة والمآسي التي ينطوي عليها، إلّا أنّه لم يسمح للزوج أن يترك زوجته معلّقة، ﴿وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَٰقَ﴾.

٢ ـ قرار الطلاق بيد الزوج، ﴿عَزَمُوا﴾.

٣ ـ احترسوا من الأهواء والقرارات التي تدمّر الحياة الزوجة، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

إشارات:

- **«القُرء»** هو الطهر والحيض، فكلا المعنيين مأخوذ في الكلمة، بيد أنّ لهذه الكلمة جمعين: قروء وأقراء، فما كان جمعه **«قروء»** فهو طُهر، وما كان في صيغة **«أقراء»** فالمعنى هو الحيض أو العادة الشهرية للمرأة.
- في الحقيقة، إنّ العدّة هي ضمانة لصيانة حقوق الأسرة، ذلك أنّها تتيح للطرفين التفكير مليّاً في العودة إلى الحياة السابقة، إذ تكون النفوس قد هدأت، وسحب الهياج والانفعال قد انقشعت، فضلاً عن أنّه في هذه الفترة ستتبيّن حالة الحمل عند المرأة إن وجدت، حتى إذا قرّرت الزواج مجدّداً لم يختلط النسل والنسب بين الزوج السابق واللّاحق.
- ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: **«قَدْ فَوَّضَ اللَّهُ إِلَى النِّسَاءِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ الْحَيْضَ وَالطُّهْرَ وَالْحَمْلَ»**[1]. لذلك، يحرم على المرأة أن تخبر بخلاف الواقع؛ لأنّ كتمانها للحقيقة سينقض إيمانها بالله ويوم القيامة.
- وبالنسبة لاستئناف الزوج لعلاقته الزوجية مع زوجته في أيّام العدّة فهو لا يحتاج إلى أيّ مراسيم أو تشريفات خاصّة، على العكس من الطلاق الذي يقتضي شروطاً عدّة لإتمامه. بطبيعة الحال، إنّ هذه العدّة خاصّة بطائفة من النساء، في حين أنّ طلاق الحامل أو اليائسة أو التي لم يقربها زوجها، له أحكامه الخاصّة التي سنأتي على شرحها في مظانّها.

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٢٢٢.

التعاليم:

١ ـ لا يحقّ للمرأة الزواج مجدّداً فور طلاقها، ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾.

٢ ـ ينبغي ألّا يحرم الأبناء من حقوقهم عند الطلاق، ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾.

٣ ـ الإيمان بالله أفضل ضمانة للالتزام بالتشريعات، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ... إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ﴾.

٤ ـ الأولويّة في مواصلة الحياة الزوجية مع الزوج الأوّل، ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾.

٥ ـ يشترط في رجوع الزوج حسن النيّة. فلا يكون العامل الجنسي وحده السبب في رجوعه، فيعود مجدّداً إلى ما كان عليه، ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾.

٦ ـ المسؤولية تولّد حقّاً. فكلّ من اضطلع بمسؤولية، ترتّبت عليها حقوق. فالآباء يتحمّلون مسؤولية تجاه أبنائهم، وبالتالي لهم حقوق عليهم، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾.

٧ ـ يجب مراعاة العدل والإنصاف في التعامل مع المرأة، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾.

٨ ـ كانت المرأة في الجاهلية تعاني ظلماً فجاء الإسلام بتشريعاته القاطعة ليعوّضها عمّا لحق بها، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ فكلمة ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ إشارة إلى الضرر.

٩ ـ لا يجوز التمييز في الظروف المتساوية، ولكن في حال تباين الواجبات أو القابليات فلا مانع من ذلك، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

١٠ ـ لا يحقّ للرجل استغلال سطوته، فالسطوة الحقيقيّة هي لله تعالى، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

١١ ـ العدّة هي من التشريعات الإلٰهيّة الحكيمة، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

إشارات:

- في العصر الجاهلي، كان الطلاق ومن ثمّ الرجوع إلى الزوجة أمراً عادياً وبلا قيود أو ضوابط، حتى جاء الإسلام فوضع حدّاً لهذه الظاهرة، وجعل الطلاق ثلاث مرّات، حيث أجاز الرجوع مرّتين، وكلّ ذلك من أجل المحافظة على حرمة الزوجة والأسرة[1].

- والطلاق في الدين الإسلامي مكروه ولهذا سمّي أبغض الحلال، بيد أنّ الخلاف بين الزوجين يصل أحياناً إلى حدود لا يمكن معها مواصلة الحياة الزوجية.

مضافاً إلى الطلاق الرجعي الذي أنيط بالرجل، تطرح الآية الكريمة نوعاً آخر من الطلاق وهو طلاق الخلع ومفاده أن تطلب المرأة الطلاق، وفي هذه الحالة يجب أن تبذل مهرها أو فدية معيّنة لقاء الحصول على حريّتها بالطلاق.

- إنّ تعدّد التطليقات يحسب على أساس الرجعات واستئناف الحياة الزوجية، فالطلاق لا يصحّ في مجلس واحد بل يجب أن يحدث في مجالس عدّة، أي أنّ قول الزوج: «طلّقتك ثلاثاً» يحسب مرّة واحدة، لأنّه لا يقطع سوى زواجاً واحداً.

من هنا، وطبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام فإنّ تعدّد الطلاق لا يتحقق في مجلس واحدٍ دون رجوع، لأنّه ليس من المصلحة في شيء أن يوصد باب الحياة الزوجية نهائياً في جلسة واحدة وبقرار واحد[2].

---

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) في ضوء أهميّة هذا الموضوع كان الشيخ محمود شلتوت مفتي مصر الأكبر ورئيس جامعة الأزهر يقول: بالنسبة إلى الطّلاق فإنّي أرجّح رأي الفقه الشيعي.

التعاليم:

١ ـ إذا رمنا قطع العلاقة بالآخرين فليس من المصلحة أن نتّخذ قرارنا النهائي دفعة واحدة، وإنّما نترك الباب مفتوحاً أمام التفكير والتأمّل والعودة، ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾.

٢ ـ لا يجوز إيذاء الزوجة والإضرار بها. فلا ينبغي للزوج أن يراجع زوجته بقصد التمتّع أو الانتقام النفسي، ثمّ يتركها ثانية، ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾.

٣ ـ ينبغي الابتعاد عن القرارات المزاجية غير المتداولة في الحياة الزوجية، والاحتكام إلى الحياة العادية والعرف، ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾.

٤ ـ مرارة الفراق يمكن التعويض عنها بحلاوة الهدية أو الإحسان، ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾.

٥ ـ إذا كان لا بدّ من الطلاق فليكن شرطه الإحسان، لا زرع الأحقاد والعنف والانتقام، ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾.

٦ ـ الأساس في الحياة الزوجية إمساك الزوجة لا تسريحها. فقد وردت كلمة «إمساك» قبل كلمة «تسريح»، ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾.

٧ ـ لا انفصال للقانون والأحكام في الإسلام عن الأخلاق والعواطف. وكلمتا «إحسان» و«معروف» تدلّان على ذلك، ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾.

٨ ـ مراعاة الحقوق واجبة. فلا يحقّ للزوج استعادة شيء من مهر الزوجة الذي هو حقّ مسلّم لها، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾.

٩ ـ يجب أن تؤطّر رغبات الزوج والزوجة بالحدود الإلٰهيّة، ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾.

١٠ ـ لا يكفي رأي الزوج أو الزوجة في اتّخاذ قرار الطلاق، بل ينبغي للآخرين أيضاً أن يكون لهم رأي في هذا القرار، ﴿يَخَافَآ... خِفۡتُمۡ﴾؛ أحياناً يتّخذ

الزوجان قرارهما بإنهاء حياتهما الزوجية معلّلين ذلك بغياب الانسجام الأخلاقي، ولكن ربّما كان ذلك نابعاً من الانفعال العصبي، من هنا فإنّه بالإضافة إلى خوف الزوجين، يؤكد القرآن الكريم ضرورة إشراك الناس في الموضوع ليحيطوا بأسباب عدم التفاهم، ﴿خِفْتُمْ﴾.

١١ ـ عند اتّخاذ القرارات يجب أن يكون الهدف الرئيس هو إقامة الحدود الإلٰهيّة والقيام بالواجبات، فاستمرار الزواج شرطه مراعاة حدود الله، وإلّا فالطلاق أفضل، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

١٢ ـ «**طلاق الخُلع**» هو من أجل تمكين المرأة من الخروج من حالة العسر والحرج، ﴿افْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

١٣ ـ لا يحبّذ الإسلام استمرار الحياة الزوجية بالإكراه والضغط والقسر. ففي حال كانت الزوجة معرّضة لضغوط تجبرها على التنازل عن مهرها لتتحرّر من قيد الزوجية، فإنّ الإسلام أتاح لها هذا الخيار. طبعاً ليس معنى ذلك إلزام الزوج قبول طلاق الخُلع، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

١٤ ـ تجاوز الشريعة الإلٰهيّة ظلم، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

إشارات:

❏ نجد في الدين الإسلامي بعض الأحكام التي تسعى إلى الحدّ من القرارات المستعجلة والمرتجلة، مثلاً:

أ) من أراد أن يطلّق زوجته، فيجب أن يقع ذلك وهي في حالة الطُّهر، وبحضور شاهدين عادلين، كما تجب عليه نفقتها لفترة معيّنة، ويحقّ للزوجة في هذه الفترة أن تتزيّن وتعرض نفسها عليه. هذه الشروط يمكن أن تحدّ من الاستعجال في الطلاق.

ب) كان الناس إذا أراد أحدهم أن يناجي النبيّ الكريم ﷺ أي يسارّه بينه وبينه

تجمهروا حوله وضيّقوا عليه فأمر الله تعالى من أراد من المؤمنين أن يناجي النبيّ فعليه أن يقدّم صدقة بين يديه ثم يناجيه، وقد وضع الله ذلك ليحدّ من الأسئلة غير الضرورية[١].

وعلى أيّ حال فإنّ زواج المرأة برجل آخر، ومن ثمّ طلاقها منه ورجوعها إلى زوجها الأول مثال آخر على التشريعات الإسلاميّة التي تحدّ من الاستعجال في اتّخاذ القرارات.

التعاليم:

١ ـ لا يستغلّنّ الزوج صلاحيّاته، وليعلم بأنّ صلاحيّاته في الطلاق محدودة. نقل عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «**فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره لئلا يوقع الناس الاستخفاف بالطلاق ولا يضاروا النساء**»[٢]، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾.

٢ ـ الزواج شرطه الأمل بمواصلة الحياة الزوجية على أساس الأحكام الإلٰهيّة، ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ ليعلم المسلم أنّ الحدود الإلٰهيّة لا تختزل في الصلاة والزكاة والحج والجهاد، فرعاية الشؤون الأسرية من ضمن تلك الحدود، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ ليس كلّ شخص يحيط بأسرار الأحكام الإلٰهيّة وحِكَمها. فالناس العاديون يرون ظاهر الأحكام والراسخون في العلم يسبرون روحها وعمقها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

إشارات:

□ دأبت الآيات القرآنية على زيادة شحنة التحذير والنصح كلّما كانت احتمالات

---

(١) انظر: سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٥٠٢.

الانحراف والظلم والتهديد أكبر. فقد تضمّنت الآيتان السابقتان تحذيراً: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، ثمّ عاودت الكرّة هنا لتعيد التحذير نفسه: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ وذلك بالنظر إلى أنّ الظروف النفسيّة للزوجين حين الانفصال لن تكون طبيعية، حيث ستبرز دوافع الانتقام والأذى بشكل قوي، وسوف تتّسع دائرة الخطر والظلم والتعدّي.

- إنّ أيّ ظلم للزوجة أو عدوان يقع على حقوقها من طرف الزوج هو في الحقيقة ظلم وأذى للزوج نفسه، ذلك لأنّهما جزآن من جسد واحد في نظام الخلقة، فكلّ ظلم لأحد أعضائه هو ظلم لجميع أعضاء الجسد. إذن، من ارتضى أن يظلم الزوجة، فقد استحقّ العذاب الإلٰهيّ، وبالنتيجة يكون قد ظلم نفسه.

التعاليم:

١ ـ يحثّ الإسلام على إنشاء حياة ملؤها الاستقرار والمحبّة، فالإبقاء على الزوجة بقصد الإيذاء والتضييق عليها حرام، ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾.

٢ ـ أولئك الذين يسيئون معاملة الزوجة معتدون، ﴿لِّتَعْتَدُوا﴾.

٣ ـ ظلم الزوجة هو ظلم للنفس، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

٤ ـ الزواج إحدى آيات الله الكبرى[1]، وينبغي ألّا تنتهك حرمته بالطلقات العبثية أو الإبقاء على الزوجة بقصد الإيذاء، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾.

٥ ـ اذكروا النعم بدلاً من الأحقاد والنقائص والمرارات. لا تستعرضوا المشاكل الأسرية إلى جانب نعم الله التي لا تحصى، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

٦ ـ من أجل ترسيخ العلاقات الزوجية، يجب الاهتمام بأحكام الكتب السماوية ووصاياها والالتزام بالتقوى، ﴿وَاذْكُرُوا... وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

---

(١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ سورة الروم: الآية ٢١.

٧ ـ من كان يؤمن بأنّه بين يدي الله، فعليه أن يُعرض عن المعاصي، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٨ ـ فليعلم الذين يبغون من الطلاق ظلم الزوجة واستغلالها بأنّ الله عليم بما يفعلون، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

إشارات:

- تفيدنا الآية الشريفة أنّ عودة الزوجة المطلقة إلى زوجها السابق وتوافقهما هو أزكى وأطهر للفرد والمجتمع معاً، ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾؛ وذلك لأنّه بهذه العودة وهذا الزواج تصان أسرار الزوجين، كما يعود الأبناء إلى أحضان والديهم وأوليائهم الحقيقيين، ولأنّ الزوجين قد ذاقا مرارة الطلاق وعذاباته، فسوف تكون حسّاسيّتهما بالنسبة للطلاق المجدّد كبيرة.

التعاليم:

١ ـ رأي الزوجة المطلّقة في اختيار الزوج محترم، ولا تحتاج لأحد في الزواج المجدّد، ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

٢ ـ لا تدع الطلاق مرّة، يؤدّي بك إلى التشاؤم، فلربّما ندم الزوجان على فعلتهما بعد الطلاق وتملّكهما استعداد للبدء بحياة جديدة ولائقة، ﴿يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

٣ ـ رضا الطرفين شرط رئيس في الزواج، ﴿تَرَاضَوْا بَيْنَهُم﴾.

٤ ـ يجب أن يكون التراضي على الزواج في إطار العقل والعدل، ﴿تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٥ ـ من يضع العصي في دولاب زواج الآخرين، فلا بدّ له من أن يراجع إيمانه بالله ويوم القيامة، ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ... ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

٦ ـ استعينوا بعوامل الجذب الطبيعية والمشروعة، فعسى أن يسترجع الزوجان المنفصلان عن بعضهما ذكرياتهما الجميلة المشتركة، فيرجعا إلى بعضهما بشكل طبيعي ومشروع، وإلّا فإنّ خطر انحرافهما قائم، ﴿يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ... ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

٧ ـ من أجل صون المجتمع من الانحراف، يجب أن لا تبقى المطلّقة من دون زوج، ﴿يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ... ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

٨ ـ إنّ بركات الزواج المجدّد والعودة إلى الزوج السابق وكذلك مفاسد الطلاق والعزوبية فوق إدراك البشر، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

إشارات:

❏ استخدمت الآية الكريمة كلمتي «الوالد» و«الوالدة» بدلاً من «أب» و«أم» وذلك لأنّ الكلمتين الأخيرتين يشمل معناهما كذلك العمّ، والمعلّم وأبا الزوجة، ويؤكد ذلك أنّ زوجات النبيّ الكريم ﷺ، هنّ أمّهات المؤمنين ولسن والداتهم.

❏ كان موضوع الآيات السابقة الطلاق وانفصال الزوجين عن بعضهما، لذا استوجب أن يكون الحديث في هذه الآية عن مصير الأبناء والمواليد الجدد

لئلّا تعصف بهم رياح الخلافات بين الوالدين. وتطرح الآية مسألة الاهتمام بعواطف الأمّ والمقدار اللازم للرضيع من لبن الأم والفترة الطبيعية لذلك.

التعاليم:

١ ـ الإسلام دين جامع. وليس أدلّ على ذلك من اهتمامه ببرنامج التغذية المناسبة للرضيع من خلال الرضاعة الطبيعية، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾.

٢ ـ للأم الأولوية في رضاعة طفلها حتى لو كانت مطلّقة، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾.

٣ ـ فترة الرضاعة الطبيعية سنتان كاملتان، ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾.

٤ ـ يجب أداء الحقوق المالية والمادّية للأم والمرضعة في إزاء إرضاعهما للطفل، ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ... إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم﴾.

٥ ـ أجر الرضاعة يحدّده العرف والاستطاعة، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٦ ـ التكليف يكون بحسب وسع الإنسان وطاقته، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٧ ـ ينبغي ألّا يتسبّب الابن في إضرار الوالدين، ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾.

٨ ـ يجب تأمين معيشة الأم في أثناء فترة الرضاعة، حتى في حالة وفاة الوالد، ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾.

٩ ـ رضاعة الطفل تحتاج إلى توافق الوالدين ومشورتهما، ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾.

١٠ ـ لا بدّ للزوجين من التشاور في ما يتعلّق بشؤون طفلهما، ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾.

١١ ـ حقّ الإرضاع هو للأمّ أوّلاً، فالمرضعة ثانياً، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ... وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾.

١٢ ـ مراعاة التقوى في تغذية الأطفال هي مسؤولية الوالدين، ﴿...وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

إشارات:

- ورد في تفسير الميزان عرض لعقائد الأمم والملل المختلفة في ما يتعلّق بالنساء الثيّبات ومما ورد فيه:

كانت لبعض القبائل القديمة تقاليد وطقوس خاصة بموضوع موت الزوج توصي بضرورة حرق الزوجة حيّة بعد موت زوجها، أو بدفنها حيّة معه في قبره. وكانت بعض القبائل تمنع المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياة، ومنها ما كان يحظر عليها الزواج قبل مرور سنة أو تسعة أشهر من موته. في حين شاعت عند قبائل أخرى تقاليد تلزم الزوجة بالامتناع عن الزواج طبقاً للمدّة التي يحدّدها الزوج في وصيّته، بينما كانت بعض التقاليد تسمح بالزواج بعد موت الزوج مباشرة.

وبين هذه العقائد المنحرفة التي تتراوح بين الإفراط والتفريط يطرح الدين الإسلامي نظريته الوسطية في ضرورة التزام المرأة العدّة ومن ثمّ الزواج بمن تشاء في إطار اللياقة والمعروف.

- في خلال عدّة الوفاة التي تلتزمها المرأة سوف يتبيّن ما إذا كانت تحمل في أحشائها جنيناً من زوجها المتوفى أم لا. طبعاً، هذه العدّة خاصّة بالمرأة غير الحامل، أمّا الحامل فعدّتها حتى تضع حملها.
- في أغلب الحالات استخدم القرآن الكريم كلمة «المعروف» إلى جانب كلمة الزواج، وفي هذا إشارة إلى أنّ الأساس في كلّ علاقة هو أن تكون عقلائية ومطابقة لتعاليم الشريعة.

التعاليم:

١ ـ الموت ليس فناء، بل الاسترجاع التامّ للروح من الجسم. كلمه **«توفّى»** تعني الاستيفاء التامّ أو تناوله وافياً، ﴿يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾.

٢ ـ لا يحقّ للمرأة الزواج مجدّداً فور وفاة زوجها، ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾.

٣ ـ لا يحقّ لأقارب الزوج المتوفّى التدخّل في قرارات زوجة المتوفى، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ﴾.

٤ ـ الظهير الأكبر للتقوى هو إيماننا بأنّ جميع أعمالنا وقراراتنا تحت نظارة الله تعالى، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

إشارات:

□ **«عرّضتم»** من التعريض: ضد التصريح، وهو إفهام المعنى بالشيء المحتمل له ولغيره وهو من عرض الشيء وهو جانبه؛ كأنه يحوم به على الشيء ولا يظهره. و «الخطبة» هي فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول. وتبيح الآية الكريمة للرجل أن يخطب المرأة التي في عدّة الوفاة بالكناية والإضمار شرط عدم التصريح بالخطبة. و﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يعني طريقة تبيان نيّة الخطبة مقروناً بأدب اجتماعي يراعي ظروف المعتدّة المفجوعة بزوجها، كأن يقول لها مثلاً: رحم الله زوجك وألهمك الصبر، ولكن لا تخلو الدنيا من رجلٍ يكنّ لك من المحبة مثل ما كان يفعل زوجك.

التعاليم:

١ ـ الإسلام دين الفطرة، والإنسان مفطور على الزواج؛ لذلك يسمح للرجل بأن يفصح عن رغبته هذه حتى في أيّام العدّة، على نحو التعريض لا التصريح لئلا يجرح مشاعر الأقارب، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم﴾.

٢ ـ لا بدّ من مراعاة الغرائز والشهوات النفسية، فبدلاً من قمعها، علينا توجيه الشباب وتحذيرهم، ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾.

٣ ـ يلزم الأخذ بالاعتبار الوقت والظرف عند طرح الطلبات. فالتصريح بخطبة

المعتدّة المفجوعة في زوجها ينمّ عن نوع من قلّة الأدب أو عدم الذوق أو حتى الصلف، ﴿عَرَّضْتُم... تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

٤ ـ من عرف أنّ الله مطّلع على ما في قلبه، آثر التقوى، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾.

٥ ـ التزام التقوى في الأحوال كلّها، لا سيّما في مسائل الحياة الزوجية أمرٌ مهمّ، ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾.

٦ ـ يسدّ الله تعالى بحلمه ثلمة جزعكم. فعجلتكم بلغت مبلغاً أن تذهبوا لخطبة المعتدّة وفي أيّام عدّتها، لكنّ الله خفّف عنكم بحلمه بأن أذن لكم بذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

٧ ـ على أثر الإنذار والتحذير تتهيّأ ظروف العودة، ﴿فَاحْذَرُوهُ... غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

إشارات:

□ استمراراً لأحكام الطلاق التي ذكرت في الآيات السابقة، تشير الآية الكريمة في السياق نفسه إلى أنّ بعض المسلمين كانوا يعتقدون بأنّ الطلاق قبل حصول المقاربة الجنسيّة أو تحديد المهر غير جائز. فجاءت هذه الآية لتصحّح هذا التصوّر ولتذكر أيضاً ملاحظات تتعلّق بهدية الزوجة.

التعاليم:

١ ـ حتى الطلاق يجب أن يتمّ في أجواء من الخير والإحسان، ﴿طَلَّقْتُمُ... وَمَتِّعُوهُنَّ... بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

٢ ـ الكلام المهذّب فضيلة. فبدلاً من التصريح بالمواقعة الجنسيّة قال عزّ من قائل: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾.

٣ ـ تعيين المهر ودفعه فريضة على الرجل، ﴿تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

٤ ـ يمكن التعويض عن مرارة الطلاق بهدية لائقة. صحيح أنّه لم تكن هناك مقاربة جنسية، إلّا أنّ الطلاق يشكل ضربة نفسيّة للزوجة يمكن التخفيف عنها بالإحسان والهدية المناسبة، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

٥ ـ عقد الزواج له حرمته وقدسيّته. فعلى الرغم من عدم وقوع المقاربة الجنسية، فإنّ إنشاء عقد الزواج بحدّ ذاته يترتّب عليه حقّ للزوجة في أن تُمنح هديّة لائقة، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

٦ ـ مراعاة أصول العدل والإنصاف من قبل الزوجين أمرٌ ضروري. وصحيح أنّ الهدية تخفّف من الأزمة النفسية للزوجة، ولكن في المقابل يجب ألّا يستغلّ هذا الموضوع للضغط على الزوج؛ إذ يجب أن يكون بحسب وسعه، ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

٧ ـ مسؤولية الزوج إزاء أسرته تكون على قدر وسعه، ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾.

٨ ـ لا بدّ من مراعاة الشأن الاجتماعي للزوجة. فكلمة «معروف» تعني أنّ الهدية يجب أن تكون في إطار الاعتبارات الاجتماعيّة والعرف، ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٩ ـ ينبغي الابتعاد عن الإفراط والتفريط في شؤون الحياة، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٠ ـ تقديم الهدية للزوجة من علائم المحسنين، ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١١ ـ الأفضل أن تكون الهدية مادّية لا نقدية، فالآية ذكرت كلمة «متاع» بدلاً من الدرهم والدينار، وفي هذا إشارة إلى أنّ الهدية يحسن أن تكون ممّا يُنتفع به (سلعة) من غير النقود، ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

١٢ ـ لا يظنّن الزوج أن هديته إلى الزوجة عبء أو أتاوة أو صدقة، بل هي حقّ الزوجة على زوجها، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٣ ـ الأخلاق أساس الأحكام الإلهيّة، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الحوار في المسائل الزوجية والأسرية يجب أن يكون مهذّباً، ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾.

٢ ـ تعيين المهر ودفعه فريضة على الرجل، ﴿فَرِيضَةً﴾.

٣ ـ العفو والصفح ممدوح من كلا الطرفين الزوج والزوجة. إمّا أن تعفو الزوجة عن نصف مهرها أو يدفع الرجل كامل المهر، ﴿يَعْفُونَ... يَعْفُوَا۟﴾.

٤ ـ إذن زواج المرأة بيد وليّها، ﴿بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾.

٥ ـ العافون هم الأقرب للتقوى، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

٦ ـ يجب أن يقترن الطلاق بالعفو والفضل، ﴿تَعْفُوٓا۟... وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ﴾.

٧ ـ ينبغي عدم تغييب القضايا الأخلاقيّة والكرامة الإنسانية، ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

إشارات:

- ثمّة آراء عدّة مطروحة في كتب التفسير حول مراد الآية من «الصلاة الوسطى»، ولكن بالنظر إلى سبب نزول الآية الكريمة، وهو أنّ جماعة من المسلمين تذرّعوا بحرارة الجوّ فتخلّفوا عن صلاة الظهر، وكذلك ما ورد في الروايات والتفاسير، فإنّ المراد إذن هو صلاة الظهر.

- إنّ المحافظة على كلّ شيء يجب أن تتناسب مع الشيء نفسه؛ فحفظ المال من السرقة، وحفظ البدن من الجراثيم، وحفظ الروح من الآفات الأخلاقيّة مثل الطمع والحسد والتكبّر، وحفظ الأبناء من جليس السوء، أمّا الصلاة، فمن أيّ شيء تحفظ؟ الحقيقة أنّ حفظ الصلاة درك أسرارها، وإقامتها في أوّل وقتها،

وصحّة إقامتها، وتعلّم أحكامها وآدابها، وحفظ مراكز العبادة، والخشوع والتركيز فيها.

وإنّنا نقرأ في الحديث الشريف: «**إنّ الصلاة إذا ارتفعت في أوّل وقتها رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة، تقول حفظتني حفظك الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة تقول ضيّعتني ضيّعك الله**»[١].

التعاليم:

١ - يجب المواظبة على إقامة الصلاة، ﴿حَٰفِظُواْ﴾.
٢ - كلّ الناس مسؤولون عن المحافظة على الصلاة، ﴿حَٰفِظُواْ﴾.
٣ - ربّما تشير الآية إلى ضرورة إقامة الصلاة جماعةً، ﴿حَٰفِظُواْ... وَقُومُواْ﴾.
٤ - حيثما برزت بوادر التهاون أو الغفلة اقتضت الحاجة إصدار النُّذُر والتحذير، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.
٥ - إقامة الصلاة بحاجة إلى الخشوع والنشاط والمعرفة والإخلاص، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.
٦ - لا ينبغي للإنسان أن يغرّد خارج سرب مخلوقات الطبيعة، فالقرآن الكريم يقول عن الوجود: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[٢]؛ فإذا كنّا غير قانتين، سنصبح الطائر الذي يغرّد خارج سربه، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.
٧ - فضيلة الصلاة في خشوع المصلّي، ﴿قَٰنِتِينَ﴾.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

إشارات:

□ يستخدم القرآن الكريم أحياناً كلمة «الذكر» للدلالة على «الصلاة»، كما في آية

(١) الكافي، ج ٣، ص ٢٦٨.
(٢) سورة الروم: الآية ٢٦.

صلاة الجمعة: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. أو في خطاب الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾. وكذلك في هذه الآية ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ إذ المقصود هو الصلاة.

إذاً، إنّ روح الصلاة وجوهرها هو ذكر الله تعالى.

❑ الآية التي نحن بصددها تشير إلى صلاة الخوف أي التي تحيط بها ظروف القتال والتي لها أحكامها الخاصّة بها وقد ذكرها الفقهاء مفصّلةً في كتبهم الفقهية.

ورد في الأحاديث أنّ النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله كان يصلّي صلاته إيماءً في معركة الأحزاب، كذلك حذا حذوه الإمام علي عليه السلام حين أمر المسلمين في بعض حروبه أن يؤدّوا صلاتهم إيماءً.

وفي السياق نفسه، ورد عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام جواز أداء الصلاة في حالة الخوف إلى غير جهة القبلة ويومي للركوع والسجود في حال القيام وذلك في جواب من سأله عمّا يجب فعله في حال الفرار من حيوان مفترس[1].

التعاليم:

١ ـ فريضة الصلاة لازمة في الأحوال كلّها وبحسب الإمكان، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

٢ ـ لا عسر ولا حرج في الإسلام. فحين يتعذّر على المصلّي الاستقرار أو استقبال القبلة، ترفع هذه الشروط، ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

٣ ـ الصلاة شكران النعم، ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾.

٤ ـ بعض القضايا تغمض على الإنسان فيرفع غموضها بالتجربة، ولكن بعض القضايا لا يعلمها ولا يمكن له ذلك إلّا عن طريق الوحي؛ إذ ورد في الآية ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ بدلاً من: «**لا تعلمون**».

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ١٤٨؛ ونور الثقلين، ج ٢، ص ٢٣٩.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

إشارات:

□ يعتقد بعض المفسّرين بأنّ ترتيب نزول هذه الآية يسبق آية العدّة[١] وآية الإرث، وبنزول تلكم الآيات نسخت هذه الآية، أو بعبارة أخرى، انتهت صلاحية العمل بها.

فيما يرى آخرون أنّ آيات العدّة والإرث قد طرحتا المقدار الضروري والواجب بحيث عيّنت للزوجة سهماً محدّداً من الإرث وأمداً معيّناً ملزماً لعدّتها، أمّا هذه الآية فهي إلى جانب التكليف الواجب، تطرح عملاً مستحبّاً آخر.

بمعنى، أنّه مضافاً إلى فترة العدّة، فإنّ للزوجة، واحتراماً لذكرى زوجها، البقاء في بيت الزوجية لمدّة عام كامل إنْ هي رغبت في ذلك، وبدوره الزوج واحتراماً لزوجته، يعيّن لها إلى جانب حصّتها الشرعيّة من الإرث نفقة عام كامل من ثلث الإرث الذي يحقّ له التصرّف فيه[٢].

التعاليم:

١ ـ حبّذا لو يوصي الزوج بقسم من ماله لزوجته، ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ... وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾.

٢ ـ يجب ضمان مستقبل الثيّب، ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾.

٣ ـ أيّ قرار تتّخذه الزوجة بشأن اختيار زوجها القادم يجب أن يتّسم بالحكمة الشرعية والمصلحة، ﴿فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾.

٤ ـ تشريع الأحكام الإلٰهيّة يتمّ على أساس الحكمة، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣٤.
(٢) تفسير أطيب البيان.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

إشارات:

□ بيّنت الآيات السابقة طريقة دفع المهر إلى المطلّقة قبل الوطء وبعده، أمّا هذه الآية فيختصّ حكمها إمّا بالزوجة التي لم يُعيّن مهرها في عقد الزواج بعد وقوع الطلاق قبل الوطء، أو يحتمل أنّها حالة عامة من الإرشاد الأخلاقي والعاطفي تشمل النساء المطلّقات جميعاً، حيث إنّه مضافاً إلى دفع كامل المهر أو نصفه فإنّها أوصت الزوج بدفع هدية للزوجة تخفّف من آلامها وصدمتها النفسية.

بطبيعة الحال فإنّ الآية الكريمة لا تعدو كونها تعليماً أخلاقياً مستحبّاً يجدر بالمتّقين مراعاته والأخذ به.

وعلى أيّ حال، فإنّ عبارة ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الآية ٢٣٦ و﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هنا و﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ في الآية ٢٣٧، كلّها شواهد تؤكد الاهتمام الاستثنائي للإسلام بالمحافظة على حقوق الزوجة المطلّقة وعواطفها. وفي هذا السياق يذكر أنّ الإمام الحسن عليه السلام أهدى طليقته أمَة[١].

التعاليم:

١ ـ يجب التزام التقوى في التعامل مع النساء المطلّقات، ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ... حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٢ ـ الهدية دليل على التقوى لأنّها تغسل الشحناء والبغضاء وتسري عن القلوب، ﴿مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

٣ ـ يجب التدبّر في أحكام الله وتعاليمه لكي نفقه المصالح التي تستبطنها، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) الكافي، ج ٦، ص ١٠٥.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

إشارات:

- ذُكر في ما تشير إليه نزول هذه الآية الكريمة أنّه في إحدى مدن الشام التي كان يقطنها حوالى سبعين ألف نسمة انتشر مرض الطاعون وأخذ يحصد أرواح الناس بسرعة عجيبة، فهجر المدينة جمع من الناس[١] أملاً في النجاة من مخالب الموت وإذ نجوا من الموت فعلاً بهروبهم من ذلك الجو الموبوء، شعروا في أنفسهم بشيء من القدرة والاستقلالية، وحسبوا أنّ نجاتهم مدينة لعوامل طبيعية غافلين عن إرادة الله تعالى ومشيئته، فأماتهم الله في تلك الصحراء بالمرض نفسه.

وورد في بعض الروايات والتفاسير[٢]: أنّ نزول المرض بأهل هذه المدينة كان عقاباً لهم؛ لأنّ زعميهم وقائدهم طلب منهم أن يستعدّوا للحرب وأن يخرجوا من المدينة، ولكنّهم رفضوا الخروج للحرب بحجّة أنّ مرض الطاعون متفشٍّ في ميادينها، فابتلاهم الله بما كانوا يخشونه ويفرّون منه، فانتشر بينهم مرض الطاعون وهجروا بيوتهم وفرّوا من المرض إلى خارج المدينة حيث أنشب المرض مخالبه فيهم وماتوا، ومضى زمان على هذا حتى مرّ يوماً «حزقيل» أحد أنبياء بني إسرائيل بذلك المكان ودعا الله أن يحييهم، فاستجاب الله دعاءه وأحياهم.

بطبيعة الحال، إنّ هذه الألطاف الإلٰهيّة هي بمثابة درس وعبرة للآتين على مرّ التاريخ ليتّعظ الإنسان ويشكر ربّه الخالق.

- يقول صاحب تفسير المنار، إنّ الآية الكريمة رسمت مفهوم الموت والحياة في صورة رمزية، وعبّرت عنهما بالحصول على الاستقلال وفقدانه.

---

(١) يقول صاحب تفسير التبيان (ج ٢، ص ٢٨٢): إن عددهم كان يربو على العشرة آلاف وذلك لأنّ العرب تقول «ألوف» لما هو أكثر من عشرة آلاف، وآلاف، لما هو أقل من ذلك.

(٢) الكافي، ج ٨، ص ١٩٨.

ويحمل صاحب تفسير الميزان على هذا الرأي بشدّة ويقول عن هذا اللون من التفكير: يجب أن نؤمن بظواهر الآيات، وإلّا لترتّب على ذلك تأويل جميع المعجزات والأمور الخارقة للعادة.

□ ولمّا كان الشكر لا يقتصر على اللسان فحسب، بل إنّ حقيقة الشكر أن نقوم بالاستفادة من النعم الإلٰهيّة في مصارفها الصحيحة؛ لذا يصبح أكثر الناس من هذه الزاوية غير شاكرين.

□ ولو قالت الآية: «أكثرهم لا يشكرون» لكان المعنى أنّ أكثر هؤلاء الناس لا يشكرون، إلّا أنّ القرآن الكريم قد رسم ملامح معظم الناس في جميع العصور، وليس فئة خاصة.

□ يؤمن الشيعة بعقيدة الرجعة التي تعني رجوع طائفة من الناس قبيل يوم القيامة إلى هذه الدنيا، ويُستفاد من مئات الأحاديث مضافاً إلى آيات مثل هذه الآية الكريمة، إمكان وقوع هذا الحدث.

التعاليم:

١ ـ لنتأمّل التاريخ ونستلهم منه الدروس والمواعظ، ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾.

٢ ـ المهمّ في استعراض التاريخ رصد عوامل العزّة والانحطاط، وليس أسماء الأشخاص أو القبائل أو المدن، ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾.

٣ ـ حيثما كانت إرادة الله تعالى يكون الفرار غير مجدٍ، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾.

٤ ـ لقد أحيا الله تعالى الأموات مراراً في هذه الدنيا، ﴿ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾.

٥ ـ الصعود والهبوط الموت والولادة والبعث... كلّها دلائل على فضل الله تعالى وألطافه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾.

﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

إشارات:

□ مرّ في الآية السابقة أنّ الفرار من القتال لن ينفع؛ لأنّ غضب الله تعالى يمكن

أن ينزل على الآلاف المؤلّفة من الهاربين. وهنا ورد في الآية: إنّه ما دام الموت والحياة بيد الله تعالى، فلا خيار أمامكم سوى القتال في سبيل الله، واعلموا أنه سيثيبكم على قتالكم؛ لأنّه عليم بما سيصيبكم.

التعاليم:

١ ـ الجهاد والقتال فضيلة عندما يكون في سبيل الله. فلا قيمة للقتال عندما يكون بدافع الانتقام وإبراز القدرة واستغلال الشعوب وفتح البلدان، بل إنّه في هذه الحالات سيكون رذيلة، ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ أن يعلم المرء بأنّه بين يدي الله، هو أقوى حافز له للقتال في ميدان المعركة، ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

٣ ـ لا تختلقوا الأعذار للفرار من الجهاد. فالله عليم بنواياكم ومطّلع على حقيقة أعذاركم، ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت التفاسير[1] أنّ هذه الآية وردت استكمالاً لموضوع الآية السابقة التي حثّت المؤمنين على الجهاد؛ إذ إنّها تربط بين الجهاد بالنفس والجهاد بالأموال وتحثّ على الإنفاق والإقراض، وذلك لأنّه كما أنّ حماية أمن المجتمع وسلامته يحتاجان جهاداً وسعياً دؤوباً، فإنّ تأمين احتياجات المحرومين وإعداد وسائل الجهاد لهم يستلزم تقديم المساعدات المادّية والمالية.

□ ذكر القرآن الكريم موضوع إقراض الله تعالى في سبعة مواضع، وقد ذكر تفسير مجمع البيان[2] بعض الشروط للقرض الحسن نذكر منها:

(١) التفسير الكبير، تفسير الكاشف؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ١١ من سورة الحديد.

١ ـ أن يكون القرض من المال الحلال.

٢ ـ أن يصرف من المال السليم الذي لا عيب فيه.

٣ ـ أن يكون للمصارف الضرورية.

٤ ـ لا تشوبه منّة.

٥ ـ بعيد عن الرياء.

٦ ـ أن ينفق سرّاً.

٧ ـ أن ينفق بمحبّة وإيثار.

٨ ـ أن ينفق سريعاً من دون إبطاء.

٩ ـ أن يشكر المُقرض الله تعالى على منّته هذه.

١٠ ـ أن تصان كرامة المقترض.

❑ **«القرض»** في اللغة ضرب من القطع، ومنه المقراض، واستعماله في هذا المعنى إنّما هو لجهة أنّ المقرض يقتطع جزءاً من ماله ويعطيه للآخرين بشرط ردّ بدله.

❑ **«البسط»** بمعنى السعة، و**«البساط»** هو ما يفرش على الأرض.

❑ تقدّم أن الجهاد أحياناً يكون بالنفس، كما جاء في الآية السابقة، وأحياناً أخرى بالمال وهو ما تتحدّث عنه هذه الآية.

❑ ورود كلمة **«كثير»** بمعيّة كلمة **«أضعاف»**، علامة على جزيل الأجر والثواب. واستخدام كلمة **«يضاعفه»** بدلاً من **«يضعفه»** كناية عن الزيادة والوفرة[(١)].

❑ وعبارة إقراض الله ترمز إلى أنّ الله هو من يجزل الثواب للمقرض.

❑ ومن بديع الألطاف الإلٰهيّة، أنّ الله تعالى يسأل عباده القرض ولا يأمر به لئلا ينتاب الناس شعور بالإكراه والفرض في الإقراض، بل ليكون ذلك عن طيب نفس ورغبة من المقرض وتشجيعه على هذا العمل. ومن البديهي أنّ الإنسان

---

(١) تفسير روح المعاني.

يحمل في ذاته غريزة المنفعة والمصلحة، ومن هنا، أراد البارئ سبحانه إثارة هذه الغريزة في الإنسان وتوظيفها في هذا المجال مخاطباً إيّاه: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا﴾.

- وبدلاً من أن يقول مثلاً: «**أقرضوا الناس**» قال: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾، لكي يشعر الفقراء بأنّ الله تعالى يخاطب المقرض بالنيابة عنهم، درءاً لأيّ شعور بالضعف والذلّة.

- وعلى الرغم من أنّ وجودنا وكل ما نملك هو من عند الله تعالى، لكنّنا مع ذلك نجد في بعض آيات القرآن أنّ الله يصف نفسه تارةً بالمشتري وتارة بالمقترض، وذلك تشجيعاً لنا على فعل الخير. يقول الإمام علي عليه السلام: «**واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد وإنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملاً**»[1].

- وفي السياق نفسه، روي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنّ من مصاديق قرض الله صلة الإمام المعصوم خاصة[2].

- إذا ما تأمّلنا الآية الكريمة نجد أنّها تنسب القبض والبسط لله تعالى، بينما جاء في الروايات: «**من وسّع على الناس، وسّع الله عليه ومن بخل على الناس ضيّق الله عليه**».

- وورد أنّ ثواب القرض الحسن ثمانية عشر ضعفاً، أمّا ثواب الصدقة فعشرة أضعاف[3]. والسبب في هذا الاختلاف كما توضّحه الروايات أنّ القرض يقدّم للفرد المحتاج بينما الهدية والعطية قد تذهب إلى الميسور أيضاً[4].

- وفي بعض الروايات نقرأ تهديداً صريحاً إذ يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «**من احتاج إليه أخوه المسلم في قرض وهو يقدر عليه فلم يفعل فقد حرّم الله عليه ريح الجنّة**»[5].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.
(٢) تفسير روح البيان، ج ١، ص ٣٨١.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣١١.
(٤) المصدر نفسه، ج ١٠٠، ص ١٣٨.
(٥) المصدر نفسه، ج ١٠٠، ص ١٣٨.

□ وروي أنّه عندما نزلت الآية الكريمة: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[1] طلب الرسول الأكرم ﷺ من ربه الاستزادة فنزلت الآية: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[2]. ثمّ عاود ﷺ الاستزادة، فنزلت آية القرض الحسن التي تبشّر بقولها: ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، حينذاك علم الرسول بأنّ الأضعاف الكثيرة عند الله تعني ما لا يحصى عدده[3].

□ إنّ الله تعالى يؤتي المقرضين ثوابهم في الدنيا وفي الآخرة؛ لأنّه يستتبع عبارة ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ بالقول: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وكأنّ حساب يوم القيامة مستقل عن ثواب الدنيا.

□ يجب أن نحدّ من سوء الفهم والأسوة السيّئة، فنحن نلحظ أنّ الله تعالى في بداية الآية الكريمة يخاطب الناس خطاباً عاطفياً رقيقاً مطالباً إيّاهم بإقراضه، لكنّه سبحانه يتبع هذا الخطاب بخطاب حازم وقاطع بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ لئلا يتوهّم البعض، اليهود مثلاً، أنّ الله فقير فيقولوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[4]، وليوقنوا بأنّ اقتراض الله تعالى هو لجهة تكامل الإنسان وتعاليه، لا لحاجة أو عوز أصابه. كان المنافقون يقولون: لا تنفقوا على المسلمين حتى يتفرّقوا من حول الرسول الكريم ﷺ، فيذكّر القرآن الكريم في معرض ردّه عليهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5]!

التعاليم:

١ ـ مساعدة خلق الله، مساعدة لله تعالى، ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ جاءت بدلاً من «يقرض الناس».

٢ ـ ترغيب الناس على فعل الخير يتمّ من خلال التشجيع والتحفيز، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.
(٣) تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣١٠.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨١.
(٥) سورة المنافقون: الآية ٧.

٣ ـ عندما نوقن بأنّ البسط والقبض بيد الله تعالى، فسننفق من أموالنا بسخاء، ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾.

٤ ـ إذا علم الإنسان أنّ مردّه إلى الله وأنّ ما ينفقه باليد اليسرى سيسترجعه باليد اليمنى، فسوف ينفق بسخاء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

إشارات:

- **«المَلأ»** وجهاء القوم، أو جماعة يجتمعون على رأي، فيملأوون العيون رواء ومنظراً، والنفوس بهاء وجلالاً.
- يبيّن لنا القرآن الكريم أنّ أوضاع بني إسرائيل بعد النبيّ موسى عليه السلام ساءت حيث تعرّضوا من جديد لتسلّط الطغاة وذلك بسبب تمرّدهم على التعاليم والشرائع، وكذلك روح الطمع لتحقيق الرفاهية، فآل مصيرهم إلى الانحدار وفقدوا حريّتهم وأرضهم. واستمرّ الوضع على هذه الحال، حتى عزموا على إنقاذ أنفسهم من التشتّت والتشرّد والتحرّر من نير الطاغوت، وذلك من خلال القتال والالتفاف حول نبيّ لهم اسمه أشموئيل وطلبوا منه أن يختار لهم قائداً أو أميراً لكي يتوحّدوا تحت لوائه ويحاربوا الطاغوت، ولكن على الرغم من مزاعمهم الفارغة، لم يمتثلوا أمر نبيّهم في قتال الطاغوت فتفرّقوا إلّا عدد ضئيل منهم.

التعاليم:

١ ـ أولى بالمسلمين أن يتأمّلوا تاريخ بني إسرائيل بدقّة، ويستلهموا منه العبر، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

٢ ـ غياب القائد الإلٰهيّ، سبب تفرّق وتشتّت وتقبّل للظلم، ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾.

٣ ـ كانت رسالة بعض الأنبياء خاصّة بقومهم فقط وليس لعموم الناس، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾[1].

٤ ـ لا بدّ للقائد العسكري من أن ينصّب من قبل زعيم إلهي، ﴿ٱبْعَثْ لَنَا﴾، إذاً لا فصل للدين عن السياسة.

٥ ـ الانتصار في المعركة يتطلّب قائداً محنكاً، ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾.

٦ ـ للخلاص من الطواغيت ينبغي اللّجوء إلى الأنبياء المرسلين، ﴿قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾.

٧ ـ لا بدّ من أخذ التعهّد ممّن لهم مقترحات إصلاحية، ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾.

٨ ـ من شروط القائد أن يكون بعيد النظر وأن يضع في حسبانه احتمال نقض الناس للعهد وتنصّلهم من المسؤولية، ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾.

٩ ـ الجهاد لرفع الظلم والدفاع عن الوطن هو جهاد في سبيل الله تعالى، ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾.

١٠ ـ بروز المشاكل عامل يقظة الناس ووثوبهم نحو الحرّية، ﴿أُخْرِجْنَا﴾.

١١ ـ ساحة النضال، محك لتقييم الأفراد النفّاجين، ﴿تَوَلَّوْا۟﴾.

١٢ ـ الناقضون لعهدهم، والذين لا يجيدون سوى ترديد الشعارات الطنانة، ظالمون، ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٣ ـ الله عليم؛ إذاً لم كلّ هذا الرياء والتظاهر؟! ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «واسع» تعني الله الغنيّ الذي لا يعجزه بذل أو عطاء.

---

(١) لو كان سبحانه قد قال: «نبيُّهم» لكانت الإشارة أعمّ من كونه نبياً خاصاً، وبما أنّه قال ﴿لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ تعني أنّها إشارة للتشديد والتخصيص.

□ مرّ علينا في الآية السابقة أنّ بني إسرائيل طلبوا من نبيّهم أن يختار لهم قائداً عسكرياً ليحاربوا تحت لوائه؛ ﴿مَلِكًا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ لكنّهم باختلاقهم الأعذار والحجج وقولهم: ما لطالوت والملك؟ تبيّن أنّ (طالوت) بالإضافة إلى كونه قائداً عسكرياً، كان سلطاناً منصّباً عليهم أيضاً. هذه الفئة من بني إسرائيل التي عانت الاضطهاد والظلم، على الرغم من أنّها هي التي طلبت من نبيّها تعيين قائد لها ليخلّصها من جور الظالمين وقبضتهم، بيد أنّه حين ولّى طالوت عليهم ملكاً وقائداً، وهو لم يكن سوى راعٍ فقيرٍ ومن قبيلة مغمورة، أثار هذا العمل حفيظة بني إسرائيل فأخذوا يلقون بالحجج والأعذار ومن ذلك قولهم: كيف له أن يكون قائداً علينا، وهو يفتقد المال والثروة؟ فنحن أحقّ منه بالملك وأجدر، لأنّنا أصحاب ثروات وأموال!

وعندما سمع نبيّهم حججهم عن فقر طالوت وعوزه، خاطبهم بالقول: إنّ الله قد اختاره واصطفاه عليكم وهو يمتلك إمكانيات القيادة وآلياتها ووسائل الحكم والعلم والقوة الجسدية، فالله يمنح القيادة والحكم لمن يشاء من عباده ممّن يملك الجدارة والاستعداد والموهبة الكامنة.

نعم، إنّ الله إذا أنزل لطفه على الحجر صيّره جواهر ويواقيت بإذنه تعالى، وإذا شمل بعنايته الأشواك أصبحت أزهاراً ورياحين، وإذا نظر بعطفه إلى الفقير رفعه إلى مقام القائد.

ونحن نسأل هنا: هل يليق منصب القائد بالراعي الفقير الذي أضاع غنمه؟ فقد جاء في الروايات:

إنّ طالوت كان راعياً أضاع ماشيته فراح يبحث عنها في الصحراء حتى وصل المدينة، فذهب للقاء النبيّ (أشموئيل) فأوحى الله تعالى إلى نبيّه بأن هذا الراعي الذي يليق بمنصب القيادة فأخبر قومك بذلك.

ربّما كان المراد من عبارة ﴿بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ هو جامعية العلوم وشموليّتها، بمعنى أنّه كان ملمّاً بالكثير من العلوم.

التعاليم:

١ ـ يختار الأنبياء أوصياءهم بأمر من الوحي الإلٰهيّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ﴾.

٢ ـ الله تعالى يختار القائد الذي ينفع الناس، ﴿بَعَثَ لَكُمْ﴾.

٣ ـ إذا رمت بلوغ ذرى الحرّية والخلاص عليك الانقياد للقائد الإلٰهيّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

٤ ـ لا فكاك للدين عن السياسة. فكان للأنبياء دور مباشر في إدارة دفّة الشؤون العسكرية، وكانوا ينصّبون القادة العسكريين ويعزلونهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾.

٥ ـ لا تغفلوا عن اكتشاف المواهب المكنونة في الأشخاص المغمورين والفقراء، ﴿قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾.

٦ ـ آية الإيمان الحقيقي التسليم لله ولرسوله، وبنو إسرائيل، بسبب اعتقاداتهم الخاطئة لم يسلّموا أمرهم لله، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾.

٧ ـ تعدّ كيفية تعاملنا مع القائد الإلٰهيّ أحد الامتحانات العسكرية، ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾.

٨ ـ النظرة الاستعلائية مدانة[1]، ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾.

٩ ـ الاسم والجاه والسكن في المدينة، لا تدلّ على التفوّق. والآية الكريمة تحمل على الذين كانوا يعتقدون بأنّ المال والجاه هما معيار التفوّق والسموّ، ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾.

١٠ ـ لا يكون الاصطفاء الإلٰهيّ عبثاً وجزافاً بل على أساس الجدارة والاستحقاق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

١١ ـ المقدرة العلمية والقوة الجسمية شرطان لازمان لقيادة الجيش، ﴿بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

---

(١) على غرار قول الشيطان: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، سورة الأعراف: الآية ١٢.

١٢ ـ المقدرة العلمية أهمّ من المقدرة الجسمية، ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، فنحن نلحظ أنّ كلمة «علم» في الآية سبقت كلمة «جسم».

١٣ ـ يجب أن يرشد القائد أو المدير مرؤوسيه، وأن يشرح لهم علل قراراته وخياراته، وأن يزيل أيّ غموض أو إبهام لديهم، وألّا يتصرّف كما يحلو له. لقد بيّن النبيّ في الآية الكريمة أسباب اختياره طالوت وهي أنّه يملك المقدرة العلمية والقوة الجسمية، ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

١٤ ـ لا يمنع الله لطفة عن الفقير والمغمور، ولا يلطف على الثروة أو الشهرة، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٥ ـ اعتراضات الناس نابعة من النظرة الضيّقة والقصيرة. بيد أنّ علم الله لا متناهٍ وغير محدود، ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

إشارات:

- وبعد أن طرح نبيّ بني إسرائيل مسألة قيادة طالوت في الآية السابقة، يستعرض في هذه الآية دليل ملكه ليطمئن اليهود إلى قيادة طالوت فيقول لهم:

إنّ الإتيان بتابوت بني إسرائيل الذي أخذ منهم، علامة على ملكه واختياره من قبل الله تعالى. والمقصود بالتابوت هو صندوق التوراة الخشبي الذي وضعت أمّ موسى رضيعها فيه وألقته في مياه النيل، فعثر عليه الجنود وأخذوا الصندوق بما فيه إلى فرعون، فكان ذلك الصندوق دائماً في بلاط فرعون.

عندما اصطفى الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام، وضع ألواح التوراة في ذلك الصندوق، وعندما كان يحتضر وضع درعه وأشياءه التذكارية في الصندوق ودفع بها إلى وصيّه «يوشع بن نون». وقد أضحى هذا الصندوق صندوقاً مقدّساً وأطلق

عليه صندوق العهد وكان بنو إسرائيل يحتفظون بهذا الصندوق، ويحملونه معهم في حروبهم ضدّ الأعداء ليرفع من معنويّاتهم، إلّا أنّ قداسته فقدت بريقها تدريجياً عندهم ثمّ سُلب منهم، وقد أعاده الله إليهم بواسطة الملائكة حين كانوا تحت إمرة طالوت، فاستعادوا معه الهدوء والسكينة[١].

التعاليم:

١ ـ الله تعالى مصدر السكينة والطمأنينة، وإنْ بالأسباب، ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢ ـ الإنسان بحاجة دوماً إلى السكينة والطمأنينة، ولا سيّما عندما يعتزم الذهاب إلى سوح الجهاد، ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٢].

٣ ـ القائد الإلٰهيّ بحاجة إلى آية إلٰهيّة. فطالوت كان مختاراً من قبل الله تعالى؛ لذلك كان يحتاج إلى آية إلٰهيّة تؤيده وتسدّده، ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٤ ـ إذا كان صندوق موسى مقدّساً ويبعث على السكينة والطمأنينة لأنّ يده مسّته ووضع فيه ألواح التوراة، فلا جرم، أنّ إضفاء القدسية على الضريح الذي يغطي مراقد أولياء الله لا يتعارض مع روح القرآن الكريم. وذلك لأنّ هذه التوابيت الموجودة في المشاهد المقدّسة تحتوي على بقيّة ممّا ترك آل محمد ﷺ، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾.

٥ ـ للمحافظة على آثار الأنبياء قيمة كبيرة، فضلاً عن كونها مدعاة للطمأنينة والبركة، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ﴾.

---

(١) وردت في التوراة، سفر الخروج، الفصل ٣٧، بعض العبارات حول هذا الصندوق.

(٢) تبيّن كلمة «السكينة» في هذه الآية وفي ضوء الآيات السابقة التي تتحدث عن توجّه بني إسرائيل إلى جبهة القتال أهميّة توفّر الطمأنينة وراحة البال في جبهات القتال.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾

إشارات:

- «**جنود**» جمع «**جُند**» وتعني الجيش الكبير، ويعتبر حضور عدّة جيوش بعد إعراض وتمنّع فئات من الناس علامة على كثرة الحشد.
- تخبر هذه الآية الكريمة عن فشل فئة كبيرة من بني إسرائيل في الامتحان الإلٰهيّ الذي تعرّضوا له وهو مقاومة العطش الشديد، وقد خرجوا منه أذلاء رؤوسهم منكسة؛ ولكن هذه الفئة كان ينتظرها امتحان من نوع آخر، وهو الامتحان الروحي والمعنوي، فعندما واجهوا جيش جالوت في ساحة المعركة قالوا: لا قبل لنا بقتال هذا الجيش المجهّز. بيد أنّ فئة قليلة منهم آمنت بيوم القيامة، قالت: إنّ النصر من عند الله تعالى، فكم من فئةٍ قليلة انتصرت على جيوش عظمى بإذن الله وبالتوكّل عليه.
- بطبيعة الحال، إنّ اجتياز مرحلة واحدة في الامتحان لا يكفي لتمحيص الإنسان، إنّنا نجد بعض الأشخاص ينجحون في عبور بعض المراحل لكنّهم يفشلون عند مرحلة معيّنة. والحقيقة أنّ الامتحان في قصّة بني إسرائيل هنا قد مرّ بمراحل عدّة، ففئة سقطت في مرحلة رفض القتال تحت لواء قائد إلهي بسبب فقره، وأخرى سقطت في مرحلة مقاومة إغراءات النفس ومقاومة العطش، وسقطت ثالثة في مواجهة جيش العدو الجرّار.
- نلحظ في هذه القصة أنّ طالوت في بداية الأمر لم ينسب الجند إلى نفسه أي لم يقل: «جنوده»، بل قال: «بالجنود» فعلى الرغم من أنّ أعداداً كبيرة منهم قد قبلت بقيادته، فإنّه لم يكن قد امتحن ولاءهم وإخلاصهم بعد، ولم ينسبهم إليه

إلّا بعد تمحيصهم واجتيازهم الامتحان تلو الآخر بنجاح، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾.

بعد ذلك اتّضحت وجهة كلّ فريق، فمن لم يشرب من الماء فإنّه بالتأكيد منّا ومن شرب منه فليس منّا أبداً، ويبقى الذي غرف غرفة بيده فهذا لا هو من المؤمنين ولا هو من العاصين، فلهؤلاء حساب خاص، فلا حرمان ولا إغداق لألطاف الله، من هنا نتبيّن أنّه في وصف هؤلاء في عبارة ﴿مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ لم تستخدم لا كلمة ﴿مِنِّيٓ﴾ ولا ﴿فَلَيۡسَ مِنِّي﴾.

❑ روي عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**القليل الذين لم يشربوا ولم يغترفوا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً**»[1].

❑ أولئك الذين أتيحت لهم أموال الناس وأموال الدولة لكنّهم تعفّفوا ومرّوا عليها بكرامة وزهد، ولم تتلوّث ضمائرهم بالطمع والجشع، أولئك هم حزب الله، أمّا الذي مدّ يده إلى تلك الأموال واستولى، فهو ليس بالمؤمن الحقيقي، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾.

التعاليم:

١ ـ إحدى وظائف القائد العسكري أن يميّز بين من جاء للقتال ومن جاء للتفرّج، ﴿فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾.

٢ ـ من أساليب الامتحان المتّبعة المنع الموقّت. فخصال الدّعة وطلب العافية والجزع عند الشدائد والملمّات المؤقّتة لا تستقيم مع البسالة والإقدام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾.

٣ ـ قبل مواجهة العدو وقتاله، يجب التدرّب على المقاومة والثبات، ﴿مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾.

٤ ـ يجب على المدير أن يستبعد العناصر غير المفيدة، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٥١.

٥ ـ سرّ النصر يكمن في الانقياد التامّ للقائد، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ﴾.

٦ ـ يجب التفريق بين الحاجة الماسّة وبين الرفاهية التامّة، ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾.

٧ ـ قليلون هم الذين يخرجون مرفوعي الرأس في ميدان الامتحان، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٨ ـ ليس المهم أن يكون المرء ثورياً بل في أن يبقى ثوريّاً. تزخر هذه القصّة بالكثير من أصحاب الشعارات، لكنّ الذين نجحوا في الامتحانات قلّة، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

٩ ـ الإيمان بالمعاد والبشارات الإلٰهيّة يخلقان القدرة على الصمود والمقاومة في مواجهة التحديّات والصعاب، ﴿مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾.

١٠ ـ الإيمان درجات. فعلى الرغم من أنّ فئة رافقت طالوت وآمنت به، واجتازت أيضاً امتحان شرب الماء؛ ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، ولكن ليس كلّ مؤمن هو محارب مقدام، بل الذي يؤمن بلقاء الله، ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾.

١١ ـ كثرة العدّة والعدد لدى العدو لا تساوي شيئاً أمام إرادة الله، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٢ ـ عنصر النوع يتفوّق على عنصر الكم وإن قلّ، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ...﴾.

١٣ ـ المؤمن المخلص يؤمن بأنّ النصر من عند الله، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٤ ـ لا خوف على المسلمين من أعداد الأعداء إذا ما صبروا وثبتوا، لأنّ الله يؤيّد الصابرين، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الدعاء مع العمل ضروري دائماً خصوصاً في الجبهات، ولكن الدعاء ليس بديلاً للعمل، ﴿بَرَزُواْ لِجَالُوتَ... رَبَّنَآ أَفْرِغْ...﴾.

٢ ـ الصبر والنصر قرينان. فبعد الصبر يأتي الظفر، ﴿صَبْرًا... وَٱنصُرْنَا﴾.

٣ ـ لتبدأ أدعيتنا بكلمة «ربّنا»، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ...﴾.

٤ ـ في الشدائد يكون الإنسان بأمسّ الحاجة إلى الصبر، «أفرغ» تعني في الأصل صبّ السائل بحيث يخلو الإناء ممّا فيه تماماً. ومجيء ﴿صَبْرًا﴾ في صيغة التنكير إشارة إلى الصبر العظيم.

٥ ـ لا يغترّ الإنسان باجتياز الامتحانات بنجاح، وليواظب على طلب العون من الله تعالى، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

٦ ـ على الإنسان بذل الجهد والسعي، لكنّ النصر بيد الله تعالى، ﴿رَبَّنَا... وَٱنصُرْنَا﴾.

٧ ـ النصر في الحرب يكون ذا قيمة حينما يكون هدف المقاتلين إعلاء كلمة الحقّ على الباطل، لا أن يتغلّب فريق على آخر، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

إشارات:

- تذكر الروايات أنّه على أثر الشجاعة والبسالة التي أظهرها داود عليه السلام في ساحة الحرب رفعه الله إلى مقام النبوة وجعل ابنه سليمان عليه السلام كذلك من الأنبياء المرسلين.
- ورد في الأحاديث عن الرسول الأعظم ﷺ قوله: «**إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مئة أهل بيت من جيرانه البلاء**»[1]، ثم تلا هذه الآية الكريمة ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ...﴾.

---

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ١، ص ٧٦٤.

❑ يتبيّن من الآيات السابقة أنّ عوامل النصر تتمثّل في عدّة عناصر هي كالتالي:

١ ـ القائد المقتدر والجدير، ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

٢ ـ الأتباع المؤمنون، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ التوكّل على الله، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ الصبر والاستقامة، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

٥ ـ حيازة الهدف الإلٰهيّ، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ صحيح أنّكم جاهدتم وسعيتم، إلّا أنّ هزيمة الأعداء كانت بيد الله تعالى وإذنه، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ الأدعية الخالصة للمقاتلين والمجاهدين مستجابة، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ... فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ لن ينعم الإنسان بالألطاف الإلٰهيّة الخاصة ما لم تتوافر فيه عوامل الاستعداد والجدارة والإيثار والسابقة المشرقة، ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٤ ـ في جبهات الجهاد يجب توجيه حراب المعركة نحو قيادة العدو، ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

٥ ـ لتبق ذكرى الذين أظهروا البسالة والإقدام في القتال خالدة، ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾.

٦ ـ القضاء على رأس الكفر كفيل بتمزيق أوصال معسكر الكفار، ﴿فَهَزَمُوهُم... وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

٧ ـ ما لم يتمّ التصدّي للمعتدين والظالمين فسوف تمتلئ الأرض فساداً وضلالاً، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ... لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

٨ ـ محاربة المفسدين ضرورة. فما لم تستأصل شأفة العناصر المفسدة، فستجرّ عناصر أخرى إلى الفساد، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ... لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

٩ ـ تتجسّد إرادة الله وفضله عبر العوامل الطبيعية والعملية، ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ... بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

١٠ ـ الحكم بالجهاد والتصدّي للعدو فضل من الله، ﴿ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

إشارات:

□ بهذه الآية الكريمة يختتم الجزء الثاني من القرآن الكريم. وهي تشير إلى ما مرّ ذكره من قصص وأحداث في الآيات السابقة وتقول إنّها مدعاة لأخذ العبرة والدروس.

قصص من قبيل موت آلاف الأفراد في لحظة واحدة ثمّ بعثهم من جديد بفضل دعاء نبيّهم، وإناطة منصب القائد العسكري براعٍ شاب مغمور؛ لكنّه يتوافر على عنصري القوّة والعلم، انتصار فئة مؤمنة قليلة على جيوش الأعداء الجرّارة، جرأة الشاب وشجاعته في المعركة ورفعه إلى مقام النبوّة، وغير ذلك من آيات الله البيّنات وعلائم صدق دعوة النبيّ الأكرم ﷺ ورسالته.

الجــزء الثالث

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد في أنّ عدد الأنبياء المرسلين هو ١٢٤ ألف نبيّ، ولكن ما ذكر من هؤلاء في القرآن الكريم هو ٢٥ نبياً فقط؛ ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ

نَقۡصُصۡ﴾[1]، ومن جهة ثانية فإنّ منازل الأنبياء ودرجاتهم تتفاوت؛ إذ إنّ لكلٍّ مقامه ومزاياه التي خصّه الله بها. على سبيل المثال، فإنّ نبي الإسلام ﷺ خُصّ بمزايا الخاتمية والأميّة وسلامة كتابه السماوي من التحريف، والنبي إبراهيم عليه السلام كان وحده أمّة ووهبه الله ذرّيّة صالحة مباركة، وميزة النبيّ نوح عليه السلام طول العمر وثباته وأنّ الله تعالى خصّه بسلام خاص. بالنسبة إلى هذه الآية الكريمة فهي تذكر ميزة كل من النبيّ موسى والنبي عيسى عليهما السلام، حيث كان موسى كليم الله أمّا عيسى فقد أيّده الله تعالى بروح القدس. وكلمة «**درجات**» تشير إلى تراتب الفضل وتدرّجه.

❑ يستعرض المفسّر الكبير الفخر الرازي في ذيل تفسير هذه الآية الكريمة عشرين مزيّة خُصّ بها النبيّ الكريم ﷺ، من جملتها نذكر: القرآن الكريم المعجزة الخالدة للنبي الأكرم ﷺ والتي تعلو فوق كلّ المعجزات، كما أنّ نبي الإسلام سوف يكون شهيداً على سائر الأنبياء في يوم القيامة كما يقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾[2].

التعاليم:

١ ـ للأنبياء منزلة جدّ رفيعة. فكلمة «**تلك**» اسم إشارة للبعيد وتعني علوّ المنزلة وسموّها.

٢ ـ لا يتساوى الأنبياء في منازلهم. فوحدة الهدف لا تحول دون ظهور بعض الكمالات الاستثنائية والدرجات الخاصة، ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ﴾.

٣ ـ يجب تكريم الأنبياء الماضين. فقد كرّم الله تعالى النبيّ موسى والنبي عيسى عليهما السلام، ﴿مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ... عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

٤ ـ سنّة الله وشريعته تقضي بمنح الإنسان الحريّة؛ إذ كان بإمكانه تعالى إكراه الناس على اتّباع الحقّ، غير أنّ التحوّل الحقيقي يأتي في ظلّ الحرّية وامتلاك

---

(١) سورة غافر: الآية ٧٨. (٢) سورة النساء: الآية ٤١.

الإرادة. نلاحظ في هذه الآية تكرّر عبارة لو شاء الله ما اختلف الناس في ما بينهم ولما حصل قتال ونزاع بينهم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٥ ـ مصدر معظم الاختلافات هو الأهواء والحسد والأنانية، وليس الجهل وغياب الوعي، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾

٦ ـ طريق الأنبياء واضح بالدليل والبرهان، ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٧ ـ النزاعات العقدية من أسباب اندلاع الحروب. طبعاً لا يشكّل الدين نقطة خلاف بل الاختلاف نابع من الناس أنفسهم، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ... وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾.

٨ ـ اختلاف عقائد الناس دليل على حريّتهم في الاختيار، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

إشارات:

□ يطرح الله تعالى في هذه الآية الكريمة بعض الأساليب لتشجيع الناس على الإنفاق هي كالتالي:

أ) كل ما تملك هو من عند الله وليس لك شيء من نفسك، ﴿رَزَقْنَٰكُم﴾.

ب) أنفق جزءاً ممّا تملك لا كلّه، ﴿مِمَّا﴾.

ج) هذه النفقة زاد آخرتك، وهي أفضل لك من أيّ صديق، ﴿يَأْتِىَ يَوْمٌ...﴾.

التعاليم:

١ ـ قبل أن نأمر الناس يجب أن نناديهم باحترام، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢ ـ اغتنام الفرص في أعمال الخير فضيلة، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾.

٣ ـ حرمان اليوم، حرمان في الغد. إذا لم ننفق اليوم، لن يكون لنا حب أو صداقة أو شفاعة في ذلك اليوم، ﴿أَنفِقُوا۟... يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ...﴾.

٤ ـ ذكر المعاد مدعاة لتشجيع الناس على الإنفاق، ﴿أَنفِقُواْ... يَأْتِيَ يَوْمٌ...﴾.

٥ ـ إحدى السبل لإيجاد روح السخاء والبذل لدى الإنسان هي ذكر فقره في يوم القيامة، ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾.

٦ ـ البخل علامة على كفران النعمة وكفر بالبشارات الإلٰهيّة، ﴿أَنفِقُواْ... وَالْكَافِرُونَ﴾.

٧ ـ الكفر مظهر واضح للظلم، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

إشارات:

□ سمّى الرسول الكريم ﷺ هذه الآية بالكرسي لوجود كلمة «**الكرسي**» فيها. وورد في روايات الفريقين أنّ هذه الآية هي ذروة القرآن «**لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن هي آية الكرسي**»[(١)] وقد أكّدت هذه الروايات على فضل المواظبة على قراءتها. عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**فما بت ليلة قط منذ سمعتها من رسول الله إلا قرأتها**»[(٢)].

ورد اسم الذات الإلٰهيّة المقدّسة «الله» ١٦ مرّة في هذه الآية مع استعراض صفاته. لهذا السبب فإنّ آية الكرسي أصبحت شعار التوحيد ورسالته، على الرغم من أنّ القرآن الكريم ذكر شعار التوحيد بعبارات مختلفة مثل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(١) تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ١٠؛ تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ١٩١؛ تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣٥٥.

ٱللَّهُ﴾[(١)] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[(٢)] ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾[(٣)] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[(٤)]، إلّا أنّ أيّاً منها لا ترقى إلى مرتبة آية الكرسي في ذكر شعار التوحيد فضلا عن استعراض صفات الله تعالى.

❑ والحقيقة أنّ صفات الله العليا على نوعين، فبعض الصفات هي عين ذاته وليست عارضة على الذات الإلٰهيّة المقدّسة، وهي من قبيل: العلم، القدرة، الحياة. فيما ثمة صفات إلٰهيّة يطلق عليها صفات الفعل وهي تتعلّق بأفعال الله تعالى، مثل الخلق والعفو، ومنشأ هذه الصفات هو الإرادة الإلٰهيّة، بمعنى أنّه يخلق متى شاء، في حين لا نستطيع قول ذلك بالنسبة إلى صفات الذات الإلٰهيّة المقدّسة، أي لا نقول: إنّ الله عليم إذا شاء وإذا لم يشأ فليس عليماً. إذا أردنا تشبيه صفات الذات المقدّسة نقول: إنّ صفة العليم والقدير لله تعالى نظير صفة المخلوق للإنسان. فهذه الصفة لا تنفصل عن الإنسان أبداً، كما أنّ صفة العلم لا تنفصل عن الله تعالى.

❑ تطلق كلمة «إله» على كلّ معبود، بالحقّ كان أم بالباطل، ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[(٥)]، فيما لا تطلق كلمة ﴿ٱللَّهِ﴾ إلّا على الذات الإلٰهيّة المقدّسة. وكلّ معبود سوى الله عاجز عن خلق ذبابة؛ ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾[(٦)]. وأولئك الذين يعبدون غير الله، فهم ينحدرون من ذرى التوحيد نحو هاوية الحضيض المرعبة، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾[(٧)].

❑ عبارة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هي الصفحة الأولى في البطاقة الشخصيّة لكلّ مسلم.

وأوّل شعار في دعوة النبيّ الأكرم ﷺ هي عبارة: **«قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»**[(٨)] وكذلك قوله: **«من قال لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنّة وإخلاصه بها أن تحجزه لا إله إلّاالله عمّا حرّم الله»**[(٩)].

---

(١) سورة الصافات: الآية ٣٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٣.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.
(٤) سورة النحل: الآية ٢.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٤٣.
(٦) سورة الحج: الآية ٧٣.
(٧) سورة الحج: الآية ٣١.
(٨) كنز العمال، ح ٣٥٥٤١.
(٩) ثواب الأعمال، ص ٢٠.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: **«قول لا إله إلّا الله ثمن الجنّة»**[١] وينقل الإمام الرضا عليه السلام عن جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله حديثاً قدسيّاً مفاده: **«كلمة لا إله إلّا الله حصني»**[٢].

نعم، إنّ التوحيد هو حبل نجاة الإنسان وفلاحه ولكن بشرطها وشروطها، إذ كما يقال إنّ من يدخل الحوزة العلمية أو الجامعة يصبح عالماً، ولكن شرط أن يواظب على مطالعة دروسه، كذلك مقولة التهليل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هي حبل النجاة ولكن عند توفّر شروطها التي سنأتي إلى ذكرها في المكان المناسب.

□ مع عقيدة التوحيد تتصاغر في عين الإنسان جميع القوى والجاذبيات.

وإحدى المظاهر التربوية لعقيدة التوحيد هي أنّ المسلمين كانوا يأنفون السجود أمام الملوك وأصحاب النفوذ. ففي بلاط النجاشي ملك الحبشة قال المسلمون المهاجرون الذين لجأوا إليه: **«لا نسجد إلا لله»**[٣]. وهذا دحية الكلبي المسلم المؤمن الذي أبى السجود لقيصر الروم في قصره وعندما سأله رجال البلاط عن سبب ذلك أجاب: **«لا أسجد لغير الله»**[٤].

نعم، إنّ عقيدة التوحيد تحلّق بالإنسان إلى العلا بحيث تتصاغر حتى الجنّة والنار في عينيه.

كان أئمتنا المعصومون عليهم السلام يسعون إلى تربية هذا النمط من الإنسان. يقول الإمام علي عليه السلام: **«لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»**[٥].

لقد فُرض على المسلمين أن يرفعوا أصواتهم بالأذان في كل يوم وفي كل مكان، ليطلقوا صيحة التحرّر من الآلهة المزيّفة والطواغيت. وحين يولد الطفل المسلم يؤذّن في أذنه ليسمع صوت الأذان قبل أيّ صوت آخر، وليتعرّف إلى نداء التوحيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ١٩٦.
(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٧.
(٣) السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣٨٧.
(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٧٢.
(٥) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾

□ تتحدّث الفقرة السبعون من دعاء الجوشن الكبير، عن حياة الله تعالى كما يلي:

«يا حيّا قبل كلّ حيّ، يا حيّا بعد كلّ حيّ، يا حيّ الّذى ليس كمثله حيّ، يا حيّ الّذى لا يشاركه حيّ، يا حيّ الّذى لايحتاج إلى حيّ، يا حيّ الّذى يميت كلّ حيّ، يا حيّ الّذى يرزق كلّ حيّ، يا حيّاً لم يرث الحياة من حيّ، يا حيّ الّذى يحيي الموتى، يا حيّ يا قيّوم».

إنّ مفهوم الحياة بالنسبة إلى الذات الإلٰهيّة المقدّسة يختلف عنه عند الآخرين، فهذه الصفات، كسائر الصفات الإلٰهيّة العليا، ليست عارضة على ذاته، ولا يشوبها موت أو فناء؛ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[(١)] وهو لا يحتاج إلى تغذية أو تناسل أو جذب ودفع، كما هو الحال مع الكائن الحيّ نظير الإنسان والحيوان والنبات، «يا حيّ الذي ليس كمثله حيّ».

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾

□ ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ هي صيغة مبالغة من القيام، وتقال للقائم بذاته والمقيم لغيره[(٢)]، وقيل: القائم على كلّ نفس بما كسبت. وردت كلمة ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ ثلاث مرّات في القرآن الكريم، وفي جميعها مقترنة بكلمة ﴿ٱلْحَىُّ﴾.

وقيامه تعالى بذاته، بينما قيام سائر المخلوقات بوجوده، أي أنّ جميع الكائنات متقوّمة به ومحتاجة له.

والمراد بقيّوميّة الله أنّه القائم بتدبير الخلق وحفظه فهو الذي خلق المخلوقات كلّها وتعهّد بتدبيرها وإدامتها، وقيامه دائمي ومستمرّ وشامل كلّ الجوانب، فهو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يهدي ويميت ولا يغفل عنها لحظة واحدة.

---

(١) سورة الفرقان، ٥٨.

(٢) مفردات الراغب.

□ يحتاج كلّ كائن حيّ إلى منبع فيّاض ليقيم به حياته، كالمصباح الذي يحتاج إلى التيار الكهربائي ليضيء. وكذا الحال مع الكائنات، فلكي تبقى حيّة يجب أن تستمدّ حياتها من «الحيّ»، ولكي تستمرّ وتواصل حياتها يلزمها أن تستمدّ بقاءها وقيامها من «القيّوم».

ونقل عن الإمام علي عليه السلام قوله: **«كل شيء خاضع له وكل شيء قائم به»**[(١)].

وعنه أيضاً عليه السلام: **«لما كان يوم بدر، قاتلت شيئاً من قتال ثم جئت إلى رسول الله ﷺ أنظر ما صنع؛ فإذا هو ساجد يقول: يا حيُّ يا قيّوم»**[(٢)].

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: **«ما من حيّ إلّا وهو ينام خلا الله وحده»**[(٣)].

إنّ الله تعالى حيّ ولا حاجة به لنوم أو إغفاء أو استرخاء[(٤)]، ذلك أنّ الإنسان في النوم ينقطع عن نفسه، فضلاً عن الآخرين، بيد أنّ الله لا يأخذه نوم ولا إغفاء، وهو قائم بأمر كلّ شيء على الدوام.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

□ هو المالك الحقيقي لكلّ شيء، ومالكيّة الإنسان عارية لا أكثر؛ لأنّها لا تدوم إلّا أيّاماً معدودة وفي ظروف محدودة يعيّنها المالك الحقيقي، أعني الله تعالى. وما دام كلّ شيء مملوكاً له، فَلِمَ يعبد مملوك مملوكاً آخر مثله؟ فالآخرون أيضاً عباد مثلنا؛ ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[(٥)]. الوجود ملك لله عزّ وجلّ، والقوانين التي تسوده منقادة له تعالى، ويا ليت الإنسان يعرف طريق الاستفادة المثلى من ملك

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨.
(٢) روح البيان، ج ١، ص ٤٠٠.
(٣) بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ١٨٥.
(٤) ذلك أنّ طبع الإنسان في البداية يمرّ بحالة ارتخاء ونعاس، ومن ثمّ ينتقل إلى حالة النوم التامّ، من هنا ذكر القرآن الكريم كلمة ﴿سِنَةٌ﴾ ومن ثمّ كلمة ﴿نَوْمٌ﴾.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٩٤.

الله وما سخّر لعباده. وإذا كان كلّ شيء ملكاً لله وعائداً إليه، فما الذي يدفع الإنسان إلى البخل والجشع؟ أفهل يظنّ الإنسان أنّ الله قد أوكله إلى نفسه؟ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(١).

جاء في إحدى الروايات أنّ الإمام موسى الكاظم عليه السلام اجتاز على دار ببغداد فسمع الملاهي وأصوات الغناء والقصب تخرج من تلك الدار فخرجت جارية وبيدها قمامة البقل فرمت بها في الدرب فقال لها: يا جارية، صاحب هذا الدار حر أم عبد؟ فقالت: بل حر، فقال: صدقت، لو كان عبداً لخاف من مولاه. فلما دخلت الجارية قال مولاها وهو على مائدة السكر: ما أبطأك علينا؟ قالت: حدثني رجل بكذا وكذا فخرج حافياً حتى لقي مولانا موسى بن جعفر فتاب على يده(٢).

وقد سُئل الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام عن حقيقة العبودية فقال: «**ثلاثة أشياء، أن لا يرى العبد لنفسه في ما خوّله الله ملكاً لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك...**»(٣).

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾

□ كان المشركون يعتقدون بوجود الله لأنّهم عندما كانوا يُسألون؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(٤)، لكنّهم كانوا يرون في الأصنام شفعاء ووسائط توصلهم إلى الله: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾(٥)، وجاءت آية الكرسي لتحطّم هذا الحصن الخيالي الموهوم، إذ ورد فيها: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾؟

ليس فقط الوجود في قبضة يمينه، بل إنّ فاعلية الوجود أيضاً هي رهن إشارته. أنّى للمرء هذا الوهم والظنّ أن يشفع مخلوق لمخلوق مثله. والشفاعة لا

(١) سورة القيامة: الآية ٣٦.
(٢) تتمة المنتهى، ص ٣٢٩.
(٣) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٥.
(٤) سورة لقمان: الآية ٢٥.
(٥) سورة يونس: الآية ١٨.

تتحقّق إلّا بإذن الله تعالى، فإذا بدر عمل من أحد، فإنّ ذلك، بلا شك، هو بإذن من الله ومشيئته، ومحال أن ينتهك الإنسان قيّوميّته، فيفعل ما يريد بمعزل عن مشيئته وإرادته.

❑ الشفاعة هي العون الذي يقدّمه القوي للضعيف لكي يساعده على اجتياز مراحل تكامله بسهولة ونجاح. مثلاً، في نظام الخلق، تعمل العناصر الأربعة الماء والهواء والتربة وأشعة الشمس على مساعدة بذرة النبات على طيّ مراحل النضج والتكامل لكي تتحوّل إلى شجرة يانعة. في نظام الثواب والعقاب أيضاً يعمل أولياء الله على مساعدة المذنبين للنجاة والخلاص[1]، إلّا أنّ الشيء الجدير بالذكر هنا هو أنّ هذه الشفاعة لا تعني بأيّ حال من الأحوال ضعف الخالق أو تأثّر؛ لأنّه، ببساطة، هو الذي يجيز لأوليائه شفاعة عباده، وهو الذي خلق نظام الخلق على نحو بحيث عندما نضع البذرة في التربة تنمو بمساعدة أشعة الشمس والهواء وسائر العوامل الأخرى.

وما نريد قوله إنّ العوامل المادّية والمساعدات التي يتلقّاها الإنسان من باقي المخلوقات، مرتبطة بإذن الله وإرادته، وتندرج في إطار القوانين والنواميس التي وضعها هو ﷻ لذلك. وهو ما يفسّر حرمان بعض الأفراد من الشفاعة؛ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[2]، لأنّهم غير مؤهلين لها، كما أنّ أشعة الشمس والحرارة والماء والتربة تعمل بمجموعها على مساعدة البذرة المؤهلة للنمو والنضج.

لذا، فالشفاعة شيء مختلف تماماً عن المحسوبيات الدنيوية الفارغة المنتشرة في المجتمعات الفاسدة، فهي من أجل رفع اليأس والإحباط، وخلق رابطة قوية بين الناس وخالقهم، أو قل، إن شئت، إنّها (أي الشفاعة) ثواب الله ينعم به على أوليائه، والاستفادة منها في يوم القيامة هي صورة لاستفادة الإنسان من نور العلم وهداية الأنبياء والأولياء في الدنيا.

ولا بدّ من القول إنّ الشفيع ليست له قدرة مستقلّة عن قدرة الله تعالى، بل

---

(١) يقول الإمام الصادق عليه السلام: نحن الشافعون، تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٥٨.

(٢) سورة المدّثر: الآية ٤٨.

هو قبس من نوره، وأنّ الشفاعة حظوة يخصّ بها الله تعالى من يشاء. لذا، فلا يظنّن عبدة الأصنام أنّه يمكنهم أن ينالوا الشفاعة من خلال شعار ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾[1].

ولعلّ في توضيح هذه النقطة فائدة وهي أنّ عبادة غير الله شرك، بيد أنّ الدعوة والتوسّل بغير الله ليست دائماً شركاً، فالكلمات: ﴿يَدْعُوكَ﴾[2]، و﴿يَدْعُوكُمْ﴾[3]، و﴿يَدْعُونَ﴾[4]، و﴿نَدْعُ﴾[5]، و﴿دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾[6]، الواردة في القرآن الكريم لا يتعلّق أيّ منها بالشرك، ولكن، ما كلّ دعوة بفضيلة، فأن يدعو المريض طبيبه، هذا حقّ، ولكن أن يقوم بدعوة المشعوذ فهذا هو الباطل بعينه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

الله تعالى عالم بجميع حقائق الأمور ودقائقها، والشفاعة عند الله لا تعني إثبات براءة العبد من الذنب، بل هي محاولة للنجاة والحصول على العفو. إنّ سعة علم الله وإحاطته بكلّ شيء ينبغي أن تجعل الإنسان يخجل من نفسه قليلاً، فهو عليم بذات الصدور، وخبير بالأسرار ما خفي منها وما بطن، ويعلم ما في أرحام الأمهات من ذكر أو أنثى، وعنده علم يوم القيامة وميزان كلّ شيء[7]. هذا، في حين أنّ علم الإنسان محدود. إنّ حاسّة سمعنا لا تلتقط سوى الأصوات التي تقع ضمن مدى معيّن من الذبذبات، وإنّ قوّة إبصارنا لا تتعدّى مسافة محدودة، لا علم لنا بالأسرار، إلّا ما خصّنا الله بعلمه وأذن لنا بمعرفته.

---

(١) سورة يونس: الآية ١٨.
(٢) سورة القصص: الآية ٢٥.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٣.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٦١.
(٦) سورة النور: الآية ٦٣.
(٧) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، سورة سبأ: الآية ٢.
﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، سورة آل عمران: الآية ٢٩.
﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، سورة الأنعام: الآية ٥٩؛ ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، سورة طه: الآية ٧.
﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، سورة هود: الآية ٥؛ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، سورة غافر: الآية ١٩.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾

□ جاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: أنّ المراد بـ «**العرش**»، علوم أوحى بها الله إلى أنبيائه ورسله[١]، لكنّ «**الكرسي**»، علوم لا يعلمها أحد[٢].

فسّر البعض «**الكرسي**» بأنّه رمز لقدرة الله وحكومته، وهو يسع السموات والأرض ويحيط بهما.

وعلى الرغم من أنّ الكون واسع جداً، والأرض بالنسبة له كحلقة خاتم في فلاة، ولكن مع ذلك لا يشقّ على الله تعالى ولا يثقل حفظه. ما تروم آية الكرسي المباركة قوله للإنسان إنّ الله تعالى ليس مالك الكون وأنّ الكون بما فيه مملوكه وهو عليم بكل مملوكاته فحسب، بل إنّ الوجود برمّته وبجميع خلائقه في قبضة يمينه وفي كنف سلطته وقدرته[٣].

لذا، لا ينبغي للإنسان أن يقيس قدرة الخالق اللامحدودة بقدرة المخلوق، فالتعب والمشقة من عوارض المادّة، أمّا قدرته تعالى فهي عين ذاته المقدّسة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[٤].

في خطبة للإمام عليّ عليه السلام يصف الله فيها بقوله: «**لا يتغيّر بحال، ولا يتبدّل بالأحوال. ولا تبليه الليالي والأيّام، ولا يغيّره الضياء والظلام**»[٥].

لا شك في أنّ التدبّر في القدرة اللامحدودة لله تعالى، تبعث في نفس المؤمن الطمأنينة والسكينة، فيشعر مع هذه القدرة العظيمة بالأمن والحصانة.

□ لكلّ صفة من صفات الله تعالى: **القيّوم، والحيّ، والعليم، والقدير، والعظيم**، دور بنّاء في إعداد الإنسان وتربيته، ذلك أنّ الدين الأقوم هو الذي يزرع في نفوس أتباعه الأمل والحب، ويبيّن لهم عاقبتهم وآفاق المستقبل، وأن يعلم

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ٢٥٩.
(٢) تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٤٠.
(٣) ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾، سورة البقرة: الآية ١١٦. و﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، سورة إبراهيم: الآية ١٩.
(٤) سورة هود: الآية ٦٦.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

أتباعه أنّهم في كلّ لحظة تحت نظر الله، وأنّ زلّاتهم مغفورة، وأنّهم في حمى حاكم رحيم.

□ وخلاصة القول، إنّ المعبود الذي يستحقّ العبادة هو المعبود الحيّ القيّوم الذي لا يشوبه كلل ولا يجري عليه ضعف أو وهن، ولا يأخذه إغفاء أو نوم، وليس لأحد أن يفعل شيئاً من دون إذنه وإرادته. عليم بكلّ شيء، ومحيط بكلّ شيء، هذا الإله هو المعبود المحبوب، الذي بإمكاننا أن نتوكل عليه ونعشقه، ونعقد عليه الآمال. هذا الإله وبهذه المواصفات التي يستعرضها القرآن الكريم، لا يقبل المقارنة أبداً بالإله الذي يتحدّث عنه الإنجيل والتوراة المحرّفة. ألا كيف يفكر أولئك الذين سقطوا في ظلمة المتاهات الضيّقة للنظام المادّي العالمي؟ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا أحد سواه أهل للعبادة، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢ ـ هو وحده منشأ الحياة الحقيقيّة الأبدية وجميع الحيوات الأخرى، ﴿ٱلْحَىُّ﴾.

٣ ـ كلّ شيء يتقوّم به دوماً، ولا يخرج عن دائرة تدبيره طرفة عين، ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾.

٤ ـ له كلّ شيء، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾.

٥ ـ الله منشأ الوجود بل وفاعلية الوجود وحياته أيضاً، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ﴾.

٦ ـ أنّى لكم أن تخلقوا من أوهامكم شفعاء ووسطاء، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾.

٧ ـ ما من أحد أرحم منه، وهو منبع حبّ ورأفة كل شفيع، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

٨ ـ الله محيط بكلّ شيء وفي الأحوال كلّها، إذن، فلنخجل من ارتكاب المعصية في حضرته ، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...﴾.

٩ ـ هو المحيط بكلّ شيء، وليس للآخرين أن يحيطوا بجانب من علمه من دون إرادته[1]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦ﴾.

(١) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ سورة العلق: الآية ١٤.

١٠ ـ لا حدود لحكومته وقدرته، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾.

١١ ـ لا يشقّ عليه حفظ الوجود، ﴿وَلَا يَؤُودُهُ﴾.

١٢ ـ الذي يحفظ الوجود، يحفظنا من الأخطار. ﴿حِفْظُهُمَا﴾، ولذلك حثّت الروايات على المواظبة على قراءة آية الكرسي.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

إشارات:

- لم يجر الله أمر الإيمان على الإجبار والقسر بل على البرهان والأخلاق والموعظة التي تسري في القلوب، بيد أنّ هذا لا يعني أبداً أن يرتكب كلّ شخص ما بدا له من المنكرات بحجة أنّه حرّ في ما يفعل وليس لأحد أن يمنعه عن الطريق الذي اختار. إنّ القوانين الجزائية في الإسلام مثل التعزير والحدود والديات والقصاص وكذلك الفرائض من قبيل النهي عن المنكر والجهاد كلّها دلائل على أنّه حتى لو كان المرء لا يؤمن بقلبه بهذه الأمور، فإنّ هذا لا يعطيه الحقّ في أن يصير عضواً مشاكساً في المجتمع.
- من غير المعقول أن يكره الإسلام الناس على اعتناقه وهو الذي يقول للكفّار: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).
- والجهاد في الإسلام هو من أجل محاربة الطواغيت وتحطيم النظم التعسّفية التي تسلب الشعوب حقّ التفكير والرأي، أو من أجل تحطيم أركان الشرك والخرافة، والتي تشكل وباءً، وبالتالي فإنّ السكوت عليها يعتبر ظلماً بحقّ الإنسانية.
- ورد في الروايات، أحد أمثلة التمسّك بـ «**العروة الوثقى**» وحبل الله هو التواصل مع أولياء الله وأهل البيت عليهم السلام.

(١) سورة البقرة: الآية ١١١.

وفي الحديث أنّ الرسول الأكرم ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «أنت العروة الوثقى»[١].

التعاليم:

١ ـ الدين الذي يعتمد البرهان والمنطق نهجاً له، ما حاجته إلى الإكراه والإجبار، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

٢ ـ ربّما كان للإكراه والقسر تأثير على أعمال الإنسان وحركاته، ولكن بالتأكيد لن يؤثّر على الأفكار والعقائد، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

٣ ـ طريق الحقّ منفصل عن طريق الباطل، لكي تتمّ الحجّة على الناس. وضوح طريق الحقّ يكون بالاستعانة بالعقل والوحي والمعجزات، ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ والإسلام دين الرشد.

٤ ـ الدين، سبب رشد للإنسانية، ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾.

٥ ـ لا سلم للإسلام مع الاستكبار، ﴿يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾.

٦ ـ ما لم تجتثّ الطواغيت، فلن يبرز وجه التوحيد. الكفر بالطاغوت أوّلاً ومن ثمّ الإيمان بالله، ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾.

٧ ـ لا بدّ من استمرار الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ﴿يَكۡفُرۡ... وَيُؤۡمِنۢ﴾ (صيغة الفعل المضارع تدلّ على الاستمرار).

٨ ـ لا يكفي أن يكون الحبل الإلٰهيّ محكماً، بل يجب أن نمسك بقوّة بهذا الحبل، ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ...﴾.

٩ ـ التمسّك بحبل الطواغيت وبما سوى الله إلى انقطاع وزوال. ويبقى حبل الإيمان بالله محكماً لا انفصام له، ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾.

١٠ ـ الإيمان بالله والعلاقة بأوليائه أزلية، ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾، فيما سيتبرّأ الطواغيت في يوم القيامة من أوليائهم.

---

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ١٤١.

١١ ـ الإيمان بالله والكفر بالطاغوت يجب أن يكون حقيقياً لا عن نفاق، لأنّ الله سميع عليم، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

إشارات:

□ ذكرت الآية السابقة أنّ الله تعالى مالك كلّ شيء، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾، إذ ورد في الآية: ﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

لمحات من سيماء الذين ارتضوا ولاية الله تعالى

- المؤمن بولاية الله، تصطبغ أعماله بصبغة إلٰهيّة، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ﴾[(١)].
- يتّخذ له قيادة إلٰهيّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾[(٢)].
- يكون طريقه واضحاً، ومستقبله معلوماً، وفي أعماله مطمئناً، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾[(٣)]، ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(٤)]، ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٥)].
- في الحروب والشدائد يَسْتَمِدّ العون من الله، ولا يَخشى أيّ قدرة غير إلٰهيّة، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾[(٦)].
- لا يخشى الموت، ويرى في الموت تحت راية الولاية الإلٰهيّة سعادة. وكما قال الإمام الحسين عليه السلام: **«إني لا أرى الموت إلا سعادة»**[(٧)].
- لا يستوحش من الوحدة في الحياة، لأنّه يعلم أنّه بعين الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[(٨)].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.
(٣) سورة يونس: الآية ٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٦.
(٥) سورة يوسف: الآية ٥٦.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.
(٧) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ١٩٢.
(٨) سورة التوبة: الآية ٤٠.

- لا يتحرّج من الإنفاق لأنّه يوكل أمواله إلى وليّه، ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[١].
- لا يتأثّر بالإعلام المسموم، لأنّه عقد الأمل على البشائر الإلٰهيّة الحتميّة، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].
- كلّ شيء سوى الله في عينيه حقير. يقول الإمام علي عليه السلام: «**عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم...**»[٣].
- لا يربكه تعدّد القوانين ومشاريع القوانين لأنّه لا يؤمن إلّا بقانون الله تعالى ولا يفكر به. ولو أتيحت له مئة طريقة وطريقة للكسب، فلا يختار إلّا طريق الله الذي يتناسب مع المعايير الإلٰهيّة، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[٤].

التعاليم:

١ ـ الله وحده وليّ المؤمنين، فيما للكافرين أولياء كثر وهم الطواغيت، والخضوع لوليّ واحد أسهل[٥]. يقول الله عن المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ﴾ وبالنسبة للكافرين فيقول: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾.

٢ ـ ورد في الآية السابقة: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾، وتبيّن هذه الآية أمثلة على الرشد والغيّ فولاية الله رشد، وولاية الطاغوت غيّ وانحراف، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ... أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾.

٣ ـ طريق الحقّ واحد، وطرق الانحراف كثيرة ومتعدّدة. يصف القرآن الكريم طريق الحقّ بالنور، بينما يعبّر عن طرق الانحراف والاعوجاج بالظلمات، ﴿ٱلنُّورِ... ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

٤ ـ طريق الحقّ نور، وفي ظلّ النور تتيسّر الحركة والرشد والأمل والطمأنينة، ﴿ٱلنُّورَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٥.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢٨.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.
(٤) سورة المائدة: الآية ٤٤.
(٥) استدلّ النبي يوسف عليه السلام بهذا المعنى عندما قال لأصحابه في السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، سورة يوسف: الآية ٣٩.

٥ ـ لا يُحشر المؤمن في طريق مسدود، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾.

٦ ـ مناورات الطواغيت تبرز في أجواء الكفر والشرك، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾.

٧ ـ من لم ينضو تحت ولاية الله، فسوف يقبل بولاية الطواغيت شاء أم أبى، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ... أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾.

٨ ـ أيّ ولاية غير ولاية الله هي ولاية طاغوتية، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ... أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾.

٩ ـ معرفة عاقبة القبول بولاية الطاغوت تسوق الإنسان إلى قبول الحقّ، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

إشارات:

- استتباعاً للآية السابقة بأنّ الله تعالى وليّ المؤمنين، وهو الذي يخرجهم من الظلمات ليدخلهم في النور، تستعرض هذه الآية الكريمة والآيات اللّاحقة أمثلة وشواهد لولاية الله والخروج من الظلمات إلى النور.

- جاء في الروايات التاريخية أنّ النمرود وهو من ملوك بابل كان على رأس دولة مقتدرة وقد حاجّ النبيّ إبراهيم عليه السلام في مسألة وجود الله تعالى، فقال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فأجابه النمرود: إنّ قانون الحياة والموت بيدي ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، ثمّ لإثبات دعواه أمر بإحضار سجينين، أطلق سراح أحدهما وأمر بقتل الآخر. ولمّا رأى إبراهيم أسلوب النمرود في المجادلة والسفسطة وتزييف الحقائق ومفهومه بالنسبة للإحياء والإماتة، قال عليه السلام: إن كنت تدّعي أنّ عالم الطبيعة بيدك وأنّ جميع الأشياء تحت سلطتك وقدرتك، فأت بالشمس من المغرب! حينذاك سقطت حجّة النمرود وأُسكتَ ولم يدر ماذا يفعل غير البهت والسكوت.

التعاليم:

١ ـ كلّ ما لدى الإنسان هو من عند الله. حتى الكافرون يرفلون في نعم الله في هذه الدنيا؛ لكنّهم لا يحسنون استغلالها، ﴿ءَاتَنٰهُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ السلطة والدولة يمكن أن تشكلا عاملَي استكبار وغرور، ﴿ءَاتَنٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ... أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ...﴾.

٣ ـ لا بدّ من الاهتمام بالرأي العام وحكم الناس. على الرغم من أنّ مسألة الحياة هي إحدى سبل معرفة الله، وجواب النمرود لم يكن صحيحاً، غير أنّ ذلك الحجاج لم يكن ليقنع الرأي العام، ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

٤ ـ المغالطات والسفسطة ديدن أهل الباطل، ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾.

٥ ـ إذا ما تمّ عرض الحقّ بأسلوب منطقي واستدلالي، فسوف ينتصر على الباطل ويسود عليه لا محالة، ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

٦ ـ في المناظرات والمحاججات استعينوا بالاستدلالات الفطرية والعقليّة والعامة، لتسكتوا المعارض اللجوج وتخرسوه، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾.

٧ ـ الكافر ظالم، لأنّه يظلم نفسه والإنسانية، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

إشارات:

□ سردت الآية السابقة محاججة النمرود للنبي إبراهيم عليه السلام حول مسألة التوحيد وتناولت موضوع الهداية عن طريق أسلوب الاستدلال المنطقي، وبالتالي غلبة

إبراهيم عليه السلام في هذا الحجاج. المثال الثاني الخروج من الظلمات إلى النور، عبر الحديث الذي تطرحه هذه الآية عن عقيدة المعاد، والهداية من خلال المشاهدة وعرض الصور المحسوسة والعملية. ورد في بعض التفاسير وكذلك في الروايات أنّ اسم الشخص المعني في هذه الآية هو «عُزير». وورد في تفسير الميزان أنّه من سياق الآية وقرينة كلام الله لهذا الشخص، يتبيّن أنّه كان نبيّاً.

التعاليم:

١ ـ أطلال الحضارات القديمة تستبطن دروساً وعبراً لمن يتأمّلها، ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾.

٢ ـ وسّع وعاء علمك بالتجربة والسؤال حتى وإن كنت عالماً، ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ قرن كامل في غمار الموت من أجل فهم موضوع معيّن ليس بكثير، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾.

٤ ـ انقضاء زمن طويل لا يؤثّر على قدرة الله، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

٥ ـ رجعة الأموات في هذه الدنيا وقبيل يوم القيامة أمر معقول، ﴿فَأَمَاتَهُ... بَعَثَهُۥ﴾.

٦ ـ المشاهدة والملاحظة أفضل السبل لطرح المعارف الدينية، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ... وَٱنظُرْ إِلَىٰ...﴾.

٧ ـ إرادة الله جعلت العظام الصلبة رميماً، والطعام سليماً لقرن كامل من دون أن يفسد، ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾.

٨ ـ تجلّي قدرة الله هو من أجل إرشاد الناس وهدايتهم وليس لقضاء الوقت أو حتى استعراض القوة، ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

٩ ـ لقد خلق الله مشهداً أخروياً في هذه الدنيا، ﴿فَأَمَاتَهُ... ثُمَّ بَعَثَهُۥ... وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾.

١٠ ـ المعاد هو معاد جسماني، فلو كان روحانياً لما ورد حديث عن العظام، ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾.

١١ ـ البعرة تدلّ على البعير. لقد أظهر الله تعالى تجلّيات من قدرته في يوم القيامة في هذه الدنيا، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

إشارات:

- **«لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً»**[1]، مقولة ما تجرأ أحد على قولها سوى رجل التوحيد بعد رسول الله ﷺ الإمام علي عليه السلام، فيما يحتاج سائر الناس إلى دعم مسموعاتهم وحتى معتقداتهم بالمشاهدة العينيّة والملاحظة الحسّية. يعلم الجميع بأنّ السكر يستخلص من الشمندر لكنّهم يرغبون في رؤية كيفية حدوث ذلك من خلال المشاهدة العمليّة العينيّة.
- ورد في التفاسير: أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام مرّ يوماً على ساحل البحر فرأى جيفة مرميّة على الساحل نصفها في الماء ونصفها على اليابسة تأكل منها الطيور وحيوانات البرّ والبحر من الجانبين وتتنازع أحياناً في ما بينها على الجيفة، عند رؤية إبراهيم عليه السلام هذا المشهد خطرت في ذهنه مسألة يودّ الجميع لو عرفوا جوابها بالتفصيل، وهي كيفية عودة الأموات إلى الحياة مرة أخرى، ففكر وتأمّل في نفسه أنّه لو حصل مثل هذا الحادث لبدن الإنسان وأصبح طعاماً لحيوانات كثيرة، وكان بالتالي جزءاً من بدن تلك الحيوانات، فكيف يحصل

---

(١) ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: اضممهنّ واجمعهنّ.

البعث ويعود ذلك الجسد الإنسانيّ نفسه إلى الحياة؟ فأراد الله تعالى من خلال هذه المشاهدة العمليّة الحسّية أن يهدي نبيّه إبراهيم عليه السلام إلى نور اليقين والاطمئنان.

التعاليم:

١ ـ بعث الأموات من شؤون ربوبيّة الله تعالى، ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ﴾.

٢ ـ عمليّة التعليم العميقة تحتاج عرضاً عمليّاً ومشاهدات حسّية عينيّة، ﴿أَرِنِي﴾.

٣ ـ الكشف والشهود خاص بأولئك الذين طووا مراحل من العلم والإيمان. فطلب إبراهيم عليه السلام ﴿أَرِنِي﴾ يُستجاب لا طلب أيّ شخص آخر.

٤ ـ لنسعَ إلى الارتقاء بإيماننا ويقيننا حتى حدود الاطمئنان. التقصّي والتمحيص فضيلة، ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

٥ ـ للإيمان مراحل ودرجات، ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

٦ ـ الفؤاد مركز السكينة والاطمئنان، ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

٧ ـ لأولياء الله القدرة على التصرّف في الطبيعة وهو ما يطلق عليه الولاية التكوينية، ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

٨ ـ المعاد هو معاد جسماني، وفي يوم القيامة سوف تعود الروح إلى ذرّات هذا الجسد، ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾

إشارات:

□ الدعوة إلى الإنفاق وترك الإسراف والتبذير أفضل سبيل لحلّ التناحر الطبقي،

كما أنّ ظهور الربا وانتشاره كان مقدّمة لنشوء الطبقات. من هنا، نتبيّن مغزى ورود آيات الإنفاق وتحريم الربا جنباً إلى جنب في القرآن الكريم[1].

□ نعم، إنّ الحبّة تزرع في الأرض فتنبت سبع سنابل، وفي كلّ سنبلة مئة حبّة، ولكن ليس في كلّ حبّة وليس في كلّ أرض يتمّ ذلك، بل يجب أن تتوافر شروط عدّة منها الحبّة السليمة والأرض الخصبة والموسم المناسب والرعاية والصيانة الكاملة. وينطبق هذا التشبيه على الإنفاق، فإن كان المال حلالاً، وبقصد القربة وبأسلوب جميل بعيد عن المنّة، فإنّه سيحمل جميع هذه البركات والآثار.

التعاليم:

١ ـ لا ينطوي الإنفاق على الثواب الأخروي فحسب، بل إنّه عامل رشد الإنسان وتكامله الوجودي، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾.

٢ ـ يثني القرآن الكريم على أولئك الذين أصبح الإنفاق نهجاً دائماً لهم، ﴿يُنفِقُونَ﴾ فصيغة الفعل المضارع تدلّ على الاستمرار.

٣ ـ الإنفاق ذو قيمة عندما يكون في سبيل الله. في الإسلام لا فكاك للاقتصاد عن الأخلاق، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ ميزة الاستعانة بالأمثال الطبيعية أنّها لا تتغيّر أبداً ولا تتقادم، وهي مفهومة لكلّ الناس من كلّ الأعمار وفي جميع الظروف. فهنا تشبيه المال بالحبّة وتشبيه آثار الإنفاق بالسنابل المتعدّدة للحبّة، ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾.

٥ ـ التشجيع والوعد بالثواب يثير الهمّة والاندفاع. عامل في التحرّك. ضعفِ الثواب سبعمائة ضعفاً، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾.

٦ ـ لا حدود لألطاف الله، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ... وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) تفسير الميزان، ج ٢، ص ٤٠٦.

٧ ـ إذا كان إنفاق المال ينمو ويتضاعف إلى سبعمائة ضعف؛ ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾، إذن فأيّ ثواب ينتظر أولئك الذين ينفقون أرواحهم في سبيل الله؟! ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾

إشارات:

- إنّ هدف الإسلام من الإنفاق ليس إشباع الفقراء فحسب، بل إنّه يؤكد على ضرورة توافر بعض الشروط في الإنفاق كأن يقوم بهذا العمل الأفراد الخيّرون أو بأساليب طيّبة مدفوعة بالأهداف الصالحة.
- أحياناً يخطو الإنسان بعض الخطوات في سبيل الله، ويبدأ أعماله بداية صالحة، لكنّه يكدّر نقاءها ببعض الأمور الجانبية من قبيل الغرور أو المنّة أو توقّع شيء معيّن وما شابه ذلك فيقلّل من قيمة العمل وأجره.

والحقيقة، إنّ إتباع النفقة بالمنّ يذهب بأجرها؛ لأنّ غاية الإنفاق هي تطهير الروح من البخل، فيما تعمل المنّة على تدنيس الروح وتلويثها.

إنّ هدف الذي يمَنّ هو تعظيم شأنه وتحقير الآخرين، أو جذب انتباه الناس إليه، وفي كلتا الحالتين فإنّ عمله هذا غير خالص لوجه الله. ولو نسأل أنفسنا، أفهل منّ الله علينا بنعمه حتى نمنّ نحن على خلق الله بمنحهم جزءاً من هذه النعم.

لقد ورد في تفسير مجمع البيان حديث للرسول الكريم ﷺ يقول فيه:

«إنّ الله لا ينظر إلى المنّان في يوم القيامة نظرة لطف».

التعاليم:

١ ـ رحم الله من عمل عملاً فأتقنه، فالبداية الصالحة لا تكفي، بل يجب إتمامها، ﴿يُنفِقُونَ... ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ... مَنّٗا﴾.

٢ ـ الإسلام هو الصائن لشخصيّة المحرومين والفقراء، وإنّ جرح كرامتهم من خلال المنّ عليهم يحبط الثواب والأجر، ﴿لَا يُتْبِعُونَ... مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾.

٣ ـ تؤثّر أعمال الإنسان بعضها على بعضها الآخر، أي يمكن لعمل أن يحبط أجر عمل آخر. الإنفاق هو لمعالجة الفقراء، ولكن في المنّ أذى لهم، ﴿يُنفِقُونَ... لَا يُتْبِعُونَ... مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾.

٤ ـ لقد ضمن الله تعالى مستقبل المنفق، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٥ ـ من ينفق ماله في سبيل الله من دون منّة أو أذى، يشعر بالاطمئنان الإلٰهيّ، ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ
مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

إشارات:

□ روي عن الرسول الكريم ﷺ قوله: «**ردّوا السائل ببذل يسير أو رد جميل**»(١).

كما قال ﷺ: «**إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم**»(٢).

التعاليم:

١ ـ كرامة الفقير وشخصيته أهمّ من إشباع بطنه، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ... خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾.

٢ ـ أرشدوا الفقير بالمحبة والرأفة إلى عمل مفيد ينتفع منه في تأمين معاشه، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

٣ ـ يجب أن يقترن الإنفاق بالخُلُق الرفيع، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ... خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ذيل الآية.

(٢) تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٧٢.

٤ ـ الكلمة الطيبة للفقير تسكين له وعامل رشد الإنسان، فيما تفتقد الصدقة المقترنة بالمنّ لأيٍّ من هذين العاملين، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ... خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾.

٥ ـ اغفر للفقير زلّته إذا تفوّه بكلام غير لائق بسبب فقره وعوزه، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾.

٦ ـ لا بدّ من التزام عرف المجتمع في القول والعمل، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

٧ ـ الله تعالى هو الذي يردّ على من يسيء للفقير، ولكن من دون استعجال، ﴿حَلِيمٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

إشارات:

- في هذه الآية الكريمة تشبيه لباطن الأشخاص الذين ينفقون بقصد الرياء والتظاهر، فظاهر هؤلاء كالتراب الناعم إلّا أنّ باطنهم أشبه بالحجر الصلد الأملس غير القابل للنفوذ. وبسبب صلادة قلوبهم وقساوتها فهم لا يثابون على إنفاقهم.

التعاليم:

١ ـ المنّ على الفقير وإيذاؤه يذهبان بثواب الإنفاق والصدقة، ﴿لَا تُبْطِلُوا۟﴾.

٢ ـ الرياء علامة على غياب الإيمان الحقيقي بالله والقيامة، ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾.

٣ ـ ليس الإنفاق هو المهم، بل دافعه والسبب الذي يقف وراءه، ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

٤ ـ أعمال المنّان والمرائي والكافر هباء. وكلمة ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ تنطبق على الأشخاص الثلاثة المذكورين.

٥ ـ المرائي عاقبته الافتضاح، وسوف تنبئ الحوادث عن هذه الحقائق، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا﴾.

٦ ـ المرائي ليس محروماً فقط من ثواب الآخرة، بل سوف يُحرم من الرشد الروحي أيضاً، ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾.

٧ ـ المنّان والمرائي يدوران في دائرة الكفر وهم في معرض التهديد، ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾

التعاليم:

١ ـ إذا كان الهدف نيل رضا الله والرشد والكمال الروحي، فإنّ الأعمال ستكون مثمرة، ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ... فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾.

٢ ـ لا يُنال الإخلاص ببساطة، بل يجب أن نسعى وراءه، ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ الأعمال الخالصة كمزرعة في مكان مرتفع أو ربوة لا تصلها السيول، ﴿بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا﴾.

٤ ـ إذا كان الله تعالى هو الغاية، فلن نُحرم من التجليات والجماليات. المخلصون أحبّ إلى قلب المجتمع من المرائين المتزلّفين. ﴿جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ الإنفاق الخالص كمزرعة في ربوة أو الأرض المرتفعة، يتمتّع الناس جميعاً بمنظرها الخلاب.

٥ ـ ما هو أهمّ من الإمكانات هو كيفية الاستفادة منها. لا يهمّ إن كانت قطرات المطر صغيرة أم كبيرة، بل المهمّ أن تقوم الأرض بامتصاص هذا المطر، ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾

إشارات:

- عندما يصاب الإنسان بالهرم ويكثر عياله، تقلّ قدرته على الإنتاج، وفي المقابل، ترتفع حاجته واستهلاكه بشدّة، ناهيك عن الذلّ والهوان الذي يصيبه عندما يفقد مصدر دخله. وهذا هو حال الإنسان في يوم القيامة حيث يفقد قدرته على العمل، ومن الناحية الأخرى تشتدّ فاقته وحاجته. فتأمّل الذلّ الذي سيغدو عليه عندما تنمحي أعماله الصالحة بسبب تلوّثها بالمنّة والرياء.
- التمر والعنب من أكثر أنواع الفواكه فائدة للإنسان، وقد ورد ذكرهما مراراً في القرآن الكريم.
- يقول النبيّ الأكرم ﷺ: «**من قال سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة ومن قال الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنّة ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنّة ومن قال لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنّة ومن قال الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنّة**؛ فقال رجل من قريش يا رسول الله إنّ شجرنا في الجنّة لكثير؛ **قال**: نعم، **ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها**[1] **وذلك أنّ** الله ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾».

التعاليم:

١ ـ ضع نفسك مكان الآخرين لتعي الأمور جيّداً، ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ...﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٨٦.

٢ ـ لنستعن بالأمثال الطبيعية التي لا تتأثّر بالزمان والمكان والعصر والنسل، ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ...﴾.

٣ ـ المنّ والأذى بعد الإنفاق، مثل ريح سموم تهبّ على حديقة غنّاء، ونيران حارقة تأكل روضة عامرة، ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾.

٤ ـ البناء تدريجي، بينما الهدم وحبط الأعمال يحدث في لحظة واحدة، ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾.

٥ ـ أمثال القرآن للتدبّر والتأمّل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾

إشارات:

- تحدّثت الآيات السابقة عن شروط الإنفاق، وتتابع الآية الحاليّة الموضوع فتبيّن شروط الأشياء التي تُنفق على المحرومين.
- ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**إنّها نزلت في أقوام لهم رباً في الجاهلية، وكانوا يتصدّقون منه على الفقراء، فنهاهم الله عن ذلك وأمر بالصدقة من الطيّب الحلال**»[1].

التعاليم:

١ ـ الغاية من النفقة هي الخلاص من البخل، لا التخلّص من الأشياء الزهيدة الرديئة، ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

٢ ـ لا فرق في الإنفاق بين النقد والسلع، ﴿مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا﴾.

٣ ـ الإنفاق من المال الحرام لا قيمة له، بل القيمة والفضل في إنفاق المال الذي يحصل عليه الإنسان من كدّه وتعبه، ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾.

---

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٥٥؛ تفسير راهنما «تفسير المرشد».

٤ ـ يجب صون كرامة المحرومين عند الإنفاق، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾.

٥ ـ ينهى القرآن الكريم عن إنفاق فضالة المال والرديء، لا بل ينهى عن التفكير في ذلك، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾.

٦ ـ ضمير الإنسان أفضل معيار لمعرفة الطيّب من الرديء. فجدير بك أن تنفق ما تودّ أن يُنفق عليك منه، وإلّا فلا يجدر بك أن تنفق المال الخبيث، ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾.

٧ ـ ما عسى أن يفعل الغني إذا أصبح فقيراً، فلربّما تحوّلت اليد العليا إلى يد سفلى، ﴿بِآخِذِيهِ﴾.

٨ ـ أخذ الفقير المال الرديء لا يعني رضاه، فربّما قَبِله لشدّة حاجته، ﴿تُغْمِضُوا﴾ تعني أنّكم أنفسكم لا تأخذون غير الطيّب من المال إلّا إذا أغمضتم أعينكم كارهين، فهل هذا دليل على رضاكم؟

٩ ـ تعود بركة النفقة عليكم؛ لأنّ الله غنيّ حميد، ﴿أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

١٠ ـ الغنى الإلٰهيّ مقترن بالكمال والحب، ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

إشارات:

- تشير الآية الكريمة إلى أنّه عند الإنفاق يبدأ الشيطان بإلقاء وساوسه التي تخوّف الإنسان من الفقر في غده إذا ما أنفق في يومه، لذا فمن الأفضل أن يحتفظ بأمواله ليوم فاقته وشيخوخته ومرضه، إلخ. هذه هي وساوس الشيطان وإلقاءاته وتحذيراته.

- حاجة الإنسان إلى المغفرة الإلٰهيّة في يوم القيامة أكبر بكثير من حاجته في مستقبله إلى هذه الدنيا، فلا يبيعنّ المغفرة الإلٰهيّة بوهم رفاهية الدنيا، وذلك لأنّه:

أوّلاً: ربّما لن يشيخ ولن يصيبه العوز، في حين تبقى حاجته في يوم القيامة حتميّة وقطعية.

ثانياً: لعلّ المال الذي يوفّره لغده لن يدوم له، ولكنّ إنفاق اليوم سيكون زاده ليوم القيامة لا محالة.

ثالثاً: قد لا يتمتّع بما جمعه اليوم في وقت شيخوخته، لكنّه سيجد، قطعاً، ما أنفقه اليوم سنداً له لفاقته في يوم القيامة.

رابعاً: إنّ تمتّع الإنسان بمدّخراته في وقت شيخوخته موقّت وعابر، أمّا تمتّعه بنتيجة إنفاقه في يوم القيامة أبديّ[1].

التعاليم:

١ ـ وساوس الشيطان تمنع الإنسان من الإنفاق من طيّب ماله، ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ... ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ...﴾.

٢ ـ بخل الأغنياء يسوق الفقراء نحو الفساد والرذيلة، ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾.

٣ ـ الإنسان مخيّر في اختيار طريق الله أو طريق الشيطان، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ... وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾.

٤ ـ المحيطون بالإنسان الذين يمنعونه من الإنفاق ويخوّفونه من المستقبل، وفي المقابل يزيّنون له ارتكاب المعاصي، أولئك هم الشياطين، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ﴾.

٥ ـ ثمّة علاقة بين الفقر والفاحشة، فبعض المعاصي ترتكب خشية الفقر والإملاق، ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾.

٦ ـ عدم الإنفاق نمط من القبح والفحشاء، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلۡخَبِيثَ... ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ...﴾.

(١) تفسير الفخر الرازي، ذيل الآية.

٧ ـ الإنفاق عامل نماء للأموال وغفران للذنوب، ﴿أَنفِقُوا... وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾.

٨ ـ حارب عوائق الإنفاق والوساوس الشيطانية. واذكر فضل الله تعالى ولطفه عليك كلّما انتابتك خشية من الفقر، ﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا...﴾.

٩ ـ كلّ وهم أو فكر يضيّق من أفق نظرتك ويحملك على الخوف والآثار السلبية، فهو من وساوس الشيطان، وفي المقابل كل فكر أو إلهام يدفعك نحو الحركة والنشاط ورحابة الصدر، مصدره الله تعالى، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا...﴾.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

إشارات:

- «الألباب» جمع «لُبّ» بمعنى العقل، وقيل: قلب كلّ شيء ومركزه. ولا يقال لجميع البشر ﴿أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، بل هي كلمة تخصّ العقلاء منهم الذين يُعملون عقلهم فيختارون طريق الحياة والسعادة الحقيقيّة.
- «الحكمة» هي المعرفة والعلم بالأسرار والحقائق وبلوغ الحقّ، ويهبها الله تعالى لبعض الأشخاص بسبب طهرهم وتقواهم وسعيهم، ليميزوا الوساوس الشيطانية عن الإلهامات الإلٰهيّة، ويعلموا الطيّب من الخبيث، والصالح من الطالح، ولا شك في أنّ في هذا خيراً كثيراً.
- وجاء في الروايات: أنّ الحكمة هي معرفة وتفقّه في الدين، وهي طاعة الله ومعرفة الإمام واجتناب الكبائر[١].

التعاليم:

١ ـ المال والثروة خير، بيد أنّ امتلاك قوّة البصيرة والتمييز هو الخير الكثير. فمن

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٨٧.

ينفق من ذلك الخير يصل إلى الخير الكثير، ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ... يُؤْتِ الْحِكْمَةَ﴾.

٢ ـ وعد الشيطان الفقر، ووعد الله تعالى المغفرة والفضل. ولا شك في أنّ التمييز بين هذين الطريقين واختيار أحدهما يحتاج حكمةً، ﴿يُؤْتِ الْحِكْمَةَ﴾.

٣ ـ متاع الدنيا كلّه قليل[1]، بينما الخير الكثير في الحكمة. لو ضحّى الإنسان بإمكاناته المادّية كلّها من أجل نيل الحكمة والمعرفة الصحيحة فالأمر يستحقّ ذلك، ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٤ ـ الحكمة هدية كبرى وأمّ الخيرات جميعاً. فمن نالها فقد نال أشياء كثيرة غيرها، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

٥ ـ ما كلّ امرئ يعرف فضل الحكمة وقيمتها، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ طلاب الدنيا يعتمدون على أموالهم وأرقامهم وحساباتهم المادّيّة، ويقيسون الربح والخسارة وفق المعايير المادّية، فيما يقيّم العقلاء بعيدو النظر والعلماء العارفون بالطريق المسألة من زاوية أخرى.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ أما وأنّ الله تعالى عليم بما ننفق، فليكن إنفاقنا إذاً من أطيب المال ومن أجل أسمى الأهداف، ﴿وَمَا أَنفَقْتُم... فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾

٢ ـ لننفق من المال القليل أيضاً، فالإنفاق لا يقتصر على الأثرياء والأموال الوفيرة فقط، ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾؛ فورقة الخريف الصفراء تصبح سفينة للنمل في حوض الماء.

---

(١) ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ...﴾، سورة النساء: ٧٧.

٣ ـ الإيمان بعلم الله وإحاطته بالأمور، أفضل ضمانة للإنفاق والعمل بالالتزامات والنذور، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾

٤ ـ الترغيب والترهيب معاً يشكلان عامل رشد وتحوّل. فعبارة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ عامل ترغيب، بينما عبارة ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ تتضمّن تحذيراً.

٥ ـ الوفاء بالنذر واجب وتركه ظلم، ﴿نَذَرْتُم... وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾

٦ ـ معالجة ظلم النفس هو بالتوبة والكفّارة، أمّا الظالم الذي يظلم المحرومين عبر ترك الإنفاق فلا نصير ولا معين له، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

٧ ـ البخيل محروم من الشفاعة[١]، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

٨ ـ إذا كان دافع البخل، الاستعانة بالمال والناس، فليعلم الإنسان أنّ غضب الله إذا جاء، لن يحول المال أو الناس دونه، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

٩ ـ لا بدّ من تناسب العقوبة مع الجريمة. فمن لم يُعن الآخرين في الدنيا بالإنفاق، فلن يجد له معيناً في يوم القيامة، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

إشارات:

- نقل عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**الزكاة المفروضة تخرج علانية وتدفع علانية، وغير الزكاة إن دفعه سرّاً فهو أفضل**»[٢] لعلّ السبب وراء ذلك هو أنّ الزكاة الواجبة تكليف عام وعادي وبعيد عن الرياء. تتحدّث الآية الكريمة عن المعونات المالية، إلّا أنّه جرت العادة في العرف الإسلامي على إطلاق كلمة صدقة على كلّ عمل خيّر، فمثلاً رفع الحجر عن طريق المسلمين يسمّى صدقة. على ذلك، فإنّ مساعدة المحرومين عن طريق العلم أو الكرامة أو الوساطة. . . ذلك كلّه يندرج ضمن مفهوم الصدقة.

---

(١) كما ورد في سورة المدّثر الآية ٤٨: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ... فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٢٨٩.

التعاليم:

١ ـ الإنفاق العلني يشجّع الآخرين وينزّه الإنسان عن تهمة البخل، وهو بعد، نوع من الدعوة العملية، ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾.

٢ ـ للصدقات والزكاة مصارف كثيرة، إلّا أنّ ذكر الفقراء في الآية الكريمة يشير إلى الأولوية التي يتبوّؤونها، ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾.

٣ ـ عليكم أن تذهبوا إلى الفقراء لا أن يأتوا إليكم، ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾؛ فلم يرد في الآية: «يأتكم الفقراء».

٤ ـ الإنفاق في السرّ، منزّه عن الرياء والتظاهر، وأقرب إلى الإخلاص، عدا أنّه يصون ماء وجه الآخذ للصدقة، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٥ ـ جُبل الإنسان على طلب المنفعة والخير، وإن كان عملياً ينزع ـ أحياناً ـ نحو الشرّ. ولهذا بيّن الأنبياء والرسل للإنسان مصاديق وأمثلة الخير، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٦ ـ مساعدة الفقراء تمحو بعض صغائر الذنوب، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾. «السيئات» في القرآن الكريم وصف لصغائر الذنوب وهي تذكر في مقابل الكبائر[1].

٧ ـ علم الله تعالى هو المهمّ، لا علم الناس ومعرفتهم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

إشارات:

□ ورد في تفسير مجمع البيان والتفسير الكبير للفخر الرازي آراء عدّة حول سبب

---

(١) ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، سورة النساء: الآية ٣١.

نزول الآية الكريمة، نستخلص منها، أنّ المسلمين لم يرضوا بالإنفاق على فقراء المشركين وغير المسلمين، فسألوا رسول الله ﷺ في ذلك، فنزلت الآية المذكورة.

وبالمناسبة، فإنّ سيرة النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته الكرام ﷺ تزخر بأمثلة كثيرة عن مساعدتهم لغير المسلمين، بمن فيهم أولئك الذين كانوا يسلّطون ألسنتهم الحداد عليهم أو اغتصبوا حقّهم، فكان أهل البيت ﷺ يشملون هؤلاء بعطفهم وكرمهم.

التعاليم:

١ ـ لا يصحّ استخدام وسيلة الضغط الاقتصادي وترك الإنفاق لإجبار الكفار على الإيمان، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ... وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾.

٢ ـ الهداية هي توفيق من الله تعالى تصيب القلوب المستعدّة، ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

٣ ـ مساعدة المحرومين واجب إنساني؛ لذا يجب أن يشمل إنفاقنا غير المسلمين أيضاً، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾.

٤ ـ الإسلام مدرسة المحبة الإنسانية، فهو لا يرضى بالفقر والحرمان حتى لغير المسلمين، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾.

٥ ـ فائدة الإنفاق تعود عليك، فتحيي روح السخاء والكرم فيك. الإنفاق يحول دون الهوّة الطبقيّة والانفجارات الاجتماعية، ويزرع بذور المحبة في المجتمع. الإنفاق ليس حرماناً بل حصانة وضمان، ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾.

٦ ـ لا تنفقوا إلّا في سبيل الله. فكلّ إنفاق تزول فوائده وآثاره الدنيوية عاجلاً أم آجلاً، إلا الإنفاق في سبيله فبركاته باقية أبداً، ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾.

٧ ـ المال والثروة خير، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾.

٨ ـ ليكن إنفاقك عن كرم وسخاء؛ لأنّه سيعود عليك من دون نقصان، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾.

٩ ـ ينعم الإنسان ببركات إنفاقه في يوم القيامة متى ما كان الهدف نيل رضا الله تعالى وحده، ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ... يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾

إشارات:

□ بحسب بعض التفاسير مثل التفسير الكبير للفخر الرازي ومجمع البيان والقرطبي، فإنّ هذه الآية نزلت في أصحاب الصفّة وكانوا نحواً من أربعمئة رجل من المسلمين المهاجرين ممّن لم يكن لهم مأوى يأوون إليه في المدينة، ولا قريب يحتضنهم في منزله، فاتّخذوا من الصفّة (وهي دكة عريضة كانت خارج مسجد النبي) مأوى لهم، وكانوا على أهبة الاستعداد للذهاب إلى ميادين الجهاد في سبيل الله.

التعاليم:

١ ـ للفقراء حقّ في أموال الأغنياء، ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾.

٢ ـ المجاهدون والفقراء الذين لم تتح لهم فرصة تأمين معاشهم بسبب نشاطاتهم السياسيّة ونضالهم ضدّ الطواغيت وتعرّضهم للسجن والنفي، وكذلك المهاجرون الذين لا مأوى لهم وجميع الذين افتقروا في سبيل الله لا بدّ من إيلائهم الاهتمام الكافي، ﴿أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا...﴾.

٣ ـ من يستطيع أن يؤمّن معاشه عن طريق الهجرة إلى بلاد أخرى فلا ينتظر إنفاق الناس عليه، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٤ ـ الفقراء المتعفّفون الأباة الذين لا يبذلون ماء وجوههم هم موضع ثناء الله تعالى وتقديره، ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾.

٥ ـ الفقراء المغمورون والمحترمون لهم الأولويّة والصدارة، ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾.

٦ ـ لا تلحّ في السؤال على الناس حتى عند الضرورة، ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ الاستجداء أمر مذموم.

٧ ـ ليس من العدل أن تضحّي فئة بنفسها وبما تملك وتتعرّض للحصار، في الوقت الذي يشقّ على فئة أخرى الإنفاق عليهم[1]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

إشارات:

□ ذهبت تفاسير الصافي ومجمع البيان والقرطبي والكبير للفخر الرازي إلى أنّ هذه الآية نزلت في الإمام علي عليه السلام لأنّه كان لديه أربعة دراهم فقط فأنفق منها درهماً في الليل، وآخر في النهار، وثالثاً علانيّة ورابعاً خفيةً في سبيل الله.

من المعلوم أنّ مفهوم البشارة في الآية لا يقتصر على حالة خاصّة بل هو

---

(١) وأنا أراجع تفسير هذه الآية الكريمة، وإذا بأحدهم قد دخل عليّ وأعطاني جريدة أوردت ملاحظة حول إحدى الشخصيات العظيمة، وقد وجدت الملاحظة تتناسب تماماً مع موضوع هذه الآية، لذا ارتأيت أن آتي بها في هذا الهامش. «كان المرحوم السيّد علي القاضي ـ أستاذ العلّامة الطباطبائي في العرفان ـ من الناحية العمليّة آية عجيبة.. ويعرف أهل النجف وخصوصاً أهل العلم الكثير من قصصه.. كان في منتهى الفقر، وكانت عائلته كبيرة، وكان في منتهى التسليم والتفويض والتوحيد، بحيث لم تخرجه هذه العائلة ذرة عن مساره. حدثني أحد أصدقائي في النجف، وهو فعلاً من أعلامها فقال: ذهبت ذات يوم إلى دكان بائع الخضار، رأيت المرحوم علي القاضي منحنياً ينتقي الخس إلا أنه على عكس المتعارف، كان يختار الخس الذابل ذا الأوراق الخشنة. وقفت أتأمّله بدقة إلى أن نهض من الانتقاء، وقدم الخس لصاحب الدكان ليزنه.. ووضعه السيّد تحت عباءته ومضى، وكنت عندها طالباً شاباً، وكان المرحوم القاضي رجلاً مسناً.. فتبعته وقلت له: مولاي!.. لدي سؤال.. لماذا اخترت بعكس الجميع الخس غير المرغوب فيه؟.. قال: عزيزي، هذا الرجل بائع فقير، وأناأساعده أحياناً، ولا أريد أن أعطيه شيئاً بلا عوض لأحفظ له عزته وماء وجهه أولاً، ولا يعتاد على «الأخذ» مجاناً فيتكاسل في الكسب ثانياً. وبالنسبة لنا لا فرق بين الخس الطري والناعم أو هذا الخس، وأنا أعلم أن هذا الخس لن يشتريه منه أحد، وعندما يقف دكانه ظهراً سوف يلقي به بعيداً، ومنعاً لتضرره وخسارته فقد اشتريت هذا منه.

عام يشمل جميع السائرين على هذا النهج. هؤلاء لا يخشون فقراً أو ضيقاً، ذلك أنّهم يؤمنون ببشارات الله ويتوكلون عليه، ولا يثقل عليهم الإنفاق، لأنّ هدفهم بلوغ رضا الله والحصول على الثواب الأخروي.

- وبالنسبة لتراتب الإنفاق وتقديم **«الليل»** على **«النهار»** أو **«السرّ»** على **«العلانية»** لعلّ ذلك ناشئ عن فضل الإنفاق السرّي الليلي وأهميّته بالمقارنة بالنوعين الآخرين(١).
- ويمكن القول إنّ هذه الآية بمثابة خلاصة للآيات الأربع عشرة الماضية التي تناولت موضوع الإنفاق. وهو الموضوع الذي لم يرد تفصيله بهذا الشكل في أيّ موضع من القرآن الكريم. من نافلة القول إنّ آثار الإنفاق معلومة وواضحة للجميع، فمن هذه الآثار: توزيع الثروة وتضييق الهوة الطبقيّة، وزرع بذور المحبة، وتنمية روح السخاء وفوق كلّ هذا التقرّب إلى الله تعالى.
- هذا ويشمل الإنفاق، علاوة على المال والثروة، إنفاق العلم والجاه والمقام. وكلمة الإنفاق في اللغة، هي ردم الهوة أو الحفرة، وفي الاصطلاح تعني سدّ النقص أو رفع الحاجة المالية.
- ومن الضروري هنا الإشارة إلى ملاحظة مهمّة وهي أنّ اهتمام الإسلام بمسألة الإنفاق لا يعني نشر روح الاستجداء والكدية، وما يؤيّد هذا التوجّه، ما ورد من ذمّ شديد لمن يطلب ويلحُّ بالسؤال من دون حاجة حقيقيّة، ومن ناحية أخرى، فإنّ أفضل أنواع الإنفاق هو إتاحة أدوات العمل للسائل بدلاً من إعطائه المال.

التعاليم:

١ ـ من الضروري أن يمتلك الإنسان روح الإنفاق والسخاء لا أن ينفق مرّة أو مرّتين وبقصد التعطّف. وقد وردت كلمة **﴿يُنفِقُونَ﴾** في صيغة الفعل المضارع ما يدلّ على الاستمرار.

---

(١) تفسير المراغي.

٢ ـ عدم تعيين حدود للثواب الإلٰهيّ، دليل على سعته، ﴿أَجْرُهُمْ﴾.

٣ ـ البشارات الإلٰهيّة أفضل حافز لتشجيع الإنسان على الأعمال الصالحة، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾.

٤ ـ الطمأنينة والأمن، من بركات الإنفاق، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

إشارات:

- **«الربا»**، الزيادة والنماء، لكن خصّ في الشرع بالزيادة على وجه دون وجه (في القرض أو البيع)، وموضوع الربا يكون إمّا النقود أو السلع. فتارةً يقرض الإنسانُ المالَ فيستردّ أكثر ممّا أقرض، فهذا ربا القرض، وتارةً أخرى يعطي سلعة فيزيد عليها عند القبض، وهذا أيضاً يندرج في بعض الحالات في موضوع الربا، مثل بيع المكيل أو الموزون بأكثر منه من جنسه.

- لقد شبّهت الآية المرابي بأنّه كالمصروع أو المجنون، و**«الخبط»** القيام والسقوط لمن فقد توازنه في السير. وفي يوم القيامة يحشر المرابي مجنوناً، وذلك لأنّ سلوكه في الدنيا أدّى إلى فقدان المجتمع توازنه. فحبّه للثروة سلبه عقله وبصيرته، وعمله يُحدث شرخاً بين طبقات المجتمع ويزرع بذور الحقد حتى ينفجر المجتمع بسبب الفقر والضغينة فيزعزع أساس الملكية ويعرّضه للخطر. هذا النوع من الناس ينظر إلى الربا كأصل والتجارة فرع لها، ولذلك فهو يقول: البيع والمعاملة كالربا لا فرق بينهما.

- لقد حمل الإسلام بشدّة على أكل الربا المعطي والمعطى منذ بداية ظهوره، إذ

ورد في سورة الروم التي نزلت بمكة: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١]، ثمّ ورد في سورة آل عمران نهي عن الربا بالقول: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾[٢]، وتعرّض لنقد لاذع في هذه الآيات نفسها. وتذكر الآية الكريمة ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾[٣]، ضمنياً أنّ الربا كان محرّماً حتى في الديانة اليهودية، وقد ورد في التوراة[٤] تحريمه.

- لقد جاءت آيات الربا استطراداً لآيات الإنفاق، لتطرح وجهَي الخير والشرّ اللذين تحملهما الثروة. فالإنفاق يعني الإعطاء بلا عوض، والربا يعني الأخذ بلا عوض. فالآثار الإيجابية التي ينطوي عليها الإنفاق بالنسبة للمجتمع تقابلها بالمقدار نفسه آثار سيئة للربا. من هذا المنطلق يقول القرآن الكريم: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

- والملفت هنا هو أنّ التهديدات التي أطلقها القرآن لمن يتعاطى الربا والقبول بحاكمية الطاغوت لم يأت مثلها حتى بالنسبة للقتل والظلم وشرب الخمر ولعب القمار والزنا[٥]. وقد أجمعت جميع المذاهب الإسلاميّة على حرمة الربا بشكل قاطع، معتبرة إيّاه من الكبائر، ولهذا عندما بلغ الإمام الصادق عليه السلام عن رجل أنّه كان يأكل الربا ويسمّيه اللّبأ قال: «**لئن أمكنني الله منه لأضربنّ عنقه**»[٦] وتطالعنا سيرة الإمام علي عليه السلام أنّه عندما جيء بأحد المرابين لم يطلق سراحه حتى استتابه فتاب، ثمّ قال: «**يُسْتَتَابُ آكِلُ الرِّبَا مِنَ الرِّبَا كَمَا يُسْتَتَابُ مِنَ الشِّرْكِ**»[٧]. وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: «**أخبث المكاسب كسب الربا**»[٨] وها هو النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله يقول: «**إذا أراد الله بقرية هلاكاً ظهر فيهم الربا**»[٩].

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٩.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٠.
(٣) سورة النساء: الآية ١٦١.
(٤) التوراة، سفر الخروج، الإصحاح ٢٣، العبارة ٢٥، وسفر اللاويين، الإصحاح ٢٥.
(٥) تفسير الميزان، ذيل الآية.
(٦) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٢٩.
(٧) تهذيب الأحكام، ج ١٠، ص ١٥١.
(٨) الكافي، ج ٥، ص ١٤٧.
(٩) كنز العمال، ج ٤، ص ١٠٤.

هذا وقد لعن الله تعالى المرابي والوكيل والشاهد والكاتب للربا[١]، وقد جاء في الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ **«يأتي آكل الربا يوم القيامة مختبلاً يجر شقيه، ثم قرأ ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾»**[٢].

- ويوضّح الإمام الصادق عليه السلام سبب تكرّر آيات الربا بأنّها من أجل دفع الأغنياء نحو أعمال الخير والصدقات، فقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن تحريم الربا وتكرار ذكره، فقال: **«لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف»**[٣].

وعن علّة تحريم الربا يقال: الربا يمنع تدفّق المال في مسير الإنتاج والأعمال التي يعود نفعها على الجميع، فبدلاً من أن يُعمل المرابي فكره وعقله وذراعه، يقوم بجني الربا والفوائد على رأسماله، ولهذا السبب حُرّم الربا.

وقد روي عنه الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قوله: **«لو كان الرّبا حلالا لترك الناس التجارات»**[٤].

كما نقل عن الإمام الرضا عليه السلام، في مقام بيانه لعلل بعض الأحكام، قوله: «... وعلّة تحريم الربا بالنسيئة لعلّة ذهاب المعروف... وتركهم القرض والقرض صنائع المعروف...»[٥] ولمّا كانت احتمالات وقوع المسلم الذي يتعاطى الشأن الاقتصادي في حبائل الربا كثيرة جداً، لذلك يقول الحديث الشريف: **«من اتّجر بغير فقه فقد ارتطم في الربا»**[٦].

آثار الربا:

- لا شكّ في أنّ أخذ مال إضافي بغير وجه حقّ ومن دون القيام بإزائه بأيّ عمل مفيد أو مشاركة أو إنتاج، يعتبر ظلماً وإجحافاً ويؤدّي إلى غرس بذور العداوة والقسوة في المجتمع.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٣٠.
(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج ٢، ص١٠٢.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٢٣.
(٤) المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٤٢٤، وبحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ١١٩.
(٥) موسوعة: الحياة، ج ٤، ص ٣٣٤.
(٦) نهج البلاغة، قصار الكلمات ٤٤٧.

إنّ دافع الربا وبضغطٍ من تراكم الديون التصاعدية يتعرّض أحياناً للإفلاس فيضطرّه ذلك إلى الرضوخ لأنواع المذلّة والقيود[1].

وفي حقيقة الأمر، فإنّ الربا يؤدّي إلى فقدان المجتمع توازنَه وبالتالي شطر المجتمع إلى قطبين؛ أحدهما قطب المستكبرين، والثاني هو قطب المستضعفين[2].

ونظراً للآثار المدمّرة والعواقب الوخيمة التي يحملها الربا فقد نهت الشرائع السماوية كلّها وليس فقط الشريعة الإسلاميّة عن تعاطي الربا.

وهنا يحاول البعض إعطاء المبرّرات والأعذار لتفسير الربا أو بالأحرى يفتّشون عن مخرج للهروب من هذه المسألة، عبر اللّجوء إلى الحيل الشرعية، على غرار ما فعل اليهود عندما كانوا يخرجون في يوم السبت لصيد الأسماك كما ورد ذكر قصّتهم في آيات سابقة من هذه السورة، وليس ذلك إلا حيلة، وقد حمل القرآن الكريم بشدّة على هذا النوع من الحيل.

ومن نافلة القول إنّ الربا يحمل آثاراً مدمّرة مهما حاولت المجتمعات الإنسانيّة استدماجه في منظوماتها الاقتصاديّة، والحقيقة أنّ تطوّر المجتمعات الغربيّة يعزى إلى عوامل التطوّر التكنولوجي في مجالات العلوم والصناعات، لا إلى النظام الربوي كما قد يبدو لأوّل وهلة.

التعاليم:

١ ـ يفقد المرابي توازنه النفسي والروحي، ويعمل بدوره على سلب المجتمع توازنَه الاقتصادي، ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

٢ ـ تشبيه المرابي للبيع الحلال بالربا المحرّم دليل على عدم توازنه الفكري، ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ... بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

٣ ـ تبرير المعصية يفتح الطريق أمام ارتكابها، ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

---

(١) تفسير المراغي، ذيل الآية.

(٢) تفسير الميزان.

٤ ـ ليس ثمّة مسؤولية ما لم يصدر تكليف، ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٥ ـ الأحكام الإلٰهيّة هدفها إرشاد الناس وتربيتهم، ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٦ ـ بعض القوانين والتشريعات الجديدة لا يحسن أن يكون لها أثر رجعي، ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾.

٧ ـ غضّ النظر عن معاصي الجاهلين مطلوب، وليس عن المعاندين المغرضين الذين يرتكبون المعاصي عن إرادة وتصميم، ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾

إشارات:

□ «**المحق**» هو النقصان التدريجي، ومحاق القمر هو نقصانه حتى يغيب نوره في الليالي الأخيرة. وفي قبال ذلك فإنّ «الربا» يعني النمو أو الزيادة التدريجية.

تشير الآية الكريمة إلى أنّه مهما حاول المرابي أن يراكم ثروته من خلال أخذ الربا من الناس فإنّ الله يُذهب بركة هذه الزيادة في المال والآثار الطيّبة كلّها التي يجب أن تحملها عادةً.

وليس بالضرورة أن يصيب هذا المحق وذهاب البركة المال الربوي نفسه، بل ربّما تُسلب البركة من الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها المرابي من خلال زيادة ثروته ونمائها.

ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا إنّ النظام الربوي يفتقد عناصرَ السعادة والمحبة والأمن، فكم من ثري لم تحقّق له ثروته الهناء الذي ينشده، ولم يصل إلى ما يصبو إليه من راحة وسكينة أو حب، فيما ينعم المجتمع الذي يقوم على نظام الإنفاق والصدقة والقرض الحسن بوفور البركات. في هذا النظام لا يسيطر اليأس على الفقراء، ولا يسعى الأغنياء فيه إلى الاكتناز وجمع الثروة، نظام لا تساور المحرومين فيه فكرة الانتقام والسرقة ولا تسكن أغنياءه هواجس حماية ثرواتهم وحراستها، فينعم المجتمع في ظلّ هذه الأجواء بالتوازن النسبي المقرون بالألفة والرأفة والتفاهم والأمن.

جاء في تفسير الرازي: عندما يطرح المرابي عن نفسه العواطف والعدالة الإنسانية، يكون هو وثروته موضع لعن الفقراء، ومرمى سهام الحقد والانتقام والتواطؤ بالسرقة في كلّ لحظة، وهذا هو المحق الذي تتحدّث عنه الآية الكريمة.

التعاليم:

١ ـ لا يبهرنّك تراكم الثروة ونماؤها الظاهري، فالنظام الاقتصادي الربوي إلى زوال، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾.

٢ ـ محق المال الربوي سنّة إلٰهيّة، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، والفعل المضارع يدلّ على الاستمرار.

٣ ـ انتشار الصدقة والزكاة عامل رشد وثبات للاقتصاد، ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

٤ ـ المرابي محروم من الرحمة والمحبّة الإلٰهيّتين، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

٥ ـ المرابي جاحد وعاصٍ إلى أبعد الحدود. فهو بأخذه الربا يكون ضامناً للناس، ويلوّث حياته بالحرام، ويبطل عباداته، ويصبح أسيراً لجشعه وقسوته، ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

إشارات:

□ بعد أن وصفت الآية السابقة المرابي بأنّه «كفّار أثيم»، ترسم هذه الآية ملامح المؤمنين الذين يؤدّون العمل الصالح ويقيمون الصلاة ويدفعون الزكاة، والهدف من ذلك هو التذكير بأنّ محاربة الربا واجتثاث جذوره يمرّ عبر التركيز على الإيمان والعمل الصالح وإحياء الصلاة والزكاة.

□ الناس أربع مجموعات:

١ ـ مجموعة آمنت وعملت الصالحات وهم «المؤمنون».

٢ ـ مجموعة لم تؤمن ولم تعمل صالحاً وهؤلاء هم «الكافرون».

٣ ـ مجموعة آمنت ولكن ليس لها من العمل الصالح نصيب وهم «الفاسقون».

٤ ـ مجموعة تتظاهر بالإيمان وبالعمل الصالح ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم وهم «المنافقون».

- في مقابل المرابين الذين انقطعت صلاتهم بالله تعالى وبالناس يقف المؤمنون الذين عملوا الصالحات وارتبطوا بخالقهم عبر حبل الصلاة المتين ويؤدّون الزكاة إلى الناس.

التعاليم:

١ ـ يهتمّ الإسلام بالقضايا الاقتصاديّة والاجتماعيّة إلى جانب اهتمامه بالقضايا العبادية والشخصيّة. فالاهتمام بالصلاة والزكاة جنباً إلى جنب، ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٢ ـ ذكر العمل الصالح قبل الصلاة والزكاة فيه دلالة على أنّ للصلاة والزكاة مكانة خاصّة بين الأعمال الصالحة الأخرى، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

٣ ـ ترغيب المحسنين بعد توعّد المسيئين هو بمثابة قاعدة تربوية، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٤ ـ العاقل هو الذي لا ينظر إلى ما في يده اليوم، بل يتدبّر في عاقبته وما يحتسبه عند الله، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٥ ـ لله عناية خاصة بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات ويقيمون الصلاة ويؤدّون الزكاة. تأمّل كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ فيها إشارة إلى لطف إلهي خاصّ.

٦ ـ البشارات الإلٰهيّة هي المحفّز على العمل الصالح، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٧ ـ الأمن والهدوء الحقيقي يتحقّق في ظلّ الإيمان والعمل الصالح والارتباط مع الله والناس، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٨ ـ عناصر الاستقرار هي الإيمان والعمل الصالح والصلاة والزكاة، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ... وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

إشارات:

- قرأنا في الآيات السابقة عن مفاسد الربا ومضارّه حيث يُفقد الفرد والمجتمع توازنهما ويجعلهما في اضطراب وتخبّط؛ ﴿يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ واتّضح لنا أنّ الربا هو في الحقيقة محق ونقصان، لا زيادة ونماء؛ ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا﴾، وهذه الآية تستكمل ما بدأته الآيات السابقة فتنهى صراحة عن الربا، ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا﴾.
- ورد في تفاسير مجمع البيان والميزان والمراغي أنّه عندما نزلت آية تحريم الربا سأل بعض الصحابة مثل خالد بن الوليد والعباس وعثمان النبيّ الكريم ﷺ عن بقايا أموال ربوية كانت لهم عند بعض الناس فنزلت الآية أعلاه.

وبعد نزول الآية أعلن النبيّ الكريم ﷺ على الملأ أنّه حتى العباس (عمّه) لا يحقّ له أخذ الربا ولا أيّ من أهل بيته، كما قال ﷺ في خطبة له: «**وكلّ ربا في الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين وأوّل ربا أضع ربا العباس**»[1].

التعاليم:

١ ـ الربا عادة جاهلية قديمة تلوّث بها بعض مسلمي صدر الإسلام أيضاً، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا... وَذَرُوا﴾.

٢ ـ التقوى مرحلة أرفع من الإيمان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٣ ـ لا يحصل المرابي على أيّ فائدة، والإسلام لا يعترف بالربح الربوي، ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا﴾.

٤ ـ شرط الإيمان التقوى وصرف النظر عن المال الحرام، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) تفسير «في ظلال القرآن».

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

إشارات:

□ لم يأذن الإسلام لا بأكل الربا والاستغلال، ولا بمصادرة أموال الناس من طرف واحد كما فعلت بعض الأنظمة عندما قامت بإلغاء الملكية الخاصة ومصادرة أموال الناس وأملاكهم، فيما عملت بعض الأنظمة على إطلاق جميع أنواع معاملات الربا والاستغلال في أيّ صورة كانت.

التعاليم:

١ ـ المرابي محارب لله. وعليه أن يعلم بأنّ خصمه في هذه الحرب هو الله الجبار، ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ أكل الربا من الكبائر؛ لأنّه إعلان حرب على الله، ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ لا يظننّ المرابي أنّ خصمه الناس، بل خصمه الله الذي يدافع عن حقّ المحرومين، ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ باب التوبة مفتوح لمحاربي الله، ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ... وَإِن تُبْتُمْ﴾.

٥ ـ المرابي مالك لأصل الرأسمال وليس لأرباحه، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

٦ ـ إذا أردنا نجاة المحرومين ينبغي عدم تجاهل مبدأ ملكيّة الناس، فالاقتصاد الإسلامي يعترف بالملكية الخاصّة، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

٧ ـ لا تسلّط ولا خنوع، الاثنان مرفوضان، لا تظلِم ولا تُظلم، ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

٨ ـ لا يجوز الانتقام، فلا ظلم على المرابي التائب، ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

٩ ـ لا يجوز ظلم التائبين بسبب ما سلف من ذنوبهم. فتقريع من كان مذنباً ممنوع، ﴿وَإِن تُبْتُمْ... لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

١٠ ـ من وظائف الحكومة الإسلاميّة إرساء أسس العدالة الاقتصاديّة، ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

إشارات:

□ تحثّ هذه الآية الكريمة على إمهال المدين إلى حين تيسّر أموره المالية، ولكن في الوقت نفسه ينبغي للمدين ألّا يستغلّ هذا الاستمهال فيماطل؛ لأنّه إذا أبطأ في تسديد ديونه دونما عذر أو مسوّغ يكون مذنباً.

فقد ورد في الحديث الشريف:

«ومن ادّان ديناً وهو ينوي أن لا يؤديّه إلى صاحبه فهو سارق». وقال ﷺ أيضاً: **«أيها الناس ليبلغ الشاهد منكم الغائب، ألا ومن أنظر معسراً، كان له على الله ﷻ في كل يوم صدقة بمثل ماله حتى يستوفيه»**[1].

□ كما تحثّ الآية على إعفاء المدين المعسر من دينه وتؤكّد على أنّ هذا أفضل لكم لأنّه:

أ) ربّما واجهتكم الظروف نفسها التي يمرّ بها المدين.

ب) المال يُنسى ولكن إعفاء المعسر لا يمكن أن يُنسى.

ج)

كسب رضا القلب المحروم ورضا الخالق أفضل بكثير من كسب المال.

□ وقد جاء في الأحكام الفقهية أنّه لا يجوز حبس المدين المعسر، وأحياناً يتعيّن على الدولة الإسلاميّة أن تتكفّل بتسديد ديون المدين المعسر الذي لا يقوى على تسديدها.

---

(١) تفسير البرهان.

التعاليم:

١ ـ الإسلام يدافع عن المستضعفين، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾.

٢ ـ ليس فقط لا تأكل الربا، بل تساهل أيضاً في استرداد أصل رأس المال، ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

٣ ـ الأساس في مسألة الجدولة الزمنية للتسديد هو قدرة المدين على الدفع، ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

٤ ـ لا مانع من إجبار المدين الموسر على الدفع، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾.

٥ ـ إعفاء المدين الفقير من ديونه صدقة للدائن، ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٦ ـ النظامان الأخلاقي والاقتصادي في الإسلام يتواشجان. فعلى الرغم من أنّ استرداد القرض حقّ للدائن إلّا أنّه يجب أيضاً الأخذ بنظر الاعتبار إمهال المدين أو إعفائه، ﴿فَنَظِرَةٌ... تَصَدَّقُوا﴾.

٧ ـ ضيق أفق الإنسان وولعه باكتناز الثروة تحجب عنه حقيقة القيم والفضائل، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

إشارات:

□ نصل مع هذه الآية إلى ختام آيات الربا والتي تقدّم خلاصة الكلام وتحذيراً عاماً لمخاطر هذا العمل. ذكرت بعض التفاسير مثل الكشاف والميزان ومجمع البيان والكبير للفخر الرازي والبرهان بأنّ هذه الآية آخر آية نزلت على قلب رسول الله ﷺ، لكنّها وضعت هاهنا بأمر منه ﷺ.

التعاليم:

١ ـ القيامة يوم عظيم، يدلُّ على ذلك تنوين كلمة، ﴿يَوْمًا﴾.

٢ ـ أكل الربا وتحقيق الأماني في هذه الدنيا تافه وسريع، وما يبقى خالداً هو يوم القيامة، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾.

٣ ـ التقوى وذكر يوم القيامة أقوى عامل لاجتناب الربا وسائر المحرّمات، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ﴾.

٤ ـ إيمان الناس وورعهم هما الضمانة الأكيدة لتطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾.

٥ ـ الصفقات في هذه الدنيا تحتمل النقصان، إلّا أنّ الصفقة مع الله تعالى ليس فيها أيّ نقصان، ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

٦ ـ معيار الثواب والعقاب هو العمل لا الأماني، ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾.

٧ ـ لا يخيفنّك الإنفاق أو ضياع فوائد الربا، فلا ينقص من أعمالك الصالحة ذرة، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ... لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

إشارات:

❏ هذه أطول آية في القرآن الكريم، وتتحدّث عن بعض القضايا القانونية وكيفية

تنظيم المكاتبات والوثائق التجارية. وهي إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على مدى الدقّة والشموليّة التي يتميّز بها الدين الإسلامي، خصوصاً إذا ما علمنا أنّه يقرّر أدقّ القضايا في عصر تميّز بجاهليّته وتخلّف الأقوام التي كانت تعيش آنذاك.

❑ كلمة **«تداينتم»** مشتقّة من **«الدَّين»** وهو القرض، وتشمل كل معاملة غير نقدية (النسيئة) والقرض والبيع السلف.

❑ عن الإمام الصادق عليه السلام: **«أربعة لا يستجاب لهم دعوة، أحدهم رجل كان له مال فأدانه بغير بينة، يقول الله عزّ وجلّ: ألم آمرك بالشهادة؟!»**[1].

❑ إذا كانت الدقّة مطلوبة في المحافظة على الحقوق الشخصيّة، فمن البديهي أن تكون المحافظة على بيت المال أكثر ضرورة وإلحاحاً!

❑ تنظيم الوثائق والعقود ضروريٌّ حتى في المعاملات العاجلة (المباشرة)، وتتضاعف هذه الضرورة بالنسبة للمعاملات الآجلة (النسيئة) وذلك لأنّ في هذا النمط من المعاملات قد يغيّب الموت أحد أطراف المعاملة أو الشهود، الأمر الذي يفسّر ضرورة المكاتبة والتوثيق.

❑ يتّضح لنا من الأمر بالكتابة أنّ الوثائق المسجّلة، بالإضافة إلى الكاتب بالعدل، هي وثائق قابلة للاستشهاد.

❑ كما يستفاد من هذه الآية أنّ أفراد المجتمع الإسلامي يجب أن يدعم بعضهم بعضاً من أجل صيانة الحقوق والمحافظة عليها، لأنّ أيّ صفقة تحتاج إلى كاتب وعدد من الشهود.

❑ ولعلّ تأكيد الإسلام على الكتابة والتوثيق في بلاد جزيرة العرب التي كانت تعزّ فيها القراءة والكتابة، وعدد الذين يقرأون ويكتبون فيها لم يكن يتجاوز الـ ١٧ فرداً دليل على الاهتمام العظيم الذي كان الإسلام يوليه للعلم وصيانة الحقوق.

---

(١) كنز الدقائق، ج ٢، ص ٤٦٧.

التعاليم:

١ ـ يشكّل الإيمان مقدمة وإطاراً للعمل بالأحكام؛ وخطاب الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ حثّ على تطبيق الأحكام.

٢ ـ يجب تعيين أمد الدَين، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٣ ـ يجب توثيق الديون من أجل المحافظة على مشاعر الثقة وحسن الظنّ تجاه بعضنا البعض، والإبقاء على الطمأنينة لدى طرفي المعاملة والحيلولة دون النسيان أو الإنكار أو سوء الظنّ، ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾.

٤ ـ لا بدّ من توثيق العقد من قبل طرف ثالث وبحضور الطرفين وذلك لزيادة الاطمئنان ومنع أيّ تلاعب محتمل بالعقد من قبل أيّ من الطرفين، ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ﴾.

٥ ـ لابدّ لكاتب العقد أو الوثيقة أن يضع الحقّ نصب عينيه ويوثّق عين الحقيقة، ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾.

يشترط في اختيار كاتب الوثيقة عدالة القلم.

٦ ـ لنسعَ في حلّ المشاكل عرفاناً وشكراً لله على نعمة القراءة والكتابة والعلم، ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ تقع على صاحب كلّ مهنة أو اختصاص مسؤولية خاصة، فحامل القلم يحمل مسؤولية الكتابة للناس، ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾.

٨ ـ على المدين الذي حمل في ذمّته حَقٌّ، أن يملي على الكاتب نصّ السند أو الوثيقة لتدوينه، لا ما يدّعيه الدائن، ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾.

٩ ـ إقرار الإنسان على نفسه مقبول، ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾.

١٠ ـ يجب على المدين عند الإملاء أن يتّقي الله ولا يبخس الدائن حقّه وأن يوثّق كلّ التفاصيل المتعلقة بالدَّين، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾.

١١ ـ تدوين القوانين يجب أن يتمّ على نحوٍ لا يضيع معه حق الضعيف. فإذا كان المدين سفيهاً أو ضعيفاً أو عاجزاً أو أبكمَ أو أصمَّ فيجب على وليّه أن يملي

مفاد العقد ليكتبه الكاتب، ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا... فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾.

١٢ ـ السفهاء والعاجزون بحاجة إلى الأولياء في العلاقات الاجتماعية، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾.

١٣ ـ ينبغي على المسؤولين العناية بحقوق الطبقات المحرومة والشرائح الضعيفة، ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ فعل أمر وتفيد الوجوب.

١٤ ـ الرجل مقدّم على المرأة في الشهادة، ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾.

١٥ ـ يجب أن يكون الشهود عدولاً ومحل ثقة ورضى الطرفين، ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾.

١٦ ـ كلّ رجل منفرد بمثابة شاهد واحد، وبالإمكان أن يكون الشهود رجلاً وامرأتين، وينبغي أن تدلي المرأتان بالشهادة معاً لتذكّر إحداهما الثانية إذا أخطأت أو نسيت شيئاً، ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا﴾.

ولعلّ الحكم بوجوب أن تأخذ امرأتان مكان رجل شاهد واحد مردّه إلى الروح العاطفية الرقيقة التي تتحلّى بها المرأة أو لأنّ النساء عادةً ليس لهنّ حضور قويّ في القضايا الاقتصاديّة ومسائل السوق، وبالتالي فإنّ معرفتهنّ بالمعاملات والصفقات أقل.

١٧ ـ لا تردّ الدعوة إلى الشهادة، وإن كانت الشهادة بلا دعوة فغير واجبة، ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾.

١٨ ـ مبلغ العقد أو السند غير مهم، بل المهمّ هو المحافظة على الطمأنينة والثقة وحقوق الناس، ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾.

١٩ ـ في كتابة المستندات وتوثيقها بصورة دقيقة وعادلة ثلاث فوائد هي:

أ) ضمانة لتحقيق العدالة، ﴿أَقْسَطُ﴾.

ب) مدعاة لاطمئنان الشهود وإقدامهم على الإدلاء بالشهادة، ﴿أَقْوَمُ﴾.

ج) تحول دون بروز سوء الظنّ بين أفراد المجتمع، ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾.

٢٠ ـ توضيح فوائد وأسرار الأحكام للناس يساعد على تسهيل القبول بها، ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ﴾.

٢١ ـ صرف الوقت والجهد في كتابة العقود اليوم أفضل من بروز الفتنة والاختلاف في الغد، ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾.

٢٢ ـ لا حاجة للاكتتاب في المعاملات النقدية الحاضرة، ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾.

٢٣ ـ في المعاملات النقدية، وإن لم يكن الاكتتاب واجباً، إلّا أنّه لا بدّ من شهود، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

٢٤ ـ الكاتب والشاهد في أمن من أيّ ضرر؛ إذ ينبغي ألّا يتعرّض أيّ منهما للأذى أو الضرر بسبب قول الحقّ أو توثيقه، ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

٢٥ ـ إذا كان الإدلاء بالشهادة أو تدوين العقد يأخذ وقتاً أو جهداً فيجب التعويض عن ذلك مالياً وإلّا فإنّ الضرر سيصيب الاثنين، ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

٢٦ ـ لا يحقّ للكاتب أو الشاهد تنظيم الوثيقة بشكل يحمل معه ضرراً لأحد الطرفين، ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

٢٧ ـ أيّ خدش في الوثيقة الصحيحة من أيّ كان يعتبر فسوقاً ومعصية، ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ﴾.

٢٨ ـ الكاتب والشاهد حرّاس على حقوق الناس، وتجاوز الحدود يعني الفسوق، ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ﴾.

٢٩ ـ القلب الطاهر الورع كالمرآة الصافية يلتقط الحقائق والعلوم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٣٠ ـ الله عليم بجميع احتياجاتكم المادّية والمعنوية، وعلى أساس ذلك يفسّر لكم الأحكام والتشريعات. فلا بدّ للمشرّع من أن يمتلك إحاطة عميقة وواسعة، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)﴾

إشارات:

□ في هذه الآية استكمال لبحث الآية السابقة، وتفيد أنّه إذا لم يكن هناك من ينظّم عقد القرض ويوثّقه، عندئذٍ يمكن أخذ شيء من المدين كرهان، سواء وقع ذلك في سفر أو في حضر. لذلك، فإنّ عبارة ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تبيّن حالة العذر عن وجود الكاتب ونصّ على حالة السفر فإنها من جملة أحوال العذر، ويلحق بذلك كل عذر يقوم مقام السفر، كما هو الحال مع عبارة ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ فمع علمنا بأنّ الوصيّة لا تختصّ بزمن معيّن، إلّا أنّ الآية الكريمة توضّح أنّ آخر فرصة للوصية هي الاحتضار.

التعاليم:

١ ـ شرط الرهان أو الوثيقة أن تكون مقبوضة، ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾[(١)].

٢ ـ لا ضير في ضبط الأمور وتوثيقها، ففي مقابل الدَّين يجب أخذ رهان، ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾.

٣ ـ الأحكام تختلف باختلاف مواقع الأشخاص، فالشخص غير المؤتمن يجب أن يقدّم رهاناً، والمؤتمن يسقط عنه الرهان، ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ...﴾.

٤ ـ احذروا أن تجعلوا الثقة والاطمئنان ينعدمان في المعاملات، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾، فالحكمة من أخذ الرهان هي الثقة، فلو كانت قائمة لانعدمت الحاجة إلى الرهان.

٥ ـ الأشخاص المضطلعون بحقوق الناس مسؤولون أمام المظلومين، ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾.

---

(١) يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لا رهن إلّا مقبوضة»، التهذيب، ج ٧، ص ١٧٦.

٦ ـ السكوت عند الحاجة إلى قول الحقّ حرام، ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾.

٧ ـ الانحراف الداخليّ مدخل إلى الانحراف الخارجي. وقلب المذنب هو عامل كتمان الشهادة، ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾.

٨ ـ الإيمان بأنّ الله محيط بجميع أعمالنا هو سبب التقوى وبيان الحقائق، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

إشارات:

❑ يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: الحالات القلبية لدى الإنسان على وجهين: فتارةً تكون خطوراً في الذهن دونما إرادة من الإنسان ولا قرار يتّخذه بشأنها، وبالتالي فهو غير آثم لأنّه لا يكون بإرادته.

أمّا بالنسبة للحالات الروحية التي تكون مصدراً لأعمال الإنسان الشريرة، والتي تتّخذ من أعماق النفس قاعدة لها، فهي التي يؤاخذ الإنسان عليها.

❑ من الممكن أن يكون مراد الآية الكريمة من محاسبة الحالات الباطنية للإنسان الذنوب التي تحمل في ذاتها بعداً نفسيّاً وتعتبر من الأعمال القلبيّة، مثل الكفر وكتمان الحقّ، لا الذنوب التي تكون النيّة مقدّمة للذنوب الخارجيّة أو لها تطبيقات خارجيّة.

❑ الإنسان مسؤولٌ عن الحالات الروحية والدوافع التي تعتمل في داخله، وقد تكرّر ذكر هذا الأمر في القرآن الكريم، ومن ذلك:

- ﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾[1].
- ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٥. (٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.

- ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[1].
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[2].

□ ويقول الإمام علي عليه السلام: «... **وبما في الصدور تجازى العباد**»[3].

التعاليم:

١ ـ الله تعالى هو المالك المطلق؛ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وهو العالم المطلق؛ ﴿وَإِن تُبۡدُواْ... أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ وهو القادر المطلق، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

٢ ـ الإناء ينضح بما فيه، فأعمال الإنسان مرآة لأفكاره ومعتقداته القلبية، ﴿تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾.

٣ ـ لا بدّ للمعلّم من أن يضع الناس بين الأمل والخوف. ﴿فَيَغۡفِرُ... وَيُعَذِّبُ﴾.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

إشارات:

□ تطرح الآية الكريمة أصول الدين وهي التوحيد والنبوّة والمعاد، لتستتبعها في الآية اللّاحقة حديثاً عن استعداد الإنسان للقيام بالواجبات الإلٰهيّة وطلب الرحمة والمغفرة من الله. ومن هنا جاء في الحديث الشريف أنّ لهذه الآية والتي تليها أهميّة وقيمة خاصّة، وأنّهما بمثابة كنز للمسلم.

□ إنّ تكريم النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وتعظيمه أمرٌ واجب، إذ له منزلة استثنائية تميّزه عن جميع البشر، من هنا فإنّ الآية ذكرت أوّلاً اسم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ومسألة الإيمان به، ثمّ أعقبتها بذكر المؤمنين ومعتقداتهم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) سورة النور: الآية ١٩.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٧٥.

التعاليم:

١ ـ يتجسّد الدين في النبي، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾.

٢ ـ لا بدّ للدعاة الدينيين من الإيمان بما يدعون إليه، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾.

٣ ـ نزول الكتب السماوية هو من أجل إعداد البشر وتربيتهم، ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾.

٤ ـ الإيمان بجميع الأنبياء واجب لأنّ هدفهم واحد، ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٥ ـ الإيمان والعمل هما طريق نيل المغفرة الإلٰهيّة، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾.

٦ ـ إلى جانب الإيمان والعمل يجب أن يأمل الإنسان في رحمة الله وغفرانه، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾.

٧ ـ العفو والصفح من شؤون الربوبيّة، وأيضاً تمهيد للتربية، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

إشارات:

- في بعض الأحيان يكون النسيان سبب تهاون الإنسان نفسه الأمر الذي يستحقّ عليه المؤاخذة، كما يقول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾(١) لذلك تطلب الآية التي نحن بصددها من العبد أن يستغفر لنسيانه كما لارتكابه المعصية، وكذلك طلب المغفرة من التكاليف الشاقّة والعبء الثقيل الذي حمّله الله الأمم السالفة بسبب طغيانها وفسادها.

في هذه الآية يطلب الإنسان من الله تعالى جميع مراحل اللطف وهي: المرحلة الأولى العفو، وهي محو آثار المعاصي والعقاب. المرحلة الثانية،

(١) سورة طه: الآية ١٢٦.

المغفرة ومحو آثار المعصية من الروح، المرحلة الثالثة، الانتهال من رحمة الله والنصر على الكفّار.

□ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ويقول تعالى في آيات أخرى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] و﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾[2]، ويقول النبيّ الأكرم ﷺ: «**بعثت بالشريعة السهلة السمحاء**»[3].

التعاليم:

١ ـ لا تتجاوز التكاليف الإلٰهيّة وسع الإنسان وطاقته، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الإسلام دين السماحة والسهولة لا دين المشقّة.

٢ ـ آثار أعمالنا تعود علينا، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...﴾.

٣ ـ الإنسان حرّ ومخيّر، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾.

٤ ـ الالتزام بالأحكام الإلٰهيّة أو تركها يعود نفعه أو ضرره علينا نحن، ﴿لَهَا... وَعَلَيْهَا﴾.

٥ ـ حتى الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وتغمرهم العدالة والتقوى، يخافون الخطأ والنسيان ويدعون ربّهم: ﴿إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

٦ ـ لنتأمّل تاريخ الأمم السابقة وما جرى عليهم من مصائب وبلايا، حتى نأخذ العبر والدروس ونستعيذ بالله، ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

٧ ـ من آداب الدعاء أن نعترف أوّلاً بضعفنا؛ ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ ثمّ نقرّ بعظمة الله وجبروته؛ ﴿أَنتَ مَوْلَانَا﴾ بعد ذلك ندعو بما نشاء، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

٨ ـ غلبة الإسلام على الكفر هي الأمنية الدائمة للمؤمنين، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

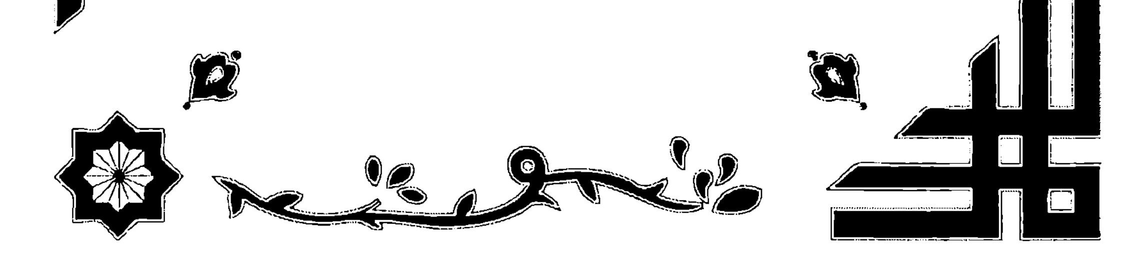
(٣) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٦٣.



سُورَةُ آلِ عِمْرَان

السورة: ٣ الجزء: ٣ ـ ٤

عدد الآيات: ٢٠٠



ملامح سورة آل عمران

سورة آل عمران مدنيّة وعدد آياتها مائتان، تتميّز بانسجام ونسق خاصّين. وقد نزلت في فترة كان صوت الدعوة الإسلاميّة عالياً في العالم آنذاك، والأعداء على أعلى درجات اليقظة والحذر.

وقد ورد في تفسير الميزان، أنّ وفداً من مسيحيّي منطقة نجران قدم إلى المدينة ليسمع من النبي الكريم ﷺ، فنزلت ثمانون آية ونيّف من بداية هذه السورة دفعة واحدة، لتشرح لهم معارف الإسلام حيث انتهت بقصة المباهلة.

كما تتضمّن السورة سرد بعض التفاصيل عن معركة أحد ودعوة المسلمين إلى الصبر.

وأخذت السورة اسمها من الآيتين ٣٣ و٣٥ اللتين تتناولان قصّة ولادة السيدة مريم بنت عمران، من هنا يتّضح أنّ المقصود بآل عمران هي السيدة مريم عليها السلام وولدها النبيّ عيسى عليه السلام، وإن كان عمران هو أيضاً اسم لوالد النبي موسى عليه السلام.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾

إشارات:

□ لقد مرّ تفسير البسملة في المجلّد الأوّل من تفسير النور، وأوضحنا المنزلة العظيمة التي تحظى بها وأنّها تعتبر آية مستقلّة. وقد ورد الكثير في استحباب البسملة في بداية كل عمل، وما تكرّرها في بداية كل سورة إلّا دلالة على عظم أهمّيتها. والبسملة لا تختصّ بالإسلام وحده، بل إنّ بعض الأنبياء كانوا ينطقون البسملة بنفس هذه الألفاظ. وشروع البسملة بحرف الباء تعني الاستمداد وطلب المعونة، وفيها دلالة على أنّ إرادة الله هي شرط وقوع أيّ عمل.

والاستعانة بالله تعني طلب العون من جميع صفاته، فالله رحمان ورحيم، وآمالنا معقودة برحمته، رحمته الواسعة والشاملة التي وسعت هذا العالم والعالم الآخر.

نعم، الآخرون لا رحمة لهم، أو أنّ رحمتهم محدودة ومقتصرة على أفراد خواص، أو مرتبطة بزمان ومكان خاصّين، وغايتهم من الرحمة هو تحصيل فائدة أو منفعة، كأن نضع أمام الدابة العلف أو الحبّ أمام الدجاج لتسمن وتزيد أرباحنا. إذن، الرحمة الواسعة والأبدية للجميع ودونما قصد تحصيل الفائدة هي لله وحده دون غيره؛ لذلك فنحن نستمدّ العون ونطلب المساعدة من الله الرحمن الرحيم، ونقول: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

□ ﴿الٓمٓ﴾ هي من الحروف المقطّعة التي سبق الحديث عنها في سورة البقرة، ولعلّ أشهر وأفضل رأي طرح حول هذه الحروف هو الرأي القائل بأنّها أسرار بين الله ونبيّه.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: إنّ سرّ ﴿الٓمٓ﴾ في فاتحة سورة آل عمران

هو: «أنا الله المجيد»[1]. أو الإعلان عن أنّ القرآن الكريم والكلام الإلٰهيّ مركّب من نفس هذه الحروف الألفبائية التي نتداولها، لكنّه مع ذلك معجزة؛ فإذا استطعتم أن تأتوا بكتاب مثل القرآن من هذه الحروف فافعلوا ذلك. إنّ الله بقدرته خلق الإنسان من طين، لكنّ الإنسان لا يستطيع أن يصنع من الطين سوى الأواني والطوب والخزف. وهذا هو الفرق بين القدرة الإلٰهيّة وقدرة الإنسان.

- ❑ وردت الحروف المقطّعة ﴿الٓمٓ﴾ في بداية ستّ سور هي: البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾

إشارات:

- ❑ ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ تقال للقائم بذاته والمقيم لغيره، أو لما يتقوّم به كل شيء.
- ❑ إنّ الله له التدبير والسلطة في خلق الأشياء. فالعوامل والأسباب المادّية وسائل للظهور لكنّها غير مستقلّة، وأنّ سبب وجودها ليس ذاتياً.

والخلائق لا تملك من ذواتها العلم والحياة والقدرة المستقلة، هو وحده الحيّ الذي حياة كلّ كائن حيّ موصولة به.

في دعاء الجوشن الكبير نقرأ: **«يا حيّاً قبل كلّ حيّ، يا حيّاً بعد كلّ حيّ».**

ليس له شريك من الأحياء، وليس به حاجة إلى أحد، حياة كلّ حيّ ورزقه بيده، هو الحيّ الذي لم يرث حياته من أحد.

التعاليم:

١ ـ التوحيد عنوان كلّ الكتب السماوية. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢ ـ شرط المعبود أن يحوز الكمالات الذاتية، والله وحده القائم بذاته، وهو الغني المطلق، ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص ٣٠٩.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾

إشارات:

□ «**التوراة**» في اللغة العبرية تعني الشريعة والقانون. وتحتوي التوراة الحاليّة خمسة أسفار أسماؤها كالتالي:

١ ـ سِفر الظهور.

٢ ـ سِفر الخروج.

٣ ـ سِفر اللاويين.

٤ ـ سِفر العدد.

٥ ـ سِفر التثنية.

يتبيّن من ذكر التوراة قصّةَ وفاة ودفن النبي موسى عليه السلام، أنّ محتويات التوراة جمعت بعده.

□ أمّا «**الإنجيل** فكلمة يونانيّة الأصل، وتعني البشارة. وهو الكتاب المقدّس لدى المسيحيين، وحيثما ذكر في القرآن الكريم كان في صيغة المفرد، بينما نعلم أنّه توجد اليوم أناجيل متعدّدة بين المسيحيين، دوّنت كلّها بعد النبي عيسى عليه السلام وبيد حواريّيه، وسمّيت باسمهم وهي:

١ ـ إنجيل مَتّى.

٢ ـ إنجيل مرقس.

٣ ـ إنجيل لوقا.

٤ ـ إنجيل يوحنّا.

التعاليم:

١ ـ نزول الكتب السماوية مظهر لقيّومية الله تعالى، ﴿ٱلْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢ ـ القرآن الكريم منّزه عن أيّ باطل، ويتطابق مع الحقيقة، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٣ ـ الكتب السماوية التي جاء بها الأنبياء يؤيّد بعضها بعضاً، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٤ ـ تصديق الكتب السماوية السابقة عامل توحيد الموحّدين، وإحدى الأساليب لدعوة الآخرين، ﴿مُصَدِّقًا﴾.

٥ ـ تصديق القرآن للتوراة والإنجيل الأصليّين، حقّ كبير على الأديان السالفة، ولولا ذلك لكان النسيان طوى منشأهما السماوي تماماً وذلك لما يحتويان من أمور تخالف الحق، ﴿مُصَدِّقًا﴾.

٦ ـ مراحل التربية الإلٰهيّة والأدوات والتعاليم الإلٰهيّة مختلفة باختلاف العصور والظروف، إلّا أنّها جميعاً تسير على إيقاع تكاملي وتجمعها وحدة الهدف، ﴿مُصَدِّقًا﴾.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

- الفرقان أحد أسماء القرآن، ويعني وسيلة التمييز والتفريق، وسُمّي القرآن به لفرقه بين الحقّ والباطل.
- العذاب الشديد لا يقتصر على الآخرة فقط، إذ لم تذكر الآية الكريمة أنّ عذاب الكفار منوط بالآخرة، فأحياناً يكون الحرص على جمع المال والغفلة عن الله تعالى والقيم المعنوية، يكون في حدّ ذاته نوعاً من العذاب. يقول تعالى في الآية ٨٥ من سورة التوبة: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.
- وعن الإمام الصادق عليه السلام في شرحه عبارة «**أنزل الفرقان**»:

«هو كلّ أمر محكم والكتاب هو جملة القرآن الذي يصدق فيه من كتاب قبله من الأنبياء»[1].

(١) تفسير العيّاشي، ج ١، ص١٦٢.

التعاليم:

١ ـ هداية الناس، سنّة إلٰهيّة أبدية، ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى﴾.

٢ ـ خطاب الكتب السماوية موجّه إلى عموم الناس، لا إلى قبيلة أو عرق بعينه، ﴿لِّلنَّاسِ﴾.

٣ ـ إذا ما دخلنا في متاهة المشارب والأفكار والعقائد فالقرآن دليلنا، (وكذلك الحال بالنسبة للروايات، فإذا اختلطت علينا يجب أن نختار ما يتطابق منها مع القرآن)، ﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾.

٤ ـ العذاب الإلٰهيّ يأتي بعد إتمام الحجّة على الناس، ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ... لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾.

٥ ـ هذه الآية بمثابة تسلية لخاطر النبي الكريم ﷺ والمؤمنين بأنّ الله سيحاسب الكفّار حساباً عسيراً، ﴿عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

٦ ـ سبب العذاب والانتقام الإلٰهيّ هو أعمالنا؛ لأنّ الله هو العزيز الذي لا ينقصه شيء، ﴿عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

٧ ـ عصيان الناس وكفرهم لن يؤثّر في الله ﷻ، ﴿كَفَرُواْ... وَٱللَّهُ عَزِيزٞ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾

إشارات:

□ جرى الحديث في الآيات السابقة عن صفة القيّوم لله تعالى، وهذه الآية تبيّن انكشاف كلّ شيء لله وأنّه ناظر على كلّ شيء وهذا مظهر بارز من مظاهر قيّوميته تعالى.

التعاليم:

١ ـ إنّ الله تعالى مطّلع على كل شيء، إنّنا وكلّ الخلائق حاضرون بين يدي الله في كلّ لحظة، فلنحذر ارتكاب المعاصي في حضرته سبحانه. وفي ضوء الآية

السابقة، يستفاد هنا أنّ كفر ومعصية أيّ شخص لا تخفى على الله، ﴿كَفَرُوا...﴾.

٢ ـ لن يخفى تعدّدُ أيّ من الأفراد والأعمال والأمكنة والأزمنة عن الله تعالى أيَّ مسألة، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑥﴾

إشارات:

- إنّ تصوير الجنين في رحم أمّه، مظهر آخر من مظاهر قيّوميّة الله تعالى التي أُشير إليها في الآيات السابقة.
- لقد ورد موضوع تصوير الإنسان في رحم أمّه بين آيتي نزول الكتاب، ولعلّ المراد من ذلك هو أنّ الله الذي صوّركم في الأرحام، هو نفسه الذي يهيّئ لكم رشد مستقبلكم الأبدي من خلال تشريع القوانين والأحكام الإلٰهيّة وتنزيل الكتب السماوية.
- وإن تأثير كلّ من العوامل الوراثية والصحية والغذائية أو النفسية على تركيب صورة وجسم الأفراد هو من السنن الإلٰهيّة، وكلها تدور في مدار قدرته وتدبيره وحكمته.

التعاليم:

١ ـ مصدر التكوين والتشريع واحد، فالذي بعث لكم الكتاب لهدايتكم هو نفسه الذي خلقكم، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ... يُصَوِّرُكُمْ﴾.

٢ ـ تصوير الإنسان في رحم أمّه، بيد الله وحده، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾.

٣ ـ أما وإنّ التصوير بيد الله تعالى، فلا يسخرنّ أحدنا من الآخر بسبب الشكل والصورة، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾.

٤ ـ تدبّر الإنسان في خلقه حافز لإيمانه بالله تعالى، ﴿يُصَوِّرُكُمْ... لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

٥ ـ إنّ الله قادر على فعل كلّ شيء؛ ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ولكن ليس بما يخالف حكمته، ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٦ ـ صور البشر المختلفة دلائل على قدرته وحكمته، ﴿يُصَوِّرُكُمْ... ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

☐ تثير الآية عدّة أسئلة هي:

سؤال: لقد وصف القرآن الكريم الآيات بأنهنّ محكمات: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[1]، وفي موضع آخر قال عنها إنّها جميعاً متشابهات: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[2]، وهنا يقول إنّ بعضها محكم وبعضها الآخر متشابه، فكيف نفسّر ذلك؟

الجواب: في الموضع الذي وصف جميع الآيات بالمحكمات فإنّه يعني قوّة الترابط والتماسك وأنّه لا يعتورها أيّ وهن أو قصور، وعندما قال عنها القرآن الكريم إنّها متشابهات فالمقصود بذلك هو تماثل نسق الآيات القرآنية وإيقاعها.

ولكن مع ذلك إذا أخذنا مستوى فهم الناس بالاعتبار، ليس جميع الآيات متشابهة، فهناك آيات صريحة وواضحة، ومفهومة للجميع، وهناك آيات تستبطن معاني عميقة ومعقدة يجعلها موضع شبهة واشتباه من قبل الناس.

سؤال آخر: ما الحكمة من نزول آيات متشابهات في القرآن الكريم؟

الجواب:

أوّلاً: إنّ وجود آيات متشابهات يتيح للمرء أجواءً من التفكّر والتدبّر في القرآن الكريم.

(١) سورة هود: الآية ١.
(٢) سورة الزمر: الآية ٢٣.

ثانياً: وجود هذه الآيات يخلق ضرورة لدى الناس في الرجوع إلى أئمّة الدين، فمثلاً لو كانت الدروس كلّها سهلة خالية من أيّ تعقيد لما شعر الطالب بالحاجة إلى الأستاذ أساساً.

ثالثاً: الآيات المتشابهات وسيلة لاختبار الناس. فالفئة المنحرفة والضالة توظّف هذه الآيات لأغراضها الدنيئة، فيما تعمل الفئة العالمة من خلال مراجعة الآيات المحكمات على التدبّر في الآيات وكشف معانيها الصحيحة، حيث يقول الإمام الرضا عليه السلام في هذا السياق: «**من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم**»(١).

سؤال ثالث: هل لكم أن تقدّموا أمثلة على الآيات المتشابهات في القرآن الكريم؟

الجواب: نقرأ في القرآن: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢)، فالعقل السليم يرفض التجسيم لله تعالى، وقد ورد في آيات أخرى في القرآن الكريم: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾(٣)، ومن مقارنة الآيتين الكريمتين نستنتج أنّ النظر إلى الله في الآية الأولى نظر إلى ألطافه وثوابه في يوم القيامة.

كما أنّنا نستشفّ من الآية ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(٤) أنّ المراد من ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ هو القدرة أو السلطة، كما نقول في دارج القول إنّ فلاناً له يد طولى في الدائرة الفلانية أو المدينة الفلانية، وإلّا فإنّ الله ليس له جسم أساساً فضلاً عن أن يكون له يد أو رجل، فالقرآن الكريم يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٥).

ربّما دفع هذا النمط من الآيات إلى انحراف بعض البسطاء الذين لا يأخذون السياق العام لبقيّة الآيات والذين انقطعوا عن المفسّرين الحقيقيين للقرآن، أعني، أهل بيت النبي عليهم السلام، وقد تكون هذه المحاذير وراء الحثّ على التعوّذ بالله من الشيطان الرجيم عند الشروع بتلاوة آيات القرآن، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(٦).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢، ص١٨٥.
(٢) سورة القيامة: الآية ٢٣.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
(٤) سورة الفتح: الآية ١٠.
(٥) سورة الشورى: الآية ١١.
(٦) سورة النحل: الآية ٩٨.

سؤال: ما معنى تأويل القرآن؟

الجواب هو: لعلّ المراد بالتأويل هو الكشف عن الأهداف والمعارف والأسرار الخفيّة المستترة وراء الستار.

كما في تأويل رؤيا النبي يوسف عليه السلام التي اتّضحت أسرارها في ما بعد، أو خرق الخضر والنبي موسى عليهما السلام السفينة فبانت أسباب ذلك بعد حين.

- ❑ وفي الروايات نقرأ: أنّ الآيات الناسخة هي الآيات المحكمات والآيات المنسوخة هي المتشابهات، وأنّ الأئمة المعصومين عليهم السلام هم التجسيد الكامل للراسخين في العلم[1].
- ❑ ويقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة[2] «**واعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب**».

التعاليم:

١ ـ ليس كلّ امرئ يفهم جميع آيات القرآن الكريم، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾.

٢ ـ القلوب الفاسدة منبع الفساد والفتن، ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾.

٣ ـ ليست الفتنة العصيان العسكري أو الظاهري فحسب، بل إنّها أيضاً التفسير بالرأي وتحريف سياق القرآن ومعانيه، ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾.

٤ ـ أحياناً يكون الحقّ والحقيقة شمّاعة الباطل، ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾.

٥ ـ الغاية والمقصد النهائي لآيات القرآن الكريم هو الله تعالى والراسخون في العلم، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾.

٦ ـ ورد اسم الراسخين في العلم مع اسم الذات الإلٰهيّة المقدّسة، وما ذلك إلّا لمقامهم السامي بعد المقام الإلٰهيّ، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٩١.

٧ ـ العلم درجات، أرفعها الإحاطة بالتأويل وبلوغ الهدف النهائي، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.
٨ ـ العالم الحقيقي منزّه عن الغرور والكِبر، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.
٩ ـ النزوع نحو الباطل، يحول دون تسلّق المرء لدرجات العلم العليا. لقد وردت عبارة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ في قبال ﴿فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾.
١٠ ـ لا يصحّ إنكار ما أشكل فهمه واستيعابه علينا، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾.
١١ ـ نزول الآيات المحكمات والمتشابهات يدخل في نطاق الإعداد والتأهيل، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ حذارِ من الغرور العلمي، ولنسأل الله الهداية، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا...﴾.
٢ ـ العلامة الفارقة على العلم الحقيقي والرسوخ فيه التوجّه إلى الله وطلب العون منه، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ... رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾.
٣ ـ القلب والأفكار الإنسانيّة قطب الهداية أو الضلال، ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾.
٤ ـ التزام النهج بحذافيره ليس وحده المهم، بل عدم الخروج عن النهج له أهميّة استثنائية، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا...﴾.
٥ ـ الهدية والهبة الحقيقيّة من عند الله وحده، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

❑ المؤمن بيوم القيامة؛ ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا يفتأ يراقب نفسه ويخشى عاقبته، فيطلب من الله المدد والعون.

❑ عناصر نقض العهد هي الغفلة والعجز والخوف والجهل أو الندم، وليس لأيّ منها سبيل إلى الذات الإلٰهيّة المقدّسة، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

التعاليم:

١ ـ أنظار الراسخين في العلم موجّهة صوب المستقبل ويوم القيامة، ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ...﴾.

٢ ـ التأمّل في الحالات الروحانية في الدنيا؛ ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ ومسؤولية الأعمال في الآخرة، علامة العالم الحقيقي، ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٣ ـ يوم القيامة هو يوم الحشر حيث يجمع الناس في مكان واحد للحساب؛ ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾، وفي الوقت ذاته، إنّه يوم الفصل، حيث يذهب كلّ امرئ بعد انتهاء المحكمة الإلٰهيّة إلى الموقع المخصّص له، ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾[1].

٤ ـ الراسخون في العلم يوقنون بيوم القيامة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأنّهم يوقنون بوفاء الله تعالى بوعوده التي قطعها، ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ «الوقود» من: وقدت النار تقد وقوداً ووقداً، والوقود يقال للحطب المجعول للوقود، ولما حصل من اللهب. إنّ نار جهنّم مستعرة بشيئين: البشر المذنبون والحجارة؛ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[2]، نعم، إنّ خصال الإنسان وأفكاره وأعماله تغيّر من جوهره وتمسخ هويّته، لدرجة أنّه يصبح وقوداً وحطباً لجهنّم، ويكون سبباً في إدامة أوارها.

□ لا يقوى أحد، غير الله، على تلبية الاحتياجات الحقيقيّة للإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالإنسان في كلّ الأحوال لا يستغني عن عون الله ومدده.

---

(١) سورة النبأ: الآية ١٧. (٢) سورة البقرة: الآية ٢٤.

التعاليم:

١ ـ على الرغم من حديث الآية الكريمة عن الكافرين، إلا أنّه ينبغي تعميم المعنى، وألّا نغترّ بالأموال والأولاد. فتعلّق القلب بغير الله، مهما كان، منفور ولا طائل من ورائه، ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾.

٢ ـ الكفر يُخرج الإنسان من مدار الإنسانيّة، وينزل به إلى مستوى الجماد والأشياء الطبيعية، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ بعد عرض النقاط العامة، يلزم طرح الأمثلة، ﴿كَفَرُواْ... كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

٢ ـ تاريخ الماضين وتجاربهم من أبلغ المواعظ والدروس، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ...﴾.

كان فرعون وملأُه رمزاً للسطوة والقوّة، إلَّا أنّهم لم يصمدوا أمام غضب الله تعالى لحظة واحدة، فلا تغترّ أيّها الإنسان بسقط المتاع من المال والسلطة.

٣ ـ أحياناً لا يقلّ دور الحاشية عن دور الطاغوت نفسه، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

٤ ـ المعصية قبيحة، ولكن الأقبح منها الاعتياد عليها وصيرورتها طبعاً، وروح المعصية، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ...﴾.

٥ ـ الخصال والأساليب والأعمال والمعاصي المتشابهة لها ثواب أو عقاب مشابه، ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

٦ ـ المعاصي هي أحد أسباب هلاك الأمم، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

٧ ـ عندما تمتزج المعصية بنفسيّة الإنسان وتصبح له عادة، يكون عقاب الله شديداً، ﴿كَدَأْبِ... شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

❑ ورد في التفاسير مجمع البيان والكبير للفخر الرازي وتفسير المراغي أنّه بعد معركة بدر وانتصار المسلمين قال فريق من اليهود: إنّه النبي الأميّ الذي بشّرنا به موسى عليه السلام ونجده في كتابنا بنعته وصفته، وأنّه لا تردّ له راية، ثمّ قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى واقعة أخرى.

فلمّا كان يوم أحد في السنة الثالثة للهجرة، حيث نُكب أصحاب رسول الله ﷺ اغتبط اليهود لهذه الهزيمة، فنزلت الآية لتقول ألّا تعجلوا وإنّ الحساب قريب وأنّكم جميعاً ستكونون عمّا قريب من المغلوبين. ولم يمض وقت طويل حتى تحقّقت نبوءة القرآن الكريم فانقضّ المسلمون على معاقل يهود بني قريظة وبني النضير في المدينة فاندحروا وتلاشت جموعهم، كما استأصلوا شأفة المشركين يوم فتح مكّة حيث هزموا هزيمة نكراء. وربّما تشير الآية إلى هزيمة الكفّار في العالم مع ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ تسلية المؤمنين وتهديد الكافرين، دليل على القيادة الراجحة والإيمان بالهدف، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾.

٢ ـ إحدى معجزات القرآن الكريم نبوءاته الصادقة، ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾.

٣ ـ الحقّ ظاهر والكفر زاهق، ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾.

٤ ـ لنتصدّ لشائعات العدو ودعايته المسمومة، ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾.

٥ ـ احذروا الهزائم التي تؤدّي إلى النار، وأما الهزائم الدنيوية فإنها أمر محتمل في كلّ معركة، ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

❑ نزلت هذه الآية في معركة بدر عندما تقابل المشركون والمؤمنون.

ويذكر المؤرّخون أنّ عدد المسلمين في ذلك اليوم كان ٣١٣ شخصاً، منهم ٧٧ من المهاجرين، و٢٣٦ من الأنصار. وكان لواء المهاجرين بيد علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان سعد بن عبادة صاحب لواء الأنصار، ولم يكن عتادهم يتجاوز ٧٠ بعيراً، وفرسين وستّة دروع، وثمانية سيوف في وجه عدوّ يزيد عدده على الألف، مع الكثير من السلاح ومئة فرس، وقد انتصر المسلمون بتقديم ٢٢ شهيداً «١٤ من المهاجرين و٨ من الأنصار» في مقابل ٧٠ قتيلاً و٧٠ أسيراً من الأعداء.

❑ لم تكن معركة بدر متوقعة مسبقاً، وكان الهدف هو مصادرة أموال الكفّار انتقاماً لمصادرة أموال المهاجرين من مكّة، والتي انتهت إلى نشوب هذه المعركة، ﴿فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾.

❑ **سؤال**: تطالعنا الآية الكريمة بأنّ الكفّار كانوا يرون جند المسلمين ضعف عددهم؛ ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾، بينما تشير الآية ٤٤ من سورة الأنفال إلى أنّ المشركين كانوا يرون المسلمين قلّة، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، فكيف يمكن تفسير ذلك؟

الجواب على ذلك: من الممكن أن يقال: في بداية المعركة ظهر المسلمون قلّة في أعين الكفّار حتى يتجرأوا على مهاجمتهم وعدم طلب النجدة من كفّار مكّة، ولكن عندما حمي وطيس المعركة ظهر المسلمون في أعين الكفّار بأعداد مضاعفة، فكان ذلك سبب هزيمتهم.

من هنا، فإنّ تفسير الظهور كقلّة ثمّ بأعداد مضاعفة كان في مرحلتين مختلفتين، لذا، فلا تناقض في القولين[١].

التعاليم:

١ ـ يجب أن يكون الجهاد والحرب في سبيل الله ومن أجل نصرة دينه، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ جند الإسلام ينبغي أن يكون لهم هدف واحد، ﴿فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ تتغيّر الأنظار والأفكار والتصوّرات بمشيئة الله وإذنه. نفس العين رأت جموع المسلمين أعداداً مضاعفة، ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾.

٤ ـ من المدد الغيبي بثّ الرعب في قلوب الأعداء، ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ... وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾.

٥ ـ برهنت معركة بدر على أنّ إرادة الله فوق إرادة الخلق، والإمكانات المادّيّة وحدها ليست عاملاً حاسماً في تحقيق النصر، ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

٦ ـ نعم، إنّ الله ينصر من يشاء؛ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ لكن، شرط النصرة هو أن ينهض الناس لنصرة الدين، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي موضع آخر يقول ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[٢].

٧ ـ الهدف من سرد التاريخ هو استلهام الدروس والعبر، ﴿لَعِبْرَةً﴾.

٨ ـ حوادث التاريخ وإن كانت تحمل عبراً ودروساً للجميع؛ ﴿كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾، إلّا أنّ استيعاب تلك الدروس يحتاج إلى نفاذ البصيرة والوعي، ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

٩ ـ أولئك الذين لم يعتبروا من معركة بدر، لا بصيرة لهم، ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

---

(١) تفسير الصافي.

(٢) سورة محمّد: الآية ٧.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- «**قناطير**» جمع «**قنطار**» وهو العقدة الكبيرة من المال، و﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ اسم مفعول وهي جمع الجمع، وتعني المضاعفة، واستتباعها لكلمة قناطير هو لغرض التأكيد، كما في قولنا مثلاً: آلاف مؤلّفة.

﴿ٱلْخَيْلِ﴾ اسم جمع للفرس لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والنساء والإبل ونحوها، وتطلق على الفرسان أيضاً، و﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ بمعنى المعلّمة، من السيما وهي العلامة. ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ هي الخيول الأصيلة التي تمتاز بجمالها أو ترويضها فتكون ذات مفاتن وعضلات خاصة.

- تزيين الدنيا في نظر الإنسان يحصل تارةً عبر التحليق في آفاق الخيال، وتارةً أخرى بواسطة الشيطان، وثالثة، من خلال وساوس الشيطان أو المتزلّفين المحيطين بالإنسان. فعن طريق الخيال الشخصي كما في الآية: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١]، و﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[٢]، وبواسطة الشيطان طبقاً لـ: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[٣]، وأخيراً من خلال المتزلّفين المحيطين بالإنسان كما في: ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[٤].

- لقد أخذت أمثلة التزيّن الدنيوي المذكورة في الآية الكريمة، بالاعتبار ظروف عصر النزول وأحواله؛ لذلك يمكن أن يكون لأيّ عصر أمثلته ومصاديقه الخاصّة به في التزيّن. فالذهب والفضة كناية عن اكتناز الثروة، والخيل رمز للمركب ووسيلة النقل.

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.
(٢) سورة فاطر: الآية ٨.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٨.
(٤) سورة غافر: الآية ٣٧.

□ **سؤال**: إذا كان الله تعالى هو الذي زيّن لبني البشر حبّ المال والأولاد؛ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١)، فلماذا إذن تلبّست هذه الآية بلهجة التقريع والتوبيخ؟

الجواب هو: أنّ زينة الشيء تختلف عن عمليّة التعلّق به. ففي هذه الآية توبيخ على الإفراط والوله الشديد بالأشياء والتي عُبّر عنها بجملة ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

□ و﴿ٱلْبَنِينَ﴾ تشمل البنات أيضاً، كقولنا على سبيل المثال: على السابلة أن يمشوا على الرصيف، وهنا كلمة السابلة تشمل النساء أيضاً.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما تلذّذ الناس في الدنيا والآخرة بلذّة أكثر لهم من لذّة النساء، وهو قول الله** عزّ وجلّ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى آخر الآية، ثمّ قال: «**وإنّ أهل الجنّة ما يتلذّذون بشيءٍ في الجنّة أشهى عندهم من النكاح لا طعام ولا شراب**»(٢).

وبهذا يتبيّن لنا الحكمة من تقدّم كلمة ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ على سائر ما ذكر في الآية.

التعاليم:

١ ـ إنّ النزوع الطبيعي للّذائذ المادّية مغروس في فطرة كل إنسان، لكنّ الخطورة تكمن في الانغماس الذي قد تجرّه هذه اللذائذ والزينة وبالتالي عدم كبح الشهوات، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾.

٢ ـ زينة الدنيا تسلب لبّ الناس العاديين لا الحكماء، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾؛ فامرأة فرعون حكيمة التاريخ زهدت في القصور والذهب والجواهر، ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾(٣).

٣ ـ الإفراط في الوله بالمرأة والأولاد مدعاة لتعلّق الإنسان بحبائل الدنيا، ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾.

٤ ـ حذارِ، فزينة الدنيا مقدّمة للغفلة عن الآخرة، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ... وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٦.
(٢) الكافي، ج ٥، ص٣٢١.
(٣) سورة التحريم: الآية ١١.

ٱلْمَـَٔابِ﴾.

٥ ـ أحد عوامل سوء العاقبة التعلّق الشديد بالدنيا؛ لأنّ حسن العاقبة من عند الله، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ... وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

٦ ـ أحد الأساليب في إعداد النفس وتهذيبها هو التقليل من شأن اللذائذ المادّيّة وتعظيم شأن القيم المعنوية، ﴿ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

٧ ـ أفضل طريق لكبح الأهواء الجامحة الطاغية، مقارنتها بالألطاف الإلٰهيّة الأبدية، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ تحدّثت العبارة الأخيرة من الآية السابقة عن حسن العاقبة؛ ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾، وتستكمل هذه الآية المشهد فترسم ملامح الفردوس التي أعدّت للصالحين.

التعاليم:

١ ـ في دعوة الناس إلى الحقّ، يجب أن ندعوهم إلى مقارنة الدنيا بالآخرة، ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ...﴾.

٢ ـ أين لذائذ الدنيا العابرة والزائلة من خلود الجنّة ورضا الله تعالى؟ ﴿ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا... قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾.

٣ ـ لا يفتتن المتّقون ببهارج الدنيا وزينتها، فقوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ في هذه الآية في قبال كلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ في الآية السابقة.

٤ ـ التقوى معيار حصول الناس على نعم الآخرة، ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾.

٥ ـ يجب أن يتناسب الترغيب مع الرغبات والأهواء الطبيعية والفطرية للإنسان، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ، أَزْوَٰجٌ، خَٰلِدِينَ﴾.

٦ ـ العفة والطهارة، أسمى قيمة، ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

٧ ـ لذائذ المتّقين لا تنحصر في الماديّات فحسب؛ لأنّ رضا الله تعالى أسمى لذّة معنوية، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٨ ـ ينبغي ألّا تكون التقوى في إطار الادّعاءات الجوفاء، فالله بصير وعليم، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ما فتئ المتّقون في إنابة ودعاء، ﴿يَقُولُونَ﴾.

٢ ـ الإيمان مقدّمة للعفو الإلٰهيّ، ﴿ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٣ ـ العفو من شؤون الربوبيّة ومن لوازم الإعداد والتربية، ﴿رَبَّنَآ... فَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٤ ـ الخشية من غضب الله وعذابه، من علائم التقوى، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

٥ ـ لا تطمئنّوا إلى أعمالكم الصالحة، واخشوا من غضب الله وعذابه حتى لو كنتم من أهل التقوى، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

❑ للمؤمنين المتّقين خصائص ومزايا نذكر منها:

١ ـ الصبر في المصاعب، والصبر عن المعصية والصبر على أداء التكاليف والواجبات.

٢ ـ الصدق في القول والعمل.

٣ ـ التواضع والخشوع في تطبيق الأحكام، والفرار من الغرور والشعور بالتفوّق والاستعلاء.

٤ ـ الإنفاق ممّا رزقهم الله تعالى.

٥ ـ مناجاة الله في الأسحار والاستغفار. نعم! إنّ الأسحار أفضل الأوقات للدعاء، ولا غرو، فهي مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء.

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّ المراد بالاستغفار في الأسحار، هو المصلّين وقت السحر(١).

كما ورد في بعض الروايات: «من قال في وتره إذا أوتر: (أستغفر الله وأتوب إليه) سبعين مرة وهو قائم فواظب على ذلك حتى تمضي له سنة كتبه الله من المستغفرين بالأسحار ووجبت له المغفرة من الله تعالى»(٢).

سأل أبو بصير الإمام الصادق عليه السلام عن الآية ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فقال:

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر سبعين مرّة في صلاة الوتر(٣).

التعاليم:

١ ـ ينبغي أن تقترن مساعدة الخلق بعبادة الخالق، ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

٢ ـ التقوى لا تعني الانعزال والانزواء، والابتعاد عن مجريات العالم، بل يجب على المتّقي أن يجمع بين الكمالات والمحاسن، ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ...﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) تفسير أطيب البيان؛ من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٣٠٩.

(٣) تهذيب الأحكام، ج٢، ص١٢٠.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- إنّ الله تعالى بخلقه نظام الكون الواحد، يشهد بوحدانيّة ذاته المقدّسة، أي إنّ النظام والنسق الموجود في عالم الخلق كلّه يشهد على حاكميّة قدرة موحّدة واحدة على أجزاء هذا الكون، كما نقرأ في دعاء الصباح للإمام علي عليه السلام: «يا مَن دلّ على ذاته بذاته».
- وعن الإمام الباقر عليه السلام في المراد من «أولوا العلم»: «... وأمّا قوله: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ فإنّ أولي العلم الأنبياء والأوصياء وهم قيام بالقسط، والقسط العدل في الظاهر، والعدل في الباطن»[1].
- إنّ التعدّدية دليل على المحدوديّة والتجزيئية، فالبيت الذي لا تحدّه حدود ليس سوى بيت واحد، وإذا قلنا: إنّ نور هذا المصباح لا نهاية له، فمعنى ذلك أنّه لم يدع مجالاً لمصباح آخر لكي ينشر نوره. إنّ الله لا نهاية أو حدود تحدّه، فلو كان ينتهي أو له حدود تحدّه، لأصابه العدم، وبالتالي لا تعدّد أو تكثّر لما لا نهاية له، لذا، فالله تعالى واحد لا يقبل الكثرة أو التعدّد.

التعاليم:

١ ـ الشهادة العمليّة أبلغ أنواع الشهادات. الانسجام والتنسيق بين الخلائق أصدق مثال على وحدانيّة الله، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢ ـ طريق الإيمان بالله هو العلم، والعلم الحقيقي يأخذ بيد الإنسان إلى ينابيع الوجود، ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾.

٣ ـ العلماء جنباً إلى جنب مع الملائكة، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

٤ ـ العدل الإلهيّ مقرون بالتوحيد. فعلى العكس من المتجبّرين الذين يظلمون متى ما شعروا بالانفراد في الساحة وغياب المنافس أو الشريك، فإنّ الله واحد ومع ذلك قائم بالعدل والقسط، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ... قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾

التعاليم:

١ ـ الإيمان بوحدانيّة الله سبحانه وبعدله وعزّته وحكمته (كما ورد في الآية السابقة) يفضي إلى إسلام الإنسان وتسليمه لله، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾.

٢ ـ شرط التسليم لله تعالى الإيمان بالإسلام بوصفه آخر الأديان السماوية، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾.

٣ ـ تجاوز حدود الحقّ سبب لبروز الاختلافات، ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ... بَغۡيَۢا﴾.

٤ ـ منشأ بعض النزاعات المذهبية هو الحسد والظلم؛ لا الجهل وعدم المعرفة، ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾.

٥ ـ الحسد مقدّمة للكفر، ﴿بَغۡيَۢا... وَمَن يَكۡفُرۡ﴾.

٦ ـ ليس بالكتاب والعلم فقط ينجو الإنسان، ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ... جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ... وَمَن يَكۡفُرۡ﴾.

٧ ـ أولئك الذين يزرعون بذور الخلاف عن وعي وإرادة، سرعان ما يلقون جزاءهم، ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾

إشارات:

□ ما يقال من أنّ حديث القلب يسكن القلب، ليس دائماً صحيحاً، فحديث النبي

الكريم ﷺ كان صادراً من أعماق قلبه لكنّه لم يسكن قلوب الكفّار. فعلى الرغم من أنّه ﷺ كان يقول: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾، إلّا أنّه كانت هناك في المقابل فئة تعرض وتصدّ، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾.

□ إنّ التسليم للحقّ هو قطب الرحى بالنسبة للدين، وقد طرح هذا المفهوم أربع مرّات في الآية السابقة وفي هذه الآية، ﴿الْإِسْلَامُ، أَسْلَمْتُ، ءَأَسْلَمْتُمْ، أَسْلَمُوا﴾.

التعاليم:

١ ـ المحاججة والجدال من خصال المعارضين للأنبياء، ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾.

٢ ـ نعم لإبلاغ الرسالة والاستدلال المنطقي، والإعراض عن محاربة الأشخاص المعاندين، ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ﴾.

٣ ـ لننتهِ من الجدل العقيم الذي لا طائل من ورائه، ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ﴾.

٤ ـ أثناء النقاشات أعلن صراحةً عن مواقفك ومواقف من يتّبعك، ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ... وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

٥ ـ أتباع النبي الحقيقيون هم الذين يسلمون وجههم لله تعالى، ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ... وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

٦ ـ تواصل الإنسان مع ربّه هو الذي يصونه من الحوارات المغرضة، ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾.

٧ ـ لقد أسلم الأنبياء بكلّ جوارحهم ومن أعماق قلوبهم لله تعالى، ﴿وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾.

٨ ـ دائرة اهتمام القائد ينبغي أن تشمل المثقفين وبسطاء الناس كذلك، ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾.

٩ ـ الكتب السماوية وثيقة حضارية قيّمة للمجتمعات الإنسانية. تقسّم الآية الكريمة الناس إلى فئتين، المثقفون وعامة الناس، ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾.

١٠ ـ الهداية الحقيقيّة تتحقّق في ظلّ التسليم لله تعالى، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾.

١١ ـ الإنسان مخيّر في اختيار الطريق وليس مجبراً، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا... وَإِن تَوَلَّوْا...﴾.

١٢ ـ لا يكفي العلم والكتاب وحدهما، فربّما وجد علم دون تسليم، ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ... وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾.

١٣ ـ نحن مأمورون بأداء التكاليف وليس علينا ضمان النتائج، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

١٤ ـ لقد أتمّ الله الحجّة على الناس حين أرسل إليهم الرسل، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

□ جاء في التفسير الكبير ومجمع البيان وتفسير القرطبي: قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيّاً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مئة واثنا عشر رجلاً من عبّاد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعاً في آخر النهار من ذلك اليوم، وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية.

ومن الواضح أنّ الذين وعظوا بهذا في زمن النبي الكريم ﷺ لم يكونوا من هذه الفئة أي لم يقتلوا الأنبياء؛ ولكنهم رضوا بفعل أسلافهم وأجدادهم فكانوا بمنزلتهم؛ والله تعالى في هذه الآية يهدّد أولئك الذين ارتضوا قلبياً أعمال الأجداد والأسلاف معتبراً إيّاهم شركاء في جرائمهم، مخاطباً إيّاهم بعبارة ﴿فَبَشِّرْهُم﴾.

□ **سؤال**: لعلّ سائلاً يسأل، لقد ورد في شروط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ألّا يعرّض الآمر والناهي نفسه لمكروه أو خطر، في حين نجد أنّ الآية الكريمة تثني على الذين ينهون عن المنكر حتى التضحية بأنفسهم، فما هو تفسير ذلك؟

الجواب: **أوّلاً**: تختلف ظروف الأشخاص وطبيعة المعروف والمنكر؛

فأحياناً يكون المنكر حكومة يزيد وينبري الإمام الحسين عليه السلام إلى النهي عنه فيسير إلى كربلاء وأهل بيته فيستشهد هناك حيث يقول في ذلك: «**أُرِيدُ أَنْ آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهى عَنِ الْمُنْكَرِ**»[١]، ولكن، في أحيانٍ أخرى قد لا يكون المنكر بهذا المستوى، بل في إطار ارتكاب معصية، وفي مثل هذه الحالة تتحتّم المقايسة بين خطر ومفسدة المعصية وبين ذهاب المال والأنفس والشرف، وفي ضوء ذلك يكون العمل وفق الخيار الذي يحظى بالأولوية والأهميّة.

ثانياً: ربّما كان المراد بمن أثنت عليهم الآية الكريمة هنا أولئك الذين انبروا للنهي عن المنكر دون أن يتوقّعوا الشهادة في هذا الطريق، لكنّ الظالمين دفعوا بهم إلى هذا المصير.

التعاليم:

١ ـ نتيجة الإيمان بالمعتقدات الخرافية والتكفيرية ارتكاب الأعمال الخطيرة مثل قتل الأنبياء، ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ...﴾.

٢ ـ تستدعي الظروف، في بعض الأحيان، قول كلمة الحقّ، وإن كان الثمن شهادة الأنبياء والأولياء.

٣ ـ لا يتورّع الأعداء عن قتل الأنبياء من أجل التصدّي للحقّ، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾.

٤ ـ يصوّر الطواغيت أحياناً قتلهم الصلحاءَ بأنّه الحقّ، وذلك عبر إثارة الضجيج الإعلامي والدعائي وبثّ الإشاعات وطرح التفسيرات والأعذار، ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٥ ـ ورد اسم الداعين إلى العدل والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في مصاف الأنبياء؛ لذا فإنّ قتلة هؤلاء هم بمثابة قتلة الأنبياء، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٢٩.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ انحراف الشخص يؤدّي أحياناً إلى حبط جميع أعماله، ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾.

٢ ـ بعض المعاصي لا تنفع معها الشفاعة مثل قتل الأنبياء، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

❑ روي في التفاسير: عن ابن عباس أنّه حدث على عهد رسول الله ﷺ أن يهودياً زنى بامرأة محصنة، وعلى الرغم من أنّ ما جاء في التوراة يقضي بالرجم على أمثال هؤلاء، إلّا أنّهما لم يُرجما لأنّهما كانا من الأشراف، واتّفق اليهود على الرجوع إلى رسول الإسلام ﷺ ليكون هو الحكم آملين أن ينالا عقاباً أخفّ. غير أنّ رسول الله ﷺ أيّد العقاب المعيّن لهما، فاعترض بعض كبار اليهود على حكم الرسول ﷺ، وأنكروا أن يكون عند اليهود مثل هذا العقاب. فقال رسول الله ﷺ «بيني وبينكم التوراة» فوافقوا، واستدعوا «ابن صوريا» أحد علمائهم من فدك إلى المدينة، وعند وصوله عرفه النبي ﷺ، وسأله: أأنت ابن صوريا؟ قال: نعم، فقال: أأنت أعلم علماء اليهود؟ قال: هكذا يحسبونني، فأمر رسول الله ﷺ أن يفتحوا أمامه التوراة حيث ذكر الرجم ليقرأه، ولكنّه لمّا كان مطّلعاً على تفاصيل الحادث قرأ جانباً من التوراة، وعندما وصل إلى عبارة الرجم وضع يده عليها وتخطّاها ولم يقرأها وقرأ ما بعدها، فأدرك «عبد الله بن سلام» ـ الذي كان من علماء اليهود ثمّ أسلم ـ مكر ابن صوريا وقام إليه ورفع يده عن الآية وقرأ ما أخفاه بيده قائلاً: تقول التوراة، على اليهود، إذا ثبت زنا

المحصن بالمحصنة رجماً، فأمر رسول الله ﷺ أن ينفّذ العقاب بحقّهما بموجب شريعتهم فغضب بعض اليهود، فنزلت هذه الآية[١].

□ والآية الكريمة تحمل تحذيراً للمسلمين لئلا يفعلوا أفعال اليهود ويضعوا كتاب الله وأحكامه وراء ظهورهم، ويميّزوا بين الناس في العقوبات.

التعاليم:

١ ـ الكتاب السماوي هو كتاب قانون وحكم وقضاء، ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ﴾.

٢ ـ الإسلام هو دين العدالة واحترام الآخرين. فهو يدعو علماء الأديان الأخرى ليجعلوا من كتابهم المقدّس حكماً فصلاً، ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ﴾.

٣ ـ لم يكن جميع علماء الأديان الأخرى سيئين، ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾.

٤ ـ الأخطر من الإعراض هو قصد الإعراض واللجاج، ﴿يَتَوَلَّىٰ... مُّعْرِضُونَ﴾.

٥ ـ يجب تطبيق القانون على الجميع دون تمييز، (في ضوء سبب النزول).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

□ مرّات عديدة تستعرض آيات القرآن الكريم أباطيل اليهود وأوهامهم، ومن جملتها أنّهم شعب الله المختار، وأنّهم العنصر البشريّ المتفوّق، وأنّ الله تعالى لن يعاقبهم في يوم القيامة إلّا ٤٠ يوماً وهي الفترة التي عبد فيها

---

(١) ورد حكم رجم الزاني والزانية في التوراة في سفر التثنية، الإصحاح ٢٢ (يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت)، وفي سِفر اللاويين، الإصحاح ٢٠، «وإذا زنى رجل مع امراة فإذا زنى مع امراة قريبة فإنّه يقتل الزاني والزانية».

أجدادهم العجل في غياب موسى ﷺ، ولعلّ هذه الأوهام والخرافات هي التي أشعلت فيهم نار الغرور والانحراف. واليوم، يعيد التاريخ نفسه، حيث تؤمن إسرائيل بتفوّق العنصر اليهودي، وهي لا تتورّع عن ارتكاب أيّ عمل متعسّف من أجل إثبات هذه المقولة الوهم.

التعاليم:

١ ـ سبب الإعراض هو المعتقدات والخرافات الخاوية التي لا أساس لها، ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ...﴾.

٢ ـ النظرة الاستعلائية ممنوعة ومدانة سواء كانت على أساس الدين الباطل أو العرق، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾.

٣ ـ الشعور بالأمن والحصانة من العقاب مدعاة للضلال، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾.

٤ ـ كان اليهود يؤمنون بالقيامة والنار ويقرّون بخطاياهم، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

٥ ـ جميع الناس سواسية في محكمة العدل الإلٰهيّة، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ... وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لنذكر يوم القيامة وندع الخرافات جانباً، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ... فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ﴾.

٢ ـ الثواب والعقاب على أساس العمل، لا الظنّ والأماني، ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ... وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

٣ ـ ما من عمل لا أثر له، بل يرجع أثره على صاحبه، ﴿وَوُفِّيَتْ... مَّا كَسَبَتْ﴾.

٤ ـ ميزان المحكمة الإلٰهيّة هو العدل، وسوف يلقى كلّ إنسان فيها جزاءه، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

- ذكرت التفاسير في سبب نزول هذه الآية: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكفِ محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية».
- وقد قال بعض المفسّرين في سبب نزولها: «كان رسول الله ﷺ والمسلمون مشغولين بحفر الخندق في أطراف المدينة، وانتظم المسلمون في جماعات يحفرون بسرعة وجدّ لكي ينجزوا هذا الخطّ الدفاعي قبل وصول جيش الأعداء، وفجأة ظهرت صخرة كبيرة بيضاء صلدة وسط الخندق عجز المسلمون عن كسرها أو تحريكها، فجاء «سلمان» إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه الأمر، فنزل رسول الله ﷺ إلى الخندق وتناول المعول من سلمان وأنزل ضربة شديدة بالصخرة، فانبعث منها الشرر، فصاح النبي ﷺ مكبّراً تكبيرة الانتصار، فردّد المسلمون التكبير وراح صوتهم يدوّي في كل مكان، ومرّة أخرى أنزل رسول الله ﷺ معوله على الصخرة فانبعث الشرر وكسرت قطعة منها، وارتفع صوت تكبير الانتصار من النبي والمسلمين بعده، وللمرة الثالثة ارتفع معول النبي ﷺ ونزل على الصخرة، وللمرة الثالثة انبعث الشرر من الضربة وأضاء ما حولها، وتحطّمت الصخرة وارتفع صوت التكبير بين جنبات الخندق.

فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت منك قط، فالتفت رسول الله ﷺ، إلى القوم وقال: رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها

قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنّها أنياب الكلاب، فأخبرني جبرئيل أنّ أمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرئيل أنّ أمّتي ظاهرة عليها، ثمّ ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم أضاءت لي قصور صنعاء كأنّها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرئيل أنّ أمّتي ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون وحمدوا الله. أمّا المنافقون، فقد عبسوا وقالوا بلهجة المعترض: أمل باطل ووعد مستحيل، هؤلاء يحفرون الخنادق خوفاً على أرواحهم من جيش صغير يخشون مواجهته، ثمّ يحلمون بفتح أعظم دول العالم، وعندئذٍ نزلت الآيات المذكورة.

❏ ما ورد في هذه الآية من منح العزّة وإنزال الذلّة من قبل الله، هو طبقاً لقوانينه وسننه، وهو لا يعزّ أحداً أو يذلّه من دون سبب أو وجه، فقد جاء في الروايات على سبيل المثال: من تواضع لله رفعه، ومن تكبّر وضعه الله[1].

يوبّخ القرآن الكريم بشدّة أولئك الذين يطلبون العزّة من غير الله تعالى، ويقول: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾[2].

إذن، العزّة والذلّة بيد الله، ولكن توفير أسبابهما بيدنا نحن البشر.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى هو المالك الحقيقي لجميع الحكومات، وأيّ ملك لغير الله هو ملك محدود وعابر، ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

٢ ـ الله هو المالك، أمّا الآخرون فمؤتمنون عليه فحسب، وعليهم العمل طبقاً لرضا المالك الحقيقي، ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

٣ ـ إن كان الملك لله، فلم إذن يغترّ الإنسان إذا اؤتمن عليه، ويقنط إذا فقده! ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، ص ٢٦٥.
(٢) سورة النساء: الآية ١٣٩.

٤ ـ الله يؤتي الملك والحكم من كان أهلاً له، كما آتى سليمان ويوسف وطالوت وذو القرنين، ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

٥ ـ الحكومة والحاكميّة مغريتان، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾؛ فـ«النزع» هو جذبه من مقره كنزع القوس من الكبد، وفيه دلالة على التعلّق والنزوع.

٦ ـ العزّة والذلّة بيد الله تعالى، فلا يتوقّع أحد العزّة من الآخرين، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾.

٧ ـ التوحيد في الدعاء والعبادة هو ضرورة، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾؛ ورد في المناجاة الشعبانية: «**إلهي بيدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصي**».

٨ ـ كلّ شيء من عند الله هو خير سواء كان أخذاً أو عطاء، وإن كنّا نجهل فلسفة ذلك في أحكامنا المتعجّلة، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾.

٩ ـ منبع الشرور هو العجز والضعف. لا يصدر عمّن يقدر على كلّ شيء إلّا الخير، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- تستعرض هذه الآية وما قبلها ١٢ مرحلة من دلائل قدرة الله تعالى، لتشرق روح التوحيد في أعماق الإنسان.
- والمراد بولوج الليل في النهار أو ولوج النهار في الليل أو التغيير التدريجي في ساعات الليل والنهار خلال فصول السنة المتعاقبة، أو شروق الشمس وغروبها تدريجياً. وبطبيعة الحال، المعنى الأول أوضح وأصحّ.
- تتجلّى قدرة الله تعالى في إخراج الموجودات الحيّة من الميّتة وبالعكس، وخلق الخلية الحيّة من المواد الغذائية التي لا حياة فيها.
- من أمثلة الآية الكريمة هو أنّ الله تعالى يُخرج ـ أحياناً ـ أبناءً مؤمنين ذوي

قلوب حيّة من صلب الكافر، ويخرج أبناءَ كافرين ذوي قلوب ميّتة من صلب المؤمن[1].

- أمّا المراد من الرزق بغير حساب هنا فهو الرزق الوفير الذي لا يحصى، لا أنّ حساب الأرزاق قد خرج من يده، وربّما كان المعنى أنّ هذا الرزق لا تحدّه دائرة حساباتكم، وأنّه يرزقكم من حيث لا تحتسبون.

- إنّ تباين أرزاق الخلق هو إحدى حِكم الله تعالى، وذلك ليحتاج الناس بعضهم بعضاً، وينبروا إلى تشكيل الحياة الاجتماعية، ولتزهر فيهم خصال الكرم والسخاء والإيثار والصبر والقناعة، إذ لو كان الرزق متساوياً لما برزت هذه الخصال وتشخّصت، ولكن في حال امتلك أحدهم نعماً وفيرة، وامتلك الآخر نعماً أقلّ أو أخرى مختلفة، فسوف يسعى الجميع إلى سدّ النقص من خلال اجتماعهم حول بعضهم، فتظهر خصلة السخاء والبذل عند من توافرت له النعم، فيما تظهر صفة القناعة والرضا والعفّة والصبر عند من عدم هذه النعم.

التعاليم:

١ ـ تغييرات الليل والنهار وتعاقب الفصول من بركات الله تعالى وألطافه، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ... تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾.

٢ ـ مضافاً إلى الخلق، فإنّ أيّ تغيير أو تدبير هو بيده سبحانه، ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾.

٣ ـ قدرة الله تعالى غير محدودة؛ فهو يخرج الميّت من الحيّ ويخرج الحيّ من الميّت، ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

٤ ـ منبع الألطاف الإلٰهيّة فيّاض لا ينضب. فالرزق بغير حساب يعني أنّه مصدر لا ينتهي وغير محدود، ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

---

(١) مجمع البيان، ج٢، ص ٧٢٨.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

- في ضوء ما ذكرته الآية السابقة من قدرة غير محدودة لله تعالى، فإنّه لا يبقى مجال للقبول بتسلّط الكفّار وهيمنتهم، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ، تُولِجُ ٱلَّيْلَ، لَّا يَتَّخِذِ...﴾.
- والآية الحاليّة ترسم ملامح السياسة الخارجيّة ومنهج التعامل مع الكفّار وتذكر شروط التقيّة والحيلولة دون سوء استخدامها.
- والتقيّة، تعني كتمان المسلم لعقيدة الحقّ خوفاً من أن يتعرّض لأذى الأعداء وترك النضال ضدّهم درءاً لأخطار أو أضرار أكبر. ولا بدّ من القول إنّ حكم التقيّة يختلف باختلاف الظروف، فقد تكون، أحياناً، واجبة، وقد تكون حراماً، فالقرآن الكريم ذكر التقيّة في الآية ١٠٦ من سورة النحل وهي قد نزلت في الصحابي الجليل عمّار بن ياسر.

التعاليم:

١ ـ لا يجوز للمؤمنين القبول بولاية الكفّار، ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ (لو أنّ مسلمي العالم قد عملوا بهذه الآية لما كانت أوضاع الأمّة الإسلاميّة على ما هي عليه الآن).

٢ ـ في المجتمع المسلم يكون الإيمان الشرط الرئيس للإدارة والقيادة، ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾.

٣ ـ لا ينبغي للعلاقات السياسيّة أن تؤدّي إلى الخضوع لهيمنة الكفّار أو إقامة العلاقات الودّية معهم، ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾.

٤ ـ إقامة العلاقات أو قطعها يجب أن تحكمها رؤية وعقيدة واضحة لا أن تتأثّر بالوشائج الأسرية أو العرقية أو القومية، ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٥ ـ من يتّخذ الكفّار أولياء، أوكله الله إلى نفسه وحرمه من المدد الغيبي، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾.

٦ ـ العلاقة الظاهرية مع الكفّار جائزة في بعض الحالات إذا كانت لتحقيق اعتبارات أسمى، ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

٧ ـ التقيّة هي بهدف حفظ الدين. فلا يجوز للمسلم أن يسيء استخدامها ويتولّى الكفّار متذرّعاً بها، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

٨ ـ حينما يتهدّد الخطر أصل الدين، يجب التضحية بكلّ شيء، وألّا نخشى إلّا الله، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

٩ ـ ذكر المعاد أفضل حافز على التقوى، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٠ ـ ينبغي على المسلم ألّا يخضع لسلطة الكفّار من أجل أيّام معدودة من اللذّة والرفاهية على هذه الدنيا، فمصيرنا جميعاً إلى الله تعالى، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

- ربّما كان تعقيب الآية السابقة بهذه الآية لتحذير المسلمين من استغلال ذريعة التقيّة لعقد أواصر الصداقة مع الكفّار في الخفاء، لأنّ الله تعالى عليم بما يدور في عقولنا وأذهاننا من أفكار ونوايا.

التعاليم:

١ ـ يحذّر الله الذين يسعون إلى تولّي الكفّار باسم التقيّة، ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟﴾.

٢ ـ صدر الإنسان صندوق أسراره، ﴿تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾.

٣ ـ علم الله تعالى واحد بما خفي وما ظهر وبما في الأرض وما في السماء، ﴿تُخْفُوا۟... أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ الالتفات إلى علم الله تعالى، يحيي في النفس الضمير الدينيّ ويحول دون ارتكاب المعاصي وتبريرها، ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾.

٥ ـ أيّ سرّ يخفى على الله العليم بجميع أسرار السموات؟ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾.

٦ ـ تهديد الله تعالى للأعداء نابع من قدرته المطلقة، ﴿إِن تُخْفُوا... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ وَاللَّهُ رَءُوفٌۢ بِالْعِبَادِ ۝٣٠﴾

إشارات:

□ كان الحديث في الآية السابقة عن علم الله وقدرته ﷻ، وتقدّم هذه الآية مثالاً لهما. وهذه الآية شبيهة بالآية ٤٩ من سورة الكهف التي تقول: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

ورد في تفسير البرهان أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان في كل يوم جمعة يذهب إلى مسجد النبي ويعظ الناس ويتلو هذه الآية.

التعاليم:

١ ـ أعمال الإنسان لا تنمحي، وستحضر أمامه في يوم القيامة، ﴿مُّحْضَرًا﴾.

٢ ـ الإيمان بحضور الأعمال في يوم القيامة سوف يمنع الإنسان من ارتكاب المعاصي، ﴿مُّحْضَرًا﴾.

٣ ـ المذنبون في يوم القيامة سوف يشعرون بالتعاسة جرّاء سوء أعمالهم، ولكن سبق السيف العذل، ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا﴾.

٤ ـ الكثير من الأعمال الأثيرة على قلب الإنسان في هذه الدنيا ستكون وبالاً عليه في يوم القيامة وسينفر منها، ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

٥ ـ في يوم القيامة لات ساعة مندم، فلن تتحقّق الأماني، كلمة (لو) تستخدم للتعبير عن امتناع تحقق الأماني، ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾.

٦ ـ التقوى والخشية من الله تعالى، درع ضدّ المعاصي، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ النُّذُر الإلٰهيّة نابعة من محبّته ورأفته، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

٨ ـ أسلوب الخوف والرجاء المتزامنين له دور تربوي. الرجاء بمفرده يفضي إلى الغرور، والخوف وحده يخلق اليأس والقنوط، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

٩ ـ يشمل الله بلطفه ورأفته جميع عباده، ﴿رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- يتحدّث القرآن الكريم حول منزلة الرسول الأعظم ﷺ ووجوب طاعته: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1]. وفي موضع آخر يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[2].
- من ذلك أيضاً ما ورد عن شخص سأل الإمام الصادق عليه السلام: جعلت فداك، إنّنا نسمّي أبناءنا بأسمائكم وأسماء آبائكم، فهل ينفعنا هذا؟ فأجابه الإمام عليه السلام: **وهل الدين إلّا الحبّ، ثمّ تلا هذه الآية، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾**[3].

التعاليم:

١ ـ كلّ زعم يثبت صدقه بالعمل، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

٢ ـ شرط الإيمان بالله اتّباع أوليائه، ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾؛ (نعم إنّ الإسلام يكون بلا محتوى إذا خلا من رجال الدين الحقيقيين).

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٠.
(٢) سورة الفتح: الآية ١٠.
(٣) تفسير العيّاشي، ج١، ص١٦٧.

٣ ـ من كان عمله ضعيفاً، كان أساس محبّته ضعيفاً، ﴿تُحِبُّونَ... فَٱتَّبِعُونِى﴾.

٤ ـ لنستعن بالعواطف في عمليّة إصلاح المجتمع، ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾.

٥ ـ عمل وكلام وصمت رسول الله كلّه حجة ويجب أن يتّبع، ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾.

٦ ـ النبي معصوم، وإلّا لكان الحكم بالانقياد التامّ لغير المعصوم بعيداً عن الحكمة، ﴿قُلْ... فَٱتَّبِعُونِى﴾.

٧ ـ إذا رغبتم في محبة الله فعليكم الانقياد لرسول ﷺ، ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٨ ـ باستطاعة الإنسان أن يرتقي إلى منزلة يصبح رضاه رضا الله واتّباعه اتّباع لأوامر الله، ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

٩ ـ مزيّة الدين الإلٰهيّ على القوانين الوضعيّة توافره على: المحبّة، والقدوة العمليّة، وصلاحيّة المشرّع، ﴿تُحِبُّونَ... فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

١٠ ـ أفضل الثواب هو الثواب المعنوي. الفوز بمحبّة الله وغفرانه أفضل الثواب للمؤمنين، ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

١١ ـ علامة المحبة ستر العيوب والتعامل بالعفو والرحمة، ﴿يُحْبِبْكُمُ... يَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

١٢ ـ الأعمال الصالحة مدعاة لغفران الذنوب، ﴿فَٱتَّبِعُونِى... وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

١٣ ـ طاعة النبي واتّباعه توجب عفو الله وصفحه، ﴿فَٱتَّبِعُونِى... وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

❑ علاوة على الآيات الإلٰهيّة، نزلت على الرسول الكريم ﷺ تعاليم وأحكام أخرى، وهي تعاليم تغيّرت بتغيّر الزمان والمكان والأفراد والظروف. بطبيعة الحال، هذه التعاليم أيضاً نزلت عن طريق الوحي، لكنّها لم ترد في القرآن الكريم، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة حيث إنّ مفهوم طاعة الرسول من طاعة الله هو العمل بتلك التعاليم النبوية.

التعاليم:

١ ـ فعل النبي وقوله وتقريره حجّة، ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

٢ ـ محبّة الله ولعنته رهن بعمل الإنسان نفسه، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٣ ـ أحياناً يكون التمرّد على أوامر النبي كفراً، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

- في الآية السابقة أمر الله تعالى بطاعة الرسول الكريم ﷺ، وهنا يعزو سبب تلك الطاعة إلى اصطفاء الله الحكيم لخلقه على أساس فضلهم وشرفهم على بقيّة الناس.
- واصطفاء الأنبياء هو لتوافر عوامل الوحي والعلم والإيمان والعصمة فيهم[1].
- نقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه تلا الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ...﴾، ثمّ قال: «**نحن منهم ونحن بقيّة تلك العترة**»[2].

التعاليم:

١ ـ أفراد البشر ليسوا في مستوى واحد، فالله الحكيم قد اصطفى بعضهم ليكونوا حملة الرسالة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

٢ ـ الإنسان الأوّل كان من الأنبياء لئلا تبقى البشرية دون هداية أبداً، ﴿ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾.

٣ ـ لقد تواصلت مسيرة بعثة الأنبياء على مرّ التاريخ، ﴿ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا...﴾.

٤ ـ كانت رسالة بعض الأنبياء عالمية، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) الكافي، ج٨، ص ١١٧.

(٢) تفسير العيّاشي، ج١، ص ١٦٨.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ على مرّ التاريخ كانت دوحة النبوة مغروسة في حديقة الذرّيّة الطاهرة، ﴿اصْطَفَى... عَلَى الْعَالَمِينَ... ذُرِّيَّةً...﴾.

٢ ـ بعض الخصائص والفضائل تورّث، ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

٣ ـ الله رقيب على أقوال وأفعال المصطفين أيضاً، ﴿اصْطَفَى... سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

- ورد في التفاسير والكتب الروائية: أنّ «حنّة» و«أشياع» كانتا أختين، تزوّجت الأولى من «عمران» أحد زعماء بني إسرائيل، وتزوّجت الثانية النبي «زكريا» وكانتا عاقرتين لم ترزقا بمولود. وفي أحد الأيّام بينما «حنّة» جالسة تحت شجرة، رأت طائراً يطعم فراخه، فأشعل هذا المشهد نار عاطفة الأمومة في قلبها، فتوجّهت إلى الله تعالى بمجامع قلبها طالبةً منه أن يرزقها مولوداً، فاستجاب الله دعاءها الخالص ولم تمض مدّة طويلة حتى حملت.

ومن ناحية أخرى، ورد في الأحاديث أنّ الله قد أوحى إلى «عمران» أنّه سيهبه ولداً مباركاً يشفي المرضى ويحيي الموتى بإذن الله، وسوف يرسله نبيّاً إلى بني إسرائيل، فأخبر عمران زوجته «حنّة» بذلك، لذلك عندما حملت ظنّت أنّ ما تحمله في بطنها هو الابن الموعود، دون أن تعلم أنّ ما في بطنها أم الابن الموعود «مريم» فنذرت ما في بطنها للخدمة في بيت الله «بيت المقدس»، ولكنّها إذ رأتها أنثى ارتبكت ولم تدر ما تعمل، إذ إنّ الخدمة في بيت الله كانت مقصورة

على الذكور، ولم يسبق أن خدمت فيه أنثى، وحينذاك عرفوا بأنّ الإلهام الإلٰهيّ لم يكن بشأن مريم بل ولدها[1].

التعاليم:

١ ـ تصل المرأة إلى مرتبة من الكمال المعنوي، يدعوها إلى تقديم طفلها الذي انتظرته سنوات، للخدمة في سبيل الله، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾.

٢ ـ الأشخاص بعيدو النظر، يفكّرون في مستقبل خدمات مولودهم حتى قبل ولادته، ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

٣ ـ يجب أن يكون النذر خالصاً لله تعالى، ﴿نَذَرْتُ لَكَ﴾.

٤ ـ الخدمة في المسجد تنطوي على فضل عظيم لدرجة أنّ أولياء الله كانوا ينذرون أحباءهم للخدمة فيه حتى قبل ولادتهم، ﴿نَذَرْتُ لَكَ...﴾.

٥ ـ للنذر تاريخ طويل في الأديان الإلٰهيّة، ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ﴾.

٦ ـ للأم نحو من الولاية على الابن، ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾.

٧ ـ ثمّة علاقة بين تحرير الابن واصطفاء الله، ﴿ٱصْطَفَىٰٓ... نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

٨ ـ الأكثر نجاحاً في خدماتهم الدينيّة هم الذين ينذرون كلّ وقتهم للخدمة لا قسماً منه، ﴿مُحَرَّرًا﴾.

٩ ـ خدمة الابن حقّ طبيعي للأمّ، ولها أن تهبه، ﴿مُحَرَّرًا﴾.

١٠ ـ إذا عزمت على تقديم أعزّ الأشياء وأحبّها إليك، ففكّر في مسألة قبولها أيضاً، ﴿فَتَقَبَّلْ﴾.

---

(١) الكافي، ج١، ص ٥٣٥.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

- لقد كانت الأم تنتظر مولوداً ذكراً، لتستطيع الوفاء بنذرها ويخدم في بيت المقدس، إلّا أنّها حين رأت المولود أنثى، قالت بحسرة وألم: إلهي، لقد ولدت أنثى، فكيف لي أن أفيَ بنذري؟ وجاء جواب الله تعالى ليعزّي هذه الأم: هذه الأنثى أرفع منزلة من ذلك الذكر الذي كنت تنتظرين، لأنّها تتّصف بالفضائل والكمالات، وسوف تكون أمّاً لولد سوف يشعّ خيرات وبركات، لذا سيكون ما تجنيه من خير من ذرّيتك المباركة أضعافاً مضاعفة.
- الاسم «مَريم» يعني «العابدة» و«خادمة الرب»، وقد تكرّر هذا الاسم ٣٤ مرّة في القرآن الكريم.

التعاليم:

١ ـ ليس المهمّ ما يريده الإنسان بل المهمّ ما تقتضيه المصلحة وما يريده الله، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

٢ ـ أحياناً تبلغ الأنثى بطهارتهاوعفّتها مقاماً رفيعاً لا يرقى إليه الذكر أبداً، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾.

٣ ـ للسيدة مريم مقام رفيع وعظيم، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، والمراد بـ ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ أنّها امرأة من نوع خاصّ.

٤ ـ لنحسن اختيار الأسماء لأبنائنا، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

٥ ـ يحقّ للأم أن تضع اسماً لمولودها، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾.

٦ ـ لا تدع التغييرات الثانوية تبعدك عن الله والأهداف السامية. فعلى الرغم من أنّ المولود كان أنثى على عكس ما كانت تنتظر الأم، إلّا أنّها مع ذلك سمّتها مريم أي خادمة الرب، ﴿سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

٧ ـ قبل كلّ شيء علينا أن نفكّر بسلامة أبنائنا من شرّ الشيطان، ﴿أُعِيذُهَا﴾.

٨ ـ يجب أن لا نقصر اهتمامنا على أبنائنا فحسب، بل أن نوسّعه ليشمل الأجيال القادمة أيضاً، ﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾.

٩ ـ من أجل ضمان سعادة الأبناء، يجب أن لا نكتفي بتربيتنا لهم فحسب بل أن نوكلهم إلى الله تعالى، فإمكاناتنا محدودة وعوامل الانحراف كثيرة، ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾.

١٠ ـ تحظى أمّ مريم بمكانة خاصّة. يُستدلّ على ذلك من بيان نذرها وإخلاصها وتسميتها لمريم واستعاذتها، ﴿نَذَرْتُ لَكَ، سَمَّيْتُهَا، أُعِيذُهَا بِكَ﴾.

١١ ـ الشيطان، هو العدو القديم لبني البشر، ﴿أُعِيذُهَا... وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- لا جرم أنّ من يحثّ الخطى في سبيل الله، سيكفيه الله رزقه في هذه الدنيا. لقد نذرت أمّ مريم ابنتها لله تعالى، ويخبر الله في هذه الآية بتعهُّد مريم بالرعاية والرشد والنمو، وكذلك تأمين الكفيل المهتم بشؤونها، أضف إلى ذلك الرزق من السماء.
- الرزق بلا حساب يعني أنّه من السعة والكبر بحيث يتجاوز الحسابات العامّة، وليس معناه أنّه لا يعرف حسابه أو عدّه، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.
- لقد نشأت السيدة مريم ونمت نموّاً مضطرداً ومتكاملاً من الناحية الجسمية، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.
- والحقيقة، لقد تضافرت لها عوامل الكمال والطهر واكتمل فيها نسيج الإيمان

والإخلاص، فكانت هي الأمّ، وكان المسجد مكان تربيتها ورعايتها، والنبي زكريا الكافل لها والملتزم بمصالحها، وطعامها من طيب الجنّة، فلا عجب أن تكون ثمرة هذه العوامل مولوداً مثل النبي عيسى عليه السلام.

ومن المعلوم أنّ جملة من العوامل تترك تأثيرها في تربية الأبناء، وهي كالتالي:

- الحضن الطاهر للأم، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.
- الجسم الصحيح والسليم، ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾.
- الإعداد والتربية الإلٰهيّة، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.
- الطعام الطيب الحلال، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

□ روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاع في زمن قحط، فأهدته فاطمة عليها السلام رغيفين وبضعة لحم آثرته بها. فرجع إليها، وقال الراوي: فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً، فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنّى لك هذا؟ فقالت: «هو من عند الله (إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب)، فقال: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل»**. ثم جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجمع أهل بيته حتى شبعوا، وبقي الطعام كما هو فأوسعت فاطمة على جيرانها[1].

التعاليم:

١ ـ إجابة الدعاء من تجلّيات ربوبيّة الله، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾.

٢ ـ القبول الإلٰهيّ على درجات ومراتب، فالله تعالى تقبّل نذر أمّ مريم قبولاً حسناً، ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

٣ ـ من أخلص قلبه لله، فسوف يتقبّل منه عمله، ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

٤ ـ لقد نذرت أمّ مريم مولودها ليخدم في بيت الله، فاستجاب لها الله بأن جعل نبيّه زكريا خادم هذه الطفلة وكافلها، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

---

(١) تفسير روح البيان، ج٢، ص٢٩.

٥ ـ من حظي بكفالة الأنبياء ورعايتهم كان في مأمن من وساوس الشيطان، ﴿أُعِيذُهَا... مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ... وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

٦ ـ ينبغي ألّا تكون العبادة مرحلية عابرة، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ﴾.

٧ ـ شرط الكفالة هو الإشراف والمتابعة، ﴿وَكَفَّلَهَا... دَخَلَ عَلَيْهَا... أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.

٨ ـ العبادة حرب على الشيطان، ومكان العبادة ـ المحراب ـ هو ميدان هذه الحرب، ﴿دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾.

٩ ـ الرزق الطيّب في كنف العبادة، ﴿ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

١٠ ـ بإمكان المرأة أن ترتقي منزلة تثير إعجاب الأنبياء، ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.

١١ ـ تذكّروا أنّ جميع النعم هي من فضل الله، لا بفضل سعيكم، ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

١٢ ـ الله قادر على أن يرزق خارج سياق الأسباب المادّية، ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

١٣ ـ بإمكان المرأة والرجل التحادث إذا ما توفّرت البيئة السليمة، ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ تقدّم، أنّ أمّ مريم وزوجة النبي زكريا كانتا أختين، وكانتا عاقرين، وكان مشهد إطعام الطائر فراخَه مؤثّراً في أمّ مريم فدعت الله تعالى أن يرزقها مولوداً فحباها بمريم عليها السلام. ولمّا رأى النبي زكريا مقام مريم ومنزلتها الرفيعة، دعا الله تعالى أن يرزقه هو أيضاً مولوداً.

التعاليم:

١ ـ حالة الإنسان وساعة الدعاء مؤثّرة في الإجابة، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾.

٢ ـ الاغتباط كمال، غير أنّ الحسد نقص. لمّا رأى زكريا عليه السلام ما حظيت به مريم من منزلة ومقام رفيع تعجّب واغتبط لذلك، ورفع يديه بالدعاء، ﴿هُنَالِكَ دَعَا﴾.

٣ ـ بإمكان المرأة أن تؤثّر في النبي، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾.

٤ ـ مشاهدة فضائل الآخرين وكمالاتهم تحثّ الإنسان على السعي وراءها والتوجّه إلى الله، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا﴾.

٥ ـ طلب الذرّيّة الصالحة من الله سنّة الأنبياء، ﴿هَبْ لِي... ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

٦ ـ قيمة الذرّيّة في طهارتها، ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

٧ ـ من أدب الدعاء أن نثني على الله تعالى، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

- ورد في كتب التاريخ أنّ النبي يحيى كان يكبر عيسى بستّة أشهر، وكان قد اشتهر في الناس بالطهر والزهد، فقد كان لإيمانه بابن خالته المسيح عيسى تأثير عميق على الناس في توجّههم نحو المسيح. والجدير بالإشارة هو أنّ معنى اسمي هذين النبيين (عيسى ويحيى) متشابه وهو (البقاء حيّاً).

- «الحصور» أصله من الحصر وهو الحبس، يقال: حصرني الشيء وأحصرني: إذا حبسني، والحصور: الذي لا يأتي النساء كأنه يحجم عنهنّ، فيحيى عليه السلام كان حصوراً عن إتيان النساء، حيث فسّر البعض ذلك بسبب كثرة ترحاله وأسفاره، بيد أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال: **«عفّة يحيى منعته من الزواج وجعلته يعتزل النساء»**[1].

---

(١) تفسير مجمع البيان.

التعاليم:

١ ـ الدعاء الخالص النابع من القلب الطاهر مستجاب، ﴿دَعَا زَكَرِيَّا... فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٢ ـ الأديان السابقة أيضاً عرفت الصلاة، ﴿يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾.

٣ ـ المحراب وأماكن العبادة لها قدسيّة خاصّة؛ فهي موضع نزول المائدة السماوية؛ ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، ومحل إجابة الدعاء، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ... فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾.

٤ ـ الصلاة باب تهبط منه الملائكة، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾.

٥ ـ إرادة الله غالبة على كلّ شيء. لم تمنع شيخوخة الأب ولا عقم الأمّ من الإنجاب، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

٦ ـ أحياناً يتدخل الله تعالى في تسمية بعض الأشخاص من قبل الله تعالى، ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

٧ ـ يصدّق الأنبياء بعضهم بعضاً، ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٨ ـ النبي عيسى ليس ابن الله، بل آية بيّنة على قدرة الله، ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٩ ـ الله عليم بمصير كلّ إنسان، ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾.

١٠ ـ العفاف وكبح جموح الرغبة الجنسيّة يستدرج ثناء الله تعالى ومديحه، ﴿وَحَصُورًا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ حتى في حلكة اليأس ثمّة بريق أمل، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ... كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

٢ ـ عند استعراض السلبيّات فلنبدأ بأنفسنا، ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾.

٣ ـ إرادة الله ومشيئته تعلو على الأسباب الطبيعية، ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١﴾

التعاليم:

١ ـ الله القادر على حبس اللسان عن تكليم الناس، وإطلاقه عند ذكر الله، لقادر على أن يرزق الأب الهَرِم والأمّ العاقر مولوداً، ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ... أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾.

٢ ـ يسعى الأنبياء لبلوغ مرتبة اليقين والشهود، ﴿ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾.

٣ ـ يجب أن نزداد ذكراً لله كلّما زادت ألطافه، ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾.

٤ ـ كلّما زاد ذكر الله تعالى كان ذلك أفضل، ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾.

٥ ـ للتسبيح منزلة خاصة بين كلّ الأذكار الإلٰهيّة، ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ... وَسَبِّحۡ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾

إشارات:

- حيثما جاء الفعل «اصطفى» متعدّياً بالحرف «على»، أفاد معنى السبق أو التقدّم، وعندما يأتي بدونه، فيكون المعنى الاختيار والاصطفاء المطلق.
- ورد في تفاسير المنار والقرطبي والمراغي وروح البيان والكبير أنّ خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة الكبرى وفاطمة الزهراء.

كما ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أنّ مريم سيدة نساء زمانها، أمّا

فاطمة فهي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين[1]. بطبيعة الحال إنّ الله الخبير الحكيم عندما يصطفي أحداً، فذلك لجهة جدارته وخصائصه الفريدة.

التعاليم:

١ ـ الملائكة يكلّمون غير الأنبياء أيضاً، ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾.

٢ ـ بإمكان المرأة أن ترتقي درجة القرب الإلٰهيّ، فينزل عليها الوحي الإلٰهيّ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾.

٣ ـ اصطفاء السيدة مريم كان على صعيد الكمالات وكذلك على نساء العالمين؛ لهذا السبب تكرّرت كلمة ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ مرّتين.

٤ ـ السيدة مريم معصومة، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾.

٥ ـ السيدة مريم أسوة النساء، ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

□ استعرض الله تعالى في الآية السابقة ثلاث فضائل للسيدة مريم عليها السلام وهي: الاصطفاء الإلٰهيّ؛ ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾، والتطهير الإلٰهيّ؛ ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ وأنّها كانت خير النساء؛ ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي هذه الآية، حمّلها ثلاث مسؤوليات هي: الخضوع والتواضع، ﴿ٱقْنُتِى﴾؛ والسجود، ﴿وَٱسْجُدِى﴾؛ والركوع، ﴿وَٱرْكَعِى﴾، إذن، كلّ نعمة مقرونة بمسؤولية.

التعاليم:

١ ـ ينبغي للعظماء أن يكونوا أكثر تواضعاً وعبادةً، ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى...﴾. (لقد أنيطت بأولياء الله عبادات خاصّة، كما هو الحال مع النبي الكريم صلى الله عليه وآله الذي وجبت عليه صلاة الليل).

---

(١) تفسير نور الثقلين.

٢ ـ الصلاة والركوع والسجود أفضل طريق للشكر. لقد تناولت الآية السابقة موضوع الاصطفاء الإلٰهيّ، والذي يستلزم الشكر، ﴿ٱصْطَفَىٰكِ... ٱقْنُتِى﴾.

٣ ـ يجب أن تكون العبادة خالصة لله وحده، ﴿لِرَبِّكِ﴾.

٤ ـ العبادة طريق لتأهيل الإنسان وتربيته، ﴿لِرَبِّكِ﴾.

٥ ـ صلاة الجماعة والعبادة الجماعية لها سابقة قبل الإسلام أيضاً، ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

٦ ـ حثّت الروايات على حضور المرأة في المراسم العبادية والمناسبات التي يحضرها الرجال أيضاً، ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولكن بشرط أن تستلهم سلوكها من سيرة السيدة مريم.

٧ ـ ينبغي للمصطفين والمختارين أن ينخرطوا في وسط المجتمع والجماهير، لا أن يعتزلوا الناس، ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

□ ذكرنا قبل هذا، أنّ أمّ مريم نذرت (قبل ولادة مريم) مولودها لخدمة بيت المقدس، لذلك، بعد أن رزقت بالطفلة، لفّتها بقطعة قماش وجاءت بها إلى المسجد، وخاطبت علماء بني إسرائيل قائلة: إنّني قد نذرت هذه المولودة لخدمة المسجد، ولمّا كانت مريم من أسرة عريقة ومعروفة، تنازع القوم[1] حول من يكفلها ويتعهّد تربيتها، فصار الأمر إلى القرعة.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء مطلعون على جانب من الغيب بإذن الله، ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ إحدى مجالي إعجاز القرآن إخباره بالغيب ونقله مكنونات التاريخ.

---

(١) يُستفاد من تكرّر عبارة ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ...﴾ بأنّ النزاع كان شديداً.

٢ ـ بعض قصص القرآن اطلع عليها النبي الكريم ﷺ عن طريق الوحي، إذ لم تحفظ قبل ذلك لا في كتاب ولا في الصدور، ﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾.

٣ ـ الوحي أحد طرق التعرّف على تاريخ الماضين، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾.

٤ ـ القرعة إحدى طرق فضّ النزاعات، ﴿يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾. وقد نُقل عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**أوّل من سوهم عليه مريم بنت عمران عليها السلام وهو قوله تعالى**: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ **حيث أيتمت من أبيها**»[1].

٥ ـ نذر الأمّ استنزل الكرامات على وليدتها، ﴿نَذَرْتُ... أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

بقيت أمّ مريم لسنوات طويلة عاقراً، وعندما رزقت بمولودتها الأثيرة تخلّت عنها بسبب نذرها، وفي المقابل، كان بنو إسرائيل يتنافسون على كفالتها.

٦ ـ يتنافس الأشراف في ما بينهم على أداء المسؤوليات المقدّسة، ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

- يصف القرآن الكريم النبي عيسى عليه السلام بأنّه «كلمة»، وهي في المفهوم القرآني تعني «المخلوق» كما في الآية ١٠٩ من سورة الكهف المباركة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾.

- ووصف الوجيه الوارد في الآية الكريمة ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لم يذكر في القرآن الكريم إلّا في وصف عيسى فقط.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص ٥١؛ بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٩٢.

التعاليم:

١ ـ أحياناً تتبوّأ المرأة مكانة رفيعة تصل إلى حدّ أن يكلّمها الله عن طريق الملائكة، ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾.

٢ ـ الأبناء نعمة، ﴿يُبَشِّرُكِ﴾.

٣ ـ ليس عيسى ابن الله بل مخلوقه؛ لكنّه مخلوق عظيم ومجهول، ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾؛ (وردت «**كلمة**» في صيغة النكرة حيث ترمز إلى العظمة والمجهولية).

٤ ـ يسمّي الله تعالى بعض أوليائه قبل ولادتهم، ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾.

٥ ـ كيف يمكن لمن وُلِد من رحم بشريّ وقضى دورته الجنينية فيه أن يكون ابن الله؟ ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

٦ ـ الوجاهة في الدنيا أيضاً تعتبر قيمة، وبالتالي لا مانع من كسبها، ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ التكلّم في المهد والتنبّؤ بالمستقبل معجزة السيد المسيح. أمّا عن كلامه في الكهولة فإنّها نبوءة أخرى بمعنى أنّه سيبقى حيّاً حتى يصير كهلاً. كما أنّ الإخبار عن وجاهته وصلاحه أيضاً يعدّ نبوءة وبشارة.

التعاليم:

١ ـ القادر على أن يهب مريم مولوداً دون زوج، قادر على أن ينطقه وهو في مهده، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾.

٢ ـ الله قادر ـ لو شاء ـ على تنزيه شخص عفيف من التّهم والافتراءات بمدده الغيبي، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾.

٣ ـ يمكن لطفل أن يصبح نبياً بتدخّل إلٰهيّ، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾.

كما تبوّأ الإمام الجواد والإمام الهادي والإمام المهدي ﷺ منصب الإمامة.

٣ ـ إذا شاء الله، فإنّه يُنطِقُ الطفل كما ينطق الأشخاص الكبار، ﴿فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

٤ ـ من أمّ صالحة كالسيّدة مريم، يخرج ولد صالح كعيسى عليه السلام، ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ إرادة الله هي الأصل في ظهور وخلق الموجودات وهو قادر أيضاً على أن يخلق دونما حاجة إلى الأسباب والوسائل المادّيّة. بيده خلق الأسباب، وبيده نقضها، فأحياناً، يسلب الأشياء أثرها وأحياناً أخرى يمنحها ذلك الأثر. فالخلق والبقاء وتأثيرات كلّ شيء رهن بإرادته ومشيئته.

التعاليم:

١ ـ لا ضير من السؤال والتعجّب ما لم يكونا نابعين عن تنكّر وعناد، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾؛ حتى أولياء الله يرون إرادة الله في شؤون الكون قائمة على الأسباب والعلل الطبيعية، ولهذا، عندما تأتيهم بشارة خاصة بخلاف تلك الأسباب يستفهمون من الله تعالى عن كنهها.

٢ ـ خلق الله بالطرق الخارقة للعادة ليس بالأمر الجديد، كما أنّ الأسباب الطبيعية لا تقتصر على المسائل المعروفة، ﴿كَذَٰلِكِ﴾.

٣ ـ الخلق رهن بالإرادة الحتميّة الإلٰهيّة، ﴿قَضَىٰٓ أَمْرًا... كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

□ نقرأ في تفاسير الفريقين أنّ المقصود بتعليم الكتاب هو الكتابة والخط،

والحكمة هي العلم بمصالح ومفاسد الأشياء والأفعال والأخلاق والعقائد، سواء كانت من الآثار الدنيوية أم الأخروية.

التعاليم:

١ ـ من صفات وشروط من يختارهم الله للقيادة أن يكونوا على معرفة لازمة. معرفة مبنية على العلم والحكمة وكتب السماء، ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ و...﴾.

٢ ـ لا بدّ للقائد من أن يكون مطلعاً على الحوادث والشرائع الماضية. لقد علّم الله تعالى نبيّه عيسى عليه السلام توراة موسى عليه السلام، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

- عندما ينتاب الإنسان شعور بالخطر، عليه رفع مستوى حذره، فمسائل من قبيل إحياء الموتى وإبراء الأكمه وسائر المرضى تنطوي على خطر الانحراف عن العقيدة والغلوّ. من هنا، يظهر سبب تكرّر مفهوم الإذن الإلٰهيّ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مرّتين في هذه الآية، وأربع مرّات في الآية ١١٠ من سورة المائدة.
- الجدير بالإشارة هنا هو أنّ رسالة النبي عيسى عليه السلام كانت خاصّة إلى بني إسرائيل؛ ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، إلّا أنّ هذا لا يمنع أن تكون دعوته موجّهة إلى الناس كافّة، كما هو الحال مع النبي موسى عليه السلام حيث يخاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[1]، ولكن حينما شاهد سحرة المدينة معجزاته آمنوا به وصدّقوه. لذا، فإنّ النبي موسى عليه السلام كان مبعوثاً بمهمّة خاصّة إلى فرعون، ومهمّة أخرى هي الإرشاد العام لكلّ الناس[2].

---

(١) سورة طه: الآية ٢٤.
(٢) تفسير الميزان.

□ لا بدّ لكلّ نبي من أن يأتي بمعجزة، ويجب لهذه المعجزة أن تتناسب مع أحوال وأفكار الناس في كلّ عصر.

يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**إنّ الله تبارك وتعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله عزّ وجلّ بما لم يكن عندهم مثله وبما أحيا لهم الموتى وأبرأ لهم الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى وأثبت به الحجّة عليهم**»[١]. لذا، جاءت معجزات هذا النبي متناسبة مع حاجة الناس في عصره وهي شفاء المرضى.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «.. **ومكث عيسى عليه السلام حتى بلغ سبع سنين أو ثمانياً فجعل يخبرهم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم**»[٢].

□ إذا كان وليّ الله يخلق من الطين طيراً بإذن الله تعالى، فهل يشقّ على الله أن يبعث الموتى بقدرته في يوم القيامة.

التعاليم:

١ ـ المعجزة آية من آيات ربوبيّة الله تعالى وهي تندرج ضمن هدف هداية الإنسان وإعداده، ﴿جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٢ ـ أولياء الله يملكون قدرة التصرّف والتغيير في نظام الخلق بإذن الله وحده، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٣ ـ يتوافر الأنبياء على علم الغيب، وهم مطّلعون حتى على أدقّ التفاصيل في حياة الناس، ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)﴾

إشارات:

□ تستعرض هذه الآية الكريمة موضوعات من قبيل الإيمان بالشرائع الإلٰهيّة

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٨٠. (٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٢٥١.

الماضية، البشارة بالتخفيف من أعباء بعض التكاليف، والتأكيد على تقوى الله وطاعة القائد.

- يقول الله تعالى في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾. ربّما تكون هذه هي المحرّمات التي رفعت مع مجيء عيسى عليه السلام.
- والحقيقة، أنّه حيثما وجدت نيّة الإصلاح والإرشاد، ينبغي مراعاة النقاط التالية:

أ) القبول بالأصول المشتركة والصحيحة للآخرين، ﴿مُصَدِّقًا﴾.

ب) احترام مقدّسات الآخرين قدر الإمكان، ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

ج) التبشير بأجواء الانفتاح والحريّات، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾.

د) الحركة في مسير الشرائع الإلٰهيّة، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

التعاليم:

١ ـ لقد صدّق الأنبياء بعضهم بعضاً، ﴿وَمُصَدِّقًا...﴾.

٢ ـ الدين نهج فكري وليس بارقة تنطفئ، والأنبياء والكتب السماوية يسيرون نحو هدف واحد، ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

٣ ـ وعود رفع الحرمان والقيود وإعطاء الحريّات المشروعة والمنطقية، هي سرّ إقبال الناس، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾.

٤ ـ بعض القيود التي فرضت في الأديان السالفة كانت بمثابة عقوبة إلٰهيّة مؤقّتة، وليست حكماً إلهياً دائماً، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾.

٥ ـ الأنبياء لهم ولاية تكوينية ويمتلكون قدرة التصرّف في الكون؛ ﴿أَخْلُقُ لَكُم﴾، كما أنّ لهم الولاية التشريعية ولهم الحقّ في تشريع القوانين، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم...﴾.

٦ ـ وحده نبي الله وصاحب المعجزة له الحقّ في تغيير الشرائع والقوانين.

عبارة ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ جاءت بعد ﴿جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾.

٧ ـ المعجزة تدخل ضمن شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، وهدفها هداية الناس وإعدادهم، ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٨ ـ لا تقوى للمتعصّب المتزمّت الذي يرفض التغييرات الضرورية، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم... فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٩ ـ شرط التقوى طاعة النبي، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

إشارات:

- بخلاف الأناجيل الحاليّة التي تزعم أبوّة الله تعالى للنبي عيسى عليه السلام، فإنّ القرآن الكريم يقول على لسان عيسى إنّ الله ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، وذلك لوأد أيّ عقيدة خاطئة أو شبهة تنسب الألوهيّة إلى النبي عيسى.
- لذا، يفترض بنا الإيمان بطريق الله وبعبوديّتنا له، وهو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، على عكس الطرق الأخرى، التي تعجّ بالمهاوي والمزالق والقيود والتي تتبع الأهواء النفسانية للطواغيت.

التعاليم:

١ ـ الحكمة من عباداتنا هي التأكيد على ربوبيّة الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

٢ ـ النبي عيسى عليه السلام كسائر الناس، عبد مخلوق وخاضع لربوبيّة الله، ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.

٣ ـ العبادة والعبودية لله صراط السعادة المستقيم، ﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

إشارات:

❑ لقد شهد بنو إسرائيل معجزات النبي عيسى عليه السلام في إحياء الموتى وإبراء الأكمه، إلّا أنّهم مع ذلك أصرّوا على لجاجهم وكفرهم، لدرجة أنّ عيسى كان يسمع منهم دعاوى الكفر بحسب ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام[١].

❑ ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ جمع «حواريّ» هو الذي يغيّر مسيره، فالحواريّون هم الذين تركوا مسير الناس المنحرف وعدلوا إلى جادة الحقّ والصواب[٢]. وكانوا اثني عشر رجلاً وردت أسماؤهم في إنجيل متى ولوقا. وقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام في الحواريين قوله: إنّهم فضلاً عن طهارة قلوبهم وصفاء أرواحهم، كانوا دائبي السعي في تطهير الناس وتنوير أفكارهم وغسلهم من أدران الذنوب[٣].

التعاليم:

١ ـ الفطنة في التعرّف إلى أفكار الناس ومعتقداتهم إحدى شروط القيادة، ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

٢ ـ كان عيسى يحيي الميت ويبرئ الأكمه بنفسه؛ ولكن مع ذلك لم يتّعظ أصحاب اللجاج والعناد بذلك، ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ...﴾.

٣ ـ لقد ابتلي الأنبياء بالكفار اللجوجين وبقلّة الأصحاب، ﴿أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

٤ ـ التعرّف على العناصر المخلصة وتنظيمهم ومركزتهم وتمييز جبهة الحقّ عن الباطل، مسألة ضرورية للقيادة وتواصل المسيرة، ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ تجديد البيعة للقيادة الإلٰهيّة تنطوي على قيمة سياسيّة واجتماعيّة ودينيّة، ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص٣٧٣. (٢) التحقيق في كلمات القرآن.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، نقلاً عن: عيون أخبار الرضا عليه السلام.

٦ ـ لا يريد الأنبياء الناس لأنفسهم بل لله، ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ... نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ نصرة الدعاة إلى الله، نصرةٌ لله، ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

٨ ـ التسابق من أجل دعم أئمة الدين فضيلة. على الرغم من أنّ النبي عيسى كان له عدد من الأنصار، غير أنّ الله تعالى أثنى بشكل خاصّ على الحواريين، وما ذلك إلّا لسابقتهم وصراحتهم، ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ... نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

٩ ـ التسليم لله تعالى يأتي بعد مرحلة الإيمان، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ... مُسْلِمُونَ﴾.

١٠ ـ الأنبياء هم الشهود على أعمال الناس في يوم القيامة، ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾

إشارات:

□ في عبارة ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ معنى الدعم والسند ما لا تحتويه عبارة «من الشاهدين»، على غرار عبارتي ﴿ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ و﴿ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾. ولمّا تحدّثت الآية السابقة عن النبي عيسى عليه السلام بوصفه الشاهد؛ من هنا، فإنّ عبارة ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ تعني أن يكون مع الأنبياء ونصيرهم.

التعاليم:

١ ـ شرط الإيمان اتّباع النبي، ﴿ءَامَنَّا... وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾.

٢ ـ لا بدّ من الإيمان بجميع الأحكام الإلٰهيّة، ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾.

٣ ـ فلندعُ الله أن يثبّت أقدامنا على الإيمان وأن يجعلنا من أنصار الأنبياء، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾

إشارات:

- في رواية منقولة عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله تعالى لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع ولكنه تعالى يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيرا**»[1].

- وتشير الآية الكريمة التي نحن بصددها إلى إحدى السنن الإلٰهيّة، غير أنّه في ضوء الآيات السابقة التي تبيّن أنّ عيسى أدرك من بني إسرائيل إرادة الكفر، وإذا ما أخذنا في الاعتبار الآية التالية التي تتحدّث عن رفع الله عيسى إلى السماء، يتبيّن لنا أنّ المكر هنا هو إرادة قتل عيسى حيث خطّط فريق في زمانه لإطفاء شعلة الدعوة؛ حتى أنّ الأعداء رصدوا مكافأة لحبسه والقبض عليه وأنّهم كانوا يعدّون لقتله وصلبه، إلّا أنّ الله تعالى بدّد خططهم وجعلها هواء في شبك، وأنقذه على أحسن ما يكون الإنقاذ.

التعاليم:

١ ـ الله حامي أوليائه، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾.

٢ ـ تدبير الإنسان وحركته هي مقدّمة لغضب الله أو لطفه، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾.

٣ ـ العقوبات الإلٰهيّة تتناسب مع طبيعة معصية الإنسان، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾.

٤ ـ إرادة الله وتدبيره فوق كلّ سعي أو حركة أو تدبير، ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٢٦.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

□ تقدّم هذه الآية مثالاً عملياً ظاهراً للتدبير الإلٰهيّ في قبال مكر الأعداء.

□ روي عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**إنّ معراج النبي عيسى عليه السلام كان في ليلة الحادي والعشرين من شهر رمضان المبارك**»[1].

التعاليم:

١ ـ بقيّة الأنبياء أيضاً كان لهم معراج، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

٢ ـ الحياة مع الكفّار عار ودنس، وهجرهم طهر ونقاء، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٣ ـ الإخبار عن غلبة المسيحية على اليهودية من معجزات القرآن الكريم، ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

٤ ـ سرّ الانتصار يكمن في الانقياد للأنبياء، ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

٥ ـ عالميّة الإسلام لا تتنافى مع وجود الأقليّات الدينيّة في حمى الإسلام. يستفاد من عبارة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أنّه سوف يكون للمسيحية واليهودية أتباع إلى يوم القيامة.

٦ ـ مردّنا جميعاً إلى الله وهو الحكم المطلق في يوم القيامة، ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

إشارات:

- جاء في تفسير أطيب البيان وصف لألوان العذاب الدنيوي الذي نزل ببني إسرائيل كما يأتي:

بعد ٣٧ سنة من رفع السيّد المسيح إلى السماء، تقلّد عرش الروم القيصر طيطوس، وكان قد أعمل في اليهود القتل والهوان وأباد الملايين منهم وأسر الآلاف، كما أمر بإحراق ممتلكاتهم أو نهبها، وقدّم الأسرى صيداً سهلاً للوحوش الضارية.

- من الضروري ترغيب أهل الإيمان، إلى جانب تهديد الكفّار، كما إنّ الإيمان يجب أن يقترن بالأعمال الصالحة.

التعاليم:

١ ـ عاقبة الكفر العذاب الإلٰهيّ، ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾.

٢ ـ كلّما كانت الحجّة أتمّ، كان عذاب الله على المنكرين أشدّ. أولئك الذين شهدوا إحياء النبي عيسى للأموات ولم يؤمنوا، يستحقّون أقسى العذاب، ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

٣ ـ أحياناً يأتي عذاب الله في هذه الدنيا، ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

٤ ـ لا تستطيع أيّ قدرة أن تقف في مواجهة عذاب الله، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ القيادة الحكيمة شرطها العلم والحكمة (الآيات الإلٰهيّة والقول الحكيم الاستدلالي)، ﴿ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

□ ذكرنا في ما سبق أنّ جماعة من المسيحيين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ بهدف التحاور، وقد اعتبروا مسألة ولادة عيسى عليه السلام من غير أب دليلاً على ألوهيته، فنزلت هذه الآية لتؤكّد لهم أنّه إذا كان دليلكم على ألوهيّة عيسى أو بنوّته لله هو أنّه خُلق من غير أب، فخلق آدم أهمّ لأنّه لا أب له ولا أمّ، فلماذا لا تقولون إذن بألوهيّة آدم أو بنوّته لله؟!

التعاليم:

١ ـ يجب دعوة المنكرين إلى الحقّ أوّلاً بما آمنوا به. فالمسيحيون مؤمنون بأنّ آدم هو مخلوق الله على الرغم من أنّه لا أب له ولا أم، ﴿مَثَلَ عِيسَىٰ... كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾.

٢ ـ الاستناد إلى وقائع التاريخ وتجارب الماضي وتقديم أمثلة موضوعيّة وعينيّة هو الطريق الأمثل للدعوة، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾.

٣ ـ لا حدود لقدرة الله في الخلق، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

□ ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ من «المرية» وهي التردّد في الأمر، وهو أخصّ من الشك. لقد وردت الآية بعينها في سورة البقرة في الآية ١٤٧. يتجلّى من هذه الآية أنّ الكلام الحقّ والراسخ هو الذي يصدر من عند الله فقط، إذ لا يمكن أن نتوقّع قانوناً حقّاً وكلاماً ثابتاً من الإنسان الغارق في وحل الأهواء والشهوات.

التعاليم:

١ ـ تبيين الحقّ رمز الربوبيّة والتربية، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢ ـ لا ثبات ولا حقّانية إلّا في طريق الله وكلام الله وشريعة الله، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٣ ـ ينبغي ألّا تؤثّر كثرة المنكرين، ولا جهودهم ونشاطاتهم أو ثرواتهم ودعاياتهم على حقّانية طريقنا وعقائدنا، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

□ «**نَبتَهل**» من «**الابتهال**» وتعني رفع اليدين إلى السماء بالدعاء. تعرف هذه الآية الكريمة بآية المباهلة، والمباهلة معناها تضرّع فريقين متخاصمين إلى الله واجتهاد كلّ فريق بالدعاء في لعن الفريق الآخر وهو الباطل بحسب رأيه[1].

ذكرت تفاسير الفريقين وبعض كتب الحديث والتاريخ ما يأتي:

«كان بين الحجاز واليمن قرية تدعى نجران، وكان سكانها مسيحيين، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً وجّهه إلى أسقف القرية وهو راهب يدعى أبا حارثة دعاه مع أهل القرية إلى الإسلام، ولمّا وصل الكتاب إلى الأسقف ذعر ذعراً شديداً، وأرسل يطلب المشورة من أهل نجران. ثم أتوا إلى الرسول الكريم ﷺ بوفد وسألوه عن أشياء كثيرة إلّا أنّهم لم يقتنعوا بكلامه. ولمّا لم يصلوا إلى نتيجة في الاتفاق، فأوحى الله سبحانه الآية الكريمة، فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك، فلمّا رجعوا إلى رجالهم قال لهم الأسقف: انظروا محمداً في غدٍ فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه على غير شيء.

فلمّا كان الغد جاء النبي ﷺ آخذاً بيديّ علي بن أبي طالب عليه السلام والحسن

(١) التحقيق في كلمات القرآن، مادة: بهل.

والحسين عليهما السلام بين يديه يمشيان وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه، وخرج النصارى يتقدّمهم أسقفهم، فلمّا رأى النبي صلى الله عليه وآله قد أقبل بمن معه فسأل عنهم فقيل له: هذا ابن عمّه وزوج ابنته وأحب الخلق إليه، وهذان ابنا بنته من علي وهذه الجارية بنته فاطمة أعزّ الناس عليه وأقربهم إلى قلبه، وتقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله فجثا على ركبتيه، قال أبو حارثة الأسقف: جثا والله كما يجثو الأنبياء للمباهلة، وخرج النصارى يتقدّمهم أسقفهم أبو حارثة، فقال الأسقف: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً لأزاله بها، فلا تباهلوا، فلا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم إنّا لا نُباهِلك ولكن نصالحك، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله على أن يؤدوا إليه في كل عام ألفي حُلّة، ألفاً في صفر وألفاً في رجب، وعلى عارية ثلاثين درعاً وعارية ثلاثين فرساً وثلاثين رمحاً.

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «**والذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تدلّى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا**»[١].

ومضافاً إلى التفاسير الشيعية، ورد ذكر هذه الحادثة أيضاً في المصادر المعتبرة لأهل السنّة[٢].

- وقعت المباهلة في الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة في موقع خارج المدينة المنوّرة، وقد أصبح اليوم داخلها، حيث شيّد مكانه مسجداً يعرف الآن بـ«مسجد الإجابة»، ويقع على مقربة من المسجد النبوي

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ مناقب ابن المغازي، ص ٢٦٣.

(٢) ذكر صاحب تفسير الميزان في المجلد الثالث صفحة ٢٥٧ أنّ حادثة المباهلة أجمع على نقلها عدد من أهل السنة؛ إذ نُقلت هذه الحادثة في التفسير الكبير، الآلوسي والمراغي ذيل الآية، وكتب الكامل لابن الأثير المجلد الثاني صفحة ٢٩٣، ومستدرك الحاكم المجلد الثالث صفحة ١٥٠، ومسند أحمد بن حنبل المجلد الأوّل صفحة ١٨٥، وكذلك تفاسير روح البيان والمنار وابن كثير والعديد من مصادر الفريقين. كما ذكر كتاب إحقاق الحق المجلد الثالث صفحة ٤٦ أسماء ٦٠ من كبار علماء أهل السنّة أجمع كلّهم على القول: إنّ هذه الآية نزلت في عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

الشريف حيث يبعد عنه بحوالي خمسمائة متر، «**اللّهم ارزقنا زيارته وشفاعته**».

- يقول صاحب تفسير الميزان بالاستناد إلى إحدى الروايات أنّ المباهلة لم تكن خاصّة بالنصارى، إذ دعا النبي الكريم ﷺ اليهود أيضاً إليها.

كما أنّ المباهلة لم تقتصر على النبي وحده، بل، طبقاً لما ورد في الروايات فإنّ سائر المؤمنين كذلك لهم أن يباهلوا.

كما نقلت عن الإمام الصادق في هذا الموضوع بعض الأحكام(١).

- **سؤال:** قد يطرح هنا اعتراض وهو، لماذا استخدم القرآن صيغة الجمع في كلمة «**نساءنا**» في حين أنّ السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هي الحاضرة الوحيدة في حادثة المباهلة؟

في الجواب نقول: أحياناً يأتي إطلاق صيغة الجمع على المفرد في القرآن الكريم لبيان أهميّة الشخص موضوع الخطاب، كما ورد في الآية ١٨١ من سورة آل عمران حيث قال أحدهم مستهزئاً: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾، وكذلك وردت صيغة الجمع حين وصف القرآن الكريم النبي إبراهيم عليه السلام بأنّه أمّة، في حين أنّه شخص واحد.

- لقد كان بإمكان النبي ﷺ الذهاب إلى المباهلة بمفرده دونما حاجة لاصطحاب علي وفاطمة والحسنين عليهم السلام، إلّا أنّ الله ورسوله أرادا من خلال هذه المباهلة تفهيم المسلمين بأنّ هؤلاء هم أنصار رسول الله وشركاؤه في الدعوة إلى الحقّ والهدف الذي ينشده، وأنّهم مستعدّون لمواجهة أيّ خطر تحت رايته، ويمثّلون استمراراً لنهضته ومسيرته.

التعاليم:

١ ـ إذا كان الإنسان مؤمناً بهدفه، سيكون مستعدّاً لأن يعرّض نفسه وخاصّته للخطر، ﴿...مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٣٥١؛ أصول الكافي، ج٢، باب المباهلة.

٢ ـ الدعاء هو الورقة الرابحة الأخيرة للمؤمن وسلاحه الفعّال، ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ﴾.

٣ ـ أبناء البنات يسمّون أبناءً، كما هو الحال مع أبناء البنين، ﴿أَبْنَاءَنَا﴾؛ لذا، فإنّ الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام هما ابناء النبي الكريم صلى الله عليه وآله.

٤ ـ المرأة والرجل يذكران في المحافل الدينيّة المختلفة جنباً إلى جنب، ﴿وَنِسَاءَنَا﴾.

٥ ـ المهمّ في الدعاء هو حالات الدعاة ونفسيّاتهم وليس عددهم. فريق المباهلة لم يزد عن خمسة أنفار، ﴿أَبْنَاءَنَا، وَنِسَاءَنَا، وَأَنفُسَنَا﴾.

٦ ـ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، هو نفس الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ﴿أَنفُسَنَا﴾.

٧ ـ من الضروري اصطحاب الأطفال إلى مجالس الدعاء، ﴿أَبْنَاءَنَا﴾.

٨ ـ أهل البيت عليهم السلام دعوتهم مستجابة، ﴿أَبْنَاءَنَا، وَنِسَاءَنَا، وَأَنفُسَنَا﴾.

٩ ـ طلب المدد الغيبي يكون بعد استنفاد الطرق العادية الطبيعية، ﴿نَبْتَهِلْ﴾.

١٠ ـ المباهلة هي إحدى الطرق المطروحة أمام من لا يستجيب للحقّ عبر أساليب المنطق والاستدلال والمعجزة، ﴿تَعَالَوْا... نَبْتَهِلْ﴾.

١١ ـ ثبات المؤمنين ورباطة جأشهم كفيل بتقهقر العدوّ بباطله، ﴿نَدْعُ... نَبْتَهِلْ﴾.

١٢ ـ الردّ على الاستدلال إنّما يكون بالاستدلال، بيد أنّه لا بدّ من قمع الجدال والعناد، ﴿لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

إشارات:

□ القصّة على ثلاثة أنواع:

١ ـ الروايات والأساطير التي تقوم على الخيال والوهم البعيد عن الحقيقة.

٢ ـ القصص التاريخية التي تكون أحياناً حقيقيّة وموثّقة، وأحياناً أخرى تكون خليطاً من المسائل الصادقة والكاذبة.

٣ ـ الحوادث المنقولة على لسان الوحي، وهي تستند إلى الحقّ ولا شيء غير ذلك. والقصص القرآنية كلّها من هذا النوع؛ لذلك لا يشوبها أيّ خيال أو وهم أو كذب.

التعاليم:

١ ـ لولا القرآن الكريم، لظلّت الصورة الحقيقيّة للسيد المسيح مجهولة ومشوّهة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾.

٢ ـ لا بدّ من تكرار شعار التوحيد والثبات في مواجهة غير الحق، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ أيّ قصّة للأنبياء تتعارض مع التوحيد فهي ملفّقة وباطلة، ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ الإيمان بكلام الحقّ أو رفضه دليل على إرادة الإنسان، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾.

٥ ـ الإعراض عن الحقّ مثال على الفساد والعاصي مفسد، ﴿تَوَلَّوْاْ... بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

٦ ـ علم الله بأعمال المفسدين أعظم نذير، ﴿عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

إشارات:

- الدعوة إلى التوحيد والحقّ واجبة، سواء كانت عن طريق الاستدلال أو المباهلة أو من خلال الدعوة إلى المشتركات.
- يقول المفسّرون في ذيل تفسير هذه الآية إنّ «عديّ بن حاتم» الذي كان نصرانياً ثمّ أسلم، عندما سمع هذه الآية، فهم من كلمة «أرباب» أنّ القرآن يقول إنّ أهل الكتاب يعبدون بعض علمائهم، فقال للنبي الكريم ﷺ: ما كنّا نعبدهم يا رسول الله فما المقصود بعبارة: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾؟

فقال ﷺ: **أما كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم؟**

فقال: نعم.

فقال النبي ﷺ: **هو ذاك**[١].

التعاليم:

١ ـ يجب على المسلمين أن يجتمعوا مع أهل الكتاب على المشتركات، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ...﴾.

٢ ـ ينبغي أن نكون السبّاقين في الدعوة إلى الوحدة، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣ ـ إذا لم تظفر بجميع أهدافك الحقّة، فحاول أن تظفر ببعضها، ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ...﴾.

٤ ـ إحدى مراحل التبليغ الدعوة إلى المشتركات، ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

٥ ـ في دعوتنا للآخرين، علينا أن نحترم العقائد الحقّة والمقدّسات المشتركة، ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

٦ ـ التوحيد والبراءة من الشرك من المشتركات التي تجمع الأديان السماوية، ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ... أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٧ ـ التوحيد، عامل ارتقاء الإنسان. كلمة ﴿تَعَالَوْا۟﴾ تستخدم في الدعوة إلى التعالي والتسامي، ﴿تَعَالَوْا۟... أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٨ ـ الطاعة العمياء للآخرين علامة على التسليم بنوع من الربوبيّة لهم، وهي نوع من العبودية للمطيعين. في حين أنّ جميع أفراد البشر متساوون، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾.

٩ ـ شعار القرآن الفكر الحرّ والشخصيّة المستقلة، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾.

١٠ ـ يجب ألّا يؤثّر إعراض المنكرين على إرادتنا وإيماننا، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

---

(١) تفسير المراغي.

١١ ـ على كلّ داعية أن يتوقّع إعراض الناس عن دعوته حتى لا ييأس أو يقنط، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ...﴾.
١٢ ـ اقطع الجدل بعد استنفاد سبل الاستدلال والبرهان، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ...﴾.
١٣ ـ العبوديّة لله، ونبذ الشرك ورفض الحاكميّة لغير الله، من سمات المسلم الحقيقي، ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

إشارات:

❑ لمّا ادّعت كل واحدة من طائفتي اليهود والنصارى أنّ إبراهيم عليه السلام كان على دينهم ردّ الله سبحانه ذلك عليهم وأبان أنّ الملّة اليهودية والملّة النصرانية إنمّا كانتا من بعده، وكان الجدال محتدماً لدرجة أنّ القرآن الكريم في الآيتين اللّاحقتين: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ يفنّد زيف ادّعاءات الفريقين ويقول: كيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً وقد عاش قبل نزول التوراة والإنجيل؟ فأنّى للكتاب الذي لم ينزل بعد أن يكون له أتباع؟ وهنا يوبّخهم بالقول إنّهم غير مستعدّين حتى أن يتعقّلوا بهذا القدر القليل، بحيث يتّفق كلامهم مع حوادث التاريخ.

التعاليم:

١ ـ حين الموعظة، يجب استخدام العناوين والألقاب الفخمة للمخاطب، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.
٢ ـ يحظى العلم والكتاب بالفضل والقيمة لدرجة أنّ الفضل ينسحب على من يُنسب إليهما أيضاً، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.
٣ ـ لا تحاولوا إثبات حقّانيّتكم بأن تنسبوا العظماء لكم، ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، الأفضل لكم أن تسيروا على نهج العظماء بدلاً من نسبتهم إليكم.
٤ ـ وثّقوا دعاواكم حتى تتّفق مع المنطق والفطرة والتاريخ، ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

إشارات:

□ تحمل هذه الآية تحذيراً وتوبيخاً لأهل الكتاب وتقول لهم إنّكم قد جادلتم وطرحتم الأسئلة العقيمة فيما لكم به علم ومعرفة، فأنتم تعلمون الحياة الطبيعية للنبي عيسى عليه السلام وحاجته إلى الطعام والمسكن والملبس؛ لكنّكم مع ذلك تحاجّون وتجادلون في هذا الأمر، ففريق منكم يقول: إنّه كاذب، وآخر يقول: إنّه ابن الله تعالى[١]، أو محاججتكم في النبي محمد ﷺ الذي جاء نعته في التوراة والإنجيل[٢]. فإذا كنتم أنفسكم أهل جدل ومحاججة ولم تصلوا إلى نقطة مشتركة بينكم، فما لكم وهذه الموضوعات التي ليس لكم أيّ علم بشأنها؟ وكلامكم عن إبراهيم وعن تحديد دينه؟

التعاليم:

١ ـ أحياناً تستدعي الضرورة تقريع أهل الغرور والعناد، ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

٢ ـ أهل الجدل والعناد يجادلون حتى في أوضح المسائل، ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٣ ـ إذا كان الهدف من التباحث والنقاش هو الوصول إلى الحقيقة، فهو ذو أهميّة وقيمة، أمّا إذا كان هدفه السفسطة والقفز بين الموضوعات فهو مذموم، ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

□ «حَنَف»، تعني الميل نحو الحقّ، و«جَنَف»، الميل إلى الباطل؛ لذلك فإنّ

(١) الميزان، في ظلال القرآن، المراغي، المنار.

(٢) تفسير مجمع البيان، وتفسير القرطبي.

«حَنيف» تطلق على السائر على الخط، غير أنّ المشركين كانوا يستعملون الكلمة في وصفهم فكانوا يسمّون أنفسهم «حُنفاء».

❑ لقد ذكرت الآية كلمة **«مسلماً»** إلى جانب **«حنيفاً»** لتنزّه إبراهيم عن الشرك، علاوة على اعتبار الكفر والشرك انحرافاً ومجانبة للحقّ. يقول الإمام علي عليه السلام: **«دين إبراهيم هو دين محمد ﷺ»**[١].

❑ وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في تفسير عبارة **«حنيفاً مسلماً»**: **«خالصاً مخلصاً ليس فيه شيء من عبادة الأوثان»**[٢].

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

إشارات:

❑ تقرّر الآية بما لا يدع مجالاً لأيّ لبس بأنّ الرابطة الإيمانية أكثر رسوخاً ومكانةً من رابطة القرابة والدم والعرق، فالعلاقة التي يكون الولاء الفكري ووحدة الهدف عمودها وقوامها، تكون أوثق من تلك التي يجمع بين أفرادها النسب بينما تباعد بينهم العقيدة والفكر. وها هوذا الإمام الصادق عليه السلام يقول لأحد أقرب أصحابه: **«أنتم والله من آل محمّد»**، ثمّ تلا عليه السلام الآية أعلاه[٣].

وفي الحديث الشهير المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قوله في الصحابي الجليل سلمان الفارسي: **«سلمان منّا أهل البيت»**[٤].

❑ ونلاحظ أنّ الآية ذكرت أنّ أقرب الناس إلى إبراهيم هم الذين اتّبعوه، غير أنّها أفردت ذكر النبي الكريم ﷺ والمسلمين تعظيماً وتشريفاً له، ولتؤكّد أنّ القدوة الأسمى تتجسّد في النبي الكريم والمسلمين.

❑ وفي رواية أخرى في هذا السياق نقرأ: **«إنّ وليّ محمّد مَن أطاع اللّه وإنْ بَعُدتْ لَحمَته، وإنّ عدوّ محمّد مَن عَصى اللّه وإنْ قَرُبتْ قَرابته»**[٥].

---

(١) بحار الأنوار، ج١٢، ص١١.
(٢) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج٢، ص ١٥.
(٣) تفسير مجمع البيان.
(٤) بحار الأنوار، ج١٠، ص١٢٣.
(٥) تفسير مجمع البيان.

□ وأيضاً نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ: المراد من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في الآية، هم الأئمة وأصحابهم[(١)].

التعاليم:

١ ـ رابطة الناس بالقائد هي رابطة العقيدة لا رابطة القبيلة أو اللغة أو الإقليم أو العرق، ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾.

٢ ـ معيار القرابة من الأنبياء طاعتهم، ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾.

٣ ـ النبي الكريم صلى الله عليه وآله والمسلمون هم على ملّة إبراهيم، يسيرون على نهجه ويؤمنون بأهدافه، ﴿أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ... وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

إشارات:

□ ترسم هذه الآية والآيات الثلاث اللّاحقة ملامح الغزو الثقافيّ ومؤامرات الأعداء وخططهم لتجريد المسلمين من دينهم، وفكّ الأواصر التي تربطهم به. وتحكي الآية الحاليّة عن الحقد الديني، والتي تليها تتناول اللجاج والكفر، والآية ٧١ تبيّن أسلوب التمويه والتورية وحجب الحق وكتمانه عن سابق وعي وتصميم، والآية ٧٢ تكشف عن تكتيكات العدوّ في التمويه والتضليل، وبالتالي هذه الآيات في مجموعها ترسم ملامح اختراق ثقافيّ للأعداء نابع من سرائرهم المظلمة الحالكة، واستخدامهم أساليب الكتمان والحجب وإضعاف الروح المعنوية لدى جماهير الناس والتشكيك في معتقداتهم.

التعاليم:

١ ـ الله تعالى يكشف خطط أعداء الدين ويفضح دسائسهم، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ...﴾.

---

(١) الكافي، ج١، ص ٤١٦.

٢ ـ تشخيص العدوّ والكشف عن مخطّطاته ضمانة من كلّ ضرر محتمل، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ...﴾.

٣ ـ الغزو الفكري والثقافيّ خطر جدّي، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ...﴾.

٤ ـ لا تصغوا إلى تخرّصات المنافقين الأعداء، فهم يرجون لكم الضلال والانحراف، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ...﴾.

٥ ـ لا تجانبوا العدل والإنصاف عند الحكم على الناس. الآية تتّهم طائفة من أهل الكتاب لا كلّهم، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٦ ـ بثباتنا وتمسّكنا بديننا ندخل اليأس إلى قلب العدوّ من أن يضلّنا أو يحرفنا عن طريقنا. كلمة «لو» هنا تشير إلى الأمنية البعيدة، ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾.

٧ ـ أولئك الذين يريدون تضليل الناس وحرفهم إنّما يربّون في أنفسهم الحيلة والنفاق والحقد والافتراء والضغينة، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

٨ ـ النزوع نحو حرف الآخرين وتضليلهم يمثّل انحرافاً أخلاقياً خطيراً، ﴿وَدَّت... وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

□ يبدو أنّ سياق الآية يشير إلى العلائم والبشارات التي قرأها أهل الكتاب في كتبهم المقدّسة التوراة والإنجيل عن النبي الكريم ﷺ، وتنكّروا لها حرصاً منهم على التشبّث بمكانتهم الاجتماعيّة ومصالحهم الماديّة، فضيّعوا كلّ تلك العلائم والبشائر.

التعاليم:

١ ـ إيقاظ الضمير، أفضل طريق للدعوة، ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ...﴾.

٢ ـ العلم وحده لا يكفي، بل يجب أن يعضده التسليم والقبول، ﴿تَكْفُرُونَ... تَشْهَدُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾

إشارات:

- عن الإمام الصادق عليه السلام في عبارة ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: «**أي تعلمون ما في التوراة من صفة رسول الله ﷺ وتكتمونه**»(١).
- إنّنا نجد الكثير من المحرّفين الذين ظهروا عبر التاريخ تحت اسم المختصّين بالدراسات الإسلاميّة، أو المستشرقين أو المؤرّخين أو السوّاح، قاموا بتحريف الأماكن والتواريخ في المصادر، وقدّموا صورة مشوّهة عن الإسلام في الموسوعات ودوائر المعارف بوصفهم باحثين ومحقّقين، ما سلب القارئ فرصة التأمّل في المعتقدات الإسلاميّة والإيمان بها.

التعاليم:

١ ـ تلبيس الحقّ وكتمانه، سلاحان استخدمهما العدوّ لنشر الانحراف والضلال بين المؤمنين. في الآيتين السابقتين نقرأ: ﴿يُضِلُّونَكُمۡ...﴾، وفي هذه الآية: ﴿تَلۡبِسُونَ، تَكۡتُمُونَ﴾.

٢ ـ كتمان الحقّ حرام، والكشف عنه واجب، ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ...﴾.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾

إشارات:

- يقول بعض المفسّرين: إنّ اثني عشر من يهود خيبر وغيرها وضعوا خطّة ماكرة لزعزعة إيمان بعض المؤمنين فتعاهدوا فيما بينهم أن يصبحوا عند رسول الله ﷺ ويتظاهروا باعتناق الإسلام ثمّ عند المساء يرتدّون عن إسلامهم،

---

(١) تفسير القمي، ج١، ص ١٠٥.

فإذا سئلوا من قومهم: لماذا فعلوا هذا؟ يقولون: لقد راقبنا أخلاق محمّد عن قرب، ثمّ عندما رجعنا إلى كتبنا وإلى أحبارنا رأينا أنّ ما رأيناه من صفاته وسلوكه لا يتّفق مع ما هو موجود في كتبنا، لذلك ارتددنا؛ وسيحمل هذا بعضهم على القول إنّ هؤلاء قد رجعوا إلى كتبهم السماوية التي هم أعلم منّا بها، إذاً لا بدّ من أن يكون ما يقولونه صحيحاً وبهذا تتزعزع عقيدتهم.

□ وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه عندما نزل على النبي الكريم صلى الله عليه وآله حكم تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة في وقت صلاة الظهر، قال اليهود: آمنوا بما أنزل في أوّل النهار، واكفروا بما جاء في آخره (من تغيير للقبلة) لعلّكم تردّونهم عن القبلة الجديدة فيصلوا ثانية إلى القبلة القديمة في بيت المقدس[1].

التعاليم:

١ ـ أعداء الدين الإسلامي يخطّطون لحرف المسلمين عن دينهم. قرأنا في الآية ٦٩ أنّ أهل الكتاب يودّون لو تضلّوا عن دينكم، وتكشف هذه الآية عن مخطّطهم لتحقيق هذا الهدف، ﴿يُضِلُّونَكُمْ... قَالَت طَّآئِفَةٌ﴾.

٢ ـ كم من فئة اخترقت باسم الإسلام صفوف المسلمين وطعنتهم في ظهورهم بخنجر الغدر، لذا يجب الحذر واليقظة، ﴿ءَامِنُوا... وَٱكْفُرُوٓا... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٣ ـ لا ينبغي للمسلم أن يكون ساذجاً مصدّقاً لكل من أظهر الإيمان، ﴿ءَامِنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا ءَاخِرَهُۥ﴾.

٤ ـ يكشف الله تعالى في اللحظات الحرجة عن أسرار الأعداء ومؤامراتهم، ﴿ءَامِنُوا... وَٱكْفُرُوٓا﴾.

٥ ـ يجب أن نبلغ مرحلةً في الإيمان لا نتأثّر معها بارتداد بعض المسلمين عن الدين، ﴿وَٱكْفُرُوٓا ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ذيل الآية.

٦ ـ إحدى دسائس الأعداء الوصل ثمّ الفصل لخلخلة قواعد المجتمع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

إشارات:

❑ لقد توجّس أهل الكتاب خيفة من اعتناق اليهود للدين الإسلامي، وقد شنّوا حملة دعائية للتصدّي لهذا المسار، ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

التعاليم:

١ ـ يوصي أعداء الإسلام في مخطّطاتهم بضرورة الكتمان ولا يثقون بأحدٍ من غير ملّتهم، ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، (أحد معاني الإيمان الثقة والاطمئنان).

٢ ـ الهداية الإلٰهيّة مسار مستمرّ عبر التاريخ، وهو لا يختصّ بطائفة خاصّة، ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ التعصّب والنظرة الفوقية من آفات التديّن، ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

٤ ـ ألطاف الله تعالى ليست وقفاً على طائفة خاصّة، فالنبوة والهداية فضل إلهي يؤتيه من يشاء، ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ اصطفاء الله للأنبياء يكون على أساس الاستحقاق العلمي، ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

❑ وتؤكد هذه الآية أنّ الله لا يخصّ أيّ طائفة أو قوم كاليهود برحمته بخلاف تصوّر هؤلاء حيث يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾. فهو

يختار من عباده من هو أجدرهم من حيث العلم والحكمة، فيصيب بلطفه من يشاء.

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

إشارات:

❑ ورد في الروايات: «**ردّوا الأمانات إلى أهلها ولو كان فاسقاً**»[1].

التعاليم:

١ ـ توخّ العدل والإنصاف في التعامل مع الأعداء، ولا تخوّنهم جميعاً، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ... يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾.

٢ ـ حفظ الأمانات معيار تقييم الأشخاص، ﴿يُؤَدِّهِۦٓ... لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾.

٣ ـ القيم الأخلاقيّة ثابتة، فحفظ الأمانات خصلة حسنة أيّاً كان صاحبها، والخيانة عمل قبيح أيّاً كان صاحبها. لذا، فردّ الأمانات قيمة عليا حتى وإن صدرت من الأعداء، ﴿يُؤَدِّهِۦٓ... لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾.

٤ ـ القيام والاستقامة ضروريتان لاسترداد الحقّ، ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾.

٥ ـ لا يجوز الاستغلال والاستحمار والعنصرية، ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾.

٦ ـ كان اليهود والمسيحيون يعتبرون أنفسهم علماء والمسلمين جهلة وأميين، ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾.

٧ ـ أقبح من الذنب تبريره. كان أهل الكتاب يأكلون أموال الناس بغير حقّ ويزعمون أنّ الله يرضى أفعالهم تلك، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

---

(١) مجمع البيان.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾

إشارات:

□ الوفاء بالعهد واجب في الحالات الآتية:

أ) عهد الله إلى الإنسان عن طريق الفطرة أو الأنبياء، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾[١].

ب) العهد الذي يقطعه الإنسان مع الله تعالى، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ...﴾[٢].

ج) العهد الذي يقطعه الإنسان مع الإنسان، ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟...﴾[٣].

د) عهد القائد مع الأمّة وبالعكس، ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾[٤].

التعاليم:

١ ـ يجب التصدّي للأفكار الخاطئة، ﴿بَلَىٰ﴾ (كلمة «بلى» تستخدم في اللغة العربيّة ردًّا على النفي أو جواباً عن استفهام مقترن بالنفي).

٢ ـ التقوى تصون الإنسان من الانجرار وراء الكذب على الله وغمط حقوق الناس، ﴿يَقُولُونَ... ٱلْكَذِبَ... بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾.

٣ ـ لا خير في الشعارات، العمل والتقوى أولى، ﴿أَوْفَىٰ... وَٱتَّقَىٰ﴾.

٤ ـ الوفاء بالعهد من علائم التقوى، ﴿أَوْفَىٰ... وَٱتَّقَىٰ﴾.

٥ ـ الوفاء بالعهد والتقوى هما معيار المحبوبيّة، لا العلم. أو أن يكون الإنسان من أهل الكتاب، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٠.
(٢) سورة التوبة: الآية ٧٥.
(٣) سورة البقرة، ١٧٧.
(٤) سورة الأنفال، ٥٦.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

إشارات:

❑ تهدّد الآية الكريمة الذين ينقضون العهد بخمسة أنواع من العذاب الإلٰهيّ هي: الحرمان والخسران في الآخرة، الحرمان من عناية الله ولطفه، الحرمان من نظرة الرحمة واللطف الإلٰهيّة في يوم القيامة، الحرمان من التطهّر من الذنوب، وأخيراً، الاضطرار إلى عذاب أليم.

❑ ورد في روايات الفريقين أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا إيمان لِمَن لا أمان له ولا دين لِمَن لا عهد له**»[١].

❑ ورد في الروايات أيضاً: أنّ المراد بـ «**عهد الله**»، الحقائق ذات الصلة بالنبي الكريم ﷺ والمذكورة في التوراة والتي حُرِّفت على يد علماء اليهود.

❑ فلنقارن أوضاع أولئك الذين يسلّم الله عليهم؛ ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[٢] مع أوضاع الذين لا يكلّمهم الله في يوم الحساب؛ ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وإذا أرادوا أن يئنّوا من وطأة العذاب، فتسكتهم الملائكة بالقول: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٣].

❑ عن الرسول الأكرم ﷺ: «**من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان**». ثمّ تلا ﷺ هذه الآية[٤].

❑ كما روي عن الإمام علي عليه السلام أنّ: المراد بنظرة الله يوم القيامة في ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ هي نظرة الرحمة (لا نظرة الباصرة)[٥].

---

(١) تفسير نور الثقلين والمراغي.
(٢) سورة يس: الآية ٥٨.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٠٨.
(٤) تفسير نور الثقلين.
(٥) تفسير البرهان.

التعاليم:

١ ـ نقض عهد الله من الكبائر. لم يطرح هذا النمط من التهديد المتتالي في القرآن الكريم بالنسبة لأيّ معصية أخرى، ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ... لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾.

٢ ـ الأيمان الكاذبة بالنسبة لمن يبيع دينه، تؤدّي إلى الحرمان في يوم القيامة، ﴿يَشْتَرُونَ... وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾.

٣ ـ طلب الدنيا وراء نقض العهود، ﴿ثَمَنًا﴾.

٤ ـ ثمن نقض العهد بخس مهما علا وارتفع، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٥ ـ عقوبات يوم القيامة من سنخ معاصي الإنسان، فعدم المبالاة بالعهود ستؤدّي إلى عدم مبالاة الله تعالى بنا يوم القيامة، ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ... وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ...﴾.

٦ ـ العذاب الأخروي فيه شقٌّ نفسي، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ وشقٌّ جسمي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

- طبقاً لهذه الآية الكريمة، فإنّ إثم العالم غير الورع، يتضاعف، لأنّه:
  - أ) يدفع الناس إلى الإثم، ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ﴾.
  - ب) يكذب على الله، ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.
  - ج) يقوم بكلّ هذه الآثام عن قصد وسابق وعي، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ يجب أن نتحلّى بالإنصاف في أحكامنا، وألّا ننظر إلى الجميع نظرة واحدة، ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا...﴾.

٢ ـ من المؤكّد وجود بعض العلماء الخونة في صفوف أهل الكتاب، ﴿لَفَرِيقًا﴾.

٣ ـ الديماغوجية وتخرّص الحديث من آثام العلماء، ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾.

٤ ـ الكلام المعسول إذا لم يكن في مسير الحقّ، سوف يضحي وسيلة للانحراف، ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾.

٥ ـ المضلّون يوظّفون مقدّسات الدين وكتب السماء لأغراضهم، ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾.

٦ ـ التلفيق بأخذ فكرة من هنا وفكرة من هناك إحدى الحراب الثقافيّة المسمومة للعدوّ، ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٧ ـ إذا التمس العدوّ لديكم أرضية للانحراف فسيلجأ إلى كلّ المزاعم الخطرة، ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ... وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٨ ـ الخيانة الأعظم لثقافة الإنسان وعقيدته، التحريف المقصود والمغرض للعلماء والخواص، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

إشارات:

- إنّ ما يميّز الأنبياء عن سائر البشر هو أنّهم كلّما زاد عدد أتباعهم وتعاظمت قدرتهم ونفوذهم، تشدّدوا أكثر في دعوة الناس إلى عبوديّة الله وحده، وهم لا يحيدون عن طريق التوحيد أبداً، ويزيدهم ذلك إصراراً وإنذاراً لأتباعهم. في حين أنّ الدعاة الذين يلهثون وراء منافعهم ومصالحهم يتقمّصون في البداية دور الزاهد الناسك فيشرعون دعوتهم بإخلاص وتفانٍ، ولكن ما أن يتربّعوا على كرسي السلطة يكشفون عن وجه الاستبداد والأنانية والديكتاتورية المقيتة.

- لقد حثّت الروايات على أن ينادي الإنسان عبده بكلمة «**يا فتى**» وليس «**يا عبدي**»، وألّا ينادي العبد سيّده بكلمة «**ربّي**» بل «**سيّدي**»[(١)].

(١) تفسير القرطبي.

□ إذا كان محظوراً علينا عبادة الأنبياء، مع كلّ ما لهم من منزلة عظيمة، فكيف بالآخرين الذين هم أقلّ شأناً ومنزلة منهم. إذا لم تكن المواهب المعنوية عامل عبوديّة للإنسان، فسيكون لزخارف الدنيا شأن آخر.

□ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ جمع «رباني» تقال لمن أحكم ارتباطه بالله وانشغل بإصلاح الآخرين وتربيتهم.

□ ورد عن رسول الله ﷺ أنّه كان يحذّر صنفين من الناس، صنفاً أبغضوه دون هوادة، وآخرين أحبّوه فغالوا في حبّه. وكان النبي عيسى عليه السلام أيضاً يطلق هذه الصرخة بوجه أتباعه، كما ونقرأ في كتاب نهج البلاغة مثل هذه العبارات عن الإمام علي عليه السلام.

كما قال ﷺ: «**لا تَرفعونى فَوق حقّي فإنّ الله تعالى اِتّخذَني عَبداً قبل أن يَتّخذَني نَبيّاً**»، ثمّ تلا هذه الآية[1].

□ يقول رسول الله ﷺ في هذه الآية: «**ما من مؤمن ذكرٍ أو أنثى، حرٌّ أو مملوك، إلا ولله عليه حقّ واجب، أن يتعلّم القرآن ويتفقه فيه**» ثمّ قرأ هذه الآية[2].

التعاليم:

١ ـ لا يجوز للإنسان أن يستغلّ منصبه أو موقعه أو شعبيّته، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾.

٢ ـ الكتاب والحكمة والنبوّة لا ترفع الإنسان فوق مستوى البشر، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾.

٣ ـ هدف الأنبياء ليس إنقاذ الإنسان من الشرك فحسب، بل إرشاده ليبلغ مرحلة الربّانيّة، ﴿كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

٤ ـ علوم الدين والكتاب هي التي تأخذ بيد الإنسان إلى طريق الربّانيّة، لا التصوّف أو العزلة الأربعينيّة للمتصوّفة[3] ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ...﴾.

٥ ـ إذا لم يصبح الإنسان ربّانياً من التعليم والتعلّم والدراسة، فما ذلك بالعلم[4]

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) مستدرك الوسائل، ج٤، ص ٣٢٣.
(٣) تفسير في ظلال القرآن.
(٤) تفسير الصافي.

﴿رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ...﴾.

٦ ـ العلماء الربّانيّون هم المفسّرون الحقيقيون للقرآن الكريم، ﴿كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

٧ ـ لا بدّ من استمرار تعليم الكتب السماوية، ﴿تُعَلِّمُونَ... تَدْرُسُونَ﴾.

٨ ـ كاد المعلم أن يكون رسولاً، ﴿تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الدعوة إلى الشرك حرام أيّاً كان مصدرها، ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟...﴾.

٢ ـ الكفر ليس نفي وجود الله فقط، بل هو القبول بربوبيّة واستقلالية أيّما مخلوق، ﴿تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

- الاختلاف الذي يميّز مذاهب الأنبياء، كالاختلاف الذي يميّز معلّمَين أو مديرين عن بعضهما، فهما يتّبعان نهجاً واحداً في الأصول والمبادئ العلمية والسياسية، غير أنّهما يجتهدان في التفاصيل الجزئية وذلك لاختلاف الإمكانيات الشخصيّة للمتعلّمين أو ظروف المحيط الذي يعيشان فيه، فينتج عن ذلك تمايز برامجهما وخططهما[(١)].

- وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنّ الله أخذ ميثاقاً على الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، أن يخبروا أممهم بمبعثه ونعته، ويبشروهم به، ويأمروهم بتصديقه**»[(٢)].

---

(١) تفسير المراغي. (٢) تفسير مجمع البيان.

كما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «المراد بـ ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ﴾ «هو نبيّ الإسلام»[1].

□ من الضروري أن يمتلك الإنسان روح الطاعة والتسليم لأوامر الله وأحكامه، وإن عَدِمَ ميادين التطبيق، فعلى سبيل المثال، إنّ الشهادة شيء، والاستعداد للشهادة شيء آخر مختلف.

وكما أنّ الله لا يريد سفك دم إسماعيل، لكنّه يحثّ نبيّه إبراهيم عليه السلام على التأهّب والاستعداد التامّ لذبح ولده والتضحية به، أو أنّنا ربّما لن ندرك عصر ظهور الإمام المهدي عليه السلام، غير أنّ انتظار ظهوره وحبّه والأنس به والاستعداد والتهيّؤ لذلك هي قضيّة لطالما تمّ التأكيد عليها في عشرات الآيات والروايات.

نفس الشيء بالنسبة للأنبياء السابقين، فعلى الرغم من أنّهم لم يدركوا عصر النبي الكريم صلى الله عليه وآله، إلّا أنّهم كانوا مطيعين لأمر الله ومسلّمين لمشيئته، وكانوا يرجون الإيمان به ونصرة رسالته، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من أخذ المواثيق عند إناطة المسؤوليات الإلٰهيّة بالأشخاص، ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

٢ ـ كلّما كانت المسؤولية أشقّ، استدعى ذلك أخذ المواثيق. والحقّ أنّ التخلّي عن الشريعة والسنّة الموجودة والإيمان بشخص ظهر حديثاً ودعمه ليس بالأمر السهل؛ لذلك أخذ الله تعالى منهم ميثاقاً غليظاً، ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ...﴾.

٣ ـ بشارة ظهور النبي الخاتم صلى الله عليه وآله أمر حتمي، لذلك أخذ الله الميثاق من جميع الأنبياء لا بعضهم، ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ... جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾.

٤ ـ مسار النبوّة محور الوحدة لا عامل فُرقة وتشتّت، ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين.

٥ ـ للأنبياء هدف مشترك واحد، فالأنبياء الماضون يبشّرون بمن سيأتي بعدهم، وعليهم ميثاق بالإيمان بهم ونصرتهم، والأنبياء اللّاحقون يصدّقون من سبقهم، ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾.

٦ ـ ليرحّب الماضون باللّاحقين، ويعرّفوهم للناس، ويهيّئوا الأرضية لاعتلائهم، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ... وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

٧ ـ الإيمان وحده لا يكفي، بل يجب أن يعضده الدعم والنصرة، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

٨ ـ للأنبياء مراتب ودرجات، وخاتم النبيّين أرفعهم درجة وأشرفهم؛ لأنّ على جميع الأنبياء السابقين أن يؤمنوا به وينصروه، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

٩ ـ إذا كان الإيمان بنبيّ الإسلام ﷺ ونصرته واجبة على الأنبياء السابقين، فبالتأكيد يجب على أتباعهم أيضاً أن يؤمنوا به ويطيعوه، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

١٠ ـ النصرة القيّمة هي التي تفيض عن ينابيع الإيمان، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

١١ ـ الأمر الضروريّ هو امتلاك روح القبول بالحقّ والتسليم به، وإن لم تتوفّر الظروف المناسبة للتطبيق. لم يدرك الأنبياء الماضون النبي الكريم ﷺ، لكنّهم كانوا مفعمين بروح التسليم، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

١٢ ـ الناقض للعهد فاسق، ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ... فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

إشارات:

□ خلائق السماوات والأرض كلّها خاضعة لأمر الله ومسلّمة لقضائه، إنّها وإن لم تفصح عن هذا التسليم والخضوع في الظروف العادية، لكنّه يتجلّى بوضوح عندما يدلهمّ الخطر فتتّجه أفئدتها نحو خالقها، فالمؤمن يسلّم لله بمحض

إرادته، فيما ينتاب الآخرون هذا الإحساس عندما يواجهون الخطر أو الموت أو الهزيمة في الحرب أو عند الإفحام.

إنّ كلّ ذرّة في هذا العالم، من أصغر نويّة إلى أعظم كوكب يخضعون لنفس القانون الذي وضعه الله تعالى، وبإمكانه وحده أن يغيّره متى شاء.

ولا بأس هنا أن أذكر أنّني وأنا أكتب هذه الكلمات، شعرت للحظة بصداع نصفي شديد دونما سبب واضح، فوضعت القلم، وأخذت أمسح بيدي على موضع الألم، وبعد لحظات زال الألم فجأة واستعدت الهدوء فقلت في نفسي: نعم، إنّ الوجود برمّته في أيّ لحظة وأيّما صورة كان في قبضة الله، فحركة كلّ ورقة على الشجر، وكتابة كلّ كلمة لا يمكن أن تتمّ دون إرادته ومشيئته.

- جاء في الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في هذه الآية: «**إذا قام القائم عليه السلام لا يبقى أرض إلّا نودي فيها بشهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله**»[1].
- وأيضاً نقل عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ أنّه قال: «الملائكة أطاعوه في السماء، والأنصار وعبد القيس أطاعوه في الأرض»[2].

التعاليم:

١ ـ اختيار غير طريق الله، أمر يتعارض مع نظام الكون، ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾.

٢ ـ كنه الدين هو التسليم، ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ...﴾.

٣ ـ الإنسان يبحث دائماً عن الطريقة والخلاص، والنزوع نحو الدين مغروس في كيانه. (وكلمة «**يبغون**» تدلّ على رغبة أو نزعة دائمية).

٤ ـ ما دام الكون كلّه خاضع له، فلماذا لا نخضع نحن؟ ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

---

(١) تفسير العيّاشي، ج١، ص١٨٣.
(٢) تفسير الدرّ المنثور.

٥ ـ هناك مخلوقات ذات شعور في السموات، ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (تستخدم «مَن» للإشارة إلى الذات العاقلة).

٦ ـ إذا كان مرجعنا إليه، فلماذا لا نوجّه وجهنا له منذ البداية؟ ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

إشارات:

- هذه الآية شبيهة بالآية ١٣٦ من سورة البقرة، مع شيء من الاختلاف البسيط.
- ليس المهمّ ظاهر العمل، بل الغاية التي وراءه والنتيجة التي ينتهي إليها، فربّما اختلف ظاهر دعوة الأنبياء وسياقها العام، فمثلاً، يذهب النبي موسى إلى فرعون لدعوته لدين الحقّ، ويدعو النبي سليمان ملكة سبأ بلقيس إلى الإيمان، غير أنّ الغاية النهائية لكلتا الدعوتين واحدة، تماماً كما هو الحال مع مسارات الأئمة المعصومين عليهم السلام.
- قلنا إنّ الله أخذ ميثاق الأنبياء الماضين ليبشّروا أتباعهم بالنبي اللّاحق ونصرته، وفي المقابل، فإنّ النبي المُبَشَّر به ملزم بالنيابة عن جميع أتباعه أن يعلن عن تصديقه بدعوة جميع إخوانه الأنبياء السابقين.

التعاليم:

١ ـ أعلن إيمانك جهاراً، ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾.

٢ ـ الإيمان بالأنبياء هو من الإيمان بالله تعالى، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ... وَٱلنَّبِيُّونَ﴾.

٣ ـ لا ينبغي أن ننتقص من خدمات الآخرين، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ... وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

٤ ـ إرسال الرسل مظهر من مظاهر الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

٥ ـ ما فتئ الدين والهداية الإلٰهيّة رفيقي الإنسان لا يفارقانه، الأنبياء كالمعلمين في مدرسة واحدة، كلّ منهم مأمور بإرشاد الناس وهدايتهم، ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ و...﴾.

٦ ـ يجتمع الأنبياء جميعاً على هدف واحد، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾.

٧ ـ فضل بعض الأنبياء على البعض الآخر؛ ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[1] لا يمنع أن نؤمن بهم جميعاً، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾.

٨ ـ من خلال إيمانه بسائر الأنبياء يدعو نبي الإسلام أتباع الأديان التوحيدية إلى الوحدة، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾.

٩ ـ نبي الإسلام يجسّد التسليم المطلق للحقّ، ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

١٠ ـ الذي يميّز بين الأنبياء هو، في الحقيقة، لم يسلم وجهه لله تعالى، ﴿لَا نُفَرِّقُ... وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

١١ ـ المؤمنون، إلى جانب سائر الخلائق، مسلمون لله، ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ... وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾

إشارات:

- يُستفاد من ﴿يَبۡتَغِ﴾، أنّ مراد الآية الكريمة أولئك الذين وصل إليهم الإسلام فأعرضوا عنه، وآمنوا بأديان أخرى. فهؤلاء هم الخاسرون في يوم القيامة، وأنّ دينهم الذي آمنوا به لن يُقبل منهم في ذلك اليوم.
- بالاستناد إلى الآية ٨١ فإنّ اعتناق الدين الإسلامي هو الميثاق الذي أخذه الله على جميع أنبيائه السابقين؛ لهذا السبب فإنّ مجيء النبي الكريم ﷺ والدين الإسلامي سيجعل الأديان الأخرى غير مقبولة، ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٥.

□ لقد رسمت الآيات السابقة الخطوط العريضة لأصول الدين الإسلامي، وهذه الخطوط هي:

١ ـ لقد أخذ الله ميثاقاً من جميع الأنبياء الماضين ليؤمنوا بالنبي اللّاحق.

٢ ـ الكون كلّه يُسلم لله ولا يجوز اعتناق غير الدين الإلٰهيّ.

٣ ـ يؤمن المسلمون بجميع الأنبياء والكتب السماوية.

وتعلن هذه الآية الكريمة صراحة أنّ: كلّ من يعتنق ديناً غير الإسلام فلن يُقبل منه. نعم، بعد الدعوة والاستدلال والمباهلة وإعلان وحدة جميع العقائد والكتب السماوية الأخرى، فإنّه لا يبقى سوى التحدّث بصراحة دون حجب.

التعاليم:

١ ـ الإسلام ينسخ جميع الأديان السابقة له، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

٢ ـ الإعراض عن الدين الجامع هو خسران أبدي، ﴿وَمَن يَبْتَغِ... مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٣ ـ الآخرة هي محل ظهور الخسران الحقيقي، ﴿فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٤ ـ اختيار الإسلام، دليل على بعد نظر الإنسان ومقدّمة لنجاته، ﴿فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٦)﴾

التعاليم:

١ ـ كلّما كانت أدلة الهداية أكثر وأوضح، كان الكفر بها وتجاهلها أخطر، ﴿كَيْفَ يَهْدِى... لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٢ ـ العلم والإيمان الابتدائي لا يكفيان، بل يلزم ثبات الإيمان واستمراره والعمل به؛ ذلك أنّ خطر الارتداد يتهدّد الإنسان دائماً، ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

٣ ـ لقد ارتدّ جماعة من المسلمين في عصر النبي الكريم ﷺ، ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

٤ ـ الإعراض عن الحقّ والعقل والمنطق والرسول والبيّنات، يدفع بالإنسان إلى خارج مدار الألطاف الإلٰهيّة، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥ ـ سنّة الله تتمثّل في حَجب الهداية عن الظالمين، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. (عبارة ﴿لَا يَهْدِى﴾ دليل على دوام العمل والسنّة الإلٰهيّة).

٦ ـ يشقّ على المرتدّ التوبة والعودة، ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾.

٧ ـ الكافرون الجاهلون أقرب إلى الهداية من الكفّار العالمين، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٨ ـ بيدنا أن نتمتّع بالهداية الإلٰهيّة أو أن نحرم أنفسنا منها، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾

إشارات:

- لعلّ سبب لعنة جميع الناس المرتدَّ هو أنّ الضمير الحيّ والفطرة السليمة يرفضان هذا الإعراض والكفر الإرادي بالدين، أو لأنّ نار الكفر الإرادي تسري في الأجيال والعصور، وستحرق الكثير من الأفراد.
- ورد ما يشبه هذا اللعن من الله والملائكة والناس في الآية ١٥٩ من سورة البقرة على العلماء الذين يكتمون الحقائق؛ لذا نستنتج أنّ خطيئة العالم الذي يكتم الحقّ شبيهة بخطيئة المرتدّ الذي يكفر بالإيمان عن إرادة وقصد.

التعاليم:

١ ـ الملائكة تبدي ردّة فعل حيال الأفكار والأعمال القبيحة للإنسان، ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

٢ ـ لا بدّ للناس من أن يتصدّوا للمرتدّين والمنحرفين، ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ... ٱلنَّاسِ﴾.
٣ ـ العلم والمعرفة يؤثّران في مقدار العذاب الإلهيّ وكيفيّته، ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ... لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

إشارات:

□ إذا دخل الكافر في الإسلام، فسوف تشمله قاعدة «**الإسلام يَجُبُّ ما قبله**»، في حين أنّ على المرتدّ الذي يعود إلى الإسلام ويتوب عن ارتداده أن يقضي ما فاته في فترة ارتداده من التكاليف والواجبات من صلاة وصوم وأن يصلح أفكاره وأعماله جميعها.

التعاليم:

١ ـ طريق التوبة مفتوح للجميع بمن فيهم المرتدّين، ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ... إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾.
٢ ـ علامة التوبة الحقيقيّة إصلاح ما فسد، ﴿تَابُواْ... وَأَصْلَحُواْ﴾.
٣ ـ الله تعالى يقبل التوبة ويغفر الذنوب، لا بل يحبّ التوّابين ويغمرهم برحمته، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

إشارات:

□ الارتداد على نوعين:
أ) المرتدّ الملّي هو الذي انعقدت نطفته من أبوين كافرين، فأعلن الكفر بعد البلوغ، ثمّ اعتنق الإسلام، وعاد مجدّداً إلى الكفر. وعقوبة هذا النوع من الارتداد أخفّ لأنّ صاحبها لم يكن مسلماً بالولادة.

ب) المرتدّ الفطري، وهو الذي انعقدت نطفته وكان أحد أبويه مسلماً، وبعد بلوغه أعلن الإسلام، ثمّ ارتدّ عنه بعد ذلك. عقوبة هذا النوع من الارتداد شديدة وهي الإعدام.

- يستفاد من آيات عديدة في القرآن الكريم أنّ كل كمال أو انحراف في الإنسان قابل للزيادة والنقصان، فهناك زيادة العلم كما في الآية: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، وهناك زيادة الهداية: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾[2]، وأيضاً هناك زيادة في الضلالة والكفر كما في الآية الكريمة موضع البحث: ﴿ٱزْدَادُوا كُفْرًا﴾.
- على الرغم من أنّ باب التوبة لم ولن يرتج بوجه أحد، غير أنّه ينبغي ألّا يسمح لفئة أن تستغلّ هذه التوبة لأغراضها وأهوائها. فأولئك الذين تخلّوا عن إيمانهم ومردوا على الكفر واللجاج، ولا يثوبون إلى رشدهم إلّا عند لحظة الاحتضار أو انتصار المسلمين في ساحة المعركة، فمن البديهي أن لا تقبل توبتهم، ذلك أنّ للتوبة آداباً وشروطاً وأسلوباً خاصّاً لا يشملهم بالتأكيد.

التعاليم:

١ ـ الإيمان القيّم هو الذي يدوم حتى آخر لحظة في عمر الإنسان، ولا خير في إيمان ينتهي بالكفر، ﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾.

٢ ـ الإنسان مخيّر، فإمّا أن يختار الإيمان أو الكفر، أن يثبت على إيمانه أو أن يتمسّك بكفره، أن يتوب أو يصرّ على الخطيئة، ﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾.

٣ ـ الأنكى من الكفر والارتداد اللجاج والإصرار على الانحراف والكفر، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا﴾

٤ ـ الله تعالى يقبل التوبة من عباده، غير أنّ هناك من فقد الأهليّة للتوبة. الطبيب مهما كان ماهراً، لا يستطيع فعل شيء ما لم يتوفّر الاستعداد لدى المريض لقبول العلاج، ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

---

(١) سورة طه: الآية ١١٤.
(٢) سورة محمّد: الآية ١٧.

٥ ـ الإصرار على الكفر سبب الحرمان من قبول التوبة، ﴿ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

إشارات:

❏ ثمّة فوارق تميّز عالم الدنيا عن عالم الآخرة نذكر منها:

١ ـ هموم الإنسان وأحزانه في الدنيا تسري إلى سائر بني البشر، فيما يمتنع ذلك في الآخرة.

٢ ـ ربّما استطاع الإنسان أن يحلّ مشاكله في الدنيا بأساليب متعدّدة كالاعتذار، أو الكفّارة، أو الكذب، أو الحيلة، أو التوبة، أو الشكوى، بينما لا يمكنه ذلك في الآخرة.

٣ ـ شدائد الدنيا وعذاباتها تهون خصوصاً إذا ما وطّن الإنسان نفسه عليها؛ ولكن لا سبيل إلى ذلك بالنسبة لعذاب الآخرة.

التعاليم:

١ ـ الخطر الأكبر الموت على الكفر، ﴿مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾، أمّا أمنية الأنبياء فهي الموت على التسليم لله، كما في قول النبي يوسف ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾[1].

٢ ـ لا قيمة لأموال الدنيا في يوم القيامة، فهي لا تنفع، حتى وإن كانت ملء الأرض ذهباً، ﴿مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾.

٣ ـ قيمة الإيمان تسمو على كلّ المادّيّات. نجاة الإنسان في الإيمان فقط، ﴿مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾.

٤ ـ الموت على الكفر يحرم الإنسان من الشفاعة، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠١.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

إشارات:

- «البِرّ» هو الخير والبركة الواسعة، كما يطلق على الأرض المعدّة للزراعة أو السكن. ويقال للقمح ـ وهو طعام عموم الناس والحيوانات ـ «البُرّ» بضمّ الباء.

في ضوء الاشتقاقات اللغوية لكلمة «برّ» والتي تعني التوسّع في الخير، فإنّنا نقرأ في القرآن معاني عديدة لهذه الكلمة من قبيل الإيمان والعمل الصالح والجهاد والصلاة والوفاء بالعهد، ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١].

- يوصي القرآن الكريم الجميع بالتعاضد في أمور البرّ، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ﴾[٢]، وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى المؤمنين بأنهم لن يحصلوا على هذا الشيء الثمين ما لم ينفقوا من طيّب ما يحبّون.

أمثلة على إنفاق المؤمنين:

١ ـ كان «أبو طلحة» أكثر أهل المدينة نخلاً، وكان أحبّ أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. وكانت هذه الحديقة الغنّاء تدرّ عليه مالاً وفيراً وأصبحت مدار حديث الناس. فلما نزلت الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إنّ الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وأنّ أحبّ أموالي إليّ بيرحاء، وأنّها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله ﷺ: «**بخ بخ ذلك مال رابح لك**

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٧. (٢) سورة المائدة: الآية ٢.

وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه(١).

٢ ـ استضاف أبو ذر الغفاري ضيفاً فقال للضيف: إنّي مشغول، وإنّ لي إبلاً فاخرج وآتني بخيرها فذهب فجاء بناقة مهزولة، فقال أبو ذر: خنتني بهذه، فقال: وجدت خير الإبل فحلها، فذكرت يوم حاجتكم إليه، فقال أبو ذر: إنّ يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرتي، مع أنّ الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٢).

٣ ـ عندما زُفّت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، في ليلة عرسها إلى بيت زوجها، جاء إليها فقير وطلب منها ثوباً قديماً فتلت الآية الكريمة ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ...﴾ ثمّ أعطته ثوب عرسها.

٤ ـ مرّ عبد الله بن جعفر على بستان يعمل فيه غلام أسود، عندما جلس الغلام ليتناول طعامه دخل البستان كلب وجلس أمامه، فأعطاه الغلام لقمة، فعاود الكلب بنظراته يطلب المزيد، فناوله الغلام لقمة أخرى وهكذا استمرّ في ذلك حتى آخر لقمة من طعامه، حينذاك سأله عبد الله بن جعفر: وماذا عنك؟ أجابه الغلام: لا نصيب لي اليوم، فسأله: ولم فعلت ذلك؟ قال: لقد جاء الكلب من مكان بعيد، وكان جائعاً. فأعجب عبد الله بن جعفر بفتوّة الغلام، فاشترى البستان والغلام، وأعتق الغلام ثمّ أهداه البستان(٣).

- ورد في الأحاديث حول تفسير هذه الآية: أنّ طريق بلوغ البرّ هو مساعدة الوالدين قبل أن يطلبوا ذلك حتى لو كانا غير محتاجين(٤).

- وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو يوصي تلميذه المفضل بن عمر قائلاً: **«سمعت أبي يقول من مضت له سنة لم يصلنا من ماله قلّ أو كثر لم ينظر الله إليه يوم القيامة إلّا أن يعفو الله عنه، ثم قال: يا مفضل إنّها فريضة فرضها الله**

---

(١) التفسير الكبير؛ وتفسير مجمع البيان؛ صحيح البخاري، ج٢، ص٨١.

(٢) تفسير مجمع البيان.

(٣) تفسير المنار.

(٤) الكافي، ج٢، ص ١٥٧.

على شيعتنا في كتابه إذ يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فنحن البرّ والتقوى وسبيل الهدى وباب التقوى، ولا يحجب دعاؤنا عن الله»[١].

التعاليم:

١ ـ السبيل الوحيد لبلوغ منزلة المحسنين هو الإنفاق الخالص ممّا نحب، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ...﴾.

٢ ـ ليس هدف الدين الإسلامي من الإنفاق محاربة الفقر فحسب، بل دفع المنفق نحو الكمال. أمّا أهمّ نتائج الإنفاق، فهي نزع الأهواء والعلائق المزيّفة من قلب المنفق، وتنمية روح السخاء والكرم في نفسه، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾.

٣ ـ طلب الدنيا يحرم المرء من بلوغ مقام البرّ، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾.

٤ ـ سعادة المرء مرهونة برؤيته الاجتماعيّة وسخائه، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾.

٥ ـ «الروح» هي أغلى ما يملك الإنسان؛ لهذا فإنّ الشهداء الذين ضحّوا بأرواحهم في سبيل الله يتربّعون على ذرى مقام البرّ، ﴿تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

٦ ـ أنفق ممّا تحب، لا ممّا يحبّ البائس الفقير؛ إذ لربّما رضي الفقير بالنزر اليسير لشدّة فقره، ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، لا «ممّا يحبّون».

٧ ـ الإنسان الذي تربّى في المدرسة الإلٰهيّة، لا يسمح لنفسه أن يكون عبداً للمال بل يصيّر المال عبداً له، ﴿تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

٨ ـ المهمّ في الإنفاق هو النوعيّة لا الكمّية، ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

٩ ـ الإسلام مدرسة لحبّ البشرية لا لعبادة المال، ﴿تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

١٠ ـ لا إفراط ولا تفريط في الإنفاق، أنفق قسماً ممّا تحبّ، ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾؛ «من» تفيد التبعيض.

١١ ـ حبّ المال مغروس في نفس كلّ إنسان: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾؛ بيد أنّ الخطير في الأمر هو الغلوّ في حبّ المال الذي يحول دون الإنفاق، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[٢].

---

(١) تفسير العيّاشي.

(٢) سورة العاديات: الآية ٨.

١٢ ـ الإنفاق مهمّ حتى وإن قلّ، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ نعم، فورقة صفراء على سطح الماء قد تكون سفينة لمئات النمل.

١٣ ـ إذا كان الله ناظراً إلى إنفاقنا، فلماذا نبخس كمّه ونوعه؟ تعالوا إذن ننفق الأفضل، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

الجزء «٤»

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

إشارات:

❑ جاء في التفاسير أنّ بعضاً من أهل الكتاب طرحوا استشكالاً على النبي الكريم ﷺ قائلين: إذا كانت تعاليمه تتبع تعاليم الأنبياء الماضين إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فكيف يحلّل لحوم الإبل وألبانها؟ فنزلت هذه الآية لتردّ على هذا الاستشكال بأنّ جميع الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل، لكنّ النبي يعقوب قد حرّم على نفسه بعض الأطعمة. وقيل في سبب تحريمه إنّه عندما كان يأكل لحم الإبل كان يشتكي بعض الأمراض، فحرّم على نفسه أن يأكلها[1]، فظنّ بنو إسرائيل أنّه حكم دينيّ وتحريم أبدي.

❑ و«الطعام» يقال لما يُستطعم أو يستذوق من الغذاء، و«**الحل**» خِدُّ «**العَقد**» وتعني الحرّية والعتق.

التعاليم:

١ ـ حلّيّة الأطعمة مبدأ ثابت في الأديان السماوية، ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا﴾.

---

(١) تفسير العيّاشي.

٢ ـ لا تحرّموا الحلال دون سبب شرعي، ﴿حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

٣ ـ أحسن الاستدلال هو الذي يستشهد بالمعتقدات والكتاب السماوي للخصم، ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

إشارات:

❑ «حَنيف» هو الذي يميل من الضلال إلى الاستقامة والطريق المستقيم.

كانت دعوى المشركين في زمن النبي الكريم ﷺ أنّهم على شريعة إبراهيم وقد أصرّوا على دعواهم تلك حتى سمّوا بالحنفاء، أي أتباع إبراهيم. وقد دحض القرآن الكريم هذه الدعوى في آيات عّدة[1]، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ أهل الكتاب الذين يزعمون اتّباعهم إبراهيم يجب أن يكونوا موحّدين فهو لم يكن مشركاً، ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ... وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢ ـ حنيفية إبراهيم، جعلت شريعته قائمة وراسخة، ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

❑ «بَكّة» تعني ازدحام الناس في الطواف، يقال بكّ القوم: ازدحموا، وقيل: البكّ: دق العنق، سميّت بذلك لأنها كانت تدق أعناق الجبابرة وتحطم غرورهم.

❑ من الاستشكالات التي طرحها بنو إسرائيل هي: لماذا انصرف المسلمون عن

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان ٦٧ و٩٥؛ سورة الأنعام: الآية ١٦١؛ وسورة النحل: الآية ١٢٣.

بيت المقدس الذي بناه النبي سليمان عليه السلام قبل ألف عام واتّخذوا الكعبة قبلة لهم؟

وقد نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ لتقول لهم إنّ الكعبة هي أوّل بيت أقيم لأغراض العبادة وأنّها أقدم من أيّ بقعة أخرى.

□ وقد جاء في كتب التفاسير والتاريخ: «أنّ الخليفة العباسي المنصور طلب أن يشتري من أهل مكة بيوتهم ليزيدها في المسجد، فأبوا فرغّبهم، فامتنعوا فضاق بذلك، فأتى الإمام الصادق عليه السلام فقال له: إنّي سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم، وأفنيتهم لنزيد في المسجد، وقد منعوني ذلك فقد غمّني غمّاً شديداً، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**أيغمّك ذلك وحجّتك عليهم فيه ظاهرة؟**» فقال: وبِمَ أحتجّ عليهم؟ فقال: «**بكتاب الله**»، فقال: في أيّ موضع؟ فقال: «قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ قد أخبرك الله أنّ أوّل بيت وضع للناس هو الذي ببكّة، فإن كانوا هم تولّوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، وإن كان البيت قبلهم فله فناؤه، فدعاهم أبو جعفر (المنصور) فاحتجّ عليهم بهذا فقالوا له: اصنع ما أحببت»[١].

□ «**دَحوُ الأرض**» تعني بسط الأرض ومهدها من تحت الكعبة المشرّفة، ويقول العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان: إنّ روايات «دَحُو الأرض» وفيرة[٢]، ولا توجد أي براهين علمية تفنّد هذه المسألة، فضلاً عن عدم منافاتها القرآن الكريم[٣].

□ يقول الإمام علي عليه السلام: «**ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام** (الذي جعله للناس قياماً)»[٤].

□ وقد سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن البيت، أكان يحجّ قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وآله؟

(١) وسائل الشيعة، ج ١٣، ص ٢١٧.
(٢) الكافي، ج٤، ص ١٨٩.
(٣) تفسير الميزان.
(٤) نهج البلاغه، الخطبة ١٩٢.

قال: «نعم... وإنّ آدم ونوحا ﷺ حجّا، وسليمان بن داود ﷺ قد حجّ البيت»[١].

□ لقد وردت في القرآن أوصاف عديدة للكعبة المشرّفة نذكر منها:

١ ـ الكعبة هي البيت الأوّل، ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾.

٢ ـ محور ثبات الناس وقيامهم، ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[٢].

٣ ـ بيت حرّ ليس ملكاً لمخلوق، ﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[٣].

٤ ـ دار اجتماع وأمن للناس، ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[٤].

التعاليم:

١ ـ الكعبة أوّل بيتٍ شُيّد للناس على الأرض للعبادة والدعاء، ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾.

٢ ـ الماضي التاريخي للمعابد أحد معايير التقييم، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ...﴾.

٣ ـ خيرات الكعبة وبركاتها لا تخصّ المؤمنين أو أمّة أو عِرقاً معيّناً، بل هي لجميع الناس، ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾.

٤ ـ اجتماع الناس حول الكعبة يعدّ قيمة وفضيلة، ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾.

٥ ـ الكعبة دليل هداية لجميع الناس، ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

إشارات:

□ لا شكّ في أنّ مكّة المكرّمة والكعبة المشرّفة يمثّلان تجسيداً لقدرة الله وآياته، حيث يحفل تاريخهما بالكثير من الذكريات والسير المفعمة بالدروس والعبر.

---

(١) تفسير البرهان، ج١، ص ٣٠٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٧.

(٣) سورة الحج: الآية ٢٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

فقد وضع أولى لبنات الكعبة المشرّفة معمارها القدير النبي إبراهيم عليه السلام وساعده الأيمن وعامله المجدّ ولده إسماعيل عليه السلام. لقد تربّص الطغاة عبر التاريخ بالكعبة المشرّفة وكادوا لها؛ لكنّ الله ردّ كيدهم إلى نحورهم، فمن أولئك الطغاة أبرهة، القائد الحبشي الذي عزم على تهديم الكعبة المشرّفة فانطلق بجيش جرّار تقدّمته الفيلة نحو مكّة إلّا أنّ الله تعالى أبى إلّا أن يحمي بيته ويدافع عنه بقدرته الواسعة، فأرسل عليهم أسراباً من طيور أبابيل جعلتهم كعصف مأكول. ويروي لنا التاريخ أيضاً أنّ السيدة فاطمة بنت أسد حينما جاءها المخاض لاذت بالكعبة، فانشقّت جدرانها ودخلت في جوفها وولدت طفلاً أصبح له بعد سنوات من ذلك التاريخ موقفاً بطولياً في نفس المكان حيث قام بتحطيم الأصنام التي كانت في الكعبة.

كما شهد هذا المكان صعود بلال، ذلك العبد الحبشي الأسود على سقف الكعبة ليطلق أول أذان في الإسلام على مسامع أهل مكّة الذين تملّكتهم الحيرة، وسيأتي ذلك اليوم الذي سيسند آخر الحجج الإلٰهيّة ظهره إلى الكعبة ليطلق صرخة تحرير البشرية ويدعو العالمين إلى الإسلام.

- إنّ مكة المكرّمة هي الحرم الإلٰهيّ الآمن، فكلّ من دخل المسجد الحرام كان آمناً، لا يجوز التعرّض له، حتى وإن كان مجرماً أثيماً، اللهمّ إلّا التضييق عليه ومحاصرته حتى يضطرّ إلى ترك الحرم[1].

- ويحتفظ الحرم المكي بآثار جليلة لا تزال شاخصة إلى يومنا هذا، فعلى بعد أمتار من الكعبة يوجد مقام النبي إبراهيم عليه السلام، وبحسب الروايات المنقولة فإنّ هذا المقام هو الحجر الذي وقف إبراهيم عليه عند رفعه جدران الكعبة، وهو لذلك يحتوي على موطئ قدمه. والحقيقة إنّ بقاء هذا الحجر وأثر القدم إلى يومنا هذا على الرغم من أنّه وجد قبل النبي موسى والنبي عيسى عليهما السلام بقرون، وعلى الرغم من جميع التغيّرات التي عصفت بالكعبة من غزوات وسيول وتهديم، لهو آية عظيمة تدلّ على قدرة الله تعالى.

---

(١) الكافي، ج٤، ص ٢٢٦.

❑ «**الحجّ**» في اللغة هو القصد للزيارة، و«**المحجّة**» يراد بها جادّة الطريق المستقيم التي توصل سالكها إلى المقصد. أمّا في اصطلاح الشريعة الإسلاميّة فإنّ الكلمة تعني قصد بيت الله الحرام لأداء المناسك الخاصّة به.

❑ يقول النبي الكريم ﷺ لعليّ عليه السلام: «**تارك الحج وهو مستطيع كافر؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، يا علي من سوّف الحجّ حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً**»[١].

❑ ولا يشترط في الاستطاعة المالية للحجّ أن يكون المال مملوكاً للإنسان نفسه، بل ربّما عرض عليه ما يكفيه للحج بأن تعهد أحدهم بنفقات الرحلة فيكون في هذه الحالة مستطيعاً وتجب عليه هذه الفريضة[٢].

❑ سُئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام ما هذه الآيات البيّنات قال: «**مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثّرت فيه قدماه والحجر الأسود ومنزل إسماعيل عليه السلام**». وسئل عليه السلام عن المقصود بعبارة «**مَن دخله**» إن كان الكعبة أم الحرم؟ فقال عليه السلام: «**الحرم**»[٣].

❑ وفي رواية أخرى، سأل شخص الإمام الصادق عليه السلام عن «**مَن دخله كان آمناً**» فقال عليه السلام: «... **من أمّ هذا البيت وهو يعلم أنّه البيت الذي أمره الله عزّ وجلّ به، وعرفنا أهل البيت حقّ معرفتنا كان آمناً في الدنيا والآخرة**»[٤].

التعاليم:

١ ـ يزخر بيت الله بالآيات البيّنات. آيات القدسية والروحانية، ذكريات الأنبياء منذ آدم حتى الخاتم، مقام وقبلة جميع الأنبياء والمصلّين، ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص ٣٦٨؛ الكافي، ج٤، ص ٢٦٥.
(٢) الكافي، ج٤، ص ٢٦٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٣.
(٤) الكافي، ج٤، ص٥٤٠.

٢ ـ منزلة النبي إبراهيم عليه السلام عظيمة لدرجة أنّ مقامه منح مكّة فضلاً وقيمة، ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾.

٣ ـ على عكس عقائد الوهابيّة، فإنّ الأشياء تكتسب قدسيّة إذا ارتبطت بأولياء الله، ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ﴾.

٤ ـ من مزايا الإسلام أنّه جعل منطقة معيّنة في الأرض مكاناً آمناً، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾.

٥ ـ التكاليف هي تعهّدات إلٰهيّة تُلزم الإنسان، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.

٦ ـ لا بدّ من أن يتّسم الحجّ بالخلوص وأن يكون قربةً إلى الله وحده، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.

٧ ـ الواجب والمسؤولية على قدر الاستطاعة، واستطاعة الإنسان تشمل النواحي المادّية والقدرة الجسدية وتوفّر الظروف الخارجيّة، ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾.

٨ ـ شرط الحجّ الاستطاعة[١]، ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾.

٩ ـ إنكار الحج وتركه موجب للكفر، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.

١٠ ـ أداء الفرائض الإلٰهيّة يعود نفعه على الإنسان نفسه؛ لأنّ الله غنيّ عن أعمالنا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١١ ـ الله يدعو الناس إلى الفرائض؛ ولكن دون أن يكون لهم منّة عليه، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ... وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)﴾

التعاليم:

١ ـ السؤال المقرون بالتأنيب، ولكن ببيان مهذّب، هو الأسلوب الأمثل في التحذير، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

٢ ـ إذا كان الله تعالى شاهداً على أعمالنا فَلِمَ نعصيه؟ ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ... وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾.

٣ ـ كانت لأهل الكتاب نشاطات سريّة ضدّ المسلمين، ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إشارات:

□ في الآية السابقة كان الحديث عن كفر أهل الكتاب؛ ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾، وهنا تستكمل انتقادها لهم فتوبّخهم قائلة: إذا كنتم لا تؤمنون، فلم تمنعون غيركم من الإيمان والدخول في دين الله وتصدّون عن سبيله؟! ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ كان أهل الكتاب يضعون العصي في عجلة الإسلام لمنع تقدّمه، ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾.

٢ ـ إحدى طرق محاربة الإسلام والتصدّي له، تقديم صورة مشوّهة عنه، ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

٣ ـ الأعداء يتربّصون بكم في كلّ لحظة لحرفكم عن طريقكم، ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

٤ ـ الأعداء شهود ومطّلعون على أحقّية دينكم، ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾.

٥ ـ العلماء الضالّون هم أساس الفتن، ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾.

٦ ـ لن نعود إلى المعصية أبداً إذا علمنا أنّ الله لا يغفل عنّا ولو للحظة واحدة، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ۝١٠٠﴾

إشارات:

❑ ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنّ «شأس بن قيس» وكان شيخاً من اليهود عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، مرّ ذات يوم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم ـ إذا اجتمع ملؤهم بها ـ من قرار، فأمر شاباً من اليهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثمّ اذكر يوم «بعاث» وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار. وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان يرأس الأوس يومئذٍ حضير بن سماك الأشهلي أبو أسيد بن حضير، ويرأس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً. ففعل ذلك الشاب ما أراده «شأس» فتكلّم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين، وتقاولا، وراح أحدهما يهدّد الآخر، وكادت نيران الاقتتال تتأجّج بينهم من جديد. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم في من معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، وقال: «يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم»؟ فعرف القوم أنّها نزغة من الشيطان وكيد من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثمّ انصرفوا مع رسول الله ﷺ، سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله «شأس بن قيس»، فأنزل الله تعالى هذه الآيات

الأربع، الأوليان في شأس بن قيس وما صنع، والأخريان لإنذار المسلمين وتحذيرهم[١].

التعاليم:

١ ـ الانقياد للعلماء المضلّين من أهل الكتاب ينتهي بالإنسان إلى الارتداد، ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا... يَرُدُّوكُم﴾.

٢ ـ العمل يترك تأثيره على العقيدة. فطاعة المنحرفين تفضي إلى انحراف العقيدة، ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا... يَرُدُّوكُم﴾.

٣ ـ لمّا كانت طاعة الكفّار تودي بالإنسان إلى الكفر، فلا بدّ من البراءة منهم، ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا... يَرُدُّوكُم﴾.

٤ ـ نتيجة الانقياد للغرباء هي الكفر وسوء العاقبة، ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

إشارات:

❑ الاعتصام بالله حركة راسخة مقرونة بالاختيار الواعي، وشرطها ملازمة أولياء الله تعالى. كما يقول الإمام الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة: «**من اعتصم بكم فقد اعتصم بالله**»[٢].

التعاليم:

١ ـ عوامل الانحراف والكفر هي إمّا لفقدان الطريق المستقيم، وإما غياب الدليل المرشد؛ ولكن مع وجود الكتاب والسنّة والقوانين والقائد الإلٰهيّ لن يبقى للانحراف سبب، ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ و...﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، تفسير روح البيان، تفسير روح المعاني، التفسير الكبير، تفسير القرطبي، تفسير المراغي، الأمثل في كتاب الله المنزل.

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٦١٣.

٢ ـ لا يكفي وجود القوانين وحدها للتصدّي للانحراف والكفر، بل ينبغي وجود القائد فوجوده أمر حيوي، ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ...﴾.

٣ ـ التوكّل على الله واستمداد العون منه، هو سرّ الحصانة ضدّ جميع الوساوس والضلالات، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ﴾.

٤ ـ طريق الاعتصام بالله مفتوح للجميع، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ...﴾.

٥ ـ السير في غير طريق الله انحراف، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٦ ـ قبل السير في الطريق المستقيم لا بدّ من العثور عليه ومن ثمّ السير فيه، ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٧ ـ الهداية هي النتيجة الحتميّة لطلب العون من الله والتوكّل عليه، ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

إشارات:

- للكمال، كما الإيمان والعلم والتقوى، مراحل، تبدأ بالمرحلة الابتدائية وتنتهي بمراحل أعلى، وصولاً إلى المرحلة المطلقة من الكمال. ورد في القرآن الكريم: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[1].

كما نقرأ في دعاء مكارم الأخلاق: «**بلغ بإيماني أكمل الإيمان**»[2].

وهنا، تقول هذه الآية الكريمة: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

التعاليم:

١ ـ على المؤمن أن يطوي في كلّ يوم مرحلة جديدةً من الإيمان، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ التقوى الحقيقيّة تتبلور في ظلّ الإيمان بالمبدأ والمعاد، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

---

(١) سورة طه: الآية ١١٤.

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٠.

٣ ـ التقوى سرّ حسن العاقبة، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... تَمُوتُنَّ... مُّسْلِمُونَ﴾.

٤ ـ لا يكفي الإيمان وحده، بل الثبات عليه. إتمام العمل أهمّ من الشروع به، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٥ ـ لا يكتفي الإسلام بتعليمنا كيف نحيا بل كيف نموت أيضاً، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٦ ـ الإنسان له دور في رسم ملامح مصيره وعاقبته، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

٧ ـ الإسلام يهتمّ بطبيعة التقوى، وكذلك باستمرارها حتى آخر لحظة من العمر، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

إشارات:

- نُقل عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**القرآن حبل الله**»[(١)] وعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**نحن حبل الله**»[(٢)]. كما ورد في رواية أخرى: أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو حبل الله[(٣)].
- إنّ غرس بذور الألفة والمحبة في القلوب هو بيد الله تعالى، ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾، فالقرآن الكريم يخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[(٤)].
- في المقابل، يندرج بثّ الفرقة والشقاق ضمن العقوبات الإلٰهيّة. وربّما تتّضح أهميّة الوحدة أكثر إذا ما علمنا أنّ الإسلام يجيز الكذب الهادف إلى الوحدة، ويحرّم الصدق المؤدّي إلى الفُرقة والانقسام.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.
(٢) تفسير مجمع البيان.
(٣) تفسير نور الثقلين.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

التعاليم:

١ ـ الوحدة وتجنّب الفُرقة واجب إلهي، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾.

٢ ـ محور الوحدة هو دين الله لا العرق أو اللغة أو القومية... إلخ، ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ تذكّر دوماً بركات الإسلام وخدماته، ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

٤ ـ الوحدة هي عامل الأخوّة، ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

٥ ـ الوحدة من نعم الله الكبرى، ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾.

٦ ـ الفُرقة والعداوة حفرة من النار، ﴿شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

٧ ـ نعم الله هي آياته، ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ... يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

٨ ـ تذكُّر نعم الله سبب محبّة وهداية، ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

إشارات:

- لعلّ الإتيان بآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وسط الآيات الداعية إلى الوحدة يُقصد منه القول إنّ في النظام الاجتماعي الذي تسوده الفُرقة والشتات، إمّا أن تكون القدرة على الدعوة إلى الخير والمعروف معدومة، أو إنّ دعوات كهذه تفتقد إلى التأثير والفاعلية اللازمة.
- وبالإمكان أن يقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجهين:

١ ـ الوجه الأول، أن يكون بمثابة واجب يضطلع بمسؤوليته كل فرد وبحسب طاقته وقدرته.

٢ ـ الوجه الثاني أن تنهض به مجموعة منظّمة ومنسجمة، وتطبّقه باقتدار وتصميم. على سبيل المثال إذا خالف سائق السيارة قوانين المرور وقواعد السير المعمول بها، ينبري سائقو المركبات الآخرون إلى التعبير عن اعتراضاتهم

على هذه المخالفة من خلال استعمال الأبواق أو إشعال مصابيح السيارة، وفي ذات الوقت يقوم رجل المرور باتّخاذ الإجراءات الرادعة بحقّ السائق المخالف، من خلال تحرير غرامة له أو ما شابه.

❑ لقد ورد في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكثير من الروايات، نصرف النظر عن ذكرها هنا، ونكتفي بقول للإمام علي عليه السلام في هذه الفريضة وهو: «**لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولّى عليكم شراركم، ثمّ تدعون فلا يُستجاب لكم**»[1].

التعاليم:

١ ـ المجتمع الإسلامي بحاجة إلى فريق يحظى بتأييد الحكومة وتكون مهمّته مراقبة السلوك الاجتماعي للناس، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾.

٢ ـ من أجل إصلاح المجتمع ومحاربة الفساد لا بدّ من وجود سلطة منظّمة ومسؤول محدّد، ﴿مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾.

٣ ـ الداعي إلى الخير والمعروف يجب أن يلمّ بأحكام الإسلام وطبائع الناس وبالأساليب المناسبة في الدعوة؛ لذلك يجب على مجموعة معيّنة الاضطلاع بهذه المهمّة لا جميع أفراد المجتمع، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾.

٤ ـ الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن تتّخذ إطاراً زمنياً دائماً لا مرحلياً ومؤقتاً. (الأفعال ﴿يَدْعُونَ... يَأْمُرُونَ... يَنْهَوْنَ﴾ في صيغة المضارع وهي تفيد الاستمرار).

٥ ـ الأمر بالمعروف مقدّم على النهي عن المنكر. فإذا فتح سبيل المعروف، أغلق سبيل المنكر، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

٦ ـ أولئك الذين يحرصون على إصلاح المجتمع وكماله، هم المفلحون حقّاً، أمّا المنزوون اللامبالون فلا سهم لهم من هذا الفلاح، ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.

٧ ـ لا ينتهي الفلاح عند نجاة الشخص وخلاصه، بل من شروطه أيضاً نجاة الآخرين وتكاملهم، ﴿يَأْمُرُونَ... يَنْهَوْنَ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لنأخذ العبر والدروس من التاريخ المرير لنزاعات الماضين، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ...﴾.

٢ ـ ليس دائماً الجهل هو سبب النزاعات، الأهواء أيضاً لها دور في إثارتها، ﴿وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾.

٣ ـ لا تذهب الفُرقة والنزاعات بقوّتكم في هذه الدنيا فحسب، بل ستضطرّكم في الآخرة إلى عذاب جهنّم، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

إشارات:

- ابيضاض الوجوه واسودادها في يوم القيامة، هو في الحقيقة، تجسيد لحالات الإنسان في هذه الدنيا، فالذين ارتضوا ولاية الله في الدنيا، سوف يخرجهم الله من الظلمات إلى النور، وسيظهرون في ذلك اليوم العظيم بوجوه وضّاءة مشرقة ومستبشرة، أمّا الذين ارتضوا ولاية الطواغيت، فهؤلاء سوف يسوقونهم من النور إلى ظلمة الأهواء والفُرقة والجهل والشرك، وسيُحشرون في يوم القيامة في حلكة الظلام.
- يذكر القرآن الكريم موضوع الكفر بعد الإيمان ستّ عشرة مرّة، والكفر بعد

الإسلام مرّتين، وعبادة العجل بعد عبادة الله ثلاث مرّات، والإنكار بعد العلم والبيّنة سبعاً وعشرين مرّة. وتدقّ جميع هذه الآيات ناقوس الخطر حول موضوع الارتداد، وهي بمثابة إنذار جدّي لنا.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

إشارات:

- إنّ نزول الآيات الإلٰهيّة على النبي الكريم ﷺ كان تامًّا غير منقوص وعلى أساس الحقّ والحقيقة. كما إنّ الأفعال وانعكاساتها والثواب والعقاب في الأمم كلّها تقوم على أساس مجموعة من المبادئ والأصول والسنن. إنّ الله تعالى لا يكلّف عباده فوق ما يتحمّلون وفي الثواب والعقاب، لا ينظر إلى ظروف الأشخاص وقابليّاتهم واستعداداتهم نظرة واحدة متساوية؛ لأنّ في ذلك ظلماً وإجحافاً.
- معلومٌ أنّ الظلم لا يصدر إلّا ممّن يعاني نقصاً أو فيه مثلبة، أو أنّه يعجز عن بلوغ الحقّ عبر سلوك طريق الحقّ، أو أنّه لم يُلمّ بقبح الظلم وفظاعته، ومعلوم أيضاً أنّ أيّاً من هذه الأمور لا تجوز على الله تعالى، فهو مصدر كلّ شيء، وإليه مرجع كلّ شيء، فما حاجته سبحانه لممارسة الظلم؟!

التعاليم:

١ ـ نزول الوحي على النبي الأكرم ﷺ حقّ صادق، لا من نسج خياله وأوهامه، ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٢ ـ ابيضاض الوجوه واسودادها في يوم القيامة، من جني عمل الإنسان ومعتقداته وأفكاره لا ظلم الله سبحانه، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾

إشارات:

□ شرحت الآية ١٠٤ من هذه السورة مرحلة معيّنة من ممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبل جماعة خاصة ورسمية. وهنا، تشير الآية إلى مرحلتها العامة التي تصبح معها وظيفة جماعية عامة.

التعاليم:

١ ـ ليس بالشعارات تتحقّق الأمة الفضلى، بل بالإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ... تَأْمُرُونَ﴾.

٢ ـ لا خير في أمّة جبانة صامتة، ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ... تَأْمُرُونَ... تَنْهَوْنَ﴾.

٣ ـ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي من العظمة بحيث أصبحت معياراً لتفاضل الأمم، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

٤ ـ يتحقّق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندما يكون المسلمون أمّة واحدة، أي لهم حاكميّة، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

٥ ـ يحمل المسلمون عبء إصلاح جميع المجتمعات الإنسانية، ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

٦ ـ الحثّ على فعل الخير يكون عقيماً ما لم يقترن بمحاربة الفساد، ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

٧ ـ يجب على كلّ فرد من أفراد الأمة أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. (حتى الصبيّة بعمر تسع سنوات لها الحقّ في أن تمارس فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع رئيس الجمهورية)، ﴿تَأْمُرُونَ... وَتَنْهَوْنَ﴾.

٨ ـ في فريضة الأمر بالمعروف لا موقع للعمر أو البلد أو العِرق أو اللون أو

مستوى التعليم أو المكانة الاقتصاديّة والاجتماعية، ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ... تَأْمُرُونَ... وَتَنْهَوْنَ﴾.

٩ ـ ينبغي للمسلم ممارسة هذه الفريضة من موقع القوة والاقتدار لا التمنّي والتوسّل، ﴿تَأْمُرُونَ... وَتَنْهَوْنَ﴾.

١٠ ـ الأمر بالمعروف مقدّم على النهي عن المنكر، ﴿تَأْمُرُونَ... وَتَنْهَوْنَ﴾.

١١ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون لهما تأثير حقيقي حين ينطلقان من منطلق الإيمان، ﴿تَأْمُرُونَ... وَتَنْهَوْنَ، وَتُؤْمِنُونَ﴾.

١٢ ـ الله تعالى يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

١٣ ـ الإسلام، ناسخ لجميع الأديان، ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

١٤ ـ الإنسان حرّ في اختيار طريقه، ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

إشارات:

□ على خطى الآيات السابقة، تقوم هذه الآية بتثبيت المسلمين وتبشيرهم، فما داموا يستظلّون بظلّ الإيمان والوحدة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّهم مصانون من كلّ شرّ. ولا عليهم من تهديدات الأعداء، فالنصر حليفهم ولأعدائهم الذلّة والمسكنة والهوان.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من شحذ الهمم وتوفر المعنويات العالية، ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾.

٢ ـ المسلم مصان في ظلّ الإيمان، ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾.

٣ ـ يسعى الأعداء لإهلاككم، ولكن لن ينالكم منهم الكثير، ولن يضرّوكم إلّا ضرراً يسيراً، ﴿إِلَّآ أَذًى﴾.

٤ ـ افتقاد روح المقاومة والبسالة هو بسبب غياب الإيمان، ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾.

٥ ـ يُخبر القرآن الكريم بفرار أهل الكتاب وضعفهم أمام زحف المسلمين، ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ﴾.

٦ ـ من ثبت على الإيمان ورابط على الأمر بالمعروف أدرك النصر وهزم الأعداء، ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ... وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾.

٧ ـ الفسق مدخل إلى الضعف في جبهات الحرب، ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ... وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾.

٨ ـ استخفّوا بقوّة العدوّ وقدراته، ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾

إشارات:

- يستفاد من الروايات أنّ بني إسرائيل هم المعنيّون بهذه الآية الذين نزل عليهم غضب الله، وختمت جباههم بخاتم الذلّ والمسكنة بسبب تمرّدهم على أحكام الله ورسله وتجاوزهم حدوده. ومن هذه الحدود قتلهم الأنبياء بغير حقّ.
- والحقيقة، ليس هذا القتل، بحسب ما صرّحت به الروايات، بالسيف وحده، بل بإذاعتهم الأسرار ونقلهم الأخبار إلى الأعداء، فعزّز ذلك من سلطة قوى الظلم وأدّى إلى قتلهم[1].

التعاليم:

١ ـ هل عاقبة الكفر وقتل الأنبياء إلّا الذلّ والمسكنة؟ ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾.

٢ ـ ما برح اليهود في ذلّ وهوان، فهم وإن تربّعوا على عرش الإعلام والاقتصاد والسياسة؛ لكنّهم يحتلّون أسفل مواقع الكرامة والعزّة والحبّ والأمن. (مثلهم

(١) الكافي، ج ٢، ص ٣٧١.

في ذلك مثل اللصوص والبلطجية الذي يشيعون الرعب والفزع، ويجمعون الأموال الوفيرة، لكنّهم يفتقدون المنزلة الكريمة)، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾.

٣ ـ ينبغي أن نشدّ من عزائم المؤمنين، بتسليط الضوء على الأوضاع المزرية للأعداء، ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾.

٤ ـ إنّما العزّة في الإيمان بالقدرة الإلٰهيّة، والعلاقة الطيّبة بالأمم والشعوب، ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٥ ـ لا منجاة لليهود إلّا باعتناق الإسلام؛ ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أو أن يكونوا في ذمّة المسلمين، ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

٦ ـ ينعكس أثر العقيدة في العمل، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

٧ ـ لقد أُرسل العديد من الأنبياء إلى بني إسرائيل، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾.

٨ ـ المعصية والاعتداء، تمهّدان لخطايا أشنع مثل الكفر وقتل الأنبياء، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟...﴾.

٩ ـ أشنع من الاعتداء والكفر هو الإصرار عليهما، ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

إشارات:

□ تستعرض هذه الآية والتي تليها الخصال الحميدة لجماعة من أهل الكتاب وهي: طاعة الله، تلاوة كتاب الله، السجود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في فعل الخير.

روي عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «**فالحبل من الله كتابه، والحبل من الناس وصيي (علي بن أبي طالب)**»(١).

---

(١) تفسير البرهان.

❑ مثلما يثني الله تعالى على المسلمين لتلاوتهم القرآن مع إقامتهم الصلاة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ... يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[1] فإنّه سبحانه يثني أيضاً على أهل الكتاب الذين يتلون كتبهم السماوية ويعبدون الله ويسجدون له، ﴿يَتْلُونَ... يَسْجُدُونَ﴾.

❑ تتضمّن الآية الكريمة إشارات إلى فضل العلم والعمل والاستمرارية والنشاط والرغبة وأن تكون للإنسان وجهة وهدف. فكلمة ﴿يَتْلُونَ﴾ تشير إلى العلم، و﴿يَسْجُدُونَ﴾ إلى العمل، وعبارة ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ إلى استمرارية العمل، و﴿قَآئِمَةٌ﴾ إلى الرغبة والنشاط في العمل، وأخيراً تشير عبارة ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى الجهة والمقصد.

التعاليم:

١ ـ يجب القبول والاعتراف بالخير والكمال من أيّ جماعة أو فئة صدر. وفي حال انتقاد مساوئ الآخرين لا ينبغي أن ننسى محاسنهم أيضاً، ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾.

٢ ـ أحد سبل دعوة الآخرين واجتذابهم، هو الاعتراف بفضائلهم، ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾.

٣ ـ تحتاج العبادة إلى الهمّة والجدّ والرغبة والاستعداد، ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾.

٤ ـ تلاوة آيات الله والعبادة والسجود في جوف الليل تستحقّ الشكر والثناء من الله، ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾.

٥ ـ تلاوة الآيات والسجود لله تعالى، التزام بالأمر الإلٰهيّ، ﴿قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ﴾.

٦ ـ الليل ولا سيّما وقت السحر، هو أفضل أوقات المناجاة، ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾.

٧ ـ السجود لله أرقى حالات العبادة، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٩.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

إشارات:

- على غرار الآية الثالثة من سورة البقرة، التي قرنت الصلاة بالإيمان، ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، تقرن هذه الآية أيضاً الإيمان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿يُؤْمِنُونَ... وَيَأْمُرُونَ﴾.
- درج البيان القرآني على تقديم الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر، ذلك أنّ أبواب المعروف إذا فتحت، أوصدت أبواب المنكر، فتسهيل الزواج للشباب، يوصد باب الرذيلة والفحشاء، وإقامة الصلاة تحصّن الإنسان من ارتكاب الفحشاء والمنكر، والقيام بالأعمال المناسبة يحول دون وقوع الموبقات والمفاسد الاجتماعية، وتعزيز شخصيّة الفرد، تمنع انحرافه وسقوطه في المهاوي.
- يستعرض الله في هذه الآية والآية التي سبقتها، بعض المواصفات والشروط التي تتيح الوصول إلى منازل الصالحين، ﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، حيث أمنية كل فرد أن يلحق بهم: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(١)، الصالحون الذين نسلّم عليهم يومياً خمس مرّات على الأقل في صلواتنا الواجبة، «السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين».
- بحسب الرؤية الإلٰهيّة، فإنّه ما من عمل صالح، مهما كان، يضيع أجره عند الله تعالى. ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ طبعاً شرط أن يتوافر على عنصري الإيمان والتقوى كما يؤكّد ذلك القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(٢)؛ لذا، فالله تعالى يعرف المتّقين ويعلم أنّهم يستحقّون أن تُقبل أعمالهم.

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٨؛ سورة الشعراء: الآية ٨٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٧.

التعاليم:

١ ـ الأديان الأخرى أيضاً عرفت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ... وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

٢ ـ سجدات الأسحار يجب أن تقترن في النهار بالعمل بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿يَسْجُدُونَ، وَيَأْمُرُونَ﴾.

٣ ـ المسارعة إلى فعل الخيرات، يزيد في فضلها وقيمتها، ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

٤ ـ تسابق الصالحين ومسارعتهم في الخيرات هو دائمي وليس مرحلياً عابراً، ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾.

٥ ـ الصالحون هم الذين يسارعون بجدّ ونشاط في فعل أيّ خير لا بعض الخيرات، ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

٦ ـ الإيمان والعبادة والتلاوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتسابق على فعل الخيرات، كلّها تضع الإنسان في زمرة الصالحين، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

إشارات:

□ «الصِّرّ» في اللغة هي الحرّ القائظ أو البرد القارص[1].

□ لقد أعلن القرآن الكريم مراراً أنّه إذا حلّ عذاب الله تعالى، فلن ينفع مال ولا بنون ولا ذوو قربى ولا زوجة ولا صديق ولا وليّ ولا أيّ شيء آخر.

(١) التحقيق في كلمات القرآن.

□ وقد مثّل القرآن الكريم للجهود التي يبذلها الكفّار والأموال التي ينفقونها في سبيل إحياء الباطل بنثر الحبّ في الأرض فتأتي الريح الحارقة عليها فتبيدها جميعها. لقد آلت جميع المؤامرات والحملات والدعايات المسمومة التي شنّت ضدّ الإسلام منذ ظهوره وحتى اليوم إلى الهزيمة والسقوط، ويأبى الله إلّا أن يرفع دينه وينشر لواءه في أرجاء المعمورة، والعاقبة والنصر للإسلام.

التعاليم:

١ ـ تنعكس العقيدة في العمل. فالكفر يؤدّي إلى الحرمان من بركات الإنفاق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟... مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾.

٢ ـ خطايا البشر من أسباب الكوارث الطبيعية، ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟﴾.

٣ ـ المعاصي تدمّر الأعمال الصالحة، ﴿ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

٤ ـ غضب الله ليس بظلم، بل هو حرث يد الإنسان ونتيجة عمله، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

إشارات:

□ «**البِطانَة**» تقال للثوب الداخليّ وهو خلاف «الظهارة» وجاءت التسمية لأنّه يلصق بالبطن، والبطانة هي خاصّة الرجل الذي يستبطنون أمره ويطلعون على أسراره. و«**الخَبال**» يعني الفساد في الأفعال والفكر والعقل. «**العَنَت**» المشقّة وشدّة الضرر، و«**يَألُون**» بمعنى لا يقصرون أو لا يمنعون جهداً.

ماذا يتمنّى العدوّ لنا؟

لو نتأمّل كلمة «**وَدَّ**» في الآية الكريمة، لعرفنا أنّ أماني العدوّ لنا هي:

١ ـ أن نغفل عن سلاحنا وثروتنا، ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾[١].

٢ ـ أن نضعف ونداهن ونستسلم، ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٢].

٣ ـ يتمنّى لنا العنت والمشقّة والضرر الشديد، ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾.

٤ ـ الارتداد عن الدين، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ لا نجعلْ الأعداء موضع أسرارنا، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، لا يجوز للبلدان الإسلاميّة أن تتّخذ الأجانب مستشارين لها.

٢ ـ حفظ الأسرار وظيفة حتميّة، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾.

٣ ـ لا يمكن أن نجعل كل مسلم موضع أسرارنا حتى لو كان مصداق ﴿دُونِكُمْ﴾؛ لأنّ منهم المنافق والجاسوس، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ...﴾.

٤ ـ يجب أن يكون الإيمان معيار الحب والعلاقات الحميمة بين المسلمين وسائر المجتمعات، ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾.

٥ ـ لا يتورّع العدوّ عن الإجهاز على عقائدنا وأفكارنا، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

٦ ـ أساليب العدوّ في محاربتنا عديدة منها:

١ ـ الإفساد، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛

٢ ـ المشقّة، ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾؛

٣ ـ النفاق، ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

٧ ـ اعرف عدوّك واحذره، فهو لا يتورّع لحظة واحدة عن التآمر عليك أو الإيقاع بك، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٢.

(٢) سورة القلم: الآية ٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

٨ ـ لا تخلو الأوامر والنواهي الإلٰهيّة من دليل غاية. فإذا كان الله تعالى ينهاكم عن تولّي الأعداء وإقامة العلاقات الحميمة معهم، فذلك لأنّهم لا يتورّعون عن التآمر عليكم، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... لَا يَأْلُونَكُمْ﴾.

٩ ـ الإناء ينضح بما فيه. لا نتوقّع من العدوّ غير الحقد والضغينة، ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

١٠ ـ دعاية العدوّ تدلّك على كنه جوهره، ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

١١ ـ إقامة العلاقات الحميمة مع العدوّ المتآمر، دليل على غياب العقل. ومعاملة الجلف بالودّ والمحبّة قلّة عقل، ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ... إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٢ ـ الله تعالى عليم بما في الصدور، وهو الذي يفضح مخطّطات أعداء الإسلام، ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾.

١٣ ـ أعداؤكم منافقون، لا يطابق سرّهم علانيتهم، ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ﴾.

١٤ ـ لقد أتمّ الله عليكم الحجّة إذ كشف لكم عمّا تخفي صدور أعدائكم، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

١٥ ـ أن يكون الإنسان مؤمناً شيء، وأن يكون عاقلاً شيء آخر؛ لذا يوجّه الله تعالى خطابه للمؤمنين بألّا يجعلوا الأعداء موضع أسرارهم إن كانوا يعقلون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا... إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

التعاليم:

١ ـ تشخيص نفسيّة الأعداء ونواياهم الحقيقيّة أمر مهمّ للغاية، يدلّ عليها تصدير الجملة بحرف التنبيه «ها».

٢ ـ الصداقة يجب أن تكون متبادلة وإلّا فهي مَذَلّة واستلاب وشعور بالحقارة، ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

٣ ـ يؤمن المسلم بجميع الكتب السماوية السابقة، وإن لم يؤمن أتباعها بالقرآن الكريم، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

٤ ـ لا تثق بأيّ إعلان للإيمان، ﴿قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا...﴾.

٥ ـ لا تظنّ أنّ محبّتك سوف تلين قلوب الأعداء تجاهك وتمنع حقدهم عليك، ﴿تُحِبُّونَهُمْ... عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

٦ ـ المشاعر الداخليّة لها انعكاسات خارجيّة. في الآية السابقة قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، وفي هذه الآية ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

٧ ـ لا يحمل الأعداء تجاهكم غضباً فحسب، بل غيظاً وحنقاً. فالغيظ هو أشدّ الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، عندما يطفح به الكيل، ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾.

٨ ـ من المدد الإلٰهيّ، إطلاع المسلمين على نوايا العدو حتى لا يغفلوا ويحافظوا على يقظتهم، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ... وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ...﴾.

٩ ـ احتقِروا أعداءكم الحاقدين، ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

١٠ ـ تصدّي الإسلام للمنافقين الماكرين أشدّ من معاملته للكافرين، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا... مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

١١ ـ أحياناً تلحّ الضرورة على إعلان البراءة واللعن. والكافرون الحاقدون والمنافقون الماكرون يستحقّون الهلاك، ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

١٢ ـ لا تتولّوا الكفّار بحجّة اجتذابهم، فأحياناً يكون الدافع الحقيقي وراء الموالاة هو الطمع أو الخوف أو الاستلاب، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

١٣ ـ إنّ الله يعلم أسرار القلوب، ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

إذا أيقن الإنسان بأنّ الله عليم بكلّ شيء، قلّ لجوؤه إلى الحيلة والمكر. فليعلم المنافقون المتآمرون بأنّ الله يرى أعمالهم وسيجازيهم عليها في الوقت المناسب.

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾

إشارات:

- تعرض هذه الآية طريقة التمييز بين العدو والصديق، وذلك من خلال تتبّع حالات العدوّ النفسية وردود أفعاله في مواطن نجاح المسلمين أو إخفاقاتهم. وفي حقل السياسة الخارجيّة من الضروري جداً أن نعرف متى ينبغي علينا أن ندين أو نؤيد أو نكذّب أو نقدّم أنواع الدعم والدعاية.
- حذّرت الآيات السابقة المسلمين من اتّخاذ الأعداء كمستشارين أو أولياء. وتبيّن هذه الآية أنّه قد تترتّب على هذا التصرّف عواقب وخيمة، وذلك بأن تفتح الباب أمام مؤامرات الأعداء ضدّ المسلمين؛ لذا يجب أن يتحلّى المسلمون بالصبر والتقوى، لئلا يصيبهم مكر الأعداء.

التعاليم:

١ ـ حسد الأعداء لكم عظيم إلى درجة أنّ أدنى خير يصيبكم يؤدي إلى انزعاجهم، ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ﴾.

٢ ـ سبيل نفوذ الأعداء في صفوف المسلمين هو إمّا خوفنا وطمعنا، وإما عدم ورعنا وتقوانا، والحل يكمن في الصبر والتقوى، ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ﴾.

٣ ـ الصبر والتقوى هما الدواء ومفتاح النصر على الحسّاد المغتاظين من نجاحنا، ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ﴾.

٤ ـ الله يقوّي عزائم المسلمين ويهيّئهم من خلال فضح نوايا العدوّ، ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ... لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

إشارات:

صور من معركة أحد

لمّا رجع كفّار قريش في السنة الثانية للهجرة من بدر إلى مكّة وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، فقد قُتل منهم سبعون شخصاً وأسر سبعون شخصاً، قال أبو سفيان: يا معشر قريش لا تدعوا نساءكم يبكين على قتلاكم فإنّ الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمد ﷺ، وأخذ أبو سفيان على نفسه العهد على أن لا يقرب زوجته ما لم ينتقم لقتلى بدر.

وفي السنة الثالثة للهجرة عزمت قريش على غزو النبي وخرجوا من مكّة صوب المدينة في ثلاثة آلاف فارس وألفي راجل مجهّزين بكلّ ما يحتاجه القتال الحاسم.

لم يكن العبّاس عمّ النبي قد أسلم إلى تلك الساعة، بل كان باقياً على دين قريش؛ ولكنه كان يحبّ ابن أخيه حبّاً جمّاً، ولهذا فإنّه عندما عرف بتعبئة قريش وعزمهم الأكيد على غزو المدينة ومقاتلة النبي ﷺ، بادر إلى إخبار النبي محمّلاً غفارياً (من بني غفار) رسالة عاجلة يذكر فيها الموقف في مكّة وعزم قريش، وكان الغفاري يسرع نحو المدينة حتى أبلغ النبي الكريم ﷺ رسالة عمّه العبّاس، ولمّا عرف النبي بالخبر التقى سعد بن أبيّ وأخبره بما ذكره له عمّه، وطلب منه أن يكتم ذلك بعض الوقت. وعمد النبي ـ بعد أن بلغته رسالة عمّه العبّاس ـ إلى إرسال رجلين من المسلمين إلى طرق مكّة والمدينة للتجسّس على قريش، وتحصيل المعلومات الممكنة عن تحركاتها.

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الرجلان وأخبرا النبيّ بما حصلا عليه حول قوات قريش وأنّ هذه القوات الكبيرة يقودها أبو سفيان.

وبعد أيّام استدعى النبي ﷺ جميع أصحابه وأهل المدينة لدراسة الموقف، وما يمكن أو يجب اتّخاذه للدفاع، وبحث معهم في أمر البقاء في المدينة ومحاربة الأعداء الغزاة داخلها، أو الخروج منها ومقاتلتهم خارجها، فاقترح

جماعة قائلين: «لا نخرج من المدينة حتى نقاتل في أزقتها، فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودروبنا وما خرجنا إلى عدو لنا قط إلّا كان الظفر لهم علينا، وكان هذا هو ما قاله «عبد الله بن أبيّ».

وقد كان النبي الكريم ﷺ يميل إلى هذا الرأي نظراً لوضع المدينة يومذاك، فقد كان ﷺ يرغب في البقاء في المدينة ومقاتلة العدوّ في داخلها، إلّا أنّ فريقاً من الشباب الأحداث الذين رغبوا في الشهادة وأحبّوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأي الذي كان عليه الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: اخرج بنا إلى عدوّنا، وقام سعد بن معاذ وغيره من الأوس فقالوا: يا رسول الله ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطمعون فينا وأنت فينا، لا حتى نخرج إليهم فنقاتلهم فمن قتل منّا كان شهيداً، ومن نجا منّا كان قد جاهد في سبيل الله، وقال مثلها الآخرون.

وهكذا تزايدت الطلبات بالخروج من المدينة ومقابلة العدوّ خارجها حتى أصبح الداعون إلى البقاء قلّة.

فوافقهم النبي الكريم ﷺ ـ رغم أنّه كان يميل إلى البقاء في المدينة ـ احتراماً لمشورتهم، ثمّ خرج مع أحد أصحابه ليرتّب مواضع استقرار المقاتلين المسلمين خارج المدينة واختار الشّعب من جبل «أحد» لاستقرار الجيش الإسلامي باعتباره أفضل مكان من الناحية العسكرية والدفاعية.

لقد استشار النبي الكريم ﷺ في هذه المسألة يوم الجمعة، ولذلك فإنّه بعد انتهاء المشاورة، قام يخطب لصلاة الجمعة وقال بعد حمد الله والثناء عليه: **«انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم»**.

ثمّ تولّى ﷺ بنفسه قيادة المقاتلين وقد أمر بأن تعقد ثلاثة ألوية، دفع واحداً منها إلى المهاجرين، واثنين منها إلى الأنصار، ثمّ إنّ النبي قطع المسافة بين المدينة و«أحد» مشياً على الأقدام، وكان يستعرض جيشه طوال الطريق، ويرتّب صفوفهم، يقول المؤرّخ المعروف الحلبي في سيرته:

وسار إلى أن وصل «رأس الثنية» وعندها وجد كتيبة كبيرة فقال ﷺ ما هذا؟ قالوا: هؤلاء خلفاء عبد الله بن أبيّ اليهودي، فقال ﷺ: أسلموا؟ فقيل: لا، فقال ﷺ: إنّا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك» فردّهم، ورجع عبد الله بن أبيّ اليهودي ومن معه من أهل النفاق وهم ثلاثمائة رجل.

ولكنّ المفسّرين كتبوا أن «عبد الله بن أبيّ» رجع من أثناء الطريق مع جماعة من أعوانه، يبلغون ثلاثمائة رجل، لأنّه لم يؤخذ برأيه في الشورى[١].

وعلى أيّ حال، فإنّ النبي الكريم ﷺ بعد أن أجرى التصفية اللازمة في صفوف جيشه واستغنى عن بعض أهل الريب والشكّ والنفاق استقرّ عند الشِّعب من «أحد» في عدوة الوادي إلى الجبل وجعل «أحداً» خلف ظهره واستقبل المدينة.

وبعد أن صلّى بالمسلمين الصبح صفّ صفوفهم وتعبأ للقتال.

فأمّر على الرماة «عبد الله بن جبير» والرماة خمسون رجلاً جعلهم ﷺ على الجبل خلف المسلمين وأوعز إليهم قائلاً: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ هَزَمْنَاهُمْ حَتَّى أَدْخَلْنَاهُمْ مَكَّةَ فَلَا تَبْرَحُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ قَدْ هَزَمُونَا حَتَّى أَدْخَلُونَا الْمَدِينَةَ فَلَا تَبْرَحُوا وَ الْزَمُوا مَرَاكِزَكُم**»[٢].

ومن جانب آخر، وضع أبو سفيان «خالد بن الوليد» في مائتي فارس كميناً يتحيّنون الفرصة للتسلّل من ذلك الشِّعب ومباغتة المسلمين من ورائهم وقالوا: «إذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم».

ثمّ اصطفّ الجيشان للحرب، وراح كلّ واحد منهما يشجع رجاله على القتال بشكل من الأشكال ويحرّضهم على الجلاد بما لديه من وسيلة.

وقد كان أبو سفيان يحرّض رجاله باسم الأصنام ويغريهم بالنساء الجميلات.

---

(١) لمزيد من التوضيح انظر كتاب: «فروغ ابديت» بقلم آية الله الشيخ جعفر سبحاني، المجلد الثاني، ص ٣٨ (بالفارسية)؛ وتاريخ «پيامبر اسلام» الدكتور آيتي، ص ٢٨٥ (بالفارسية).

(٢) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٤٩.

أمّا النبي الكريم ﷺ فقد كان يحثّ المسلمين على الصمود والثبات، مذكّراً إيّاهم بالنصر الإلٰهيّ والتأييدات الربّانية.

ها هي تكبيرات المسلمين ونداءات الله أكبر الله أكبر تدوّي في جنبات ذلك المكان، وتملأ شعاب «أحد» وسهولها، بينما تحرّض هند والنسوة اللّاتي معها من نساء قريش وبناتها الرجال ويضربن بالدفوف ويقرأن الأشعار الحماسية.

وبدأ القتال وحمل المسلمون على المشركين حملة شديدة هزمتهم شرّ هزيمة، وألجأتهم إلى الفرار وراح المسلمون يتعقّبونهم ويلاحقون فلولهم.

ولمّا علم «خالد» بهزيمة المشركين وأراد أن يتسلّل من خلف الجبل ليهجم على المسلمين من الخلف شقّه الرماة بنبالهم، وحالوا بينه وبين الوقيعة بالمسلمين.

هذه الهزيمة النكراء التي لحقت بالمشركين دفعت ببعض المسلمين جديدي العهد بالإسلام إلى التفكير في الغنائم والانصراف عن الحرب، بظنّ أنّ المشركين هزموا هزيمة كاملة، حتى أنّ بعض الرماة تركوا مواقعهم في الجبل متجاهلين تذكير قائدهم «عبد الله بن جبير» إيّاهم بما أوصاهم به النبي الكريم ﷺ، ولم يبق معه إلّا قليل ظلوا يحافظون على تلك الثغرة الخطرة في الجبل محافظة على المسلمين.

فتنبّه «خالد بن الوليد» إلى قلّة الرماة في ذلك المكان، فكرّ راجعاً بالخيل (وعددهم مائتا رجل كانوا معه في الكمين) فحملوا على «عبد الله بن جبير» ومن بقي معه من الرماة وقتلوهم بأجمعهم، ثمّ هجموا على المسلمين من خلفهم.

وفجأة وجد المسلمون أنفسهم وقد أحاط بهم العدو بسيوفهم، وداخلهم الرعب، فاختلّ نظامهم، وأكثر المشركون من قتل المسلمين فاستشهد ـ في هذه الكرّة ـ «حمزة» سيّد الشهداء وطائفة من أصحاب النبي الشجعان، وفرّ بعضهم خوفاً، ولم يبق حول النبيّ سوى نفر قليل جداً يدافعون عنه ويردّون عنه عادية الأعداء، وكان أكثرهم دفاعاً عن النبي ﷺ وردّاً لهجمات العدوّ، وفداء بنفسه هو «الإمام علي بن أبي طالب» عليه السلام الذي كان يذبّ عن النبي الطاهر ببسالة منقطعة النظير، حتى إنّه تكسّر سيفه فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه المسمّى بذي الفقار، ثمّ

تترس النبي بمكان، وبقي علي عليه السلام يدفع عنه حتى لحقه ـ حسب ما ذكره المؤرخون ـ ما يزيد عن ستين جراحة في رأسه ووجهه، ويديه وكلّ جسمه الطاهر، وفي هذه اللحظة قال جبرائيل: «**إنّ هذه لهي المواساة يا محمد**» فقال النبي الكريم صلى الله عليه وآله: «**إنّه مني وأنا منه**» فقال جبرائيل: «**وأنا منكما**».

قال الإمام الصادق عليه السلام: **فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله إِلَى جَبْرَئِيلَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يَقُولُ: «لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَارِ وَلَا فَتَى إِلَّا عَلِيٌّ»**[1].

وفي هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمد. ويذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ «ابن قمئة» الذي قتل الجندي الإسلامي البطل «مصعب بن عمير» وهو يظنّ أنّه النبي هو الذي صاح «واللات والعزّى لقد قتل محمد».

وسواء كانت هذه الشائعة الكاذبة من جانب المسلمين أو العدوّ فإنّها ولا ريب كانت في صالح الإسلام والمسلمين؛ لأنّها جعلت العدو يترك ساحة القتال ويتجه إلى مكّة بظنّه أنّ النبي قد قتل وانتهى الأمر، ولولا ذلك لكان جيش قريش الفاتح الغالب لا يترك المسلمين حتى يأتي على آخرهم لما كانوا يحملونه من غيظ وحنق على النبي الكريم صلى الله عليه وآله، بل ولما كانوا يتركون ساحة القتال حتى يقتلوا رسول الله لأنّهم لم يجيئوا إلى «أحد» إلّا لهذه الغاية.

لم يرد ذلك الجيش الذي كان قوامه ما يقارب خمسة آلاف ـ وبعد تلك الانتصارات ـ أن يبقى ولو لحظة واحدة في ساحة القتال، ولذلك غادرها في نفس الليلة إلى مكّة، وقبل أن يندلع لسان الصباح.

إلّا أنّ شائعة مقتل النبي صلى الله عليه وآله أوجدت زلزالاً كبيراً في نفوس بعض المسلمين ولذلك فرّ هؤلاء من ساحة المعركة.

وأمّا من بقي من المسلمين في الساحة فقد عمدوا ـ بهدف الحفاظ على البقيّة من التفرق وإزالة الخوف والرعب عنهم ـ إلى أخذ النبي صلى الله عليه وآله إلى الشّعب من «أحد» ليطلع المسلمون على وجوده الشريف ويطمئنّوا إلى حياته، وهكذا كان، فإنّهم لما عرفوا رسول الله صلى الله عليه وآله عاد الفارّون وآب المنهزمون واجتمعوا حول

(١) الكافي، ج ٨، ص ١١٠.

الرسول ولامهم النبي الكريم ﷺ على فرارهم في تلك الساعة الخطيرة، فقالوا: يا رسول الله أتانا الخبر بأنّك قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين.

وهكذا لحقت بالمسلمين ـ في معركة أحد ـ خسائر كبيرة في الأموال والنفوس، فقد قتل منهم في هذه الموقعة اثنان وسبعون من المسلمين في ميدان القتال، كما جرح جماعة كبيرة[١].

التعاليم:

١ ـ ذكريات الهزائم والانتصارات من الماضي يجب أن تبقى في ذاكرتنا كدروس وتجارب، ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ...﴾.

٢ ـ المشاركة في الحرب والجهاد شرطها قطع الآمال والتعلقات بالدنيا، ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ...﴾.

٣ ـ لا بدّ من إعداد الخطط الفنية والجغرافية والطبيعية الخاصة بالعمليات العسكرية قبل أن يبدأ الأعداء هجومهم، ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ... تُبَوِّئُ﴾.

٤ ـ قيادة المعركة واختيار مناطق استقرار الجيش والمواقع الاستراتيجية الدفاعية هي مسؤولية النبي وقادة المسلمين، ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

إشارات:

❑ يذكر لنا التاريخ أنّ طائفتين من المسلمين هما «بنو سلمة» من قبيلة الأوس، و«بنو حارثة» من قبيلة الخزرج عزمتا على عدم المشاركة في معركة أحد إلى جانب المسلمين، وقيل في شرح أسباب تخاذلهما:

١ ـ الخوف من قوّة العدوّ الذي كان تعداده يفوق المسلمين.

٢ ـ انزعاج الطائفتين بسبب عدم الأخذ برأيهما في المشاورات عندما أشارا بضرورة البقاء في المدينة.

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٣ ـ انزعاجهم من عدم سماح النبي الكريم ﷺ لليهود المتحالفين مع هاتين الطائفتين بتقديم المساعدة.

ومع ذلك، لم يشأ الله تعالى بلطفه أن تجنح هاتان الطائفتان عن جادّة الصواب وتبوء بإثم الفرار من ميدان القتال، فهداهما إلى المشاركة في معركة أحد إلى جانب المسلمين ما خلا فئة قليلة منهم[١].

التعاليم:

١ ـ الله عليم بمقاصدنا وقراراتنا، وهو الذي ينبئ رسوله الكريم ﷺ بهذه القرارات، ﴿إِذْ هَمَّت﴾.

٢ ـ ليس كلّ الذين يذهبون إلى جبهات القتال سواء، ﴿طَآئِفَتَانِ... أَن تَفْشَلَا﴾.

٣ ـ حضور العناصر الضعيفة والمتخاذلة في الجبهات يشكّل مصدر هزيمة وتهديد، ﴿تَفْشَلَا﴾.

٤ ـ إذا لم ينضو الإنسان تحت ولاية الله يصبح ضعيفاً، ﴿أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾.

٥ ـ لن يخلي الله تعالى ظهور المؤمنين، فهو سيأخذ بأيديهم في اللحظات الحسّاسة، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾.

٦ ـ قصد المعصية لا يُخرج الإنسان من مظلّة الولاية الإلٰهيّة ما لم يلبس ثوب التطبيق، ﴿هَمَّت... وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾.

٧ ـ التوكّل على الله هو الدواء الناجع والوحيد للضعف، وهذا الدواء بيد المؤمن، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٨ ـ الإيمان بالله والتوكّل عليه عامل النصر، ﴿هَمَّت... أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

إشارات:

- «أَذِلَّةٌ» إشارة إلى قلّة عدد المؤمنين في وقعة بدر، أو أنّها تعني نقص العدّة والعتاد الحربي والمؤن والإمدادات. في التذكير بما كان يعانيه المؤمنون من نقص في العدّة والعدد في بدر، مقارنة مع ما كانوا عليه في أحد.
- ذكرت الآيات الثلاث السابقة كيف أنّ التقوى والصبر تحصّن الإنسان ضدّ الشدائد والمصائب، وتقدّم هذه الآية المجاهدين البدريين على أنّهم التجسيد الحيّ والعملي لهذه المعاني. كما أنّ الآية السابقة تناولت موضوع التوكّل على الله وهي أيضاً تتجسّد عملياً في البدريين، وتخاطب الآية الكريمة المسلمين بأنّكم رأيتم نصر الله تعالى في بدر، فلماذا فكّرتم في الفرار في معركة أحد؟!

التعاليم:

١ ـ لا تنسوا المدد الغيبي في ميادين القتال، ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾.

٢ ـ النصر الإلٰهيّ دليل الولاية الإلٰهيّة على المؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا... وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾.

٣ ـ فلنتوكّل على الله الذي شهدنا نصرته في ميادين القتال، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ... وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾.

٤ ـ المدد الغيبي هو الذي يقرّر مصير الحرب لا العوامل الطبيعية، ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾.

٥ ـ لا بدّ لمن يرجو النصر الإلٰهيّ، أن يتّقي الله، ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ... فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٦ ـ شكر المدد الغيبي هو بتقوى الله، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... تَشْكُرُونَ﴾.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ إحدى مسؤوليات القائد زرع الأمل في نفوس الناس ولفت انتباههم إلى المدد الغيبي، ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ ـ زرع الأمل بالألطاف الإلٰهيّة أمر حيوي بالنسبة للمقاتل، ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾.

٣ ـ الملائكة تكون في خدمة المؤمنين بأمر الله تعالى، ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

٤ ـ بحسب الرؤية الكونية الإلٰهيّة، فإنّ حياة البشر مرتبطة بعالم الملائكة، ﴿يُمِدَّكُمْ...﴾.

٥ ـ المدد الغيبي من تجلّيات الربوبية الإلٰهيّة، ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾.

٦ ـ إحدى وسائل المدد الغيبي في جبهات القتال، نزول الملائكة، ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم
بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

إشارات:

- تحدّثت الآية السابقة عن نزول ثلاثة آلاف من الملائكة ليمدّوا المؤمنين، وهنا تعد الآية الكريمة المقاتلين المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة في حال صبروا وتمسّكوا بتقوى الله.
- ولا شكّ في أنّ ذكر عدد الملائكة المنزلين يدلّ على قدرتهم المحددّة. وكما يُستفاد من كلمة ﴿مُنزَلِينَ﴾، بأنّ الملائكة مسيّرون بأمر الله تعالى إذ لا حول لهم ولا قوّة من أنفسهم. كما تشير كلمة ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ إلى أنّ الملائكة التي نزلت في ميدان المعركة كانت معلّمة بعلامات خاصة. ويؤكّد ذلك سلام الإمام زين

العابدين عليه السلام على الملائكة، حيث يبيّن لكلّ طائفة منها مهمّة خاصة بها[١].

التعاليم:

١ ـ الثبات والتقوى هما عاملا نزول الملائكة والمدد الغيبي، ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ... يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾.

٢ ـ المدد الغيبي لا يقتصر على زمن النبي فحسب، ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ... يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾.

٣ ـ الصمود المقترن بالتقوى فضيلة وقيمة، وإلّا كان لجاجاً وعناداً، ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

٤ ـ لا تغفلوا عن العدوّ فهجمته شرسة وصاعقة، ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾.

٥ ـ كلّما كانت هجمة الأعداء على المتّقين أشرس، زاد الله تعالى من إمداداته الغيبية، ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ... بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الطمأنينة والأمل هما من جملة ما يحتاجه المقاتلون في الجبهات، ﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ﴾.

٢ ـ لا تأثير لجميع التمهيدات الماديّة والعلمية والنفسية والبشرية من دون مشيئة الله، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ قدرة الله تعالى مقترنة بحكمته. فلربّما يُهزم المسلمون لأسباب خاصّة، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) الصحيفة السجّادية، الدعاء الثالث.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

إشارات:

- الـ«طَرف» هو نهاية الشيء لا جانبه؛ لذلك يقول الله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾. طبعاً، فسّر بعض المفسّرين الكلمة بالطائفة أو النفر أو أشراف قريش، ليكون المعنى: إنّ هدف معركة بدر كان القضاء على أشراف قريش من الكفار، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾[١].
- اليأس على وجهين؛ الوجه الأول، الخيبة فلا تكون إلّا بعد الأمل؛ إذ هي امتناع نيل الإنسان ما أمّل، أمّا الوجه الثاني فهو اليأس فقد يكون قبل الأمل وقد يكون بعده[٢].
- الحرب والجهاد في الإسلام تكون أحياناً دفاعية من أجل إحباط هجوم العدوّ، وأحياناً أخرى ابتدائية واستباقية لاحتواء العدوّ.

التعاليم:

١ ـ يجب قطع رؤوس الكفر من جذورها أو أن تذلّ وتيأس. لا تفرحوا بالتصدّي المائع والمرحلي والمحدود للكفر الذي لا يعالج جذوره، ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾.

٢ ـ يجب أن تكون وحدة المسلمين وسلطتهم وسياستهم وقيادتهم على نحو لا يبقي للعدو أيّ أمل، ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

إشارات:

- نعم، هذا هو ديدن القائد الذي يحظى بالصدق التامّ، فهو يعرض على الناس بكل أمانة وشجاعة حتى الآيات التي تسلبه أيّ خيار أو صلاحية، كما في هذه

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢.

(٢) تفسير أطيب البيان؛ التحقيق في كلمات القرآن.

الآية التي يخاطب سبحانه وتعالى نبيّه بالقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. وقد جاء في تفاسير الفريقين، أنّه لمّا كسرت رباعية النبي الكريم في معركة أحد وشجّ في رأسه قال ﷺ: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم**»[(١)] فأنزل الله تعالى هذه الآية يخاطب فيها نبيّه: ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلّا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليّ والقضاء فيهم بيدي دون غيري أقضي فيهم، وأحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر بي وعصاني، وخالف أمري، أو العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي.

التعاليم:

١ ـ العفو والعذاب بيد الله تعالى. حتى شفاعة الأولياء لا تتمّ دون إذنه تعالى، وليس للأنبياء شيء من أمر الخلق إلّا لخالقهم، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

٢ ـ طريق التوبة مفتوح حتى للفارّين من جبهات الحقّ أو الكفّار الذي سدّدوا ضربات موجعة للمسلمين، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

٣ ـ عذاب الناس هو بسبب ظلمهم، ﴿يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

إشارات:

- هذه الآية تأكيد لما ورد في الآية السابقة من أنّ العقاب أو العفو بيد الله وحده؛ لأنّ الخلق وحاكمية الكون بيده تعالى شأنه. والملفت في هذه الآية، أنّها لا تصرّح بمن شمله العذاب أو اللطف الإلٰهيّ حتى لا يصاب أحد هنا باليأس أو الغرور، وليبقى الجميع في حالة متأرجحة بين الخوف والرجاء. ومعلوم أنّ أيّاً من العفو أو العذاب يقوم على أساس الحكمة الإلٰهيّة، ويرتبط بالخلفيات التي أوجدها الإنسان في نفسه وفي المجتمع.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٣٧.

التعاليم:

١ ـ العفو أو العقاب بيد من له الحاكمية على السموات والأرض، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ... يَغْفِرُ... وَيُعَذِّبُ﴾.

٢ ـ الأساس في النظام الإلٰهيّ هو العفو والمغفرة. فكلمة ﴿يَغْفِرُ﴾ سبقت ﴿يُعَذِّبُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

إشارات:

❑ هذه الآية مع ثمانٍ لاحقة اعتراض بيّن أثناء قصّة معركة أحد، ولعلّ سبب ذلك هو تأثير القضايا الأخلاقيّة والاقتصادية على بنية النظام الدفاعي. والحقّ أقول، إنّ المجتمع الذي يجتمع أهله على الإخلاص والإيثار والتسابق على فعل الخير وطاعة قائدهم، لهو مجتمع منتصر في ميادين القتال أيضاً، أمّا المجتمع الذي تملّكت أفراده حبّ اكتناز المال وتأصّلت في نفوسهم خصال البخل والتمرّد والإصرار على ارتكاب المعاصي، لهو أقرب إلى الهزيمة.

❑ نزلت آيات تحريم الربا على مراحل وبصورة تدريجية. فبدأت المرحلة الأولى بانتقاد أكل الربا لدى بني إسرائيل: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾[1]، ثمّ تلتها المرحلة الثانية التي منعت التعاطي بالربا أضعافاً مضاعفة، وفي المرحلة الثالثة أعلنت الربا على أنّه بمثابة حرب على الله.

التعاليم:

١ ـ العمل بالأحكام قاعدته الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦١.

٢ ـ قبل تحريم الربا، حرّمت مصاديقه الأقبح والأبرز، ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾.
٣ ـ الالتزام بالتقوى في القضايا الاقتصاديّة أمرٌ ضروري للغاية، ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.
٤ ـ لا يُنال الفلاح بأكل الربا بل بالتزام التقوى، ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.
٥ ـ لا يفلح المرابي في الدنيا، (لجهة تفاقم الهوّة الطبقيّة التي تؤدّي إلى الفُرقة وزرع الأحقاد في نفوس المحرومين وانفجارها) ولا يفلح في الآخرة؛ (لأنّه سيُبتلى بغضب الله وعذابه)، ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾

إشارات:

❑ وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن أكل الربا من المعاصي[1] التي تخرج صاحبها من الإيمان.

التعاليم:

١ ـ ينزل بالمسلم المرابي نفس العذاب الذي ينزل بالكافر، ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.
٢ ـ جهنّم مُعدّةٌ للكافرين، والمسلم إنّما يُحشر فيها لتشابه عمله مع عمل الكفّار، ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.
٣ ـ جهنّم مخلوقة بالفعل، ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ كما أنّ الجنّة مخلوقة للمحسنين، ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

إشارات:

❑ إنّ عامل هزيمة المسلمين في معركة أحد كان مخالفة المسلمين لأوامر الرسول

---

(١) تفسير العيّاشي. (٢) سورة الشعراء: الآية ٩٠.

الكريم ﷺ عندما أمر الرماة بعدم ترك مواقعهم المحصّنة في شعاب جبل أحد، لكنّهم تجاهلوا هذا الأمر ونزلوا إلى ساحة المعركة طمعاً في الغنائم فتركوا أمر الرسول وراء ظهورهم، وقدّموا فرصة ذهبية للعدوّ لينقضّ عليهم من خلفهم.

التعاليم:

١ ـ الأوامر الحكومية للنبي الكريم ﷺ طاعتها واجبة تماماً كأوامر الله، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

٢ ـ أكل الربا عصيان وطغيان على الله ورسوله، ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰا... وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

٣ ـ من يمتثل لأوامر الله ورسوله ويكفّ عن أكل الربا ويرأف بحال الناس، سيشمله الله برحمته، ﴿وَأَطِيعُوا... تُرْحَمُونَ﴾.

٤ ـ طاعة الله ورسوله منجاة من النار، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ... وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

٥ ـ ثمار طاعة الله ورسوله تعود على الإنسان نفسه لا على الله ورسوله، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٦ ـ طاعة الله لا تخلو من الثواب، وهي وسيلة لاستنزال الرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَأَطِيعُوا... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿۞ وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

إشارات:

- يعتقد فريق من العلماء المسلمين أنّ الجنّة والنار مخلوقتان وموجودتان بالفعل، ويستدلّون لقولهم هذا ببعض الآيات مثل ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أو ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.
- لا شكّ في أنّ غفران الذنوب هو بيد الله تعالى؛ لذا فالمراد من المسابقة والمسارعة إلى المغفرة في هذه الآية الكريمة هو الإسراع إلى الأعمال والفرائض التي تلحقها المغفرة.

□ كلمة «عَرض» في الآية تعني الاتّساع والانفساح[1].

□ نقل عن الإمام علي عليه السلام قوله في تفسير هذه الآية: **«سارعوا إلى أداء الفرائض»**[2].

التعاليم:

١ ـ المسارعة والتسابق في أعمال الخير ترفع من قيمتها وفضلها، ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾.

٢ ـ لا بدّ من المسارعة في التوبة واستجلاب المغفرة الإلٰهيّة، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾.

٣ ـ غفران الذنوب من شؤون الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

٤ ـ المغفرة أولاً، ودخول الجنّة ثانياً، ﴿مَغۡفِرَةٖ... وَجَنَّةٍ﴾.

٥ ـ شرط الإسراع صوب جنّة المتّقين هو أن يُحشر الإنسان في زمرة المتّقين، ﴿وَجَنَّةٍ... أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾

إشارات:

□ بعد أن حَمَلت الآيات السابقة على أكل الربا، جاء دور الثناء على الإنفاق والعفو والتعاون، وبيان حُسن هذه المفاهيم.

□ روي في المصادر الإسلاميّة في ذيل هذه الآية أنّ جارية لعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام كانت تصبّ له الماء ليتهيّأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت له الجارية: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾، فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ قال:

(١) تقول العرب في وصف سعة الشيء: عرضه كذا، ومن العرض يتبيّن أيضاً مقدار الطول.

(٢) تفسير مجمع البيان.

قد عفا الله عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرّة لوجه الله[١].

❑ وقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «**ما من عبدٍ كظم غيظاً إلّا زاده الله عزّ وجلّ عزّاً في الدنيا والآخرة وقد قال الله عزّ وجلّ** ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ **وأثابه الله مكان غيظه ذلك**»[٢].

التعاليم:

١ ـ لا انفكاك بين التقوى والإنفاق، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ... ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ...﴾.

٢ ـ الإنفاق بحاجة إلى السخاء لا إلى الثروة، ﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

٣ ـ ليكن إنفاقنا على نحوٍ لا ننسى المحرومين عند الغنى، ولا نعتذر بفقرنا عند الضيق، ﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

٤ ـ المتّقون ليسوا عبيداً لأهوائهم، بل هم يملكون أزمّة أنفسهم، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

٥ ـ بين التقوى ورحابة الصدر تلازم، ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾.

٦ ـ الورع لا يعتزل الناس، بل يعاشرهم بماله وخُلُقه، ﴿يُنفِقُونَ، وَٱلْكَٰظِمِينَ، وَٱلْعَافِينَ﴾.

٧ ـ ليس من شروط العفو عن المذنب أن يكون مؤمناً، ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾.

٨ ـ من أراد الفوز بحبّ الله عليه أن يستغني عن ماله ويكظم غيظه وغضبه، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٩ ـ الإنفاق على المحرومين والصفح عن أخطاء الناس وزلّاتهم من أمثلة الإحسان، ﴿يُنفِقُونَ، وَٱلْكَٰظِمِينَ، وَٱلْعَافِينَ، ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير روح البيان.

(٢) الكافي، ج٢، ص ١١٠.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

إشارات:

- يرى بعض المفسّرين أنّ المقصود بـ«**الفاحشة**» هو الزنا، أمّا «**الظلم**» فهو إشارة إلى سائر المعاصي والذنوب، فيما يرى فريق آخر أنّ «**الفاحشة**» هي الكبائر، و«**الظلم**» هي صغائر الذنوب.

- ولقد ورد في الروايات أنّ عدم الاكتراث واللامبالاة في ارتكاب المعاصي وترك التوبة والاستغفار، إنّما هو بمنزلة الإقامة على المعاصي، «**هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدّث نفسه بتوبة فذلك الإصرار**»[١].

- وقد ورد في الكتب الروائية أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «لمّا نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له: ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيدنا لِمَ دعوتنا؟

قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا.

قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك.

قال: لست لها؟

فقال الوسواس الخناس أنا لها.

قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنّيهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة»[٢].

---

(١) الكافي، ج٢، ص٢٨٧. (٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٦٦.

التعاليم:

١ ـ حتى المتّقون قد تصدر منهم أحياناً بعض الأخطاء والمعاصي، ﴿لِلْمُتَّقِينَ... وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾.

٢ ـ الأخطر من ارتكاب المعاصي، هو الغفلة عنها وعن قبحها. المتّقون حتى لو ارتكبوا معصية، فإنّهم يبادرون إلى الاستغفار فوراً، ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً... ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا﴾.

٣ ـ التوبة من الذنب علامة التقوى، ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً... ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا﴾.

٤ ـ سرّ التوبة ذِكر الله، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا﴾.

٥ ـ ما دام وهج ذكر الله يحيي قلب العاصي، فهو في زمرة المتّقين، ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً... ذَكَرُوا اللَّهَ﴾.

٦ ـ المعصية ظلم للنفس، ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

٧ ـ الله وحده غافر الذنوب، ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

٨ ـ الوَرِع هو الذي لا يصرّ على ارتكاب المعاصي؛ لأنّ الإصرار على المعصية دليل على الاستهانة بها أو استسهالها والغفلة عن ذكر الله، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾.

٩ ـ الإصرار الصامد على المعصية، سبب الحرمان من المغفرة الإلٰهيّة، ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا﴾.

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

إشارات:

□ اختتام ثلاث آيات متتالية بالكلمات ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ و﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ و﴿الْعَامِلِينَ﴾ دليل على أنّ التقوى ليست حالة انعزال أو حالة نفسية داخليّة، بل هي حضور في قلب المجتمع مقترن بالعمل والإحسان.

التعاليم:

١ ـ لن يدخل الإنسان الجنّة ما لم يتطهّر من أدران الذنوب، ﴿مَّغْفِرَةٌ... وَجَنَّٰتٌ﴾.

٢ ـ العفو والمغفرة الإلٰهيّة هي من أجل تربية الإنسان وتأهيله، ﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

٣ ـ ليس بالأماني نحوز ألطاف الله تعالى، بل بالجدّ والاجتهاد، ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

إشارات:

- تكشف هذه الآية عن أهميّة معرفة المجتمع وسبر أعماقه ورصد مبادئ العزة والذلة. ومن السنن التي انطبقت على الأمم الماضية:

أ) الرضوخ للحقّ الذي كان سبباً في خلاصها وسعادتها.

ب) تكذيب الحقّ الذي أدّى إلى فنائها وهلاكها.

ج) الامتحانات والابتلاءات الإلٰهيّة التي جرت على الأمم السالفة.

د) نزول الإمدادات الغيبية على أهل الحقّ.

هـ) إمهال الظالمين.

و) ثبات أهل الحقّ ومرابطتهم كان السبب في بلوغهم الأهداف السامية.

ز) مؤامرات الكفّار ووأدها من قبل الله تعالى.

التعاليم:

١ ـ تاريخ البشرية محكوم بقوانين وسنن ثابتة، ومن المفيد للإنسان أن يتعرّف إليها، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.

٢ ـ سيرة الماضين نبراس ينير درب الآتين، ﴿فَسِيرُوا... فَٱنظُرُوا﴾.

٣ ـ السياحة الهادفة والسفر المقترن بالتأمّل والتفكّر أحسن مدرسة لإعداد الأجيال وتربيتها، ﴿فَسِيرُوا... فَانظُرُوا﴾.

٤ ـ سنن العزّة والانحدار هي نفسها تسري عليكم كما سرت على سائر الأمم سواء بسواء، ﴿فَسِيرُوا... فَانظُرُوا﴾.

٥ ـ معرفة تاريخ الماضين وسلوكهم وما آل إليه مصيرهم مفيد لاختيار الطريق، ﴿فَسِيرُوا... فَانظُرُوا﴾.

٦ ـ المحافظة على الآثار التاريخية ضروري لكي يستخلص الآتون العبر والدروس من الماضين، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

٧ ـ دراسة وتحليل التحوّلات التاريخية أمرٌ ضروري، ﴿فَسِيرُوا... فَانظُرُوا﴾.

٨ ـ في دراستنا التاريخ، لا أهميّة للمظاهر بل للعواقب والنتائج، ﴿فَسِيرُوا... فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

٩ ـ لا تقتصر العقوبات الإلٰهيّة على يوم القيامة فقط، فأحياناً ينزل الله غضبه على الطغاة في هذه الدنيا، ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

إشارات:

□ اسم الإشارة «هذا» يشير إلى الآيات ١٣٠ إلى ١٣٧، وقيل: إنّها إشارة إلى سنن التاريخ وعبره التي وردت في الآية السابقة.

التعاليم:

١ ـ القرآن مفهوم لجميع الناس في جميع الأعصار، ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾.

٢ ـ أُنزل القرآن لكلّ الناس في جميع الأعصار والأمصار، ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾.

٣ ـ صحيح أنّ القرآن نزل لعموم الناس، ولكن وحدهم المتّقون الذين يستلهمون منه العبر والدروس، ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٤ ـ نفسيّة الشخص ومعنويّاته لها أثر في انتهاله من الآيات الإلٰهيّة، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

إشارات:

◻ عندما هُزم جند الإسلام في أُحُد بسبب عدم التزامهم بأوامر القيادة، انكسرت معنويّاتهم وتحطّمت روحيّتهم، فنزلت هذه الآية تسليةً لهم لئلّا تؤثّر الهزيمة على معنويّاتهم، ولتحثّهم على تقوية أنفسهم عبر تقوية إيمانهم، فيكون النصر حينذاك حليفهم.

التعاليم:

١ ـ هزيمة المسلمين في معركة لا تعني هزيمتهم النهائية في الحرب، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾.

٢ ـ مسؤولية القائد تتمثّل في تعزيز الروح المعنوية لشعبه، ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ...﴾.

٣ ـ إذا استعدتم روح الإيمان والطاعة، فإنّكم ستنتصرون في المعارك، ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٤ ـ بالإيمان يتحقّق النصر على العالم كلّه، ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٥ ـ النصر والهزيمة الظاهريتان ليستا معياراً، بل التفوّق لجهة المعتقدات الحقّة والفكر الأصيل هو الأساس، ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٦ ـ بحسب الرؤية المادّيّة فإنّ السلاح والعتاد هما عاملا النصر، في حين أنّ الإيمان هو عامل النصر في الرؤية الإلٰهيّة، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

إشارات:

◻ هذه الآية تسلية وعزاء للمسلمين، وبيان لحقيقة مهمّة وهي: أنّكم إذا أصابكم الضرّ ومسّكم السوء في سبيل إعلاء كلمة الحقّ وتحقيق الأهداف الإلٰهيّة، فإنّ

عدوّكم، في المقابل، لحقه الكثير من القتل والجراحات. إنّكم، إذا كنتم تتجرّعون اليوم مرارة الهزيمة في أحد، فإنّ أعداءكم أيضاً قد تجرّعوها من قبلكم يوم بدر فلم يهنوا لما أصابهم، لذلك، عليكم بالصبر والجَلَد في الملمّات.

- درج القرآن الكريم على استعمال كلمات ﴿شُهَدَآءَ﴾ و﴿شَهِيدٌ﴾ و﴿شَاهِدٌ﴾ للتعبير عن معنى الحضور والمشاهدة عكس الغياب كما في قوله تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، غير أنّ سبب نزول الآية وتناولها لقصة أُحُد وموضوع الجراحات في الجبهة تجعل المفسّر يذهب إلى تفسير كلمة «شهداء» بالذين يقتلون في سبيل الله، وهو محقّ في ذلك طبعاً.

- ينبغي للمسلم أن يتحلّى بروح معنوية عالية وراسخة وذلك في ضوء النقاط التالية الواردة في الآية:

أ) ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

ب) ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ﴾.

ج) ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾.

د) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

هـ) ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾.

و) ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

- رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الآية: **«ما زال مذ خلق الله آدم دولة لله ودولة لإبليس، فأين دولة الله أما هو إلّا قائم واحد»**[1].

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي للمسلمين أن يهنوا ويكونوا أقلّ صبراً من الكفّار، ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

---

(١) تفسير العيّاشي، ج١، ص١٩٩.

٢ ـ لا دوام لحوادث الدهر حلوها ومرّها، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

٣ ـ في الحرب ومنعرجات الحياة، تتميّز صفوف أهل الإيمان عن أدعياء الإيمان، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٤ ـ لقد اتّخذ الله منكم شهداء ليشهدوا بأنّ تجاهل أوامر القائد تؤدّي إلى الهزيمة، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

٥ ـ الانتصار المؤقت للكفار ليس دليلاً على محبّة الله لهم، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

٦ ـ وقائع التاريخ تتحقّق بإرادة الله ومشيئته، ﴿نُدَاوِلُهَا﴾.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

إشارات:

- «**التمحيص**» الاختبار وقيل: التطهير من كلّ عيب أو درن، و«**المَحق**» الاستئصال والمحو التدريجي.

- لقد أراد من خلال هزيمة المسلمين في معركة أحد وابتلائهم بإدالة المشركين منهم أن يكشف عن نقاط ضعفهم والثغرات الموجودة في صفوفهم، ليهمّوا بسدّها وإصلاح كلّ ثلمة أو نقص، ليستعدّوا للجولات القادمة. وربّ هزيمة تكون درساً وعِظةً للإنسان فيبني بها ما تهدّم ويصلح على ضوئها ما فسد، خيرٌ من نصر يسقيه كأس الغرور فيسكر من فرط الغفلة وينأى عن فهم الدرس والعبرة.

التعاليم:

١ ـ الحرب بوتقة اختبار يتميّز فيها الأصيل عن الدخيل، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ﴾.

٢ ـ هزيمة أو نصر، كلاهما سعادة لأهل الإيمان؛ لأنّهم سيفوزون بإحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر على الأعداء واكتساب الخبرة، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٣ ـ اعتلاء الإيمان وانمحاء الكفر سيحصل بمرور الوقت والزمان، ﴿وَلِيُمَحِّصَ، وَيَمْحَقَ﴾ (﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ إشارة إلى الاستمرار و﴿يَمْحَقُ﴾ بمعنى التدريج).

٤ ـ صعود التاريخ باتجاه محق الكفر وإزالته، ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٥ ـ هزيمة اليوم ليست ذات أهميّة، إنّما العاقبة هي المهمّة، ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

إشارات:

□ هذه الآية في جهاد المؤمنين وصبرهم وثباتهم، ذلك أنّ طريق الجنّة يمرّ عبر الصبر والجهاد. يقول القرآن الكريم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[1]. ولا غرو أنّ هذه العبارة تنطوي على معنى لطيف وراقٍ يشمل كل الطاعات، فهي لم تقل سلام عليكم لقيامكم بالحجّ والصوم، أو أدائكم الخمسَ والزكاة، ذلك أنّ كلّ عمل يحتاج إلى صبر ومقاومة لإنجازه.

التعاليم:

١ ـ اتركوا الطموحات العريضة، والآمال الكاذبة، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾.

٢ ـ الإيمان القلبي وحده لا يكفي، بل يجب ترجمته إلى العمل والاجتهاد. فالجنّة لها ثمن وهي لا تُدرك بالأماني واختلاق الأعذار، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ...﴾.

٣ ـ الصبر والجهاد مفاتيح الجنّة. الصبر على النوازل والمعاصي والعبادات والحضور في جبهات الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر، ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٤ ـ لا بدّ من اقتران الجهاد بالصبر والثبات. فبدء الحرب ومواصلتها وما تفرزه من نتائج وعواقب، كلّ ذلك يحتاج إلى طول أناة وصبر ورباطة جأش، ﴿جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢٤.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية أنّه: بعد النصر الذي تحقّق في معركة بدر واستشهاد فريق من أبطال الإسلام، كانت جماعة من المسلمين يسألون ربّهم قائلين: أللهمّ ربّنا أرنا يوماً كيوم بدر فننال الشهادة، لكنّهم ضنّوا بأنفسهم وفرّوا من ميدان المعركة في السنة التالية وأثناء وقوع معركة أحد، بعد أن رأوا علائم الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في تلك الواقعة، فنزلت هذه الآية لتوبّخهم على فعلتهم وتعاتبهم.

نقرأ في زيارة شهداء كربلاء: «**يا ليتنا كنّا معكم، فنفوز معكم**».

فهلّا سألنا أنفسنا حين يجدّ الجدّ ما نحن فاعلون؟!

التعاليم:

١ ـ لا تجنحنّ بكم الأوهام والأماني، ولا تركنوا إلى كلّ شعار وقائله، ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ... فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ...﴾.

٢ ـ ميدان التجربة والعمل محكّ الرجال، ﴿رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

إشارات:

□ جاء في كتب التفسير: لمّا ارتفعت الصيحة في معركة أحد أنّ محمداً قد قتل، كان لانتشار هذا الخبر أثرٌ إيجابي في نفوس الكفّار، فارتفعت معنويّاتهم، بقدر ما ترك أثره السيّئ في نفوس بعض ضعاف الإيمان من المسلمين فأسرعوا بالخروج من ميدان القتال، بل إنّ بعضهم فكّر في طلب الأمان من أبي سفيان قائد جند المشركين، وفي مقابل هؤلاء ارتفع صوت المسلمين الذين ثبتوا في

المعركة قائلين: «يا قوم إن كان قد قتل محمد فربّ محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله ﷺ وموتوا على مات عليه».

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام في جوابه عن سؤال لزرارة: «.. **وليس كما قلت يا زرارة الموت موت والقتل قتل**»، قلت: فإنّ الله يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[1]، قال: «**من قتل لم يذق الموت**، ثمّ قال: **لا بدّ من أن يرجع حتى يذوق الموت**»[2].

التعاليم:

١ ـ مسؤولية النبي إبلاغ رسالة الله تعالى، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾.

٢ ـ أفهل ارتدّ أتباع الأديان السابقة عن دينهم بعد موت أنبيائهم؟! ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ...﴾.

٣ ـ يجب أن يمتلك المجتمع الإسلامي انسجاماً وتماسكاً بحيث لا يؤثّر فيه موت قائده، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾.

٤ ـ السنن الإلٰهيّة والقوانين الطبيعية من موت وحياة تسري حتى على النبي الكريم ﷺ، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾.

٥ ـ بثّ الشائعات إحدى حراب العدو، ﴿مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾؛ (بالنظر إلى سبب النزول).

٦ ـ عمر النبي محدود لا دعوته، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾.

٧ ـ لا لشخصنة الرسالات. عندما يتّضح النهج الإلٰهيّ، فلا ينبغي لعلاقات الأفراد أن تصدّ عن اتّباع ذلك النهج، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾.

٨ ـ اجعل إيمانك قويّاً وراسخاً لا يتزعزع بعوادي الزمن، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾.

٩ ـ العدول عن نهج الأنبياء، يعني السقوط والرجوع القهقرى، ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٢) تفسير العيّاشي، ج٢، ص١١٣.

١٠ ـ كفر الناس لن يضرّ الله شيئاً، ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ﴾.

١١ ـ الصمود والمقاومة في سبيل الحقّ، أفضل أنواع الشكر العملي، وثوابه عند الله، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ بفراركم من أرض المعركة، لن تفرّوا من الموت، ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ... وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾.

٢ ـ الموت بيد الله لا بيدنا، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، غير أنّ خيار تحديد الهدف بيدنا، ﴿وَمَن يُرِدْ...﴾.

٣ ـ أما وأنّ الدنيا والآخرة أمامنا، فعلينا أن نختار طريق رضا الله، ﴿وَمَن يُرِدْ... نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

٤ ـ لكلّ دافع أو عمل انعكاس خاص، ولكلّ طريق هدف، ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا... وَمَن يُرِدْ...﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

إشارات:

☐ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ جمع «ربّيّ» وتطلق على من اشتدّ ارتباطه بالله ﷻ وكان مؤمناً وعالماً وصامداً ومخلصاً[١].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

التعاليم:

١ ـ اقترن تاريخ الأنبياء بالنضال والكفاح، ﴿وَكَأَيِّن...﴾.

٢ ـ لنأخذ الدروس من سيرة أولياء الله وثباتهم عبر التاريخ، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾.

٣ ـ إنّما الحرب والجهاد حقّ حينما تكون تحت لواء القائد الإلٰهيّ، ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ﴾، نقرأ في أدعية شهر رمضان المبارك: «**أللّهم ارزقنا قتلاً في سبيلك تحت راية نبيّك مع أوليائك**».

٤ ـ كثيرة هي جحافل المجاهدين العلماء والعرفاء طيلة تاريخ الإنسانية، ﴿وَكَأَيِّن... رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

٥ ـ كلّ المجاهدين أعزّة، إلّا أنّ المقاتلين العلماء الربّيين لهم مكانة خاصة، ﴿رِبِّيُّونَ﴾.

٦ ـ الإيمان بالله ينبوع الثبات والصمود، ﴿رِبِّيُّونَ... فَمَا وَهَنُواْ﴾.

٧ ـ لا ينبغي للمشاكل أن تكون عامل ضعف ووهن، بل عامل حركة وسعي دؤوب، ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾.

٨ ـ الحركة الخالصة في المسار الإلٰهيّ تقوّي من عزيمة الإنسان وتهوّن عليه عبء تحمّل الصّعاب والشدائد، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٩ ـ المشاكل والمكاره لا تدفع بالرجال المؤمنين إلى الاستسلام، ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾.

١٠ ـ إنّكم يا معشر المسلمين على الرغم من انتصاركم في يوم بدر، إلّا أنّ طريق المستقبل أمامكم وهو طريق الجهاد والكفاح، لذا، عليكم بالصبر والثبات، (بالنظر إلى الآيات السابقة واللّاحقة).

١١ ـ لا تضعف معنويّات المقاتلين الذين هم على بصيرة من أمرهم؛ ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾، ولا تضعف استعداداتهم القتالية؛ ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾، ولا يستسلمون أمام الصعاب، ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾.

١٢ ـ النهوض بالمسؤولية والثبات على الحقّ أمرٌ مهمّ بالنسبة لنا، انتصرنا أم

هُزمنا، فالآية الكريمة تقول: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾، ولم تقل «**يحبّ الفاتحين**».

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ المعاصي والإسراف من أسباب الهزيمة والانكسار في الحرب، فلا يضيّع المقاتلون المخلصون النصر بهذه الموانع، ﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾.

٢ ـ لا تعز هزيمتك إلى القضاء والقدر، أو إلى الآخرين، وابحث عن أسباب قصورك وأخطائك في نفسك، ﴿ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾.

٣ ـ الاستغفار أوّلاً ثمّ الاستنصار. استغفر ثمّ اطلب من الله النصر، ﴿ٱغْفِرْ لَنَا... وَٱنصُرْنَا﴾.

٤ ـ اخضع لله بدلاً من الاستسلام أمام العدو، ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ... رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٥ ـ ميادين الجهاد والقتال، ساحة للدعاء والاستغفار، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٦ ـ المؤمنون يطلبون نصرة الله ومدده لمحق الكفر لا ليحوزوا أوسمة الشجاعة والفخر، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

٧ ـ التمسوا العون من ألطاف الله لا من قواتكم، ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ... رَبَّنَا... وَٱنصُرْنَا﴾.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

إشارات:

- لعلّ المقصود بالثواب الدنيوي للمقاتلين هو رباطة الجأش وثبات القدم والنصر، أمّا الثواب الأخروي فهو المغفرة.

التعاليم:

١ ـ بون شاسع بين الثواب الدنيوي والثواب الأخروي، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾. في نعيم الدنيا غصّة، ولكن ثواب الآخرة خير ونعيم خالص.

٢ ـ مفاهيم الدعاء والجهاد والصبر والاستغفار والإيمان والتوكّل على الله كلّها أسباب لحبّ الله لعباده، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

إشارات:

□ ورد في سبب نزول هذه الآية: بعدما هُزم المسلمون في معركة أحد، أخذ رأس النفاق عبد الله بن أبيّ يصيح في المسلمين: الحقوا بإخوتكم من قريش وارجعوا إلى عبادة الأوثان[١].

التعاليم:

١ ـ خطر الارتداد والانحراف يتربّص بالمؤمنين، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ... يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾.

٢ ـ عليكم برصد دعاية العدو وإلقاءاته في تقلّبات الحياة، وحذار أن تميلوا إليهم، ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٣ ـ الكفر بعد الإيمان نكوص وسقوط، ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ... خَٰسِرِينَ﴾.

٤ ـ الخسارة الحقيقيّة تتمثّل في تبديد المخزون الإيماني والفكري والروحي، وترك الجنّة والدخول في النار، ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

٥ ـ الهزيمة في أرض المعركة ليست خسارة، إنّما الخسارة الكبرى في الهزيمة العقائدية والارتداد، ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ تفسير نور الثقلين.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

إشارات:

- تحدّثت الآية السابقة عن طاعة الكفار لا المولى، واتّخاذهم أولياء، ولكن حينما تذكر هذه الآية أنّ الله مولاكم، يتبيّن أنّ من يطيع الكافر، إنّما يكون، في الحقيقة، قد اتّخذه مولىً له.
- إنّ دافع الارتداد وطاعة الكفّار هو اكتساب العزّة والقدرة، وهو ما يفنّده القرآن الكريم في الآية ١٥٠ والآيات المشابهة، ويعتبره وهماً وسراباً ليس إلّا، حيث يقول: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(١)، و﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٢).

التعاليم:

١ ـ الولاية والطاعة حصر على الله تعالى، ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾.
٢ ـ تولّيكم الله هو سبب النصر، ﴿مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

إشارات:

- بعد أن هُزم المسلمون في أحد، كان أبو سفيان وجيش قريش لا يزال يحيط بأطراف المدينة، وقد رأوا أنّه بعد دحر الجيش الإسلامي وفرار ما تبقّى منهم، من الأفضل أن يعودوا إلى المدينة ليُجهزوا على البقيّة المتبقيّة واستئصال شأفتهم، إلّا أنّ الله تعالى ألقى في قلوبهم رعباً وفزعاً عظيماً واعتقدوا أنّ المسلمين سيقومون بلملمة صفوفهم ليعاودوا الهجوم عليهم، فانصرفوا عمّا عقدوا العزم عليه وعادوا أدراجهم إلى مكّة كجيش منهزم مندحر(٣).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٥.
(٢) سورة يونس: الآية ٦٥.
(٣) المناقب، ج١، ص ١٢٦.

التعاليم:

١ ـ لقد أمدّ الله المسلمين بمددٍ من عنده حينما ألقى الرعب في قلوب الأعداء، ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

٢ ـ التوكّل على غير الله شرك ومصدر فزع، كما أنّ الإيمان وذكر الله عامل طمأنينة وسكينة، ﴿الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا﴾.

٣ ـ ليس للمشرك برهان على دعوى الشرك، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

٤ ـ أصول العقائد يجب أن تستند إلى المنطق والبرهان، ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

٥ ـ البرهان وميض إلهي يشعّ في القلوب، ليس للمشركين نصيب منه، ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

٦ ـ الشرك نوع من الظلم، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾

إشارات:

- عندما انتصر المسلمون في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، وعد الله المؤمنين بأنّه سينصرهم في الحروب القادمة أيضاً. في السنة التالية، وقعت معركة أحد وقد أمر النبي الكريم ﷺ خمسين من الرماة أن يحرسوا ثغر الجبل والوادي، في البداية، حمل المسلمون على المشركين فكان الظفر لهم على عدوّهم، إلّا أنّه دبّ خلاف بين الرماة الذين أناط بهم الرسول مسؤولية حراسة ثغر الجبل، فقال بعضهم: لقد تحقّق النصر، هلمّوا بنا نجمع الغنائم، فتركوا مواقعهم، عدا نفر قليل لم يبرحوا مكانهم، فاستغلّ العدو المهزوم انشغال المسلمين بجمع الغنائم ونزول الرماة وأغار عليهم من نفس الثغر الذي تركه

الرماة، فأذاقوا المسلمين الهزيمة، استشهد على أثرها عدد كبير من المسلمين، حتى أنّ النبي الكريم ﷺ قد تعرّض لخطر كبير بعد أن فرّ الكثير من المسلمين من ساحة المعركة.

لمّا رجع المسلمون من المعركة وقد تحمّلوا خسائر عظيمة سألوا الرسول الكريم ﷺ: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟ فنزلت هذه الآيات جواباً عن سؤالهم وتوضيحاً بأنّ الله تعالى صدق وعده ونصر المسلمين في أوّل الأمر، إلّا أنّ مخالفتهم أوامر النبي هي التي أطاحت بهم وأذاقتهم مرّ الهزيمة.

التعاليم:

١ ـ تحقّق الوعود الإلٰهيّة ليس معناه تجاهل السنن، فالوعد الإلٰهيّ بالنصر مشروط باتّباع التعاليم، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ... إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾.

٢ ـ من عوامل الانكسار والهزيمة الوهن والنزاع وعدم إطاعة أوامر القيادة، ﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ... وَعَصَيْتُم﴾.

٣ ـ كلٌّ يقاتل لهدف خاص به، فمنهم من يقاتل من أجل دنيا يصيبها، ومنهم من يقاتل طمعاً في ثواب الآخرة، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

٤ ـ الثبات، والصمود في القتال، وحفظ الوحدة، والطاعة كلّها مؤشّرات إلى طلب المقاتلين للثواب الأخروي، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

٥ ـ الهزيمة جزاء كلّ من يشيع الخلاف والفُرقة والتمرّد والضعف بدلاً من شكر الله على نعمة النصر، ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾.

٦ ـ الهزائم الخارجيّة أسبابها نفسية، فقد انهزم المسلمون داخلياً بوهنهم وتمرّدهم، فانعكس ذلك في هزيمتهم الخارجيّة، ﴿فَشِلْتُمْ... صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾.

٧ ـ الهزائم والنكسات وسيلة الابتلاء الإلٰهيّ، ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

٨ ـ لا تيأسوا من لطف الله ورحمته حتى في المعاصي والهزائم، ﴿عَفَا عَنكُمْ﴾.

٩ ـ الإيمان مدعاة لاستنزال الفضل الإلٰهيّ الخاص، ﴿عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠ ـ زلّة واحدة لا تستدعي طرد المؤمن من صفوف أهل الإيمان، وإنّما ينبغي تحذيره، من جهة، ومن جهة ثانية تشجيعه على التوبة عبر زرع الأمل بالمغفرة في نفسه، ﴿عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

إشارات:

□ وردت تفسيرات عديدة لعبارة ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾، نذكر منها:

١ ـ إنّ الله بدّل بلطفه، غمّ المسلمين في فقد الغنائم بغمّ الهزيمة على يد الكفّار.

٢ ـ لقد ابتلاكم الله بالغمّ والحزن جزاءً على ما أصاب قلب الرسول من غمّ بسببكم.

٣ ـ لقد ابتلاكم الله بالأحزان تترى لفراركم من أرض المعركة وعصيانكم أوامر الرسول.

□ وقد ورد في الروايات، أنّ الغمّ الأول كان الهزيمة في معركة أحد، أمّا الغمّ الثاني، فكان غلبة خالد وتسلّطه على المسلمين، الأمر الذي ضاعف من أحزانهم ومرارة هزيمتهم في أحد[١].

التعاليم:

١ ـ عاقبة الضعف والوهن والتنازع ومخالفة أوامر القيادة هي الفرار والاضطراب

---

(١) تفسير البرهان؛ تفسير راهنما.

في جبهات القتال لا محالة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ... إِذْ تُصْعِدُونَ﴾.

٢ ـ استذكار نقاط الضعف، حافز على الاعتبار والاتّعاظ من التجارب، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾.

٣ ـ ساعة الخطر لا يفكّر الإنسان فيها سوى بنفسه فقط، ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾.

٤ ـ صرخة القائد لا تحرّك ساكناً في نفوس ضعاف الإيمان والجبناء، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾.

٥ ـ تقديم الدعم والمساندة في أيّام المحن هي علامة الصداقة الحقّة، لا الاكتفاء بكلمات المحبة في أيّام الدّعة والسلم، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ...﴾.

٦ ـ حينما يفرّ الجميع، على القائد أن يثبت في أرض المعركة ويستصرخ الفارّين، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ...﴾.

٧ ـ لحظة غفلة وتراجع عن أداء المسؤولية، كان ثمنها هجمة الأحزان والغموم تترى، ﴿غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾.

٨ ـ لنستلهمْ العبرَ والدروسَ من مرارات الماضي، لا أن نحزن على ما جرى علينا من مصائب ومكاره، ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لقد أنزل الله عليكم عقابه في أحد بسبب ما بدر منكم من عصيان وتنازع، بيد أنّه لم يكلكم إلى أنفسكم، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم... أَمَنَةً﴾.

٢ ـ في ذروة الحوادث الأليمة، ينزل الله سكينته على قلوب المؤمنين، ﴿بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً﴾.

٣ ـ النوم سكينة وهدوء، وهو نعمة إلٰهيّة، ﴿أَنزَلَ عَلَيْكُم... نُّعَاسًا﴾.

٤ ـ المقاتلون في الحالة النفسية والعقيدة والإيمان والتحليل ليسوا سواء، ﴿طَآئِفَةً... وَطَآئِفَةٌ...﴾.

٥ ـ إذا كان العبد أسير نفسه أساء الظنّ بالله، ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

٦ ـ يجب أن لا نسيء الظنّ بالله ووعوده حتى في أوقات الأزمات والنكسات، ﴿وَطَآئِفَةٌ... يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾.

٧ ـ سوء الظنّ بوعود الله لا أساس له ولا صحّة، وهو من معتقدات الجاهلية، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

٨ ـ الأنانية وطلب لذّة العيش، تنأى بالإنسان عن دائرة رضا الله تعالى، ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾.

٩ ـ يا له من وهم وجهل أن يتصوّر المسلمون أنّهم منصورون حتى في حالة الوهن والتنازع ومخالفة الأوامر، ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

١٠ ـ ضعاف الإيمان يعلّلون هزيمتهم بعدم نصرة الله لهم، ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

١١ ـ لا يجوز طرح الأسئلة التي تتسبّب في إضعاف معنويات المقاتلين، ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

١٢ ـ لا بدّ من الحزم في مواجهة من يبثّ الوساوس والشكوك، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

١٣ ـ المسلمون الذين يؤثرون الدّعة ويتمحورون حول الأنا، يصارعون في أنفسهم قلقاً دائماً، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

١٤ ـ أولئك الذين لا يفكّرون إلّا في أنفسهم يتوقّعون العمل بمشورتهم عند اتّخاذ

القرارات، ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ... يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ...﴾.

١٥ ـ لا فرار من القدر المحتوم، ﴿لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ...﴾.

١٦ ـ الإيمان بما قضى الله وقدّر، يمنح الإنسان الطمأنينة والسكينة، ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

١٧ ـ مكاره الحياة وهزائم الحروب هي من الابتلاءات الإلٰهيّة وهي تهدف إلى تمييز جواهر الرجال ودرجات إيمانهم، ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾.

١٨ ـ حلو الأحداث ومرّها هو بمثابة بوتقة اختبار لصقل أرواحنا وأفكارنا، وإلّا فإنّ الله تعالى عليم بما يدور في خلد الإنسان من أفكار، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

إشارات:

- نزلت الآية الكريمة في بعض المسلمين الذين فرّوا من ساحة المعركة في أحد، حيث ورد في التفاسير؛ أنّه لم يثبت مع النبي الكريم ﷺ على أرض المعركة سوى ثلاث عشرة نفساً (خمسة منهم من المهاجرين وثمانية من الأنصار). وقد اختلف في هويّة الجميع عدا الإمام عليّاً عليه السلام وطلحة فإنّهما ثبتا ولم يفرّا باتّفاق الجميع.
- لقد قُسّم المسلمون بحسب تصرّفهم في معركة أحد إلى أربع فئات هي:

١ ـ الشهداء،

٢ ـ الصابرون،

٣ ـ الفارّون الذين عُفي عنهم،

٤ ـ المنافقون.

التعاليم:

١ ـ المعصية هي أحد أسباب الفرار من المعركة، ﴿تَوَلَّوْا... بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.
٢ ـ المعصية تفتح الباب أمام وساوس الشيطان، ﴿اسْتَزَلَّهُمُ... بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.
٣ ـ لا ينبغي نبذ المذنب إلى الأبد والتعجيل بعقابه، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.
٤ ـ لا تؤنّبوا المذنبين بعد أن تابوا وعفا الله عنهم، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)﴾

التعاليم:

١ ـ بعد أن تضع الحرب أوزارها يبدأ العدوّ بنشر الشائعات المحبطة وبعملية التشويش، ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

٢ ـ ينشر العدو سمومه تحت قناع التعاطف والشفقة، ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾.

٣ ـ من كانت غايته الحياة المادّيّة، فلا عجب في أن يعتبر الموت والشهادة خسارة، ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

٤ ـ المنافق كافر بدليل أنّ المنافقين كانوا أصحاب هذا القول، ونحن نجد القرآن يصفهم بـ ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٥ ـ تقدير الموت والحياة بيد الله تعالى، وليس له علاقة لا بحرب ولا بسفر، ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

٦ ـ ترسيخ الإيمان بالتقدير الإلٰهيّ مدعاة للاستقامة والحضور في ميادين الجهاد وطرد الخوف والفزع، ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

٧ ـ إنّ الله عليم وبصير، فلنحذره في حياتنا وأفكارنا وأعمالنا، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧﴾

إشارات:

□ يردّ الله تعالى على الشائعات المغرضة التي كان يطلقها المنافقون والواردة في الآية السابقة عبر ملاحظتين:

أ) الموت والحياة بيد الله تعالى؛ لذا فإنّ الذهاب إلى جبهات القتال لن يقصّر في عمر الإنسان.

ب) من يخطو خطوة في سبيل الله، فيموت أو يستشهد، فقد فاز؛ ذلك لأنّه أعطى عمره في مقابل المغفرة والرحمة، إذن، فهو لم يخسر شيئاً.

□ والجدير بالذكر هنا أنّ من يهاجر في سبيل الله، كأن يذهب إلى جبهات القتال أو لكسب العلم أو حجّ بيت الله الحرام أو زيارة مراقد أوليائه، أو لأغراض الدعوة والإرشاد أو سائر الأهداف النبيلة ثمّ يدركه الموت، فإنّه سيكون في كنف رحمة الله ومغفرته.

التعاليم:

١ ـ بحسب الرؤية الكونية الإلٰهيّة، الموت والشهادة في سبيل الله أفضل من الدنيا وجميع ما فيها من أعمال، ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ...﴾.

٢ ـ موتٌ أو شهادةٌ، أيّ ميتة كانت، المهمّ أن تكون في سبيل الله، ﴿قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ...﴾.

٣ ـ المغفرة أوّلاً حتى يحظى بعد ذلك بالرحمة الإلٰهيّة. فكلمة ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ جاءت قبل كلمة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾.

٤ ـ المغفرة والرحمة أبديّتان، في حين أنّ أثر المال والثروة مؤقت، ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

إشارات:

□ لم تذكر هذه الآية (١٥٨) عبارة «في سبيل الله» لتؤكّد على أنّ كلّ من يموت أو يُقتل سيُحشر إلى الله تعالى. فإذا كان الموت قدراً محتوماً لكلّ مخلوق، وإذا كان حشر كلّ ميت إلى الله أيضاً أمر محتوم، إذن لماذا لا نرتضي لأنفسنا أفضل ميتة؟ إذا كان مردّنا في جميع الأحوال إلى الله تعالى، سواء متنا أو استشهدنا، فلِمَ هذا الخوف والخشية من الشهادة؟

يقول الإمام الحسين عليه السلام:

فإن تكن الأبدان للموت أنشئت فقتل امرئ في الله بالسّيف أفضل[1]

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

إشارات:

□ سبب نزول هذه الآية هو معركة أحد أيضاً وذلك على الرغم من أنّها تتضمّن سلسلة من الأحكام والتعاليم العامة. فبعد رجوع المسلمين من تلك الوقعة الأليمة، أحاط أولئك الذين فرّوا من المعركة برسول الله صلى الله عليه وآله حيث كانوا يحترقون بنار الندم والحسرة فاعتذروا للنبي وأظهروا له الندامة على فعلتهم، فنزلت هذه الآية التي أعلن فيها الله تعالى عفواً عاماً عنهم.

□ «**الشور**» في اللغة هو مصّ النحل رحيقَ الأزهار، وفي المشورة أيضاً يأخذ الإنسان أخلص الرأي وأفضله، وفي هذا يقول الإمام علي عليه السلام: «**من شاور الرجال شاركهم عقولهم**»، ويقول الشاعر الفارسي الكبير جلال الدين الرومي[2]:

هذه العقول مصابيح منيرة وعشرون مصباحاً أكثر إشعاعاً من واحد

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٧٤.

(٢) الشعر بالفارسية: كاين خردها چون مصابيح، انور است بيست مصباح، از يكي روشنتر است.

التعاليم:

١ ـ معاملة الناس باللين والرفق، نعمة من الله، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.

٢ ـ الإنسان الفظّ القاسي يعجز عن التواصل مع الناس، ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

٣ ـ يقوم النظام الإسلامي على أسس المحبّة والعلاقة الحميمة مع الناس، ﴿حَوْلِكَ﴾.

٤ ـ القيادة الصحيحة تحتاج إلى العفو والسماحة والرأفة، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾.

٥ ـ افتحوا صدوركم للمخطئين التائبين والمذنبين النادمين، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ﴾.

٦ ـ لا تضيّعوا المشورة بسبب المصائب المؤقّتة[1] ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾.

٧ ـ النبي الكريم ﷺ كان مأموراً أن يُشرِك في مشورته حتى أولئك الذين صدرت عنهم أخطاء وزلّات، ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾.

٨ ـ اعف عمّن ظلمك؛ ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ واستغفر له؛ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وشاوره في القضايا السياسيّة والاجتماعية، ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾.

٩ ـ كان النبي الكريم ﷺ مأموراً بالاستغفار لأمّته، لذلك فهذا الاستغفار مقبول عند الله، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

١٠ ـ لا تتنافى المشورة مع الحاكمية الموحّدة والحزم، ﴿وَشَاوِرْهُمْ... فَإِذَا عَزَمْتَ﴾.

١١ ـ وأنت تفكّر وتستشير، لا تنس التوكّل على الله، ﴿فَتَوَكَّلْ﴾.

١٢ ـ معالجة الأمور تتمّ بالمشورة أوّلاً ثمّ بالتوكّل، بغضّ النظر عمّا إذا كانت النتيجة إيجابية أم سلبية، ﴿وَشَاوِرْهُمْ... فَتَوَكَّلْ... إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

---

(١) ربّما يقول قائل إنّ نتيجة المشورة بنقل معركة أحد إلى خارج المدينة كانت الهزيمة، غير أنّ هذه الحالات الاستثنائية يجب أن لا تثنينا عن مبدأ المشورة وما تنطوي عليه من فوائد جمّة.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

إشارات:

- حثّت الآية السابقة على التوكّل على الله، وتستكمل هذه الآية الموضوع فتشرح سبب التوكّل على الله وتقول إنّ العزّة والذلّة بيد الله تعالى.
- لقد جاء في الحديث الشريف أنّ النبي الكريم ﷺ سأل جبرائيل عليه السلام قائلاً: «... **وما التّوكل على الله عزّ وجلّ؟.. فقال: العلم أنّ المخلوق لا يضرّ ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحدٍ سوى الله، ولم يرجُ ولم يخفْ سوى الله، ولم يطمع في أحد سوى الله، فهذا هو التوكّل....**»[(١)].
- وعن الإمام الصادق عليه السلام: «... **وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى ذكره، ومتى خلّى بينه وبين المعصية، فلم يَحُل بينه وبينها حتى يركبها، فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه**»[(٢)].

التعاليم:

١ ـ وحدهما النصرة والمدد الإلٰهيّ اللذان يظهران على كلّ شيء، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

٢ ـ النصر والهزيمة بيد الله تعالى وإرادته، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ... يَخْذُلْكُمْ﴾.

٣ ـ الإيمان لا ينفصم عن التوكّل على الله، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج٧١، ص ١٣٨.
(٢) تفسير البرهان، ج١، ص٣٢٣.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

إشارات:

❑ ربّما تكون هذه الآية بمثابة ردّ على الرماة الذين تركوا مواقعهم في ثغر جبل أحد ونزلوا إلى أرض المعركة بحثاً عن الغنائم، حيث علّلوا نزولهم بالقول: نخشى أن نُحرم سهمنا عند تقسيم الغنائم، فتجاهلوا تحذيرات قائدهم وتطميناته لهم بأنّ سهمهم محفوظ وأنّ رسول الله ﷺ لن يصرف عنهم شيئاً. وتقول ما صحّ لنبي أن يخون ـ والعياذ بالله ـ شيئاً من المغنم، فاطمئنوا لنصيبكم واعملوا بما كُلّفتم به.

❑ عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قال: «**فصدق الله لم يكن الله ليجعل نبياً غالاً**، ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، **من غلّ شيئاً رآه يوم القيامة في النار ثم يكلّف أن يدخل إليه فيخرجه من النار**، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾»[١].

❑ و«**غِلّ**» من يغل: إذا صار ذا غل، أي: ضغن، وأغلّ، أي: صار ذا إغلال؛ أي: خيانة، وغلّ يغل: إذا خان، وأغللت فلاناً: نسبته إلى الغلول[٢]. ومن أمثلة الغِلّ: الغشّ والتزوير والغصب والخيانة. جاء في الروايات أنّ النبي الكريم ﷺ استعمل رجلاً على الصدقات (أي على جمع الزكاة)، فلما قدم قال: «هذا لكم وهذا أُهدي لي»، فقام النبي ﷺ مغضباً، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ما بال العامل نبعثه فيأتي يقول: هذا لك، وهذا أُهدي لي. فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر... (أي تصيح)**»[٣].

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) مفردات الراغب، مادة: غل.

(٣) تفسير الفرقان.

□ إذا كان الناس يسيئون الظنّ بالأنبياء، أفلا يسيئون الظنّ بنا؟! نقل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث طويل أنّه قال: «... **يا علقمة إنّ رضا الناس لا يُملك وألسنتهم لا تُضبط**»[1].

التعاليم:

١ ـ كلّ أنبياء الله أمناء وليس فقط النبي الكريم ﷺ، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ...﴾ ولا تجتمع النبوة مع الخيانة قطّ. فمن أراد أن يربّي أميناً، فعليه أن يكون من أهل الأمانة والأيادي البيضاء، نقول هذا ولكن لا ننسى أنّ الخونة من القادة غير الإلٰهيّين ليسوا قلّة.

٢ ـ لا يسلم أحد من ظنّ الناس به سوءاً، حتى الأنبياء يواجهون هذه المشكلة، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾. (ضعف الإيمان، من جهة، والتعلّق بحبائل الدنيا من جهة أخرى هما اللذان يجعلان الإنسان يسيء الظنّ بالأنبياء).

٣ ـ دافعوا عن ساحة الأطهار وأولياء الله، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ...﴾.

٤ ـ حمل الخيانة والمال الحرام في يوم القيامة نوع من العقوبة التي يوقعها الله بالغالّ. وما أصعب أن يفتضح الإنسان أمام مرأى الأنبياء وعلى رؤوس الأشهاد في يوم القيامة وهو حامل على ظهره المال الحرام، ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾.

٥ ـ ذكر يوم القيامة يردع المرء عن الخيانة، ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾.

٦ ـ لا فرق بين خيانة وأخرى الخيانة صغيرة كانت أم كبيرة، ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ (كلمة «ما» في عبارة ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ تعني أيّ مقدار صغيراً كان أم كبيراً).

٧ ـ في مشهد يوم القيامة يستعرض المحسنون حسناتهم، ﴿جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾[2] والخائنون خياناتهم، ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾.

٨ ـ الله عزّ وجلّ عادلٌ يوفي الإنسان جزاءه كاملاً ولا يفرّط في ذرّة منه، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

إشارات:

- ورد في سبب نزول هذه الآية: لمّا أصدر الرسول الكريم ﷺ أوامره إلى المسلمين بالتحرّك نحو أحد، تخلّف المنافقون عن التوجّه إلى أرض المعركة وظلّوا في المدينة وتبعهم في ذلك بعض المسلمين من ضعاف الإيمان.
- مرّ في الآية ١٥٥ من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، فيما تقول هذه الآية إنّ التوبة محظورة على المنافقين والذين آثروا الراحة والدّعة على القتال في سبيل الله.
- لقد استخدم القرآن الكريم في بعض آياته كلمة الدرجات للمؤمنين: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] ﴿لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[2]، لكنّ هذه الآية الكريمة تجعل المؤمنين أنفسهم درجات ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فكما أنّ الأشخاص الأطهار كالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يتحرّكون طبقاً لميزان دقيق، ثمّ بعد ذلك يصبحون هم أنفسهم ميزاناً، فالمؤمن في البدء يدور حول محور الحقّ، ثمّ يغدو هو نفسه محوراً للحقّ يدور حوله الآخرون.

التعاليم:

١ ـ هدف المجاهد الحقيقي نيل رضا الله لا إحراز النصر أو كسب الغنائم أو الحصول على الشهرة والمجد، ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ...﴾.

٢ ـ لا يتساوى المجاهدون والمرفّهون في المجتمع الإسلامي، (بالنظر إلى سبب النزول) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ...﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤. (٢) سورة طه: الآية ٧٥.

٣ ـ الفرار من الجبهة والقتال، يعني البوء بغضب من الله، ﴿كَمَنْ بَآءَ بِسَخَطٍ﴾.

٤ ـ رضا الله وسخطه يجب أن يكون المعيار الوحيد لعمل المسلم، ﴿رِضْوَانَ ٱللَّهِ... بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

إشارات:

□ «المَنّ»، هو الحجر الذي توزن به الأشياء، و«المنّة» هي النعمة الثقيلة الثمينة. والحقيقة أنّ تعظيم المرء ما قام به من حقير الخدمات والأفعال والصنائع أمرٌ مذموم وقبيح. لذا، أن يهب الإنسان نعمة كبيرة فهذا أمر حسن، ولكن أن يعظّم صغائر النعم، فهو أمر في غاية القبح[1].

□ إنّ اصطفاء الله الأنبياء من بين الناس ينطوي على بركات جمّة منها:

أ) يكون تاريخ النبي المرسل معروفاً للناس، فيكون ذلك مدعاة لحسن الظن به.

ب) يكون أسوة للناس في تطبيق تعاليم الله وأحكامه.

ج) يشارك الناس أفراحهم وأتراحهم.

د) يكون بين ظهراني الناس.

□ ويصف الإمام علي عليه السلام الناس في فترة الجاهلية بقوله: «**إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ**»[2].

وقبل ذلك شرح أخوه جعفر الطيّار للنجاشي ملك الحبشة أوضاع العرب

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٦.

في الجاهلية وذلك عندما هاجر إلى تلك البلاد بقوله: «**كنّا قوماً أهل جاهليّة نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار يأكل القويّ منّا الضعيف حتّى بعث الله رسولاً...**»[١].

التعاليم:

١ ـ بعثة الأنبياء أعظم هدية من السماء ونعمة إلٰهيّة كبرى، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ البعثة وإن كانت للناس أجمعيّن، ولكن وحدهم المؤمنون الذين يشكرون هذه النعم، ويستضيئون بنور الهداية، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ ـ الأنبياء من الناس ومع الناس، ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

٤ ـ تلاوة آيات القرآن وسيلة للتزكية والتعليم، ﴿يَتْلُوا۟...﴾.

٥ ـ التزكية أوّلاً ثمّ التعليم، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾.

٦ ـ التزكية والتعليم على رأس أهداف الأنبياء، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾.

٧ ـ لا بدّ للتنشئة وتهذيب النفس من أن تهتدي بتعاليم مدرسة الأنبياء والآيات الإلٰهيّة، ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ (التنسّك والرياضة الروحية التي لا تستقي من نمير الآيات الإلٰهيّة الصافي ولا تتّخذ من الأنبياء قدوة، إنّما هي انحراف وضلال).

٨ ـ للوقوف على عظم نعمة بعثة الأنبياء، علينا مراجعة تاريخ الأمم السابقة، ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٩ ـ يمكن ممارسة العمل الصالح حتى في البيئة المشبعة بالآثام والضلال، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ... وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٠ ـ مدرسة الأنبياء تطرح التربية الروحية والتعليم الفكري إلى جانب الوعي والبصيرة، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

(١) الكامل في التاريخ، ج٢، ص٨٠.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾

إشارات:

□ عندما هُزم المسلمون في أحد، وخسروا ٧٠ شهيداً، سألوا النبي الكريم ﷺ: لماذا هُزمنا؟ فأمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يقول لهؤلاء: لقد حصدتم من العدو في العام الماضي يوم بدر ضعف هذا العدد. لقد قتلتم منهم ٧٠ نفراً وأسرتم ٧٠ آخرين، فضلاً عن أنّ هزيمة هذا العام كانت بسبب فُرقتكم ووهنكم وعدم طاعتكم أوامر قائدكم.

التعاليم:

١ ـ عند الحكم على مسألة معيّنة يجب أن ننظر بعينين إلى الهزائم والانتصارات معاً. فلا ننظر بعين واحدة إلى هزيمة أُحد، وإنّما يجب أن ننظر بالعين الأخرى إلى النصر الذي تحقّق يوم بدر، ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾.

٢ ـ يجب أن نبحث عن أسباب الهزيمة في العوامل الداخليّة والنفسية والفكرية أوّلاً، ثمّ ننتقل إلى باقي العوامل الأخرى، ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾.

٣ ـ الله قادر على كلّ شيء، ولكن علينا نحن أن نوفّر الشروط المناسبة والجدارة اللازمة لتوظيف هذه الشروط، ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

٤ ـ لقد ظننتم أنّ الإسلام يكفي للنصر، فطفقتم تتساءلون في كلّ هزيمة عن أسبابها، وواقع الحال أنّه يلزم، إلى جانب الإيمان، تطبيق الأصول والقواعد العسكرية والالتفات إلى السنن الإلٰهيّة، ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾

إشارات:

□ لقد جعل الله تعالى لكل شيء علّة وسبباً، ولكل نصرٍ ونجاح أو شكّ

وإخفاق تفسيراً وتأويلاً. فالضعف والوهن كان وراء انكساركم وهزيمتكم في أحد، مضافاً إلى تفرّقكم ولهثكم وراء الغنائم وطمعكم فيها، فالآية السابقة تقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، وهذه الآية تقول إنّ اختياركم للوحدة أو الفُرقة، أو الجدّ أو الضعف كلّ ذلك يقع ضمن مدار مشيئة الله وإرادته. فهو الذي منحكم القدرة على الاختيار، وستحصدون زرع أيديكم، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ... فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

التعاليم:

١ ـ تحقيق الهزائم والانتصارات هو بإذن الله ومشيئته، وفي إطار سننه، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ الأفراح والأتراح هي مختبر التجارب وتمحيص سرائر الإنسان، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧﴾

إشارات:

- ذكر في تفسير عبارة ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ ثلاثة أوجه:

أ) إنّ تحرّككم صوب أحد ونقل القتال خارج المدينة، هو قتال غير متكافئ، بل إنّه نوع من الانتحار والمغامرة؛ لذلك فإنّنا لن نشارك في هذا القتال.

ب) لو كنّا نخبر مهارات القتال وفنون الحرب لقاتلنا معكم.

ج) إنّنا متأكّدون أنّ الأمر سينتهي دون قتال؛ لذا لا نرى ضرورة للخروج إلى القتال.

التعاليم:

١ ـ جبهات القتال والحرب سببان لإماطة اللثام عن الوجه الكالح للمنافق، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾.

٢ ـ على القائد تعبئة الشعب لمواجهة العدوّ، ﴿تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟﴾.

٣ ـ أحياناً يكون القتال ابتدائياً هدفه زعزعة عروش الطواغيت، وأحياناً أخرى يكون جهاداً دفاعياً من أجل حفظ دماء المسلمين وأعراضهم، ﴿قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾.

٤ ـ الدوافع متفاوتة في درجاتها وقيمها، ﴿قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾.

٥ ـ الدفاع عن الوطن والنفس والآخرين فضيلة، ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾.

٦ ـ ما برح المنافقون يبرّرون مواقفهم، ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ﴾.

٧ ـ الإعراض عن الذهاب إلى الجبهات علامة كفر، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾.

٨ ـ يتفاوت إيمان الإنسان بتفاوت الظروف والأزمنة، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾.

٩ ـ لم يكن جميع من حول رسول الله ﷺ عدولاً، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾.

١٠ ـ الله تعالى يهدّد المنافقين ويفضحهم، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ... يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

١١ ـ ما كشف النقاب عنه في يوم أحد كان جانباً من النفاق، أمّا باقي جوانبه فعلمها عند الله، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ في الوقت الذي يتحرّك فيه الناس إلى جبهات القتال، يلزم المنافقون بيوتهم، ﴿وَقَعَدُواْ﴾.

٢ ـ يسعى المنافقون إلى إضعاف الروح المعنوية لأسر الشهداء، ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

٣ ـ ينظر المنافق إلى نفسه كزعيم فكري للآخرين، ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾.

٤ ـ الحياة المادّية المرفّهة هي غاية المنافق وطموحه، ﴿وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

٥ ـ الإيمان بأنّ الموت قدر إلهي يغرس في الإنسان مفهوم الشجاعة ويحفّزه على الذهاب إلى جبهات القتال، في حين لا مكان للشهادة أو السعادة الأخروية في قاموس المنافق، ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

٦ ـ لا بدّ من محاربة الدعاية المسمومة للمنافقين، ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾.

٧ ـ لا يملك الإنسان أن يدفع الموت عن نفسه، ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾.

٨ ـ الموت بيد الله وحده، أمّا ذهاب الإنسان إلى القتال أو تخلّفه عنه فلا دور رئيس له في موته، ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

إشارات:

- إنّنا نؤمن، طبقاً لما ورد في صريح القرآن، بأنّ الشهداء أحياء عند ربّهم؛ لذلك فإنّنا نبعث سلامنا إليهم ولا سيّما شهداء كربلاء الأبرار، حيث نتحدّث معهم ونتوسّل بهم إلى الله.

□ يذكر التاريخ أنّ أبا سفيان صاح بعد معركة أحد: يوم بيوم (سبعون قتيلاً من المسلمين في أحد في مقابل سبعين قتيلاً من قريش في بدر) إلَّا أنّ الرسول الكريم ﷺ قال: «**شهداؤنا في الجنّة وقتلاكم في النار**»[١].

لمحات عن الشهيد والشهادة

١ ـ ورد في الروايات في فضل الشهيد: «**إنّ الله تعالى وهب الشهيد سبع خصال هي: أول قطرة من دمه مغفور له كل ذنب، يقع رأسه في حجر زوجته من الحور العين، وتمسح الغبار عن وجهه وتقول: مرحباً بك، ويقول هو مثل ذلك لها، ويُكسى من كسوة الجنّة، تبتدره خزنة الجنّة بكل ريح طيبة، أيهم يأخذه معه، أن يرى منزلته (في الجنّة)، يقال لروحه: اسرح في الجنّة حيث شئت، أن ينظر في وجه الله تعالى، وإنها لراحة لكل نبيّ وشهيد**»[٢].

٢ ـ سمع رسول الله ﷺ أحدهم يقول في دعائه: «أسألك خير ما تُسأل»، فقال له: «**إذاً يُعقر جوادك، ويُهرق دمك**»[٣].

٣ ـ ورد في الحديث: فوق كلّ برٍّ برٌّ حتى يُقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ فليس فوقه برٌّ[٤].

٤ ـ وفي الحديث الشريف: «ثلاثة يشفعون إلى الله يوم القيامة فيُشَفَّعُهُم: الأنبياء ثمّ العلماء ثمّ الشهداء»[٥].

٥ ـ وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أن الشهيد لا تُعرض عليه ذنوبه يوم القيامة[٦].

٦ ـ إنّ شهداء الصفوف الأمامية للقتال أرفع منزلة[٧].

٧ ـ للجنّة باب يقال له: باب المجاهدين يمضون إليه فإذا هو مفتوح[٨]، وأوّل من يدخل الجنّة شهيد[٩]، ولهم فيها مكانة خاصة[١٠].

---

(١) تفسير مجمع البيان.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ١٠.
(٣) مستدرك الوسائل، ج٢، ص٢٤٣.
(٤) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٦١.
(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥.
(٦) وسائل الشيعة، ج١١، ص٩.
(٧) ميزان الحكمة.
(٨) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ٨.
(٩) المصدر نفسه، ص ١١.
(١٠) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٢٤١.

٨ ـ وحده الشهيد الذي يتمنّى أن يعود إلى الدنيا فيستشهد مرّات ومرّات[١].

٩ ـ أفضل ميتة الشهادة[٢].

١٠ ـ ما من قطرة أحبّ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من قطرتين: **قطرة دم في سبيل الله...**[٣].

١١ ـ إذا كان يوم القيامة، يخرج الشهيد من قبره شاهراً سيفه والرائحة رائحة المسك يخطو في عرصة القيامة والملائكة تحيّيه[٤].

١٢ ـ لقد شرب أئمتنا كلّهم كأس الشهادة، وكذا الكثير من الأنبياء وحواريّيهم وأتباعهم، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[٥] ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٦].

١٣ ـ إنّ الإمام عليّاً عليه السلام وعلى الرغم من مناقبه وفضائله العديدة، قد عدّ الشهادة فوزاً له وذلك حينما هوت ضربة ذلك الشقي على رأسه الشريف وهو يسجد لله في المحراب حيث هتف قائلاً: «**فزت وربّ الكعبة**»، كان أوّل من آمن بدعوة النبي الكريم صلى الله عليه وآله، ونام في فراشه، تآخى مع النبي، كان بيته هو البيت الوحيد الذي له باب يؤدّي إلى المسجد، إنّه أبو الأئمة، وزوج الزهراء عليها السلام، محطّم الأصنام، ضربته في يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين... وغير ذلك الكثير من الخصال والمناقب العظيمة؛ لكنّه لم يقل في أيّ منها «**فُزتُ**».

١٤ ـ والإمام علي عليه السلام هو القائل: «**والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أحبّ إليّ من ميتة على فراش**»[٧].

١٥ ـ لقد تألّم الإمام علي عليه السلام كثيراً؛ لأنّه لم يدرك الشهادة في معركة أحد، حتى جاءته بشرى الشهادة من النبي الكريم صلى الله عليه وآله.

(١) كنز العمّال، ج٤، ص٢٩٠.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ٨.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١١، ص٦.
(٤) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص١٣.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.
(٦) سورة البقرة: الآية ٦١.
(٧) نهج البلاغة.

١٦ ـ وبالنسبة للحيوانات أيضاً فإنّ الشاة النافقة لا قيمة لها إلّا ما ذُكر اسم الله عليها وذُبحت على القبلة.

١٧ ـ كما أنّ الأعمى لا يدرك مفهوم الإبصار، كذلك الناس في هذه الدنيا لا يدركون حياة الشهداء.

١٨ ـ إذا كان إنفاق المال في سبيل الله يربو إلى سبعمئة ضعف، فأيّ منزلة للشهادة والتضحية بالدم والروح؟!

التعاليم:

١ ـ الشهادة ليست خاتمة الحياة، بل بدايتها. كثير من الأحياء أموات، بينما الذين قتلوا في سبيل الله هم أحياء، ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾.

٢ ـ ليست الشهادة خسارة وفقداناً؛ بل ربحاً ومغنماً، ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ... يُرْزَقُونَ﴾.

٣ ـ تصبح للموت قيمة حينما يكون في سبيل الله تعالى، ﴿قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ أن نتصوّر الشهيد هالكاً أو خاسراً هو تصوّر منحرف وضالّ لا بدّ من إصلاحه، ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

إشارات:

- ورد في الروايات: أنّ المشمول ببشارة هذه الآية الشريفة هو المؤمن الحقيقي الذي لا يرضى عن القرآن والنبي وأهل بيته عليهم السلام بديلاً، ولا يستعيض عن هؤلاء بأيّ كتاب أو إمام. كما يُستفاد أنّ الحياة البرزخيّة هي حياة حقيقيّة وواقعية فيها رزق وحياة وفرح وسرور وبشارات، وليس المراد بها خلود حسن السيرة على مرّ التاريخ.

التعاليم:

١ ـ فرح الشهداء وحبورهم هو بفضل الألطاف الإلٰهيّة، وليس بفضل أعمالهم، ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ يؤمن الشهداء بأنّ الألطاف الإلٰهيّة هي منّة من الله وهبة، وليست ثمناً لأرواحهم، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٣ ـ لا يقطع الشهداء صلتهم وحبّهم لأخوة السلاح، بل يبشّرونهم بمستقبل مشرق، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾.

٤ ـ يعيش الشهداء حياة جماعية، حيث يلحق بعضهم ببعض، وينتظر بعضهم بعضاً، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾.

٥ ـ الاهتمام بسعادة الآخرين وتمنّي لحاقهم بركب العزّة والشرف والمجد فضيلة، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟﴾.

٦ ـ سعادة الشهداء خالدة ودائمة ولا يشوبها غمّ فقدان النعم، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يزخر عالم البرزخ بالبشارة والحبور والفرح، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

٢ ـ يحصل الشهداء على نعم وأفضال محجوبة عنّا. كلمتا «**نعمة**» و«**فضل**» جاءت في صيغة التنكير.

٣ ـ ثواب عمل المؤمن مضمون، ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤ ـ الوعد بضمان الأجر هو الحافز على العمل، ﴿لَا يُضِيعُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

إشارات:

- ذكرنا أنّ كفّار قريش بعد انتصارهم على المسلمين أخذوا يحثّون الخطى للعودة إلى مكّة حتى إذا بلغوا أرض الروحاء ندموا على ذلك وعزموا على العودة إلى المدينة للقضاء على البقيّة الباقية من المسلمين ليستأصلوا شأفة الإسلام وأهله.

ولمّا بلغ الخبر النبيَّ الكريم ﷺ أمر المسلمين بالتعبئة والاستعداد للخروج إلى معركة أخرى قائلاً: لا يخرج معنا إلّا من شهدها بالأمس، فاستعدّ المسلمون امتثالاً لأمر الرسول الكريم.

وحين سمع أبو سفيان باستعداد المسلمين وأدرك صمودهم، الذي تجلّى في اشتراك الجرحى والمصابين خاف وارتعب، ولعلّه ظنّ أنّه أدركت المسلمين قوّة جديدة من المقاتلين وأتاهم المدد، ليفسدوا عليهم حلاوة النصر ولينغصّوا عليهم فرحتهم به، فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه وقذف في قلوبهم الرعب، وقفل راجعاً إلى مكّة بسرعة.

- ويحدّثنا التاريخ أنّ الإمام عليّاً عليه السلام أثخن بستّين جراحة في معركة أحد إلّا أنّ ذلك لم يمنعه عن نصرة الرسول الكريم ﷺ لحظة واحدة.

وفي تفسير كنز الدقائق أنّ هذه الآية نزلت في الإمام علي عليه السلام وتسعة أشخاص في معركة أحد.

التعاليم:

١ ـ المؤمن الحقيقي هو الذي لا يترك نصرة الإسلام في أحلك الظروف، ﴿ٱسْتَجَابُوا۟... مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾.

٢ ـ مشاركة الجرحى في جبهات القتال، ترفع الروح المعنوية للمقاتلين غير المصابين، ﴿ٱسْتَجَابُوا۟... مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾.

٣ ـ طاعة الرسول الكريم من طاعة الله تعالى، ﴿ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

٤ ـ مشاركة الجرحى في القتال دليل على وفائهم وحبّهم ووعيهم التامّ بالدين والقائد والهدف، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾.

٥ ـ أحياناً تقتضي ظروف القتال أن يشارك حتى الجرحى، ﴿ٱسْتَجَابُواْ... مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾.

٦ ـ كلّما كان العمل أصعب، كان استحقاقه للشكر والثناء أكبر، ﴿ٱسْتَجَابُواْ... مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾.

٧ ـ الحضور في جبهات القتال والإصابة لا قيمة لهما ما لم يكن ذلك عن تقوى وورع، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ﴾.

٨ ـ بعض صحابة النبي الكريم ﷺ ممّن شاركوا في جبهات القتال كانوا يفتقدون سلامة الفكر والتقوى، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ﴾.

٩ ـ المقاتل الذي يستحقّ التقدير والثناء هو الذي:

أ) لا يكلّ ولا يملّ من القتال، ﴿ٱسْتَجَابُواْ... مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾.

ب) هو الذي يعمل الصالحات، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾.

ج) أن يكون من المتّقين، ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

إشارات:

- بعض أبواق العدوّ الإعلامية يساعدهم بعض البسطاء والجبناء من الناس يقذفون في قلوب المقاتلين والمجاهدين الرعب من قوّة العدوّ وإمكاناته، وأنّه ليس في مقدورهم مقارعته؛ لذا فالأسلم لهم أن لا يتورّطوا في قتاله، وأن يصرفوا النظر عن ذلك. بيد أنّ المسلمين الحقيقيين لا ترهبهم هذه الأراجيف فيردّون عليهم بقلوب مطمئنة واثقة بعد التوكّل على الله.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«عجبت لمن فزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع: عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾»**[1].

التعاليم:

١ ـ لا ترهبْكم دعاية العدو وحربه النفسية، ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

٢ ـ احذروا العملاء في الجبهات الداخلية، ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾.

٣ ـ الإيمان بالله والتوكّل عليه هو السلاح الأقوى في مواجهة تهديدات الأعداء، ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

٤ ـ عندما يسقط المؤمن في مستنقع لا قرار له، يزيد توكّله وارتباطه بالله، ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

٥ ـ الجدّ والاجتهاد جنباً إلى جنبِ الإيمان والتوكّل على الله، ﴿ٱسْتَجَابُواْ... حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

إشارات:

□ بعد أن تعبّأ جرحى معركة أحد استعداداً للدفاع عن الإسلام مرّة أخرى وامتثالاً لأمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ذهبوا في إثر العدو حتى «حمراء الأسد»، فلمّا بلغ الأعداء استعداد المسلمين واستنفارهم للقتال مجدّداً، ارتعبوا لذلك كثيراً وانصرفوا عن عزمهم على معاودة الكرّة، فنزلت هذه الآية الكريمة لتثني على الجرحى من المقاتلين المسلمين، الذين برهنوا على ولائهم وإخلاصهم في معركة أحد.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٩٢.

التعاليم:

١ ـ الحركة في مسير أداء الواجب، بعد التوكّل على الله سبب مهمّ لحلّ المعضلات وقلب العسر إلى يسر، ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعۡمَةٍ...﴾.

٢ ـ كم من فئة نذرت نفسها للأخطار في سبيل الله، فلم يمسسها سوء، ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ﴾.

٣ ـ رضا الله هو الأصل بالنسبة للمؤمنين لا الشهادة، ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾.

٤ ـ المشارك في جبهات القتال له فضل من الله عظيم، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ أيّ شائعة تبثّ الرعب واليأس في قلوب المسلمين هي شيطانية، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾.

٢ ـ اللّجوء إلى أسلوب الرعب والتهديد هو سياسة القوى الشيطانية على طول الخط، ﴿يُخَوِّفُ﴾.

٣ ـ الجبناء في ميادين القتال هم أعوان الشيطان ويأتمرون بأمره، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾.

٤ ـ المؤمن الشجاع بعيد عن ولاية الشيطان، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾.

٥ ـ الخشية من الله، مدعاة لطاعته، والخوف من غير الله مدعاة لمعصيته، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ (في ضوء الآيات السابقة).

٦ ـ المؤمن الحقيقي لا يخشى غير الله تعالى، ويعلم أنّ الإيمان والشجاعة توأمان لا يفترقان، ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

إشارات:

□ بعد عودة المسلمين من معركة أحد كان يسأل بعضهم بعضاً: وماذا بعد هذه الهزيمة وعودة الكفّار منتصرين إلى ديارهم في مكّة؟

فنزلت الآية الكريمة لتعزّي الرسول الكريم ﷺ أن لا تحزن فإنّ الله تعالى يمهل الكفّار حتى يطفح كأس كفرهم، فلا يبقى لهم من حظّ في الآخرة.

التعاليم:

١ ـ على رسلكم، لن يجني الكفّار شيئاً من محاولاتهم للقضاء على الإسلام، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ... إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ لن يضرّ كفر الإنسان ساحة القدس الإلٰهيّة قيد أنملة، ﴿لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

٣ ـ الكفر حجاب يحجز عن الإنسان نعمة التوبة وتلقّي الألطاف الإلٰهيّة، ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٤ ـ إمهال الكافرين هو سُنّة إلٰهيّة وليس دليلاً على عدم إحاطة الله أو ضعفه، ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٥ ـ حرمان الإنسان في الدار الآخرة هو بسبب ما جنته يداه في الحياة الدنيا، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ... أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٦ ـ فضل الله عظيم وكذلك غضبه. (في الآيتين السابقتين، يبشّر الله جرحى أحد الذين امتثلوا لأمر رسول الله ﷺ للمشاركة في القتال مرّة أخرى، بفضل عظيم، وفي هذه الآية جاء دور الكفّار الألدّاء لينالوا الوعيد الإلٰهيّ بأليم العذاب)، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾﴾

إشارات:

- لقد تكرّرت كثيراً في القرآن الكريم عبارات البيع والشراء والربح والخسارة لحصيلة العمر. فالقرآن الكريم يعتبر الدنيا سوقاً والناس باعة وتجّاراً، والبضاعة المعروضة للبيع هي معتقداتهم وأعمالهم على مدى العمر. والبيع في هذه السوق إجباري، إلّا أنّ الإنسان له كامل الحريّة في أن يختار ما يشاء. والمعنى، أنّنا لا نستطيع أن نترك ما لدينا من قوّة وعمل وعقيدة، ولكن بإمكاننا أن نجعل من عقائدنا وأعمالنا تجارة مربحة أو خاسرة.

يثني القرآن الكريم في آيات عدَّة على الذين اشتروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ونالوا بإزائها جنّة الرضوان، وفي مواضع أخرى يحمل على البعض ممّن لم يجنوا شيئاً بسبب انحرافهم عن جادّة الحقّ وسوء اختيارهم؛ ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾[1]، أو إنّهم خسروا في تجارتهم مع الله؛ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، كما جاء في بعض الآيات، كالآية أعلاه، توبيخ وتقريع للذين يشرون الكفر بالإيمان، وفي المقابل، يعزّي الله المؤمنين ويسلّيهم بأنّ ارتداد بعض المسلمين لن يصيب الله ونهجه بأيّ ضرر.

التعاليم:

١ ـ ثروة الإنسان الحقيقيّة هي الإيمان أو الدوافع الفطرية للإيمان، ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

٢ ـ لا ضير من الانحرافات الجزئية التي تعرض لمسيرة الثورة العقدية والثقافية، ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ... لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾.

(١) سورة البقرة: الآية ١٦.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

إشارات:

- في مواضع عدَّة من القرآن الكريم يخاطب الله تعالى بعبارة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ الكفّار والمنافقين وضعاف الإيمان؛ وذلك لأنّهم في الحقيقة يفتقدون إلى الرؤية الواقعية والتحليل السليم والضمير الحيّ. فهؤلاء يعتبرون خلق الدنيا عبثاً، والشهادة فناء، والدنيا دائمة، والعزّة موصولة بموالاة الكفّار والخير والبركة في طول عمرهم، حتى رسم القرآن الكريم خطّاً أحمر حول كلّ هذه الأمور.
- يعتقد الكفّار أنّ امتلاكهم الإمكانيات وأسباب العيش الرغيد، وتحقيقهم الانتصارات إنّما هو لجدارتهم واستحقاقهم، ولا يعلمون أنّ الله يمهلهم بسبب تلطّخهم بالكفر والفساد، ولكي يستغرقوا في أعماق وحل الضلال والضياع.

وإذا ما نظرنا من نافذة التاريخ فسوف نقرأ:

لمّا استشهد الإمام الحسين عليه السلام بأمر من يزيد، جيء بأهل بيته أسرى إلى قصر الطاغية في الشام، فلما أُدخِلوا مجلسه، قال يزيد بلهجة ملؤها الوقاحة والغرور مخاطباً عقيلة بني هاشم السيدة زينب بنت علي عليهما السلام:

كيف رأيتِ صُنْعَ الله بأخيكِ وأهل بيتِك، فقرأت السيدة زينب هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقالت: «**ولئن جرَّت عَلَيَّ الدَّواهي مُخاطبتَك، إنّي لأستصغِرُ قَدْرَكَ، وأستَعظِمُ تَقريعكَ، وأستَكبِرُ تَوبيخَك، لكنّ العيونَ عَبرى، والصدور حَرّى... فكِدْ كَيْدكَ واسْعَ سَعْيَكَ وناصِبْ جُهْدَكَ، فوالله لا تَمحو ذِكرَنا، ولا تُميتُ وَحيَنا، ولا تُدرِكُ أمَدَنا**»[1].

نعم، لقد أعدّ الله لهؤلاء الذين أسرفوا في ملذّاتهم في هذه الدنيا عذاباً أليماً في الآخرة، ليبدّل عزّتهم الدنيوية الموهومة بالذلّ والهوان في الآخرة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٣٤.

□ المجرمون فئتان: فئة لم توغل في الخطيئة فهي قابلة للإصلاح، حيث ينبّهها سبحانه بالموعظة واستعراض حلو الأيّام ومرّها، وفئة أخرى ممتنعة على الهداية، فيكلها الله إلى نفسها، لتستهلك كلّ إمكانياتها، وقد نُقل في الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّ الموت خير للكافر واستشهد بهذه الآية؛ وذلك لأنّ طول بقائه في الدنيا، هو طول مدّة كفره وعصيانه(١).

□ ويقول الإمام علي عليه السلام في الآية: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾: «**كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مغرور بالستر عليه، وكم من مفتون بحسن القول فيه وما ابتلى الله عبداً بمثل الإملاء له**»(٢).

التعاليم:

١ ـ الكفر حجاب الحقيقة، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ...﴾.

٢ ـ طول العمر أو قصره أو العيش الرغيد كلّها بيد الله تعالى، ﴿نُمْلِي لَهُمْ... نُمْلِي لَهُمْ﴾.

٣ ـ الخير ضالّة كلّ الناس، إلّا أنّ بعضهم يخطئ في المصداق، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ... خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾.

٤ ـ إمهال الله عباده لا يعني حبّه لهم بالضرورة، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ... خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾.

٥ ـ النعم مفيدة شرط توظيفها في أعمال الخير وطريق التكامل، لا في طريق الشرّ والمعصية، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾.

٦ ـ ليس المهمّ طول العمر بل كيفية توظيفه، ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾. جاء في دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام: «**فَإِذَا كَانَ عُمُرِي مَرْتَعاً لِلشَّيْطَانِ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ مَقْتُكَ إِلَيَّ**»(٣).

٧ ـ لا نتعجّل بالحكم، ولنأخذ بالحسبان عاقبة الأمور واليوم الآخر، ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ... وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين.

(٢) تحف العقول، ص ٢٠٣.

(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٠.

٨ ـ طيب العيش وبسط الملك للظالمين ليس دليلاً على رضا الله عنهم. كما أنّه لا يبرّر سكوتنا عن فعالهم، ﴿نُمْلِي لَهُمْ... وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

٩ ـ للعذاب الأخروي أنواع ومراحل، ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. وفي الآية السابقة أيضاً جاءت عبارة، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

إشارات:

❑ هذه الآية هي الأخيرة في سلسلة الآيات التي تتناول وقعة أحد وأحداثها حيث يقول تبارك وتعالى إنّ العالم مختبر كبير، وليس كلّ من ادّعى الإيمان يُترك لشأنه ليعيش في المجتمع بشكل عادي، بل إنّ الهزائم والانتصارات هي محكّ البشر وهي المختبر الذي تتمايز فيه صفوفهم. وقد سأل بعض المؤمنين أن يطلعهم الله على الغيب وباطن البشر، ليتعرّفوا من هذا الطريق إلى المنافقين لا من خلال الامتحان، ونزلت هذه الآية لتقول إنّ طريق معرفة الأفراد وتمييزهم هو الابتلاء وليس الغيب، كما أنّ فرز الخبيث من الطيّب، يتمّ تدريجياً عبر الابتلاء والامتحان؛ لأنّه إذا أصبح كشف الغيب وسيلة تمييز الخبيث من الطيّب، فإنّ شعلة الأمل ستخبو، وستنفصم عرى العلاقات الاجتماعية، وستغرق الحياة في الفوضى.

التعاليم:

١ ـ يَكِلُ الله تعالى الكفّار إلى أنفسهم؛ ﴿نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾؛ لكنّه لا يترك المؤمنين لشأنهم، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ ـ فرز الطيّب عن الخبيث من السنن الإلٰهيّة، ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

٣ ـ إيمان المرء وكفره من الأمور الباطنية والغيبية التي تظهر عبر الابتلاء

والامتحان، لا من خلال الاطلاع على علم الغيب، ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾.

٤ ـ معاشرة الناس يجب أن تكون على أساس ظواهرهم؛ لأنّ الاطلاع على أسرار الناس، يشلّ حياة الناس، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾.

٥ ـ علم الغيب مختصّ بالله وحده، ولا يُطلع عليه إلّا بعضاً من خاصّة أنبيائه، وفي إطار الاطلاع على بعض الغيب فحسب، وليس الاطلاع على جميع أبعاده، ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾.

٦ ـ رغم أنّ المفروض هو أن تسير الحياة بشكل طبيعي وطبقاً للسنن والقوانين الطبيعية، إلّا أنّ الله يطلع بعض الأفراد على علم الغيب، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ﴾.

٧ ـ الأنبياء ليسوا على منزلة واحدة، ﴿يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾.

٨ ـ يطلع الله تعالى على غيبه من يجتبيه للرسالة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ﴾.

٩ ـ لا بدّ لإيمان القلب من أن يقترن بتقوى العمل، ﴿تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾.

١٠ ـ الطيبة والطهر لهما أصالة وثبات، فيما الخبث عارض وزائل، ﴿يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾، تمييز الخبيث من الطيّب دليل على عرضيّة الخبيث.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كن واقعياً واجتنب الظنون المنحرفة، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾.

٢ ـ إذا كان المال ملكاً لغيرك فلم البخل إذن؟ ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

٣ ـ منبع البخل هو الجهل والتمييز الخاطئ بين الخير والشرّ، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ... خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۖ﴾.

٤ ـ من واجبات الأنبياء إصلاح معارف الناس وأفكارهم، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ... خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾.

٥ ـ حبّ الدنيا، يجعل الإنسان يحسب الشرّ خيراً، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ... هُوَ خَيْرًا﴾.

٦ ـ في يوم القيامة يُحشر بعض الجماد مع الإنسان، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا﴾.

٧ ـ المعاد هو معاد جسماني، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا﴾.

٨ ـ يوم القيامة مشهد تجلّي الخير والشرّ الحقيقيين، ﴿هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا﴾.

٩ ـ خيار تصرّف الإنسان بأمواله ليس خياراً مطلقاً، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا﴾.

١٠ ـ القيامة ميدان تجسّم الأعمال، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا﴾، ورد في إحدى الروايات: «**الذي يمنع الزكاة يحول الله ماله يوم القيامة شجاعاً من نار.. ثمّ يقال: الزمه كما لزمك في الدنيا**»[1].

١١ ـ موعد قيام الساعة ليس ببعيد، ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾.

١٢ ـ أسر المال للمرء في الدنيا يوجب أسره في الآخرة، ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾.

١٣ ـ ما شغفنا بحبّه في الدنيا وبخلنا في بذله، سيكون سبب عذابنا في الآخرة، ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا﴾.

١٤ ـ ميراث الدنيا الخالد كلّه لله، وهو سبحانه ليس بحاجة لإنفاقنا. إذن فحكم الإنفاق هو من أجل سعادتنا نحن، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

١٥ ـ الله هو الوارث الحقيقي لكلّ شيء وكلّ إنسان. جئنا إلى الدنيا عراة وسنغادرها عراة، فلِمَ البخل؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ الكافي، ج٣، ص٥٠٢.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

إشارات:

□ ورد في التفاسير أنّ رسول الله ﷺ كتب إلى يهود بني قينقاع دعاهم فيه إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فدخل رسول النبي إلى بيت المدارس (حيث يتلقّى اليهود دروساً في دينهم) وسلّم كتاب النبي ﷺ إلى فنحاص وهو من كبار أحبار اليهود، فلمّا قرأه قال مستهزئاً: لو كان ما تقولونه حقّاً فإنّ الله إذن لفقير ونحن أغنياء، ولو كان غنيّاً لما استقرض منّا (وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾)، هذا مضافاً إلى أنّ «محمداً» يعتقد أنّ الله نهاكم عن أكل الربا، وهو يعدكم أن يضاعف لكم إذا أنفقتم أضعافاً مضاعفة، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

□ إنّما نسب الله تعالى قتل الأنبياء ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ إلى اليهود في عصر الرسول ﷺ؛ لأنّهم رضوا بعمل أجدادهم.

□ يقول الإمام الباقر عليه السلام في الآية أعلاه: **«هم يزعمون أنّ الإمام يحتاج منهم إلى ما يحملون إليه بيان، أي إنّهم لم ينسبوا الفقر إلى الله تعالى بل لما نسبوا الفقر والحاجة إلى خلفائه وحججه فكأنّهم نسبوه إليه»**[1].

التعاليم:

١ ـ إنّ الله يسمع كلّ كلام، إذن، ينبغي أن لا نتفوّه بأيّ كلام، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ الجهل والغرور ليس لهما حدّ ولا نهاية، فهو يمتدّ إلى الدرجة التي يتخرّص فيها الإنسان الضعيف المحتاج بأنّه غنيّ وربّه فقير، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين؛ بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٢٧٨.

٣ ـ الشعور بالغنى والاستغناء، مقدّمة للتمرّد على أوامر الله والاستهزاء بها، ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

٤ ـ يحسب بعض الأفراد أنّ وراء الأحكام الإلٰهيّة فقر الله وحاجته إليها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

٥ ـ جميع الأقوال والأفعال تسجّل، ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ﴾.

٦ ـ الحقّ هو معيار تقييم أقوال وأفعال الآخرين، أيّاً كانوا. قتل الأنبياء يستحقّ العقاب؛ لأنّه كان بغير حقّ، ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

٧ ـ الإنسان مخيّر في أفعاله؛ لذلك تُنسب أفعاله إليه، ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٨ ـ الثواب والعقاب الإلٰهيّ طبق العدالة وعلى أساس الإرادة الحرّة والواعية للإنسان، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٩ ـ العقاب الإلٰهيّ ليس ظلماً من الله للإنسان، بل ظلم من الإنسان لنفسه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

١٠ ـ عدم معاقبة الله للبخلاء وقتلة الأنبياء يعتبر ظلماً للفقراء والأنبياء، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

إشارات:

□ يبرّر بعض الناس إعراضه عن الدخول في الإسلام بحجج واهية منها: أنّ الله أوصانا وتقدّم إلينا في كتبه وعلى لسان أنبيائه أن لا نصدّق رسولاً فيما يقول إنّه جاء به من عند الله من أمر ونهي وغير ذلك حتى يأتينا بقربانٍ وهو ما يتقرّب به العبد إلى الله من صدقة، وإذا تُقُبّل منه أنزلت عليه نار من السماء فأكلت ذلك القربان أمام عينيه، فنزلت هذه الآية لتردّ على أعذار أولئك

المعاندين المحتجّين وتقول: قل لهم: قد جاءتكم الرسل الذين كانوا قبلي بالذي زعمتم أنه حجة لهم عليكم وبالمعجزات فلماذا لم تؤمنوا إذن؟

❑ روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال بعد تلاوته هذه الآية الكريمة: **«كان بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام فألزمهم الله القتل برضاهم ما فعلوا»**[(١)].

❑ جاء في التوراة في كتاب الملوك الأول (الإصحاح ١٨ العبارة ٣ و٤) سرد قصة استشهاد أنبياء بني إسرائيل. كما ورد في سفر اللاويين (الإصحاح التاسع العبارة الثانية) قصة قربان الكبش.

التعاليم:

١ ـ لا تبرّروا تنصّلكم عن قبول الحقّ بالشعارات الدينيّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾.

٢ ـ لم يؤمن اليهود بأنّ موسى عليه السلام هو آخر الأنبياء، بدليل أنّهم كانوا يقولون: إنّ الله أوصانا بأنّ النبي اللّاحق يجب أن يحمل مواصفات خاصة، ﴿عَهِدَ إِلَيۡنَآ... يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ﴾.

٣ ـ عندما تسيطر على الإنسان روحية استكبارية يصل به الأمر إلى حدّ الافتراء على الله؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾، وعدم التصديق بأيّ نبيّ؛ ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ﴾ فضلاً عن أنّه يطالب بأن تكون المعجزات طبقاً لأهوائه ورغباته، ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ﴾.

٤ ـ تقديم الحيوانات كقرابين سُنّة قديمة، ﴿...بِقُرۡبَانٖ﴾.

٥ ـ تاريخ وسوابق أيّ قوم أو أمّة خير شاهد على صدق أو بطلان مزاعمها، ﴿جَآءَكُمۡ... بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾.

٦ ـ تعلّلات المنكرين واحتجاجاتهم على مرّ التاريخ متشابهة، ﴿وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾.

٧ ـ استدلالات واحتجاجات النبي مع اليهود إنّما هو علم علّمه الله، ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ﴾.

---

(١) تفسير البرهان، ج١، ص٣٢٨؛ الكافي، ج٢، ص٤٠٩. نقلاً عن تفسير راهنما.

٨ ـ أحياناً يجب تقديم بعض الأموال من أجل إثبات حقّانيّة الشيء أو تقديم مصلحة أهمّ.

نعم، إذا أُنفِق مال في مقابل إيقاظ عين أو تنوير قلب، فلن يكون هذا تبذيراً أو إسرافاً، ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ... وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ...﴾.

٩ ـ القبول بمعاصي الأجداد، اشتراك في تلك المعاصي، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الاطلاع على تاريخ الماضين، يرسّخ روحية الصبر والصمود لدى الإنسان، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢ ـ كلّ الأنبياء كُذّبوا، ﴿كُذِّبَ رُسُلٌ﴾.

٣ ـ مسيرة الأنبياء عبر التاريخ هي مسيرة ثقافيّة وفكرية وعقدية، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾.

٤ ـ تنوّعت معجزات الأنبياء بينما توحّدت أصول جميع الأديان. كلمة **البينات** جاءت في صيغة الجمع بينما **الكتاب** كلمة مفردة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

إشارات:

❑ الآية الكريمة تعزية من الله جلّ ثناؤه إلى نبيّه الكريم ﷺ وسائر المصلحين لصبرهم على أذى الكفّار وتكذيبهم إياهم، لتشدّ من أزرهم وترسّخ فيهم روحية الثبات والصبر، حيث تقول الآية إنّ قانون الموت يسري على كلّ نفس، وأنّ فصل اللجاج والعناد زائل لا محالة، وسوف يتمّ الله الأجر للمؤمنين كاملاً غير منقوص بما تحمّلوا من شدائد وصعاب.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام في ذيل آية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾: «.. **إنّه يموت أهل الأرض حتى لا يبقى أحد ثمّ يموت أهل السّماء حتى لا يبقى أحد إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرائيل وميكائيل** عليهم السلام قال: فيجيء ملك الموت عليه السلام حتى يقوم بين يدي الله عزّ وجلّ **فيقال له من بقي وهو أعلم، فيقول: يا ربّ لم يبق إلّا ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل** عليهم السلام فيقال له قل لجبرائيل وميكائيل فليموتا فتقول الملائكة عند ذلك: يا ربّ رسوليك وأمينيك فيقول: إنّي قد قضيت على كلّ نفس فيها الروح الموت، ثمّ يجيء ملك الموت حتى يقف بين يدي الله عزّ وجلّ **فيقال له من بقي وهو أعلم فيقول: يا ربّ لم يبق إلّا ملك الموت وحملة العرش فيقول: قل لحملة العرش فليموتوا، قال: ثمّ يجيء كئيباً حزيناً لا يرفع طرفه فيقال من بقي فيقول يا ربّ لم يبق إلّا ملك الموت فيقال له: مُت يا ملك الموت فيموت**»[1].

التعاليم:

١ ـ الموت على الأبواب، فلماذا هذا اللجاج والاستكبار في وجه الحقّ؟ ﴿كَذَّبُوكَ... كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾.

٢ ـ ليس الموت عدماً، وإنّما هو أمر وجودي قابل للفهم والإدراك، وهو قنطرة الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾.

٣ ـ المعاصي والأسباب المفضية إلى جهنّم لها إغراء وجاذبيّة وينبغي على الإنسان دفعها بقوّة الإيمان والعمل الصالح، ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾.

٤ ـ في الدار الآخرة سيكون الجزاء التامّ، أمّا ثواب الدنيا فلا قيمة له، ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ... وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

---

(١) الكافي، ج٣، ص ٢٥٦.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

إشارات:

□ عندما هاجر المسلمون من مكّة إلى المدينة وابتعدوا عن ديارهم، امتدّت يد المشركين إلى أموالهم وممتلكاتهم وأخذوا يؤذون كلّ من وقعت عليه أيديهم والإيقاع فيه بالهجاء والاستهزاء. من جهة أخرى، كانت ألسنة اليهود تتعرّض للمسلمين في المدينة بالهجاء والتجريح، حتى وصلت الوقاحة ببعضهم مثل كعب بن الأشرف إلى التشبيب بنساء المسلمين ووصف محاسنهنّ والتغزّل بهنّ، وكان كعب هذا يهجو الرسول الكريم ﷺ، فأمر بقتله. وقد نزلت هذه الآية الكريمة لتسلّي المسلمين، وتحثّهم على الصبر والجلد وتقوى الله فذلك هو قوام ثباتهم على الإيمان.

□ اعتبر الإمام الرضا عليه السلام إيتاء الزكاة أحد أمثلة الابتلاء في الأموال، وهو ما ورد في هذه الآية[1].

التعاليم:

١ ـ الابتلاء سنّة إلٰهيّة حتميّة، فلنهيّئ أنفسنا له، ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ (اللام لام القسم والنون للتوكيد، وهما يفيدان التشديد والتأكيد).

٢ ـ ذكر الموت وزوال الدنيا، يهوّن على الإنسان الوقائع، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ... لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

٣ ـ أكثر ابتلاء الإنسان في المال والنفس، ﴿أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

٤ ـ يجب أن نصبر على الأخطار التي تهدّد النفس والمال، فضلاً عن أنواع الهجاء والإساءات، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ...﴾.

(١) تفسير نور الثقلين.

٥ ـ تحمّل الإساءات والسبّ والهجو والأذى من الأعداء من طرق ابتلاء أهل الإيمان، ﴿لَتُبْلَوُنَّ... وَلَتَسْمَعُنَّ... أَذًى كَثِيرًا﴾.

٦ ـ من أجل الوصول إلى الأهداف المقدّسة يتطلّب الأمر أحياناً تحمّل ألوان الصعاب والمشاقّ مثل التضحية بالنفس والمال وتحمّل إساءات الأعداء إلى الكرامة، ﴿أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ... أَذًى كَثِيرًا﴾.

٧ ـ استعداد المسلمين سببه توقّعهم الهجاءَ والتجريح من قبل الأعداء، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾.

٨ ـ أعداء الإسلام متّحدون في هدفهم وأحياناً في أسلوبهم لضرب المسلمين، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ... وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

٩ ـ لن يقنع العدوّ بالقليل، ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾.

١٠ ـ سرّ النجاح في الصبر والتقوى معاً. فحتى أهل اللجاج ربّما يتمتّعون بالاستقامة لكنّهم تنقصهم التقوى، ﴿تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

١١ ـ الصبر والتقوى متلازمان، والدليل على ذلك ذكر كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهي للمفرد للإشارة إلى الصبر والتقوى، وهما اثنان.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

إشارات:

- عن الإمام الباقر عليه السلام قوله في هذه الآية: «.. **ذلك أنّ الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب في محمد ﷺ لتُبيّننّه للناس إذا خرج ولا تكتموه**»[1].

- إذا كان عالمنا اليوم يزخر بالملايين من أهل الكتاب (مسيحيين ويهوداً) فذلك بسبب صمت علمائهم عن قول الحقائق. فطبقاً لما جاء في تفسير أطيب البيان،

(١) بحار الأنوار، ج٩، ص١٩٢؛ تفسير القمي، ج١، ص١٢٨، نقلاً عن تفسير راهنما.

فقد بشّر الكتاب المقدّس (العهدين) في أكثر من ستين موضعاً بالإسلام وبالنبي الكريم ﷺ، غير أنّ علماء أهل الكتاب كتموا هذه البشارات وأخفوها.

التعاليم:

١ ـ لقد أخذ الله من العلماء عهداً خاصّاً بهداية الناس، ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾.

٢ ـ تبيان الحقائق للناس يجب أن يكون على نحوٍ لا تخفى معه أيّ خافية ولا غامضة، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

٣ ـ وظيفة العلماء أن يبيّنوا للناس الكتب السماوية، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾.

٤ ـ الدافع وراء صمت علماء أهل الكتاب عن بيان الحقّ هو المال والجاه أو المحافظة عليهما، ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٥ ـ العلم وحده لا يكفي لتحقيق السعادة والنجاة، بل يلزم أيضاً عدم الاكتراث للمال أو الجاه، ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ... وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٦ ـ كلّ ما يؤخذ في قبال كتمان آيات الله بخس وزهيد، ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٧ ـ العمل بمقرّرات الدين والأحكام الإلٰهيّة ذو قيمة عظيمة. التعيس هو من أضاع دينه مهما حقّق من مال وشهرة، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

إشارات:

□ الناس ثلاث فئات:

١ ـ فئة تعمل ولا تنتظر جزاءً ولا شكوراً، ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[١].

٢ ـ فئة تعمل رئاء الناس وفرحاً بحمدهم، ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[٢].

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٩. (٢) سورة النساء: الآية ٣٨.

٣ ـ وفئة ثالثة لا تعمل ومع ذلك تنتظر حمد الناس وثناءهم، ﴿يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ...﴾.

□ من الحالات التي تجوز فيها الغيبة حالة فضح من يدّعي موقعاً أو اختصاصاً أو مسؤولية لكنّه لا يصلح لأيٍّ منها، ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾.

□ ومنعاً لأيّ حمد بغير عمل، فقد حرّم الإسلام على المسلم التملّق والتزلّف والرياء.

التعاليم:

١ ـ الرذائل الأخلاقيّة كالعُجب والغرور وتوقّع التملّق من الناس كلّ ذلك يودي بالإنسان إلى الهلاك، ﴿يَفۡرَحُونَ... وَّيُحِبُّونَ... فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ﴾.

٢ ـ لا يجيز القرآن أيّ تحليل أو ملاحظة مسيئة لأيّ كان وأيّ موضوع، ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ... فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾. فالآيات التي تشرع بالكلمات ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾، ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾، ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ﴾ تشير إلى هذا المعنى.

٣ ـ لا يحاسب الله تعالى الإنسان على أفعاله فقط بل على نيّاته إن كانت خيراً أم شرّاً، ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ... وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، في الآية ١٩ من سورة النور يتوعّد الله تعالى الذين يحبّون نشر الفاحشة والرذيلة في المجتمع بالعذاب والثبور، ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ... لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

٤ ـ الخطر الأكبر هو توقّع الحمد، لا الشكر والثناء؛ لأنّ الحمد ينطوي على نوع من الثناء الممتزج بالعبادة، ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ﴾.

٥ ـ قد يندم المذنب فيتوب وينجو، لكنّ المغرور لا يفكّر حتى في التوبة فمن أين له النجاة؟ ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾.

٦ ـ المهووسون بأوهام الأنانية وعبيد سجن «الأنا» في الدنيا، كذلك هو حالهم في الآخرة، إذ سيُبتلون بعذابٍ من الله، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨٩﴾

إشارات:

□ حاكمية الله على الكون حقيقيّة لا اعتبارية، ذلك أنّ بقاء أيّ شيء بيده وحده. فهو يقول للشيء إذا أراد أن يوجده: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[١]، وإذا أراد محوه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢].

إنّ حاكميّة الله دائمة وخالدة، فيما تظلّ الحاكميّات غير الإلٰهيّة زائلة وعابرة، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣]، نعم، هذا النوع من الحاكميّات الحقيقيّة والدائمة هو حكرٌ على الله دون سواه، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾.

التعاليم:

١ ـ حيثما ورد في القرآن الكريم حديث عن حاكميّة الله تعالى، ذكرت السموات قبل الأرض، وفي ذلك إشارة إلى عظمة السموات وسعتها، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ ما أكثر الحكّام العاجزين عن تحقيق أمانيهم، في حين أنّ الله تعالى له الحاكمية وله القدرة على فعل كلّ شيء، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ... عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾

إشارات:

□ عن عطاء بن رباح قال: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ قالت: وأيّ شأنٍ لم يكن عجباً، إنّه أتاني ليلة فدخل معي في

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٧.
(٢) سورة فاطر: الآية ١٦.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

لحافي ثمّ قال: ذريني أتعبّد لربّي، فقام وتوضأ ثمّ قام يصلّي، فبكى حتى سالت دموعه على صدره فركع فبكى، ثمّ سجد فبكى، ثمّ رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم لا أفعل وقد أنزل عليّ هذه الليلة** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ثمّ قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها**»[1].

❑ وفي رواية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا قام لصلاة الليل يسوك، ثمّ ينظر إلى السماء ثمّ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾. وورد عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام الأمر بقراءة هذه الآيات[2].

❑ وعن نوف البكالي وهو من خلّص أصحاب الإمام علي عليه السلام أنّه قال: بتّ ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام، فكان يصلّي الليل كلّه، ويخرج ساعة بعد ساعة فينظر إلى السماء ويتلو القرآن ـ ويردّد هذه الآيات ـ فمرّ بي بعد هدوء الليل، فقال: «**يا نوف أراقد أنت أم رامق؟**»، قلت: بل رامق ببصري يا أمير المؤمنين. قال: «**يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتّخذاو الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن دثاراً والدعاء شعاراً...**»[3].

❑ «ألباب» جمع «لُبّ» وهو العقل الخالص عن شوائب النقص، والبعيد عن الوهم والخيال.

التعاليم:

١ ـ في خلق الكون هدف وغاية، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ... لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٢ ـ علم الوجود مقدمة لعلم اللاهوت، ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ... لَءَايَٰتٍ﴾.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي؛ تفسير القرطبي؛ وتفسير المراغي.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي؛ وتفسير مجمع البيان.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل.

٣ ـ العقلاء لا يرون أن اختلاف ساعات الليل والنهار طوال السنة، مجرد صدفة، ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ﴾.

٤ ـ يحثّ القرآن الناس على التدبّر في الخلق، ﴿خَلۡقِ... لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

٥ ـ الأكثر عقلاً هو الأكثر وعياً وإدراكاً لآيات الله، ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

٦ ـ يزخر عالم الخلق بالأسرار والدقائق والنظم، ولا يعي ذلك إلّا اللبيب الفطن، ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١)﴾

إشارات:

نقل عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله في الآية أعلاه: «**الصحيح يصلّي قائماً وقعوداً**، و«**المريض يصلّي جالساً، وَعَلَى جُنُوبِهِمْ الذي يكون الأضعف من المريض الذي يصلّي جالسا**»[١].

التعاليم:

١ ـ علامة التعقّل ذكر الله في كلّ الأحوال، ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ... ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾.

٢ ـ ينبغي لأهل الذكر أن يكونوا أهلاً للتعقّل والتدبّر، ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ... وَيَتَفَكَّرُونَ﴾.

٣ ـ قيمة الإيمان في التفكّر والتدبّر، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾.

٤ ـ الإيمان القيّم هو المقترن بالإقرار التامّ ولا ينبغي الاكتفاء بالإقرار اللساني، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ... رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ...﴾.

(١) تفسير البرهان؛ تفسير راهنما.

٥ ـ الذكر له قيمة حينما يقترن بالتفكّر. فإنّك تجد، للأسف، ثمّة من يذكر الله دون تفكّر، وهناك من يتفكّر ولا يذكر الله، ﴿يَذْكُرُونَ... وَيَتَفَكَّرُونَ﴾.

٦ ـ السبيل إلى الكمال والقرب الإلٰهيّ هو الذكر والتفكّر المستمرّ لا المؤقّت. لاحظ أنّ كلمتي ﴿يَذْكُرُونَ﴾ و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ جاءتا في صيغة الفعل المضارع في إشارة إلى الاستمرار.

٧ ـ المعرفة الحسّية بالطبيعة لا تكفي، إذ يلزمها التعقّل والتفكّر، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٨ ـ من يتفكّر في خلق السموات والأرض، سيوقن بأنّ خالق الكون هو خالقنا نحن أيضاً، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ... رَبَّنَآ﴾.

٩ ـ لم يخلق الكون عبثاً، لكنّا لا نفقه كنه جميع أسراره، ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

١٠ ـ الفكر والتعقّل أوّلاً، ثمّ الإيمان والعرفان ثانياً، فالدعاء والمناجاة، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ... رَبَّنَآ... فَقِنَا﴾.

١١ ـ إذا كان الكون لم يخلق عبثاً ولا باطلاً، فنحن أيضاً ينبغي ألّا تكون حياتنا عبثاً، ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا... فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

١٢ ـ وراء خلق الكون غاية، إذن، كلّما ابتعدنا عن الهدف الإلٰهيّ، اقتربنا، في المقابل، من النار، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

١٣ ـ حمد الله والثناء عليه قبل الدعاء، ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا...﴾.

١٤ ـ ثمرة العقل والتفكّر الخوف من يوم القيامة، ﴿لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ... فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾

إشارات:

❑ في تفسير العياشي: عن يونس بن ظبيان قال: سألت أبا جعفرالباقر عليه السلام عن

قول الله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ «**قال: ما لهم من أئمة يسمونهم بأسمائهم ويطلبون منهم الشفاعة**»[1].

التعاليم:

١ ـ نار القيامة لشديدة، لكن أشدّ منها على أولي الألباب الذين ينشدون الكرامة الإنسانيّة هو الخزي والفضيحة في ذلك اليوم العظيم، ﴿مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾.

٢ ـ الظالمون ما لهم من شفيع، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣)﴾

إشارات:

- ربّما كان المراد بـ«الذنوب» الكبائر، و«السيّئات» الصغائر، طبقاً لما ورد في الآية الشريفة ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾[2]، فكلمة «سيّئات» وردت في إزاء «الكبائر»، وقد يكون المقصود بالسيئات آثار الذنوب والمعاصي.
- في إزاء أولي الألباب الذين يلبّون دعوة الإيمان ويستجيبون لداعيها، يقول الذين يطوون عنها كشحاً: ﴿سَمِعْنَا﴾، لكنّهم يتجرّعون الحسرات في يوم القيامة ويقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ أولو الألباب، كلّهم آذان صاغية لدعوة الحقّ، فبعد أن استجابوا لنداء

(١) تفسير العيّاشي، ج١، ص ٢١١.
(٢) سورة النساء: الآية ٣١.
(٣) سورة الملك: الآية ١٠.

الفطرة، يستجيبون لدعوة الأنبياء والعلماء والشهداء، ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ...﴾.

٢ ـ الاستغفار والإقرار بالذنب دليل عقل وفطنة، ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ... رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٣ ـ من أدب الدعاء الذي يهيّئ مقدّمات العفو الإلٰهيّ، التوجّه إلى ربوبيّة الله تعالى، ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٤ ـ الإيمان باب لنيل المغفرة الإلٰهيّة، ﴿فَـَٔامَنَّا، فَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٥ ـ فلنتذكّر الآخرين في أدعيتنا، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٦ ـ الستر والعفو من سمات الربوبيّة وأحد أساليب التربية، ﴿رَبَّنَا... وَكَفِّرْ عَنَّا﴾.

٧ ـ موت الإنسان هو بمشيئة الله وإرادته، ﴿وَتَوَفَّنَا﴾.

٨ ـ الموت مع الأبرار أمنية يتمنّاها العقلاء بعيدو النظر، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

٩ ـ للصالحين والأبرار منزلة عظيمة يتمنّاها العقلاء، ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ... وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

إشارات:

- في هذه الآيات الكريمة يرسم الله تعالى مسار تكامل العقلاء وأولي الألباب عبر المحطّات التالية وعلى النحو التالي: ذكر الله، التفكّر، بلوغ الحكمة، التسليم للأنبياء، الاستغفار، الميتة الصالحة، انتظار شمولهم بالألطاف الإلٰهيّة، وأخيراً النجاة من الخزي والعار والذلّ في يوم القيامة.
- طرحت الآيات السابقة مسألة إيمان العقلاء بالله تعالى، وهنا تذكر الآية الكريمة الإيمان بالنبوّة، ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.
- تكرّر ذكر كلمة «ربّنا» في دعاء أولي الألباب، وهي تحكي عن ولههم بالربوبيّة الإلٰهيّة وعظيم حبّهم لخالقهم.

□ دعاء أولي الألباب يتضمّن تحقيق العزّة في الحياة الدنيا والدار الآخرة معاً. فعبارة ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ تتعلّق بالدنيا، حيث وعد الله سبحانه بنصرة أهل الحقّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[1]، فيما تعود عبارة: ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ إلى تحقيق العزّة في الآخرة.

التعاليم:

١ ـ الوفاء بالعهد من لوازم الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾.

٢ ـ الله تعالى منجزٌ وعده، لكن هذا لا يعفينا من الدعاء والابتهال إليه، ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾.

٣ ـ يؤمن أولو الألباب بجميع الأنبياء وبصدق جميع الوعود الإلٰهيّة، ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾.

٤ ـ غاية آمال العقلاء بلوغ الألطاف الإلٰهيّة والنجاة من عذاب الحريق والخزي في يوم القيامة، ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

٥ ـ لا بدّ من اقتران الخشية بالأمل، ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا... وَلَا تُخْزِنَا﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَـٰجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الدعاء الصاعد من تلافيف القلب، مستجاب لا محالة. لا شكّ في أنّ الدعاء المقرون بمواصلة ذكر الله؛ ﴿يَذْكُرُونَ﴾، وبالتدبّر والتفكر؛ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ وبحمد الله والثناء عليه، ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ مستجاب لا محالة، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

---

(١) سورة غافر: الآية ٥١.

٢ ـ دعاء أهل الفكر والذكر سريع الإجابة، ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾.

٣ ـ إجابة الدعاء، مظهر من مظاهر الربوبيّة الإلٰهيّة، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٤ ـ لا عمل بدون أجر بحسب الرؤية الإلٰهيّة، ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾.

٥ ـ الدعاء المستجاب هو الموصول بعمل الداعي وسعيه الدؤوب، وإن كان الدعاء نفسه نوعاً من العمل، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ... لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾.

٦ ـ العمل والعامل كلاهما محطّ اهتمام. صلاح العمل وصاحبه كلاهما موضع عناية واهتمام، ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾.

٧ ـ المؤمن فقط يؤجر على عمله، ذلك أنّ الله يحبط أعمال الكفّار فهي لا قيمة لها، ﴿عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾.

٨ ـ الرجل والمرأة متساويان عند الله في ارتقاء أعلى المدارج الإنسانية، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

٩ ـ جنس الرجل ليس أفضل من جنس المرأة، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

١٠ ـ المسلمون جسد واحد في المجتمع الإسلامي، ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

١١ ـ لن يدخل أحد الجنّة ما لم تمحَ ذنوبه وعيوبه، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ... وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾.

١٢ ـ الهجرة والجهاد والنفي وتحمّل المشاقّ في سبيل الله، كلّها أسباب للعفو الإلٰهيّ، ﴿هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ... لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ...﴾.

١٣ ـ الوطن حقّ معترف به في القرآن الكريم، وسلب هذا الحقّ ظلم، ﴿وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾.

١٤ ـ من أجل مواصلة طريق الله، لا بدّ من تحمّل الهجرة والنفي والعذاب والجهاد والشهادة، ﴿فِى سَبِيلِى﴾.

١٥ ـ لا ينبغي إقصاء الناس بسبب بعض الهفوات. فالآية الكريمة تتحدّث عن عقلاء كانوا من أولياء الله ومن أهل الجنّة، عفا الله عن زلّاتهم وستر عليهم عيوبهم، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾.

١٦ ـ يخصّ الله بعنايته وفضله العقلاء المؤمنين، ﴿لَآ أُضِيعُ... لَأُكَفِّرَنَّ... وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ...﴾؛ هذه الأفعال كلّها جاءت في صيغة المتكلّم. مضافاً إلى أنّ كلمة ﴿رَبُّهُمْ﴾ فيها إشارة إلى العناية الإلٰهيّة الخاصة بالعقلاء.

١٧ ـ لا نشكّ مثقال ذرّة في تحقّق الوعود الإلٰهيّة، لاحظ صدور الوعود في الآية بلغة توكيدية، ﴿إِنِّي... لَأُكَفِّرَنَّ... وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾.

١٨ ـ ربّما فقدت الجائزة قيمتها بتغيّر الزمان والمكان، إلّا الجوائز الإلٰهيّة فهي طبقاً لفطرة الإنسان وخلقه لا تفقد قيمتها أبداً، ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن...﴾.

١٩ ـ أنهار الجنّة تجري من تحت الأشجار؛ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ وكذا من تحت منازل أهل الجنّة، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾.

٢٠ ـ المغفرة والجنّة ثواب عام، بيد أنّ الثواب الخاصّ الذي يتناسب مع شأن الذات الإلٰهيّة المقدّسة والمؤمنين، هو ثواب من نوع آخر سرّه محفوظ عند الله ولا علم لنا بكنهه، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

٢١ ـ حسن الثواب الإلٰهيّ للناس لا يمكن وصفه بشكل كامل، ويكفي أن نعلم بأنّه أفضل من أيّ ثواب آخر، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

٢٢ ـ الثواب الإلٰهيّ مقرون بأنواع الكرامات، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

إشارات:

□ كان مشركو مكة ويهود المدينة أهل تجارة، وقد أتاح لهم ذلك الاستقرارَ والنعيمَ، بينما كان المسلمون يعانون الأمرّين بسبب الهجرة إلى المدينة ومصادرة أموالهم وثرواتهم ومعائشهم في مكّة، وكذلك ظروف الحصار الاقتصادي التي أطبقت عليهم؛ لذلك كانوا يعيشون أوضاعاً مزرية وعسرة شديدة، فنزلت هذه الآية لتسلّيهم وتخفّف عنهم.

□ وفي هذا يقول الإمام علي عليه السلام: «**ما خير بخير بعده النّار**»[1]. فاللذات الفانية عابرة والعذاب الأبدي للكافرين، بينما سينعم المؤمنون بعد الشدائد والعسر المؤقت بالراحة والاستقرار الأبدي.

التعاليم:

١ ـ الأنبياء أيضاً بحاجة إلى تنبيه، لئلا يقعوا تحت تأثير الإغراءات، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾.

٢ ـ لا يغرّنك إرسال العدو الوفود السياسيّة والاقتصادية والعسكرية وعقده الندوات واللقاءات الصحفية، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٣ ـ الملذّات الماديّة مهما عظمت تظلّ محدودة وتافهة، ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾.

٤ ـ ملذّات الكفّار ليست دليلاً على حقّانيتهم وحب الله لهم، ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

إشارات:

□ «**النزل**» ما يعدّ للنازل من زاد، وقيل: إنّه أوّل ما يقدّم إلى الضيف. وربّما كان المعنى أنّه في مقابل الرحلات التجارية للكفّار، الزموا أيّها المؤمنون دائرة التقوى والإيمان ولا تبرحوها، ذلك أنّ جنّات النعيم هي أوّل ما يقدّم لكم من المواهب الماديّة في يوم القيامة وليس آخره.

التعاليم:

١ ـ نعم الدنيا لا تساوي شيئاً يذكر بالنسبة لنعم الآخرة، ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ... وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٩٩.

٢ ـ لا ضير من السعي والترحال من أجل كسب المعاش في الدنيا، شرط المحافظة على التقوى والاهتمام بالمنافع الأخروية، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ... لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾.

٣ ـ الاهتمام بنعيم الجنّة الخالد، حافز على التقوى وعدم الانخداع بمتاع الدنيا القليل، ﴿ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ﴾.

٤ ـ مقام الأبرار أسمى من المتّقين، ﴿ٱتَّقَوْا۟، لَهُمْ جَنَّـٰتٌ، وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

إشارات:

□ يقول بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت في بعض المؤمنين من أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام، وكانوا أربعين شخصاً من أهل نجران، واثنين وثلاثين شخصاً من الحبشة وثمانية أشخاص من بلاد الروم(١).

فيما يرى مفسّرون آخرون: أنّ الآية نزلت في النجاشي ملك الحبشة الذي رحل عن الدنيا في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وعندما بلغ رسول الله ﷺ الخبر قال للناس: «**اخرجوا فصلّوا على أخٍ لكم مات بغير أرضكم**»، قالوا: ومن؟ قال: النجاشي، فخرج النبي ﷺ إلى البقيع وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه، فقال بعض المنافقين: انظروا إلى هذا يصلّي على علج نصراني حبشي لم يره قطّ وليس على دينه، فأنزل الله هذه الآية ردّاً على مقالتهم(٢).

التعاليم:

١ ـ يجب أن نضع الحقّ والإنصاف نصب أعيننا ونمتدح الخيّرين من أهل الكتاب، ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ...﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان؛ والتفسير الكبير للفخر الرازي. (٢) تفسير الدرّ المنثور.

٢ ـ لكل أهل دين شطحات وإصابات، فأهل الكتاب ليسوا سواء، إذا كانت هناك فئة تكفر وتكتم الحقائق، ففي المقابل، هناك فئة تؤمن وهي خاشعة، ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ﴾.

٣ ـ لا قيمة للإيمان ما لم يكن مقروناً بالخشوع، ﴿خَٰشِعِينَ﴾، والشمولية ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾، ويكون راسخاً لا تغيّره العوامل المادّية، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٤ ـ ثمن التخلّي عن الدين بخس وزهيد مهما غلا السعر، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

إشارات:

- الآية الكريمة تطرح موضوع الصبر على المكاره والمصائب على أربع مراحل؛ المرحلة الأولى، الصبر في وجه الحوادث والأهواء الشخصيّة، ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾. المرحلة الثانية الصمود والثبات بوجه مضايقات الكفّار وضغوطهم. ﴿وَصَابِرُوا۟﴾، المرحلة الثالثة، حفظ الحدود الجغرافية والثغور من حملات الأعداء، وأخيراً صيانة ثغور العقيدة والفكر، وذلك عبر طرح البحوث العلمية وتحصين أسوار القلب بوجه الوساوس، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾.
- «**رابطوا**» مشتقّة من مادّة «**رباط**» وتعني ربط الشيء في مكان، ولهذا السبب يقال للمضائف: رباط لتوقّف القوافل فيها للاستراحة وإيداع أموالها من التجارة وخيولها وإبلها هناك. كما يقال: رُباط للقلب رابط الجأش، وهو المطمئن الذي شدّت نياطه إلى لطف الله. هذا وتعود الكلمات «ارتباط»، «مربوط» و«رباط» إلى أصل واحد.
- وقد ورد في الروايات أنّ «**رابطوا**» تأتي بمعنى انتظار الصلاة بعد الصلاة[١]. وكأنّ المسلم يحكم من رباط قلبه وروحه في الصلاة.

---

(١) تفسير مجمع البيان.

□ يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«اصبروا على الفرائض».

«صابروا على المصائب».

«ورابطوا على الأئمّة»(١).

□ كما نقل عن رسول الله ﷺ قوله: **«اصبروا على الصَّلَوات الخمس وصابروا على قتال عدوّكم بالسيف ورابطوا في سبيل اللّه لعلّكم تفلحون»**(٢).

التعاليم:

١ ـ في ظلّ الإيمان نرتقي إلى الكمال، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟...﴾.

٢ ـ ما لم يصبر الإنسان على الشدائد، لن يصمد أمام أعداء الدين. في البدء ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ ثمّ ﴿وَصَابِرُوا۟﴾.

٣ ـ لا تتخلّفوا عن ركب الآخرين، فإذا كان الكفّار يدافعون عن كفرهم، ويُقتلون، وينفقون الأموال، فأولى بكم أن تدفعوا عنكم العدوّ بالأموال والأنفس، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾.

٤ ـ على المسلمين أن يتحمّل بعضهم بعضاً، ويصابر بعضهم بعضاً، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾.

٥ ـ الإسلام دين التواصل، التواصل مع الناس ومع الله ومع الأنبياء، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾.

٦ ـ ينبغي أن يكون للصبر والمصابرة والمرابطة وجهة وهدف، وفي طريق تقوى الله ومرضاته، وإلّا فالكفّار أيضاً يحملون هذه المفاهيم، ﴿وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٧ ـ الإسلام دين شامل وجامع، فهو يطرح الصبر والتقوى إلى جانب حفظ الثغور، ﴿ٱصْبِرُوا۟... وَرَابِطُوا۟﴾.

٨ ـ التقوى أعلى درجة من الإيمان، ﴿ءَامَنُوا۟... وَٱتَّقُوا۟﴾.

٩ ـ الصبر باب يوصل إلى السعادة والنصر، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»

(١) الكافي، ج٢، ص ٨١.

(٢) تفسير الدرّ المنثور، ج٢، ص٤١٨.

الفهرس